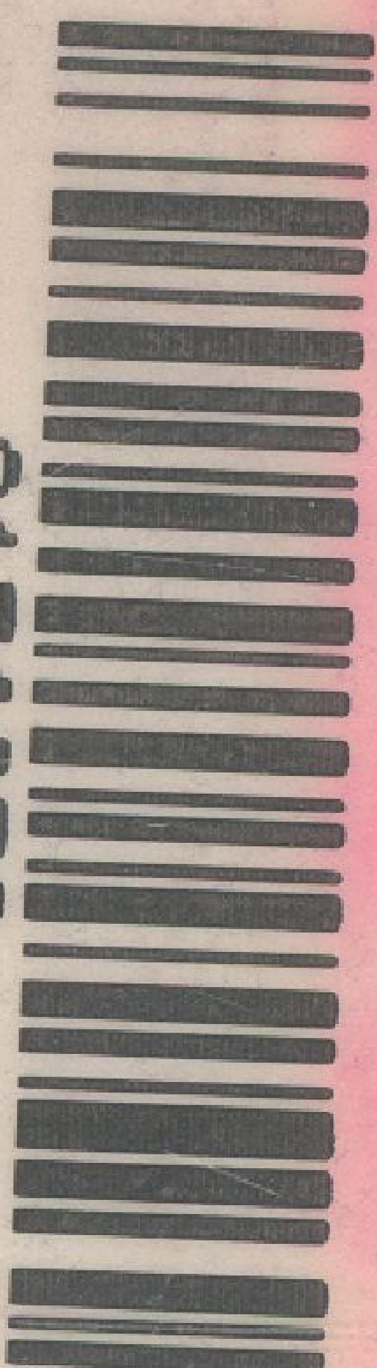



# كتاب الهلال



# الدكتور زيفاجو

الجزء الثاني

بوريس باسترناك

# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

---

**العدد ١٠٦ — رجب ١٣٧٩ — يناير ١٩٦٠**

**No. 106 — January 1960**

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

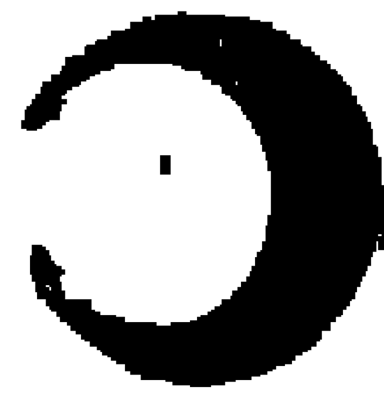
**المكاتبات**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ — اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا — السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا — فى الامريكتين ٢/١ ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

# الدكتور زيفاجو

## ١٩٥٨

بقلم

بوريس باسترناك

## الجزء الثاني

---

# خلاصة الجزء الأول

يوري فتى يتيم ، ماتت أمه التى كان يحبها حب العبادة . أما أبوه فكان مليونيرا مقامرا سكيرا متلافا ، هجر والدته منذ سنوات ، فتعهده بالتربية خاله • وآل أمه ثراة وعلماء فى الكيمياء وأساتذة أدب وحكمة . وبعد فترة وجيزة مات والده منتحرا بعد أن تهدده الافلاس ، بأن ألقى نفسه من القطار السريع ، على مقربة من مزرعة كان يورى يزورها مع خاله نيقولا الكاتب الاجتماعى التقدمى

وفى هذه الفترة استقرت فى موسكو سيدة فرنسية الاصل اسمها مدام جيشار ، مات زوجها المهندس البلجيكى بجبال الاورال . وترك لها ثروة ضئيلة وطفلة وطفلا . فقامت بتأسيس مصنع للثياب ، وساعدها فى الادارة وقضاء المصالح صديق قديم لزوجها هو المحامى « كوماروفسكى » ، ولم يلبث أن صار عشيقها . وذهبت الطفلة لارا الى المدرسة وكذلك أخوها الصغير ..

وبمرور الزمن بدأت رياح الحياة تهب على الجيل الناشىء ، فبلغ يورى مبلغ الشباب الباكر ، وكذلك الفتاة لارا . ودخل يورى مدرسة الطب . وكان فتى شاعرى النزعة، صافى النفس ، ذكى الفؤاد . وصارت لارا فاتنة قوية الشخصية مستقيمة الاحساس والتفكير . ولكن الفتى والفتاة كانا من عالمين منفصلين تماما .. الى أن جمعتهما صدفة غريبة

ففي ذات ليلة ، وقد أقام أحد أخوال يورى حفلا موسيقيا،

كان العازف الاكبر فيه شابا موسيقيا يقطن الحجرة المجاورة لحجرة مدام جيشار فى الفندق ، وفى أوج الحفلة حضرت خادمة الفندق لتستدعى الموسيقى على عجل لأن مدام جيشار شربت السم . وأسرع رب الدار فى صحبة الموسيقى وذهب معهما يورى . وهناك رأى لارا لاول مرة .. ولكنها كانت رؤية عابرة لم تثمر فى حينها شيئا . ورأى المحامى الداعر كوماروفسكى وهو يداعب الشابة لارا فى ركن مظلم مداعبة تدل على التواطؤ . وفعلا كان المحامى على علاقة بالفتاة . غرر بها واغتصبها وطبع نفسيتها بطابع الحقد والمرارة والتمرد

وفى تلك الفترة احب يورى ابنة خاله « تونيا » وأحبته ، وأعلنت خطبتهما ، وتم الزواج على أثر تخرجه فى مدرسة الطب بدرجة ممتازة .

وفى الوقت نفسه كان « باشا انتيبوف » الطالب النابغة ابن أحد عمال السكة الحديدية قد اغرم بالفتاة لارا . وكانت لارا تختلف الى الجامعة بقصد اتمام دراستها وسلوك طريق مستقل فى الحياة ، كى تكون بمنجاة من سيطرة قوى الشر المتمثلة فى كوماروفسكى ..

وباشا انتيبوف شاب طاهر القلب والعقل ، صاحب مبادىء سامية ، ومتبحر فى الرياضيات والآداب القديمة والاقتصاد السياسى . وبمجرد تخرجه تزوج لارا ورحلا الى الاورال . وبنشوب الحرب العالمية الاولى نرى الجيل كله وقد انخرط فى سلك الجندية ، حتى لارا نفسها تطوعت ممرضة فى مستشفيات الجبهة ، عسى أن تعثر هناك على خبر أو اثر لزوجها باشا انتيبوف الذى انقطعت عنها كل اخباره ، وقيل لها انه مفقود ، ولكن قلبها اكد لها انه لم يمت ، وأنه على قيد الحياة فى مكان ما

وفى السنوات القليلة السابقة على الحرب كانت لارا قد انجبت طفلة أسمها كاتيا ، وكان يورى قد انجب طفلا وطفلة هما ساشا وماشا . وجميع هؤلاء الاطفال هجرهم ذووهم بسبب الاعمال العسكرية فى خط النار ..

وفى أواخر الحرب ، فى سنة ١٩١٧ اندلعت الثورة الروسية البلشفية ، ونشبت الحرب الاهلية ، وعاد كثيرون من الاسرى الروس فى المانيا لكي ينضموا الى الجيش الاحمر .. ومن بين هؤلاء كان باشا انتيبوف ووالده . أما باشا فاتخذ اسما مستعارا هو سترلينكوف .

ووجد يورى المثقف الشاعر نفسه فى ازمة فكرية ، فقرر اعتزال العمل ، بعد ان اصيب بجرح وشفى منه ، وصمم على الرحيل الى موسكو . وبدأت بذلك رحلة من أشق الرحلات ، يسودها الاضطراب الذى خلفته الثورة . وتعرض يورى للهلاك أكثر من مرة . وفى موسكو كانت الحياة شاقة للغاية ، لقلة المؤن ، ووسائل التدفئة وسيادة الفوضى التامة لجميع المرافق . فمرض يورى وكاد يهلك لولا معونة أخيه غير الشقيق « افجراف » الذى كان له فى الحكومة الجديدة نفوذ غامض .

وبعد شفائه ، قرر يورى ان يرحل بالاسرة وحميه الى مزرعتهم القديمة فى جبال الاورال . وكانت الرحلة عذابا مقيما ، لايدرون متى ولا كيف ينتهى .. فالخطوط مقطوعة أو مطمورة بالثلج ، والفحم قليل ، والمئونة نادرة ، والعربات اشبه بعربات الحيوانات . وحركات التمرد تهدد الحياة . والحرائق تأكل القرى على طول الطريق ...

وفى احدى وقفات القطار ، تعرض يورى للقبض عليه بتهمة الارستقراطية . وكان الحاكم هو سترلينكوف ، أو باشا انتيبوف . ولكن كلا منهما تجاهل الآخر . وانتهى الامر بسلام .. واستأنف القطار سيره نحو الاورال

# شخصيات الكتاب

- انتيبوف ( أو « باقل » أو « باشا » أو « باشكا »)بن Antipov باقل وداريا فيليموفوفنا • مدرس ثم جنرال في الجيش الثورى الاحمر تحت اسم سترلينكوف « Strelnikov »
- لارا أو « لاريسا » انتيبوفا Antipova بنت مدام جيشار Lara وزوجة انتيبوف ، ولهما ابنة هى كاتيا Katia
- فاسيا أو « بريكين » ،فتى من العمال المجندين للسخرة، Vassia ورفيق الدكتور زيفاجو فى سفره
- مارينكا أو « مارينا » ابنة الحمال ماركل Markel وخليلة Marinka الدكتور زيفاجو الاخيرة
- نيكا أو دودوروف ، ابن فوضوى مشـــهور من الاميرة Nika نينا • وصديق زيفاجو
- جاليولين ابن البواب هماز الدين وفاطمة • ميكانيكى ثم Galiouline جنرال فى الجيش الابيض مدة الثورة
- جوردون أو « ميشا » ، ابن محام يهودى وصديق زيفاجو Gordon
- جرومیکو أو «اسكندر» ، استاذ جامعي وزوج أنا Anna Gromika وله منها ابنة هى « أنتونينا »
- تونيا أو انتونينا ، زوجة زيفاجو • ولهـــا منه طفـــلان Tonia الصبى ساشا والفتاة ماشا

- مدام جيشار أو اميلى ، فرنسية أرملة مهندس بلجيكي Guichard وأم « روديا » Rodia ولارا Lara
- يورى أو يورا ، Youri وهو الدكتور زيفاجو ، ابن رجل من رجال الصناعة الاثرياء فى سيبيريا ، وأمه ماريا نيقولايفنا
- جرانيا Grania زيفاجو ، اخو الدكتور غير الشقيق
- كولوجريفوف Kologrivov رجل ثرى من رجال الصناعة ، ووالد ناديا ، وليبا ، وهما زميلتا لارا فى المدرسة
- كوماروفسكى Komarovski محام وسياسى ، عشيق مدام جيشار وحاميها ، ثم عشيق ابنتها لارا
- نيقولاى نيقولايفيتش ، أو العم كوليا ، خال الدكتور Nicolaï زيفاجو ، كاتب فيلسوف تقدمى
- ماشا Macha تصغير ماريا ، ابنة انتونينا والدكتور زيفاجو
- ساشا أو ساشنكا ، او شورى ، تصغير أسكندر Sacha ابن انتونينا والدكتور زيفاجو وشقيق ماشا
- سامديفياتوف Samdéviatov موظف بلشفى كبير وحامى زيفاجو
- تانيا Tania ابنة لارا أنتيبوفا من الدكتور زيفاجو
- تيفرزين Tiverzine ابن عامل بالسكة الحديدية ، وهو ايضا عامل بها ، ثم صار عضوا في محكمة ثورية مع صديقه أنتيبوف

# الجزء الثانى

## الفصل الثامن

# نهاية الرحلة

وقف القطار الذى يقل عائلة يورى ( زيفاجو ) على الرصيف، تحجبه عن المحطـة بضعة قطارات أخر ، وكانوا حتى هـذه اللحظة يعتبرون أن اتصالهم بموسكو قد انتهى ، وأنهم فى طريقهم الى بلاد أخر ريفية لهـا طابعهـا الخاص . وأبرز صفات سكان هذه البلاد التعاطف والتآخى

وكانت المنطقة قد أخليت من المدنيين ، واحاطت بها وحدات الجيش الاحمر ، وبالرغم من ذلك كان المسافرون يقدحون أفكارهم فتتفتق عن وسائل عجيبة للتسلل الى العربات ، ثم يتدافعون من الابواب ، ويتنقلون بين مقدمة القطار ومؤخرته ، فى جماعات

وأخيرا لمح المسافرون يورى يعود وبرفقته خفير بسلاحه ، وقد ضربت الشمس بأشعتها سطوح العربات والقضبان ، وأضفت على بقع الزيت لونا أصفر ، فامتدت الايدى خارج العربة ترحب بعودته وتساعده على الصعود ، فقدر يورى لهم شعورهم ، وقال :

ــ شكرا ... سأصعد اليكم

وفى خفة الغزال قفز الى العربة ، وكان أول ما فعله أن عانق تونيا ( انتونينا ) ، وفى لهفة قالت له :

ــ حمدا لله ... انتهى الامر بسلام ، لقد كنا نشعر من أعماقنا بذلك

ــ وهل كنتم على علم بما جرى ؟

ــ كنا على علم بكل شيء خطوة خطوة !

ــ كيف كان ذلك ؟

ــ وهل كان فى مقدورنا أن ننتظر ، لولا أن أخبرنا الخفراء . لقد كدنا ــ أنا والوالد ــ نفقد صوابنا ! أترى كيف راح فى سبات عميق ، ولا يمكن ايقاظه ، فقد أرهقه الضيق . سأعرفك بمن جد من المسافرين ، هل تعلم أن الجميع لا حديث لهم سواك ، وهم يهنئونك ؟ !

وفجأة استدارت وعادت تقول لزوجها :

ــ هذا أحد المسافرين الجدد الذين حدثتك عنهم

فقدم المسافر نفسه ، قائلا :

ــ سامديفياتوف

ذكر اسمه وهو يشق طريقه نحوهما ، وقد رفع قبعته ثم عاد يقول :

ــ هل أخذتك الرهبة وتملكك الخوف من سترلينكوف ؟ قل الحق !

ــ كلا ! فقد كان حديثنا وديا ، ان شخصيته فذة وقوية !

ــ أغلب ظنى أنه من موسكو ، وليس من هذه الجهات

وقطعت تونيا حديثهما حين قالت ليورى :

ــ هاهو ذا أنفيم أفيموفيتش ، يقول ان لديه معلومات عنك وعن أبيك ، كما يعرف جدى ، بل يعرفنا جميعا

ثم أردفت :

ــ أظن أنك تعرف أنتيبوفا أيضا . . . المغلمة !

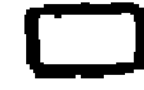
فقال سامديفياتوف دون أن يعطى اهتماما لملاحظتها :

ــ ماذا تقصدين ؟

على أن يورى لم يشترك فى هذا الحديث ، فاستطردت تونيا موجهة الكلام الى زوجها :

ــ يورى . . . أرجو ان تعلم أن أنفيم أفيموفيتش بلشفى ،

ويجب أن تكون حذرا عندما تتحدث بقربه
ـ لقد ظننت أنه مجرد فنان ، ولم يدر ذلك بخلدى حقا !



لم تنقطع الحركة فى المحطة ، فكانت تقطر عربات ، وتفصل أخر ، والقطار ينقل من خط الى آخر . والمدينة أمامهم تمتد على مدى البصر ، يحجب الريف المنبسط بعض معالمها ، ولكن سطوحها العالية كانت تظهر للعين ، وكذلك ابراج الكنائس بصلبانها ومداخن المصانع ، وقد لمح القوم احدى الضــواحى تحترق وقد امتدت ألسنة الدخان من عل

وجلس يورى وسامديفياتوف على أرض العربة ، وقد سرح سامديفياتوف ببصره ، وجعل يوضح ليورى مايريانه . وكانت زمجرة القطار تطغى على صوته ، فيضطر الى الانحناء نحو اذن يورى ، الذى يقاطعه هو الآخر :

ـ هذه دار سينما ، احرقوها ، وقد كانت محتلة ببعض ضباط الاحتياط الذين استسلموا ، ولكن القتال لايزال دائرا ... هل ترى تلك البقع القاتمة التى تعلو قبة الكنيسة ؟. انهم رجالنا يمطرون التشيكيين برصاصهم

قال سامديفياتوف ، وقد غابت عن ناظره ملامح المدينة المحترقة ، والخزانات وعمد التلغراف ، وطالعته مناظر التلال والاحراج :

ـ هيا بنا نعد الى مقاعدنا ، فبعد قليل سأغادر القطار ، كما ان محطتكم بعد المحطة التالية ، حاذر ان تفوتك

ـ لعلك ملم بدقائق هذه المنطقة !

ـ كما أعرف كل شبر فى بيتى ، ان عملى كمحام يجعلنى كثير التنقل

ـ حتى الآن

ــ نعم
ــ وهل توجد أعمال فى هذه الايام ؟
ــ صفقات قديمة لم تنته بعد ، أعمال تجارية ، مقاولات ، عندى منها الكثير !
ــ ألم يقض النظام الجديد على هذه الاعمال ؟
ــ اسميا لا فعليا ، والناس يمارسون نشاطهم ، وفى كثير من الاحيان بطريق المقايضة . أممت كل المؤسسات ، ولكن مجلس السوفييت المحلى فى حاجــة الى الوقود ، والمجلس الاقتصادى يحتاج الى ما ينقل عليه المؤن ، وكل فرد يريد أن يعيش . انها فترة انتقال ، هنــــاك فرق بين النظريات والتطبيق ، وهذا الوقت يحتاج الى كل ماهر، وبارك الله فيمن يغضى ، اننى مازلت أذكر كلمة قالها والدى « لكل ضر سبب » اسمع ياعزيزى .. ان أغلب أهالى المقاطعة يعتمدون على الماثل أمامك فى معيشتهم .. قد أكون ذا فائدة لكم فى فاريكينو ، فان صلتى بآل ميكوليتسين طيبة
ــ أتدرى لماذا نحن ذاهبون الى هناك ، وماذا سنفعل ؟
ــ الى حد ما ... حنين الانسان لمسقط رأسه ، والامل فى الحياة بعرق الجبين
ــ ألا يروق لك ذلك ؟
ــ أمر يدل على السذاجة ، أتمنى لكم الحظ والتوفيق
ــ هل يمكنك أن تخبرنى كيف سيستقبلنا ميكوليتسين ، قوميسير المنطقة ؟
ــ أسوأ استقبال ! سيمنعكم من الدخول ، بل سيطردكم ويلهب ظهوركم بالعصى ، وهو فى ذلك محق ! فهو فى محنة ، والحالة كما ترى : مصانع مقفلة ، عمال عاطلون ، لا طعــــام ولا شراب ، ثم تأتون . لئن قتلكم فلا يلام
ــ هذا رأيك ... انك بلشفى ، ومع ذلك تقرر أن ما يجرى

الآن ليس حياة ، بل انه كابوس وجنون

ــ لا شك انه كذلك ، ولكنه أمر محتوم مكتوب علينـــا ، ويتحتم علينا تقبله

ــ ولماذا تقول محتوم ومقدر ؟ ألا يمكن تجنبه ؟

ــ أتتكلم بلغة الاطفال ، أم انك تتظاهر بذلك ؟ هل أنت قادم من المريخ ؟ الرأسماليون الجشعون يقفون خلف صفوف العمال الخاوية بطونهم ويقذفون بهم الى الموت ! ولكن هل تظن أن الامور ستبقى هكذا ، دون أن تتطور الى ما هو أشد سوءا ، هل غاب عن ذهنك أن الشعب محق فى غضبته ونزوعه للعدالة والمساواة ؟ أم تظن أن تغييرا شاملا يمكن أن يحدث بالطرق البرلمانية ؟



نزح ميكوليتسين من بطرسبرج ، واستوطن هذا المكان منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما ، وكان فى ذلك الوقت طالبا فى المعهد الصناعى ، ثم أبعد ووضع تحت الرقابة . فلمـا حط رحاله ، اشتغل مديرا لاملاك أحد أصحاب الضياع يدعى كروجر الذى كان له فى ذلك الوقت أربع أخوات ، اشتهرن بالجمال ، مما جعل الشبان يتهافتون عليهن ، وقد تزوج ميكوليتسين اكبرهن سنا

وبعد فترة رزقا بولد ، خلع عليه أبوه ــ لحبه للحرية ــ اسما غريبا . اذ سماه « ليبريوس » أو ليفكا ، وقد شب مشربا بالشراسة ، ولكنه ماهر فى كل مايفعله . كان فى الخامســة عشرة عندما نشبت الحرب ، فذهب الى الجبهة متطوعا بعد أن زور شهادة ميلاده ، ولقد ماتت أمه عند اندلاع الثورة اذ لم تحتمل تلك الصدمة

ووضعت الحرب أوزارها ، وعاد ليبريوس الى داره « بطلا »

برتبة ملازم ، تزين صدره أوسمة ثلاثة ، وطبيعى أنه تشرب بالبلشفية

ـ هل سمعت عن « آخوان الغابة ؟ »

ـ لا أظن

ـ اذن لاداعى لسرد القصة ، لماذا تحدق هكذا خارج النافذة ؟ ماذا يدهشك من مناظر الطرق العامة ؟ الانصار ... انهم عصب جيش الثورة فى هذه الحرب الاهلية ، ان أهم ما تتسم به قوة هذا الجيش : التنظيم الذى استولى على زعامة الثورة ، والجندى الذى رفض بعد الحرب الاخيرة اطاعة السلطات السابقة . ومن هذين العاملين ولد جيش الانصار ومعظمهم من الفلاحين الرقيقى الحال ولكن كان معهم بعض الرهبان المجردين من كهنوتهم ، وبعض الفوضويين ، وأناس ليس لهم لون سياسى ، وبعض الطلاب الذين فصلوا لسوء سلوكهم ، وكذلك أسرى حرب من الالمان والنمساويين غرر بهم ووعدوا بالحرية والعودة الى الاوطان . واحدى وحدات هذا الجيش المختلط تدعى « اخوان الغابة » وعلى رأسهم الرفيق ليبريوس بن أفيركى ستيبانوفيتش ميكوليتسين

ـ هل تعنى ما تقول ؟

ـ تماما ، دعنى أتابع القصة . فقد ماتت زوجة أفيركى ستيبانوفيتش ، فتزوج مرة ثانية ... تزوج ايلينا بروكلوفنا ، وكانت لا تزال طالبة ، طيبة الى درجة السذاجة . وكانت صغيرة السن ، ورغم ذلك كانت تتظاهر بأنها أصغر مما هى . فتفعل مثلما تفعل الفتيات الصغيرات . وعندما تراك تبادرك بأسئلة غاية فى الغرابة ، وسترى كل ذلك بنفسك بعد لحظات . أما الرجل العجوز فله طباعه ، وقد درس الهندسة البحرية ، وهو يواظب على حلق ذقنه ، وغليونه لايفارق فمه ، ولذا يتكلم من بين اسنانه ، فكه الاسفل بارز بشكل ملحوظ ، وهو

بالاضافة الى ذلك ثورى اشتراكى ، انتخب نائبا عن المنطقة فى الجمعية التأسيسية

ـ اذن فالوالد والولد عدوان سياسيان !؟

ـ هما كذلك نظريا ، ولكن فى الواقع ، الغـابة لا تحارب فاريكينو ... دعنى أكمل القصة ، ان الاخوات الثـلاث الاخريات ، اخوات زوجة ميـكوليتسين الاولى ، يعشن فى يورياتين حتى الآن ـ كلهن عوانس ، وقد تغيرت الايام ، وتغيرت معها البنات كذلك . والآن حان الوقت لأتوقف عن الحديث ، فقد اقتربنا ... هذه محطتى ، ومحطتكم هى التالية ، وأفضل أن تستعدوا

وقالت تونيا ، بعد أن غادر سامديفياتوف القطار :

ـ اننى أشعر أنه رجل طيب ، ولو أننى لا أدرى ما رأيك فيه ، لكنى أرجح أنه سيكون طالع سعد فى حياتنا

ـ هذا جائز ياتونيا ، ولكن ما يزعجنى هو أن الجميـع يعتقدون أنك حفيـدة كروجر ، المشهور ، وقد سـألنى سترلينكوف عندما قلت له ان مقصدنا فاريكينو عما اذا كنا ورثة كروجر !

ثم استطرد يورى يقول :

ـ لقد غادرنا موسكو وكنت أظن أننا سنكون فى أمان ، ولكن يظهر ان الشك يحوم حولنا ، ولا أدرى ماذا يمكن أن نعمله ازاء ذلك ، كما أن الندم لا يجدى . وعلى العموم ، خير لنا ان نتمسك بهدوئنا ، وأن نظل كما نحن فى المؤخرة ... أننى لا أشعر باطمئنان ، لقد اقتربنا ، هيا نوقظ الآخرين ونستعد



على رصيف محطـة تورفيانايا ، وقفت تونيا مع أفراد الاسرة وتملكهـا القلق ، وقـد ظل طنـين العجـلات

الرتيب يرن فى أذنيها ، رغم أن القطار كان ساكنا لا يتحرك ، فحال ذلك دون التفكير السليم

واخذ المسافرون يلوحون لها من القطار باشارات الوداع ؛ ولكنها ، وقد سبحت بها الافكار ، لم تتنبه اليهم ، بل أنها لم تشعر أن القطار قد تحرك الا بعد أن وجدت أمامها السماء الزرقاء والحقول الخضراء

وجلس أفراد أسرة زيفاجو على مقاعد المحطة وقد وضعوا حقائبهم على الارض ، وكانوا هم الوحيدين الذين نزلوا فى هذه المحطة ، وقد أدهشهم سكونها ونظافتها ، اذ كانت على النقيض من المحطات الكبرى التى تزدحم بالاصوات الصاخبة ويعلو فيها الضجيج

وتحيط بالمحطة غابة ، كانت أشجارها تهتز حينما يخترقها قطار ، فكانت ظلالها تتحرك فى هدوء فوق وجوههم وأجسامهم، وفوق الارض والجدران . وكان الجو باردا ، وزقزقة العصافير توحى بشعور غريب وهى تحلق فوق الغابة ، شعور بالطهر ينبىء بالحياة الطبيعية الساذجة . ولم يكن فى الغابة سوى طريقين : طريق السكة الحديدية ، والطريق الريفى ، وكلاهما تعلوه أغصان الاشجار

وتجلى كل شىء فجأة أمام ناظرى تونيا : جمال الطبيعة ، أصوات العصافير وهى تغرد أغاريد لا يفهم معناها الا خالقها ، هدوء الغابات ، السكون الشامل الذى لايعكره ضجيج وصخب المدن

ودار بذهنها أنهم لن يصلوا سالمين، وأنمسلك سترلينكوف ليس الا مجرد تظاهر بالكرم ، وانه لن يلبث حتى يلاحقهم باشارة برقية يأمر فيها باحتجازهم فور وصولهم ، لانها ــ فى هذه الايام خاصة ــ لا تثق بالعواطف النبيلة ، وتعتقد أن الخداع ديدنهم

وانبسطت أمامها مناظر الطبيعة الساحرة ، فنسيت ما جال بذهنها ولم تلبث أن صاحت :

ــ ما أجملها !

ثم انفجرت تبكى

وعلى صوت بكائها ، تقدم نحوهم رجل مسن : لاح من سترته انه ناظر المحطة ، وسألهم فى تأدب ، بعد أن حياهم بلمس قبعته

ــ يظهر أن أعصاب السيدة متعبة ، فهل ترغب فى مهدىء للأعصاب ؟ انه لدينا فى الخزانة الطبية

فقال الكسندروفيتش :

ــ شكرا . شكرا . ستتحسن بعد لحظة ، ان الامر لا يدعو الى القلق ، لقــــد ائتمر عليها قلق الرحلة ومتاعبها ، والحر القائظ ... وأحداث يوريانتين ، فقد شاهدنا النار ونحن فى القطار

ــ هل أنتم من الروسيا الوسطى ؟

ــ من صميمها !

ــ من موسكو اذن ! وكيف تفقد السيدة أعصــــابها ، وهم يقولون أن موسكو أضحت خرابا

ــ انهم يبالغون ، على أننا رأينا الكثير . انها ابنتى ، وهذا زوجها ، وهذا طفلهما الصغير ، أما هذه فممرضته نيوشا

ــ آه ... هؤلاء أنتم اذن ! كيف حالكم ؟ يسرنى أن أراكم ، فقد اتصل سامديفياتوف تليفونيا من ساكما ، وأخبرنى أن

ــ الدكتور زيفاجو صهرى ، وها هو ذا ، أما أنا فاسمى الدكتور زيفاجو وأسرته فى طريقهم الى هنا من موسكو ، وطلب منى أن أقدم أقصى ما يمكن من المساعدة

جروميكو ، اننى أستاذ فى الزراعة

ــ معذرة ان كنت قد أخطأت ، تسرنى رؤيتكم ويشرفنى

التعرف بكم

ـ اذن فأنت صديق لسامديفياتوف ؟

ـ من هنا من لا يعرفه ؟ ذلك الكادح العجيب ، انك لا تتصور كيف تكون حالنا بدونه ، كان الموت يدركنا ولا شك ، لقد طلب الى أن أقدم ما استطيع من المساعدة ، وطبعا أجبته بأن ذلك يسعدنى . أرجو أن أعرف ما أنتم بحاجة اليه ، هل تريدون حصانا ؟ الى أين تقصدون ؟

ـ فاريكينو وجهتنا ، هل هى بعيدة ؟

ـ فاريكينو ! أننى لادهش بمن تذكرنى ابنتك ! هذا يفسر الامر ! ان كروجر الشيخ ، والماثل أمامكم ، بنينا هذه الطريق معا . سأبحث عن حصان ، وسـأدعو رجالى ليبحثوا عن عربة

ثم خاطب أحد الرجال قائلا :

ـ دونات ، خذ هذه الحقائب الى حجرة الانتظار ، ثم أسرع الى المقصف وأعد ما يمكن لهؤلاء الضيوف الكرام . الحصان كان مربوطا هنا فى الصباح ، الا يزال فى مكانه ؟ أخبرهم أن أربعة مسافرين الى فاريكينو قد وصلوا لتوهم ومعهم بعض الحقائب الثقيلة ... أسرع ... أما أنت يا سيدتى ، فأنصحك ان تكونى حذرة فيما تذكرينه عن نسبك . ومن الخطر أن تتحدثى طويلا مع الناس فى هذه الايام

كان الجواد فرسا بيضاء وضعت منذ أمد قصير ، أما السائق فعجوز مترهل الجسم ، شعره ابيض مشعث ، ولم يكن شعره فقط هو الابيض ، بل كان كذلك حذاؤه الجديد ، وقميصه ولباسه قد استحالا الى بياض لقدمهما

وأخذ المهر ، بلونه الاسود الفاحم ، يتبختر وراء أمه بناصيته القصيرة ، وهو يضرب الارض بقوائمه الصغيرة

واستند المسافرون الى جدران العربة ، وهى تقفز على طريق

وعر وقد اطمأنت قلوبهم ، الى انهم قاب قوسين أو أدنى من نهاية الرحلة ، وأن حلمهم قد تحقق ، وقد أخذت ســـاعات النهار تتهادى ، لتطيل من صفاء النهار وبهائه

وكانت العربة تخترق بعض الغابات أحيانا ، وبعض الحقول أحيانا أخرى ، فكانوا ينزعجون كلما اصطدمت عجلاتها بجذر بارز ، فيتملكهم الخوف ، ويلتصقون ببعضهم وهم يهمهمون، وكان يحدث لهم ذلك عندما يخترقون احدى الغابات ، أما في الحقول فكان يسودهم الهدوء والطمأنينـــة ، وكأنهم فى نزهة خـــلوية

وكان للتلال التى تغمر المنطقة تعبيرها الخاص ، وطابعها الفريد ، اذ كانت ترتفع من بعيد ، وكأنها أشباح تراقب ، فى صمت ، مرور المسافرين ، وتنشر فى الحقول ضوءا ورديا يبعث الطمأنينة فى النفوس ، فيهدىء أعصابهم ويذكى الامل فى قلوبهم

وفجأة استدار السائق وأخذ يحدق فى عينى تونيا ، وقال :

ـ هل تظنين أيتها السيدة الشابة اننى لم أعرف من أنت ؟! انك تكونين ساذجة أيتها الشابة لو دار بخلدك هذا ! فلتسحقنى اللعنة اذا لم أكن قد عرفتك ! •• انك صورة حية طبق الاصل لكروجر ، كدت لا أصدق عينى ! ألست حفيدته ! ومن غيرى يمكنه أن يتعرف على أحد من سلالة كروجر ! لقد أفنيت زهرة شبابى وأنا أعمل عنده ، فى المناجم ، وفى الغابات ، وفى الاسطبلات

وراح الشيخ يتدرج فى الحديث ، الى أن ذكر لهم ماكانوا قد سمعوه من سامديفياتوف عن عائلة ميكوليتسين ، وكان يسميهم ميكوليتش وميكوليتشنا ، فكان يقول أن ميكوليتشنا هى الزوجة الثانية للمدير ، وأن الزوجة الاولى كانت من طراز الملائكة ، ولا أبالغ ، ان قلت ، انها كانت ملاكا حقا . وعندماتطرق

به الحديث الى قائد الانصار ليبريوس ، علم أن خبره وصيته لم يبلغا موسكو ، وأنها ــ أى موسكو ــ لاتعلم شيئا عن اخوان الغابة ، فلم يصدق ذلك ، وقال متعجبا :

ــ كيف لم يسمعوا بالرفيق رجل الغابة ! أيتها الملائكة .. أليس فى موسكو آذان ؟ !

وأقبل المساء ، فأخذت هواجسهم تتراقص أمامهم ، وكانوا يسيرون وقتئذ فى طريق منبسط ، وتنتصب هنا وهناك ، فى مجموعات ، جذوع طويلة وأعشاب ذات أزهار ، كانت تبدو كالاشباح ، وكأنها حرس لمراقبة السائرين

ومن بعيد ، كانت تلوح لهم سلسلة من التلال عبر الطريق، خلفها منحدر أو جدول ، فبدا لاعينهم كأن الفضاء يقوم عليه حاجز ، وأن الطريق يقود الى بابه

وعند قمة المنحدر، قام منزل ذو طابق واحد، فقال باخوس:

ــ هل ترون المنظر عند قمة التل ؟ هناك يقيم ميكوليتش وميكوليتشنا ، وتحت التل واد يدعى شوتما

وانفجر صوت طلقين ناريين من التل ، تردد صداهما فذعر المسافرون ، وسألت تونيا فى جزع :

ــ ما هذا ؟ هل الانصار يطلقون النار علينا أيها الجد ؟

ــ اطمئنى ، ليس الامر كذلك ، انه ميكوليتش يطارد الذئاب فى الوادى

كان منظرا مؤثرا ، ابتدأ بالصمت ثم تدرج حتى أصبح ضجيجا صاخبا ، عند لقائهم الاول مع آل ميكوليتسين فى فناء بيت المدير

وعادت ايلينا بروكلوفنا الى البيت من نزهة فى الغابة ، تسير عبر الفناء ، تلاحقها أشعة الشمس الذهبية ، وترتدى

ثوبا هفهافا ، وراحت تجفف وجهها بمنديل صغير من شـدة الحر ، بينما تعلقت قبعتها وراء ظهرها بخيط رفيع حـول عنقها العاجى

وأقبل زوجها ليستقبلها عند المنحدر ، وهو يحمل بندقيته وفى هذه اللحظة فاجأهم باخوس مندفعا بعربته ، وقد صمت الآذان طرقعة العجلات فوق الاحجار ، حاملا المفاجأة الكبرى

وظهر المسافرون ، وأخذ الكسندروفيتش يثرثر ويتمتم ، وهو يرفع قبعته ثم يعود فيضعها فوق رأسه

وعقدت الدهشة لسان المضيفين ، فلم ينبسا بكلمة ، كما شمل الاضطراب الضـيوف ، وارتسمت علائم الخجـل على وجوههم ، فكان الموقف أشد حرجا للجميع على السواء

وقطع ميكوليتسين حبـل ذلك الصمت الموحش ، أخيرا ، حين قال :

ـ أننى لا أفهم من الامر شيئا ، بل ليس عندى الاستعداد لكى أفهم ، ماذا أرى ؟ ! ماذا أتى بـكم ؟ وهـل فـكرتم فى المسئولية التى ستقع على عاتق لافركى ستيبانوفيتش ؟ لا تقاطعينى يالينوتسكا .. هل تدبرتم الامر وعرفتم مبلغ العبء الذى تلقونه علينا ؟

ـ مهلا ! لقد هولتم الامر وأسأتم الظن ، ليس فى نيتنا أن نثقل عليكم ، أو نعكر صفو هنـائكم .. أمنيتنا متواضعة : حجرة فى بناء قديم ، وقطعة أرض بائرة ، نزرع فيها شـيئا من الخضر ، وقليل من الحطب نجمعه من الغابة ، هل ذلك عبء ثقيل ؟

ـ ان العالم فسيح ، لماذا وقع اختياركم علينا دون سوانا من عباد الله ؟ مالنا نحن وما تريدون ؟ !

ـ لأن أناسا أخبرونا عنك ، ونرجو ان يكون قد وصل الى علمك خبرنا ، فلا نكون غرباء

ـ انكم تمتون بصلة القرابة الى كروجر ، وهـذا ما حدا بكم الى ذلك ، ولكن هل هذا هو الوقت الملائم لما أقدمتم عليه ؟

على أنه بعـد فترة أخـذ يخفف من حـدة لهجته ، وبدأ يلين ، فقال :

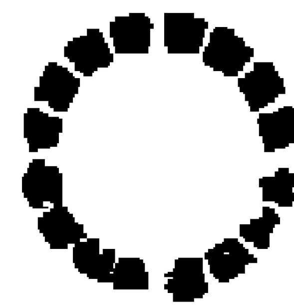
ـ لا بأس ، الفناء ليس مكانا لائقا للنقاش ، يجدر بنا أن ندخل ، وليس ذلك امتنانا منى عليكم ، بل لأننا نرى شبحا من خلال الزجاج ، لسنا وثنيين فنطردكم الى الغـابة حيث تفترسكم الدببة

ثم وجه الكلام الى لينوتسكا قائلا :

ـ لعل أفضل مكان لهم ، أن نفرد لهم مؤقتا الحجرة الكبيرة التى بجوار المكتب ، ونرى فيما بعد ما اذا كان فى الامكان أن يستقروا . تفضلوا الآن بالدخول .. احمل حقائبهم ياباخوس .. وبعد ذلك أفضل أن ندبر لهم مكانا فى الحديقة

وأخذ باخوس ينقل الحقائب ، وهو يتمتم :

ـ يا اله السماء ! ان حقائبهم قليلة بقدر ما هى صغيرة



# الفصل التاسع

# فاريكينو

حل الشتاء ، ووجد يورى أندريفتش فسحة من الوقت . فأخذ يكتب مذكراته ، وعندما اقترب الربيع ، كتب الطبيب :

« لقد أخبرت تونيا أنها حامل ، أنى اعتقد ذلك ، بل متأكد ، ولكنها لم تصدقنى . فمن مهنتى وتجـاربى عرفت ظواهر الحالة ، فان وجه المرأة يتغير ، بحيث لا يمكنها التحكم فيه ، لانها تتأثر بالمستقبل الذى ينتظرها ، فهى تفقد سيطرتها على مظهر جسدها ، فيبدو فى حالة انهيار ، ويخبو وجهها ، بينما تقل نعومة بشرتها ، وتلمع عيناها ببريق لاينم عمـا تكنه ، وبالجملة تصبح فى حالة عجز الى حد اهمال نفسها

« اننا نقتل الوقت فى قراءة القصائد . . . وصل سامديفياتوف أمس ، ومعه كثير من الهدايا : أطعمة شهية ، وغاز للمصابيح ، وقد تحدثنا طويلا فى مختلف الفنون

« وكنت دائما أعتقد أن الفن ليس شيئا مقولا ، وليس عالما غامضـا ، بل على النقيض ، شىء محدود ، ومبدأ موجود ، نلمسه فى كل أثر فنى ، وانه قوة وحقيقة ، اننى لم أر الفن كشكل ، بل كشىء خفى من المضـمون ، اننى أفهم ذلك بوضـوح ، بل أحسه بجميع مشاعرى ، ولـكن من الصعب التعبير عن الفكرة

« ان الاثر الادبى يجتذبنا بوسـائل شتى ، بموضـوعه ، وفكرته ، وأجوائه ، وأشخاصه ، ولكنه قبل كل ذلك يؤثر فينـا لوجود الفن فيه . ان الفن دون غيره فى « الجريمة

والعقاب » هو الذى يطبع فينا أعمق الاثر ، وليست قصة الجريمة

« ان الفن البدائى ، سواء المصرى أو الاغريقى ، أو فننا نحن ، واحد على ما اعتقد خلال الاجيال الطويلة ، وفى مقدورك أن تعتبره فكرة أو رأيا فى الحياة ، شاملا ، بحيث ان أية ذرة منه فى أى أثر ، تفوق كل شىء شأنا ، وتكون هى جوهر الاثر بل قلبه النابض

« بماذا أشعر ؟! سعال ، برودة ، وفى أحيان أخرى حرارة ، لاينقطع تنفسى طول النهار ، وكأن عائقا فى مخرج التنفس . . . اننى فى حال يرثى لها . . . لعل هذه أولى الظواهر التى تدل على اننى ورثت الداء عن امى ــ لقد عانته المسكينة طول حياتها ، فهل حقا ما انا فيه ؟ وهل بهـذه السرعة ؟ ان اجلى لقريب وبقائى فى هذه الدنيا لن يطول ان كان الامر كذلك

« ان تونيا تكوى الثياب ، وتضع فحما فى المكواة ، لذلك أتنسم رائحة فحم ، ان ذلك يذكرنى بأمر لا أذكره ، ولعل هذا بسبب حالتى الصحية

« سأبادر الى مكتبة المدينة ، عندما تتحسن صحتى ، لاقرأ ماسطر عن تاريخ المنطقة وسكانها ، علمت أنها تضم مجموعة ثمينة من الكتب ، وهناك أجد مايحفزنى على الكتابة . . لن يلبث الربيع أن يأتى ، فلأسرع ، والا فلن أجـد متسعـا من الوقت لما تصبو اليه نفسى

« أحس بآلام الصداع تشتد يوما بعد يوم ، ولم أصب قسطا من النوم ، مر بى حلم باهت لا أذكره ، الا ما أيقظنى منه . . لقد سمعت صوت امرأة يتردد فى الهواء ، ظللت أقدح الذهن كى أتذكر صاحبته ، ورحت أستعرض جميع من عرفتهن من نساء ، عسى أن أتبين من هى صاحبة هـذا الصوت الناعم ، العميق ، فلم أوفق . ظننته صوت تونيا ، واننى لشدة الالفة

لا اتبينه ، وحاولت أن أبعد عن ذهنى انها زوجتى ، وأنه لاتربطنى بها صلة ، لكى أعرف جلية الامر ، ولكن الصوت لم يكن صوتها ، كان صوتا غامضا . ولقد درج الناس ـ فيما يتعلق بالاحلام ـ على أن الانسان يحلم بما يؤثر فيه تأثيرا قويا أثناء النهار ، ولكن يبدو أن الامر على النقيض ، فكثيرا مايحلم الانسان بأمور لم يعرها أى اهتمام ، بل لم يفكر فيها . فتأتى فى شكل حلم فى المنام ، كأنما هى تريد أن تعوض نفسها عن نصيبها من الاهمال فى اليقظة

« اقبل الربيع بأزهاره ورياحينه ، لشد ما يسعدنى أن أكتب ، ولكن عمر الربيع قصير ، واذن لامفر من الانتظار حتى الشتاء

« وحضر لى ـ على زحافة ـ فلاح مريض ودلف الى ساحة الدار غير عابىء بالوحل المختلط بالجليد ، ولا بالمطر المنهمر ، بقصد أن أفحصه ، فرفضت ، بحجة أننى لم أعد امارس الطب ، وذكرت له أن لا دواء عندى ولاأدوات طبية . واذهلنى أن اراه يلح ، قائلا :

ـ لا أطيق لمس جسدى من شدة الالم ، رفقا بى ، فاننى مريض .

« وماذا يمكن ان أفعل ازاء تضرعه واستعطافه !؟ هل أنا بشر بلا قلب ؟ ولم اتمالك ان طلبت اليه ان يخلع ثيابه ، ثم فحصته . ويأله من تعس ، فقد كانت علته داء الرئة . وبينما أنا مستغرق فى فحصه ، حانت منى ألتفاتة عن غير قصد الى زجاجة دواء فوق النافذة ، من أين جاءت ؟! لقد حملها الينا سامديفياتوف ضمن ماحمل من الهدايا ، ولعله أتى بها لعلمه بأنها من الحاجيات التى لا أستغنى عنها

« وفجأة ـ ودون سابق اخطار أو انذار ـ دلفت زحافة أخرى الى ساحة الدار ، وظننته مريضا آخر فى طريقه الى ،

ولكن الدهشة اخذتني عندما تبينت أن القادم أخي ايفكراف ، هبط علينا من السماء ، لاندري كيف جاء ! والتفت حوله العائلة ترحب به ، ويسأله كل فرد كيف جاء ؟! ومن اين جاء ؟ ولكنه ، على عادته ، يتجاهل استفساراتهم ويتهرب من الرد عليها ، ويكتفي بالابتسام ، وهز كتفيه ، وان تكلم ، فكلمات أقرب الى الالغاز

« ورحل الى يوكاتين ، بعد أن قضى بيننا نحو أسبوعين ، ثم انقطعت أخباره ، كأنه رحل الى القمر . ومن عجب انني لاحظت أنه يتمتع بنفوذ أقوى من سامديفياتوف ، وأن حركاته وأعماله يكتنفها الغموض ، فتساءلت :

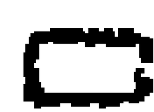
ـ ماذا هو الآن ؟ وماهي طبيعة عمله ؟ وماسر هذا النفوذ الذي يتمتع به ؟

« وكان قد وعدنا بأن يمهد لنا سبيل حياة أوفر رغدا ، كي يتيح لتونيا قسطا أكبر للعناية بساشنكا ، ويتيح لي مجالا أوسع لممارسة الطب والكتابة ، ولما أردنا أن نعرف منه كنه معاونته ، اكتفى بالابتسام ، ولكن الدلائل كانت تشير الى أنه سيبر بوعده ، وأن احوال معيشتنا ستتحسن

« ما اغرب هذا الامر ! فهو أخي من أبي فقط . ونحمل نفس الاسم ، ومع ذلك أجهل عنه كل شيء !

« هذه هي المرة الثانية ، التي يدخل حياتي فيها كطالع سعد ، لينقذني مما يلم بي ، ولعلها قوة خفية ، تظهر في شكل انسان ، لنجدة الغير من غير دعوة أو استغاثة ، وأغلب الظن أن أخي يقوم بدور الكريم المبهم »

ووقف يوري عند هذا الحد في كتابة مذكراته ، فلم يستأنف كتابتها بعد ذلك



توجه يوري الى المكتبة ، واتخذ مكانه في غرفة القراءة ،

وانتقى بعض الـكتب وأخذ يتصفحها . وتتسع الغرفة لعدد كبير من القراء ولهـا عدة نوافذ ، وقد وضعت المـكاتب فى صفوف تنتهى عند النوافذ

وكان المعتاد أن تغلق المكتبة أبوابها عند الغروب .. وكانت بلدة يوريانتين ، التي فيها المكتبة ، لاتضاء فى الربيع ، ولذا كان زيفاجو يغادر المكتبة قبيل هبوط الظلام ، فيأخذ الجواد الذى حصل عليه من ميكوليتسين ، والذى كان يتركه فى اسطبل سامديفياتوف ، ثم يقفل عائدا الى فاريكينو فى المساء

ولم يكن يورى قد زار يوريانتين، اذ لم يكن له فيها مصالح خاصة ، فكان لايعرف شيئا عنها . أما وقد طالع أهل البلدة وهم يتوافدون على المـكتبة ، ويأخذون مجالسهم فى الغرفة التى يجلس فيها ، فقد شعر بأن معالم البلدة ليست غريبة عليه ، وأنه بدأ يتعرف اليها

وبنظرة من النوافذ ، كان فى وسع المرء أن يرى صـورة حقيقية ليوريانتين. ففى مواجهة احدى النوافذ يوجد وعاء ملىء بالماء ، كما كان جمهور المطالعين يهبطون ، فى فترة الاستراحة ، الى البهو ، للشرب أو للتدخين ، ثم يسرحون بأبصارهم لاستجلاء مناظر البلدة

ورواد المـكتبة نوعان : الاول وهو الغالبية من الشـيوخ المفكرين ، وأما الثانى فهو من الذين اتخذوا القراءة هواية للاستزادة من معلوماتهم . ومعظم النوع الاول كان من النساء ، وكن يرتدين الملابس القديمة ، وقد انتفخت وجوههن بسبب الجوع ، أو الترهل ، وكن من رواد المكتبة المواظبين ، ولذا كن يعرفن موظفيها ، وبسبب مثابرتهن على الحضور كن يشعرن بأنهن فى منازلهن

أما ماعدا اولئك من الرواد ، فـكانوا من ذوى الاناقة فى ملابسهم ، يلجون المكتبة فى تأدب وحياء ، وكأنهم يدخلون

بيتا من بيوت الله ، وكانت لهم اصوات رتيبة فى القراءة ، تطفى على من عداهم

ويجلس مدير المكتبة ومساعداه على مكتب طل ، خلال فجوة بالحائط ، على النافذة ، ويفصل بينه وبين الغرفة حاجز مرتفع . وأحد المساعدين امرأة تميز وجهها بالعبوس ، لاتنفك تضع منظارها على عينيها ثم ترفعه ، فى حركة لاشعورية . وترتدى المساعدة الأخرى قميصا أسود اللون ، تبدو وكأنها ذات صدر ضعيف ، اذ كانت تتنفس فى اجهاد ، وتتكلم من خلال منديل لايفارق فمها

وكانت وجوه الثلاثة تشبه بعضها البعض من حيث الطول والترهل ، شأنهم فى ذلك شأن معظم الرواد ، وقد اصطبغ جلدهم ذو الثنيات باللون الازرق ، فاضحى بلون التراب الرمادى . وكان الثلاثة يتناقشون فى همس مع الجدد من الرواد فى شرح القوانين ، والأنظمة وتفسيرها . ويوزعون بطاقات طلب الكتب ، ثم يقومون باعطاء الكتب لطلابها ويستردونها ، وهم يتناوبون هذا العمل فيما بينهم ، وفى أثناء ذلك كانوا ينشغلون فى تحرير التقارير

وعاد يورى بمخيلته الى الوراء ، يتخيل منظر المدينة ، عندما جلس سامديفياتوف الى جواره على أرض العربة فى القطار ، كما تذكر ملاحظاته فى هذا الشأن . وارتسمت فى مخيلته هذه المناظر والخواطر ، وهو يرى الآن المدينة على حقيقتها من خلال النافذة ، كما رآها داخل الغرفة . ولفت نظره أن وجوه الجميع متورمة ، كأنما هم جميعا مصابون بداء واحد ، فتذكر لتوه وجه المرأة العبوس التى كانت تتولى أعمال التليفون فى المحطة ، غداة وصوله . وحاول أن يربط بين ماسمعه وبين مايراه .

وجلس يورى فى مكان قصى فى آخر الغرفة ، وقد بسط

أمامه احصاءات عدة عن أراضي تلك المنطقة ، كما كان أمامه كثير من المراجع عن أصل سكانها ونشأتهم . وطلب مزيدا من المراجع عن تاريخ بعض الثورات ، ولكن المساعدة ذات القميص الاسود ، التى تتكلم من خلال منديلها ، أفهمته أنه لايحق له الحصول على عدد آخر من المراجع ، وأن عليه أن يعيد بعض مالديه اذا أراد استعارة غيرها

ازاء ذلك ، عكف يورى على ما أمامه ، وأخذ يستوعبها فى جد وعجلة ، كى يحتفظ لديه بما هو فى حاجة اليه ، ويستبدل بالباقى المجلدات التاريخية التى تهمه . وحصر جميع أفكاره فى ذلك ، فلم يلتفت يمنة أو يسرة ، ولم يشعر بمن حوله من القراء ، كأنه وحيد فى الغرفة وليس فيها أحد سواه .

وتحركت الشمس وانتقلت من الزاوية الشرقية للغرفة ، واخذت ترسل أشعتها فتلقي بها على وجه قارىء قريب . ونهضت المساعدة التى لايفارق المنديل فمها ، وأخذت تسدل الستائر البيضاء على النوافذ ، لتحد من شدة الضوء ، وتركت النافذة الاخيرة ، اذ كانت لاتزال فى الظل ، وعندما اقتربت من يورى ، لتنشر الستار ، فاجأتها نوبة من السعال . وبعد عشر عطسات أو أكثر ، أدرك يورى انها شقيقة زوجة ميكوليتسين ، وانها احدى فتيات تونتسيفا اللواتى جاء ذكرهن على لسان سامديفياتوف ، ورأى نفسه ، كما فعل سائر القراء ، يرفع راسه وينظر اليها

وأدهشه أن يلاحظ تغييرا فى الغرفة ، اذ جلست قارئة جديدة فى الطرف الآخر منها ، وأذهله ان يعرف فيها لتوه انتيبوفا ، رغم انها كانت تجلس وظهرها اليه ، وقد استغرقت فى حديث مع المساعدة المريضة ، التى انحنت فوقها . ولاحظ من ملامح الموظفة ، أن الحديث ترك أثرا حسنا فى نفسها ، اذ فارقتها نوبة السعال ، وبدا عليها الهدوء ، بعد ما انتابها

من توتر عصبى ، فما كان منها الا أن القت نظرة امتنان حانية الى أنتيبوفا ، ثم رفعت المنديل عن فمها ودسته فى جيبها ، وعادت الى مقعدها ، وقد لفتهـا الفرحة ، وارتسمت على وجهها ابتسامة

ولاحظ القراء ماحدث ، فابتسموا ، وقد أخذوا ينظرون الى انتيبوفا بعين الرضا والامتنان ، فتبين ليورى أن أنتيبوفا تحظى بقسط وافر من المحبة من الجميع

وقفز الى ذهنه خاطر ، هو أن يذهب اليها ويحدثها ، الا أن حياءه ، وكان قد تسلل فيما مضى الى علاقته بها ، منعه من تنفيذ ما جال بخاطره ، ففضـل الا يزعجها وأن يستمر فى قراءته . وادار كرسـيه كى يتحاشى النظر اليها ، وأمسك كتابا وراح يحاول القراءة

ومع ذلك حانت منه التفاتة اليها فرآها ترتدى قميصـا شفافا مزركشا بخطوط متعارضة ، يحيط خصرها حزام ، وقد انهمكت فى القراءة بشغف ، وقد مال رأسها قليلا الى كتفها ، كما كانت تتوقف عن القراءة بين الحين والحين ، تتأمل وتفكر ، تارة ترفع بصرها نحو السقف ، وتارة تنظر أمامها الى الافق البعيد ، ثم تعود الى نفسها ، فتسند خدها الى يدها ، وتدون فى مفكرتها مقتطفات مما تقرأ بحركة خاطفة

ولاحظ يورى ماسبق أن عهده فيهـا ، أنها لا تسعى الى الحصول على اعجاب أحد ، أو أن تبدو جميلة ، وقال لنفسه :

ـ انها تكره هذه الحوافز فى طبيعة المرأة ، وكأنما تريد أن تنتقم من نفسها لأنها جميلة ، ولـكن هذا التصرف من جانبها ، يجعلها اكثر فتنة واشد فتكا . انها ساحرة فى كل شىء ، فى جمالها ، وحسن هندامها ، فى حركاتها وسكناتها ، حتى فى قراءتها ، فهى تقرأ فى سلاسة وبساطة ، كما لو كانت تأخذ ماء من بئر ، أو تقشر بطاطس

وكانت هذه الخواطر بمثابة البلسم لدى يورى ، فهدأت من روعه ، وأشاعت الطمأنينة فى نفسه ، وزايله شرود الذهن ، ولم يتمالك نفسه من الابتسام ، ان ظهور انتيبوفا فى محيطه ترك أثرا فى نفسه ، كما أثرت فيه المساعدة المريضة

واذ هدأت أعصابه ، وشمله صفاء الذهن ، استأنف القراءة فترة طويلة من الوقت ، كان فيها أكثر انكبابا منه قبل مجيئها ، فقد استوعب كل ما امامه من المراجع ، فوضع جانبا ماهو بحاجة اليه ، وقد ساعده صفاء الذهن أن يطالع بامعان أكثر من مقال

ورأى أن ماقرأه فى يومه فيه الكفاية ، فجمع الكتب وأعادها ، وخطر له بعد ذلك الجهد ان يمنح نفسه فسحة من الوقت ، يزور فيها صديقا قديما . وما ان عقد العزم على ذلك ، حتى نهض وأجال نظره فى الغرفة ، ورأى أن انتيبوفا قد غادرت مكانها ورحلت

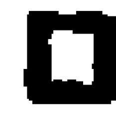
وألقى نظرة على الكتب التى كانت معها ، فوجدها عن الماركسية . ففهم انها تريد مضاعفة ثقافتها ومعلوماتها ، لكى تتمكن من أن تعود لمزاولة عملها السابق ، وهو التدريس

ولمح عنوان أنتيبوفا على قائمة الطلب ، وقد ظهرت بين صحائف الكتب وبحركة لاشعورية حفظ العنوان ، وأدهشه أن يجده « شارع التجار أمام منزل التماثيل » . واستفهم من أحد الرواد عن ذلك فأجابه :

ــ منزل التماثيل اصطلاح متداول فى يوريانتين ، مثلما هى الحال فى موسكو ، فيسمى شارع باسم مبنى هام قائم فى الشارع

ومنزل التماثيل ، يشير الى منزل رمادى اللون ، تزينه تماثيل آلهة أغريقية ، وربات الشعر الحاملات قيثارات وأقنعة شيده أحد التجار فى القرن الماضى ، وجعله مسرحا للتمثيل

خاصا به . وبعد أن مات ، باعه ورثته ، وأصبح الحى كله يعرف باسم هذا المنزل ، الذى صار الآن مقرا للجنة الحزب فى المدينة ، تلصق على جدران الدور الاول منه الآن البلاغات والمراسيم ، بعد أن كانت تعرض عليها فيما مضى برامج الحفلات ، والاعلان عنها



كان يوما من أيام الشتاء العاصفة الباردة ، وفرغ يورى من أعماله ، وهم بالتوجه الى المكتبة ، ولكنه ، فجأة ، عدل عن رأيه ، واستقر على أن يزور انتيبوفا ، التى حصل على عنوانها من بطاقة الطلب فى المكتبة

وأخذ طريقه ، يغالب الريح والريح تدفعه ، وقد أثارت الغبار حوله من كل جانب ، فكان يضطر الى أن يغمض عينيه ، ويتوقف عن السير حتى تخف حدة الريح والغبار ، ثم يتابع السير

ويقع منزل انتيبوفا على ناصية شارع التجار ، فى مواجهة منزل التماثيل ذى اللون الرمادى الداكن ، والذى يقع عليه نظره للمرة الاولى ، وقد لاحظ انه يطابق مسماه

وأدهشه أن يجد الطابق العلوى محاطا بتماثيل نسائية ، فى نصف حجم الانسان الطبيعى ، تمثل قصصا من قصص الاساطير . وخيل اليه ، من خلال الغبار المنتشر ، ان هذه التماثيل نسوة خرجن من المنزل ورحن ينظرن اليه فى فضول

وكان للمنزل بابان ، أحدهما يقع فى شارع التجار ، أما الباب الآخر فكان فى زقاق خلفى ضيق ، ولم يلاحظ يورى الباب الرئيسى الاول ، فدلف من الباب الثانى

وفى اللحظة التى وقف فيها امام الباب ، هبت عاصفة هوجاء ، أطاحت بالقاذورات فى الفضاء ، فحجبت الفناء عن

عينى يورى ، كما أثارت العاصفة الدجاج ، فأخذ يطارد بعضه ، ويصيح ، ويجرى بجانبه

وأخيرا ، هدات العاصفة ، واستقر الغبار على الارض ، فلمح الطبيب أنتيبوفا عند البئر ، حيث كانت قد ملأت دلوين ، علقتهما فوق كتفها . وقد ربطت شعرها بشال عقدته من الامام ، لتتقى الغبار ، وقد ضمت ساقيها على ثوبها الذى تعصف به الريح . ويممت شطر البيت ، ولكن عاصفة أخرى اعترضتها ، وانتزعت الشال عن راسها ، وأطاحت به بعيدا الى نهاية سياج الفناء ، حيث كانت الدجاجات تصخب فى صياحها

ورأى يورى ماحدث ، فأسرع الى الشال ، وعاد به اليها وكانت لاتزال بجوار البئر . ورغم المفاجأة ، التى لم تكن تتوقعها ، فقد احتفظت أنتيبوفا برزانتها — كما هى عادتها — وحرصت على الا يبدو منها أنها فوجئت ، وكل مافعلته انها قالت فى بساطة :

— زيفاجو !

— لارا !!

— ماذا تفعل هنا بحق السماء ؟

— دعينى أحمل عنك هذين الدلوين

— ليس من عادتى ان اتسكع فى الطرقات ، أو أن اترك عملا دون أن أتمه . اذا كان حضورك من أجلى ، هيا بنا . . . ندخل !

— دعينى أولا احمل عنك الدلوين ، فمن العار أن اقف هكذا وأنت تحملينهما

— وهل ترى فى ذلك مشقة على ؟ دعهما ، حتى لايسقط الماء على السلالم ، خبرنى أولا ، اننى أعلم انك هنا منذ أكثر

من عام ، الم يكن لديك ، ولو دقيقة واحدة طول هذه المدة ، تحضر فيها لترانى ، حتى الآن ؟!

ــ كيف وصل ذلك الى علمك ؟

ــ الاخبار كالهواء تنتشر بسرعة ، كما أننى لمحتك فى المكتبة

ــ ولماذا لم تحدثينى ؟

ــ وهل لم ترنى بدورك ؟

ثم تقدمته فى السير نحو المدخل ، وهى تنوء بما تحمله ، فوقفت ، ووضعت الدلوين على الارض ، ثم جففت يديها من أثر الماء ، وقالت :

ــ اتبعنى ، سنسير الى البهو الامامى عبر الممر الداخلى ، فانه أوفر ضوءا . وتنتظرنى هناك برهة ، الى أن أصعد بالدلوين من السلم الخلفى ، وابدل ثيابى ... لاتقلق ، فلن يطول غيابى ... انظر الى سلمنا العجيب ... درجات حديدية مكشوفة ، ترى منها كل شىء . لاشك أن المنزل قديم ، بل عريق فى القدم ، وقد اضعفت المدافع بنيانه ، وتلاحظ ذلك من تقلقل بعض الاحجار عن مكانها ، هل ترى هذه الفجوة التى فى الاطار ؟ فيها نضع أنا وكاتنكا مفتاح المسكن حينما نخرج

ثم نظرت اليه واسترسلت تقول :

ــ تذكر ، لاتنس ، فقد تأتى يوما أكون فيه خارج البيت ، هاك مكان المفتاح ، تلتقطه ، وتفتح الباب ، كأنك فى بيتك ، وتنتظرنى حتى أعود . هذا هو المفتاح ، وطبعا لست فى حاجة اليه الآن ، سأدخل من الخلف ، وأفتح الباب من الداخل . على أن مايزعجنى و يثيرنى كثرة الفئران ، ومن المستحيل التخلص منها ، والسبب فى ذلك كثرة الشقوق التى تتخلل الجدران القديمة ، اننى الجأ الى سد ما أستطيع منها ، ومع ذلك ذهبت جهودى عبثا ، قد تساعدنى يوما ... والآن انتظر فى هذا البهو ، واشغل نفسك بالتفكير فيما يروق لك ،

وكما ذكرت لن اتأخر كثيرا ، سأعود بعد برهة

وشغل نفسه بالتطلع الى الجدران ، وقد زال عنها طلاؤها والى درجات السلم الحديدية ، وقال يحدث نفسه :

ـ جال بخاطرى فى غرفة المطالعة بالمكتبة أنها كانت مستغرقة فى القراءة بالحماسة نفسها التى تبذلها فى أى امر صعب . وهذا صحيح ، فهى تحمل الماء من البئر بنفس السهولة والخفة اللتين تقرأ بهما ، وهى تتسم باللباقة والظرف فى حركاتها وسكناتها ، وكأنها سبقت عمرها فى كل ماتفعله ، وقد رتبت حياتها وفق نظام خاص ، بسهولة وبغير تكلف ، تلاحظ ذلك فى حركتها ، وفى ابتسامتها ، وقد انفرجت عنها شفتاها ، كما تلاحظ ذلك فى حديثها وأفكارها

وقطع عليه حبل افكاره صوتها وهى تناديه من عل :

ـ زيفاجو !!

فأخذ يرتقى درجات السلم صاعدا اليها



قالت انتيبوفا :

ـ ستضطر الى اجتياز غرفتين حالكتى الظلام ، وقد تكدس فيهما الاثاث ، أخشى أن تصطدم بشىء ويصيبك اذى ، ناولنى يدك ، واتبع ما أشير به

ـ حقا انه ممر معقد ، وماكان فى مقدورى أن اتلمس طريقى ، لماذا هو هكذا ؟ أليس هناك من يعمل على ترميم المسكن ؟

ـ كلا • لانه يخص أحدهم ، لا أعرف من هو • ان لى مسكنا خاصا بمبنى المدرسة • وعندما استولت ادارة السكن المحلية على ذلك المبنى ، منحت أنا وكاتنكا جزءا من هذا المنزل ، اذ رحل جميع سكانه وتركوا اثاثهم ، ويوجد منه الكثير ، ولكنى أربأ بنفسى أن أطمع فيما ليس لى ، لذا جمعتـه فى هاتين

الغرفتين ، وطليت زجاج النوافذ بالجير ، حتى أرد عنه أشعة الشمس •• يورى •• لاتترك يدى لئلا تضل الطريق .. لقد وصلنا ، هيا الى اليمين ، الآن خرجنا من المجاهل ، هذا بابى ، وستنقشع الظلمة بعد قليل ، ولكن حاذر •• أمامك درجة

وفيما هو يتبعها الى داخل الغرفة ، أطل من النافذة على الفناء فأدهشته المناظر التى وقع عليها نظره ، ساحات واسعة خالية قريبة من النهر ، وسطوح منازل قليلة الارتفاع، وكانت الاغنام والماعز ترعى ، وجلودها ذوات الصوف الطويل الذى يتدلى حتى يلامس الارض ، كما لمح لافتة كتب عليها : « مورو وفتشنكن • آلات زراعية »

وكان الطبيب قد مر بها غداة وصوله من موسكو ، فتذكرها لتوه ، وشرع يصفها للارا . وغاب عن ذهنه ما أشيع من أن سترلينكوف كان زوجها ، فراح يحدثها عن لقائه بالقوميسير فى القطار ، وقد اثر فيها ذلك تأثيرا عميقا ، وسألته بلهفة :

ـ هل التقيت حقا بسترلينكوف ؟ لن أخبرك الآن ، ولكنه أمر غريب ، لعله قدر لك أن تلتقى به ، سأخبرك بدقائق الموضوع يوما ما ، وستأخذك الدهشة، واذا صدق ظنى ، فقد تترك فى نفسك أثرا طيبا

ـ نعم ، بصفة عامة ، وكان المفروض أن يثير تقززى • لقد مررنا بالمنطقة التى حل فيها الموت والدمار ، وكنت أتوقع أن التقى بجندى فظ ، أو ثورى عديم الرحمة ، ولكنه لم يكن هذا ولا ذاك . انه جميل حقا أن يكون الشخص خلاف ما يتخيله الانسان ، وهذا دليل على انه ليس من طراز معين معروف به ، وعلى العموم لقد سما فوق ذاته ، وان فيه شيئا من العظمة والخلود

ـ يقولون انه ليس عضوا فى الحزب

ـ أعتقد ان هذا صحيح • ماذا يحبب الناس فيه ؟ انه رجل

لاشك هالك ، وأعتقد أن نهايته مؤلمة ، وانه سيدفع جزاء ما اقترف من آثام . ان الثوار المتمردين ، لايثيرون الرعب لانهم مجرمون سليقة وطبعـــا ، بل لانهم مسيرون كالآلات التى لا ضابط لها أو التى أفلت زمامها . أن سترلينكوف أحمـق كغيره ، ولكن حمقهليس وليد نظريات ، بل مما عاناه من آلام. ان سره مغلق ، ولكنى واثق بأن لديه سرا . أما انحيازه نحو البلشفيك ، وتحالفه معهم ، فأمران عرضيان ، وهم يتحملونه طالما هم بحاجة اليه ، فطريقهم الآن واحدة ، وعندما يكونون فى غير حاجة اليــه ، سيلفظونه غير مبالين أو آسفين ، بل سيسحقونه كما فعلوا مع غيره من الخبراء العسكريين

ــ هل تعتقد ذلك ؟

ــ اننى واثق كل الثقة

ــ أليس فى استطاعته أن يهرب ، فينجو بنفسه ؟

ــ أين المفر والى أين يذهب ؟ لقد كان فى مقدوره أن يهرب فى سالف الايام ، أيام نفوذ القياصرة ، ولكن هيهات له ذلك فى أيامنا هذه يا لارا !

ــ اننى آسفة ، لقد جعلتنى أرثى له ، يورى ... اراك قد تغيرت ، فقد كنت فيما مضى تتحدث عن الثورة بلهجة أكثر هدوءا واتزانا ... لم تكن تقسو فى حديثك عنها

ــ هذا هو لب الامر وجوهره ... يا لارا ... هناك حدود ومعايير لكل أمر . لقد كان من الواجب أن يتم شيء محدد فى هذا الوقت . ولكننا نرى أن الذين أوحوا بالثورة ليسوا على قدر كاف من الحنكة والدراية ، وأن جل همهم كان تغيير الحال واثارة القلاقل . وأن يكون ذلك على نطاق واسع . أما فترات الانتقال ، والتكوين من جديد ، فهى عندهم غاية فى حد ذاتها ، وهم ليسوا مدربين على شيء ولا يعرفون شيئا ، هل تعلمين لماذا لا تنتهى هذه الاستعدادات ؟ انه أمر لا جدوى منه ولا

طائل من ورائه ، لانهم مفتقرون الى المقدرة الحقة ، وهم يشكون العجز والقصور . لقد خلق الانسان ليحيا لا ليهيىء أسباب الحياة . ان الحياة فى حد ذاتها ، هبة الحياة ، أمر من الضخامة بحيث يأخذ بمجامع القلب ! فلماذا نستبدل بها هذه المآزل وهذه المغامرات ؟! أظن فى ذلك الكفاية الآن ، ودعينى أوجه اليك بعض الاسئلة :

لقد وصلنا صبيحة يوم الاضطرابات ، فهـل أصابك شيء منها ؟

ــ وهل فى ذلك شك ؟! حاصرتنا النيران من جميع الجوانب ، والذى يبعث على الدهشة حقا ــ رغم ذلك ــ أن المنزل لم يحترق ، لقد تزلزلت أركانه وكاد يسقط ، وتوجد بالفنـــاء قنبلة ، حتى الآن ، لم تنفجر . لقد حلت بنا الكوارث ، من سلب ، ونهب ، وتشريد ، وناهيك بطلقات البنادق ، وقصف المدافع ، وهذه حال لابد منها عندما يتغير نظام الحكم فى أى بلد من البلاد . ولقد تعودنا تلك الحال ، فلم تكن هذه هى المرة الاولى . ان الحياة فى كنف الروس البيض لم تكن أفضل حالا ، فقد كان القتل ، والسلب ، واغتصاب المال ، هى وسائل تسوية الخلافات . يالها من فوضى ، ولكن ألم يبلغك ذلك الخبر المثير ؟! اتدرى ما آل اليه أمر جاليولين ؟! لقد انضم الى التشيكيين ، وأصبح حاكما عاما أو ما يشبه ذلك !

ــ وصل ذلك الى علمى ، هل التقيت به ؟

ــ اكثر من مرة ، وقد عاوننى معاونة صادقة على انقاذ نفوس عديدة ، لقــد سلك سلوكا نبيلا ، ولم يتشبه بهؤلاء الافاكين ــ ضباط القوزاق ، رجال البوليس ، على أنه ممــا يؤسف له أن هؤلاء هم الذين يسيرون الامور . اننى أقدر لجاليولين أفضاله ، ليحفظه الله ، أننا صديقان قديمان ، كما تعلم ، فكثيرا ما كنت اتردد على المنزل الذى نشأ فيه وانا طفلة ، وكان أغلب سكانه من العمال . لقــد عانيت الفقر فى

صغرى ، ولذلك فأن نظرتى الى الثورة تختلف عن نظرتك اليها ، اننى ألم بالكثير من دقائقها . ولكن الذى أغلق على فهمه، أن يصبح جاليولين ـ ابن البواب ـ ضابطا كبيرا ، هـذا ما يدهشنى ولا أكاد أصدقه . ليس بين أفراد أسرتى جنود ، لذلك فان معلوماتى عن الرتب العسكرية محدودة ، لان حقل نشاطى ينحصر فى التدريس ... وعلى العموم ، بفضله أمكننا أن نساعد كثيرا من الناس . لقد كنت أسعى لمقابلته . وقد تحدثنا عنك . ولا أخفى عنك انه كان لى أصدقاء فى كل عصر ، ولكن من المؤسف أننى منيت بخيبة أمل فيهم جميعا . الا يكون الانسان مغمورا اذا قصر نشاطه على دور واحد فى الحياة ، فيكون مقامه محدودا فى المجتمع ! لماذا تدين بمبدأ واحد فى حياتك ؟

وفى هذه اللحظة اقتحمت الغرفة فتاة لم تتجاوز الثامنة من عمرها ، وقد عقدت شعرها اللامع فى جدائل هى غاية فى الروعة ، ينبثق من عينيها الصغيرتين بريق ماكر . انها ابنة لارا ، سمعت صوتا غريبا على أذنيها ، فعرفت أن لدى أمها زائرا . وتظاهرت بالدهشة ، ثم حيت الضيف ورشقته بنظرة حادة جريئة تصدر عن طفلة سبق تفكيرها عمرها

فقالت لارا :

ـ انهـا ابنتى ، كاتنكا . أرجو أن تسـود بينكما المودة والصداقة !

ـ رأيت صورتها معك ونحن فى ميليوزييف ، لقد كبرت وتغيرت !

وقالت لارا تحدث ابنتها :

ـ ظننت انك خارج المنزل . لم أسمعك وأنت تدخلين

فأجابت الفتاة :

ـ تناولت المفتاح من فرجة الجدار ، وكان فيها فأر ضخم ، قفز امامى فبعث الرعب فى نفسى

ـ اذهبى الآن ، سيتناول العم الطعام معنا ، سأناديك حين تحضر الكاشا (١)

فقال يورى :

ـ شكرا ، اننى لن أبقى طويلا ، اننا نتناول طعامنا فى الساعة السادسة ، بسبب ترددى على المدينة ، وأجتهد الا أتأخر فى عودتى . وهى تستغرق منى أكثر من ثلاث ساعات . وهذا ما دفعنى الى أن أبكر فى زيارتك ، سأضطر الى مغادرتكم بعد فترة يسيرة

ـ اننى أطمع فى نصف ساعة أخرى !

ـ يسرنى ذلك ، بل يسعدنى

وقالت لارا للطبيب :

ـ لقد حدثتنى فى صراحة ، دون لف أو دوران ، لذلك سأكون صريحة انا الاخـرى معك : أن سترلينكوف الذى رأيته ، هــو فى الواقع زوجى ، باشا ، بافيل بافلوفيتش انتيبوف ، الذى ذهبت الى الجبهة للبحث عنه ، اذ اننى لم أصدق ما أخبرت به عن موته

ـ ليس ذلك بالامر الغريب على ، وقد هيأت نفسى له ، وأنا بدورى لم أصدق شائعة موته ، ولهذا تجاهلتها ، وحدثتك بصراحة ، لقد رأيته بعينى رأسى ، كيف يمكن أن نربط بينك وبينه ؟!

ـ مهما يكن الامر ، فهوالواقع ، سترلينكوف هو انتيبوف ، زوجى ، وكاتنكا تعرف ذلك ، وهى مزهوة بأبيها . واسمه الجديد اسم مستعار ، انتحله لنفسه ، أسوة بغيره من الثوار

ثم استطردت تقول :

ـ لقد قذف يوريانتين بالقنابل ، واحتلها ، وهو يعلم اننا

---

(١) أى عندما يخرج الاكل من الفرن

بها ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء حتى مجرد معرفة ما اذا كنا احياء أو أمواتا ، وذلك طبعا لكيلايكشف أمر نفسه ، وهو بذلك يؤدي واجبه ولاشك. واذا فرضنا انه سألنى، لما توانيت فىأن أشير عليه أن يفعل مافعل . قد تتهمه بأنه كان يهتم بنا خفية ، لوجودي سالمة ، واقامتي فى منزل لا بأس به . ولكنى لا أتصور كيف تمكن من قهر أعصابه فلم يفكر مرة فى الحضور لرؤيتي .
ان سترلينكوف فى سيبيريا الآن ، هل جال بخاطرك ماذا يفعل ؟ انه على راس قيادة أحد مواقعنا الامامية ، يحارب جاليولين ! صديق طفولته ، ورفيقه فى السلاح ضد الالمان ، وجاليولين يعرف شخصيته الحقيقية ، كما يعرف أننى زوجته ، ولكنه كان لبقا فى تصرفه ، وهو ما أقدره له كل التقدير ، اذ أنه لم يشر الى ذلك ولو تلميحا ، مع أن الرعب يتملكه حتى لمجرد ذكر اسم سترلينكوف
ـ انه حقا فى سيبيريا الآن ، ولكنه مكث هنا وقتا طويلا ، فى تلك العربة التى رأيته فيها ، وكنت أتمنى أن ألتقى به ، ولو عرضا ، لقد كان يتوجه الى مقر القيادة ، وكان مدخله فى الجناح الذى كنت اقابل فيه جاليولين ، اذ كنت أكثر من التردد على ذلك المكان لاتوسط فى مساعدة أحد ، أو للحيلولة دون وقوع كارثة . ومن أمثلة ذلك ، ماكان يحدث فى الاكاديمية الحربية ، مما كان يثير السخط ، ان المدرب الذى لا يحظى برضاء تلاميذه ، يقتل رميا بالرصاص بواسطة كمين ، بحجة أنه من مؤيدى البلشفيك

ذكرت أننى كنت أذهب الى ذلك المكان على أمل أن أتمكن من لقاء باشا عند دخوله أو خروجه . وقد اتخذ القائد العام مكتبه فى ذلك الجانب من المبنى ، فى العهد القيصرى ، والآن ، وقد تبدل الحال ، فانك تجد على الباب لافتة « شكاوى » . هل وقع عليها نظرك ؟ انه مكان يبهر الابصار بجماله وروعته ،

فالفناء مرصوف بالخشب ، وتواجه المبنى حديقة كبيرة تزينها اشجار اللوز ، وتعطرها أشجار الياسمين . ويصطف أصحاب الشكاوى أمام الباب ، وكنت اندس وسطهم ، وانتظر ، وألوذ بالصبر ، فلا أدفع الباب ، ولا اظهر شخصيتى ، ولا يعرف أحد أننى زوجته ، لان كلينا يحمل اسما مختلفا . ولا يتطرق الى ذهنك أن مناشدة عاطفتهم تفيد . وهل وصل الى علمك أن أباه بافيل انتيبوف ، الذى نفى نفيا سياسيا فيما مضى ، يوجد الآن فى مكان قريب ، فى قرية تقع على الطريق العام . كما أن صديقه تيفرزين هنا أيضا ، وكلاهما عضو فى المحكمة الثورية . ثم هل يخطر ببالك أن باشا لم يفكر فى الذهاب لرؤية أبيه ، ويعتبر أبوه أن هذا مسلك طبيعى من ابنه . وأن لابنه مطلق الحرية فى البقاء متخفيا ، وأن كل ما يترتب على ذلك انه لا يستطيع أن يراه ! ماذا تقول فى هؤلاء الناس ، هل قدت قلوبهم من صخر ، أم أنهم ليسوا بشرا ، رغم ما يتشدقون به من نظم ومبادىء ! وحتى لو أظهرت للملأ أننى زوجته ، فهل تظن أن ذلك يعود على بفائدة ؟ ماذا تهم الزوجات أمثال هؤلاء فى هذه الظروف ؟ العمال ، التعمير ، هذا ما يعنيهم ويهمهم ، أما الزوجة ، فلا شأن لها ولا قيمة فى هذا المجال ، أنها فى نظرهم نملة او ذبابة ! وكان مساعده يخرج من الغرفة ليسأل الناس عن حاجتهم ، ثم يسمح لبعضهم بالدخول ، على أننى لم أخبره قط باسمى ، وكنت أكتفى بأن اقول له ان حاجتى شخصية . وكنت أعتقد أننى أضيع وقتى ، وانفقه سدى ، فكان المساعد يرشقنى بنظرة ارتياب ثم يهز كتفيه . ولا يجولن بخاطرك انه لا يهتم بنا ، أو أنه نسينا ، انك تخطىء لو ظننت ذلك ، اننى أفهمه جيدا ، وأعرف مرماه ، انه يسعى لاسعادنا ، وهو لا يرغب فى العودة الينا خالى الوفاض ، بل يريد أن يعود رافع الرأس ظافرا ، تجلله أكاليل المجد والكرامة والعزةوالوفاء، فيضع أكاليله بين أيدينا ، انه يريد ان يخلدنا

وفى هذه اللحظة دخلت كاتنكا ، فتعلقت بها لارا وأخذت تحتضنها وتداعبها

اجتاز يورى فى عودته نفس الطريق التى يجتازها كل يوم فى عودته من المكتبة ، وقد حفظ معالمها الى حد أنه كان لا يلقى انتباها الى ماحوله . وهو بعد قليل من السير يصل الى مفترق طريقين فى الغابة ، احداهما طريق فاريكينو ، والاخرى تؤدى الى قرية اسمها فاسيليا ، قائمة على ضفاف نهر ساكما . وكعادته بلغ المفترق قبيل مغيب الشمس

وكان طوال تردده على المكتبة يعود الى يوريانتين يوميا وكأنه طالب يعود من المدرسة الى البيت كل يوم . وذات مرة تخلف وقضى ليلته عند لاريسا — وكان يدلل لارا بذلك الاسم — واخترع أكذوبة بأن أخبر عائلته انه اضطر الى البقاء فى يوريانتين لبعض أعمال هامة ، وانه قضى الليلة فى فندق سامديفياتوف

وقطع يورى شوطا بعيدا فى علاقته بلاريسا ، وصار يخون زوجته تونيا ، وتوثقت علاقته الآثمة الى درجة فظيعة .

كان حبه لتونيا قد ملك عليه شغاف قلبه ، وكان اسعادها رمز حياته وما كرس له نفسه ، كما كان غيورا عليها وعلى كرامتهـــا أكثر من أى شخص آخر ، حتى والدها ، بل حتى نفسها ، وكان لا يحجم عن افتراس من تحدثه نفسه بجرح كبريائها . ومن عجب أن يكون الآن هو المعتدى

وعندما يعود الى بيته ، يؤنبه ضميره ، ويحس بأثمه . وكان يضاعف من ألمه أن أفراد العائلة ظلوا يشملونه بعطفهم ومحبتهم ، لجهلهم بحقيقة أمره . فتغيرت حاله حتى كان يصمت وقت الحديث عندما تجثم صورة جرمه فى مخيلته

فاذا حضرته هذه الصورة وهو يأكل ، وقفت اللقمـــة فى حلقه ، فكان يلقى بالملعقة جانبا ، ويزيح الصحاف ، وتخنقه العبرات ، واذ تلاحظ تونيا مابه ، تسأله فى لهفة :

— يورى ... ماذا بك ؟ هل تلقيت أنباء مؤلمة وانت فى

المدينة ؟ أى حدث جلل وقع ؟ خبرنى ـ مهما يكن الامر مزعجا ـ لعلى أستطيع أن أزيح كربك !

ترى هل خان تونيا لان الاخرى أجمل منها ؟! كلا . فهو لم يفكر يوما فى المقارنة . كما لم يكن لديه وقت للتفكير فيما يدعونه مقتضيات الحب ، ويعتبر أن مجرد التفكير فى ذلك يحط من كرامته . وهو لم يأت أمرا ادا فى حياته ، ولم ير فى نفسه شخصا فوق مستوى الغير . انه الآن يتداعى من وطأة الشعور بالاثم

وللغموض الذى يكتنفه ، كان لاينفك يسأل نفسه :

ـ ترى ماذا بعد ذلك ؟!

وفى يأس وقنوط كان يتمنى حدوث معجزة تحل مشكلته واذ كان فى طريقه الى البيت ، عقد العزم على أمر ، أن يضع حدا لتلك الآلام النفسية المسمومة ، أن يقطع الشك باليقين ، فيعترف لتونيا ، ويرتمى تحت قدميها ، ملتمسا غفرانها ، وبذلك يزيح عن كاهله ذلك العبء المضنى ، والكابوس الجاثم فوق نفسه ، ويقطع العهد ألا يرى لارا بعد ذلك

ولكن شعورا خالجه بأنه لم يكشف للارا بطريقة مفهومة انه اعتزم أن يقطع صلته بها نهائيا ، ان كل ماذكره تلميحا فى ذلك الصباح ، أن فى نيته مصارحة تونيا بحقيقة الامر ، وتبعا لذلك فالاجدر بهما أن يضعا حدا لهذه الحالة ، ويمتنعا عن اللقاء

وأحست لارا تعاسته ، فآثرت الا تضاعف آلامه ، باثارة الشحناء ، بل ملكت زمام أعصابها ، وأخذت تنصت لما يقول ، فى هدوء ، وكأنه يروى قصة لا تمت اليها بصلة . وأخذت الدموع تنهمر على خديها ، دون أن تشعر ، وتكتفى بأن تقول له :

ـ سأقهر عواطفى ، فلا تحمل همى ، وافعل ما يروق لك

كانت تقول ذلك من قلبها ، دون رياء ، ولانها لم تشعر بأنها تبكى ، فانها لم تفكر فى تجفيف دموعها

وتناوبته الهواجس ، لعل لارا أساءت به الظن ، ولعله غادرها وقد ترك فى نفسها صورة خاطئة تختلف عن حقيقته ، ففكر فى أن يعود اليها ، ليوضح لها الامر ، وليودعها وداعا أشد حرارة ورقة ، وداعا أخيرا . ولكنه بذل جهداً فى تمالك أعصـــابه ، واستمر فى طريق عودته الى بيته

ولف الغابة صقيع وظلام ، بعد غروب الشمس ، وفاحت رائحة الليل الرطبة ، وأخذت جماعات الهوام تخرج أصواتها الرتيبة التى تشبه أنغام الجنائز ، وحط بعضها على وجهه ، وقد تصبب عرقا ، فراح يطردها بيديه ، وأتته من بعيد أنغام قبرة تغنى ، وكأن أنغامها تقول :

ـ افق الى نفسك

بل خيل اليه انه يسمع فى غنائها ذلك الدعاء العظيم :

ـ استيقظى يانفسى ، لماذا أنت راقدة !

وفجأة ، هتف به خاطر عجيب ، لماذا يتعجل ؟ وما دام قد وطن النفس وعقد العزم ، فلن يحنث فى وعده وعهده ، لن يعدل عن الاعتراف ، ولكن هل لابد منه فى هذا اليوم بالذات ؟! انه لم يبح لتونيا بشىء حتى الآن ، تصريحا أو تلميحا ، ولا ضير ان أجل ذلك الى مابعد زيارة تالية للمدينة ، حتى يتمكن من أن ينهى كل شىء مع لارا ، بالمحبة ، والحرارة التى تخفف عنهما آلامهما ، انها فكرة رائعة ، ومن عجب أنها لم تخطر على باله من قبل

وما أن وصل به التفكير الى ذلك ، حتى شاع السرور فى نفسه ، ورقص قلبه طربا ، وعاد يفكر فيها

وأخذت مناظر الشوارع والمنازل التى يمر بها وهو فى طريقه الى بيتها تتراءى أمام عينيه ، فى سرعة غريبة ، انه يحن الى البيوت الصغيرة على الشارع المؤدى اليها ، ويود لو يستطيع أن يلثمها ! وينزلها ، تحت قبة السماء الزرقاء ! هناك سيجتلى

ذلك الجمال الفتاك ، هبة الله لمن يشاء من عباده ، وكأنها نجمة صافية البياض

واذ وصل الى ذلك فى تفكيره ، القى بالمقود جانبا ، وانحنى على السرج الى الامام ، وطوق بيديه رقبة الجواد ، ودس راسه فى ناحيته ، وظن الجواد أن هذا التصرف من جانب يورى ان هو الا اعراب عاطفى بالتماس السرعة ، فهب يسابق الريح

وسمع يورى صوتا يناديه ، بينما كان قلبه يخفق بهجة لما عقد عليه العزم ، فخيل اليه أن الصوت من نسج الخيال

وصعق للمفاجأة التى جابهته ، فقد انطلق عيار نارى على قيد خطوات منه ، فرفع راسه مستطلعا ، وأمسك بالمقود وشد اللجام ، واذهله أن يرى الجواد يترنح ، وهو فى أقصى سرعته ، ثم يتراجع وينكفىء على الارض

حدث هذا عند مفترق الطرق ، حيث وقف ثلاثة من الفرسان ، اعترضوا سبيله ، أحدهم فتى على راسه قبعة ، ويرتدى سترة حولها حزام للخرطوش ، والثانى فارس قبعته من الفراء ويرتدى معطف ضابط ، أما الثالث فرجل ضخم الجسم ، يرتدى لباسا غريبا . وقال له الفارس :

ـ مكانك أيها الرفيق الطبيب ، لا تتحرك ، والا أطلقنا النار عليك . . . لقد قتل طبيب فرقتنا ، ونحن نريد أن تحل محله . ترجل عن الجواد ، واعهد بمقوده الى هذا الفتى . لست فى حاجة لان انبهك بأننا سنقتلك اذا حاولت الفرار

ـ هــل أنت الرفيق ليبريوس بن ميكوليتسين ، قائد الانصار ؟

ـ كلا . اننى ضابط الاتصال الاول لديه

# الفصل العاشر

# اخوان الغابة

قضى يورى سنتين تقريبا فى ذلك الاسر ، ولم يكن المكان الذى فيه مسورا ، كما لم يقم على حراسته أو يراقبه أحد • وكانت تحركات قوات الانصار متواصلة ، كما لم تكن هـذه التحركات بمنأى عن القرى التى تمر بها ، بل كان الانصار يختلطون بسكان تلك القرى

وخيل الى يورى أنه ليس أسيرا ، وأنه حر ، ولكن لم يكن فى استطاعته ان يمارس حريته كما يشاء، فهى بكلمة أوضح، نوع من الاكراه • وبالرغم من أنه لم يكن مراقبا ، فقد كان عليه أن يخضع للامر الواقع

وحاول الهرب ثلاث مرات ، منيت جميعها بالفشل ،وانتهت بالقبض عليه ، ومع ذلك لم توقع عليه أية عقوبة • لذلك شعر بأن لاجدوى من هذه المحاولات ، فعدل عنها

وصارت له حظـوة لدى رئيس الانصـار ، ليبريوس ميكوليتسين ، فقد سره أن يكون له رفيق كيورى ، فسمح له أن ينام فى خيمته • ومن عجب أن يورى تضايق من هـذه الحظـوة

فى هذه الآونة ، اتجهت تحركات الانصار نحو الشرق ، وكانوا يهدفون الى طرد الكولتشاك من سيبيريا ، وكانت هذه التحركات تتحول الى تقهقر ، عندما كان البيض يهاجمون من الخلف ، ويهددون بتطويق الحمر . ولذلك انقضى وقت طويل ، دون أن يفقه يورى مغزى هذه التحركات

كان سيرهم بمحاذاة الطريق العام ، وأخذ البيض والحمر يتقاسمون القرى ، لذلك كان من العسير أن تعرف لمن كان ولاء تلك القرى

وذهب يورى ، فيأحد الايام ، وكانوا في مدينـــة تدعى باذينك الى أحد الصيادلة ، ليتسلم أدوية طبيـــة انجليزية ، تركتها وحدة من الضباط البيض ، غنيمة للانصار

وكان ذهابه عصرا ، وكان اليـوم ممطرا مملا ، يبعث على السأم ، فبعث الملل والكآبة فى نفس يورى

وتحول الطريق ، وقد اتلفه مرور الجيوش الى ممر يغمره الوحل ، فكان السير فيه شاقا

والتقى يورى ، أثناء ذلك ببيلاكيا تيا كونوفا ، التى كان قد التقى بها فى القطار منذ سنوات ثلاث . وقد تذكرته هى أولا ، وقد ارتسم على وجهها أنها على استعداد لان تحييه ، اذا تذكرها ، وأن تلوذ بالصمت ، اذا لم يتعرف عليها

وبعد فترة طويلة ، تذكرها ، وتماثلت فى ذهنه صـــورة أسرته وعربة الشحن المزدحمة والمجندين للعمل وقد احاط بهم الحراس ، والمرأة التى كان شعرها يتأرجح على كتفيها . وبالجملة، تزاحمت فيذهنه تفاصيل مناظر الرحلة، وارتسمت فى ذاكرته وجـــوه من أحبهـــم ، ويتلهف اليوم لرؤيتهم ، تلهفا بعيد المنال

وأومأ الى بيلاكيا أنه سيعبر الطريق اليها ، واجتازه فوق بعض الحجارة ، وعندما صار أمامها ، حياها . ثم أخـذا يتحدثان ، وقد أنبأته بأمور كثيرة حدثت فى الســـنتين الاخيرتين ، كما ذكرته بفاسيا ، الفتى الصبوح ، وقد ساموه من العذاب ألوانا حين سخروه للعمل ظلما وعـــدوانا ، ثم وصفت له بقاءها مع أمه فى القرية ، حيث كانت سعيدة ،لولا أن اعتبرها أهل القرية دخيـــلة عليهم ، واتهموها زورا بأن

بينها وبين فاسيا علاقة غرامية ، فاضطرت أن تغادر القرية ، اتقاء تجريحهم • وأقامت مع شقيقتها المتزوجة ، أولجاجاليولينا في مدينة هوليكروس • وبعد فترة من الزمن اضـــطرت أن تذهب الى باذينك ، حين طرقت سمعها اشاعة وجودبيرتوليف قريبا منها ، واتضح بعد ذلك أن الاشاعة كاذبة ، ولكنهـــا بقيت هناك ، لانها وفقت الى عمل

ومما ألقت به من الانباء ، أن الكوارث حلت باصدقائها ، فقد هوجمت فيريتينكى انتقاما لانها لم تقدم المؤن ، وأن منزل فاسيا أحرق، ومات أحد أفراد عائلته، كما حدث فى هوليكروس، أن جاليولين ، صهر بيلاكيا ، قد سجن أو قتل ، ولم يعرف أى الخبرين هو الاصح ، وان ابن اختهاقد اختفى •وقد قاست أختها الجوع فترة من الزمن ، وأنها تعمل الآن خادمة عندأسرة تمت اليهم بصلة النسب

وكانت بيلاكيا تعمل عند الصـــيدلى ، الذى حضر يورى ليتسلم منه الادوية • وكان الهلاك مصير القائمين على الصيدلية ومن يعملون بها ، وبيلاكيا من ضمنهم ، بسبب القيام بهذا الإجراء • ولم يكن فى امكان يورى أن يتخلف عما أمر به ، وقد تمت عملية استلام الادوية فى حضور بيلاكيا

وقفت عربة يورى وراء المخزن ، ثم أخذوا يضعون فيهـــا مختلف الادوية ، منها ماهو فى أكياس ، وماهو فى صناديق، وأكداسا أخرى من القنينات وقد لفت بعناية

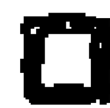
وتطلع حصان الصيدلى ، كبقية الحاضرين ، الى عمليةالنقل، وقد لفتهم غمامة من الحزن • وأخذ النهار الممطر يقترب من نهايته ، فصفت السماء قليلا ، وانسابت بعض أشعةالشمس من خلال الغيوم ، فأشاعت ضوءا يميل الى الاحمـــرار ، وكان الماء الذى تخلف عن المطر ، يترقرق فى الطريق ، وقد اصطبغ بلون قرمزى

والفرق العسكرية تسير على مدى الطريق ، راكبة أو مترجلة ، حول البرك • وكان من بين الادوية قنينة ملأى بالكوكايين ، الذى كان يتعاطاه رئيس الانصار

كان الشتاء موسم انتشار التيفوس ، وفى الصيف تتفشى الديزونطاريا ، كما أخذ عدد الجرحى فى الازدياد ، بسبب استئناف العمليات الحربية ، لذلك وجد يورى نفسه غارقا فى خضم من الاعمال

وانضم الى صفوف الانصار - رغم الانسحابات المتوالية - عدد كبير من المتمردين ،فى الاماكن التى مر بها الجيش،وعدد آخر من الهاربين من الاعداء ، حتى أنه فى خلال العشرين شهرا التى أمضاها يورى أصبحت قوة الوحدة عشرة أضعاف ما كانت عليه فى مبدأ الامر • ولذلك زها بها ليبريوس بن ميكوليتسين فى الاجتماع الذى عقد فى هوليكروس

وكان يعاون يورى بعض الجنود المدربين ، كما كان له مساعدان أسيران سابقان فى الحرب ، أحدهما يدعى كيريني وهو هنغارى شيوعى ، كان ضابطا فى الجيش النمساوى ، والثانى اسمه انجيلار ، وكان طبيبا محدود التدريب • وكان يورى يتحدث مع كيريني بالالمانية ، وأما انجيلار ، فكان يكلمه باللغة الروسية ، لانه كان ملما بها



من تقاليد الصليب الأحمر الدولى ، ان لم يكن من قوانينه أنه محظور على موظفى القسم الطبى ، الاشتراك فى العمليات الحربية • ولكن يورى خرق هذا التقليد - اضطرارا - فقد كان موجودا فى ساحة المعركة ، ذات يوم ، وقد بدأت الاشتباكات ، فوجد نفسه يشارك المحاربين مصيرهم

وكان فى المقدمة ، حين فاجأته نيران العدو ، فانبطح على الارض قريبا من عامل التليفون الذى يتبع وحدته • وكانت الغابة من خلفهم ، ويمتد أمامهم حقل غير محصن ، وقد أخذ

البيض يتوغلون فيه

وتمكن يورى من أن يميز وجـــوه هؤلاء البيض ، عندما اقتربوا، فوجد أنهم فتيان من الطبقة البورجوازية فى العاصمة، ومعهم رجال أكبر منهم سنا ، تطوعوا أخيرا ، وكانت غالبيتهم من شباب الجامعة ، والصفوف النهائية فى المدارس .

وبالرغم من أنه لم يتعرف الى أحد منهم ، الا أن وجوههم بدت مألوفة لديه ، فكان بعضهم يذكره بزملائه فى الدراسة ، ورجح ان يكونوا اخوتهم الصــغار ، وخيل اليه أن نظره وقع على بعضهم فى احدى المناسبات أو فى مكان ما ، منذ سنوات ، لقد جذبت وجوههم المعبرة انتباهه ، وتراءوا له أنهم من صلب جماعته

وملأهم القيام بهذا الواجب زهوا وشجاعة ، وكانوا يسيرون فى صــفوف غير منتظمة ، وقد انتصبت قاماتهم ، كأنهم من ضباط الحرس ، وأخذوا يقتحمون الخطر ، ويأبون التوقف أو الاستلقاء على الارض ، رغم أنه كان بوســعهم أن يحتموا وراء المرتفعات وبين التعرجات ، لذلك كان رصاص الانصار يجندلهم

وفى وسط الحقل الفسيح ، انتصبت شجرة يابسة ، تحت تأثير حادث ما ، ربما أصابتها نار وفحمتها ، أو تكسرت أثناء احدى المعارك ٠ وكلما اقترب منها شاب من هؤلاء المتطوعين، يحدق فيها ، ويفكر فى اتخاذها حصنا ، يتأكد فيه من هدفه، ولكنه لا يلبث أن يتابع سيره ، بعد أن يطرح هذه الرغبة جانبا

وبمرور الايام ، أصــبحت ذخيرة الانصــار محــدودة ، فاضطروا الى اتباع نظم معينة بشأنها ، والخضوع لتعليمات مشــددة ، منها عــدم اطلاق النــار جزافا ، واطلاقها من مسافات قريبة

وتمدد يورى على العشب ، ولم تكن بندقيته معه ، وأخذ

يراقب سير المعركة ، بينما أخذت مشـاعره تميل الى هؤلاء الابطال اليافعين الذين يقتحمون الموت ويصارعونه ، وتمنى لهم النصر من أعمـاقه ، فقد أحس بغرزته أنهم من عائلات كعائلته ، روحا وثقافة ، وقيما خلقية

وهتف به خاطر هو أن يقوم ويلحق بهم ، ويضع نفسه بين أيديهم ، وهى وسـيلة ينجو بهـا من الاسر الذى هو فيه ، ولـكنه راجع نفسه ، وتبين ما فى ذلك من الخطـر ، فلربما قد تصـيبه رصاصة طائشة من أحد الجانبين ، من البيض لانهم لا يفهمون ما يقصد ، أو من الحمر عقابا له على خيانته .. خاصة وانه سـبق أن خبر هـذه المواقف فيما مضى ، وحاول الهرب أكثر من مرة دون جدوى . وبعد أن وصـل الى هذا الحد من التفكير وتقليب الامر ، استقر رأيه على أن يبقى متمددا على العشب ، مستسلما لمشـاعره الموزعة بين الجبهتين ، يراقب مصير المعركة

وكان من العسير أن يظل على هذا الوضع ، بينما المعركة حوله على أشدها ، فهو فى موقف لا تحتمله النفس الأبية . فليس الموضوع موضوع خضوع للفئة التى أسرته ، أو دفاع عن حيـاته ، انه خضـوع لمجرى الحوادث ، والقوانين التى تتحكم فيما يجرى أمام عينيه . فالبقاء جانبا ، فى هذه الحالة ، ضد ناموس القوانين . اذن فعليه أن يفعل ما يفعله الجميع ، معركة قائمة ، ونار تطلق عليه وعلى رفاقه ، فلابد له أن يرد

وفى هـذه اللحظة ، اختلج جنـدى ، وتململ فى حركة تشنجية ، ثم سكن بلا حراك ، فخف يورى اليه ، وتنـاول بندقيته وذخيرته ، ثم ابتدأ يطلق رصـاصها الواحـدة تلو الاخرى

وأخذته الشفقة ، فلم تطاوعه نفسه أن يصوب الرصاص الى صدور الشباب الذين مال اليهم بقلبه ومشـاعره ، اذن

ماذا يفعل ؟ هل يطلق الرصاص فى الهواء ؟ فى لاشىء ؟ انه أخذ يطلقه على الشجرة اليابسة ، كان يتبع طريقة خاصة ، فكان يضغط على الزناد بهدوء وبطء ، بعد أن يركز نظره ويحدد هدفه فتنطلق الرصاصة ، وتتفتت الاغصان وتتناثر

وأذهله أن رأى أنه أصاب أكثر من واحد من هؤلاء الشباب بينما سقط واحد منهم جثة هامدة ، اذ مروا فى تحركهم بينه وبين الهدف

وأخيرا اقتنعت قيادة الجيش الابيض ان لا فائدة من الهجوم فأصدرت الاوامر بالتقهقر والانسحاب

ومما يذكر ان عدد الانصار كان قليلا ، لأن الغالبية الكبرى منهم كانت تنتقل ، كما اشتبك جزء آخر فى معركة أشد ، فى مكان آخر ، ولكى يستروا ضعفهم ، كفوا عن مطاردة الجيش الابيض أثناء عملية انسحابه

وفى تلك الاثناء طلب يورى الى مساعده أنجيلار ان يهتم بالجرحى الذين أصابهم ، بينما راح هو يفحص عامل التليفون ، وهو يأمل أن يكون حيا . على أنه تبين ، بعد أن جس نبضه ، أنه فارق الحياة ، وعندئذ سحب تميمة كانت تتدلى بخيط فى عنق العامل ، وبفحصها ، وجد أنها آيات من المزامير ، من المزمور الحادى والتسعين على الخصوص

وابتعد يورى عن العامل ، وتوجه الى الجندى الابيض الذى أرداه دون قصد ، فحز فى نفسه أن يتطلع الى ذلك الوجه الصبوح ، وقد ارتسمت عليه علائم البراءة والالم والتسامح ، فتساءل يورى :

ــ لماذا جنيت على هذا الشاب وقتلته ؟!

وعلى الفور فك أزرار معطفه ، فوجد اسمه مطرزا : « سير بوزا رانتسيفيتش » ، وأيقن أن أمه هى التى طرزت ذلك الاسم ، وعندما فتح قميص الشاب ، طالعه صليب صغير

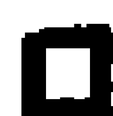
معلق فى سلسلة ذهبية دقيقة ، وميدالية ، وصندوق ذهبى صغير الحجم ، لم يكن محكم الغلق ، فسقطت منه قصاصة ، ففحصها يورى ، ولدهشته وجد أنها تحمل آيات المزمور الحادى والتسعين نفسه ، مكتوبة بالنص الصحيح

وتململ سيربوزا ، ثم تأوه ، فقد كان لا يزال حيا . ففحصه يورى بعناية ، فتبين أنه فى حالة اغماء ، لا أكثر ، بسبب جرح بسيط ، فلعل تميمة امه ردت عنه الردى . ولكن أسقط فى يد الطبيب ، ماذا عساه يفعل لرجل مصاب باغماء ؟!

وبلغت الوحشية فى ذلك الوقت أقصى درجات القسوة ، فالأسرى ، وكانت النظم تقضى بالمحافظة على سلامتهم ، لا يصلون احياء الى مواقع الأسر ، كما كان الجرحى من الاعداء ، يجهز عليهم فيقتلون فى ميدان المعركة

وبادر يورى الى نزع ثياب عامل التليفون ، وقد عاونه فى ذلك انجيلار ، وكان يورى قد أولاه ثقته ، ثم أبدلها بثياب الشاب

وعنى يورى وانجيلار بصحة سيربوزا ، حتى استعاد صحته ، وشفى تماما . فأطلق سراحه ، رغم ماذكره سيربوزا لهما من انه مصمم على العودة الى جيش الكولتشاك فى حربهم ضد هؤلاء الانصار الحمر



اتخذ الانصار أجمة تدعى أجمة الثعلب ، وهى سفح كثيف الاشجار ، يشقه ويجرى على امتداده نهر صاخب ، مقرا لهم فى فصل الخريف ، وكان رجال الجيش الابيض قد أمضوا فيه فترة الشتاء ، وعاونهم سكان القرى على حفر بعض الخنادق فيه . فلما رحلوا عنه فى الربيع ، تركوا تحصيناتهم على ما هى عليه ، فاستخدمها الانصار

وأقام يورى وليبريوس فى خندق واحد ، وظل ليبريوس

يتحدث ويورى يصغى اليه ليلتين متتاليتين :

ـ ليتنى أعرف ماذا تفعل أسرتى انكريمة ـ وعلى الاخص أبى الفاضل ـ فى هذه اللحظة !

فندت عن يورى تنهدة ، وهو يحدث نفسه :

ـ ما أشد بشاعة هذا المتغطرس! انه صورة صادقة من أبيه، صدق من قال : « من شابه أباه فما ظلم »

ـ لعلك عرفته جيدا! من أحاديثنا ، ولا أظن أنك كونت فكرة سيئة عنه ، ما رأيك فى ذلك يا عزيزى ؟

ـ ان لدينا اجتماعا للانتخاب غدا يالبيريوس ، كما اقترب موعد محاكمة الجنودالذين اقدموا على تقطير الفودكا ، ولابد من ان أعد الدليل أنا وكيرنس ، أكاد أهلك من فرط الاجهاد، فاننى لم أذق طعم النوم منذ ليلتين ، فهل يمكن أن نرجىء هذا الحديث ؟

ـ لا مانع ، ولكن ما رأيك فى ذلك الشيخ .. أبى ؟

ـ لماذا تتحدث عن والدك بهذه اللهجة ؟! ان أباك لا يزال فى عنفوان الشباب ، على أننى ـ وقد سبق أن ذكرت لك ذلك ـ ليس لدى الكثير من المعلومات عن الاشتراكية ، كما أننى لا أرى فارقا بين الاشتراكيين والبلشفيك . ان أباك أحد دعائم الفوضى الحالية فى الروسيا ، انه صاروخ ثورى ، وكلاكما ـ أنت وهو ـ مرجل للغليان فى الاضطرابات الحالية

ـ لا أفهم ماذا تقصد ، هل هو مديح أم تجريح ؟!

ـ دعنا بالله نرجىء هذا الحديث الى وقت آخر ، عندى لك ملاحظة ونصيحة ، أراك تدمن تعاطى الكوكايين ، وهو من المواد الطبية التى أنيط بى المحافظة عليها ، لاستعمالها فى الاغراض الطبية ، وفضلا عن ذلك فالكوكايين مادة سامة فتاكة ، تورد الانسان مورد الهلاك ، وبصفتى طبيب «الوحدة» فاننى مسئول عن صحتك وسلامتها

ـ ان احسـاسك الاجتمـاعى ضعيف ، وأنت طبيب ، ومثقف ، وأعتقد انك تهوى الكتابة ، فهل يمكن ان تفسر لى كيف يجتمع ذلك كله ؟

ـ لقد أغلق على ، ماذا أفعـل ؟ يخيـل الى اننى متبلد الذهن ، حقا ان حالتى تدعو الى الرثاء

ـ لو انك فكرت قليلا ، فى اهتمام ، بما نعمله ، لما تحدثت بهذه اللهجة الساخرة ، ولما نظرت الى عملنا بعين الاحتقار

ـ ماذا تقول ، بالله ، يا ليبريوس ؟ اين الاحتقـار الذى تتحدث عنه ؟ اننى أقدر ثقافتك من كل قلبى . فقد عرفت آراءك فى تثقيف الجندى ، من الحديث الذى أذعته ، وهى آراء صائبة . ان ما أوضحته عن علاقة الجنـدى بزميله ، وعن شعوره نحو الضعيف ، ونحو النساء ، وما ذكرته عن العفة والشرف ، انما هو قبس من آراء تولسـتوى ، التى اعرفها فى دراية تامة ، اننى أتطلع الى حياة افضل ، فكيف يمكن ان أسخر ؟!

ـ لا يفوتنى ان اذكر أن النهوض الاجتماعى ، منذ ثورة اكتوبر ، لا يثير اهتمـامى أو حماستى ، كما أنه كلفنا هـذا البحر الخضم من الدماء ، وفى رأيى ، لم يصدق من قال ان الغاية تبرر الوسيلة ، واهم من هذا وذاك ، اننى حين يقال أمامى عن اقامة صرح جديد للحياة ، فان اليأس يتملكنى ، وافقد السيطرة على مشاعرى .

ـ ان الذين يتشدقون بذلك ، لا يفهمون معنى الحياة ، انهم لم يشعروا بجوهرها ، وبروحها . انها فى نظرهم كتلة من المواد ، تحتاج الى تنسيق وتهذيب من جانبهم . لقد آن لك أن تعرف يا عزيزى ، ان الحياة ليست مادة . . . انهـا مبدأ التطور والتجدد الذاتى ، وهى هى التى تجدد نفسها ،

وتبدعها وتطورها ، وانها فوق مستوى النظريات

ــ انني أعتقد أنك ماكنت تهبط الى هذا المستوى المعنوى، لو أنك حضرت اجتماعاتنا ، واتصلت برفقائنا العظماء ، بل ما كانت تثقل عليك وطأة هذا الشعور القاتم ، ولعل لك العذر ، فأنت لم تلمس شعاعا من الامل فيماتراه من كفاحنا. والاجدر بالمرء الا يستسلم للخوف ، انني أستطيع ، أيها الطبيب الشاب ، أن انهى الى سمعك ، أمورا أشد سوءا ، أمورا شخصية لايجدر الافصاح عنها الآن . على أنني سأضبط أعصابى ، وأقول أن هذه الاوضاع وقتية ، وأن الكولتشاك هم الخاسرون ، فى نهاية المطاف ، وسوف يريك الغد صدق ما أقول ، فتذرع بالصبر والشجاعة

ولم يجب الطبيب ، بل أخذ يفكر ويحدث نفسه :

ــ ان هذا لما يبعث على الضحك حقا ، كيف يمكن لانسان أن يتحدث بمثل هذه البلاهة . لقد أضعت وقتى سدى ، وكم قلت له أكثر من مرة أننا غير متفقين فى أفكارنا ، ومع ذلك، فهو يحاول أن يقنعنى ، ويتصور أن أوضاعه تخيفنى ، وأن أحلامه فى المستقبل وآماله احرى أن تشجعنى . كيف أنزل الى هذا المستوى من التنكر لما أعتقده ! أنه يتصور ان مصير الكون يتوقف على انتصار الثورة

واكتفى يورى بأن هز كتفيه ، ولو أنه ظهرت على ملامحه أن بلاهة ليبريوس ضايقته ، حتى كاد يفقد أعصابه

وبعد فترة قال يورى :

ــ أشيع أن قوة مجهولة الجنسية ، غير روسية ، هاجمت فاريكينو وحملت عليها سلبا ونهبا . ولم يحاول كامينود فورسكى ، أن ينفى ذلك الخبر ، وبلغ مسامعى أن أهلك ، وأهلى أفلتوا وتمكنوا من الهرب . ومن الاشاعات التى راجت أن جنودا ذوى عيون مستطيلة ، يرتدون معاطف مبطنة ،

ويضعون فوق رءوسهم قبعات من الفرو ، قد عبروا نهر الرينفا ، وقد أصبح ماؤه جليدا ، ثم راحوا يمطرون الناس بوابل رصاصهم ، فى هدوء وطمأنينة . وكما ظهروا فجأة ، اختفوا بطريقة غامضة ، هل وصل الى علمك شيء من هذا ؟ وما مدى صحة الاشاعة ؟

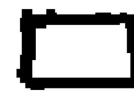
ـ اشاعة كاذبة ، لا نصيب لها من الصحة بل مطلق سخافة !

ـ اذا كنت كما ذكرت فى محاضراتك عن الاخلاق ، مهذبا لطيفا ، فأرجو أن تدعني أنصرف ، انني أريد أن ابحث عن أسرتي ، فانني لا أعلم مقرها ، كما لا أعلم أن كان قد أصابها سوء أم لا تزال بخير . واذا كنت لا توافق ، فأرجو أن تلوذ بالصمت ، وتكف عن محادثتي ، لانني أريد أن أخلو الى نفسي ، وويل لى اذا ظللت تتحدث ، أليس من حقي أن أنال قسطا من الراحة ؟!

استلقى يورى على فراشه ، ودفن وجهه فى الوسادة ، وقد أصم أذنيه عن الانصات الى ليبريوس ، الذى أخذ يمنيه بالانتصار الشامل على الجيش الابيض ، فى الربيع ، حيث تضع الحرب أوزارها فيسود السلام والازدهار ، وترتفع راية الحرية . « وهنالك ستكون حرا تذهب أين تشاء ، فتذرع بالصبر حتى تحين الساعة المرتقبة ، ومادمنا قد قطعنا ذلك الشوط البعيد ، فلا أقل من أن ننتظر بضعة أشهر أخرى ، ثم من ناحية أخرى ، لعل من المصلحة الا تذهب »

واشتاط يورى غيظا وغضبا ، انه كالحاكى يتكلم ، ويكرر ما يقول ، ولا يخجل من التكرار الممل . وانه ـ يورى ـ لا يستطيع أن يحتمل الانصات اليه ، الىذلك المنكود ، الذى لا يعترف بوجود الليل ، ولا يعترف أيضا انه جهل للراحة

والاستجمام ، وما لبث أن قال لنفسه :
ــ لشد ما امقته ، وسينتهى بى الامر الى الفتك به وقتله !
ثم أخذ يناجى زوجته وأسرته فى حنان عاطفى :
ــ حبيبتى تونيا ، أين أنت الآن يا عزيزتى ؟ وهل مازلت حية ترزقين ؟ رباه ... لقد كانت حاملا ، على وشك الوضع ، فكيف كانت الولادة ؟ وهل وضعت ذكرا أم أنثى ؟ كيف حالكم يا أحبائى جميعا ؟ يغمرنى ندم طاغ ، وأنت يا.. لارا .. اننى أرتعد اذ انطق باسمك ، وتتنزى نفسى حين يردده لسانى . وأخيرا يا الهى ، من هذا الوحش البغيض ، لن اتحمل ثرثرته ، وسأقتله .. سأقتله



كان يوما صفت سماؤه ، وأعتدل الطقس منذ أسبوع ، والاصوات المألوفة تتردد أصداؤها فى المعسكر ، وكأنها أمواج بعيدة . وكان يورى يسمع بين الحين والحين ، خطوات المتنزهين فى الغابة ، وقد اختلطت فى سمعه أصداء الاصوات المختلفة ، وطرقعة الفئوس ، ونباح الكلاب ، وصهيل الخيول ، وصياح الديكة . وأخذ الرجال وقد لفحتهم أشعة الشمس ، يسيرون فى جماعات ، وهم يبتسمون . بعضهم يعرف يورى فيحييه ، والبعض الآخر يمر من أمامه مر الكرام دون اشارة أو تحية

واعتصم الانصار بالأجمة ، لايريدون ان يرحلوا عنها ، الا اذا لحقت بهم عائلاتهم التى هربت ، وكان متوقعا وصولها بين لحظة واخرى . ولهذا أخذوا يستعدون للزحف نحو الشرق وانهمكوا فى اجراءات الرحيل ، من تهيئة الصناديق واعداد العربات وفحصها

وعقد فى وسط الغابة اجتماع خاص ، لتبليغ الجنود تعليمات هامة

ولفحت أشعة الشمس أوراق الاشجار الخضراء ، فأكسبتها

بريقا يأخذ بالأبصار

وأخذ كامينودفورسكى ، ضابط الاتصال الاول ، يحرق أمام خيمته بعض الاوراق من مستندات الجنرال كابيل ، التى كانت قد وقعت بين يديه ، كما أخذ يحرق أيضا بعض أوراقه الحزبية ، وكان يفعل ذلك فى حذر ، ولكن ألسنة اللهب كانت تدل على أن شيئا ما يحترق

وبدت الغابة وكأنها احدى الجنان ، تتلألأ فى سمائها أشعة الشمس ، فتنشر فيها الضوء ، كما ازدهرت بالثمار الناضجة ، وخاصة ثمار شجر الحور الاحمر ، وأخرى بيضاء وصفراء وقرمزية اللون ، وقد أخذت أوراق الاشجار تتراقص طائرة فى الهواء ، كما أخذت الفراشات تتنقل من مكان الى آخر وهى تحلق بأجنحتها الشفافة ذات الالوان الزاهية الجميلة

وأغرم يورى منذ نعومة أظفاره ، بمنظر الغابة وقت الغروب فكان يحس أن أشعة الشمس ، وهى تميل نحو الغروب ، تنفذ الى أعماقه وتستقر فيها ، وكأنها نسـمة الروح تتدفق بين ضلوعه

وكان يشعر فى أعماقه ، بسر الحياة ، الذى ينشأ فى كل طفل ، فتتكون منه شخصية . كان هذا الاحساس يطغى عليه فى قوة ، فخيل اليه أن الغابة ، وأنوار الغسق ، والاشجار والثمار تكون فى مجموعها وجهـا بديعا رائعا لفتاة صغيرة بريئة . وما أن ترتسم هذه الصور الرائعة فى مخيلته حتى يغمض عينيه، ويسبح فى التفكير محلقا بأفكاره ، فى الكون ، وسر الحياة ، وأرض الله ، وتلك الاضواء التى أمامه : لارا !

ولكنه لايلبث أن يعود الىالواقع الملموس ، والحقيقة الماثلة، الثورة لا تزال قائمة ، وهو لا يزال أسيرا لدى الانصار ، وأخيرا وجد نفسهيتجه بحركة لاارادية صوب نار كامينودفورسكى، ويقول :

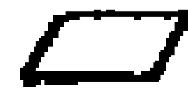
ـ ألم تنته بعد من احراق أوراقك ؟
ـ هناك كثير منها ينتظر دوره
وتقدم يورى الى مجموعة من الاوراق ، نثرها بقدمه ، فوجد انها مستندات خاصة بمراكز الجيش الابيض . وود لو وجد فيها شيئا عن رانتسيفتش ، ولكنه لم يجد فيها شيئا يهمه ، فنثر غيرها من الاوراق ، فكانت كسابقتها ، مجموعة من محاضر اجتماعات الانصار
وتناول كامينودفورسكى ورقة ، قدمها الى يورى قائلا :
ـ هذه تعليمات السير لوحدتك الطبية . عائلات الانصار أوشكت أن تصل ، فينتهى التذمر القائم بين الجنود ، الليلة ، ونأمل ان نتحرك بين لحظة واخرى
وقال يورى فى دهشة ، بعد أن قرأ الورقة :
ـ لقد جعلتم لى عددا من العربات أقل مما سبق ، مع ان عدد الجرحى قد تضاعف ، ومعظمهم لا يستطيعون السير ، فكيف يتسنى لى أن انقلهم ؟ أضف الى ذلك : الادوية والاسرة والاجهزة الطبية !
ـ ذلك متروك لك ، تنظمه بطريقة ما ، ويجب أن نراعى الظروف ونخضع لمقتضيات الاحوال . ولكنى ألفت نظرك الى أمر هام ، هناك رفيق عركته الايام ، كرس نفسه ونذرها للقضية ، انه جندى رائع ، ممتاز ، ولكنه أصيب بمرض ما
ـ أمرض عقلى ما أصيب به ؟
ـ أرجح ذلك ، انه يذكر أنه يحس نوعا من الهوس ، والهذيان ، فهل ذلك ناجم من الارق ، أم الم بالرأس ؟ أم ماذا ؟
ـ لدى متسع من الوقت ، لذلك سأذهب لأفحصه ، متى يبدأ الاجتماع ؟
ـ أغلب الظن أنه ابتدأ فعلا . ولكن لماذا تجشم نفسك مشقة الذهاب ؟ ، اننى لن أذهب ، وعليهم أن يتدبروا أمرهم بدوننا

ـ اذن سأذهب لأرى بامفيل ، اننى اشعر بالتعب ، ووطأة النعاس . ان ليبريوس يثرثر طول الليل ، ويرهقنى . اين أعثر على بامفيل ؟

ـ خلف المستودع المهجور ، فى الاجمة ، هل تعرف ذلك المكان ؟

ـ أظن ذلك

ـ تجد هناك بعض خيام الرؤساء : وقد خصصنا احداها لبامفيل ، لأنه ينتظر عائلته ، التى ستأتى مع عائلات الانصار . لقد حبوناه تقديرا لما قدمه للثورة من خدمات



أحس يورى بالتعب ، وهو فى طريقه الى بامفيل ، فهو لم يصب شيئا من الراحة أو النوم منذ بضع ليال . وكان يتمنى أن يذهب الى خندقه ، لينال قسطا من الراحة ، ولكنه تذكر ليبريوس ، وخشى أن يحضر هو الآخر فيضايقه بثرثرته

واتخذ طريقه فى ممر كسته اوراق صفراء ، تنعكس أشعة الشمس عليها فى الوان مختلفة فتتألق أمام عينيه فيدور رأسه ويشعر بالرغبة فى النوم ، وكأنه يستمع الى نغمات شاعرية

وخطر ليورى ان يصيب شيئا من الراحة ، فاستلقى فوق أوراق الاشجار المنتثرة ، وقد أسند ذراعه على جذع ، واتخذ من بعض العشب وسادة ، وما لبث أن راح فى سبات ، وقد غمرته الاضواء والظلال ، فاختفى عن الانظار ، وكأنه اكتسى لباسا سحريا

ورغم ذلك فقد دفعته تلك الرغبة الملحة للنوم ، أن يستيقظ فقد كان ضميره متيقظا ، غير مطمئن ، يسبح فى الفراغ ، وكانت الافكار والهواجس ، تزدحم فى رأسه وتتنازعه ، وكأنما أصابه مس ، فأقلقه ذلك وأثاره ، وقال محنقا :

ـ آه لهذا اللعين ليبريوس ، كأنما افتقر العالم الى الاسباب التى تدفع الى الجنون ، انه مغتبط باحتجازى ، يثقل على بصداقته ، ويرهقنى بثرثرته ، حتى كادت تختل أعصابى ، وكدت أفقد صوابى ، وسأقتله يوما ما

مرت أمام يورى فراشة ملونة ، كانت تبسط جناحيهـــا وتضمهما ، وتابعها يورى فى طيرانها بنظراته ، وهو يغالب النعاس ، وحطت الفراشة فوق ثمرة من ثمار الصنوبر ، ثم اختفت ، كما تلاشى هو

وعاد الى أفكاره ، التى كان يتعمق فيها ، والتى كان يغرق نفسه فى استجلاء كنهها خلال أعماله الطبية : الغاية والعزيمة ، باعتبارهما خلاصة تركيب جوهرى ، انسجام البيئة ، ألوان جسم الانســان ، الوقائية والتقليدية ، استمرار الـكائنات الطيبة ، أوجه التشابه بين الانتقاء الطبيعى ، وتكوين الوعى ونشأته ، دراسة طبيعة الذات والموضــوع وتوحيـدهما ، وتحديدهما . وسبحت به تأملاته ، وقاده تفكيره من داروين الى شلينج ، ومن الفراشة الى الرسم والفن ، وأخيرا وصل به مطاف التفكير الى الخلق ، والخليقة والابداع

وغلبه النوم ثانية ، ولكن سرعان ما قطع عليه نومه ، اذ أيقظه حديث ناعم فى خفوت متحفظ ، وكان ماسمعه من كلمات كافيا لان يتبين منه أن موضوع الحديث يحمل بين طيـــاته سرا ، أو خطة خفية . وكان واضحا ان المتحدثين لم يشاهدوه ، أو يخطر ببالهم انه قريب منهم . وفكر فى نفسه أن أية حركة تبدر منه قد يدفع حياته ثمنا لها ، فتظاهر بالموت ، واخذ ينصت

عرف يورى أن المتآمرين يتفاوضون مع بعثـــة من مراكز الاعداء العليا ، وكان أعضاء البعثة يتكلمون فى همس لا يكاد يسمع

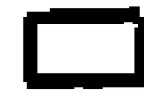
وفهم يورى أنهم يتكلمون ، عندما كانت تتخلل الهمس

فترة من الصمت

واخذ بطل المؤامرة يوضح الخطة ، ولـكن الرجال بدءوا يسرون ، فلم يستطع يورى ان يسمعهم ، على أنه أمكنه أن يفهم ، وقد أخذ منه الرعب والكمد مأخذهما ، انهم يتآمرون على حياة ليبريوس ، وانهم يبغون تسليمه الى الجيش الأبيض أو أن يفتكوا بذلك اللعين . وغاب عن ذهنه أنه هو أيضا ود لو يقتل ليبريوس . ولكنه الآن يفكر فى الوسيلة التى ينقـذه بها . واستقر رأيه على العودة الى كامينودفورسكى ، ويكشف له سر المؤامرة ، ويحذر ليبريوس ، دون ان يتعرض لذكر أسماء مدبريها

وحينما عاد ، وجد أن كامينودفورسكى قد انتهى من عملية حرق الأوراق ، وأن مساعده يراقب النار وهى تخبو ، حتى يحول دون انتشارها

واكتشفت المؤامرةوقبض على المتآمرين ، ولذلك لم تحدث الجريمة . وقام سيفو بليوى بدور المحرض والعميل ، فشعر يورى انه أكثر تقززا من ذى قبل



لم يبق على وصول عائلات الانصار سوى يوم واحد ، ولذا أخذ الانصار ينتظرون ، ويستعدون للاستقبال ، وذهب يورى ليفحص بامفيل ، وقد رآه عند مدخل الخيمة ، يحمل فأسا وأمامه بضع شجيرات قطعها دون أن يشذبها ، وأخذت أغصانها تهتز ، كأنما هى تحتج على اقتطاعها ، فقال بامفيل يوضح الامر :

ــ لقد أعددتها من أجل ضيوفى الاعزاء : زوجتىوأولادى ، ان الخيمةمنخفضة ، يتسرب المطر اليها بسهولة ، وقدقطعت هذه الشجيرات لأعد منها سقفا

ــ وهل تظن انهم سيسمحون أن تقيم أسرتك فى خيمتك ،

وهل حدث قبل ذلك ، أن سمح للمدنيين من النساء والأطفال أن يقيموا داخل نطاق المعسكرات ؟ أغلب الظن أنهم سيقيمون فى مكان آخر ، خارج المعسكر ، وأن باستطاعتك أن تزورهم وتراهم فى أوقات الراحـة ، على أننى أرجح أنهم سيسمحون لأسرتك بالاقامة معك فى خيمتك بصفة خاصة ، على أن ذلك ليس غرضى من الحضور ، فقد قيل لى أن صحتك ليست على مايرام ، وانك راغب عن الطعام والنوم ، فهل حقا هذا ؟ يبدو لى أنك فى خير حال ، ويمكنك أن تشذب شعرك

ومما يجدر ذكره ، أن بامفيل رجل ضخم الجسم الى حـد بعيد،ذو شعر أسود مشعث،ولحية كثة سوداء أيضا،وجبهة متعددة التجاعيد ، وكان يبدو من منظره أنه جاحظ العينين

وخشى القائمون على الثورة ، فى بدايتها ، أن تبوء بالفشل ، كما حدث عام ١٩٠٥ ، حين اقتصر تأثيرها على فئة قليلة من المثقفين ، دون غيرهم من طبقـات المجتمع الاخرى ، ولذلك بذلت جهودجبارة لنشرفكرة الثورة بين جميع أفرادالشعب، لاشعال نار الحمية فى نفوسهم

لم يكن أمثال بامفيل بحاجة فى تلك الايام ، الى من يبث فيهم روح الكراهية والسخط على المفكرين والضباط ، تلك الكراهية القاسية ، فكان المتحمسون من اليساريين يعتبرونهم فئة نادرة فيكنون لهم أعظم التقدير ، وكان احساسهم الذى يتنافى مع مبادىء الانسانية ، دليلا على اقتناعهم بتفاوت الطبقات ، كما كانت همجيتهم مثالا للغريزة الثورية ، وقد اكتسب بامفيل بهذه الخلال شهرة واسعة ، وصيتا عريضا ، فوضعه رؤساؤه وقواده فى المقام الاول بينهم

وخيل ليورى ، أن ذلك العملاق الزرى ، بانحلاله وميوله ونزعاته الشاذة ، رجل وضيع ، ليس فى كامل قواه العقلية

قال بامفيل :

ـ هيا بنا ندخل الخيمة

ـ لماذا ؟ أفضل ان نظل فى الهواء الطلق ، كما أنه لايمكنني الدخول

ـ كما تريد ، اذن يمكننا أن نجلس على الخشب

واتخذا مجلسيهما على الشجيرات الصغيرة ، وراح بامفيل يسرد ليورى تاريخ حياته :

ان تاريخ حياتى طويل ، وثلاث سنوات لاتكفى لكي أسرده تفصيلا ، كما انني لا أدرى من اين أبدأ ؟ على انني سأحاول ، فقد كنا شابين ، زوجتي وأنا ، وكان عملها مقصورا على العناية بشئون البيت ، وأعمل أنا فى الحقول . كانت حياتنا لا بأس بها ، ورزقنا أطفالا ، ثم لبيت نداء الوطن ، عندما استدعيت الى الجيش ، وذهبوا بى الى جبهة الحرب ، نعم ، الحرب ، وكيف أحدثك عنها ؟! لقد رأيتها أنت أيها الرفيق الطبيب . وقد نشبت الثورة بعد ذلك ، ورأيت كل شيء بوضوح ، اذ كانت عيون الجنود متيقظة . من ذلك اننا عرفنا ان الاجانب لم يكونوا أعداءنا الوحيدين ، بل كان لنا أيضا أعداء فى الداخل . فأهبت بجنود الثورة أن يلقوا بنادقهم ، وأن يعودوا الى الوطن ، ويحاربوا البرجوازيين وطبعا تعرف ذلك أيها الرفيق الطبيب واعقب ذلك أن نشبت الحرب الاهلية ، وانضممت الى الانصار وهنا ، يجدر أن أصرف النظر عن بعض الامور فأبترها من القصة ، والا فلن تنتهى . وبعد كل هذا ، ماذا أرى فى وقتنا الحاضر ؟ لقد سحب ذلك المتغطرس ، من الجبهة الروسية ، فرقتى ستافروبول ، الاولى والثانية ، كما سـحب فرقة أورينبورج القوزاقية الاولى . فهل ظن اننى طفل ؟ اننى لا أفهم ؟ ألم أخدم فى الجيش ؟ حقا انها مهنة رديئة أيها الطبيب ، انها توردنا جميعا موارد الهلاك ماذا يقصد ذلك الصعلوك ؟ هل يريد ان يطوقنا ، ثم يفنينا برعاعه ؟! ان لى زوجة وأطفالا صغارا ،

كيف يمكنهم أن يتقوا شره ، انهم أبرياء ، ما فى ذلك شك ، ولكنه ذو قلب متحجر ، بسببى سيعذب زوجتى وأطفالى ، وسيقسو فى تعذيبهم ... ثم تسألنى بعد ذلك لماذا لا انام ؟!. يمكن للانسان ان يصير قطعة من الحديد الصلد ، اذا فقد عقله !

ـ انك صديق غامض يا بامفيل ، أعترف أننى لا أستطيع أن أفهمك . انك بعيد عن اسرتك منذ سنوات ، بل لم تكن تعلم أين هى ، ومع ذلك لم يساورك شعور بالقلق عليها ، والآن وهى قاب قوسين أو أدنى من الوصول اليك ، حيث ستنعم برؤيتها ، يبدو انك تتحدث عن مأتمها ، وكان الاجدر بك ان تتهلل بشرا

ـ كان هذا من قبل يا عزيزى ، أما الآن ، فالامر يختلف فقد تقرر مصيرى ، القبر مصيرى . ولكن هل فى مقدورى أن اصطحب معى أطفالى الابرياء الى العالم الآخر ؟! انهم سيكونون وحدهم ، وسيقعون بين براثن وحشيته ، سيمتص دماءهم ويسومهم العذاب

ـ أمن أجل هذا تهذى ؟ بلغنى أنك ترى أشباحا من الجن ؟!

ـ لقد أخفيت عنك أهم الاخبار أيها الطبيب . ولكنى سأخبرك بالحقيقة كاملة ، مادامت هذه رغبتك،سأقولها الآن ، حقيقتى أنا ، ولكن لا تبتئس اذ أقولها أمامك .. لقد صرعت الكثيرين من أمثالك ، وتلطخت يداى بدماء كثير من الضباط ، وعلية القوم . فعلت ذلك دون رهبة أو وجل ، فكنت أريق الدماء وكأنها ماء يسيل أمامى . لا أتذكر الآن اسماء ضحاياى أو عددهم ، ولكن طفلا واحدا يلازم طيفه مخيلتى لايبرحها ، قتلته ، هل تدرى لماذا ؟ لأنه أضحكنى ! أى دون جرم جناه ، فكنت كالمجنون .. حدث ذلك أثناء الثورة فى عهد كيرينكي ، وكنا نقوم بحركة تمرد ، قريبا من احدى محطات

السكك الحديدية . حيث كنا قد غادرنا الجبهة ، فحضر الينا شاب مشاغب ، حاول أن يقنعنا بالتعقل والعودة الى الجبهة ، وأن نواصل القتال حتى النصر . لقد كان طالبا فى المدرسة الحربية ، وأخذ يلقى علينا محاضرة فى الاخلاق ، وكيف نكون صالحين ، كان شعاره : « حاربوا حتى النصر » . وقفز فوق برميل ماء ، وأخذ يكرر هذا النداء . وكان البرميل على رصيف المحطة ، فلما قفز فوقه ، ليدعو إلى المعركة من مكان ظاهر ، انقلب غطاء البرميل فجأة ، فسقط الشاب فى الماء الذى فى البرميل ، هل يمكنك أن تتصور كم كان مضحكا ذلك المنظر، كدت انفجر من شدة الضحك ، وكانت بندقيتى فى يدى ، وقد أطاح الضحك برأسى ، وبحركة لا شعورية ، رأيت نفسى أرفع البندقية ، وأصوبها نحوه ، ثم أطلق النار عليه ! ولا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أتصور كيف حدث هذا ، وكأن قوة خفية دفعتنى الى قتله ... ان هذا هو سبب هذيانى ، على ما أعتقد ، ليلا ، حيث يتراءى لى منظر تلك المحطة ،وفيما مضى ، كنت لا أفكر فى ذلك الذى حدث ، أما الآن ، فانه يرهق أعصابى ... !

# الفصل الحادي عشر

# شجرة الزيزفون

وأخيرا وصلت عائلات الانصار ، بأطفالها ، ومتاعهـــا . وتحركت القوة ، تتبعها قافلة العائلات ، وسار فى المؤخرة خلف العربات ، آلاف من رءوس الماشية وقطعان البقر .

ووصلت مع النساء امرأة اسمها زليداريخا ، وهى زوجـة أحد الجنود ، ولكنها كانت شخصية ممتازة ، فهى تتقـن فنى السحر والطب البيطرى ، وقد علت رأسها قبعة كبيرة وارتدت معطفا عسكريا أخضر اللون ، كان مخصصا للحاكم

وكان المعسكر الجديد يختلف عن القديم ، فقد كان فى وسط غابة كثيفة يتعذر اختراقهـا ، فكان المعســكر لذلك محصنا تحصينا طبيعيا . ولما لم يكن لدى يورى ، فى الايام الاولى ، ما يشغله ، فقد انتهز الفرصة ، وأخذ يجوب أرجاء الغابة ، ويكتشف معالمها . وقد تبين له أن من السهل أن يضل المرء طريقه فيها ، كما لفت انتباهه مكانان فيها ، ظـلا عالقين فى ذاكرته

كان المكان الاول ، حافة الغابة التى تقع خارج المعسكر مباشرة . وكان الوقت خريفا ، وقد خلت الاشـــجار من أوراقها ، فأصبح من السهل أن تتبين ما أمامك عندما تجيل النظر . وقامت فى المكان شجرة زيزفون ، منتصـــبة ، لا تجاورها أشجار أخرى ، وكانت وحدها قد احتفظت بأوراقها وضنت بها من السقوط ، وقد شمخت فى الفضاء ، بثمارها المستديرة ، وكأنها تتحدى الخريف الذى لا يرحم . ومن

وقت لآخر ، تحط على الشجرة ، أسراب من العصافير الصغيرة الجميلة ، تنقر الثمار ، وتتخذ منها غذاء لها

أما المكان الثاني ، الذى جذب انتباه يورى ، فكان أشد روعة ، فقد كان فوق مرتفع ، ينحدر فى شدة من أحد الجانبين ، فاذا نظرت الى اسفل ، رأيت منظرا كأنه سراب أو جدول ، أو حقل يزخر بالاعشاب ، وهو فى الواقع صورة للاصل ، ولكن العمق الشديد حوله الى سراب • وقد يخيل اليك أن الغابة كلها تقع فى ذلك العمق ، وأن رءوس اشجارها أضحت تحت مستوى قدميك • ولعل زلزالا كان قد حدث فى ذلك المكان ، فخلف ذلك الانحدار ، فتراءت الغابة وكأنها فى مستوى الغيوم ، ثم تدحرجت الى أسفل ، حتى استقرت فى مكانها

والعجيب ، الذى بعث الدهشة فى نفس يورى ، وبهره جماله ، أنه كان يحيط بالمرتفع ، على مدى طوله ، سور من الجرانيت ، انتصبت صخوره على أطرافها ، وقد ظن يورى لاول وهلة ، أنها من صنع البشر ، وأنها أحد المعابد الوثنية كانت تقام فيه الصلوات وتقدم الذبائح

فى هذا المكان ، وفى صباح يوم بارد مشئوم ، نفذ حكم الاعدام فى اثنى عشر شخصا ممن تزعموا المؤامرة ، كما أعدم اثنان من المرضين لادانتهما فى تهمة تهريب الفودكا

سار المحكوم عليهم بالاعدام الى ذلك المكان ، تتبعهم نخبة من رجال الانصار ، من بينهم بعض الحرس الخاص بالقائد وما أن وصلوا ، حتى التفوا حولهم فى نصف دائرة ، ثم اخذوا يتقدمون وقد صوبوا اليهم فوهات بنادقهم • وبذلك جعلوهم أمام الامر الواقع الذى لا مفر منه ، فان هم تراجعوا الى الخلف ، ابتلعهم المنحدر ، وصاروا من الهالكين

وبدا المحكوم عليهم كالاشباح ، من طول السجن وقسوة التعذيب والاستجواب المتواصل ، فاختفى مظهرهم الانسانى بين شعرهم الطويل ، وعيونهم الزائغة ، ووجوههم الكالحة وكانوا قد جردوا من سلاحهم عندما اكتشف أمرهم ، فلم يخطر على بال أحد أن يعيد تفتيشهم قبل تنفيذ حكم الاعدام فيهم

وفجأة ، أطلق رجانيتسكى ، وهو صديق فدوفيتشنكو، وكان يسير الى جانبه ، وكان مثله فوضويا قديما ، ثلاثة أعيرة نارية على الحرس ، سددها بالذات ، نحو سيفوبليوى

وقد اشتهر بالمهارة فى اصابة الهدف ، الا أن يده اهتزت ولعل ذلك لشدة انفعاله ، فأخطأه • وتدخل عامل الشفقة على الرفاق القدامى ، فمنع الحرس من الانقضاض على الجانى والفتك به • وكان لا يزال فى مسدسه رصاصات ثلاث ، وانتابته حالة ذهول لفشله ، أو لعله — لاضطرابه — نسى الموقف ، فالقى بالمسدس على الصخور ، فانطلقت منه رصاصة ، أصابت أحد المحكوم باعدامهم ، اسمه باشكوليا فى قدمه ، فسقط يتلوى من الالم ، وأخذ يصرخ ، وقد أمسك بقدمه ، وعاونه الرجلان الواقفان الى جانبه واسمهمابافنوتكين وجورازديخ ، ورفعاه من ذراعيه ، حتى لا يجهز عليه رفقاؤه الذين لا يعلمون من الامر شيئا • وعجز باشكوليا عن وضع قدمه التى أصيبت ، على الارض ، فاضطر أن يقفز ، وهو يعرج الى الحافة الصخرية ، التى سيق نحوها المحكوم باعدامهم ، وأخذ ينتحب • وكأن بكاءه عود ثقاب ، أشعل الشجون فى نفوس رفاقه ، فأفقدهم رباطة الجأش • فأخذوا جميعا يتوسلون ويشتمون فى وقت واحد ، يطلبون الرحمة ويلعنون ، يبكون ويصلون

وفى هذه اللحظة ، ألقى الشاب جاليولين قبعته ، وانحنى

راكعا على ركبتيه ، وتقدم ـ وهو راكع كسائر زملائه ـ من الصخور الرهيبة ، وأخذ ينحنى بضع مرات تحت اقدام الحرس ، ثم صاح بصوت مدو :

ـ أيها الرفاق ، الرأفة ، الرأفة ، سامحونى أيها الرفاق اننى نادم ، لن أعود الى ذلك بعد الآن ، أطلقوا سراحي ، ولا تقتلونى ، فانا لا أزال شابا ، وأريد أن أعيش ، أريد أن ارى أمى ، دعونى أيها الرفاق ، واعفوا عني ، سأفعل كل ما تأمروننى به ، اننى أقبل الارض ، النجدة ، النجدة . لقد انتهيت يا أماه ‥ !

وما أن انتهى من تضرعاته ، حتى ردد شخص آخر ، كان مختبئا وسط الرفاق :

ـ الرحمة فوق العدل أيها الرفاق ، لا يمكن أن تكون قلوبكم قد قدت من صخر ، فأنتم رحماء طيبون ‥‥ لقد اشتركنا معا ، جنبا الى جنب ، فى حربين ، من أجل غرض واحد ، وقضية واحدة ، ألا يشفع لنا ذلك لكى ترأفوا بنا وتطلقوا سراحنا ، سنحفظ لكم جميلكم ، وسنذكره طول حياتنا ، وستثبت الايام لكم ذلك ٠ ألسنا مسيحيين ، لماذا أراكم لا تجيبون ؟!

أعقب ذلك ، أن انفجر آخرون ، فصاحوا فى وجه سيفوبليوى :

ـ انك يهوذا ! الذى سلم المسيح لليهود ، فهو لهذا قاتله ‥‥ ان كنت تعتبرنا خونة ، فأنت أكثر منا خيانة ، أيها الوغد ، انك تستحق القتل ! أقسمت يمين الولاء لقيصرك ، ثم غدرت به ، وقتلته ، وأقسمت يمين الوفاء والاخلاص لنا ‥ ثم خنتنا ‥ ! اذهب ، فعما قريب ، ستمثل نفس الدور مع رجل الغابة !

والوحيد ، الذى ظل رابط الجأش ، محتفظا بثباته ، هو

فيدوفتشنكو ، فقد ظل حتى وهو على أبواب القبـــر ، معتزا بنفسه ، وقد شمخ بأنفه ، ورفع رأسه ، وشعره الاغـــبر يتطاير فى الهواء • وبرباطـــة جأش ، صاح فى زميلـــه رجانيتسكى ، يحدثه حديث الند للند :

ـ لا تمتهن نفسك ، ولا تذلها ، تضرعك أو احتجاجـــك ان هو الا موجات يرددها الهواء ، ولن تصل الى قلوب هؤلاء الجلادين ، انهم لن يفهموك أبدا ! عـلى أنه لا يجـــدر بك أن تفقد الامل • والتاريخ كفيل بكشف الحقيقة • اننا نموت الآن شهداء فى سبيل المثل العليا ، فى فجر الثورة العالمية، فلتحى ثورة الفكر ، فلتحى الثورة العالمية !

ودوت فى الفضاء أصداء عشرين طلقة ، بناء على أمر تلقـاه الرماة ، ولم يسمعه أحد سواهم ، فجندلت نصف المحكوم باعدامهم فورا ، وقتل الباقون بطلقات أخـــرى ، وانتفض جاليولين ، ثم لفظ آخر انفاسه

فكر الانصار فى الانتقال الى مكان آخـــر ، نحو الشرق ، يكون أكثر ملاءمة لتمضية فصل الشتاء • فأرسلوا الدوريات تتفقد المنطقة ، من وراء الطريق العام ، حيث كانت المياه تغمر البقاع ، ولكنهم عدلوا أخيرا عن فكرة الانتقال . ولكن ليبريوس أخذ يتغيب كثيرا تاركا يورى بمفرده

وفى هذا الوقت توجه يورى لزيارة بامفيل وأسرته ، وكانت أسرته واطفاله قد أمضوا فصل الصيف ، مشردين فى الطرقات، يفترشون الارض ويلتحفون السماء ، وقد أخذ منهم الرعب والاجهاد بسبب ما قاسوه من آلام وأهوال . وقد طبعهم هذا التشرد بطابع أليم لازمهم مـــدى الحيـــاة ، فقـــد اصطبغ شعر الزوجة والابنة والابن الصغير ، تحت تأثير آلام السجن ، بلون أصفر باهت ، وابيضت حواجبهم ، وكأن الشيب لحقهم ، فأضحت ظاهرة تعلو وجوههم التى أرهقها الاجهاد فاسودت .

واستطاع الاطفال أن يتحملوا آثار هذه التجارب القاسية ، أما الام ، فقد صار وجهها كالحا كوجوه الاموات المصفرة . فقد أخنى عليها الخوف والارهاق فزما شفتيها الى بعضهما ، وتصلبت ملامح وجهها ، فأصبحت جامدة جمود الصخر ، كما تحجرت عيناها ، فأصبحتا لا تعبران الا عن الألم والاستسلام

وكانت زوجة بامفيل وأطفاله كل شيء فى حياته ، كرس لهم نفسه ، وأحبهم حب العبادة ، وقد دهش يورى لما كان يبتدعه بامفيل من العاب مختلفة ليسرى بها عن أولاده ويسليهم

وشملت بامفيل الطمأنينة لاجتماعه بأسرته ، فتحسنت حالته المعنوية والصحية معا . على أنه مالبث أن اغتم ، وعاوده شروده ، حين علم أن وجود العائلات أمر غير مرغوب فيه ، لانه مخل بالنظام . وعرف أن النية متجهة الى ترحيل العائلات ، الى مخيمات بعيدة عن المعسكر ، تحت الحراسة .

وبالرغم من أن يورى ألقى الى مسامعه — كى يهدىء من روعه — أن مثل هذا الاجراء قد لا ينفذ ، أو هو بعيد التنفيذ ، فان بامفيل لم يصدق ، وانهارت أعصابه ، وعاوده شرود الذهن



مرت بالمعسكر — قبل حلول الشتاء — فترة من الاضطرابات والقلق ، وحدثت أمور غامضة تنذر بالاخطار . فقد استطاع الجيش الابيض تطويق الانصار ، وفقا لخطة رسمت لهذا الغرض ، وضعها نخبة من القواد المهرة ، منهم الجنرال كادرى ، والجنرال فيتسين ، والجنرال باساليجو ، وهؤلاء اشتهروا بقسوتهم ، وصرامة قراراتهم ، فكان مجرد ذكر اسمهم يبعث الرعدة فى قلوب اللاجئين ، وسكان القرى على السواء

ووقع الانصار فى مأزق ، فكان لزاما عليهم أن يفكروا فى الامر . وادركوا أن السكون من جانبهم ، يشدد عزائم العدو ،

ومهما كانت تحصيناتهم ، فيجب أن يوفقوا الى مخرج من هذا المأزق ، ولو بطريقة تظاهرية

وحشدت قوات هائلة ، لمواجهة التطويق ، ودار قتال عنيف لبضعة أيام ، انتصر فيه الانصار ، وتمكنوا من فتح ثغرة ، والنفاذ منها الى مؤخرة الجيش الابيض

وكانت هذه الثغرة ، مفتاح الطريق الى المخيم ، ولدهشة الانصار ، وجدوا أفواجا من اللاجئين ، من سكان القرى المجاورة ، هاجروا من بيوتهم ، بعد أن قاسوا ألوانا من العذاب على أيدى الجيش الابيض ، فأخذوا يلوذون بالانصار ، ويلتمسون حمايتهم

ولكن الجيش الابيض استطاع أن يسد الثغرة التى فتحها الانصار فى مواقعه ، فأصبح من المتعذر على القوة التى اخترقتها ، أن تعود الى أماكنها

وقامت النساء اللاجئات ، بأعمال باهرة ، تدل على سعة الحيلة ، أفادت الانصار فائدة عظمى ، فكن يقطعن الاشجار ، ويقمن الطرقات والجسور لتسهيل تحركات الانصار ، كما كن يضعن العراقيل أمام الجيش الابيض . على أنهن كن يضعن فى أرجاء الغابة ، رغم البحث عنهن

وتعارض ما فعله الانصار ، مع ما قصدت اليه قيادتهم ، مما أدى الى فشل الخطة التى وضعها ليبريوس

وأخذته بسبب ذلك نوبة من الغضب ، وهو يتحدث الى سفيريد ، الصياد ، بجانب الطريق . بينما أخذ فريق من ضباطه ، وقفوا فى الطريق ، بالقرب من ليبريوس ، يتشاورون فى اتلاف أسلاك التلغراف . ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا على أى عمل ، دون استشارة ليبريوس الذى كان لا يزال منهمكا فى حديثه ، فأومأ اليهم أن يتريثوا

كان قتل فيدوفتشنكو صدمة قاسية لسفيريد ، الذى كان

يعتبر أن جريرته الوحيدة ، انه ينافس ليبريوس نفوذه ، وأنه مصدر لبذر الشقاق فى المعسكر ، وود سفيريد من أعماقه أن يتخلى عن الانصار ، وأن يعيش حياته الخاصة المستقلة ، ولكن الامر ليس بيده الآن ، فقد رسم طريقه ، والخروج على الجماعة ، معناه النهاية والاعدام

وسفيريد ، كان أحد الذين بعث بهم فى أثر اللاجئات ، وقد رأى من الفظائع ألوانا ، كما شاهد الفوضى التى عمت بسبب الاوامر المتناقضة ، وكان بوده أن يبصر قائده بما رآه ، فقد اقترف بعض العناصر فظائع اليمة مع النساء ، حتى انهارت أعصابهن ، فقد أجبرن على السير ، وهن حاملات على رءوسهن وأكتافهن المتاع والاطفال ، فأرهقهن التعب والاجهاد ، وغاض حليبهن ، فطاشت عقولهن من هول ما يعانين ، فتركن الاطفال، والقين الاكياس ، وقررن أن يقفلن راجعات ، ذاكرات لانفسهن أن الموت السريع أفضل مائة مرة من الموت البطىء . ولذلك فضلن أن يرتمين بين أيدي العدو ، لان ذلك خير من وقوعهن فريسة بين أنياب حيوانات الغابة المفترسة

على أنه كان هناك رهط آخر من النساء ، أقوى عزيمة ، وأشد جلدا ، وأكثر شجاعة وضبط نفس ، يتفوقن بها على الرجال

امتلأ رأس سفيريد بكثير من هذه الانباء ، وقد أراد أن يضعها بين يدى قائده ، كما أراد أن ينبهه ويحذره من عصيان آخر متوقع ، أشد خطرا مما سبق، ولكن ليبريوس ، لم يترك له فرصة للكلام ، ليس بسبب اخوانه الضباط الذين كانوا ينتظرون مشورته ، ولكن لانه كان قد تلقى كثيرا من أمثال هذه التحذيرات فى الاسابيع القليلة الماضية



الغابة واسعة الارجاء ، لا يحدها البصر ، وقد نشب قتال

على حدودها الغربية ، فبدا كأنه مناوشـات . وقد اكتظ المعسكر بالناس الذين احتشدوا فيه ، حتى لتظن ان عدد من به لا ينقص ، بالرغم مما يخرج منه الى جبهة القتال

وكان صخب المعركة يترامى من بعيد الى المعسكر . ثم دوت فى الغابة بضع طلقات ، تتابعت متقطعة ، واستحالت فجأة الى طلقات سريعة ، فهرول الحشد الى الخيام والعربات ، وعم الهرج ، وانتاب الجمع نوع من الهياج ، فاستعدوا للقتال

كانت حركة تمويهية ، ولكن بعضا من الجماعة تدافع صوب المكان الذى أطلقت منه النار

وذهل أفراد الجماعة اذ وجدوا انفسهم يقفون أمام رجل ملقى على الارض ، تنزف منه الدماء ، وقد بترت ذراعه اليمنى ، وساقه اليسرى . وادهش الجماعة ، كيف تمكن رجل على هذه الحال ، أن يزحف صوب المعسكر ، بيده وقدمه الباقيتين ! كما اذهلها ان تجـد الذراع والسـاق المقطوعتين ، والدماء تغمرهما ، مشدودتين الى ظهره ، بلوح من الخشب ، كتب عليه : « هذا نوع من القسوة ، ردا على الفظائع التى اقترفتها الوحدة الحمراء » ــ على أنه لم تكن لهذه الوحدة ، فى الواقع ، أية علاقة باخوان الغابة . كما كتب ايضا على اللوح الخشبى : « ستطبق هذه المعاملة على الانصار ، اذا لم يستسلموا فى موعد معين ، ويطرحوا اسـلحتهم ، ويسلموها الى ممثلى الجيش الابيض »

اخذ الرجل الذى يحتضر ، يلتقط انفاسه بصعوبة ، ويتحدث بكلمات لاهثة متقطعة ، ويغيب عن وعيه بين آونة وأخرى ، لغزارة ما نزف من دمائه . فوصف ألوان التعذيب التى يقوم بها رجال فيتسين ، وانهم كانوا قد حكموا عليـه بالاعدام ، ولكنهم عدلوا عن ذلك ، وفضلوا أن يبتروا ذراعه ، وساقه ، ثم رأوا أن يبعثوا به الى المعسـكر ، لينشر الذعر فى نفوس

الانصار . وأنهم نفذوا ذلك ، فأتوا به الى مشارف المعسكر ، ثم أجبروه على أن يزحف ، مستعينين فى ذلك ، باطلاق النار لارهابه

وخارت قوى الرجل ، فأصبح يحرك شفتيه فى صـعوبة شديدة مما أضطر الناس أن ينحنوا فوقه ، كى يلتقطوا كلماته المتقطعة ، وهو يقول :

معركة شديدة تدور ... لنمسك به ... خرجت الدوريات ... بقواتهـا الهائلة ... يريد أن يأخذكم على غرة ... لا أستطيع الكلام ... أكثر من ذلك ... انى أبصق دما ... وسألفظ آخر أنفاسى ...

ـ ... لقد تغلغل ... احذروا ... أيها الرفاق ... ان

ـ اهدأ ، وخذ قليلا من الراحة ، ان انكبابكم عليه يـكاد يخنقه أيها الملاعين ، هل أجدبت قلوبكم من الرحمة ؟!

وعاد الرجل يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وراح يقول ، وهو يلهث :

ـ لتنزل اللعنة على ذلك الشيطان ... أخذ يستجوبنى ، ويقول :

« سأجعلك تسبح فى بركة من دمائك ، اذا لم تذكر اسمك ! »

وكيف كان يمكننى ان أظهر له شخصيتى ... ! فقد كنت هاربا منه ... فى طريقى اليكم

ـ انك تكرر لفظ « هو » من تقصد ؟

ـ مهلا .. دعونى التقط أنفاسى ... سأوضح كل شيء ... هتمان ، والكولونيل بيكيتسين ، وستريسى ، من رجال فيتسين ... لايمكنكم ان تتصوروا مبلغ قسوتهم ... المدينة بأجمعها تئن تحت نيرهم ... انهم يسلقون الناس وهم أحياء ، يقطعون أوصالهم اربا ، انهم يطبقون على الشخص ، من عنقه ، ويدفعونه الى الداخل ... الى المجهول ... مكان مظلم ،

تتحســـه ، فاذا هو قفص داخل عربة ، احتشد به خمسون رجلا . . . وياويل من يقع فى قبضتهم . . . فهو اما أن يشنق أو تطلق عليه النار ، أو يستجوب ، مع الاستعانة على الاستجواب بالضرب ، حتى لايبقى فى الجسد جزء دون جرح ، ثم يملئون الجراح بالملح ويصبون فوقها الماء الساخن فى درجة الغليان . . . واذا تقيأ الشخص ، أو قضى حاجته ، من شدة الكرب والالم ، اضطروه أن يبتلع ماتقياه أو ماتبرزه . . . أما النساء والاطفال . . . فلا أستطيع ان أصف مايصيب هؤلاء المنكودين ، فانه مما تقشعر له الابدان !

وما أن وصل المسكين الى هذا الحد من حديثه اللاهث ، حتى انهارت أعصابه ، وخارت قواه ، وصرخ صرخة مدوية ، ثم أسلم الروح ، دون أن يتم حديثه

واذ راى الجمع ذلك ، رفعوا قبعاتهم ، أمام جلال الموت ، ثم رسموا شارة الصليب على صدورهم ، ثم طأطئوا رءوسهم خاشعين

وانتشر فى المخيم ، فى تلك الليلة ، انباء حادث اشد هولا

لقد كان بامفيل أحد الجماعة الذين أحاطوا بالرجل المحتضر، وقد رآه بعينى راسه ، وسمع حديثه ، كما قرأ التهـديد المسطر على اللوح الخشبى . فتملكه ذعر وخوف شديدان ، على عائلته ، بعد موته ، أكثر من ذى قبل ، وتراءى له أنهم يسومون زوجته وأطفاله ألوان التعذيب ، وتراءت له وجوههم وقد أخذت تتقلص ، بل خيل اليه أن أنينهم وصراخهم يطنـان فى أذنيه ، يطلبون النجدة

وما ان وصل الى هذا الحد من خيالاته ، حتى تملكه يأس أليم ، ورأى أن يجنبهم العذاب الذى تخيله ، كما راى ان يضع حدا لعذابه هو ، فعمد الى قتلهم بنفسه ، فأرداهم جميعا ، زوجته وأطفاله ، بالفأس الحادة نفسها ، التى كان

يصنع بها العابا يسلي بها ابنه الحبيب وطفلتيه العزيزتين

على أنه لم يبادر الى قتل نفسه فورا ! ترى ماذا كان يجول بخاطره ؟ وماذا كان ينتظر ؟ بل ماذا كان يريد بعد ذلك ؟! لقد كان في حالة ذهول ، بل في حالة جنون ميئوس من شفائه

واجتمع ليبريوس ، ويورى ، وأعضاء مجلس الجيش ، ليتناقشوا فيما عساه أن يتبع نحوه ، فراح هو يهيم على غير هدى ، في أرجاء المعسكر ، وقد تدلى رأسه فوق صدره ، واخذت عيناه الصفراوان ، تحدقان في الفضاء ، دون أن يبدو عليهما أنهما تبصران ، وقد تقلصت عضلات وجهه ، فعبرت عن ألم عميق ، انطبع على وجهه ، ولازمه . ولم يشفق عليه أحد ، بل تجنبه الجميع ، حتى اشار بعضهم الى اعدامه ، ولكنهم لم يقرروا ذلك

وعند الفجر ، اختفى من المعسكر ، هاربا من نفسه ، بعد أن لم يبق أمامه في العالم أمل



حل الشتاء ببرودته وجليده ، واخذت تصدر من الضباب المتكاثف أصوات غريبة ، وأشكال مختلفة ، وهى تتحرك ببطء تارة ، وتتوقف تارة اخرى ، ثم ذاب جليدها . ولم تكن الشمس كالعهد بها في الصيف ، تتألق ، وتلقي أشعتها الذهبية في قوة واعتداد ، بل حلقت فوق الغابة قرمزية اللون ، انبعثت منها أشعة باهتة ، تلقي بنفسها فوق الاشجار ، فأضفت جوا حالما في الغابة

وأخذ القوم يسيرون ، وقد انتعلوا احذية لبادية ، تضرب في الارض دون أن يصدر عنها صوت ينبىء أن هناك اناسا يسيرون ، ولكنها كانت تدغدغ الثلج في سيرها ، وراحت الاجساد المكتسية بالفرو ، تتهادى . ثم توقف الجمع عن

المسير ، وأخذ الاخوان يتحدثون ، تقترب وجوههم الحمراء من بعضها ، حتى كانت لحاهم تلامس بعضها ، وتتصاعد من أفواههم غيوم من البخار

والتقى يورى ، وهو يسير على هدى الطريق التى طبعتها الاقدام ، بليبريوس ، فقال له هذا :

ـ مرحبا بك ، فى هذه الغربة ! انني أدعوك الى مغارتى فى هذه الليلة ، لتقضيها معى ، لنتحدث طويلا ، ففى جعبتى كثير من الاخبار

ـ هل وصل البريد ؟ وهل به أنباء من فاريكينو ؟

ـ مطلقا . . . لاخبر من اسرتك أو اسرتى ، وهذا يبعث فى نفسى الطمأنينة، انني أفهم من ذلك ، أنهم ابتعدوا عن مواطن الخطر فى الوقت المناسب ، والا لكانت قد وصلتنا انباؤهم ، على العموم سنتحدث عن ذلك الليلة ، وسأكون فى انتظارك

وبر يورى بوعده ، وتوجه الى ليبريوس ، وكان أول سؤال وجهه اليه :

ـ خبرنى بالضبط عن انباء عائلتينا

ـ لماذا تحصر تفكيرك فى أفق ضيق ؟! انها على ما أعلم آمنة لم يصبها ضر ، ولكن هناك أخبارا هامة ، هل لك فى شريحة من اللحم ؟

ـ ليست بى رغبة ، وشكرا ، انما أرجوك ألا تغير الموضوع

ـ لماذا ترفض مشاركتى الاكل ، سأتناول أنا قطعة من اللحم ، ولو أننا احوج مانكون الى الخبز والخضر . وددنا أن نزيد مئونتنا من الجوز وأثمار الخريف . . . الا تعرف أننا نسير من حسن الى أحسن ، وأن كل ماتوقعته ، قد حدث فعلا . وأن الظروف السيئة قد زالت ، فان كتيبة كولتشاك تتقهقر وتنسحب ، ومعنى ذلك ، الهزيمة ، اتذكر ماكنت اردده على سمعك ، بينما كنت أنت تتذمر ؟

ــ متى رأيتنى أتذمر ؟!

ــ دائما ، وخصوصا عندما أرهقنا فيتسين بهجومه

وعلى الفـور ، تواردت فى ذهن يورى ، ذكريات الخريف ، واعدام العصاة ، وكيف أقدم بامفيل على قتل زوجته واطفاله ، وتلك المعارك التى بدت كأن ليس لها نهاية ، وكانت وحشـية الجيش الابيض ، لاتقل فى قسوتها وضراوتها عن وحشـية الحمر ، فالاهانة تقابلها اهانة ، والقتل يقابله قتل ، والانتقام يقابله انتقام . وأحس يورى برائحة الدم تنفذ الى خياشيمه ، فشعر بدوار ، أوشك أن يجعله يتهالك ، ثم أخذت عينـاه تزوغان . . . فهل كان ذلك تذمرا ؟ ، كما ظنه ليبريوس ، لقد كان شيئا آخر غير التذمر ، وهل كان باستطاعته أن يوضح له الامر ؟!

كانت المغارة مضاءة بمشاعل قائمة على حوامل معدنيـة ، يرسل اشتعالها رائحة عطرية ، وكلما احترق مشعل ، وتحول الى رماد ، كان يسقط فى وعاء مملوء بالماء ، فيشعل ليبريوس غيره

ــ ماذا أشعل ؟! لقد نفد الزيت ، ويشتعل الخشب بسرعة لانه جاف ، الا تريد حقا شريحة من اللحم ؟ ماذا تنتظر ازاء داء الجدرى ، الا يجدر بك أن تدعو القادة الى اجتماع ، تلقى فيه محاضرة عن كيفية الوقاية منه ، واتقائه ؟!

ــ ماذا جنيت ، بالله ، حتى تصر على تعذيبى ، لماذا لاتخبرنى بأنباء ذوينا ؟

ــ لقد ذكرت لك انه ليس فى التقرير اية اشارة عن ذلك . على اننى عرفت ، من البلاغات الاخيرة ، أن الحرب الاهلية ، قد توقفت رحاها ، وان قوات الكولتشاك مزقت شر ممزق ، وأن جناحا كبيرا من الجيش الاحمر ، يطاردها فى انسحابها نحو الشرق ، على مدى السكة الحديدية صوب البحر . وأن

قسما آخر يسرع فى ذلك الاتجاه ، وسنجمع كل قوانا ، لنضرب الضربة القاضية ، فنشتت مؤخرة الجيش الابيض . لقد تطهر الجانب الاكبر من الروسيا الجنوبية من الاعداء ، ألا يكفيك هذا ؟! الا يسرك هذا ؟!

ـ كل ذلك يملؤنى بهجة وسرورا ، ولكنى أريد أن أطمئن ، وأن أعرف أين توجد عائلاتنا ؟

ـ ومن حسن الحظ أنها ليست فى فاريكينو ، ولم يقم أى دليل على الاحداث المزعجة التى أنبأك بها كامينودفورسكى ، لقد كان ماقيل مجرد اشاعة كاذبة ، من أن أناسا مجهولين اقتحموا فاريكينو فى الصيف الماضى ، وكانت هذه الاشاعة فى نظرى مجرد هراء ، لسبب بسيط ، هو أن القرية كانت مهجورة ، لامر ما ، وذلك لحسن حظ سكانها ، اذ غادروها فى الوقت المناسب

ـ وماذا حل بيوريانتين ؟ وفي أيدى من هى الآن ؟

ـ وهذا أيضا هراء وخرافة ، ولا يمكن أن يكون حقيقة بحال من الاحوال

ـ ماهو ؟

ـ ما يشاع من أن البيض يرابطون هناك ، أن هذا مستحيل ، سأقنعك ، وستتأكد من ذلك بنفسك

وتناول ليبريوس مشعلا آخر ، وضعه فى الحامل ، ثم أخرج من مستنداته خريطة ، نشرها أمامه ، فظهرت فيها المنطقة التى يتكلم عنها ، وأخذ يوضح الموقف ، والقلم بين أصابعه

ـ هل ترى ؟ هذه هى المواقع التى هزم فيها الجيش الابيض ، فى كل هذه الامكنة من المنطقة ، هل ترى ؟

ـ نعم

ـ يتضح لك من ذلك ، أنه ليس بامكانهم ، بحال من

الاحوال ، أن يكونوا فى مكان بالقرب من يوريانتين ، لانهم فى هذه الحالة ، يصبحون أسرى ، حيث قطعت مواصلاتهم . وقادتهم ليسوا من الغباء ، بحيث لا يدركون ذلك ، مهما كانت قلة خبرتهم وكفاءتهم . أراك ترتدى معطفك ! هـل تنوى الذهاب ؟

ــ اننى مضطر للعودة بعد فترة قصيرة ، فان الدخان هنا كثيف ، وقد أصبت بالصداع ، سـأخرج لأتنسـم بعض الهواء

وما أن خرج يورى ، حتى أزاح نتف الثلج عن قطعـة الخشب ، التى كانت تستعمل كمقعد عند المدخل ، ثم جلس عليها ، وقد اتكأ بمرفقيه فوق ركبتيه ، واشتمل رأسه بين كفيه

تبخرت من ذهنه ، جميع ذكريات الغـابة ، والمعسكر ، والعشرين شهرا التى قضاها بين الانصار فى تنقـلاتهم ، ومعاركهم ، وازدحم ذهنه ، بدلا من ذلك كله ، بذكريات أسرته العزيزة الحبيبة إلى نفسه ، وقدح زناد فكره ، علّه يتنبـأ بمصيرهم ، ومرت بذهنه عدة صور ، كانت كل منها أشـد هولا من الاخرى

هذه زوجته الحبيبة ، تونيا ، تسير فى أحد الحقول ، تهاجمها عاصفة هوجاء ، وهذا ابنه الحبيب ساشا ، وقد حملته بين يديها ، تحاول أن تدرأ عنه خطر العاصفة ، فتغطيه بدثارها ، وقد أخذت قدماها تغوصان فى الثلج ، فتجعلان سيرها عسيرا حتى تضطر الى الاستماتة فى السير ، ولكن العاصفة تقهرها ، فتلقى بها أرضا ، انها تنهض بعد أن تتعثر ، وتقـع ، وهى ليست من القوة ، بحيث يمكنها تحمل ذلك ، الثلوج تغمرها ، والرياح تصفعها ... آه ...

ما أشد تعاسته ! ! لقد غاب عن ذهنه أن معها طفلين ، ترضع أصغرهما ، فهى لاتدرى ماذا تفعل ، بل هى أقرب ما تكون ،

فى حالها هذه ، الى اللاجئات ، اللواتى تتحطم أعصابهن ، وتنهار قواهن ، ويصبن بالجنون ، وذلك نتيجة محتومة للالم والحزن والارهاق

انها لتنوء بعبء نفسها وطفليها ، وليس الى جانبها معين ، فزوجها ، أبو ساشا ، وهو أقرب الناس الى قلبها ، وأجدرهم بالمبادرة الى معونتها ، قد احتجب ، وغاب ، ولا تعرف أن كان حيا أو ميتا ، انه بعيد ، بل بقى طول حياته بعيدا ... انه يتساءل أى نوع من الآباء هو ؟ ! وهل يجدر بالاب ، مع ما فى هذه الكلمة من معنى سام عميق ، أن يكون بعيدا ؟ ! ثم ماذا عن والد تونيا ؟! ابن الكسندر الكسندروفيتش ؟ وأين نيوشا ، وأين الآخرون جميعا ، لعل من الافضل الا يفكر فى ذلك !

واذ وصل يورى الى هذا الحد من التفكير ، انتصب واقفا ، واستدار ليعود الى المغارة . وفجأة عدل عن ذلك ، اذ سبحت به أفكاره الى وجهة أخرى

لقد احتفظ منذ زمن بعيد ، بصندوق من البسكويت ، وزوجين من الزحافات ، وأشياء أخرى مختلفة ، كان يرمى الى الانتفاع بها اذا اضطر الى الهرب ، وكان قد دفنها تحت الثلوج ، خارج المخيم ، عند جذر شجرة من أشجار الصنوبر الباسقة . ولكى يحفظ مكانها فى ذاكرته ، حفر علامة على الشجرة

أخذ يورى يسير فى الطريق الذى خطته الاقدام على الثلوج ، ميمما شطر كنزه المدفون . وكان القمر مكتملا ، والليلة صافية الاديم ، وقد تجنب الحرس، اذ كان يعرف أين يكمنون ، وما أن وصل الى شجرة الزيزفون ، حتى لمحه أحد الحراس من بعيد ، فصرخ به ، وركض على زحافتيه ، حتى صار أمامه ، فوقف منتصبا ، وحدق فيه ، ثم قال :

ـ مكانك ، لا تتحرك ، والا أطلقت عليك النار ، من أنت ؟ قل كلمة السر ؟

ـ ماذا أصابك أيها الرجل ؟ ! ألا تعرف من أنا ؟ ! ألا تعرف طبيب المعسكر ؟ الدكتور زيفاجو !

ـ أعتذر أيها الرفيق زيفاجو ، لقد غبت عن ذهني ، ولاأقصد تجريحك ... لا يهمنى أن كنت زيفاجو ، أو غيره ... لن أدعك تتقدم قيد أنملة ... والاوامر يجب أن تحترم

ـ على رسلك ... كلمة السر هى « سيبيريا الحمراء » وجوابها : « ليسقط الدخلاء »

ـ حسنا ، لك أن تذهب الآن ، ولكن ماذا يدعوك الى الحضور الى هذا المكان فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟! هل تعود مريضا ؟

ـ لم أستطع أن أنام ، بسبب الظمأ ، فخطر لى أن أخرج لاتنسم هواء الليل العليل ، وأروى ظمئى ببعض الثلوج . وقد استهوتنى شجرة الزيزفون ، بأثمارها الناضجة المثلجة ، فرأيت أن أقصدها ، واحصل على بعض ثمارها

ـ انك تخرف أيها الرجل ، هل تثمر الاشجار فى الشتاء ؟! اننا نحاول ، منذ سنوات ثلاث ، أن نجعلكم تعقلون ، ولكنكم تصرون على التمسك بخرافاتكم وأوهامكم ! ... اذهب أيها المعتوه ، لتجمع ثمارك ... ماذا يهمنى أنا من هذا ؟ !

واستدار الحارس ، وعاد بمثل السرعة التى جاء بها ، فانتصب على زحافتيه ، وأخذ يصفر ، وهو يسير فوق الثلوج ، حتى اختفى خلف الشجيرات والاعشاب

وعلى ضوء معالم الطريق ، وصل يورى الى شجرة الزيزفون ، فوجد أن جزءا كبيرا منها كسته الثلوج ، وقد تجمدت ثمارها وأوراقها ، وقد تدلى بجانبه غصنان من أغصانها ، أبيضان ، فبعثا فى نفسه ذكريات جعلت الدفء

والحنان يسريان فى بدنه ، اذ تذكر ذراعى لارا البضتين ، فجذب الغصنين الى صدره ، مما أدى الى سقوط الثلج فوقه ، وفى ذهول ، دون أن يعى مايقول ، أخذ يتمتم :

ـ سألقاك أيتها الحبيبة الفاتنة ... يا معبودتى ... أنت كل شىء لى فى الحياة !

وتوغل بعيدا فى الغابة ، وقد سطع القمر فى أوج اكتماله ، والليل صاف ، والنسيم عليل ، حتى وصل الى الشجرة التى يقصدها ، فاستخرج كنزه ، وغادر المعسكر



# الفصل الثانى عشر

# أمام منزل التماثيل

ولى الشتاء ، ورحل الجيش الابيض عن مدينة يوريانتين ، تركها للحمر ، فلم يعد يسمع قصف المدافع ، كما حقنت الدماء وزال بعض الشيء ، القلق الذى ينتشر فى أوقات الحرب ، ومع ذلك ظل الناس فى حذر

وكنت تقرأ على الجدران اعلانا عسكريا هذا نصه :

« على من يستوفى الشروط ، أن يتقدم للحصول على بطاقات العمل ، والرسم المقرر للبطاقة خمسون روبلا ، ويمكن الحصول عليها ، من مكتب العمل ، الكائن بشارع أكتوبر رقم ١٥ غرفة رقم ١٤٥ ، بيوريانتين »

والى جواره اعلان آخر :

« بالمدينة مؤن من الغذاء وفيرة ، كان قد اختزنها البرجوازيون ، ليشيعوا الفوضى ، ويبعثوا الذعر فى النفوس »

وفى ذيل هذا الاعلان كتبت هذه العبارة :

« يقتل رميا بالرصاص ، كل من يضبط عنده طعام مخزون »

ويقول اعلان ثالث :

« يصرح للذين لا ينتمون الى طائفة المستغلين ، بالانضمام الى جماعة المستهلكين ، ويمكن الاطلاع على كافة البيانات والتفاصيل ، بمكتب العمل ، بشارع اكتوبر رقم ١٥ غرفة رقم ١٤٥ بيوريانتين »

وذيل هذا الاعلان بتحذير للجنود السابقين ، هذا نصه :

« يتحتم على كل جندى سابق أن يسلم سلاحه ، ويعاقب بأشد العقوبات ، كل من يحتفظ بسلاح ، بدون ترخيص جديد ، كما ينص على ذلك القانون . ويمكن الحصول على الترخيصات الجديدة من مكتب اللجنة الثورية العسكرية ، شارع أكتوبر رقم ١٦ غرفة رقم ٤٨ بيوريانتين »



اندس رجل نحيف ، يرتدى زيا غريبا ، عليه لطخ من الطين، وقد حمل على كتفه كيسا ، واستند الى عكاز بين الجماعة الواقفة أمام البناء . وتخللت لحيته بعض شعيرات بيضاء ، بعكس شعر رأسه المشعث الطويل ؛ فقد ظل على لونه . هذا الرجل كان يورى ، وقد تخلى عنه معطفه الفرو ، لعله أخذ منه قسرا فى الطريق ، أو ربما قايض عليه بطعام يتبلغ به . أما السترة التى ارتداها ، فكانت ضيقة ، ممزقة ، ذات كمين قصيرين ، مما ينبىء بأنها ليست سترته

وكان بالكيس الذى حمله فوق كتفه ، بعض كسر من الخبز ، أغلب الظن أن أحدا جاد بها عليه فى الطريق ، كما كانت به قطعة من اللحم المقدد . وقد وصل يوريانتين منذ فترة قصيرة، ولكنه قضى أكثر من ساعة ، وهو يجوب ضاحية المدينة ، الى أن وصل الى شارع التجار

لقد بلغ منه الضعف منتهاه ، وأنهكت الرحلة قواه . وتوقف عن السير عدة مرات ، وهو يقاوم رغبة ملحة ؛ فى الركوع ، وتقبيل الارض التى يسير فوقها ، والتى كان قد يئس من أن عينه ستقع عليها مرة ثانية ، وقد غمره الآن مرآها بالسعادة

حاذى يورى فى معظم رحلته ، سيرا على الاقدام ، خطوط السكة الحديدية ، التى كانت تالفة ، تكسوها الثلوج ، فكان يجتاز قطارا بعد آخر ، من القطارات التى هجرها الجيش

الابيض ، فتوقفت عن السير ، لنفاد الوقود ، وانهزام كولتشاك ، وهبوب العواصف الثلجية . وقد امتدت هذه القطارات ، ساكنة فى أماكنها ، الى مسافة عدة أميال ، واتخذت بعض العصابات المسلحة من قطاع الطريق ، بعض هذه القطارات حصونا ، كما اتخذها بعض المجرمين ، والمطاردين السياسيين ، مخابىء لهم . وصار عدد من تلك القطارات قبورا لضحايا التيفوس والصقيع ، اللذين كانا يجتاحان القرى ، فيقضيان عليها

كانت هذه الفترة خير مصداق للمثل القائل « الانسان غريم الانسان » ، فقد كان المسافر يهرب من زميله ، والغريب يفتك بالغريب ، بل بلغ الامر الى درجة أن أكل الناس فيها بعضهم بعضا ! فقد انمحت القوانين الاجتماعية والمدنية ، وأصبحت الكلمة العليا لقانون الغابة

وكان يورى يتجنب بحذر ، ما يلمحه من حين لآخر ، من أشباح تسعى بين الحفر ، أو تتلمس الطريق ، ولكن تراءى له أن بعضها كان وديعا أليفا ، وخيل اليه أنه سبق أن التقى بها فى معسكر الانصار . وكان مخطئا فيما خيل اليه . ولكن حالة واحدة منها لم تفت عليه ، وصدق فيها ظنه ، اذ لمح ذلك الفتى ، الذى ظهر بين الثلوج التى حجبت بعض العربات ، ليقضى حاجة ، ثم يعود ، فعرف فيه واحدا من جماعة اخوان الغابة ، عرف فيه جاليولين ، الذى أشيع أنه قتل رميا بالرصاص ، فى حين أنه كان قد جرح ، وأغمى عليه ، وعندما أفاق ، وعاد الى رشده ، أخذ يزحف ، حتى اختبأ فى الغابة ، وبقى فيها حتى شفى من جراحه . وهاهو ذا الآن ، يحمل اسما مستعارا ، فى طريقه الى كريستوفوزدفيجنسك ، يتخذ من القطارات ستارا ، ويختفى عن الانظار اذا أبصر انسانا

وكانت هذه الحوادث والمناظر أغرب مما يتصوره الانسان ،

وكأنها صور لحياة تجرى فى كواكب اخرى ، ساقها القدر الى كوكبالارض ، ولذلك ، فان الطبيعة وحدها هى التى تظل حفيظة على التاريخ

وينتهى كل يوم ، بمساء هادىء ، يخيم عليه لون وردى ، وتزينه شجيرات ناعمة ، وجداول يغشاها الصقيع ، بين ضفاف من الثلج ... هكذا ستكون أمسيات يوريانتين ، ناعمة كالزهر

وخطر ليورى أن يقرأ الاعلانات العسكرية ، الملصقة على جدران منزل التماثيل ، على أنه ، بقوة لا ارادية ، أخذت عيناه تحدقان فى نوافذ الطابق الثالث من المنزل المواجه .
انها كانت نوافذ الغرف التى حشد فيها أثاث السكان السابقين . أما الآن ، فرغم الصقيع الذى انتشر عليها ، فان الزجاج لاح شفافا ، وقد أزيل عنه الطلاء الابيض ، فهل عاد اليه سكانه السابقون ؟ أم ترى ، هل نزحت لارا عنه ، وسكنه آخرون ، فأعادوا ترتيبه ؟ !

ولم يحتمل يورى تلك الشكوك والهواجس ، وفى ثبات وعزم ، عبر الشارع ، ودلف الى المنزل ، وارتقى السلم الامامى ولم يكن غريبا عليه ، بل أكثر من ذلك كان عزيزا عليه . فكم جالت ذكرياته بفكره فى المعسكر ، فكان يذكر شكل الدرجات ، بل عددها ، وكان ينفذ ببصيرته الى المخزن الكائن فى الطابق الارضى ، حيث تكدست الكراسى المحطمة . لقد كانت جميعها فى أماكنها ، لم تنقص ، ولم تتحرك ، وجال بذهن يورى أن يقبل السلم شكرا وامتنانا ، لاحتفاظه بالماضى وذكرياته

وكان الجرس الموجود قد تحطم ، فى أخريات أيام تردده على المنزل ، قبل أن يلقى الانصار القبض عليه ، ورغم ذلك ألحت به رغبة أن يقرع الجرس ، ولكنه لاحظ وجود قفل فىالباب القديم يتدلى منحلقتين ذواتى نقوش ، بقيت آثارها ،

وقد دله ذلك ، على مدى التخريب ، الذى طرأ على المكان ، أثناء غيبته

وشعر يورى من أعماقه ، أن لارا وكاتنكا ، ليستا فى المنزل ، بل لعلهما غادرتا يوريانتين ، وربما ليستا على قيد الحياة الآن • وقد وطن نفسه على احتمال أسوأ الفروض • وأراد أن يبحث عنهما فى كل شبر من المنزل ، بأن يتناول المفتاح من الثغرة التى بالجدار ، حسبما كانت قد أفهمته لارا ، وطرق الحائط بقدمه ، حتى يهرب ما قد يكون بالثغرة من فئران . وكان يائسا من أنه سيجد شيئا ، لان الثغرة كانت مسدودة بحجر ، فرفعه ، وأدخل يده فى الثغرة ، ويا للعجب مما وجد ! وجد رسالة ومفتاحا ، وكانت الرسالة من الطول بحيث شملت صفحة كبيرة ، فتناولها وذهب الى النافذة بجوار المدخل ، ولدهشته ، وجد أن الرسالة موجهة اليه ، ففضها ، وراح يلتهم كلماتها :

« رباه ، يا لسعادتى ! علمت أنك لاتزال حيا ، وأن السلامة رافقتك فى عودتك ، رآك أحدهم بالقرب من المدينة ، فهرول يحمل الى البشرى ولعلك ستقصد راسا الى فاريكينو ، لذلك جعلتها وجهتى ، أنا وكاتنكا . على أننى من باب الاحتياط ، تركت المفتاح فى مكانه المعهود . انتظرنى ، ولا تذهب ، ستجد اننى أشغل الغرف الامامية الآن . وستجد أن المسكن يكاد يكون خاويا ، فقد اضطرتنى الظروف لبيع بعض الاثاث . وقد تركت لك بعض الطعام ، أغلبه من البطاطس . كل كيفما تشاء واحتفظ بما قد يتبقى ، اننى فى دوامة من الفرح تكاد تذهب بعقلى »

انتهت الصحيفةعند هذا ، ولم يتنبه الى ان تتمةالرسالة على الصحيفة الاخرى ، فقبل الرسالة ، ثم طواها ودسها فى جيبه مع المفتاح . وغمرته فرحة طار لها قلبه ، ولكنها امتزجت

بشعور من الالم الحاد ، فقد استنتج من ذلك ، أن لارا ذهبت الى فاربكينو ، لعلمها بأن عائلته ليست هناك ، وسرعان ما لفه الحزن الشديد من أجل عائلته ، لماذا لم تنوه عنها في رسالتها ؟ ولماذا لم تخط حرفا واحدا عن مصيرها كأنها ليست في عالم الوجود ؟!

وابتدأ الظلام يخيم على الكون ، فأراد أن يقرأ الاعلانات الملصقة في الشوارع ، على ضوء النهار الذى بدأ يخبو ، اذ كان لزاما عليه أن يلم بالاحكام والقوانين والتعليمات المفروضة حاليا ، فربما يكلفه جهله بها حياته ، فاستدار ، دون أن يدخل المنزل ، وهو لا يزال يحمل الكيس فوق كتفه ، وهبط درجات السلم ، وعاد الى الشارع ، والى الجدران المليئة بمختلف الاعلانات العسكرية



انتهى يورى من قراءة الاعلانات ، وشعر أن رأسه يدور ، ثم أغمى عليه ، وسقط على رصيف الشارع . وأسعفه بعض الناس حتى أفاق ، ونهض واقفا ، وعرضوا عليه مرافقته الى المكان الذى يقصده ، ولكنه شكرهم بلطف قائلا :

ـ ليس أمامى الا أن أعبر الشارع

ثم دلف الى المنزل للمرة الثانية ، على أنه في هذه المرة ، فتح باب مسكن لارا ، وكان الضوء لايزال ينبعث في البهو ، فسره ذلك كثيرا

وأثار فتح الباب خليطا من الضجيج ، اذ سقطت بعض الاطباق ، وأخذت الفئران تقفز من مكانها الى الارض ، وتفر مذعورة ، ولعل هجرة السكان ، وهدوء المكان ، هيأ لها الجو لتتناسل ، فشعر يورى بالاشمئزاز ، وحار كيف يتصرف ، فقرر أن يكمن باحدى الغرف ، ويحكم اغلاقها عليه

وذهب الى الجزء الذى لا يعرفه من المسكن ، فعبر ممرا مظلما انتهى به الى منزل التماثيل ، فرأى جمعــا من الناس ، يقرءون الاعلانات

وكان ضوء الغرفة هادئا ، وشعر بالبرودة تسرى فى أرجاء حجرة نوم لارا

وعن له قبل ان يستقر أن يحلق لحيته ويقص شــعره . وكان قد بحث من قبل عن دكان حلاق فى الجزء الاوسط من المدينة حيث كان يعهد وجود تلك الدكاكين . ولكنه وجد جانبا منها فارغا من شاغليه ، ووجد البعض الآخر وقد تحول الى اغراض اخرى . والعدد القليل الباقى من دكاكين تلك المهنة مغلق الابواب . ولو كان لديه موسى لحلاقة لحيته لما احتــاج الى حلاق . وكان فى وسعه أن يستغنى عن الموسى بمقص ، ولكنه عبثا حاول العثور على مقص بين أمتعة لارا التى قلبها رأسا على عقب

وخطر له عندئذ أن يقصد محل حياكة ملابس كان يعرف موضعه فى شارع اسباسى . فان وفق فى العثور عليه فربما اقرضه صاحبه مقصا يقص به شعره ولحيته

وأسعده الحظ أن يجد دكان الحياكة قائما حيث يعهده ، وللدكان نافذة كبيرة تطل على الشارع . فيستطيع السائر أن يرى العاملات وهن فى الداخل . وكان عددهن كبيرا . اذ انضمت الى الخياطات المحترفات جملة من العجائز الملمن بسرعة بمبادىء تلك الحرفة ، والتحقن بالعمــل ليصبح من حقهن الحصول على بطاقات العمل التى تضمن لهن الانتساب للطبقة العاملة . وصار المحل الآن متخصصا فى صنع الثياب العسكرية المختلفة ، ولا سيما المعاطف المبطنة بالفرو

وطرق يورى زجاج النافذة الكبيرة وأشار بيديه معبرا عن رغبته ، فى الدخول . فأخــذت العاملات يشرن اليه بأيديهن

ايضا أن المحل لا قوم الآن بقبول الطلبات الخاصة بالافراد . ولكنه ألح فى طلب الدخول ، فأشرن اليه بما يفيد أنهن مشغولات وعليه أن ينصرف ، فجعل يحرك اصبعيه مقلدا حركة المقص ، فخطر لهن أنه يقلد حركاتهن على سبيل السخرية منهن . ويضاف الى هذا أن رثاثة ثيابه وطول شعره ولحيته أوحيا اليهن أنه مصاب باختلال فى قواه العقلية فانفجرن ضاحكات عليه وهن يومئن اليه كى ينصرف

واخيرا خطر له أن يدور ويدخل من الفناء الخلفى للدار ويطرق الباب الخاص بالعاملات

وفتحت له الباب امرأة عجوز عابسة الوجه ترتدى ثوبا اسود ، ويبدو من نظراتها أنها رئيسة العاملات . وبادرته بقولهـــا :

ـــ ما اشد لجاجتك ! لماذا تطرق بابنا ؟ قل بسرعة ماذا تريد !

ـــ كل ما أريده مقص . فلحيتى وشعرى كما ترين . ولم اجد دكان حلاق فى المدينة كلها . فلو أعرتنى المقص لاستطعت أن أفرغ به من اصلاح شأنى فى مدى دقيقة واحدة ثم أعيده اليك وأكون شاكرا لك جدا

وجعلت المرأة العجوز تجيل فيه طرفها وقد خطر لها انه مجنون ، وأدرك ذلك فأخذ يفسر لها الامر قائلا :

ـــ المسألة انى وصلت الآن من سفر طويل جدا . ووجدت منظرى هكذا غير لائق . فخطر لى أن أقوم بهذا العمل بنفسى ما دامت جميع دكاكين الحلاقة مغلقة . ولما كنت محتاجا الى مقص ، وليس تحت يدى مقص ، لم يعد أمامى سوى حـــل واحد هو أن اقترض مقصا . ولهذا أطلب منك ان تعيرينى مقصا من مقصاتكن مدة دقيقة واحدة

فهزت العجوز راسها ، وقالت له :

ـ وهو كذلك . سأتولى بنفسي قص شعرك . ولكن ينبغي أن أحذرك انك اذا كنت ترمي من وراء قص شعرك أن تتخفى وتتنكر لاسباب سياسية ، ففي هذه الحالة سنبلغ ضـــدك السلطات لاننا لا نستطيع أن نجازف برقابنا من أجلك . والآن أدخل !

وأدخلته الى غرفة ضيقة وأجلسته فوق كرسي ودست تحت ذقنه فوطة كبيرة على طريقة الحلاقين . وخرجت لتعود بعد قليل وفى يدها مقص ومشط ومسن وموسى . فارتسمت الدهشة على وجه يورى . وعندئذ هزت المرأة العجوز رأسها، وقالت :

ـ لا تعجب ، لانني مارست جميع أنواع الحرف وتقلبت بينها . وكنت فى فترة ما من حياتي حلاقة . وكان من الضروري أن أتعلم قص الشعر وحلاقة الذقون عندما التحقت ممرضة بالجيش أثناء الحرب . والآن فلنقص شعر هـــذه اللحيـــة أولا ، ثم نحلقها بالموسى

ـ شكرا لك وأرجو أن تقصري لى شعر رأسي جـــدا . وآسف لانني أتعبتك ، ولم يحملني على ذلك الا أنني وجدت جميع دكاكين الحلاقين مغلقة

ـ لماذا تصر على التظاهر بالجهل وأنت رجل مثقف ؟ ان وحدة الزمن الآن ليست الاسبوع بل العقد . فالشهر الآن ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أيام . واليوم هو السابع عشر من الشهر . ويوم عطلة الحلاقين هو كل يوم يقع فيه الرقم ٧ !

ـ صدقيني أني لم أكن أعلم شيئا من ذلك . لاني كما قلت لك وصلت لتوى من سفر طويل . فلماذا أدعي أى شيء أو أتظاهر بالجهل ؟

ـ لا تتحرك والا جرحتك . تقول انك وصلت لتوك . فكيف وصلت ؟

ــ جئت سيرا على قدمى !

ــ على الطريق الكبير ؟

ــ على الطريق الكبير أحيانا . وبمحاذاة الخط الحديدى أحيانا أخرى

ــ وهل جئت فى مهمة عائلية ؟

ــ كلا ، فانى كنت أعمل مفتشا لبنك من بنوك التسليف التعاونية . وقد أرسلونى فى مهمة تفتيشية الى شرق سيبيريا . فلما انتهت مهمتى هناك لم أستطع العودة لان جميع القطارات معطلة أو مدفونة فى الثلج كما تعلمين . فلم يكن أمامى سوى السير على قدمى . وظللت أمشى ستة أسابيع متوالية . ولن أستطيع ان أصف لك ماشاهدته !

ــ لو كنت فى مكانك لما ذكرت لاحد ما شاهدته . فمن الخير أن تلزم الصمت . لا تقل أى شىء لاى أحد . لا تقل انك مفتش فى بنك تسليف . أفضل من هذا أن تقول انك طبيب أو معلم فى مدرسة . والآن وقد فرغنا من قص اللحية ، فلنبدأ بحلاقتها وعندئذ ستبدو أصغر سنا مما كنت بعشر سنوات . سأذهب الآن لاسخن الماء

ولما تركته وحده أخذ يورى يتساءل بشدة

ــ ترى من تكون هذه المرأة ؟

وقد خيل اليه أنه رآها أو سمع بها من قبل . ولكنه عبثا حاول قدح ذاكرته

ودخلت عليه بالماء الساخن . وجعلت تقول له وهى ترغى الصابون على وجهه

ــ ان السكوت الآن أغلى من الذهب . لا تشر الى مهنتك القديمة بل قل انك طبيب أو معلم . أما مشاهداتك وملاحظاتك فاحتفظ بها لنفسك . لان الكلام فى هذه الامور غير مأمون العواقب فى هذه الايام

وفى ذلك المساء الربيعى عادت اليه نشوة حب الحياة . وشعر بالحنين الشديد الى الوجود ذاته ، بمعناه الكبـــير . وأحس أن لارا تمثل لديه كل مافى الحياة والوجود من قــوة وجمال وحساسية وتعبير

أجل كان كل مارماها به فى أوقات الشك غير صحيح . فهو يحس الآن احساسا عميقا ان كل شيء فيها كامل لا يشوبه أدنى نقص

وامتلأت عيناه بدموع الاعجاب والتوبة ، وفتح باب المدفأة وأشعل النار ثم أخذ يقلب الحطب لتسرى فيه الشعلة . ثم جلس أمام الجذوة يتمتع بتراقص ظلال النار على وجهـــه ويديه ، فرده ذلك الدفء والضوء الى صوابه ، واشتـــدت عليه وطأة الحنين الى لارا فتاق الى ما يقربه منها فى هــذه اللحظـة

وأخرج من جيبه رسالتها . وكان قد طواها بطريقة جعلت الوجه الذى قرأه من قبل الى جهة الداخل . فاكتشف الكتابة التى لم يطلع عليها وبسط الورقة ثم راح يقرأ على ضوء النار المتراقص :

ــ أما أخبار عائلتك فى موسكو فمفادها أن تونيا ولدت أنثى أما بقية الامور فمن السخافة أن أسجلها هنا بالكتـــابة ، لأن الاولى أن تكون موضوع حديث بيننا حين نلتقى . والآن يجب أن أسرع لاعثر على جواد . ولست أدرى ماذا سأفعل اذا لم أجد مطية . فان وجود كاتنكا معى يجعل الموقف صعبا

وفى السطر التالى قرأ ما يأتى :

ــ أفلحت فى الحصول على حصان من سامديفياتوف

فقال يورى فى نفسه وقد اطمأن :

ــ لو كان لديها ماتخفيه لما ذكرت اسمه هنا

أعد يورى لنفسه طعاما واكل ، ثم غلبه النعاس ، فاتكـأ

على مقعد ، وهو لا يزال فى ثيابه ، وما لبث أن استغرق فى نوم عميق ، تخللته احلام مزعجة

تراءى له فى الحلم الاول ، انه فى موسكو ، داخل غرفة ذات باب زجاجى ، كان مقفلا ، وقد أمسك بمزلاجه يجذبه نحو الداخل . ووقف ابنه الصغير ساشنكا يرتدى لباس البحارة ، وقد أخذ يطرق الباب ، ويستغيث كى يدخل . وتراءى له شلال وراء ابنه ، يصيب الولد كما يصيب الباب برذاذ مائه ، والشلال يهدر فى دوى هائل

وارتسم الرعب على وجه الابن ، وضاعت صرخاته وسط هدير الماء ، وتراءى ليورى أنه لمح الابن ، يحاول أن ينطق بكلمة : « أبى »

واحس يورى ان قلبه يغوص بين جنبيه ، وود لو استطاع ان يضم ابنه الى صدره ، ويحتضنه ، ويفر به هاربا . على انه ـ لدهشته ـ وقد أخذت الدموع تنهمر من عينيه ، لم يحن قلبه لصرخات الابن ، وظل ممسكا بمزلاج الباب فى وجهه وكان ذلك تحت تأثير ذلك السلطان الطاغى ، الذى ملك عليه حواسه ، سلطان المرأة التى ينتظر قدومها .. لارا

وأفاق يورى من شدة انزعاجه ، فوجد نفسه غارقا فى بحر من العرق والدموع ، وقال لنفسه :

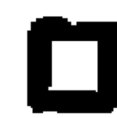
ـ اننى محموم ولا شك ، ولكنه ليس داء التيفوس على كل حال ، لعله نوع من الاعياء الشديد ، نتيجة ماعانيته من الارهاق المضنى . ترى هل يكتب لى الموت أم الحياة ؟ !

ولما كان فى حال لا يستطيع معها التفكير ، فقد غلبه النعاس مرة ثانية ، وعاد فاستغرق فى نومه

وفى حلم آخر ، فى فجر يوم من أيام الشتاء ، فى أحد شوارع موسكو ، فى تلك الساعة المبكرة ، ورنين أجراس القاطرات يطن فى الآذان ، وقد اضفت المصابيح ضوءا باهتا

على الشارع الذى كسته الثلوج ، وتبين له أن ذلك قبـــل الثورة .. رأى فى نومه مسكنا كبيرا ، له نوافذ عديدة ،جميعها فى جانب واحد من المنزل ، الذى كان مكونا من طوابق ثلاثة ، وقد تدلت ستائر النوافذ حتى بلغت الارض . وتراءى له أيضا ان الناس كانوا نائمين فيه بكامل ملابسهم ، وكأنهم على سفر ، والغرف فى حال من الفوضى كأنها عربات قطار تكدست فيها الامتعة والركاب ، كما تناثرت فيها بقايا لحوم وفتـات طعام . أما أحذية القوم الذين آواهم المنزل فقد صفت عنــد الباب

وكانت لارا مضيفة ذلك المنزل ، وقد ارتدت ثوبا عاديا عقد على عجل حول خصرها ، وأخذت تتنقل كالفراشة ، فى خفة وصمت من غرفة الى غرفة ، تقوم على شئون المنزل ، وكان يورى يقتفى أثرها خطوة خطوة ، يتمتم فى تذمر ، فيبعث فى نفسها الضيق ، ولكنها كانت لا تعيره انتباها ، ولم تأبه بتمتمته، واكتفت بأن تنظر اليه من حين لآخر نظرة صامتة هادئة ، أو تنفجر فى ضحكة من ضحكاتها التى تتميز بها ، وكان هـــذا طابعها ، كما كان طابع الرابطة المتينة التى ظلت قائمة بينهما .. كم كانت رزينة ، بارعة الجمال ، تلك المرأة ، التى ضحى من أجلها بكل عزيز ، وآثرها حتى على زوجته وأولاده ، وقد بدا له أن الحياة بدونها .. لا شىء !!



لم يكن يورى هو الذى يبكى وينتحب ، بل كان باعثا آخر، أشد وأقوى ، أشرق بين كوامن نفسه ، فأخذ يبكى اشفاقا على نفسه ، ويقول :

— اننى مريض .. أشعر فى فترات بين اليقظة والنـــوم الهذيان ... اننى مصاب بنوع من التيفـوس ، لم يمر بى

تشخيصه فى كتب الطب .. ينبغى أن أتناول طعـــاما ، والا هلكت من الجوع

وحاول أن يرفع رأسه ، ولكنه شعر أنه عاجز عن الحركة ، فأسقط فى يده ، ثم أغمى عليه ، ونام

وعندما أفاق ، أخذ يتساءل :

ـ ترى كم مضى على من الوقت وأنا هنا نائم ؟! كم ساعة ؟ بل كم يوما ؟! لقد حللت هنا فى مستهل الربيع ، وأرى الآن النوافذ وقد كستها الثلوج ، حتى باتت الغرفة مظلمة

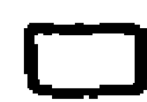
وسمع الفئران وهى تصطدم بالاطباق ، وتتسلق الجدران، ثم تقع على الارض ، فى أصوات مزعجة

واستسلم للنوم مرة أخرى ، ثم أفاق ، فوجد أن النـــوافذ التى كستها الثلوج ، لمعت بضوء وردى ، كأنه شراب أحمر فى قدح شفاف ، فلم يعرف ان كان الوقت غسقا أو فجرا

وخيل اليه ذات مرة أن هناك صخبا وأصواتا قريبة منه ، فانتابه ذعر شديد ، خشية أن يكون قد جن ، فأخذ يبـكى و شكو فى تضرع هامس ، ظنا منه أن السماء قد لفظته :

ـ لماذا تخليت عنى يا الهى ؟ أيها النور الابدى ، والقيت بى فى ظلمات الجحيم ؟

ولكنه أدرك أنه كان فى حالة هذيان ، كما تبين له أن ثيابه قد استبدلت ، وأن جسمه قد غسل ، وأنه يرتدى مـلابس نظيفة ، كما تبين له أنه ليس مضطجعا على المقعد ، بل فى فراش نظيف آخر ، وأن لارا تقبع قريبا منه ، وقد مالت عليه فتشابك شعرها بشعره ، وآمتزجت دموعها بدموعه ، فأخذته نوبة من الفرح ، أغمى عليه على اثرها



ولئن نفس على السماء أنها تنكرت له وضاقت به ، فهاهى

الآن حانية عليه وهو فى فراشه ، وقد فتحت له ذراعيها فى صورة ذراعى هذه الانثى ، فسكر رأسه واستولت عليه نشوة تردى فيها كما يتردى الانسان فى غيبوبة لا قرار لها

وكان بطبعه نشطا لا يحب الاخلاد الى السكينة ، فهو ان لم يكن يهتم بشئون المرضى ، أو يفكر أو يكتب ، انصرف الى شئون البيت يدبرها . أما اليوم فهو يستعذب التوقف عن كل عمل وكفاح وتفكير ، تاركا شأنه كله للطبيعة الى حين ، تنفذ فيه ارادتها الرحيمة العجيبة

وجاء شفاؤه وشيكا ، لان لارا قامت على تغذيته وتمريضه وغمرته بعنايتها الحانية . وكان حنانها رائعا ، وعنايتها مبذولة له على الدوام فى رفق لايوصف . وكل همسة هنية من همساتها غنية بالمعنى والاحساس . فكأنهما معا متحدان بكونان عالما قائما برأسه مفصولا متميزا عن سائر ما فى الدنيا • وكان حبها رائعا عظيما • يختلف عن الحب كما يعرفه معظم الناس • فمعظم الناس يمارسون الحب ، أو يحدث لهم الحب فيجربونه من غير أن يدركوا أو يلمسوا طبيعة تلك العاطفة العجيبة • أماهما فقد انفردا بمزية يندر أن تتفق للبشر الفانين . لان تسلل الحب الى وجودهما الفانى نفخ فيه نسمة من نسمات الابد ، فحول وجودهما الارضى الى نوع من الرؤيا أو الكشف الصوفى الذى يجعل البشر الهالك متحدا بعنصر الابد فى الكون كله

ـ عليك أن تعود الى عائلتك فورا • ولن أعمل على تأجيل عودتك • بمجرد أن يتم شفاؤك • وكنت أحب أن أعنى بتغذيتك وتهويتك أكثر مما فعلت . ولكننا نفتقر الى كل شيء وفى أثناء مرضك جردت المدينة من جميع المؤن وارسلت الى موسكو ، وكأن تلك العاصمة بالوعة لاقرار لها • ان جميع القطارات تستخدم لنقل الخبز ، والتذمر متفش بين الناس

بيد أن البوليس السرى يقمع كل شكوى بمنتهى الوحشية ومع ذلك لا أدرى كيف تستطيع السفر وأنت هزيل بهـذا الشكل ، جلدك ملتصق بعظامك . ولا سيما أن القطارات معدومة ، والسفر على قدميك معناه عجزك عن الوصول الى غايتك • فلعل من المستحسن أن تنتظر ريثما تسترد تمام قوتك ، وتبحث هنا عن عمل تخدم به السلطات السوفييتية المحلية عن طريق مهنتك • وسوف يسرهم ذلك • وتذكر أن أباك كان مليونيرا مات منتحرا وأن زوجتك ابنة رجل من رجال الصناعة والاقطاع • وأنك شخصيا كنت فى جيش الانصار وهربت • فليس من مصلحتك أن تبقى عاطلا عالة على المجتمع الكادح • ولاسيما أننى لست فى وضع أحسد عليه ، بل أنى أعيش على قمة بركان

ــ ماذا تعنين .. هل سبب ذلك سترلينكوف ؟

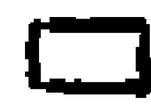
ــ انى فى خطر بسببه • فالآن بعد أن تم انتصار الجيش الاحمر يجب تصفية جميع الضباط الذين لا ينتمون للحزب ومن وصل منهم مثله الى القمة واطلعوا على الاسرار العليا ، يتهددهم خطر القتل للتخلص منهم كى تبقى القيادات كلها فى يد أعضاء الحزب الاصلاء • انها عملية تطهير أو حمام دم يتمشى مع خطة الحزب • وقد سمعت أنه هرب الى جهة الشرق وأنهم يبحثون عنه . وأرجو الا تطرق هذا الموضوع ، فلو تكلمنا عنه كلمة أخرى لن أملك نفسى من البكاء !

ــ أكنت تحبينه كثيرا ؟ وهل مازلت تحبينه ؟

ــ انه زوجى يابورى . وهو ذو شخصية رائعة بارزة مستقيمة • وقد آذيته بزواجى منه ، لا لاننى فعلت شيئا بقصد الاساءة اليه ، فليس هذا صحيحا بالمرة • بل لانه رجل غير عادى ، وأنا امرأة تافهة بالقياس اليه •

فارتباطى به عرقل حياته • ولكن فلنترك الآن هذا الموضوع

وأعدك أن نتحدث فيه بافاضة يوما ما فيما بعد . والمهم الآن أن يبحث كل منا عن عمل . نذهب اليه كل صباح ونقبض مرتبينا ملايين من الروبلات . نعم ملايين لان العملة القديمة ألغيت وأنت مريض ، ويقال ان قطارا مصفحا وصل محملا بالاوراق المالية الجديدة . شحنة تملأ أربعين عربة سكة حديدية على الاقل . والاوراق الجديدة مطبوعة على ورق كبير بلونين أحمر وأزرق ومقسمة الى مربعات صغيرة كطوابع البريد ، والمربع الازرق من هذه المربعات يساوى خمسة ملايين روبل . والمربع الاحمر يساوى عشرة ملايين



ـ خبرينى ما الذى أبقاك كل هذه المدة فى فاريكينو ؟ هل لك أحد هناك ؟

ـ كنت مع كاتنكا ننظف بيتك لاننى ظننتك ستذهب الى هناك أولا ، فلم أرد أن تراه على الحال التى كان عليها ، قذرا مشعثا

ـ أظنك لا تريدين أن تذكرى الحقيقة . لا بأس فلن أجبرك على البوح بشىء ، ولكن خبرينى أى اسم أطلقته تونيا على الطفلة

ـ سمتها ماشا على اسم والدتك

ـ وماذا أيضا ؟ حدثينى بكل شىء عنها

ـ أرجوك . ان الكلام عنها أيضا يدفع بى الى البكاء

ـ حسنا . فلنتحدث عن سامد يفياتوف الذى أعارك الحصان انه شخص جذاب . أليس كذلك ؟

ـ جدا

ـ لابد أنكما صديقان حميمان

ـ بل انه يغرقنى برعايته وأفضاله . ولا أدرى ماذا كنت فاعلة لولاه

ـ ترى هل يتودد اليك كثيرا ؟
ـ باستمرار طبعا
ـ وانت ؟ هل تميلين اليه ؟
ثم لم يلبث أن استدرك قائلا بسرعة :
ـ آسف لتوجيه هذا السؤال اليكَ فليس من حقى أن استجوبك

ـ لا بأس . أظنك تريد أن تعرف نوع العلاقة التى بيننا ، وهل تتجاوز حدود الصداقة . وجوابى على ذلك أن ما بيننا صداقة لا أكثر . صحيح أنه فعل الكثير من أجلى ، وأنا مدينة له بالكثير ، ولكنه لو قدم لى وزنى ذهبا ، بل لو ضحى بحياته نفسها من أجلى فلن يقربنى ذلك اليه . فهو من طراز من الرجال لا أستطيع أن أهضمه . طراز الرجل الواسع الحيلة ، المفرط فى ثقته بنفسه . وسامديفياتوف يذكرنى برجل آخر طالما أثار تقززى ومقتى كان السبب فى تحول حياتى هذا التحول كله

ـ لماذا تسخطين على حياتك هكذا . انك امرأة رائعة

ـ بل انى امرأة محطمة . فى حياتى على الاقل شىء محطم عرفت الحياة فى سن مبكرة جدا . عرفتها قسرا ، وعلى أبشع صورة من صورها وكان ذلك على يد رجل لا خلاق له ، كهل باهر المكانة والجاه شديد الثقة بنفسه استغل وضعه منا ونال كل ما اشتهته نفسه الممسوخة

ـ على رسلك . انى أستطيع أن أتصور أحزانك فى تلك الفترة النضرة من عمرك . وكيف شعرت بالمهانة والهوان . ولكن ذلك كله أمر مضى وانقضى وما فات مات . ولا ينبغى أن تقتلى نفسك حزنا وأسفا على ذلك الماضى . وانما أنا الذى ينبغى أن آسف لاننى لم أكن بجوارك فى تلك المحنة لأحميك . انى أكاد الآن أمزق شعرى غيظا وغيرة لان رجلا بهذه الحقارة

نال وطره منك . وما أعجب نفوس البشر ! أن غيرتى عنيفة قاتلة من انتهاك هؤلاء الحقراء لما أحبه وأقدسه . ولو أن رجلا أجله أحب امرأة أحبها انا لما حقدت عليه ، ولا غرت منه . بل كان شعورى منـــه اقرب الى الفهم والتآخى التراجيدى . ولكن ليس معنى هذا أن أقاسمه المرأة التى احبها ، بل أتنزل له عنها وأمضى حزينا فى أسى وهدوء . فذلك شبيه بتنازلى عن عمل أحبه لفنان أقدر منى على ابداعه ! ولكن ليس هذا لباب الموضوع ، بل لبابه أننى لا أخالنى كنت حريا أن أحبك هذا الحب القوى الجارف لو لم تكونى منطوية على جراح وأسى وندم . فتلك كلها مشاعر انسانية تعطف القلب . أما الكاملون الذين لا يعرفون العثار والسقطات فأقل نصيبا من البشرية . أن البشرية ضعف وندم وشوق الى الكمال من وهدة النقص . وفى ذلك التطلع الى ذروة الكمال ، ونحن فى هاوية النقص يتجلى جمال الحياة وجلالها !

ـ جمال الحياة ؟ أعتقد أن الانسان لا يراه حقا الا اذا كانت له براءة عين الطفل . أما أنا فقد تدنست عينى وأنا طفلة . فرأيت المسخ ولم أعد قادرة على ادراك بهاء الجمال الصافى . وليس هذا كل شىء . لان تطفل هذا الرجل الوضيع الانانى المنحط على حياتى فى مستهلها جعلنى حين تزوجت رجلا فذا بمعنى الـكلمة يحبنى واحبه غير صالحة لنعمة تلك الحيــاة الطاهرة . كنت كالجواد الاعرج لا يستطيع أن يساير جوادا سباقا . وعلى صخرة هذه الآفة الباطنية فى سريرتى تحطم زواجى

ـ رويدك . لا تحدثينى الآن عن زوجك ، لا لانى أشعر بالغيرة منه ، فأنا لا أغار الا ممن احتقرهم . ولكنى اريد اولا أن تحدثينى عن ذلك الرجل الآخر

ـ أى رجل آخر ؟

ـ عن ذلك الرجل الذى أفسد عليك زواجك . من هو ؟

ـ انه محام من أشهر المحامين فى موسكو . كان صديقا لابى . فلما توفى والدى وساءت حالتنا المالية مد يد العون الى أمى . وهو رجل أعزب ثرى . وأخشى اننى رسمت له صورة مفرطة فى السـوء مع أنه رجل كغيره من الرجال فى مثل ظروفه . واسمه كومارو فسكى

ـ لماذا تحمرين خجلا هكذا ؟

ـ مجرد ذكر اسمه يثير اشمئزازى

ـ ان هذا الرجل نفسه كان محامى أبى . وكان رفيقه فى رحلته . وحمل والدى على الشراب والمقامرة لينسى ضائقته المالية ، وقاده الى الافلاس ثم دفع به الى الانتحار بالقاء نفسه من القطار . فهو المسئول عن يتمى الباكر يا لارا

ـ ما أعجب تصاريف القدر اذ يجمع بيننا بهذه الصورة ! لقد كان هذا الرجل شيطان الشؤم فى حياتك انت أيضـا ! لشد ما يقرب هذا بيننا يا يورى !

ـ ان حقدى اليوم عليه أشد ، لأنه الرجل الوحيد الذى أغار منه لانه كان أول رجل فى حياتك

ـ ولكننى لا أحبه ولم أحبه . انى أمقته

ـ ان طبيعة المرأة حافلة بالغموض والمتناقضات . وليس من المستحيل أن يكون مقتك الشديد له سببا فى سيطرته على نفسيتك وخضوعك له أكثر من أى رجـل أحببته طوعا واختيارا !

ـ ما أشد قسوتك ! ان تعبيرك فيه من القوة ما يجعله يبدو لى صوابا ، حتى لو لم يكن كذلك !

ـ لا تسيئى فهمى . انى أغار عليك من أدوات زينتك ، ومن ذرات الغبار . ومن العرق الذى يفرزه جسمك . وأغار من كومارو فسكى ، وكأنه مرض يهدد سلامتك . انى أحبك حب

الجنون يا لارا وأخشى ان يأتى هذا الرجل الرهيب الاسود كالموت وينتزعك مني . انه تصور جنونى ، ولكنى أحبك حبا لا يخضع لحدود العقل

وبعد صمت قصير استطرد قائلا :

ــ والآن يا لارا حدثينى عن زوجك

ــ رأيته آخر مرة من بعيد وهو يهم بركوب سيارته ومن حوله عدد كبير من الحراس . فلم أجد فيه تغيرا يذكر . بل رأيت وجهه الصبوح الصادق المستقيم الذى لا تشوبه ميوعة أو تصنع . ولكنى أدركت أيضا ان الصرامة والايمان بفكرة مجردة قد تسربا الى حياته وملامح وجهه . فأيقنت أنه أدمج شخصيته فى الايمان بفكرة عليا وسلطة تتولى تنفيذ تلك الفكرة ولكنها سلطة مميتة ستقضى عليه فى النهاية

ــ أريد أن تحدثينى عن علاقتك به قبل اندلاع الثورة

ــ اننى منذ طفولتى أرى فى الاستقامة مثلى الاعلى . وبعد أن سقطت زاد اجلالى للطهر . وكان هو نموذجا مجسدا للاستقامة والطهر . وكانت نشأته معى فى بيت واحد تقريبا . هو وجاليولين وأنا . وقد فتن بى منذ صباه وكان يكاد يفقد رشده حين يقع نظره على . وكنت أشعر بذلك وأتجاهل الامر رعاية له ، لأنه كان يخفى عاطفته الصبيانية فتفضحه نظراته وملامحه . وكان مختلفا عنى فى كل شىء فقررت بينى وبين نفسى أن أتزوجه عندما نكبر . وكان فى الحق فتى موهوبا ! أبوه كان عاملا بسيطا فى السكك الحديدية . ولكن الفتى استطاع بمثابرته ونبوغه أن يصل الى القمة فى دراسة الرياضيات ، والادب الكلاسيكى

ــ ولكن ما الذى أفسد زواجكما وأنتما متحابان على هذه الصورة ؟

ــ ان الاجابة على هذا السؤال أمر عسير ولكنى سأحاول

أن أجيب . ان جميع أركان حياتنا قد تقوضت بحكم الثورة . انتهى كل معنى للنظـام والعائلة . ووجـد كل انسان نفسه متجها الى التكيف فى عالم جديد . فاستطاع هو أن يتكيف بايمانه كله وأن يمضى فى الطريق الجديدة بسرعة الصاروخ . أما أنا ، فقعد بى استعدادى حيث أنا

وسكتت برهة ريثما هدأت انفعالاتها قليلا ، ثم قالت :

ـ اسمع ! لو أن سترلينكوف ترك شخصيته الحالية وعاد كما كان ، باشا الذى أعرفه . ولو عادت عجلة الزمن القهقرى وحدثت المعجزة فرأيت نوافذ دارنا يشعشع من وصاوصهـا النور ، وقد أضيىء المصباح على مكتب باشا ، لو حدث ذلك وكانت دارنا تلك فى أقاصى الارض ، واستلزم منى الوصول اليها أن أزحف على ركبتى ، لما ترددت أن أزحف على ركبتى حتى أصل الى هناك ، لأن كل أنملة فى كيانى حرية حينئذ أن تلبى نداء ذلك الماضى . وما من شىء يستطيع أن يقف فى وجه تلك التلبية ، حتى أنت يا يورى . حتى حبنا هذا السمح الطلق السعيد . أوه ! عفوك لا أعنى هذا حقا ! لا تصدق !

ثم ارتمت فى أحضانه وهى تنشج بالبكاء . ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها ومسحت ما ترقرق من عبراتها ، وقالت :

ـ أليس نداء الواجب هو الذى يدعوك أنت أيضا ويستحثك للعودة الى تونيا ؟ ما أتعس حظوظ بنى آدم وحواء ! ترى ماذا قسم لنا فى صفحة الغد وماذا نحن فاعلان ؟

وصمتت برهة أخرى حتى هدأت ، ثم استطردت :

ـ ولكنى لم أجب عن سـؤالك ما الذى أفسد سعادة زواجنا . لقد فكرت فى ذلك طويلا فأدركت أن المسألة لا تتعلق بنا وحدنا ، وانما هى مسألة كثيرين غيرنا

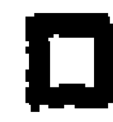
ـ قولى يا حبيبتى . فما أعدلك وأحكمك

ـ كان زواجنا قبل الحرب بسنتين . فما كدنا نقيم حياة

خاصة بنا ، وما كدنا نؤسس بيتنا حتى اندلعت نار الحرب . وفى بقينى الآنأن الوزر كله يقع على كاهل تلك الحرب ، فهى التى قوضت سعادة جيلنا كله حتى هذا اليوم . لأن هذه الحرب أتت بنظرة جديدة تباين تمام المباينة النظرة التى تربينا عليها فى أخريات القرن الماضى . فقد تربينا علىالخضوع لاحكام العقل خضوعا لا جدال فيه . وكنا نؤمن أنه يجب على كل شخص ان يفعل ما يمليه عليه ضميره . فكانت حوادث القتل أمرا شاذا للغاية . لا نكاد نسمع بها الا فى الروايات البوليسية وفى الصحف بين الحين والحين . ولكننا لم نألف أن يحدث ذلك حقا ويكون جزءا فى حياتنا اليومية . ثم انقلبت موازين كل شىء فجاة فاذا القتل قد أصبح شعارا جماعيا يتردد وينفذ فى كل وقت وفى كل يوم ، باسم المجتمع وبأمره ، وبمكافأة منه . واضطرب كل شىء وانحل النظام فلا قطارات ولا تموين بل لا عائلة ولا أخلاق . وكان رأس البلاء الذى حل بوطننا « الروسيا » ضياع الثقة بالضمير وبالحس الأخلاقى المركب فى كل فرد ، وفشا الاعتقاد فى الجيل الجديد أن التقدم معناه الذوبان فى كتلة الجماهير كى يعيشوا بأفكار سواهم ، تلك الافكار التى حشيت بها أذهان هؤلاء الشبان الجهلاء حشوا . وهكذا انقضى ابتلاؤنا بقيصر ليبدأ بلاؤنا بالثورة . ولم يسلم من هذا التدمير الاجتماعى الاخلاقى أى شىء فى بلادنا ، حتى الاسرة . حتى الاحاديث العادية بين الافراد تجردت من الطيبة والانطلاق على السجية لتحل محلها خيلاء فارغة مفتعلة . فكل فرد الآن يرى من واجبـــه أن يتحذلق فى الكلام عن الموضوعات العامة والنظريات السياسية متشدقا بالمصطلحات الجديدة . وأحس باشا بالتغير الذى طرأ . لكنه اخطأ خطأ قاضيا حين ظن الداء خاصا بالنظام العائلى وحده . وبعائلتنا دون سواها ، فنفر من تلك الحياة . وذهب الى الحرب من

غير أن يطالبه أحد بالتطوع لانه ظن نفسه عبئا علينا فأراد أن يريحنا منه . وما أن بدأ فى الطريق الجديدة حتى سار فيها الى نهايتها وقد سيطر عليه الطموح الاحمق ، هذا الطموح الذى سينتهى به الى هلاكه . آه يارب ! لو كان بوسعى أن أنقذه !

ـ لشد ما تحبينه حبا عاتيا نقيا ! استحـــلفك بالله أن تستمرى فى حبه ، فلست أغار منه . ولن أفعل شيئا لأحول بينك وبين هذا الحب



واقبل الصيف ثم انقضى من غير أن يفطن أحد لقدومه وفواته ، وتماثل يورى للشفاء . والتحق بثلاثة أعمال مؤقتة على التوالى . وكان التدهور السريع فى قيمة العملة قد جعل الحصول على الرزق أمرا عسيرا

وكان ينهض كل صباح فى ساعة مبكرة ، فيغادر البيت الى المستشفى فيدخل من بابه الخلفى الى قسم العيـــادة الخارجية فى مستشفى الجيش ، وهنا كان عمله الرئيسى

وطريقه من مســـكن لارا الى مستشفى الجيش تظـللـه الاشجار الوارفة . أما البيت الملاصق للمستشفى والمطل على حديقته فهو بيت زوجة أحد التجار واسمها جوريليادوفا . وواجهة بيتها مزخرفة بالرخام البراق على غرار منازل الطبقة العالية فى موسكو

وكان يورى يحضر أيضا ثلاث مرات على الاقل فى الشهر اجتماعات مجلس ادارة مصلحة الصحة العامة فى يوريانتين بشارع مياسكى

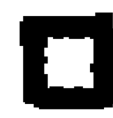
وفى الطرف الآخر من المدينة مؤسسة لامراض النساء كان قد أسسها والد سامديفياتوف تخليدا لذكرى زوجته . وقد سميت المؤسسة الآن باسم روزا لـكسمبورج . وفيها كان

يورى يلقى محـــاضرات فى علم الامراض وفى مادتين أخريين يختارهما جزءا من الدراســة الجـديدة المختصرة فى الطب والجراحة

وفى الليل كان يعود الى البيت جائعا تعبا ، فيجد لارا منكبة على مهنة المنزل تطهو وتغسل ، وقد تشوش هندامها وشمرت عن كميها ورفعت ثوبها الى فوق . فكان منظرها فى هــذه المباذل بالغ الروعة فى وقعه على فؤاد يورى ، ويراها حينئذ أجمل مما لو كانت فى قمة زينتها وقد ارتدت ثوب السهرة !

كانت لارا تطهو الطعام وتغسل الثياب وتمسح الارض بماء الصابون وتكوى الثياب وتصلحها لثلاثتهم . حتى اذا فرغت من ذلك كله لقنت كاتنكا درسا ، أو فتحت كتــابا لدراســة الثقافة السياسية الجـديدة كى تغـدو مؤهلة للتدريس فى المدارس التى أعيد تنظيمها على النظم الثورية

والحق ان اعجابه المتزايد بلارا والجو الذى أنشأته زاد من صعوبة موقفه ومن شــــدة الصراع الذى يعانيه ازاء واجب عودته الى زوجته . فكان ذلك الفصام النفسى مصدر عذاب شديد له ، فكأنه مصاب بجرح كلما أوشك أن يندمل عاد فانتكأ



ومرت أسابيع ، وفى يوم من أيام شهر اكتوبر قال يورى للارا :

ــ يبدو أننى سأضطر للتخلى عن وظائفى

ــ ولماذا ؟

ــ الحكاية القديمة المعادة . فى البداية يكون كل شىء على مايرام . « اننا نرحب بالمجهود المثمر الصادق وبالافكارالعلمية هيا قم بواجبك وكافح معنا » ثم يتضح بمضى الوقت أنهم

لا يريدون فى الواقع الا ثرثرة فارغة ، مدحا فى الثورة ، وذما فى العهد البائد . وقد سئمت نفسى ذلك كله . لأنى لا أصلح لهذا النوع من الاعمال ، مع أننى لست من أنصار العهد البائد طبعا . ولكنى لا أهضم القول بأنهم أبطال وبأننى برجوازى حقير كان يؤيد الطغيان . وأنا رجل أفسدته تعاليم الكاتب الفيلسوف نيقولايفتش . أنه خالى وهو الذى بث فى نفسى أفكاره فنشأت أومن بالالهام والحدس . واستعملهما فى تشخيص الامراض . وهم يمقتون الحدس ولا يؤمنون الا بالتحليل العلمى الذهنى الخالص . وقد تجرأت فى محاضراتى على تمجيد طريقة الحدس التى أومن بها وأتبعها . فاذا بجميع الطلبة يهتفون فى صوت واحد « مثالية مثالية برجوازية صوفية فلسفة شلنج » ولذا لابد من الاستقالة من مؤسسة الامراض النسائية ومن مصلحة الصحة العامة . أما المستشفى فسأظل فيه الى أن يطردونى

ـ لا قدر الله يا يورى ولكنى أرجوك أن تكون أشد حذرا فى المستقبل . فالنظام الجديد لابد فى بدايته أن يكون شديد التعصب لنوع معين من التفكير ، والانتصار للذهن . وبعد ذلك تأتى مرحلة القضاء على غير المخلصين للنظام الجديد . وفى هذه المرحلة تسود الجاسوسية وروح العنف . ونحن الآن فى بداية هذه المرحلة الثانية بدليل أن المحكمة العسكرية المحلية ضمت اليها عضوين جديدين من المجرمين السياسيين السابقين هما تيفرزين ، وانتيبوف ، وهما يعرفاننى معرفة جيدة ، وأحدهما عمى . ولكنى لم أخف على حياتى وحياة كاتنكا الا بعد انضمامهما لتلك المحكمة . فهما لا يتورعان عن هلاكنا ، وهلاك باشا يوما ما باسم العدالة الثورية العليا !

ولم يمر وقت طويل على هذا الحديث حتى تم تفتيش منزل الارملة جوريليادوفا القائم بجوار المستشفى . فعثرت

الحكومة على أسلحة وأوراق تدل على وجود منظمة معادية للثورة . واتسع نطاق الاعتقالات والتفتيش

فقالت لارا :

ــ لقـــد انتهى وقت الأمن والاستقرار ولابد أن يقبضوا علينا . وأنا لا يمكن أن أترك مصير كاتنكا للمقادير . فلابد من ايجاد حل للخروج من هذا المأزق

ــ فلنفكر قليــلا . ولكن هل فى وسعنا أن نتجنب هــذا المصير ؟

ــ أجل اننا لن نستطيع الافلات من المدينة ، فليس هناك مكان يمكننا أن نلجأ اليه . ولكننا نستطيع أن نتوارى قليلا عن الانظار بالانتقال الى فاريكينو مثلا . وهناك بيت مستعد لاستقبالنا . وستنقضى سنة على الاقل قبل أن يهتدوا الى وجودنا هناك. وسيكون سامديفياتوف هو همزة الوصل بيننا وبين المدينة . وسيساعدنا على الاختفاء . أجل ان فاريكينو موحشة خالية ، ويقال ان الذئاب تكثر هنـــاك فى فصــل الشتاء . ولــكن الرجال الذين من طراز تيفرزين وانتيبوف هم أضرى وأخوف من الذئاب

ــ لست أدرى ماذا أقول لك • ولكنك كنت تحثيننى على السفر الى موسكو بلا امهال . والسفر الآن ايسر . فالتدقيق على أوراق المسافرين قل عن ذى قبل . وخف اطلاق الرصاص على الناس لادنى شبهة بين المسافرين . لانهم تعبوا من هذا العنف الدامى . وأنا أشعر بالقلق لعدم ورود رد على رسائلى من موسكو ، فمن المستحسن أن أذهب الى هناك لأرى بنفسى ماذا حدث لهم . وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أوافق على ذهابك الى فاريكينو الموحشة المنعزلة بمفردك

ــ كلا . هذا فعلا مستحيل

ــ اسمعى ! خطرت لى الآن فكرة رائعة

ـ ما هى ؟

ـ اننا نرحل معا نحن الثلاثة الى موسكو !

ـ أتقول نرحل نحن الثلاثة الى موسكو ؟ هذا جنون ! فماذا أستطيع أن أصنع فى موسكو ؟ يجب أن أظل فى هذه المنطقة ، فهنا سوف يتقرر مصير باشا . وقد يتضــح فى وقت من الاوقات أنه فى حاجة الى

ـ ولكن يجب أن نفكر فى كاتنكا أيضا يالارا

ـ تحدثت فى هذا الموضوع مع سيما ، فهى تأتى لزيارتى أحيانا

ـ اعلم ذلك . فقد رأيتها هنا مرارا

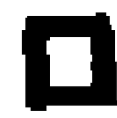
ـ انك تدهشنى . فلو كنت فى مكانك لوقعت فى غرامها ! انها رائعة الجمال ذكية مثقفة صافية النفس طيبة العشرة

ـ أختها الخياطة هى التى قصت لى شعرى وحلقت لى ذقنى يوم وصولى

ـ ولهما شقيقة ثالثة موظفة فى المكتبة العامة . وثلاثهن مجتهدات مخلصات . ولذا فكرت اذا ألقى القبض عليك وعلى أن أطلب منهن العناية بأمر كاتنكا

ـ فكرة لا بأس بها ، ولن نكون بحاجة الى شىء من ذلك باذن الله

ـ ويقال أن سيما فتاة غير متزنة العقل . وهى فعلا غير طبيعية بسبب ذكائها الخارق وسعة اطلاعها . وأنتما متشابهتان فى هذه الصفة وفى وجهات نظر كثيرة . وكم يسرنى أن تقوم على تربية كاتنكا



وفى يوم عطلته ذهب يورى الى المحطة ولكنه لم يفز بطائل ، وعاد الى البيت منهوك القوى . وكان من عادته فى يوم العطلة أن ينام ساعات تكفيه لايام العمل التسعة التالية . لان الاسبوع

أصبح مؤلفا من عشرة أيام

ووجد سيما عند لارا . ولكنه لم يظهر نفسه لهما لرغبته في الراحة ، فتمدد على الفراش وأخذ يصغى الى حديث سيما فى الحجرة الاخرى وهى تعرض خواطرها الفلسفية على لارا . ولارا تصغى وتناقش وهى منهمكة فى الحياكة

وأعجبه أن يجد آراءها النافعة مقتبسة من خاله نيقولاى وفلسفته . ولكن كان من الواضح أن ذكاءها متوقد وموهبتها فى الفهم والبيان عظيمة

ونهض من مكانه فاقترب من النافذة المطلة على الفناء ، وهى مجاورة للنافذة الاخرى التى يسمع منها حديث المرأتين . وكانت الظلمة قد بدأت تخيم على الفناء . ثم ظهر عصفوران راحا يبحثان فى الفناء عن مكان يأويان اليه . فقال الدكتور فى نفسه :

ــ طائر العقعق ينبىء بنزول الثلج قريبا

واذا به يسمع سيما تقول فى الحجرة الاخرى :

ــ طائر العقعق بشير بوصول أنباء جديدة . سيطرق بابك يالارا ضيوف أو يصلك خطاب

وبعد قليل رن جرس الباب فخرجت لارا من وراء الستار ، وأسرعت الى الباب ففتحته . وسمعها يورى تتحدث الى جلافيرا شقيقة سيما التى كانت قد قصت له شعره

ــ جئت تبحثين عن أختك ؟ انها هنا

ــ لم أحضر لهذا السبب ، وان كان لا مانع طبعا من عودتنا الى البيت معا . فقد جئت لاحمل رسالة الى صاحبك فمن حسن حظه أننى اشتغلت بعض الوقت فى مصلحة البريد . والله أعلم كم يدا تداولت هذه الرسالة . لانها قضت فى الطريق من موسكو الى هنا خمسة أشهر ولم يستطيعوا معرفة شخصية المرسل اليه . وأخيرا بدا لهم أن يسألونى . وبالطبع

عرفته فقد قصصت له شعره ذات مرة

وكانت الرسالة من تونيا . وهى رسالة طويلة تضم جملة أوراق موضوعة فى ظرف بال فتحه عمال مكتب البريد

وتحت ضغط المفاجأة لم يستطع الدكتور أن يكيف الموقف فهو لا يدرى كيف ناولته لارا الرسالة ففضها بيد مرتعشة وبدأ يقرأ . وأحس احساسا غامضا أنه لم يزل فى يوريانتين فى بيت لارا . ولكن الايغال فى القراءة مسح ذلك الادراك الضعيف للواقع الذى حوله . وعند خروج سيما حيته مودعة فرد عليها من غير وعى

وكانت الرسالة التى كتبتها أنتونينا تجرى على هذا النحو :

« رزقنا بطفلة جديدة سميناها ماشا تيمنا باسم والدتك . وتم ترحيل عدد كبير من الاساتذة البارزين ذوى الميول الاشتراكية ومن بينهم خالك نيقولاى ووالدى . وهى كارثة كبرى ، ولا سيما وأنت غائب . ولابد من ترحيلنا نحن أيضا لان العائلات تتبع فى المنفى رجالها . ولكننا نحمد الله لانهم اكتفوا بالنفى . ففى مثل هذه الظروف قد تكون الاجراءات أعنف من هذا بكثير . ولو كنت هنا لرحلنا معا . ولكن من يدرى أين أنت الآن ؟ ولكنى سأرسل هذه الرسالة على عنوان انتيبوفا لتسلمها اليك ان كانت تعرف أين أنت . ومما يضايقنى أن تصريح السفر الى المنفى ، وهو تصريح عائلى ليس من المضمون أن يشملك أنت أيضا عند العثور عليك . وأنا لم أيأس بعد من وجودك على قيد الحياة . فان قلبى المحب يؤكد لى ذلك وأنا أثق تمام الثقة بما يحدثنى به قلبى من أننا سنجتمع مرة أخرى فى صعيد واحد

« ان مشكلتى التى أعانى منها يا يورى اننى أحبك وأنت لا تحبنى . ان هذه الحقيقة تحيرنى وتعذبنى لانى لا أجد لها مبررا . فكلما نظرت فى أعماق نفسى واستعرضت حياتنا معا

لم أستطع العثور على تفسير مقنع لهذه الظاهرة ولا أذكر أنني فعلت شيئا أستجلب به ذلك الشقاء على نفسي . فأشعر انك تظلمني وكأنك ترى صورتي في مرآة مشوهة !

« أما انا يايوري فأحبك ! ليتك تعلم مبلغ هذا الحب ! أحبك على علاتك وشذوذك . أحبك لما هو صالح فيك ولما هو طالح على السواء . أحبك لسمو افكارك التى تكسب وجهك بهاء لولاه لما كنت فى مرأى العين بهذا الجمال ! ان ذكاءك الخارق طغى على ارادتك الضعيفة ولكننى أحب هذا فيك

« سنرحل غالبا الى باريس . وساشا كبر قليلا . وكلما تذكرناك بكى . وهانذى أيضا أبكي . ولذا لن استطيع مواصلة الكتابة . فيجب أن أودعك الآن وأباركك وانا لا ادرى كم سنة طويلة ستنقضى قبل أن نلتقى . انى لا ألومك على شىء من سلوكك ولا أوبخك ولا ألزمك بشىء . فتصرف فى حياتك كما تشاء ، وسيسعدنى أن تظفر بالسعادة كما تشتهى

« وقبل أن أغادر الاورال تعرفت الى لارا . وكم أنا مدينة لها لانها لازمتنى باستمرار فى ظروف وضعى العصيبة . أنها امرأة تبعث على الاحترام . ولكنى لا أستطيع النفاق ، ولذا أبادر فأقول لك انها على العكس منى . فأنا امرأة بسيطة آخذ الحياة بسهولة ، أما هى فتعقد الامور وتخلق الفوضى

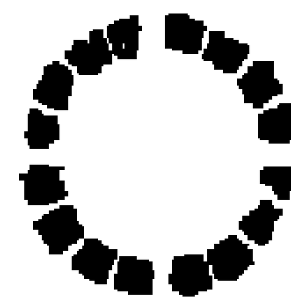
« والآن وداعا يايورى فقد آن لنا أن نحزم أمتعتنا . آه ياعزيزى وحبيبى وزوجي ووالد أولادى ، ماذا يخبىء لنا الغد ؟ هل يقدر لنا أن نلتقى يوما ؟ ان هذا السؤال يكاد يقتلنى جزعا ! هاهم يستعجلوننى لاختم الرسالة وانطلق معهم لحزم متاعى . فكأنما جاء الجلادون ليسوقونى الى ساحة الاعدام ! يورا ! يورا »

ورفع يورى عينيه اللتين يكاد الدم ينبجس منهما ، وتطلع أمامه فى ألم وغيبوبة ، فوجد الثلج يتساقط فى الخارج ، والهواء

يعبث بذلك الثلج ويكومه بجوار الجدران . ثم لا تلبث أن تهبط طبقات أخر من الثلج وتزداد كثافة كأنمـا تتحـدى الرياح

وكانت عينا يورى تحدقان فى ذلك الصراع الدائم بين الثلج والهواء . ولكن بغير وعى . لم يكن يرى امام ناظريه الا سطور رسالة تونيا وكأنما الذى يتطاير فى الهواء أمامه ليس حبات الثلج ، بل ذلك الفراغ الابيض من الورق بين الحروف الصغيرة السوداء . فراغ أبيض مجهول تعبث به الرياح وترمى به الى مصير مجهول .

ولم يستطع فى حزنه الملتاع أن يذرف الدمع . فلما استعصى عليه أخرج من صدره آهة كشواظ النار ، ثم قبض على قلبه وقد شعر ببوادر الاغماء فارتمى على المقعد فاقد الرشد



# الفصل الثالث عشر

# الرجوع الى فاريكينو

دخل يورى المستشفى وهجم الشتاء فجعل الثلج يتساقط كتلا كبيرة • ولما استرد صحته غادرا المدينة معا ذات صباح مكفهر الاديم ، وكانا مستقلين زحافة ويحييان معارفهما . فلما رأتهما جلافيرا أخت سيما جعلت تلوح لهما • وعند قمة مرتفع التقيا بسيما نفسها وقد تدثرت بشالين ، فلوحت بيدها أيضا وصاحت :

ـ يجب عندما تعودان أن نتناقش فى كثير من الموضوعات يايورى أندريفتش !

ثم خرجا من المدينة أخيرا ، واستمر السفر طول النهار . ويورى يتولى قيادة الزحافة ، اما لارا فمشغولة بكاتنكا التى فى حجرها • وكلما ارتفعت بهما المحفة أو هبطت لوعورة الطريق تناثر الثلج على ثيابهما فتضحكان أو تصرخان وهما تتأرجحان بشدة

ووصل الثلاثة الى فاريكينو قبل هبوط الليل ، ووقفوا أمام بيت آل زيفاجو القديم فى أول القرية ثم دخلوه تحت جنح الظلام فلم يستطع يورى أن يتبين مقدار قذارة البيت • وكان معظم الاثاث سليما . ولكنهم لم يعثروا على شىء من المئونة طبعا • وانتابت يورى كآبة مفاجئة وهو ينظر الى الحجرات المألوفة فى ذهول وقد سادتها الوحشة ثم قال للارا فجأة :

ـ أفضل أن ننتقل الى دار آل ميكوليتسين فى الطرف الآخر من القرية وعلى الاثر انطلق الثلاثة نحوه

وكان بيت آل ميكوليتسين أصغر حجما وأكثر تنسيقا . وقد أمضى ثلاثتهم الليل من غير أن يخلعوا ملابسهم بل تغطوا بالمعاطف وناموا بعد تعب السفر نوما عميقا هادئا

ولما استيقظوا في الصباح الباكر ، نظر يورى الى المكتب الجميل القريب من النافذة ، وشعر برغبة شديدة فى الجلوس أمامه للكتابة · بيد أنه أرجأ ذلك الى المساء ، حينما تكون لارا وكاتنكا نائمتين

وفى ساعة الغداء وضعت لارا على المائدة حساء البطاطس الذى استطاعت أن تحصل عليه من الحدائق المهجورة ، وكانت كمية تكفى عشرين شخصا فأكلت كاتنكا الى أن أتخمت ثم تغطت بمعطف أمها ونامت . وانصرفت لارا الى حديث حالم مع يورى ، فقالت له فيما قالت :

ـ آه يايورى · افرض على سلطانك وأخضعنى دائمـــا لارادتك ورغباتك ، ذكرنى على الدوام أننى أمتك التى تعبدك وتتدله فى حبك · اننى حين أنظر اليك وأعانقك أشعر أننى تحولت الى روح خالص فالى متى يارب هذا الحنين الوحشى الذى يأكلنا ويلتهم حنايانا ؟ !

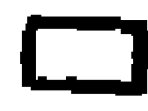
وطوقته بذراعيها وانهمرت دموعها . وأخذ هو يربت عليها ، ثم قال :

ـ انى منذ الصباح أفكر فى البقاء هنا فى هـــذه القرية المهجورة وحدنا أطول مدة ممكنة · وأنا لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة بغير عمل يشغل تفكيرى · ولا بد من يوم قريب تعود فيه الحياة الى حالتها الطبيعية فى الروسيا شيئا فشيئا وتستأنف المطابع نشر الكتب · ولذا خطر لى أن نحاول الاتفاق مع سامديفياتوف كى ينفق علينا ستة اشهر مثلا ، أقدم اليه فى نهايتها كتابا أتمه فى هذه الفترة . كتـــابا فى الطب أو ربما في الادب ، أو ترجمة لكتاب مشهور من الآداب العالمية ·

وأنا كما تعلمين أتقن عدة لغات أجنبية ، وقد قرأت أخيرا اعلانا عن دار كبرى للنشر فى بطرسبرج لاتنشر شيئا سوى المؤلفات العالمية المترجمة • وهذا عمل لابد أن يدر مالا كثيرا وهو من نوع الاعمال التى أتمنى القيام بها

فتهلل وجه لارا ، وقالت :

ـ ما أسعدنا . لقد خطر لى هذا الشيء بعينه . ولكن لا أعتقد أننا سنبقى هنا طويلا • الا أنى أرجو أن تخصص فى المدة التى سنمكثها هنا بضع ساعات كل ليلة لتدوين قصائدك التى طالما أنشدتنى اياها ، خوفا من أن يغمرها النسيان



وفى نهاية النهار استحم الثلاثة بالماء الساخن وارتدوا ثيابا نظيفة وتظاهرت لارا بالنوم بجوار كاتنكا . وساد السكون العميق حول يورى وهو جالس الى المكتب تحت الضوء المصفر المنبعث من المصباح وأخذ يتذكر قصائده القديمة ويسجلها • فتحرك وتر الشعر فى نفسه ، وخطرت له أبيات جديدة ، وأحس باقتراب الوحى فشرع يكتب فى نشوة شديدة وعيناه معلقتان بمنظر لارا وهى نائمة محتضنة الطفلة الملائكية

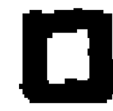
وفى الهزيع الاخير من الليل سمع صوتا حزينا يتردد فى الفضاء حول البيت ، فارتدى معطفه وفتح الباب ووقف على عتبته ينظر فى ضوء القمر المنعكس على الثلج في وهج غريب• وفى بداية الامر لم يستطع أن يرى شيئا ثم بعد قليل تبين صفا من الذئاب . أربعة ذئاب تقف متلاصقة وهى ترنو الى البيت المضيء وتطلق عقيرتها بالعواء • وبعد قليل ادارت له الذئاب ظهرها واختفت ، وهنا شعر يورى بالارتياع لانه خشى أن تكون أوجارها قريبة من البيت • وهناك فى الاسطبل فرس سامديفياتوف . فلابد أن رائحتها هى التى اجتذبت الذئاب الجائعة

وانتوى فى نفسه الا يحدث لارا بشىء من ذلك حتى لا يفزعها ثم دخل وأغلق الباب • واتجه الى المكتب مرة أخرى• ولكن الرغبة فى الكتابة كانت قد تلاشت وتبددت . لان منظر الذئاب الجائعة العاوية أثار فيه القلق وفتح له باب التفكير فى الهموم التى تترصده •

وفى هذه اللحظة استيقظت لارا وتقلبت فى فراشها . وقالت له فى نعومة وحنان :

ـ أمازلت ساهرا ياحبيبى ؟ تعال هنا بجانبى لحظة . التصق بى فانى أريد أن أشعر بقربك كى أقص عليك ما رأيته الآن فى حلمى

وقبل أن يذهب ليلتصق بها ، نفخ بفمه المصباح فأطفأه



وعندما استيقظ يورى وجد الشمس تملأ الحجرة ، وأحس فى رأسه صداعا ،فظل طول النهار متناوما مستسلما للكسل، تزعجه فكرة وجود الذئاب عن كثب من البيت

وعندما هبط الليل جلس الى المكتب بعد أن نامت لارا ، وكاتنكا كما حدث فى الليلة الماضية • وبدأ ينظر فيما كتبه فى الليلة السابقة ، فوجد القصائد القديمة لاتحتاج الى شىء . أما الاشعار الجديدة التى كتبها تحت تأثير وحى الساعة فكانت مكتوبة بصورة غير مرضية ، بخط مشوش تنقصه بعض الحروف . لانه وهو تحت تأثير الوحى كتب وهو فى شبه غيبوبة • وفضلا عن هذا آكتشف أن هذه الاشعار التى كتبها والدمع يجيش فى عينيه لجيشان عواطفه ليست فى الواقع آلا وليدة صنعة وتكلف • وقد ظل كل حياته يمنى النفس بأصالة فى فنه • بأصالة من نوع خاص ، لاتبدو على سطح السطور ، بل تتوارى تحت شكل أسلوبى عادى • وقد ظل طول حياته ساهرا علي انضاج هذا الاسلوب المباشر البعيد كل البعد عن

التكلف ، والذى يدخل الى الذهن والقلب مباشرة كالهـــواء الذى يدخل الصدر من غير أن يلفت النظر أو يحتاج الى مجهود خاص . ولـكن هاهو ذا الآن يكتشف أنه لم يزل بعيــدا كل البعد عن تحقيق هذا الهدف

انه فى الليلة الماضية حاول أن يعبر ببساطة متناهية عما فى نفسه من مزيج غريب يجمع بين الحب والارتياع والنـــدم والاقدام . وكان يريد لتعبيراته أن تنطلق من قلمه كأنما تتقوم وجدانياتها بغير حاجة الى كلمات ، كما تبدو الخمر فى الكأس الشفافة « أشربة بلا أوان »

وأنصرف يورى الى تنقيح ماكتبه وجعل يكافح ضد الحشو ويستبعد كل عناصر التفخيم والتطريب التى لاتنتمى الىالمعنى

وزادت حرارة العمل من حماسته . فلما انتهى من ذلك التنقيح بدأ يكتب أسطورة مارى جرجس البطل فى أبيــات قصيرة المقطع سريعة خفيفــة ، حتى كاد يسمع وقع جواد ذلك الفارس المنتصر ، وهو يجوب أرجاء الروسيا الشاسعة . وقد أخذت الابيات تنثال تباعا حتى كادت يده تعجــز عن ملاحقة خواطره

ولم يفطن وهو يكتب مســـــتغرقا فى الوحى الى أن لارا استيقظت واقتربت من المكتب . وقد زادها قميص نومهــا الطويل طولا ونحولا ورقة . فلما فوجىء يورى بوقوفها أمامه ورأى الذعر مرتسما على وجهها ، قالت له همسا وهى تمد اليه ذراعيها :

ــ ألم تسمع نباح الكلاب ؟ انى خائفــة . ياله من نذير شؤم ! متى طلع الصباح سنرحل . فلن أبقى هنــا لحظــة واحدة !

وقضى يورى ساعة يهدىء من روع لارا حتى عاد النــوم اليها ثم خرج فوقف على عتبة الباب مثل امس . فاذا الذئاب

فى هذه الليلة كانت أقرب الى الدار وأكثر عددا . وما أن راته حتى اختفت ، ولم يستطع أن يعرف الاتجاه الذى توارت فيه



كان اليوم هو الثالث عشر فى فاريكينو . وكان شبيها بجميع الايام السابقة عليه . وفى الليل كانت الذئاب تعوى ، ولارا تحسبها كلابا فتتشاءم منها وتصمم على الرحيل . واستولى القلق على هذه المرأة التى عاشت طول عمرها تعمل وتكدح ، ولم تتعود أن تقضى يومها فى المناجاة العاطفية أو فى الاستسلام للحنان الدافق

ان كل شيء فى هذه الحياة يتكرر مرارا بصورة واحدة ، ولذا أخذت لارا فى صباح هذا اليوم تحزم الامتعة للرحيل . وكان مجرد النظر الى السحب الداكنة المنخفضة يدل على أنه من المحتمل سقوط الثلج بين لحظة وأخرى . أما يورى فكان يشعر باعياء شديد ، بدنيا وعقليا ، لسهره حتى الفجر ليالى متعاقبة ، فدب الوهن الى ساقيه وتشوشت أفكاره . عندئذ راح يتمشى من حجرة الى حجرة وهو يفرك يديه كى يطرد البرودة ، منتظرا أن تخبره لارا بما صح عليه عزمها كى يرتب أموره على ذلك الاساس

ولم تكن لارا نفسها تعرف ماذا تريد . كل ماهى واثقة منه انها تريد أن تستبدل بهذه الحياة الراكدة الفوضوية حياة أخرى منظمة يسودها القيام بالواجبات والمسئوليات المرهقة . فذلك فى نظرها شرط ضرورى لحياة كريمة

وبدأت لارا يومها كالمعتاد بترتيب الاسرة وكنس الارض واعداد طعام الفطور ، ثم أخذت بعد ذلك تحزم الامتعة . وطلبت من يورى أن يسرج الفرس لانها عزمت عزما أكيدا على الرحيل !

ولم يحاول يورى أن يراجعها فى ذلك القرار . أجل انه من الجنون الواضح أن يعود الى مدينة يوريانتين بعد أن بلغت الاعتقالات التعسفية هناك غاية العنف . ولكن كان جنونا مطبقا أيضا أن يبقى فى فاريكينو وحيدا أعزل تحت رحمة القدر فى هذه الصحراء الجليدية . ولاسيما أن قبو الدار أصبح خاليا تماما أو يكاد يخلو من الشوفان . ولذلك كف يورى عن كل تفكير او مناقشة وذهب ليسرج الفرس

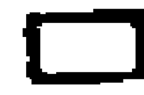
ولم تكن له دراية حسنة بهذا الامر . وبالرغم من أن سامديفياتوف علمه كيف يسرجها ، فانه نسى ، وجعل يتخبط الى أن أسرج الفرس حيثما اتفق ثم ربطها ودخل ليدعو لارا الى الركوب

ووجد الام وابنتها مستعدتين ، وقد أتمتا حزم كل شىء . ولكن لارا كانت فى كرب شديد فطلبت منه أن يجاس لحظة . وشفتاها ترتجفان كأنها على وشك البكاء ، ثم أخذت تتكلم بصوت متلعثم مأزوم :

ـ لا أدرى ما الذى أصابنى فدفعنى الى الرحيل فجأة . لكن ترى هل نستطيع أن نرحل الآن حقا ؟ عما قليل سيخيم الظلام ونحن فى وسط الغابة الرهيبة . وانا خائفة من الآن ، ولا أستطيع أن أتحمل مسئولية تلك الرحلة . قلبى منقبض وشىء ما يمسكنى هنا . فلماذا لا تتصرف أنت ؟ لماذا أنت صامت ؟ لقد ضاع اليوم على كل حال ويجب أن نتلافى هذا التأخير غدا . يجب أن تنهض مبكرا لنرحل من هنا فى السادسة أو السابعة صباحا . ما رأيك ؟ ستشعل الموقد وستمضى ليلة أخرى فى الكتابة . ثم ننام هنا ليلة أخرى جميلة ! لماذا لا تقول شيئا ؟ ويحى أنا الشقية !

ـ انك تبالغين يالارا . فلم يزل بيننا وبين الغروب وقت طويل . ولكن لابأس . فليكن ماتريدين . ولنبق هنا يوما آخر

ولكن لماذا تنفعلين بهذه الصورة ؟ هيا اخلعي معطفك . وهاهى ذى كاتنكا بدأت تشعر بالجوع فاعطيها شيئا تأكله . لقد أصبت بالبقاء لاننا لم نعد للرحيل عدته ، لماذا تبكين بالله عليك ؟ سأذهب بالفرس لاحضر من بيتنا القديم شيئا من الحطب ، فلم تعد لدينا حطبة واحدة . ولكن بالله عليك كفى عن البكاء . وسأعود بسرعة وأشعل الموقد



وعندما عاد الدكتور بحزم الحطب رأى أمام الباب جوادا أسود مشدودا الى عربة ريفية مريحة . وهناك شاب بدين بعض الشيء نظيف الثياب يدور حول الحصان ويجس أعضاءه

وسمع من البيت أصواتا غريبة . ثم تعرف على صوت كوماروفسكى مختلطا بصوتى لارا وكاتنكا .. وكانت رنة الاضطراب والضيق ظاهرة على صوت لارا وكأنها تقاوم البكاء. أما صوت كوماروفسكى فكان كالعادة قويا . وخيل اليه أنه يتكلم عنه ، لانه سمعه يقول :

ـ انك اذ تعتمدين عليه وتطاردينه تطاردين فى وقت واحد ارنبين ، وتحاولين الجلوس على كرسيين !

ودخل يورى الى البيت فوجد كوماروفسكى فى الحجرة الاولى مرتديا معطفه السابغ . وما أن رأت لارا الدكتور حتى اندفعت نحوه قائلة :

ـ أين كنت كل هذا الوقت اسمع مايقوله ضيفنا وقدر بسرعة ماذا نصنع فان ضيفنا يحمل الينا أخبارا هامة ولابد لنا أن نسافر فورا

فأخذ يورى يهدئها ثم سلم على كوماروفسكى وسأله عن جلية الامر فقال :

ـ يظهر أن لارا تعنى بالاخبار التى أحملها وهى أن هناك قطارا خاصا وصل أمس من موسكو وسيغادر يوريانتين غدا . وهو

قطار نصف عرباته مخصص للنــوم . وتحت يدى تصريح باستعمال هذا القطار أنا ومن اختارهم من المعاونين لى فى عملى . ولن يتوفر السفر بهذه الراحة والرفاهية مرة أخرى .
ولارا تقول أنها لايمكن أن تسافر مالم تسافر أنت معها أيضا .
فان لم يعجبك ان ترحل معنــا الى فلاديفوستك فى أقصى الشرق ، ففى وسعك أن تذهب معنا الى يورياتين وهناك تفكر مرة اخرى فيما تصنعه ، ولـكن لابد من الرحيل فورا حتى لا يفوتنا ذلك القطار . وسيساعدك حوذى عربتى على تحميل زحافتك . وارجو الا تأخذوا معكم الا الضرورى الذى لا غنى عنه من الامتعة . وكل هذه المحاولة من أجل انقــاذ حيــاة الطفلة كاتنكا التى لا يجوز لكما أن تهلكاها بالبقاء فى هــذه المنطقة . ولا داعى لاقفال الابواب . فليـــذهب البيت الى الشيطان

ـ ما اعجب كلامك ! انك تتكلم كما لو كنت وافقت على السفر أنا أيضا ارحلوا أنتم ، وسأبقى هنا قليلا لارتب كل شيء وأغلق الابواب

فصاحت لارا بجنون :

ـ أنت تعرف جيدا أننى لايمكن أن أسافر بدونك

وقال كومارو فسكى :

ـ يظهر أنك مصمم على موقفك ولـكن فلتسمح لى لارا بالاختلاء بك دقيقــة واحدة بالمطبــخ لاقول لك كلمتين على انفراد

ـ هيا بنا الى المطبخ اذن

ـ اعتقل سترلينكوف ، وحوكم واعدم !

ـ ياللهول ! أهذا ممكن ؟

ـ لقد تأكدت من ذلك

ـ لا تخبر لارا حتى لاتصاب بالجنون

ـ طبعا لن أخبرها ولكنى أخبرتك أنت لتقدر أنها وابنتها تتعرضان بعد أعدامه لخطر داهم • فساعدنى على انقاذهمـا بالسفر معهما

ـ هذا موضوع لا محل للتفكير فيه

ـ ولكنها لن تذهب بدونك . فتظاهر على الاقل أنك رضيت بالسفر معنا ، ولو على أن تلحقنا بعد قليل . عدها بذلك وعدا كاذبا . أبذل كل مابوسعك كى تصدقك . قل لها انك ستسرج الفرس ثم تلحق بنا فى الطريق . افعل اى شىء كى تحملها على الرحيل وهى واثقة من لحاقك بنا

ـ الواقع أن ذهولى بنبأ إعدام سترلينكوف جعـل ذهنى يشرد فلم أسمع ما قلته • ولكنى أوافقك على أن حياتى لارا وكاتنكا صارتا فى خطر على حسب سياسة الحكم الجديدة • خذهما الى أقاصى الارض . ان حياتهما الآن موكولة اليك . وذهنى فى هذه اللحظة مشلول عن التفكير السليم . وأخشى أن أرتكب خطأ أندم عليه طول حياتى . وفى الوقت نفسه أجدنى مضطرا ان أخضع لرأيك خضوعا اعمى حتى لا اجازف بحياة لارا وكاتنكا . أجل سأعدها وعدا كاذبا

ـ هذا هو عين الصواب . وبهذه المناسبة معى كمية من الفودكا سأتقاسمها معك لأنها ستنفعك هنا فى ليالى الشتاء الباردة

وعند الغروب كان يورى واقفا على عتبة الباب وظهره الى الدنيا ، يجيل عينيه فى الدار الخاوية وهو يغمغم :

ـ لقد آذنت شمس حياتى بغروب . ياجميلتى وياحبى الباقى على الزمن ! انك تعيشين فى ذراعى وعلى شفتى وفى قطرات دمى وخلايا أعصابى ! سـأحفر حبـك الباقى على صخرة الزمن بأشعار حزينة محتدمة . سأبقى هنا وحـدى أستعيد ذكرى طيفك وحنانك وأكتب من ذوب دمى قصائد حبى

وظلت أفكار غريبة تدور فى رأس يورى . كأن هناك أعاصير تهب داخل جمجمته فانصرف عن العناية بالبيت والعناية بنفسه . وجعل يقضى الوقت فى احتساء الفودكا وينظم أشعارا فى لارا . وكلما كتب أبياتا أعاد تلاوتها فلم تعجبه ، فيشطبها ويعيد كتابتها من جديد . ثم يتبين ان كل الذى يكتبه عن لارا بعيد كل البعد عن تلك المرأة الحقيقية أم كاتنكا التى ملأت جنبات البيت وجوانب حياته ثم رحلت بعيدا الى أقصى الشرق مع طفلتها الصغيرة

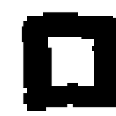
كان يعييه العثور على التعبير الدقيق القوى ، وكان يشعر بحائل فى نفسه يمنعه من التصريح بمكنونات عواطفه الشخصية واحساساته الحميمة ، فتخرج الاشعار خالية من نبضة الحياة وحرارتها . وهكذا غاب من تلك القصائد كل دام آخذ بمجامع القلوب ، ليحل محله ثناء هادىء تكاد تنعدم منه الخصوصية ، وكأنه تعبير عن موضوع عام

والى جانب تلك القصائد التى يندب بها حبه وحياته الخاوية ، كان يسجل قصائد قديمة وينقح مسودات مقطوعات كتبها عن الطبيعة والحياة اليومية . وتزدحم على رأسه فى تلك الاثناء خواطر شتى عن أزمة الفرد والمجتمع فى ذلك العصر المتقلب

انه وهو يبكى لارا ، يبكى أيضا حلما جميلا كانت تتمثل فيه الثورة رائعة نقية قبل أن تنقلب فى اطار الواقع الى آلة ضخمة للاستبداد والعنت !

وبعد أيام جاء حوذى كوماروفسكى يحمل اليه كمية أخرى من الفودكا وحدثه عن رحيل لارا أنتيبوفا وطفلتها مع كوماروفسكى . وحمل الحوذى معه الفرس الى صاحبها فى يوريانتين ، بحجة أن صاحبها فى حاجة اليها . ووعده أن يعود بعد أيام لكى ينقله نهائيا من فاريكينو

وانهمك يورى مرة أخرى فى قرض الشعر وفي استحضار صورة المرأة الباهرة التى حرم من حنانها ، فاشتد شعوره بالخيبة والحنين وأصيب بشبه حمى تؤرقه فيها ألوان من الرؤى والكابوس



كان الجو مايزال صحوا ، قبيل غروب الشمس ، حين سمع وقع خطوات مقبلة • كان القادم رجلا يسير فى هدوء واعتداد نحو البيت ، فأخذ يسائل نفسه :

ــ ترى من يكون هذا القادم سيرا على قدميه ؟ أن أنفيم سيحضر ممتطيا جوادا ، وفاريكينو مقفرة من المارة ، لابد أنهم يقتفون أثرى ويبحثون عنى ، ولابد أن القادم حضر ليدعونى للعودة الى المدينة • بل لعلهم فى طريقهم الى اعتقالى • ولكن هل يكون ذلك بارسال شخص واحد ؟ لعلهما اثنان أو أكثر ! آه لعله ميكوليتسين فانى أعرف مشيته ، وغمره شعور بالبهجة لهذا الخاطر

ووصل الرجل المجهول أمام الباب المفتوح ، وتوقف لحظة ثم استأنف السير ، كأنه على بينة من المكان الذى يقصده

وكان يورى فى هذه اللحظة جالسا الى مكتبه ، وظهره متجه نحو الباب ، وهم أن ينهض لاستقبال الرجل ، فوجده قد وصل الى عتبة الدار ، وقد توقف عن المشى مشدوها • وسأله يورى فى دهشة :

ــ ماذا تبغى ؟

وعندما وقع نظر يورى على الرجل ، وجده بهى المحيا ، جميل قسمات الوجه ، قويا مفتولا ، يرتدى سترة مبطنة بالفراء ، وسروالا من نفس النوع ، وحذاء من الجلد الثمين ، وقد حمل معه بندقية صغيرة

وكان حضور الرجل مفاجأة ليورى ، ولو أنه كان يتوقع

حدثا كهذا ، فالدلائل التى تحيط به كانت تنبىء بذلك

وخطر بذهن يورى أن الرجل هو صاحب المؤن التى كانت مخزونة بالبيت . على أنه خيل اليه أنه رأى هذا الرجل فى مناسبة ما

وكان القادم يتوقع أيضا أن البيت ليس خاليا ، ولذا لم يفاجأ برؤية يورى ، فربما أخبره أحد بذلك . بل ربما كان يعرف أن الساكن هو يورى

وقدح يورى ذهنه متسائلا :

ـ من هو ؟ من هو ؟ وأين رأيته يا ترى ؟ أغلب الظن أننى ألتقيت به ذات صباح دافىء ، ولكن لا تحضرنى الذاكرة فى أى يوم كان ذلك ؟ وفى أية سنة ؟ فى محطة رازفيلييه ! فى عربة القوميسير الذى كنت أتوجس منه ! أفكار واضحة كالمرآة ، وأحكام جامدة ، ومبادىء قاسية صارمة .. المستقيم الصالح .. المستقيم الصالح .. سترلينكوف !



أخذ الليل ينشر أجنحته ، والظلمة تترامى على الكون ، عندما كانا يتحدثان ، وكأنهما الروسيان الوحيدان اللذان يستطيعان التحدث كما يتحدث المجانين ، والمنكوبون بنوع خاص ، والحاقدون الملتاعون

ولم يكن سترلينكوف ممن يميلون الى الثرثرة ، ولكن يبدو أن أسبابا قوية شخصيةجعلته يندفع فى الكلام دونتوقف

لم يتعب سترلينكوف من الكلام ، بل اندمج بكليته فى الحديث مع يورى ، ولعله كان يسعى من وراء ذلك الى الهرب من الشعور بالوحدة . هل كان يرهب وخز الضمير ، أم الذكريات الاليمة التى تلاحقه ، هل كان يئن تحت وطأة الشعور بعدم الرضا عن نفسه ، حيث يصبح انسانا بغيضا

لا يحتمل ، ويكون مستعدا لان يموت خزيا وعارا . أم هل اتخذ قرارا رهيبا ، يؤثر ألا ينفذه وهو منفرد بنفسه ، أو يرجىء تنفيذه ، فرأى ان يلتقى بيورى ويثرثر معه ؟ !

وبدا على سترلينكوف أنه يحمل بين ثنايا ضلوعه سرا خطرا ، أرهقه وطغى على جميع مشاعره واحساساته

وأخذ سترلينكوف يقذف بالكلام فى فوضى ، وكأنه فى حالة حمى وهذيان ، ينتقل من اعتراف الى آخر :

ـ لقد كنا بالقرب من تشيتا ، ألم تؤخذ بتلك المنوعات الغريبة التى كدستها فى البيت، وملأت بها رفوفه وقواريره؟! انها من الغنائم التى فزنا بها ، حينما توغل الجيش الاحمر فى سيبيريا الشرقية واحتلها ، طبيعى أننى لم أنقلها وحدى ،فقد كان الى جانبى رجال مخلصون أوفياء . هل رأيت القهوة ، والشاى ، والشموع ، والكبريت.والورق .والحبر .أخذناها جميعها من مخازن المؤن التشيكية العسكرية ، ومن مخازن اليابانيين والانجليز ، ان هذا ثمين ! أليس كذلك ؟ هل تدرى أن تعبير « أليس كذلك » هو تعبير زوجتى المفضل ... ألم تلاحظ ذلك ؟ ! لست أدرى هل أتكلم فى صراحة بمثل هذه السرعة ... ! لعل من الاصوب أن أدخل فى الموضوع دون مقدمات .. لقد حضرت لأرى زوجتى وابنتى ، فلم يصل الى علمى أنهما هنا الا أخيرا .. ولكن هأنذا لا أراهما ! وقد عرفت صلتك بها من التقارير ومن الاشاعات ! وعندما قيل لى « الدكتور زيفاجو » أخذتنى الحيرة ، وساءلت نفسى كيف استطعت أن أتذكر ، بين الآلاف من الوجوه التى مرت أمامى ، فى السنوات الاخيرة ، وجه الدكتور الذى وقف أمامى ذات يوم ... لاحقق معه !

ـ لعلك ندمت لانك لم تقتله !

ولكن سترلينكوف تجاهل سؤال يورى ، وكأنه لم يتنبه

لهذه المقاطعة ، وتابع كلامه ذاهلا متأملا :

ـ لقد كنت غيورا ، ومازلت ، وهل يمكن أن أكون غير ذلك ؟ ! لقد اختبأت هنا منذ بضعة أشهر ، بعد أن أصبح من المتعذر على الظهور فى الشرق الاقصى • وكان مقررا أن أحاكم أمام المحكمة العسكرية بسبب وشاية • ومن السهل جدا التخمين بنتيجة المحاكمة • وكنت أجهل اننى آرتكبت ذنبا • وكانت أمنيتى أن أظهر سلامة موقفى ، وأن أدافع عن سمعتى ، عندما تسمح الظروف بذلك • ولهذا رأيت أن انتظر ، وبالتالى أن اختفى ، حتى لا أعتقل • وألبس لباس أحد النساك المتجولين • وكان باستطاعتى أن أنجح ، لولا أن شخصا غدر بى ، فخاننى بعد أن منحته ثقتى • لقد اتجهت نحو الغرب ، عبر سيبيريا المترامية ، سيرا على الاقدام • فى فصل الشتاء ، واختبأت حتى فى التراب والطين ، وبلغ منى الجوع اقصاه ،حتى كدت أهلك وأموت • وكنت أتجنب الممرات المطروقة ، وأنام بين أكوام الثلج ، أو فى القطارات المغطاة بالثلج، المعطلة على طول الطريق • وجعلت اتخبط فى تشردى، حتى جمعتنى المقادير بفتى أفاق ، زعم أنه هارب من وحشية الانصار ، وأنهم كانوا قد حكموا عليهبالاعدام ، ولكن الاصابةلم تكن مميتة ،فزحف بين جثث القتلى وهرب ، ثم لجأ الى الغابة واختبأ ، حتى شفى ، وأنه الآن شرير مثلى • يتنقل منمخبأالى آخر ولكنه كان فتى شريرا ،جاهلا سبق أن طرد من المدرسة لغبائه

وأمكن ليورى أن يتعرف على شخصية الفتى من الاوصاف التى ذكرها سترلينكوف ، فسأله :

ـ هل اسمه جاليولين ؟

ـ بالضبط

ـ ثق من أنه صادق فيما ذكره عن الانصار ، وعن الاعدام

وليس ما ذكره من وحى الخيال

ــ مما لفت نظرى أنه يحب والدته حب العبادة ، فقد أعدم أبوه كرهينة له ، ونمى اليه أن أمه سجينة ، وأنها فى انتظار اللحاق بأبيه ، فجن جنونه ، وود أن يبذل المستحيل كى ينقذها وحضر الى تشيتا ، يعترف بما جناه ، ويلتمس الصفح . ويعرض خدماته . فساوموه على ذلك بشرط أن يدلهم على مكان مخبئى ففعل ... ولكننى استطعت أن أكشف خيانته ، فاختفيت فى الوقت المناسب . وقد عانيت أهوالا جبارة ، واقتحمت مئات المغامرات ، حتى تمكنت من عبور سيبيريا والوصول الى هنا، حيث أعرف باسم الذئب الابيض . ولايخطر ببالهم مطلقا ، أننى أجرؤ على المجىء إلى هنا . لقد بحثوا عنى طويلا حــول تشيتا ،بينما كنت اختبىء أنا تارة فى هذا المنزل ، وتارة فى مخابىء أخرى فى الضواحى .. أما الآن فقد انتهى الامر ،لقد أدركونى فى النهاية .. اسمع ، لقد اقترب الليل ، وهوالوقت الذى أكرهه ، فاننى لم أذق طعم النوم منذ زمن بعيد . أغلب الظن أنك قاسيت مثل هذا العذاب . اذا كانت لديك بقية من شموعى ، أمكننا أن نستمر فى الحديث ، نتحــدث قدر ما نستطيع فان فى ذلك متعة ، فى الليل ، على ضوء الشموع

ــ الشموع كما هى فلم أوقد الا قليــلا منها ، لاننى كنت استعمل الغاز الذى وجدته

ــ هل لديك خبز ؟

ــ كلا

ــ بماذا كنت تقتات اذن ؟ ولو أنه من السخافة أن أسأل هذا السؤال ! طبعا بالبطاطس

ــ تماما ، وتوجد منها كميات كبيرة ، فقد كان سكان المنزل مدبرين ذوى خبرة . فعرفوا كيف يوفرونها ، ويحفظونهــا فى القبو دون عطب

وانتقل سترلينكوف ، الى الحديث عن الثورة :

ـ لا يعنيك هذا الكلام ، فأنت لاتستطيع أن تدركه ، لانك نشأت فى وسط آخر . كانت هناك دنيا القرى ، والسكك الحديدية ، وأوكار العمال . الفساد ، والتعاسة ، الانسانية المهينة فى شخص كل عامل ! والمرأة اليائسه الذليلة ! كان هناك عالم رفعراية الفجور والقحة ! طلاب متأنقون متحذلقون، وأبناء تجار أثرياء . وكان يأخذهم الغرور ، ويتملكهم الهزء المسموم ، والسخرية اللاذعة ، فيستخفون بدموع الذين هضمت حقوقهم ، وأهينوا فى انسانيتهم وكرامتهم ، ويهزءون بأناتهم ! وهم ، تحف بهم الفخفخة والمهابة والخيلاء ، أهم ما يميزهم أن كلمة التعب ليست فى قاموس حياتهم ، ولذا لم يتركوا فى العالم أو يمنحوه أى أثر يذكرهم به ... ولقد نظرنا نحن الى الحياة على أنها ميدان صراع ، فأزلنا من الوجود جبالا فى سبيل من نحبهم ، واذا كنا قد جلبنا لهم الشقاء ، فاننا حفظنا لهم كرامتهم ، ولم نمسسهم بأية اهانة ، فاذا اعتبروا أنفسهم شهداء ، فاننا نفوقهم فى ذلك ... نصيحة أسوقها اليك ، بدافع من ضميرى ، يجب أن تغادر هذا المكان فى أقرب وقت ، اذا كنت تستمسك بأهداب الحياة ، فالمطاردة تقتفى أثرى ، وتلاحقنى ، وأنت ، باتصالك بى أصبحت مثلى متآمرا . أضف الى ذلك ، تلك الذئاب التى اتخذت هذا المكان مرتعا لها ، حتى لقد اضطررت أن أطلق النار عليها أمس كى أحمى نفسى

ـ لقد سمعت وأنا نائم طلقا ناريا ، فظننت ذلك جزءا من الكابوس الذى كنت أعانى منه

ـ بل أنا أطلقت النار حقيقة . ولن أمكث عندك طويلا . متى طلع الصباح سأمضى . والآن دعنى أتم ما بدأت من حديث . انك لا يمكن أن تتصور كم كانت جميلة وهى تلميذة صغيرة .

وكانت كثيرا ما تأتى الى بيت زميلتهـا فى المدرسة . وذلك البيت كان يسكنه عمال السكة الحديدية • وكان أبى ( وهو الآن عضو فى محكمة يوريانتين العسكرية ) من عمال المحطة .
فكنت ألتقى بها هناك • وأرى فيها نفسا فذة تتمثل فيها جميع مزايا العصر ومشاكله ومفاتنه ومتاعبه وعيوبه . وكانت لارا فى طفولتها مزيجا رائعا من خفر العذارى ومن الخفة والاقدام

ـ ما أعظم براعتك فى الحديث عنها • ولقد رأيتها أنا أيضا فى طفولتها ، فوجدتها على تلك الصفة تماما • وكان ظلها يرتسم على الجدار متوجسا مستميتا على أهبة الدفاع فى كل وقت .
لقد أحسنت التعبير عن روحها

ـ أنت رأيتها فى ذلك الوقت أيضا ؟ مهما يكن من شيء فان روح أخريات القرن التاسـع عشر التى تمخضت عن ثورات باريس وطبقات من المهاجرين الروس ومؤامـرات دامية أو فاشلة ، وحلقات لدراسة الماركسية فى منتديات أوروبا الفكرية، كل ذلك تجسم فى شخصية لينين ليصب العقاب على ذلك الماضى ويمحوه . وارتفع الى جانبه وجه الروسيا الجديد ، وقد انشقت عنه ظلمات المظالم كأنه شمعة تكفر عن خطايا الانسان وشقائه . . . ومن أجل هذه التلميذة الصغيرة دخلت الجامعة ، ولاجلها صرت أستاذا وقبلت العمل فى يوريانتين التى لا عهد لى بها . وأقبلت على الكتب ألتهمها عسى أن أكون نافعا لها وللناس ، وفى متناول يدها حين تحتاج الى معونتى . ولكى أستعيد حبها تطوعت فى الجيش بعد ثلاث سنوات من زواجنا .
حتى اذا انتهت الحرب وانطلقت من الاسر استغللت اشاعة موتى فى الحرب كى أكرس حياتى للثورة تحت اسم مستعار ، وانتقم من جميع الظروف الاجتماعية والخليقة التى سببت لفتاتى الآلام والذكريات الحزينة . وكنت أعلم أنها وابنتى عن كثب منى ولكنى كنت أقاوم رغبتى العارمة فى الاندفاع اليهما

كي أراهما ، لانى وضعت واجبى الانتقامى أولا • أما الآن فلا أضن بشيء فى سبيل الظفر بنظرة واحدة اليها . انهـا نور حياتي ! كانت اذا دخلت على حجرة من الحجرات فكأنما انفتحت النافذة فجأة على مصراعيها فيتدفق الى الحجرة فيض من النور الرقراق ، والهواء النقى !

ـ انى أعرف تمام المعرفة كم كانت عزيزة عليـك اثيرة لديك . ولكنى أستميحك أن أسألك هل لديك فكرة عن مدى الحب الذى تكنه لك ؟

ـ عفوك ! ماذا قلت ؟

ـ أقول هل تعرف أنت كم كنت عزيزا عليها ، أعز من كل ما فى العالم ؟

ـ ما الذى يدفعك الى هذا الاعتقاد ؟

ـ هى التى أكدت لى ذلك بنفسها

ـ أهى قالت لك هذا ؟ لك أنت ؟

ـ لى أنا

ـ عفوك . أمن الممكن أن تخبرنى ماذا قالت لك بالضبط فى هذا الشأن ؟

ـ سأخبرك . قالت لى انك كنت دائما النموذج الكامل للانسان المثالى . وأنك الرجل الذى لم تصادف فى حياتهـا نظيرا له . وقالت عنك أيضا أنك كنت فذا فريدا فى صدقك واستقامتك واخلاصك • وأنه اذا شيد لها فى أقاصى الارض بيتك الذى ترضى أن تقبلها تحت سقفه ، لزحفت على ركبتيها الى ذلك البيت سعيدة راضية

ـ والآن أرجو أن تذكر لى الملابسات التى أحاطت بهـذا التصريح ، مالم يكن فى ذلك تطفل على شخصياتك

ـ كانت تنظم هذه الحجرة وخرجت تنفض البساط

ـ عفوك . أى بساط ؟ فانى أرى اثنين

ــ ذاك ، الكبير
ــ ما أثقله . هل ساعدتها فى حمله ؟
ــ أجل
فقال سترلينكوف بصوت حالم :
ــ لكأني أراها ! • لقد تناولت البساط من طرفيه وانحنت الى الوراء وقد رفعت ذراعيها الى أعلى وأشاحت بوجهها عن الغبار المتطاير وهى تغمض عينيها ضاحكة • أليس كذلك ؟
ــ كذلك تماما
ــ وهل أجهل عاداتها ؟ وبعد ذلك اتجه كل منكما نحو الآخر طاويين البساط الثقيل طيتين ثم أربعـــا • ثم أطلقت نكتة وأشرق وجهها بالبشاشة . ألم تفعل ذلك تماما ؟
ــ تماما تماما
ووقفا ثم اتجه كل منهما الى النافذة وتطلع فى اتجاه مختلف• ولكن بعد قليل كان سترلينكوف هو الذى اقترب من يورى اندريفتش وتناول يديه وشدهما الى صـــدره ، ثم استطرد يقول :
ــ عفوك . أعلم انى ألمس أمورا عزيزة عليك تنزلها من نفسك منزلة القداسة . بيد انى أحب أن أستخبرك عن مزيد منها . واعذرنى لانى عشت ست سنوات كاملة من الكبت الذى يتجاوز طاقة البشر . وكل ذلك كان على أمل انتصار الحرية الكاملة ، فأشـــعر أن ذراعى حرتان فى ضمها الى صدرى . أما الآن وقد تقوض كل شىء فسيعتقلوننى غدا ولن يسمحوا لى بكلمة دفاع واحـــدة عن نفسى . سيغمروننى بالصياح والصراخ والسباب ويكممونتى • الست أعرف ماذا يصنعون ؟
وأخيرا استطاع يورى أن ينام الليل بطوله لأول مرة منذ عدة أيام . استغرق فى النوم بمجرد أن تمدد فى الفراش .

ونام سترلينكوف فى الحجرة المجـــاورة • وفي المرات القليلة التي تنبه فيها يورى ليتقلب أو ليحكم الأغطية عليه ، كانت متعة النوم تستولى عليه بسرعة من جديد

وقبيل الفجر رأى أحلاما قصيرةجميلة اشتملت على ذكريات من طفولته . وكانت هذه الاحلام من الدقة والتناسق فيما بينها بحيث خالها حقيقة واقعة

واستيقظ فى ساعة متأخرة وهو يشعر بصداع شديد لأنه أفرط فى النوم ، حتى لقد تعذر عليه لاول وهلة أن يدرك أين هو • وأخيرا تذكر أن سترلينكوف فى الحجـــرة الاخرى وأنه يجب أن يصحو ليعد القهوة . وقفز من فراشه وصاح يناديه فلم يسمع جوابا ، فقال فى نفسه :

ـ انه مازال نائما . لاريب فى أن نومه ثقيل !

وأخذ يورى يرتدى ثيابه على مهل لتراخى أعضائه المخدرة من أثر النوم ، ثم مضى ألى الحجرة الاخرى

ورأى قبعة سترلينكوف على المكتب ، ملقاة فى اهمـــال • فأخذ يبحث عنه فى أرجاء البيت ، فلم يعثر له على أثر . فقال فى نفسه :

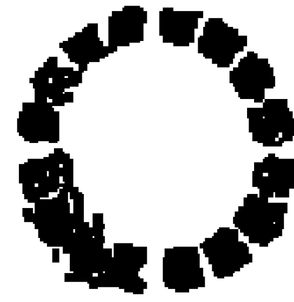
ـ ربما يكون قد خرج للتنزه ريثما استيقظ . يالى من كسول ! كان من المفروض أن أكون قد غادرت فاريكينو اليوم ، ولكن هاهو ذا الوقت قد تأخر بسبب كسلى . استسلمت للنوم فى الصباح الباكر وللأحلام الصبيانية . وشاهدت فى المنام سقوط أحدى لوحات أمى العزيزة عليها وتناثر حطامها ! ما أشد بلاهتى وكسلى !

ووضع الحطب فى الموقد وأشعل النار حتى تأججت . ثم تناول دلوا وخرج قاصدا البئر فى ساحة الدار ليحضر الماء

وعلى مدى أمتار قليلة من الباب رأى سترلينكوف ملقى فى وسط الممر ورأسه غائر فى الثلج ... لقد أطلق النار على

رأسه واستحال الثلج كتلة حمراء تحت صدغه الأيسر ...

وكانت قطرات الدم الصغيرة التى تدفقت من الجرح قد امتزجت بالثلج فتكونت كرات صغيرة قرمزية أشبه فى مرأى العين بثمار العناب المثلجة



# الفصل الرابع عشر

# خاتمة المطاف

لم يبق أمامنا الا أن نروى ما حدث خلال الاعوام العشرة التالية للدكتور زيفاجو ...

لقد تقدم فى هذه الاعوام بخطى واسعة نحو الشيخوخة . وفقد تدريجيا حذقه فى فنى الطب والكتابة . لأن حالة الانهيار أخذت تعاوده بين الحين والحين ، فما أن يشفى من احدى تلك الحالات حتى يبدأ العمل . بيد أن شعلة نشاطه كانت تنطفىء بسرعة ليغرق فى نوبات طويلة من عدم المبالاة بنفسه وبكل شىء فى العالم

وفى تلك المدة أيضا تطورت علة القلب التى شخصها هو بنفسه دون أن يدرك خطرها ، فزادت مع الزمن استفحالا ..

توجه الدكتور الى موسكو عند بداية تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة . وكانت تلك الفترة أشد عهود الحكم السوفييتى رياء وادعاها للتوجس . وحينما ذهب الى العاصمة كان فى حالة رثة ، وكان أشد ضعفا وهزالا مما كان عندما رجع الى يوريانتين بعد فراره من جيش الانصار . وترجع رثاثة حاله الى أنه فى أثناء الرحلة الطويلة تخلص تدريجيا من ملابسه التى لها بعض القيمة واستبدل بها خبزا ، وأغطية عتيقة ستربها عريه . وهكذا حرم من معطف الفرو والبدلة ووصل الى شوارع موسكو وعلى رأسه قبعة رمادية من جلد الضأن . وعلى جسده معطف قديم من معاطف الجيش بلا ازرار . وكان من العسير تمييز الدكتور فى هذا المظهر من غالبية رجال

الجيش الأحمـر الذين كانت تغص بهم محطـات العـاصمة وشوارعها وميادينها

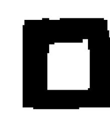
ولم يكن الدكتور بمفرده حين وصل الى موسكو ، بل كان يتبعه كظله شاب ريفى حسن المظهر وان كان يرتدى أيضـا ثياب الجيش العتيقة . فكان الاثنان يترددان على الصالونات القليلة الباقية فى بيوت العاصمة • وهناك يحسنون استقبالهما ويتلطفون فى سؤالهما

ـ هل استحممتما ؟ فان التيفوس منتشر !

وبعد ذلك يخبرونه كيف رأوا عائلته المسكينة تغـادر الأراضى الروسية الى المنفى

وكان الاثنان شديدى الخجل ، ينطويان على أنفسهما معظم الوقت ، ولا يشتركان فى الاحاديث الدائرة . وكان منظـر الاثنين غريبا بعض الشيء . فالدكتور بقامته العالية وثيابه البالية يبدو كفلاح ينشد الحقيقة . أما الفتى الذى كان يتبعه كظله أينما ذهب ، فكان أشبه بتلميـذ صبور يدفعه ولاؤه لملازمة أستاذه العجوز

فمن عساه يكون ذلك الفتى ؟



استطاع الدكتور أن يركب القطار فى المرحلة الاخيرة من رحلته الى موسكو • أما القسم الاول والاكبر من هذه الرحلة فقطعه سائرا على قدميه . فتسنى له أن يشاهد القرى عن كثب فلاحظ أنها ليست أحسن حالا من تلك القرى الاخرى التى رآها فى سيبيريا أو الاورال بعد أن هرب من الاسر . وكل ما هناك أن فصل الصيف فى هذه الرحلة سهل له الامر بعض الشيء

كان نصف القرى التى مر بها مهجورا . والمزروعات فى

الحقول لا تجد من يعنى بحصادها كأنما الارض قد وقعت فجأة في يد الأعداء

كانت الغلال الناضجة تتساقط فى الحقول وتقـــع على الارض . فكان يورى يجمعها فى راحة يده ويبحث عن وسيلة لسلقها ، وعندما لا يجد تلك الوسيلة كان يختصر المسألة ويضع الحب فى فمه ويحاول أن يمضغه . فكان ذلك يسبب له فى كثير من الاحيان عسر هضم وامساكا

وكان كل شيء فيما حوله يتحرك فى رتابة بطيئة . حتى الغيوم فى السماء كانت تتحرك فى تثاقل . ولم يصادف فى حياته مثل هذا العدد الضخم من الفئران . فكلما رقد وسط الحقول لينام ، كانت تقفز تلك الفئران الريفية السمينة على وجهه وداخل سترته وبنطلونه . أما فى النهار فلا تختفى عن الأعين بل تظل تقفز وتلعب على قارعة الطريق

وأما كلاب القرى التى انتقلت الى حال من الضراوة بسبب اقفار القرى والحقول من ساكنيها فكانت تتبعه وهى تتبادل النظرات كأنما تتشاور فيمـــا بينها فى اللحظـــة المناسبة التى تنقض فيها عليه لتمزقه شر ممزق !

وقد كانت هذه الكلاب الضارية تتغذى بالجيف ، ولا تتعفف عن أكل الفئران • ولم يكن يتخلص منها ومن مطـــاردتها الا عندما يوغل فى الغابة فهذه الكلاب لسبب ما كانت لا تجسر على دخول الغابة

ولئن كانت الحقول قد أصـــيبت بضرر لهجر الانســـان لها حتى بدت فى مرأى العين كاليتيمة ، فان هجر الانسان للغابات قد أضفى عليها جمالا وازدهارا ، فكأنها أسير أطلق سراحه !

فأشجار الجوز ، مثلا ، لا يتركها غلمان القرى الى إن تنضج ، أما الآن فها هى ذى تتدلى ناضجة ، وتتراقص بين الأوراق وقد أوشكت على السقوط . وجمع منها يورى كومة أكلها ،

ثم ملأ جيوبه وجرأبه منها وعاش أسبوعا كاملا على ذلك الغذاء الفاخر من الجوز والبنـدق . فشعر بالبركة والأمن فى تلك الغابات ، حتى لقد تراءى له أن روح الله تسكن الغابة . أما الحقول فتتردد فيهـا أصداء ضحكات ابليس السـاخرة الشامتة

ووصل الدكتور بعد ذلك الى قرية محروقة مهجورة قد تقوضت جدرانها وما بقى منها كان مهجوراً ، فدخل بيتا قائما مهجورا من تلك البيوت القليلة ذات مساء . وما أن دخل حتى رأى التبن ينتفض ودبت فى البيت حركة غريبة ، ثم أدرك أنه مسكون بجماعة من الفئران فزعت لدخوله وهربت فرأى أن يغادر البيت لسكانه ! وخرج ليرى الشمس وهى تغيب وراء الحقول ، فوق الضفة الاخرى للنهر ، وعليها جلس فوق حجر ملقى هناك بين الاعشاب ، ينظر الى الشاطىء العميق الذى يتوهج بأشعة الغروب

وبعد قليل برز رأس مشعث ثم كتفان وذراعان . فأدرك الدكتور أن أحدهم كان يستقى من النهر ، لانه يحمل على كتفه قربة ماء . ولما رأى هذا الشخص الدكتور كف عن الصعود ، ثم قال :

ــ أتريد أن تشرب ؟ اذا لم تؤذنى فسوف لا أؤذيك !

ــ نعم أريد جرعة ماء . اقترب . ولماذا تخشى أن أؤذيك ؟

واقترب حامل القربة فاذاً فتى فى العقد الثانى من عمره حافى القدمين مهلهل الثيـاب ، أخذ يرمق الدكتـور بنظرات التوجس وكأنه لا يطمئن الى كلماته الودية . وأخيراً وضع قربته على الأرض وتقدم قليلا ثم لم يلبث أن وقف مأخوذا مضطربا ، وغمغم :

ــ هذا محال ! لابد اننى فى حلم ! اعذرنى ايها الرفيق اذا ألقيت عليك سؤالا

ـ سل ما تشاء

ـ ألم أرك من قبل ؟ أنا متأكد أنى رأيتك من قبل . انت الدكتور . ألست هو ؟

ـ أنا هو ولكن من أنت ؟

ـ ألم تعرفنى ؟

ـ كلا

ـ كنا فى عربة قطار واحدة عندما سافرنا من موسكو وكنت أنا بين المساقين المجندين للسخرة

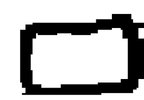
ـ فاسيا !

فارتمى الفتى على الارض أمام الدكتور وقبل يديه وبكى !

لقد كانت هذه الانقاض هى كل ما تبقى من مسقط رأسه قرية فيريتنكى . وماتت أمــه مع من مات . ألقت بنفســها فى النهر جزعا . فحينما أحرقت القرية اختبأ فاسيا فظنت أمه أنهم أخــذوه الى المدينة مع الاسرى الــذين سيعدمون ، فأصابها جنون مفاجىء وانتحــرت . ألقت بنفسها فى ذلك النهر نفسه الذى كان يستقى منه فاسيا ، والذى يجرى تحت اقدامهما وهما يتحدثان

ويقال أن أختيه آليا وآريا على قيد الحياة فى مؤسستين من مؤسسات الايتام فى مكان بعيد . ولكنه لايدرى ان كان هذا صحيحا حقا أم غير صحيح

وهكذا رافق فاسيا الدكتور فى بقية رحلته الى موسكو . وفى الطريق حدثه عن أشياء كثيرة فظيعة رآها بعينيــــه فى تلك السنوات



وكان وصول الدكتور ، وفاسيا الى موسكو فى ربيع سنة ١٩٢٢ ، فى مطلع عهد السياسة الاقتصادية الجديدة . وكان

الجو دافئا ، وأشعة الشمس الساطعة تترافص على القباب الذهبيـــــة

وكان الخطر الذى فرض على مزاولة الاعمال الخاصة قد رفع وصار من المسموح به مزاولة التجارة فى حدود ضيقة . لذا كانت الصفقات كلها تعقد بمقادير صغيرة • وترتب على ذلك تفشى أعمال الوسطاء وتقلب الاسعار • وكانت السلع التى تباع جهرا فى هذه الصفقات الصغيرة تباع بعـــــد ذلك فى السوق السوداء بعشرة أضعاف الثمن الاصلى أو أكثر

أما أصحاب المكتبات فقد اجتمعوا وجمعوا كتبهم كلها فى مكان واحد ثم أخطروا مجلس سوفييت العاصمة أنهم قرروا انشاء مكتبة تعاونية وطلبوا معونة على هذا الاساس • فسمح لهم مجلس السوفييت باستخدام محل كبير لبيع الاحذية فى وسط المدينة كان صاحبه قد أغلقه منذ بداية الثورة

وفى دكان مجاور ، كان فيما مضى متجرا للازهار ، تكونت جمعية تعاونية أخرى من زوجات الاساتذة الجامعيين يصنعن بأيديهن الخبز ويبعنه للناس وقد تخلين عن آرائهن القديمة وسرن فى ركاب الثورة

وفى موسكو قال الدكتور يورى زيفاجو للفتى :

ــ يجب أن تعمل شيئا يا فاسيا

ــ أريد أن أتعلم أولا

ــ طبعا طبعـــــا

ــ وأريد أيضا أن أرسم صورة لامى من الذاكرة

ــ فكرة رائعة يا فاسيا ولكن يجب قبل هذا أن تتعـــــلم الرسم • هل جربت من قبل أن ترسم شيئا

ــ عندما كنت صبيا فى دكان خالى كنت أرسم بقطع الفحم أشكالا ، وهو غير منتبه

ــ هذه بداية لابأس بها • سننظر فى هذا الامر

وابتدأ الدكتور يمتحنه فلم يجده على درجة كبيرة من البراعة والموهبة • ولكن استعداده كان كافيا لدخول معهد للرسم الصناعى • وفى الوقت نفسه تمكن يورى بمساعدة أصدقائه من الحاقه بمعهد ليلى ، تابع فيه ثقافته العامة ثم تخصص فى الطباعة والتجليد ورسم الكتب

وانصرف الدكتور الى وضع كتيبات صغيرة فى موضوعات مختلفة كان فاسيا يرسم موضوعاتها ويطبعها بكميات قليلة باعتبارها أعمالا تدريبية على الطباعة فى المعهد ، ثم توزع بعد ذلك على محلات بيع الكتب القديمة • وفى هذه الكتيبات آراء فلسفية ومعلومات طبية وتعريفات بالنظم الصحية ، وتعليقات على نظرية التطور ، وأشعار وقصص قصيرة •• الخ

وجميع هذه المصنفات الصغيرة مكتوبة بلغة سهلة ، ولكنها تعتبر فكريا فوق مستوى الجمهور • وفى الوقت نفسه كانت تبدو نغمة غريبة وسط التيار الفكرى السائد حينئذ ، فراجت هذه الكتيبات بين هواة جمع الكتب النادرة •

وفى تلك الايام أصبح كل شىء خاضعا لنظام التخصص ، حتى نظم الشعر وترجمة الكتب • وأنشئت مؤسسات لكل فرع من الفروع • فعمل يورى مستشارا طبيا لبعض تلك المؤسسات

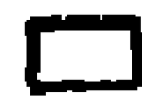
وبقى يورى وفاسيا مرتبطين مدة طويلة يتنقلان للاقامة من مكان متداع الى أنقاض خربة • وكان يورى قد توجه الى بيت أسرته القديم فوجده قد أعطى لسكان آخرين • ولم يجد أثرا لاى شىء من الاثاث القديم

وفى فترة من الفترات أصيبت الصداقة بين الدكتور وفاسيا بفتور • لان فاسيا كان قد تأثر بالآراء الثورية الجديدة التى تلقن فى المعاهد • وصار ينظر الى اراء الدكتور الخيالية كما ينظر الى شىء متعفن

وفى الوقت نفسه كان الدكتور لايكف عن التردد على الدوائر الحكومية ساعيا في الحصول على عفو عن اسرته المنفية عسى أن تأذن لهم الحكومة بالعودة وفى الوقت نفسه تقدم لاستخراج جواز سفر الى باريس كي يعود باسرته من هناك • وكان فاسيا يلاحظ فتورا فى مساعى يورى فى ذلك السبيل ويتهمه بعدم الاخلاص فى مسعاه

ولم يثر الدكتور حين وجه اليه فاسيا ذلك النقد • ولكن علاقته به أخذت تفتر شيئا فشيئا • وأخيرا انفصمت عرى الصداقة تماما وافترق الاثنان • وترك الدكتور يورى الغرفة التى كان يتقاسمها مع فاسيا وانتقل الى حى آخر كان البواب القديم ماركل ذا نفوذ قوى فيه ، فأفرد للدكتور ركنا خلفيا من بيت عتيق وهذا الركن عبارة عن غرفة حمام غير صالحة للاستعمال وغرفة أخرى ملاصقة للحمام بها نافذة واحدة وأرضها متآكلة

وبعد أن انتقل يورى أندريفتش الى هذا المسكن هجر الطب وأهمل شأن مظهره • وتوقف عن زيارة أصدقائه • وعاش فى فقر شـــديد



وفى يوم أحد قاتم من أيام الشتاء كان الدخان يتصاعد من نيران التدفئة متسربا بلونه الاسود من النوافذ ، كان ماركل الذى أصبح مديرا لجملة من العمارات المملوكة للدولة جالسا مع عائلته ـ كعادته فى جميع ايام الاحد ـ حول مائدة كبيرة فى المطبخ يتناولون طعام الغداء • وفوق هذه المائدة بعينها كان الخبز فى فترة صرفه بالبطاقات يقطع الى أنصبة يلف كل نصيب منها فى ورقة كى يوزع على سكان العمارة جميعـــا • ولكن الحمد لله ان توزيع الخبز بالبطاقة قد انتهى وحلت محله أنواع أخرى من الرقابة • وصار فى وسع آل ماركل شابوف أن يأكلوا فى وجبة الغداء اية كمية يشاءون

وكان الموقد الكبير يملأ نصف حجرة المطبخ • وفوق سطحه العلوى فراش تتدلى الاغطية على جانبيه • أما بالقرب من باب المطبخ فكان يوجد صنبور ماء لم يتجمد ماؤه كبقية صنابير البيت • وعلى جانبى المكان صفت مقاعد لان المطبخ دافىء جدا بفضل الموقد المشتعل باستمرار فيستحب الجلوس هناك

وأمام الموقد وقفت أجافيا زوجة ماركل تحرك آنية الطعام والقدور داخل الفرن ، وقد شمرت كميهـا الى ما فـوق المرفقين ، وتكاثف البخار على وجهها الذى أضاءته السنة النيران . وأخيرا أخرجت من وراء القدور لوحا من الصاج فوقه كعكة صنعتها . وبعد ان قلبتها على وجهها الآخر ردتها الى داخل الفرن كى تنضج . وفى هذه اللحظة دخل يورى حاملا دلوين فارغين . وقال للجميع :

ــ هنيئا مريئا

ــ مرحبا بك . تفضل كل معنا

ــ شكرا . لقد تناولت غدائى

فضحكت أجافيا ، وقالت :

ــ كلنا نعرف هذا الذى تسميه غداءك • فلماذا لا تجلس وتأكل طعاما ساخنا ؟ ان هذا الطعام ليس كالاطعمة المنفرة ، لقد صنعته بيدى

ــ شـكرا ... انى آسف اذ تركت البـاب مفتوحا . والبرد شديد . فانى أريد أن آخذ اكبر مقدار ممكن من الماء أملأ به حوض الاستحمام ليكون تحت تصرفى • ويؤسفنى أننى أقلقت راحتكم بهذه الصورة . ولكنى لم أعثر على ماء فى أى مكان آخر

ــ خذ ما تشاء • الماء صنف بالمجـان • انه ليس شرابا !

وقهقهوا جميعا ضاحكين

وعندما عاد يورى للمرة الثالثة كى يملأ الدلوين الخامس

والسادس اتخذ الحديث مجرى آخر ، فقال ماركل :

ـ سألنى الناس عنـــك من تكون فأخبرتهم أنك الدكتور يورى زيفاجو . فلم يصدقونى . لماذا تركت الماء يبلل الأرض أيها الخائب ؟ اذا تجمد فهل أنت الذى ستزيل الجليد ؟ اقفل الباب جيدا أيها المجنون فان البرد شديد .. أجل قلت لهم من أنت فلم يصدقونى . ومعهم الحق ! تصور كل هذا المال الذى أنفق على تعليمك ! فأين وصل بك كل هذا العلم يا مسكين ؟

وعندما رجع يورى للمرة الخامسة غمغم ماركل قائلا :

ـ مرة أخرى وكفى . فلو لم تكن صغيرتنا مارينا تحبك لاغلقت الباب فى وجهك غير مبال بمحتدك الكريم ! لا شـــك انك تذكر ابنتنا مارينا .. انها هذه السمراء الجالسة فى آخر المائدة. فها هو ذا وجهها قد احمرانظر ! انها تقول لى لاتحرجنى بهذا الكلام . ومن الذى يريد أن يحرجها ؟ انها فتاة مثقفة تعرف عدة لغات أجنبية وعاملة تلغراف فى المكتب الرئيسى . قالت لى عنك أنك مسكين سىء الحظ . وتألمت جدا لحظـك العاثر فى الحياة . حتى حسبت أنها لا تتردد فى احراق نفسها لو أن فى ذلك فائدة لك ! كأننى أنا المسئول عن تدهور حالك وترديك فى مهاوى الفقر ! الغلطة غلطتك أنت لانه ما كان ينبغى لك أن تهجر بيتك فى ظروف الانقلاب لتهرب الى سيبيريا . لقد صمدنا نحن هنا وقاومنا حصار البيض حتى انتصرنا ، وها نحن جميعا ما زلنا بخير وعافية . فأنت وحدك المسئول عما أصابك . ولو أنك عنيت بحال تونيا لما كانت الآن معرضة للموت فى أرض غريبة ! ولكن هذه مســألة تعنيـك وحدك . لا شأن لى بها . وكل ما يهمنى الآن أن أعرفه هو ماذا تنوى أن تصنع بهذه الكمية الهائلة من الماء ؟ لقد تبللت وصرت كالفأر المبتل

وقهقه الجميع ما عدا مارينا التى نظرت اليهم شذرا واخذت

توبخهم . ودهش يورى لنبرة صوتها ولكنه لم يدرك السر وأجاب ماركل قائلا :

ـ ان البيت قذر يا ماركل وأريد أن أمسح أرض مسكنى واغسل بعض حوائجى ايضا

واستولت الدهشة على آل شابوف ، وصاح ماركل :

ـ ألا تخجل من نفسك لانك تفكر فى أداء هـــذه الاعمال بنفسك ؟ هل تنوى أن تستبدل بالطب مهنة الغسيل ؟

وقالت أجافيا :

ـ ما هذا الذى تقول ؟ سأرسل ابنتى لتغسل لك ثيابك وتمسح لك الارض وترفو لك ما رث من ملابسك . وتكون فى خدمتك كلما احتجت الى شىء . لاتخـــاش منه يا عزيزتى فستجدينه مهذبا جدا لا يؤذى بعوضة !

فصاح يورى :

ـ ما هذا الذى تقولين يا أجافيا ؟ أنا لا يمكن ان أفكر فى أن تقوم مارينا بمسح أرض بيتى . فلماذا توسخ يديها من أجلى ؟ سأقوم أنا بنفسى بكل ما يلزم

فقالت مارينا فى عتاب :

ـ أترى من الجائز أن توسخ أنت يديك ثم لا يكون جائزا أن أوسخ أنا يدى ؟ لماذا هذه المكابرة يادكتور يورىاندريفتش؛ الملك تقدم على طردى لو صعدت لزيارتك ؟!

وخطر على الفور ببال يورى أن مارينا جديرة بأن تكون مغنية . فصوتها صاف مستقر قوى عريض . أجل انها لم ترفع صوتها . ومع ذلك كان صوتها أقوى مما يلزم للحديث العادى . كان صوتا ملائكيا حقا

وبدأت الصداقة بين الدكتور ومارينا منذ ذهب يستقى الماء من مسكن أبيها فى ذلك اليوم من أيام الاحد . فقد أكثرت من زيارته فى مسكنه للقيام بأعمال البيت . وذات يوم مكثت

عنده طوال الليل ولم تعد الى بيت أبيها . وهكذا صـــارت مارينا زوجة يورى الثالثة مع أنه لم يطلق زوجته الاولى

ولم يسجلا زواجهما رسميا ، وان كان هذا طبعا لم يمنعهما من انجاب الاولاد . وصار ماركل وأجافيا يتحدثان عن ابنتهما فى فخر وخيلاء ، باعتبارها زوجة الدكتور زيفاجو . وكان ماركل يقول أحيانا أن ذلك الزواج يجب أن يســـتكمل أركانه أما فى الكنيسة واما عند موثق العقود . ولكن اجافيـــا كانت تدق صدرها الكبير بيدها ، وتقول له :

ــ أمجنون أنت يارجل ؟ أن تونيا لم تزل على قيد الحيــاة فلو تزوج مارينا رسميا لكان ذلك اقترافا لجريمة تعـــدد الزوجات !

أما الدكتور فكان يضحك احيانا ، ويقول عن حكاية زواجه:

ــ انها رواية غرامية فى عشرين جردلا من الماء !

على غرار قولهم رواية فى عشرين منظرا أو عشرين فصلا !

وعرفت مارينـــا كيف تفهم الدكتور وتغفر بدواته وتغضى عن الفوضى ، والقذارة التى ينثرها فى ارجاء البيت . فهو فى مزاجه وعاداته يجب أن يرخى لنفسه العنان . وهو يعـــلم ذلك . فما أكثر ما كان يتذمر ويثور ، وهى تغضى وتتحمله

وذهبت مارينا الى أبعد من ذلك فى اخلاصها اذ جر عليها شذوذه انها تركت عملها فى مكتب التلغراف لكى تشترك معه فى أعمال غريبة جدا . فى أعمال شاقة تتصل بخدمة البيوت ، ومنها قطع الحطب وتوريده لطبقة الاثرياء الجديدة التى كان معظمها من الفنانين والعلماء المشمولين برضوان الدولة . وقد سمحت الظروف لهؤلاء أن يقيموا فى مساكن مريحـــــة جميلة وأن يستخدموا الاجراء

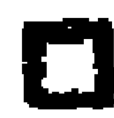
وفى ذات يوم كان يورى ومارينا يعبران بهو احد هذه المساكن حاملين الحطب الى حجرة المكتب التى جلس فيهـــا

« السيد » يقرأ كتابا استولى على اهتمامه كله . فلم يتنازل برفع وجهه ليلقى نظرة على هذين الخادمين

واستولى الفضول على الدكتور فقال فى نفسه حين رأى الرجل يسطر باهتمام شديد ملاحظات على هامش الكتاب الذى يقرؤه

ـ فلأنظر ماذا يقرأ هذا الخنزير

والقى من وراء كتف الرجل حين مر بجانبه نظرة ، فاذا على المكتب مجموعة كاملة من الكتيبات الفلسفية والادبية والعلمية التى كان يورى قد الفها فى الفترة الاولى من نزوله لموسكو ، وتولى فاسيا طبعها !



وفى أوائل صيف سنة ١٩٢٩ كان الجو حارا جدا . حتى ان الجيران كانوا يتزاورون بدون قبعات ، وبدون سترات

وكان يورى أندريفتش ومارينا يسكنان وقتئذ فى شارع قريب من الشارع الذى يسكن فيه جوردون . وقد رزق الدكتور ومارينا ببنتين : كابكا وعمرها خمس سنوات ، وكلاتسكا وعمرها ستة أشهر

وكانت حجرة جوردون جزءاً من مكان كان يستخدم فيما مضى واجهة لمحل خياط . وكان المحل مؤلفا من طبقتين يصل بينهما سلم حلزونى من الحديد . وتطلان على الشارع بنافذة ضخمة كان الخياط قد كتب عليها اسمه بحروف مذهبة .

وأما الآن فقد قسمت الطبقتان الى ثلاث طبقات بخلق طبقة جديدة فى الوسط . وأى شخص يمر فى الشارع يستطيع أن يرى من بداخل هذه الحجرة الى ركبتيه . لان الجزء العلوى من النافذة التى تحمل اسم الخياط يصل الى ذلك الارتفاع . ولكن جوردون تعود ذلك الوضع

وفي ذات يوم كان الدكتور زيفـاجو ودودوروف ومارينا والطفلتان موجودين كلهم فى حجرة جوردون وبعد قليل انصرفت مارينا مع الطفلتين وبقى الرجال بمفردهم . وجرى الحديث فيما بينهم كما يجرى بين مجموعة من الرجـال ربطت بينهم الصداقة سنوات طويلة منذ أيام الدراسة . وكان يورى اكثرهم امتلاكا لناصيـة الحـديث لانه اكثـرهم قـدرة على اسـتعمال لغـة الالفـاظ . أمـا جـوردون ودودوروف فلم يكن لديهما موهبة الفصاحة والطلاقةفىالتعبير وحينما تعوزهما العبارات المناسبة يذرعان الغرفة ويلوحان بأيديهما ، لانهما فى الواقع محـدودا الذهن رغـم ثقافتهـما المتشعبة . فان الذوق الذى يهضم ويتمثل الامور لا يمكن ان تعوضه الثقافة

كان الحديث هو الذى يقودهما كالعربة الجامحة لاهمـا اللذان يقودانه .. لانه لم تكن لديهما القريحة الكفيلة بالقـاء نظرة شاملة على الموضوع . .وكان ذلك يثير شفقة زيفاجو ، حتى لقد أوشك أكثر من مرة أن يقول لهما :

ـ ما أشد تفاهتكما أيها الصديقان العزيزان ! ليس فيكما شىء له قيمة سوى أنكما معاصران لى ، ومن أصدقائى !

ولكنه كان يكبح جماح افكاره ويستمر فى الاصغاء لهرائهما فى صبر وأناة حتى لا يجرح شعورهما

وكان دودوروف قد عـاد اخيرا من منفاه وردت اليه جميع الحقوق السياسية التى حرم منها وسمحوا له باستئناف عمله فى الجامعة . وهو فى هذا اليوم يقص على صديقين قديمين مامر به من التجارب فى منفاه. وهو يؤكد ان الطريقة التى عومل بها فى المنفى السيبيرى ، والاحاديث الطويلة أو الاسـتجوابات السياسية التى تمت مع قاضي التحقيق كانت بتفريغ محتوياته العقلية ثم اتموا تثقيفه سياسيا من جديد فصار شخصـا

ناضجا صالحا لخدمة النظام السوفييتي

واعجب هذا الكلام جوردون فأخذ يؤمن عليه مثنيا ، ويعتبر ذلك الهراء متمشيا مع روح العصر . ولكن يورى أندريفتش استاء لهذه السطحية وكان من رأيه أن المفطورين على العبودية يجتهدون دائما فى ابتداع مبررات فلســــفية للقيود التي يرسفون فيها . وهكذا كان يفعل العبيد فى القرون الوسطى

لقد رأى الدكتور زيفاجو فى ذلك علامة سيئة جدا ليس من المستساغ ظهورها لدى المثقفين السوفييت . وان كانت الدولة تسمى ذلك نضوجا سياسيا وسموا فكريا

وتلك الملاحظة أيضا أخفاها فى نفسه حتى لا يجرح شعور صديقيه . ولكنه قال لصاحبيه بعد قليل :

ــ ان الجو هنا حار خانق . يجب ان اخرج لاستنشق الهواء الطلق

ــ ولكن النافذة مفتوحة . لا شك اننا أفرطنا فى التدخين فثقل الهواء

ــ لا بأس يجب ان أخرج على كل حال . وأنتما تعلمان انني لا أعارض . فأنا مصاب بتصلب فى شرايين القلب وقد تنفجر هذه الشرايين فى يوم ما مع انني لم أبلغ الاربعين بعد ، ولم أفرط فى ملذاتي ولم أدمن الخمر

ــ ما هذا التشاؤم ! انك ستكون أطولنا عمرا

ــ لقد كثرت فى هذه الايام علل القلب . وهو مرض يتصل بالسلوك والطباع . فيصاب به من يعيشون حياة مزدوجة باستمرار . فمن الضرورى ان تتدهور صحتك اذا اضطررت فى كل يوم ان تقول غير الذى تعتقده ، وأن تنحنى أمام من تحتقره ، وأن تستبشر بما يملأ قلبك غمــا . والجهاز العصبى له وجود حقيقى . وله سلطان على أجسامنا . وأرواحنا لها وجود فى داخلنا كوجود الاسنان فى أفواهنا . فلا يمكن امتهان

الروح من غير ثمن نؤديه . وقد تألمت ألما شديدا وأنا أسمعك أيها الصديق تمجد عملية تفريغ عقلك واعادة شحنه على حسب الثقافة السياسية الجديدة فكأنني استمع الى حصان متأبد يتشدق بكيفية ترويضه للحمل والجرى والركوب !لقد ضاقت أنفاسي . حقيقة لا مجازا !

ـ لا تحاول المراوغة ! فلن نتركك تخرج مالم تجب اجابة صريحة على هذا السؤال : هل أنت مدرك أنه قد حان لك أن تغير منوال حياتك وتقوم ما أعوج من سلوكك ؟ وماذا أنت حازم أن تصنع ؟ وأول هذه المشاكل موقفك من تونيا ومارينا . وثانيها ان رجلا مثقفا مثلك ماهرا فى صناعة الطب لا يليق ان تنتهى حياته الى مثل هذا الضياع . تيقظ يا رجل واطرح عنك الخمول والغطرسة الفكرية . وعد الى مزاولة مهنتك

وسكت يورى قليلا ، ثم قال :

ـ لقد فكرت فى هذه الامور فى الفترة الاخيرة . وفى نيتى أن أدخل على منوال حياتى تغييرات أساسية . هذا ما عقدت عليه العزم فعلا . لاننى شعرت فى المدة الاخيرة باقبال شديد على الحياة ولا معنى للحياة الا بأن يسعى الانسان دوما نحو الكمال . وأما عن تونيا ومارينا فأنا لم أقطع صلاتى بأية واحدة منهما . كل ماهنالك انى أجمع بينهما ولا أستطيع أن أستغنى عنهما . وأما أهلى الذين فى باريس فتصلنى اخبارهم باستمرار لقد كبر الطفلان وأوشك ساشا ان ينتهى من دراسته الابتدائية وأما ماشا فستدخل المدرسة قريبا وأنا لم أر هذه الطفلة مطلقا . ولكنى أشعر بارتباط غريب بها . ورغم الجنسية الفرنسية التى يتمتعون بها الآن فانه يداخلنى الاحساس بأنهم سيعودون يوما الى أرض الوطن . ويظهر ان تونيا تعرف هى ووالدها حقيقة معيشتى مع مارينا واننا انجبنا طفلتين . أنا لم أخبرهما بشىء فى رسائلى ، ولكن يظهر أن

رسائل الآخرين تكفلت بذلك التبليغ . وطبعاً شعر والدهـ بالاهانة والاستياء ولذلك انقطعت رسائله خمس سنوات .
ولكن في الاشهر الاخيرة عادت الرسائل الى عهدها الاول ولعل سبب هذا اللين ان تكون تونيا التقت برجل . وأرجو من كل قلبي أن يكون هذا الفرض صحيحا . والآن يجب ان أمضي والا أصابتني نوبة قلبية . وداعا



وفي صباح اليوم التالي أقبلت مارينا راكضـــة الى حجرة جوردون وهي في فزع شديد وتعب أشد اذ لم يكن لديهـــا أحد تتركه مع الطفلتين . فجرت احداهما من يدهـــا وحملت الصغرى على يدها الاخرى مدثرة باغطيتها • وسألت جوردون:

ــ هل يوري عندك يا ميشا ؟

ــ الم يعد اليك في الليلة الماضية ؟

ــ كلا

ــ لابد أنه قضى الليلة عند دودوروف

ــ انا آتية الآن من هناك . ودودوروف في الجامعة ولكن الجيران يعرفون يوري جيدا وقد قالوا لي أنه لم يكن هناك

ــ أين يمكن أن يكون اذن ؟

ولم تجب مارينا بل وضعت ابنتها فوق مقعد وأخذت تبكي بحرقة



ظل جوردون ودودوروف يومين لا يستطيعان ترك مارينا وحدها لسوء حالتها . فكان أحدهما يجلس بجوارها بينما يذهب الآخر للبحث عن الدكتور المفقود . واتصلا أيضـــا بجميع الاماكن التي يمكن أن يكون الدكتور قدذهب اليها وسألا عنه كل شخص من معارفه استطاعا العثور على عنوانه . ولكن جميع جهودهما ذهبت ادراج الرياح

ولم يقدما على ابلاغ الشرطة بتغيب الدكتور . فمع أنه لم يكن من المشبوهين السياسيين وليس له ملف فى البوليس السياسى ، الا أنه لم يكن يعتبر فى حياته مثلا أعلى للمواطن السوفييتي التقدمى . فقرر الصديقان انه يجب عدم الالتجاء للسلطات فى البحث عنه الا عندما يكون ذلك الاجراء هو السهم الاخير فى كنانتهما !

وفى اليوم الثالث وصلت الى جوردون ودودوروف ومارينا رسائل من أماكن مختلفة كلها بخط يورى وتوقيعه . وفى هذه الرسائل ناشدهم الا يقلقوا عليه مؤكداً انه فى خير حال ومبديا أسفه للازعاج الشديد الذى سببه لثلاثتهم . وشدد عليهم ألا يحاولوا العثور عليه ، لانهم لن يستطيعوا ذلك . وكل ما فى الامر انه اراد أن يبر بوعده فى اعادة تنظيم حياته تنظيماأساسيا سريعا . وكان لابد لتحقيق هذه الخطوة من الاختلاء بنفسه. ومتى استقر فى عمل مناسب وتأكد من أنه دفن أسلوبه القديم فى المعيشة ، فلن يتردد فى ترك مخبئه الاختيارى كى يعود الى مارينا والطفلتين

وفى رسالته الى جوردون طلب منه ان يدبر أمر مربية للطفلتين كى تتمكن مارينا من العودة الى العمل فى مكتب التلغراف وأرسل اليه «حوالة» مالية بمبلغ أدهش الصديقين . فأسرع جوردون باستئجار مربية . وعادت مارينا فعلا الى عملها الاصلى فى مكتب التلغراف

ولم يفارق الاضطراب والقلق مارينا مع أنها كانت قد تعودت من يورى الشذوذ والنزوات . ومع ذلك لم تجد بدا من الاذعان

واستمر الثلاثة يواصلون بحثهم عن الغائب بتؤدة ولكنهم بعد قليل أيقنوا ــ كما أخبرهم من قبل ــ ان البحث عنه عبث ليس تحته طائل

ولكن يورى لم يكن يبعد عن بيت جوردون بأكثر من مائة خطوة لانه عند خروجه من هناك التقى بأخيه ايفكراف ولم يكن رآه أو سمع أخباره منذ ثلاث سنوات . وعرف منه أنه عاد فى هذه اللحظة فقط الى موسكو فجأة . وكلما ألقى عليه يورى سؤالا تخلص من الاجابة بلباقة ، وكانت أفضل وسائله فى المراوغة هى النكتة

ولكن ايفكراف استطاع بسؤال أو سؤالين أن يعرف من يورى حقيقة حالته ومتاعبه . وعلى الفور رسم خطة ارتجالية لانقاذه. وكانت الخطوة الاولى فى هذه الخطة هى اختفاءيورى المفاجىء مدة من الزمن

واستأجر ايفكراف لأخيه حجرة فى شـــارع كامرجا قرب مسرح الفنون . وأعطاه مالا وفيرا . وحصل له على عمل محترم فى أحد المستشفيات مع تخصيـــص معمل له هناك لاتمـــام ابحاثه

وأتم ايفكراف مكرمته بأن وعده بحل مشكلة عائلته الموجودة فى باريس ، وذلك بأن يمكنه من الذهاب اليهم ان لم يستطيعوا هم الحضور اليه

وكان لهذه النجدة الحاسمة أثرها فى أنتعاش روح الدكتور ولكنه ظل يجهل سر نفوذ شقيقه ايفكراف بل ولم يحاول ان يميط اللثام عن ذلك السر

وكانت الحجرة التى يسكنها يورى تطل على جهة الجنوب وتكاد تحاذى بناية مسرح الفن . فكانت فى نظره عالما صـــغيرا قائما بذاته ، لا مجـــرد مكان للنوم وللعمـــل . وعلى مكتبـــه تكدست الكراســـات التى كانت تضيق عن أفكاره ففى هـــذه الحجرة كانت ترتسم وتتجسد وتتحقق جميع أحلامه الفكرية والفنية

ومن المصادفات أن مفاوضات شقيقه مع ادارة المستشفى

الذى سيلحقه به تعثرت . فكان موعد تسلمه العمل يتأجل مرة بعد مرة ، فأتاحت هـذه التأجيلات ليورى أن ينصرف بكليته الى التأليف

وقد بدأ بتدوين أولى قصائد شبابه من مسودات حصل له شقيقه عليها . ولكن هذه القصـائد القديمة بدت له بعد قليل شيئا باهتا فلم يلبث أن تركها وشرع فى نوع آخر من العمل . فكان يبدأ فى تسويد مقال عن انطباعاته مثلا عنـدما ذهب أول مرة الى فاريكينو . ولـكنه لا يمضى صـفحة أو صفحتين فى ذلك العمل حتى يسأمه ويبدأ فى تسجيل مطلع قصيدة جديدة تواردت فى تلك اللحظة على خاطره

وفى أحيان أخرى كان يجد صعوبة كبيرة فى ملاحقة أفكاره لتسجيلها ولو بطريقة اختزالية . ولـكن لحظات ذلك الالهام كانت لا تطول . ثم تصاب مخيلته بنوبة ركود أو استرخاء ، فيحاول أن يوقظ قابليته الهامدة برسم تخطيطى على هامش الكراسة . ومعظم هذه الرسوم التلقائية كانت تمثل مفارق الطرق

ومن العجيب أن جميع مقـالات يورى واشـعاره فى تلك الفترة كانت تنصب كلها على موضوع واحد هو المدينة

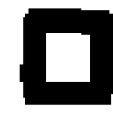
وهذه بعض النبذ التى وجـدت ، فيما بعد ، بين أوراقه من مخلفات تلك الفترة

« حينما عدت الى موسكو سنة ١٩٢٢ رأيتها وقد هجرها أهلوها وتحول معظم أبنيتها الى خرائب . انها تحمـل آثار متاعب وآلام الاعوام الاولى بعد الثورة . لقد قل عدد سكانها كثيرا ولم يشيد فيها بناء واحد جديد . أما البيوت القديمة فقد أصبحت نهبا للاهمال . ومع هذا فموسكو لم تزل مدينة عصرية كبيرة . والمدن هى الينبوع الوحيد لوحى الفن الحديث

« ان البساطة الريفية لم يعـد لها محـل فى الآثار الفنية

الحديثة . وكل ابراز لها فى الفن انما هو تزييف . فالاحساس الريفى قد انتهى عصره . وكل محاولة لتقليد البساطة الريفية انما هى خدعة تعتمد على الانشاء والتكلف . فروح عصرنا الحديث لا تعرف الا لغة واحدة هى لغة المدينة

« ان الضجيج الدائم الذى لا ينقطع ليلا ونهارا فى شوارع المدينة لازمة من لوازم الروح العصرية . فكأن هذا الضجيج المقاطع الاولى من افتتاحيات الاوبرا التى تؤذن بقرب ارتفاع الستار »



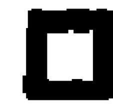
وفى صباح يوم من أخريات أيام شهر أغسطس ركب يورى السيارة العامة متجها لاول مرة الى مقر عمله فى المستشفى . وكان قد ذهب اليه قبل ذلك مرة أو مرتين لاستفسارات تتعلق بعمله الجديد . ولسوء حظه كانت هذه السيارة العامة تتعثر فى سيرها وتقف بين الحين والحين . وكانت هذه السيارة سببا فى تعطيل المواصلات ومضايقة الناس ، أما يورى فظل جالسا على مقعد منعزل فى الجهة اليسرى وراح يحدق فى المارة ويرسم لنفسه صورا خيالية لحياتهم وتشابكها

واستأنفت السيارة العامة سيرها ثم بدأت تصعد تلا . فشق عليها الصعود وتوقفت فى منتصف الطريق . وزاد الامر تعقيدا ان المطر بدأ ينهمر قطرات كبيرة . وفى هذه اللحظة أحس الدكتور بغثيان وضيق فى التنفس . فتحامل على نفسه ووقف ليفتح النافذة فلم يستطع . وصاح الناس من حوله ينبهونه الى أن النافذة مغلقة بالمسامير . ولكنه فى كفاحه ضد نوبته التى بدأت تشتد عليه لم يتبين معانى كلماتهم واستمر يحاول فتح النافذة . ثم اشتد عليه الالم بصورة لم يعهدها من قبل . فأدرك أن شيئا بداخله قد انفجر . وأن نهايته قد حانت . فجمع ارادته فى استماتة واندفع يزيح الناس من أمامه الى مؤخرة السيارة حيث مكان

الوقوف وحيث الباب ، فجعل الناس يحدقون فيه متعجبين : واحس هو ان الهـواء الطلق الذى دخل رئتيه قد انعشه . فظن أن كل شيء على ما يرام . ثم جعل يدفع الناس الواقفين امامه غير مبال بالسباب والسخط الى أن نزل من السيارة المعطلة . وما أن مشى خطوتين حتى انكفأ على رصيف الشارع ولم يستطع النهوض

وعلى الفور قفز بعض من كانوا فى السيارة وقد علت ضجتهم وجعلوا يجسونه . وسرعان ما اكتشفوا انه جثة هامدة لايتردد فيها نفس ولا ينبض قلب

وتضخمت الحلقة التى تحيط بالجثة وكبر عددها . ومعظم القادمين كان الفضول يرتسم على وجوههم من غير تأثر . واقترح بعضهم نقل الجثة الى السيارة العامة كى توصلها الى المستشفى . واقترح آخرون تبليغ الشرطة



ومن باب الحجرة المفتوح كان الناظر يرى مكتبا صغيرا فى ركنها يعلوه تابوت قد اتجهت قدماه الى ناحية الباب

وعلى هذا المكتب عينه كان يورى يقضى معظم ساعات أيامه الاخيره مسجلا سوانحه . تلك السوانح التى محيت جميع كراساتها من فوق المكتب ووضعت فى الادراج كى تفسح المجال للتابوت الكئيب

وكانت الجثة محاطة بباقات كبيرة من زهور الزنبق البيضاء التى يندر وجودها فى ذلك الوقت من العام . وكانت هناك سلال اخر من زهور مختلفة الالوان بلغ من كثرتها انها حجبت الضوء الذى اخذ يدخل من النافذة فيتسلل من بين البراعم ليسقط على وجه الطبيب الفنان الذى يحاكى فى شحوبه لون الثلج

وكان الاتجاه الجديد الى حرق الموتى قد بدأ ينتشر . ولما

كان التغاضي عن الجناز الديني والطقوس الكنسية للدفن أمرا مستحسنا كي يسهل الحصول على اعانة للبنتين ، وحتى لا يتعرض مركز مارينا فى مصلحة التلغرافات للاضطهاد ، فقد رئي الالتجاء الى السلطات السوفييتية لتتولى احراق الجثة حسب النظام التقدمي . وكل شيء الآن فى انتظار وصول ممثل السلطات الموكل بهذا العمل

ولم يكن الصمت سائدا تماما فى حجرة الميت . لان وقع أقدام القادمين لاستئجار الحجرة لم ينقطع . وكذلك وقع اقدام المعزين . بيد أن المعزين كانت أقدامهم بطيئة . وأما الراغبون فى استئجار الحجرة فكانوا يتحركون بنشاط ورهبة

لم يكن عدد المعزين الوافدين لتحية الجثمان قليلا . فان اشعار يورى ومؤلفاته العلمية المبسطة جعلت له مكانة محترمة وكونت مجموعة من الاصدقاء المجهولين أحبوه عن بعد ولم يروه قط . فلما سمعوا نعيه حضروا كلهم ليلقوا على الاستاذ النظرة الاولى والاخيرة

لقد كان هذا الاجلال النزيه ، وباقات الزهر الكثيرة خير عوض عن الطقوس والبخور والادعية والشموع

ومنذ نقل الجثمان الى تلك الحجرة والحركة دائبة فى البيت . وكانت مارينا أول من حضر فارتمت على الارض وقد أطاشت الصدمة المروعة بعقلها وجعلت تدق بيديها على غطاء التابوت وتصيح بهم أن يفتحوه لترى الحبيب ، ودموعها تنهمر من عينيها كالشلال الدافق وصوتها العريض القوى يهز القلوب بتلك الصرخات التى ارتدت وراء التعبير اللغوى للتعبير عن الالم بالصيحة الحزينة والنشيج المختنق . ثم تندفع فى أعوال ومراث كالتى تعود أبناء الريف أن ينوحوا بها على الاحبة الراحلين . ولم تكن تعى للغرباء وجودا حتى تحتشم أو ترعوى

ولما كشفوا الغطاء عن الصندوق التصقت بالجثة فوجدوا عناء شديدا فى التفريق بينهما

كل ذلك حدث فى اليوم السابق . أما اليــوم فقد انهدت قواها فلم تستطع أن ترفع عقيرتها بالبكاء ، فكأنها فى شــبه غيبوبة من الاسى ، وهى جالسة فى هدوء وصمت

انها لم تفارق هذه الغرفة منذ نهار امس . وقد احضروا لها الطفلة كى ترضعها ، وحضرت الابنة الكبرى مع المربية برهة ثم انصرفت . وكان الصديقان جوردون ودودوروف لا يفارقانها وقد أذهلهما الحزن كذلك . أما والدها ماركل فكان يبكى طول الوقت بصوت مرتفع ، ثم يتمخط بصوت مرتفع أيضا . وأمها واخواتها من حولها ينحن أسفا على حظ أختهن العاثر

ودخل رجل وامرأة لم يظهر عليهما شىء من الحزن الذى ظهر على مارينا وآلها ولكن الاثنين كانا يبديان اهتماما شديدا بالبيت ، وقد أخذا علىعاتقيهما اتخاذ التدابير اللازمة لتشييع الجنازة واحراق الجثة

وقــل من بين الحاضرين والمشــيعين من عــرف هــذين الشخصين وقل من بينهم أيضا من استطاعوا عند التخمين أن يعرفوا من هما على وجه الظن

وبمجرد أن دخل الرجل والمرأة الجميلة الحجرة نهضت مارينا وآلها وخرجوا الى الدهليز الخارجى وتركوا الرجــل والمرأة وحــدهما مع الجثــة . فجلسا على كرسيين قرب الحائط ، وقالت الحسناء لصاحبها :

ـ ماذا وراءك يا ايفكراف ؟

ـ الليلة سيتم احراق الجثة . ففى مدى نصف ســاعة سيصل مندوبون من نقابة عمــال الطب لتسلم الجثــة كى ينقلوها الى نادى النقابة . وهناك فى الساعة الرابعة ستجرى

جميع الطقوس الدينية . والآن سأتركك ، لان جرس التليفون يرن

وخرج ايفكراف الى الممر المزدحم بالمعزين المتهامسين فيما بينهم وتناول السماع . وأخذ يتكلم بصوت مختنق ليرد على أسئلة محدثه المتعلقة بمراسم الجنازة وملابسات وفاة الدكتور . ثم عاد الى الحجرة واستأنف كلامه مع الحسناء :

ــ وارجوك يا لارا الا تختفى بعد الانتهاء من حرق الجثة . فلابد أن أعرف أين تقيمين . وأنا بحاجة اليك كى تسدى الى معروفا كبيرا . فانى أريد منذ الغد أو بعده أن أبدأ فى حصر اوراق أخى وترتيبها . وما من أحد يمكن أن ينجز ذلك العمل خيرا منك . فأنت تعرفين عنه الكثير ، بل لعلك أعرف بنى آدم به وبدخائله . لقد قلت لى انك وصلت من اركوتسك فى سيبيريا منذ يومين فقط . وأنك لاتنوين الاقامة طويلا . وأنك أتيت الى هذا المسكن وأنت لاتعرفين ان اخى يقيم فيه وأن حضورك كان لاسباب أخرى ، وهذا كله كلام غير واضح فى ذهنى ومع ذلك أرجوك ألا تبتعدى أو تختفى من غير أن تتركى لى عنوانك . وقد يكون من الافضل ان نقضى الايام القليلة القادمة فى غرفتين بهذا البيت كى نعكف على انجاز تجهيز مخطوطاته للنشر فى أقرب وقت مستطاع

ــ لماذا تقول ان كلامى غير واضح ؟ وماوجه الغموض فيه ؟ لقد وصلت الى موسكو فتركت حقائبى أمانة فى المحطة وسرت فى شوارع موسكو القديمة فاذا بمعظمها وقد تهدم فلم أستطع التعرف عليه لتقادم العهد . وظللت امشى من شارع مجهول الى شارع آخر مجهول حتى وجدت أخيرا شارعا معروفا عندى هو شارع كامرجر . هذا الشارع نفسه ، فقد كان زوجى باشا أنتيبوف ــ الذى قتل ــ يسكن وهو تلميذ هذه الغرفة بالذات التى نوجد فيها الآن انت وأنا ويورى

وعن لخاطرى أن أدخل العمارة لعل بعض السكان القدماء لايزالون قاطنين هنا . ولكن تبين لى أنه ما من أحد منهم له إثر . فلما صعدت الى هذا الطابق أدهشنى أن أرى الباب مفتوحا وارى ضجة كبيرة وتابوتا مسجى فوق مكتب . هذا رجل ميت اذن ! وتساءلت من هو ، فدخلت بدافع الفضول والقيت نظرة ، فكدت أفقد عقلى وكنت أنت حاضرا فرأيتنى

ــ عفوك . لقد قلت الآن أن باشا أنتيبوف قتل . ولكنى اعرفه جيدا . لقد أصبح فيما بعد قائدا وسياسيا معروفا باسم سترلينكوف . وكنت معجبا به جدا . وانا واثق أنه لم يقتل ، بل أنتحر

فقالت لارا باصرار :

ــ سمعت هذه الاشاعة . ولكنى رفضت تصديقها . فما كان باشا بالرجل الذى يقدم على الانتحار !

ــ على رسلك يا لارا . ولكنى واثق أن أنتيبوف انتحر . اخى أكد لى ذلك . قال انه حضر بعد سفرك بقليل الى البيت الذى كنتما تعيشان فيه فى فاريكينو . ولما وجدك رحلت انتحر . وقد عثر اخى على الجثة ودفنها

ــ هل انتحر حقا ؟ طالما قال لى الناس ذلك ولكنى لم أصدق ! ان هذه التفاصيل ذات أهمية عظمى فى نظرى

ورسمت علامة الصليب على وجهها وازدردت ريقها ، ثم قالت له :

ــ ما أعجب تصاريف القدر ! ولكنى احب أن أعرف مزيدا من المعلومات عن ظروف انتحاره . ولكن الوقت الآن غير مناسب لذلك طبعا فأرجو أن تسمح لى فى فرصة أخرى بمزيد من الاستفسار فى هذا الشأن

ــ بكل سرور

ــ آه ! لقد طلبت منى أن أعدك بعدم الرحيل أو الاختفاء

قبل ان نرتب أوراق أخيك . وانى اعدك بهذا . فكم يسعدنى ويسرى عنى ان اراجع مرة اخرى مخطوطات ومخلفات يورى العزيز . فليس مثلى من يعرف دقائق خطه ومصطلحاته ! لقد تسربت معرفته الى دمى . ثم انى سأكون بحاجة الى معونتك أيضا فى أمر خطر للغاية . ان المسألة تتعلق بطفل مسكين . ولكن يجب أن ترجىء هذا الموضـوع الى مابعد العودة من المحرقة . ما أنكد حياتى ! ولكن لماذا لا آتى وأسكن هذه الحجرة مع عزيزتى كاتنكا . انها ذات موهبة خارقة فى الموسـيقى والتمثيل وليتها تلتحق بمعهد للتمثيل أو للموسيقى . وهذا بالضبط من أهم أسباب حضـورى الى موسكو . ولـكننا سنتحدث عن هذا أيضا فيما بعد ... فانى أسمع لغطا عند الباب ولعل المختصين حضروا لاخذ الجثة فمن المستحسن أن تفتح الباب وتدعهم يدخلون

وقام ايفكراف وفتح الباب . ولكن لارا كانت قد ألصقت شفتيها بوجنة يورى وذهبت فى شبه غيبوبة حزينة

لقد فقدت الجميع ، أحبت اثنين مات أحدهمـا وانتحر الآخـر . ولن يبقى حيـا الا ذلك الذى حاولت أن تقتـله بالرصاص فأخطأته وعاش ليتم تشويه حياتها

وحز فى نفسها جدا ألا يقام له قداس فى الكنيسة . فان طقوس الجنازة الدينية فخمة ذات أبهة ورواء ! فخامتهـا لا يستحقها الكثيرون من الموتى . اما يورى فما أجدره بكل جليل مهيب ! !

لقد هزتها شهقاتها المكبوتة ، لانها قاومت دموعها ، وبذلت فى ذلك جهدا فوق طاقتها . الا أن الصدمة كانت أقوى مما تحتمل أعصابها ، فانهمرت عبراتها ، وبللت وجنتيها وثوبها ، والتابوت الذى التصقت به

أعياها الكلام فلم تنبس ببنت شفة ، ولكن سيلا من الافكار

والرؤى والحقائق والنظرات والذكريات ، تتابع أمام ذهنها ، وزحمه ، وكم حدث ذلك مرارا لها من قبل خلال احاديثهما فى سكون الليل . كانت فيما مضى تشيع فى نفسها السعادة ، فقد كانت انسجاما وتفاهما ، وعواطف حارة نابعة من القلب

لقد عرفت الآن ، أنهـا المعرفة الغامضـة بالموت ، التهيؤ للنهاية ، تهيؤ يمحو كل شعور بالقنوط فى حضرته . لكأنها عاشت عشرين حياة ، الحيـاة تلو الاخـرى ، وفقدت يورى مرات لا تعد ، وتجمع فى نفسها من هذه الخلجات القلبيـة ما جعل كل ما تحسه الآن بجانب هذا التابوت صحيحا

لقد كان حبهما فريدا ، لا مثيل له ، فكانت مشاعرهما أشبه ماتكون بأنشودة ملائكية

لقد تحابا حبا لاتنفصم عراه ، لا حب مصلحة ، ولا بدافع الغريزة . لقد كان حبهما ساميا فوق مستوى الماديات ، وكانا يشعران أنهما ليسا وحدهما اللذين ينتشيان بذلك الحب ، بل انه كان يضفى السعادة على ما يحيط بهمـا أو يتصـل بحياتهما . وقد أحسا أن ذلك الحب عنصر من عناصر جمال الكون كله ، كان اندماجهما فى بعضهما بمثابة نسمة الحياة لهما

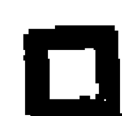
والآن ، وهى تراه مسجى أمامها ، تودعه وتبكيه ، وترثيه بكلمات تخرج من أعماقها ، يدفعهـا الحزن والاسى ، مبللة بدموع قلبها . وكانت عبراتها أصدق تعبير لمشاعرها ، وكأنها كلمـات تنبعث فى همس رقيق هو أشـبه بحفيف أوراق الاشجار ، وهى تقول :

حبيبى يورتسكا ، هاهى ذى الاقدار تجمعنا مرة ثانية .. يا لسخرية القدر ! لقد تخير لنا أقسى طريقة جمع فيها بيننا . هل هناك ماهو أفظع من هذا اللقاء .. ؟! اننى لا أحتمل .. وليس باستطاعتى أن أكف عن النحيب . وهذا الذى أراه امامى الآن ان هو الا احدى حلقات حياتنا ، ولكنه الحلقـة

الاخيرة تتلخص فى كلمتين : ذهابك .. ونهايتى .. ولـكنه أمر فوق طاقة البشر ، لارجعة له . احجية الحياة والموت ، وسحر العبقرية والجمال الرباني ، كنا نستمتع بها ، ضاربين صفحا عن هموم الحياة الصغيرة .. وداعا يا معبودى العظيم يا قرينى بالروح ... وداعا يا من رفعتنى بحبك الى ذروة المجد والعزة ... وداعا أيها النهر العميق المتدفق حيوية ، كم احببت هديرك ، وكم أحببت أن اغوص فى أمواجك ... هل تذكر لحظة فراقنا ؟ وكيف انهارت أعصابى ، لانك تخلفت وتركتنى أذهب بدونك ... أعرف ان ذلك لم يكن عن رضا من نفسك ، بل انك ضحيت فى سبيل ذلك ، ظنا منك أنه من أجل اسعادى ... ولكن تهدم كل شيء فى حياتى . ويعلم الله كم قاسيت ، وكم تعذبت ، ولكن أنى لك أن تعرف !! آه ... ماذا جنيت يايورا ؟ اننى مجرمة .. انك لا تدرى ، ولكن الذنب ليس ذنبي ، قضيت ثلاثة أشهر بالمستشفى ، وشهرا رابعـا وأنا فاقدة الوعي . وعند ذلك أضحت حياتى سعيرا وعذابا .. ان روحى ثائرة لا تعرف السلام . يكاد الندم المسموم والالم المضنى يفتكان بى . اننى أخفيت عنك أهم أمر ، لأننى لا أقوى على البوح به ، وفى كل مرة أستعيد فيها هذه الذكرى يفترسنى الرعب . لعلى لست مالكة لقواى العقلية »

وراحت لارا تهذى وتنتحب فى لوعة وأسى . ودون وعى منها ، رفعت عينيها فى دهشة ، وأجالت النظر فيما حولها ، فرأت الرجال وقــد دخلوا الحجرة ، وانهمكوا فى عملهم ، فابتعدت عن التابوت ، وقد غطت عينيها بيديها ، لتمسـح دموعهـا

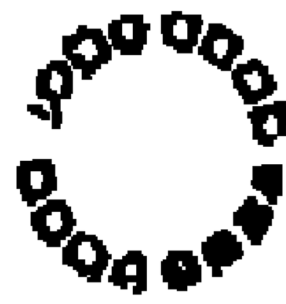
وحمل الرجال التابوت ، وابتدأ سير الجنازة



مكثت لارا بضعة أيام فى شارع كامرجر ، وأخذت تعاون

ايفكراف فى جميع مخطوطات زيفاجو ، وأخذت تتحدث الى ايفكراف فى أمور كثيرة ، واخبرته بحادث هام

وخرجت لارا ذات يوم ، ولم تعد . ولعلها اعتقلت اثنـاء سيرها فى أحد الشوارع . فقد اختفت ولم تترك وراءها اى اثر ، ترى هل ماتت فى أحد معسكرات الاعتقال فى الشمال ؟!



# الفصل الخامس عشر

# ما بعد النهاية

تم اقتحام كورسك وتحرير اوريل فى صيف عام ١٩٤٣ ، وكان المقدم دودوروف ، والملازم جوردون ، الذى رقى حدثا الى هذه الرتبة ، عائدين من موسكو ، وكان دودوروف في أجازة لمدة ثلاثة ايام ، كما كان جوردون يقوم بمهمة عسكرية

وعندما تقابل الاثنان وهما عائدان ، أمضيا الليل فى تلك المدينة الصغيرة تشيرن ، وكان نصيبها من التدمير أخف بكثير من المدن الاخرى فى تلك المنطقة التى اكتسحها العدو وأعمل فيها التخريب والتدمير أثناء انسحابه

وباتا ليلتهما عند مستودع لم يتهدم ، بين أكوام من القرميد والحجارة المفتتة التى تخلفت عن تدمير المدينـــة . على أن النعـــاس جفاهما ، فقطعا الليل فى الثرثرة . وأخيرا تغلب النوم على دودوروف ، فى الهزيع الاخير من الليل ، ولكنـــه ما لبث أن استيقظ فى الساعة الثالثة صباحا والشمس لاتزال فى خدرها بسبب الضجة التى أحدثها جوردون ، اذ كان يأتى بحركات عجيبة ، يتدحرج ويتقلب فى الشوفان النضر ، كى يجمع ثيابه ويحزمها ، ثم هبط عن الشوفان واتجه نحو باب المستودع ، فسأله دودوروف فى استياء :

ـ الى أين يا صاحبى ؟ لا يزال الوقت مبكرا !

ـ أريد أن أغسل ثيابى فى النهر

ـ وما الداعى ؟ اننا سنلحق بفرقتنا فى هذا المساء ، وستريحك الغسالة من هـذا العناء وتبدل لك ثيابك ، لماذا تتعجل الامور ؟

ـ لقد تشربت ملابسي الداخليــة بالعرق من فرط التعب وشدة الحر ، ويجب أن أغسلها فورا وبسرعة ، وستجففها الشمس بسرعة أيضا ، فأستطيع أن أستحم والبسها نظيفة
ـ وهل يليق بك ، وأنت ضابط ، أن تفعل ذلك ؟
ـ الناس نائمون ، وسأتوارى ، ولن يرانى أحد . الافضل لك أن تنام بدلا من هذه الثرثرة
ـ لن يعاودنى النوم ، ولذلك سأرافقك

واتخذا طريقهما الى النهر ، فى محاذاة انقاض الاحجــار الدافئة ، رغم أن الوقت لا يزال مبكرا . وصادفهما فى الطريق اناس تمددوا وســط الشــوارع تلفحهم اشــعة الشمس ، واحتقنت وجوههم وتصببت عرقا . وكانوا مجمــوعة من الرجال والنساء والاطفال ، تهدمت منازلهم ، بينهم بعض الجنود المحالين على الاستيداع . وقد سار جوردون ودودوروف فى حذر شديد بين النائمين ، حتى لا تصطدم أقدامهما بهم .
وقال جوردون بصوت هامس :
ـ اخفض صوتك ، والا فسيستيقظون ، فلا أتمكن من غسل ثيابى
ثم تابعا بصوت هامس حديث ليلتهما السابقة
ـ أتعرف اسم هذا النهر ؟
ـ لا . لعله نهر زوشا
ـ أؤكد لك أنه ليس نهر زوشا
ـ أصارحك أننى لا أعرف اسمه
ـ لقد وقع حادث كريستينا على نهر زوشا
ـ صحيح ، فى أسفل النهر . قيل أن الـكنيسة أظهرت قداستها
ـ كان هناك بناء حجرى اســـمه الاسطبل .. اســطبل سوفخوز ، وقد أصبح اسما تاريخيا . وكان الاسطبل عريقا

فى القدم ذا جدران ضخمة سميكة ، قام الالمان بتحصينه فجعلوا منه حصنا منيعا . وكانت المنطقة مكشوفة لهم ، على مرمى نيرانهم ، مما عاق هجومنا . فكان لزاما علينا أن نستولى على ذلك الاسطبل ، وأبدت كريستينا من المهارة والشجاعة ، ماأخذ بمجامع القلوب ، كى تقتحم المتاريس لتنسفه ، ولكن الالمان اعتقلوها ثم شنقوها

ـ لماذا تدعوها كريستينا أورليستوفا ، ولا تدعوها دودوروفا ؟!

ـ لأننا لم نكن قد تزوجنا بعد . فقد تواعدنا فى صيف عام ١٩٤١ على الزواج بعد أن تضع الحرب أوزارها . ولكنى اضطررت الى التنقل مع فلول الجيش ، وتعدد تنقلى . ففقدتها ولم أرها بعد ذلك قط . أما معجزتها وموتها موت الابطال ، فقد سمعت بهما ، شأنى فى ذلك شأن سائر الناس ، من الصحف ، وأوسمة الجيش التى قلدوها أياها بعد استشهادها وأغلب الظن أنه سيقام لها نصب فى المنطقة . فقد وصل الى علمى أن الجنرال زيفاجو شقيق يورى اندريفتش ، يطوف بهذه الاماكن ليجمع كل ما يتصل بها من معلومات

ـ معذرة أيها الصديق اذ استدرجتك الى الحديث عنها فلا بد أن ذلك يبعث فى نفسك الاسى والشجن

ـ خل عنك ، اننا نتحدث . الق عنك ثيابك ، وانزل الى الماء ، لتفعل ما جئت من أجله . أما أنا فسأتمدد على الشاطىء، وقد تأخذنى غفوة . . . وأحلم

ومضت فترة قصيرة ، ثم استأنفا الحديث :

ـ انك تتقن الغسيل ! كيف تعلمت ذلك ؟

ـ الحاجة أم الاختراع . ومن تضطره الظروف الى أمر ما يبذل جهودا ويتعلم كثيرا لكى يحصل على مبتغاه . لم نكن من المحظوظين ، فقد صادفتنا أشنع المخيمات التأديبية ، وقد

فني فيها الكثير . فمنذ أن وصلنا ، تخرج الفرقة الى مسطح من الثلج ، وقـــد تأبط الحراس بنادقهم ، تتبعهم الكلاب البوليسية ، ثم يؤتى بفرقة أخرى ، ونقف على امتداد الحقل على شكل دائرة كبيرة ، ظهورنا الى الداخل ، حتى لا يرى أحدنا الآخر . وتصدر لنا الاوامر أن نجثو على ركبنا ، ومن يحاول الالتفات الى غيره اصابه عقاب صارم . وعندئذ تبدأ أجراءات التفتيش المذلة التى تستغرق ساعات طويلة ، ونحن راكعون . وتصدر الاوامر لنـــا بالوقوف ، وتذهب الفرق الاخرى الى مكان آخر . أما نحن فنجدهم يوغلون فى ايلامنا ، اذ يأمروننا :

« هذا مخيمكم ! امرجوا فيه كما تشاءون ... وســط صحراء من الثلج ، ينتصب فى وسطه عمود كبير ، يحمل لافتة مؤداها « قيادة المخيمات الرئيسية » أليس ذلك فظيعا ؟! »

ـ لقد قاسيتم أكثر منا ، ولذا نعتبر أنفسنا أوفر منكم حظا ، لأن أوضاعنا تختلف عن ذلك . اذ أن اعتبارى أعيد الى حين سرحت ، فاستطعت أن استأنف دراستى ، فلما نشبت الحرب واشتد أوارها ، استدعيت برتبة مقدم ، ولم التحق بسرية التأديب مثلك

ـ نعم . لم نر أمامنا الا ذلك العمود ذا اللافتة ، فكنا حين يشتد الصقيع ، نضطر الى تكسير الاغصان بأيدينا لكى نقيم أكواخا . قد يبدو ذلك غريبا فى نظرك ، ولكننا ، شيئا فشيئا ، أقمنا كل شىء بأنفسنا ، فكنا نبنى الغرف والاسوار والسجون وابراج المراقبة من أغصان الاشجار . وبعد ذلك أخذنا نستثمر الغابة ، فكنا ننقل الاخشاب الضخمة على عربات يجر كل عربة منها عدد من الجياد ، وكان الثلج يغمرنا حتى الصـدور . وقضينا على هذا الحال وقتا طويلا حتى عرفنا أن الحــرب قد اندلعت . ولم نخبر بذلك بادىء الامر . وفى أحد الايام

جمعنا وأنهى الى مسامعنا أن المتطوعين فى السرايا التأديبية سيسرحون اذا نجوا من المعارك . وحدث بعد ذلك ماحدث ، وياالهول ماحدث ، هجوم مستمر وأمامنا أميال من الاسلاك المكهربة والالغام والمدافع ، وانقضت شهور تتلوها شهور ، ونحن فى عاصفة من النار . فكنا كمن صدر عليهم حكم الاعدام ، فكان الموت يحصدنا عن آخرنا . ولا تسلنى كيف نجوت ، كيف استطعت النجاة ؟ ! وهل تتصور ذلك ، ان هذا الجحيم الدامى يعتبر جنة اذا قورن بالاهوال فى معسكرات التجنيد . لم تكن المسألة مسألة الاضطرار وقسوة الظروف ، بل كانت هناك أسباب اخرى

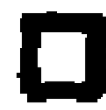
ـ لقد وفيت حقك يا صديقى

ـ لا يدهشنك اذن ان ترانى أجيد الغسيل ، فأى شىء لايتعلمه الانسان فى حياة كهذه ؟!

ـ لقد جاءت الحرب فقلبت كل شىء واثرت فى حياتنا ، وكأنها رسول الخلاص للأفكار وجميع مجالات الحياة . فقد وضعت حدا لتسلط الاوهام الاعتقادية على عقول الناس . ولم يفرح بها المتهمون من أمثالك وحدهم لانها زادت من حريتهم ، بل شعر الجميع فى الجبهة والمؤخرة على السواء بسعادة غامرة وهم يخوضون ذلك القتال الرهيب الذى يستخلص الحياة من براثن الموت

ـ لقد بدأت الآن النتائج البعيدة للحرب تظهر للعيان . فكوارث الحرب التى هزت أساس الأخلاق زودت الجيل الجديد بالصلابة وروح المغامرة والجلد والحماسة . ولهذا تجدنى سعيدا على الرغم من استشهاد كريستينا ، وعلى الرغم مما أصابنى من جراح وخسائر . وبالرغم من الاثر المدمر الدامى الذى يصحب الحروب عادة . ولا شك أن الذى أعاننى على تحمل الالم الذى سببه لى موت كريستينا ،

هو مجد التضحية الذى يضيىء لنا حياتنا جميعا كما أضاء نهاية حياتها ، وكانت كريستينا طالبة فى كلية التاريخ حينما كنت رئيسا للقسم الذى اختارته ، فاسترعى انتباهى نبوغها الباكر . وقد تحدثت معك فى ذلك حينما كان يورى على قيد الحياة . وفى هذه الفترة بالذات كانت هى بين تلاميذى . وكانت قد تفشت عادة نقد الطلاب لاساتذتهم بعنف وشدة . فكانت كريستينا تبدى فى نقدها لى عداء شديدا ونقمة لا يعرف أحد دوافعها ، حتى أن اخوانها الطلبة كانوا يستاءون لموقفها وينحازون غالبا لرأيي ! وكانت كريستينا صاحبة فكاهة لاذعة وبديهة ساخرة . فكانت تهاجمني بجريدة الحائط فى الكلية وترمز الى باسم مستعار يعرف الجميع أنه ينطبق على ، ثم فجأة تكشفت لى الحقيقة الرائعة ، وعرفت أن هذا العداء اللدود كان ستارا تخفى تحته حبا متأججا لى . وكانت عواطفى نحوها شبيهة بعواطفها نحوى . وقبيل اعلان الحرب سنة ١٩٤١ ، ثم فى خلال شهورها الاولى عندما كنت مع فرقتى قرب موسكو ، حضرت كريستينا مع جماعة من الطلبة والطالبات لتمضية العطلة هناك فى الثقافة العسكرية العملية . وقد أبدت بسالة عظيمة فى التمرين على الهبوط بالمظلات وفى الدفاع المدنى ضد الطائرات المغيرة ليلا . وفى ظل هذه الاعمال البطولية عقدنا خطبتنا . ثم انتقلت فرقتي فلم أرها بعد ذلك . وبعد تحسن الموقف الحربى حولونى الى الاعمال المكتبية فى القيادة لحاجتهم الى شخص يجيد اللغات الاجنبية . وهناك وجدتك أنت أيضا



وبعد هذا الحديث الذى جرى بين جوردون ودودوروف وصل الاثنان الى قرية كراتشيف التى كانت قد زالت من الوجود تماما ، وكان الاثنان يقتفيان آثار فرقتهما ، فالتقيا فى

تلك القرية ببعض جنود المؤخرة زاحفين سيرا على الاقدام

وكانت حرارة الصيف شديدة ، حتى ان التربة السوداء الخصبة تحولت الى لون بنى هو أشبه بلون الشيكولاتة . والشارع الرئيسى فى القرية مستقيم يتصل فى النهاية بالطريق الخلوى العام ، وكانت المنازل على أحد جانبى الشارع قد نسفت ، وانتشرت حولها بقايا الاشجار المحطمة أو المتفحمة التى كانت من قبل بساتين فيحاء تحيط بتلك البيوت . أما على الجانب الآخر من الشارع فأرض لم تصبها يد الدمار ، لانها لم تكن من قبل معمورة حتى تدمر

وفى الجانب الذى كان معمورا كان بعض السكان يقلبون الانقاض ويبحثون فى الرماد الذى لم يزل يتصاعد منه الدخان ؛ وكأنهم يبحثون عن شىء ضائع . وكان هناك سكان آخرون يحفرون فى الارض خنادق كى يأووا اليها عوضا عن البيوت ، ويبحثون عن اغصان ليجعلوها لتلك الخنادق عروشا

وفى الجانب المقفر انتشرت الخيام وسيارات النقل وناقلات الخيل وسيارات الاسعاف ، وكل ذلك مخرب معطل . وفى ظلال تلك المعدات رقدت حفنة من الجنود التابعين لفرق الامدادات وقد أنهكهم الهزال وأتت على قواهم الديزونطاريا . فاختلسوا ساعة من نوم قبل أن يستأنفوا مسيرهم الى جهة الغرب

وكانت هناك سحب من الدخان والغبار تتصاعد الى عنان السماء من آثار الأنفجارات المتخلفة . أما فى اتجاه السهول فكان هناك مرعى تحيط به الأشجار العتيقة الظليلة وتعزله عن العالم كأنه واحة فى وسط ذلك الدمار . وفى هذا المرج كانت الغسالة ثانيا فى انتظار سيارة النقل التى يجب أن تحملها مع معداتها . وكان معها ثلاثة من جنود الفرقة أرادوا أن يستفيدوا

من هذه الفرصة . وكان هناك أيضا جوردون ودودوروف . وكانت تانيا لاتفارق المعدات الموكولة اليها ولا تبتعد عنهاخطوة واحدة . والجنود أيضــا لايبتعدون حتى لاتفوتهم فرصة السفر بالســيارة ، مع ان أنتظارهم طال أكثر من خمس ساعات . وليس أمامهم مايتسلون بعمله سوى الاصغاء الى تانيا التي كانت لاتكف عن الثرثرة . فهي محبة للكلام والهذر ، تخوض في جميع الموضوعات وقد روت لهم فيما روت مقابلتها مع الجنرال زيفاجو

ــ بالامس فقط تمت هذه المقابلة . قالوا لى ياتانيا الجنرال يريد أن يراك . فقلت وأنا أريد أن أرى الجنرال . فأخذوني اليه رأسا . ودخلت الى الجنرال زيفاجو . وكانت المقــابلة بخصوص موضوع كريستينا . وكان يسأل بنفســه شهود الرؤية الذين عرفوها شخصيا . وكانوا قد ذكروا له اسمى وقالوا انني كنت زميلتها فى الدراسة لذلك أمر باستدعائى . فهل تعتقدون انني شعرت بالرهبة من مقابلته ؟ أبدا ! فهو رجل مثل سائر الرجال . أسود الشعر له عينان نفاذتان . وذكرت له جميع معلوماتى عن كريستينا . فاصغى باهتمــام شديد لكل ماقلت ، ثم قال : « وأنت يا صغيرتى من أنت ومن أين ؟ » فلم أقل له شيئا . وماذا عساى أن أقول ؟ انى طفلة لا تعرف أبويها . ومن أين تأتى مثيلاتى الا من ملاجىء الايتام واللقطاء . ولما رأى ارتباكى لم يلح على فى السؤال ، وقال لى : « لماذا يحمر وجهك ؟ ليس هناك شيء يدعو للخجل » . فازداد وجهى احمرارا وأفهمته ظروفى بكلمات مقتضبة . وعندئذ أخذ يتمشى فى الحجرة وهو يربت على خدى ، وقال لى : « فهمت كل شيء لا تقلقى . سأنظر فى أمرك فيما بعد . وربما وجدت نفسك فجأة فى نظر الناس كلهم بنت أخ الجنرال . وعندئذ لابد ان اهتم بدراستك العالية » هذا ما حدث أيها الرفاق . وأقسم لكم انه الصدق الصراح وليس فيه كلمة

واحدة من نسج الخيال

وفى هذه اللحظة وصلت الى المكان سيارة نقل كبيرة مما يستخدم فى بولنده لنقل المحصولات . ونزل السائق وحاول الجنود اقناعه بنقلهم ، ولكنه قال ان الاوامر التى لديه لاتسمح بذلك ونزل من السيارة ، ثم اختفى بين الاشجار . فجلسوا كلهم فى السيارة ، وقال جوردون لتانيا :

ـ قصى علينا قصة حياتك كما رويتها للجنرال ، فكلنا يريد أن يعرف من أنت ؟

فضحكت تانيا وظهرت التجاعيد حول أنفها الافطس ، وقالت :

ـ وما المانع ؟

ثم بدأت تقص عليهم تاريخ حياتها العجيب

« ان قصة حياتى حافلة بالمغامرات . ويشاع ان الاسرة التى أنحدر منها ليست حقيرة . وقد سمعت ان والدتى رئيسا كومار وفا كانت زوجة الوزير كوماروفا الذى هرب الى منغوليا . ولكنى أعتقد أن كوماروفا لم يكن أبى حقا ، ولكن ليس هذا هو المهم . المهم ان الجيش الاحمر عندما زحف على كروشيتسكى فى أقصى الشرق من سيبيريا قرب بلاد الصين ، أمر كوماروفا بترحيل جميع العائلات فى قطار خاص ، ومن بينهم أمى . وكانت أمى قد ولدتنى فى فترة انفصالها الطويل عنه ، فهو لا يعلم بوجودى ، وكانت تفزع من أن يكتشف زوجها أمرى . ولذلك أرسلت أمى فى الحال قبل رحيلها الى فلاحة كانت تورد اللبن للبيت واسمها مارفا . فأودعتنى بين يديها . ومن ذلك اليوم عرفت المذلة والقسوة مع ان الخالة مارفا تقاضت مبلغا ضخما نظير عنايتها بى . ولكن يالها من عناية ! لقد فكرت فى ان أشنق نفسى وأنا طفلة . كدت أجن

« ولم تكن الخالة مارفا فقيرة . فعندها مزرعة وبقرة

وحصان ودواجن وحقل واســـع لزراعة الخضروات • وكان بيتها بجوار المحطة ، وكان زوجها عامل التحويلة فيها ، واسمه العم فاسيلى ، وكنت أناديه يا أبى . ومع أنه كان سكيرا ، الا أنه كان رجلا لطيفا مرحا . ومتى سكر يتحدث فى كل شىء فكان جميع أهالى المنطقة يعرفون حقيقة أمرى من فمه ومع ذلك كنت أحبه . أما مارفا فلم تطاوعنى نفسى على أن اناديها يا أمى . ربما لانها فظيعة ، أو لاننى لم استطع أن أنسى أمى ، لهذا دائما كنت أدعوها « خالتى مارفا »

« ومرت السنوات ثم بدأت أخرج الى المحطة واســـاعد فاسيلى فى عمله . كما صار فى مقدورى أن أحلب البقــرة وأربط الحصان . وعلمتنى الخالة مارفا فن الغزل والكنس والمسح والطهو . وتعلمت كذلك أن أعنى بابنهما باتيا الضعيف الساقين ، والذى كان فى الثالثة من عمره ولا يستطيع ان يمشى، فكنت أحمله . وحتى اليوم ارتعد كلما تذكرت نظرات مارفا الى ساقى القويتين فى حسد وحقد !

« ولما حدث التضخم باع فاسيلى بقرة وقبض الثمن كيسين حافلين بالنقود ثم سكر وأخبر جميع أهالى المنطقة بما أصابه من الثروة . وفى ذات يوم أبصرنا امرأة عجوزا تهبط التـــل والهواء يعبث بثيابها . وكانت تبكى وتمسك جنبها . وتوسلت الينا ان نسمح لها بالدخول وهى تنتحب وتتأوه . فأسرج فاسيلى الفرس وربطها فى العربة . ثم وضع العجوز بداخلها وانطلق بها الى المستشفى الذى يبعد عن بيتنا أحد عشر ميلا . وبعد قليل نمنا أنا والخالة مارفا لان الليل كان قـــد أرخى سدوله . ثم سمعنا صوت فرسنا وهى تدخل ساحة الدار فى سرعة فقامت الخالة مارفا وأشعلت مصباحا ، وارتدت معطفها ثم فتحت الباب دون أن تنتظر الطرق المعتاد

« ولم تجد أمامها أبى بل رأت رجلا غريبا عبوس الوجـــه

مخيف الشكل .

قال لها :

ـ أين النقود التى حصلتم عليها ثمنا للبقرة ؟ اعلمى انى قتلت زوجك فى الغابة . وبما أنك امرأة فلن أمسك بسوء اذا سلمتنى المال . والا فدمك على رأســك ! واسرعى ! فليس عندى وقت !

« ولا حاجة بى الى وصف الرعب الذى أصابنا لقتل العم فاسيلى أولا . وللموت الذى كنا ننتظره على يدى هذاالمجرم متى استولى على المال حتى لا نشى به .

« وارتمت الخالة مارفا على الارض تحت قدمى القاتل تستعطفه وتزعم أنها لا تعرف أين خبأ المرحوم النقود . فلم يصــدقها طبعا وهددها الى أن اعترفت له ودلته على مكان الكنز · ولكن الرجل قال لها :

ـ فى الكهف ؟ اذهبى وهاتى النقود من هناك اذن . فسواء عندى أن تصعدى الى السطوح أو تنزلى الى باطن الارض ، فكل ما أريده هو المال . وتذكرى أن التلاعب لا يجوز على

« فقالت له مارفا :

ـ كنت أنزل الى الكهف بكل سرور لولا ان الفزع خلخل ركبتى . سأقف لك على رأس السلم وفى يدى المصباح . وسأبعث ابنتى هذه معك

« وشعرت بفزع شديد . لانى أدركت أنها ستهرب وتصيح مستغيثة فيقتلنى الرجل . ولكن الرجل أنقذنى بقوله :

ـ أتحسبيننى مغفلا . أنا أعرف والجميع يعرفون أن هذه ليست ابنتك

« وانقض على ابنها باتيا الكسيح وحمله بيد واحـــدة ثم فتح الكوة الحديدية التى تسد فوهة سلم الكهف باليد الاخرى · ثم نزل والطفل على كتفيه والقنديل فى يده . ولكن

يظهر انها اصيبت بجنون . فما ان هبط قليلا مع باتيا حتى أغلقت الكوة ، ودعتنى كى أجر صندوقا ثقيلا وضعته فوق غطاء الكهف وجلست فوقه وهى فى غاية السرور بما فعلت . وأخذ الرجل يدق من تحتها ويصرخ فلا نتبين ما يقول . ثم استطعنا ان نفهم ماذا يعنى : اما ان نتركه يخرج واما أن يقتل الطفل !

« وكانت قد جنت بالتأكيد لانها كانت تعلق على ذلك بالضحك وهى تغمزنى أما أنا ففزعت وجعلت أتوسل اليها أن تدعه يخرج . ثم أخذت ادفعها بكلتا يدى ، ولكنها استماتت فى موضعها وأبت أن تتحرك . فانتابنى ذعر لا أنساه على كثرة ما رأيت من مواقف الرعب فى الحياة . فان الكسيح الصغير باتيا أخذ يصرخ ويتوجع . وستظل صرخاته ترن فى أذنى الى آخر نسمة فى حياتى . فقد خنقه المجرم بيديه خنقا

« وتساءلت ماذا أستطيع أن أفعل بين مجنونة وقاتل محبوس فى كهف . يجب أن أفعل شيئا على كل حال ، ولكنى لا أدرى ما هو . وفى تلك اللحظة سمعت صهيل الحصان كأنه يقول لى :

ـ هيا يا تانيا نذهب ونأت بمن ينقذ الموقف

« ونظرت من النافذة فاذا الفجر قد لاحت أولى أشعته . فأسرعت لاركب العربة . وعندئذ سمعت صفير قطار قادم فأخذت الفانوس ورايات الاشارة وخرجت الى شريط السكة الحديدية وجعلت ألوح للقطار الى أن وقف واطل منه السائق . وكان يعرفنى ، وسألنى :

ـ ما الخبر ؟

« فجعلت أصيح ليسمع رغم الرياح الشديدة وافهمته ان لصوصا هاجموا البيت واقترفوا جريمتى قتل . وان المجرم محبوس فى الدار . وعلى الفور رأيت جنودا من الجيش الاحمر

يقفزون من القطار ويسألونني عما حدث . فأعـــدت عليهم القول . فذهبوا معي الى البيت وقبضوا على القاتل ، وهـو يصرخ فزعا ويطلب الرحمة . فلم يلتفتوا لصراخه ، ولم يتقيدوا بالاجراءات القانونية بل جروه مكبلا من خلاف وألقوا به فوق القضبان وأمروا السائق فمر من فوقه !

« وزاد ذلك من فزعى فلم أعد الى البيت لاخذ ثيابى بل تعلقت بالقطار الذى به الجنود . فأخذوني معهم . وجبت كثيرا من الاقاليم الروسية مشردة . وقد سمعت ان الخالة نقلت الى مستشفى الامراض العقلية وشفيت فيما بعـــد وخرجت من المستشفى »

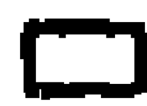


وبعد ان فرغت تانيا الصغيرة من قصتها مشى جوردون ودودوروف وحدهما فى ظل الاشجار صامتين برهة . ثم قال جوردون :

ــ هل عرفت من هى تانيا ؟

ــ طبعا . فما أشبهها حين تضحك وقد أحاطت التجاعيد بأنفها الافطس بصديقنا يورى

ــ لاشك أن الجنرال ايفكراف زيفاجو سيحوطها بالرعاية الواجبة . وليست هذه أول مرة يهوى فيها المثال السامي الى حضيض المادة . فمن قبل تقلص ظل الحضارة الاغريقية أمام حديد الرومان ونارهم . وأتت على الثقافة الروسية الرفيعة غوغاء الثورة الروسية



وبعد أعوام قد تبلغ العشرة التقى فى أمسية من أمسيات الصيف الصافية جوردون ، ودودوروف مرة أخرى أمام شرفة تطل على موسكو ، وبين أيديهما كتاب يضم آثار يورى الادبية

والعلمية التى جمعها ايفكراف . لقد قرآه كثيرا من قبل وحفظا معظم مافيه

ان بشائر الحرية قد بدأت تشرق على حياة النـاس بعض الشيء فى موسكو ، وهذا يبشر بأن المستقبل سيكون أقل ظلمة وظلما . فزاد ذلك من اعزازهما للرجل الذى سطر هذه الآثار وتغنى بهذه المعانى وعاش لها ، ومات من غير ان يفقد ايمانه بالحرية والروح ، رغم الظلمة الحالكة التى كان يعيش فيهـا الضمير الروسى

انتهت

# فهرس الجزء الاول

صفحة

# فهرس الجزء الثانى

صفحة

كتاب الهلال يقدم :

# مذكرات

# محكوم عليه بالاعدام

للكاتب الأشهر

## فيكتور هيجو

ترجمة

لطفى سلطان

يصدر فى ٥ فبراير ١٩٦٠

# وكلاء مجلات دار الهلال

لبنـــان : وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا
و
الاقليم الشمالي : صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت

العـــراق : السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel H Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غـــانا : Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

نيجـــريا : Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

سيراليـــون : Messrs, Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغـــافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

# هـذا الكتـاب

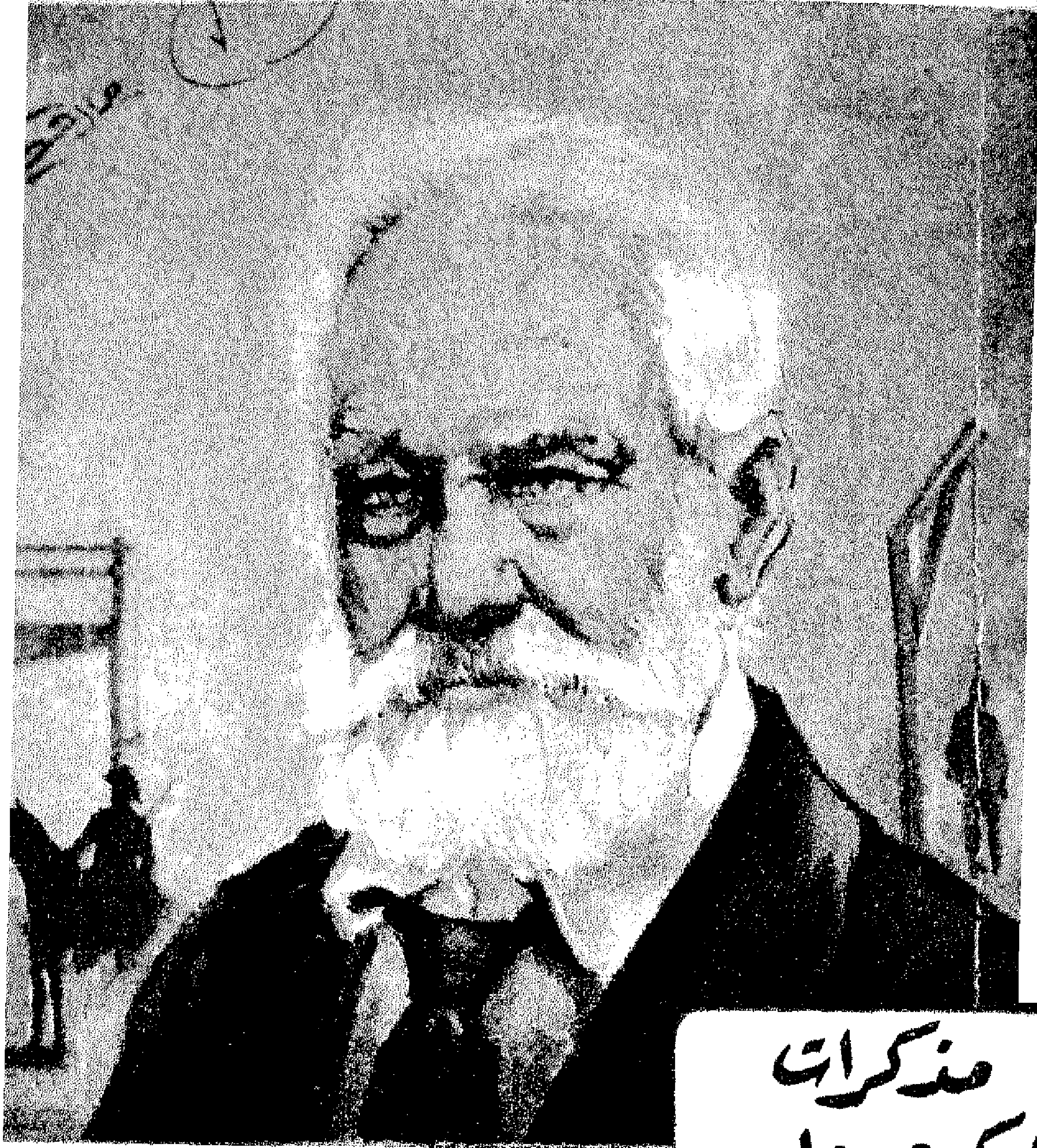
هذا هو الجزء الثانى والاخـــير من رواية « الدكتور زيفاجو » التى صدر جزؤهـا الاول فى الشهر الماضى ، وقد اعتبرت هذه الرواية حدثا سياسيا ، الى جانب قيمتها الادبية ، فى هذا الوقت ، اذ هى أول صورة أدبيـة خرجت الى العالم من قلب الاتحاد السوفييتى ، ووصف دقيق لكثير من الحوادث التى وقعت داخـــل تلك البلاد فى أخطر مرحلة عرفها قطــر من الاقطار فى التاريخ الحديث

وبطل هذه القصة طبيب شاب ، وهو رجل مفكر موهوب ، يبحث عن الحقيقـة ، اســـمه الدكتور زيفاجو

ولقد أجمع سائر النقاد فى العالم على أن هذه الرواية عمل أدبى شامخ ، وانها جديرة بالاطلاع والاقتناء ، وقد ترجمت فى أقل من عـــام الى جميع لغات الارض كلها ، ووزعت منها ملايين النسخ ، على أثر فوز صاحبها بجـــائزة نوبل لعام ١٩٥٨ . وبذلك قفز اسم مؤلفها ، بوريس باسترناك ، الى الصف الاول بين أدباء العصر

انها وثيقة كتبها شاعر أديب ، فيها روعـة الفن ، وصدق التجربة ، وعمق التحليل

كتاب الهلال



# مذكرات محكوم عليه بالإعدام

فيكتور هيجو

الثمن ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

---

العدد ١٠٧ ــ شعبان ١٣٧٩ ــ فبراير ١٩٦٠

No. 107 — February 1960

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

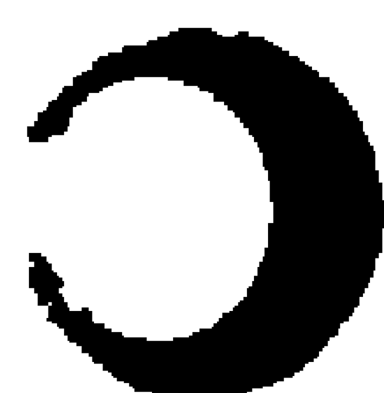
**المكاتبات**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٥ ١/٢ دولارات ــ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

# مذكرات
# محكوم عليه بالإعدام

---

للكاتب الأشهر

## فيكتور هيجو

ترجمة

## لطفي سلطان

---

# مقدمة

بقلم ڤيكتور هيجو

لم يظهر فى مقدمة الطبعات الاولى من هذا الكتاب ، الذى نشر أول مانشر دون ذكر اسم مؤلفه ، سوى السطور القليلة التالية :

« هناك وسيلتان نحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب،أو ان شئت فقل : كانت هناك فى الواقع رزمة من الاوراق الصفراء غير المنتظمة ، سجل عليها آخر ماجال بذهن انسان بائس من افكار ، ورقة بعد ورقة ، أو انه كان هناك رجل مفكر ، شغلته ملاحظة الطبيعة فى سبيل الفن ، رجل فيلسوف أو شاعر — لست أدرى — كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها ، أو بالأحرى سيطرت هى عليه ، ولم يستطع التخلص منها الا بتدوينها فى كتاب .. وعلى القارىء أن يختار من بين هذين التفسيرين مايروق له »

ويستطيع القارىء أن يلاحظ أن المؤلف لم يجد من المناسب أن يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب ، وانما آثر أن ينتظر

حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور . ومالبثت الايام أن حققت ماكان يتوق الى معرفته ، اذ فهم الجمهــور فكرته التي ضمنها هذا الكتاب . ويستطيع المؤلف اليوم أن يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التى اراد أن يروج لها فى هذا القالب الآدبى الساذج البرىء ، فهو يعترف اذن ، أو بالاحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد ، أن كتاب « آخر أيام محــكوم عليه بالاعدام » ليس الا دفاعا مباشرا ــ أو غير مباشر ان شئت ــ عن الغاء عقوبة الاعدام

أن ماكان يقصد اليه الكاتب بمؤلفه هذا ، وماكان يريد أن تتبينه الاجيال المقبلة ، اذا هى عنيت بأمره ، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب ،فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف ، بل هو فى حقيقة أمره مرافعة عامة وابدية عن المتهمين جميعا ، فى الحاضر وفى المستقبل . انه حجر الزاوية فى الحق الانسانى الذى يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذى يعد محكمة النقض الــكبرى ، مستهدفا حماية حقه فى الاستئناف الذى غالبا مايرفض فى قضايا الاجرام !

انها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض فى غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى ، وتختفى وراء ستار كثيف من الكلام الرنان ، ومن البلاغة الدامية التى يحيطها بها رجال الملك ( أى رجال القضاء ) . نعم ، اننى أقول انها مسألة « الحياة والموت » عارية ومجردة من كل رسميات. النيابة العمومية وشــكليات

الاتهام الرنانة ، ومعروضة بشكل بارز فى وضح النهار ، فى المكان الذى يجب أن نراها فيه ، مكانها الواقعى على الطبيعة ، وفى بيئتها الشنيعة المروعة ، لا عند القاضى فى المحكمة ، ولكن على المقصلة . . عند الجلاد !

ذلك هدف الشاعر الذى رمى اليه من تأليف هذا الكتاب . فان كلل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد ـ وهو مالايجسر على أن يأمله ـ فسوف يغنيه هذا عن كل شىء آخر

يعلن المؤلف اذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين ،سواء كانوا أبرياء أو مذنبين ، أمام جميع المحاكم وسائر ممثلى الاتهام والمحلفين : ان هذا الكتاب موجه الى كل من يصدر حكما . ولكى يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطى كل نواحيها ، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » ، أو « مذكرات محكوم عليه بالاعدام » على هـــذه الصـــورة ، وأن يحذف من موضـــوعه ومن أجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع اليه ، والظروف الخاصة والشخصية ، وكل ماله صـــلة بالحـــادث ، واسم المذنب ، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما،محكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم لجريمة ما فى أى يوم من الايام

وسوف يكون من دواعى سعادة المؤلف لو أنه استطاع ـ دون أن يستعين بشىء آخر غير تفكيره ـ أن يتعمق فى موضوعه كل التعمق كى يجعل قلبا تنزف منه الدماء تحت بصر رجال القضاء ، ولو أنه تمكن من أن يبعث الرحمة فى قلوب

أولئك الذين يحسبون أنهم عدول ، وسوف يكون من دواعى سروره لو أنه استطاع بتعمقه فى نفسية القاضى أن ينجح أحيانا فى ان يجد فيه انسانا !



وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، تخيل بعض الناس أن من واجبهم ان يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف ، فقال فريق منهم انه قد أخذها عن كتاب انجليزى ، وذهب فريق آخر الى انه قد اقتبسها عن كتاب أمريكى ، وتلك لعمرى سنة مرذولة تدفعنا الى البحث عن أصول الاشياء بعيدا جدا ، على مسيرة آلاف الاميال ، وتجعل النهير الذى يغسل ماؤه شارعك يأتى من منابع النيل !

ومما يدعو للاسف ان أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا أمريكيا ولا صينيا ، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما ، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هـــذا البعد ، وانمـــا أخـــذها من حيث تستطيعون جميعـــكم أن تأخذوها او من حيث يحتمـــل أن تـــكونوا قد لمســـتموها بالفعل ( اذ من منا لم يحلم ، أو يفكر ، فيما بينه وبين نفسه ، فى آخر يوم فى حياة شخص محكوم عليه بالاعدام ؟ ) .. من الشارع ، بكل بساطة ، او من الميدان العام ، أو من ســـاحة الاعدام . انه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم .. التقطها وهى ملقاة على الارض فى بركة من الدماء ، تحت سلاح المقصلة الاحمر الرهيب !

وكلمـــا كان يذاع حكم بالاعـــدام فى باريس ، تبعـــا لقضـــاة محكمة النقض فى أيام الخميس الكئيبـــة ، كانت هذه الفكرة الأليمة تعود الى المؤلف وتستولى على نفسه ، فى كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التى تجمع المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام ، وهى تمر من تحت نوافذ بيته . نعم ، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ رأســه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير ، وتنقل الى مشاعره الآلام الاخيرة التى يقاسيها البائس المحتضر ســاعة بساعة ، فتقول له : انهم فى هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس .. وفى هذه اللحظة ، يقصون له شعره .. وفى هذه اللحظة ، يوثقون يديه !

وكانت هذه الافكار ترغم المؤلف المسكين ــ وهو شــاعر مرهف الحس رقيق الشعور ــ على ان يقول كل ذلك للمجتمع الذى تشغله شئونه المعتادة ، فى الوقت الذى تتم فيه هــذه العملية البشعة ، وكان هــذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه ، وينتزع وحى الشعر من أعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل أبياته على لسانه وهى بعد لم تر النور ! نعم ، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه ، وتملأ راسه ونفسه فتعطل كل اعماله ، وتعترض سبيله فى كل شىء . وكان الامر بالنسبة اليه عذابا اليما يبدأ مع مطلع النهار ، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذى كان يمتد حتى الســاعة الرابعة صباحا . وعندئذ فقط ، وبعد أن يتنفس الفجر ، كان فى

وسع المؤلف أن يتنفس وأن يجد فى نفسه شيئا من الحرية !

وأخيرا ، شرع المؤلف ذات يوم فى كتابة هذا الكتاب ، وكان ذلك ـ على ما يعتقد ـ فى اليوم التالى لاعدام « دولباخ » ، فخف عنه كربه منذ ذلك الحين ، وأصبح ضميره يوحى اليه انه ليس متضامنا مع العدالة فى كل مرة ترتكب فيها احدى هذه الجرائم العامة التى يسمونها تنفيذ حكم الاعدام ، ولم يعد يحس على جبينه بقطرة الدماء التى تسقط من ساحة الاعدام على رأس كل فرد من أفراد المجتمع

ومع ذلك فان هذا كله ليس كافيا ، فالتبرؤ من الجريمة شىء حسن ، ولكن الافضل منه منع اراقة الدماء . ولهذا ، فلن يعرف المؤلف هدفا أسمى ولا أسلم ولا أنبل من هذا الهدف ، الا وهو الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام ، ومن ثم فانه يضم تمنياته وجهوده بكل قواه ، الى جهود الرجال الكرماء فى كل الامم ، الذين يعملون جاهدين منذ عدة أعوام من أجل اسقاط المقصلة ، وهى الشىء الوحيد الذى لاتجتثه الثورات . وسوف يسر المؤلف أن يأتى بدوره ، وهو الرجل الضعيف ، ليضرب ضربته معاونا فى هدم آلة الاعدام التى تسلط منذ قرون عديدة على رءوس الناس

لقد ذكرنا منذ لحظة ان المقصلة هى البناء الوحيد الذى لاتقوضه الثورات ، والواقع انه يندر أن تبخل الثورات بدم

البشر ، فهى تأتى لتغير وتعدل من نظم المجتمع وأوضاعه ، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الامور التى لاتتنازل عنها الا بصعوبة بالغة

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بأنه اذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة ، وتستطيع حقا أن تلغى عقوبة الاعدام ، فان هذه الثورة هى ثورة يوليو ،اذ يبدو لنا فى الواقع انه من واجب أكثر الحركات الشعبية تسامحا فى العصر الحديث أن تلغى هذه العقوبة البربرية التى أنشأها لويس الحادى عشر وريشليو وروبسبير (١) ،وان تنص فى القانون على عدم جواز اهدار حياة الانسان . نعم ، ان ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الارهاب التى كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣

لقد رجونا ذلك لحظة ، ففى شهر أغسطس من عام ١٨٣٠ ، كان فى وسع المرء أن يستنشق فى الجو كثيرا من الشفقة والكرم ، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية ، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهى تحس باقتراب مستقبل باسم ، حتى بدا لنا أن عقوبة الاعدام قد ألغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفى عام ، شأنها شأن غيرها من الامور التى كانت قد ضايقتنا أشد المضايقة !

---

(١) ريشيليو أحد الوزراء الفرنسيين قبل الثورة . أما روبسبير فهو أرهابي من رجال الثورة الفرنسية

ان الشعب كان قد تخلص من آثار العهـد البائد فى فرح غامر ، والمقصلة أثر دام من هـذه الآثار ، وقد حسبنا أننـا تخلصنا منها وأنها حرقت مع ما حرق ، وظللنا لعدة أسـابيع نثق بالمستقبل فى سذاجة ، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتـداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية

والواقع أنه ما كاد ينقضى شـــهران حتى بذلت محاولة تهدف الى تحقيق الامنية المثالية العظمى ، التى طالما تمناها « سيزار بونيزانا » ، الا وهى الغاء عقوبة الاعـــدام وجعلها حقيقة قانونية ، غير أن هذه المحاولة كانت تفتقر ، للأسف، الى المهـارة والحذق ، بل انها كانت خبيثة تقريبـا ، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة اخرى غير المصلحة العامة

اننا نتذكر أنه فى شـهر اكتوبر من عام ١٨٣٠ ، بعـد أن استبعد البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة أيام ، أخذ ممثلو الأمة جميعـا يبكون وينتحبون ، وطرحت مسألة الحكم بالاعدام على بساط البحث ، وسوف نذكر بعد بضعة أسطر فى أية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث ، فبدا عنـدئذ أن قلوب هؤلاء المشرعين جميعـا قد امتلأت فجأة بشفقة عجيبة ، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على الكلام ، وعلى العويل والنحيب ورفع أيديهم نحو السـماء ! .. الحـكم بالاعدام ! .. يا اله السموات والارض ! .. يا له من شيء بشع شنيع !

نعم .. هكذا كانوا يقولون ، ومنهم هـذا النائب العـام

الشيخ الذى ابيض شعره وهو يرتدى « الروب » الاحمر ، والذى سلخ كل حيـــاته وهو يأكل الخبز مغموســا فى دم الاتهـامات ، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشـفقة ، واشهد الآلهة على أنه يمقت المقصـــلة . ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملين من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الأمر وكأنه « محزنة » ندب فيها الندابون ، ورددوا فاصـــلا من التراتيل الحزينة مع « تخت » كبير ، كبير جدا ، بمصاحبة المجموعة « الكورس » المكونة من كل هؤلاء الخطبـاء الذين يشغلون الصفوف الاولى من المجلس النيابى ، والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية فى الايام المجيدة . لقد غنى كل منهم على طريقته ولم يكن هنـــاك نقص فى اى شىء . وكان الأمر يثير العاطفة ويحرك الشفقة الى أقصى حد ، خاصة وان جلسة الليل كانت أبوية رحيمة ، تتقطع لها نياط القلوب ، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية « لاشوسيه » ، وكانت الدموع تترقرق فى أعين الجمهور الطيب القلب الذى كان لا يفهم شيئا من كل ذلك

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ ؟ الغاء عقوبة الاعدام ؟

نعم .. ولا !

وهذا هو الواقع :

ان اربعـــة رجال من المجتمع الراقى ، اربعـــة رجال ذوى مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصـــادفهم فى صالونات الطبقة العليا ، والذين قد نتبادل معهم بضع كلمات

مؤدبة ، أقول ان أربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا ، فى الدوائر السياسية العليا ، احدى هذه الضربات الجريئة التى يسميها « بيكون » جرائم ، ويطلق عليها « ماكيافيللى » اسم « مشاريع » ولكن القانون فى قسوته على الجميع يعاقب على هـذه الجرائم أو المشـاريع بالاعـدام . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سجناء وأسرى فى قبضة القـانون يحرسهم ثلثمائة جندى فى سجن « فانسين » .. فما العمل وكيف العمل ؟.. لاشك فى أنكم تفهمون أنه يستحيل ان يرسل الى ساحةالاعدام اربعة رجال مثلى ومثلك .. أربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا الى ساحة الاعدام فى عربة « كارو » وهم مقيدون بالحبال الغليظة فى بشاعة ، وظهر كل واحد منهم الى ظهر الآخر ، ومعهم هذا الموظف الذى يجب ألا يذكر اسمه قط ! .. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين !

آه !.. ليست هناك اذن وسيلة لانقاذ رءوسهم الا بالغاء عقوبة الاعدام !



وهنا تحرك البرلمان وبدأ فى العمل !

أرجو ان تلاحظوا أيها السـادة أنكم حتى الأمس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بأنه مجرد نظرية مثالية خيـالية ، وبأنه حلم وشعر وجنون . ولاحظوا كذلك أن هـذه ليست أول مرة يحاولون فيهـا لفت نظركم الى العربة « الكارو » ، والى الجبال الغليظة ، والى الآلة الحمـراء البشعة : انه لمن

الغريب حقا أن تسترعى كل هذه الاشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجأة على هذا النحو !

صمتا ! فالأمر ليس كما تظنون ! فنحن لا نلغى عقوبة الاعدام من أجلك أنت أيها الشعب ، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء فى يوم من الايام . فنحن لا نريد أن تمض المقصلة الطبقات العليا ، ومن أجل ذلك فاننا نحطمها ، وحسنا نفعل اذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع ، غير أننا لم نفكر الا فى أنفسنا ونحن نقوم به ! فلنطفىء النار اذن ، ولنلغ الجلاد بسرعة ، ومعه قانون الاعدام

وهكذا ، فان مزيجا من الانانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها . انه العرق الاسود يجرى فى الرخام الابيض ، ويسير فى كل موضع فيه فيظهر فجأة ، وفى اية لحظة ، تحت « أزميل » النحات . أن تمثالكم أيها السادة يجب أن يعاد صنعه من جديد

ونحن لا نشعر يقينا بأننا فى حاجة الى أن نعلن ذلك هنا ، فلسنا من الذين كانوا يطالبون برءوس الوزراء الاربعة . فبعد القبض على هؤلاء الرجال ذوى الحظ العاثر ، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامرتهم الى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع • لقد أنعمنا النظر فى الافكار العتيقة التى تربى عليها بعضهم ، وفى عقل رئيسهم ذى الافق الضيق ، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن اسهموا فى مؤامرات عام ١٨٠٤ ... قد ابيض شعره قبل

الاوان ، وهو فى الظل والرطوبة فى سجون الدولة ، كما فكرنا فى كل الظروف الحتمية التى كانت تحيط بموقفهم المشترك ، وفى استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذى كانت الملكية قد دفعت نفسها اليه بأقصى سرعتها فى الثامن من اغسطس عام ١٨٢٩ ، وفكرنا كذلك فى مدى الاثر الذى يحدثه شخص الملك ذاته فى أنفسنا ، وهو أثر لم نكن نشعر به الا قليلا جدا حتى ذلك الحين ، وفكرنا خاصة فى العزة والكرامة اللتين كان احدهم يبسطهما على الآخرين فى محنتهم كمعطف ثمين

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين أن تنقذ حياتهم ، وكنا على اهبة الاستعداد لان نضحى فى هذا السبيل ، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم المشنقة يوما فى ساحة الاعدام ، فاننا لانشك فى أنه سوف تحدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة ، وسوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة اذ يجب علينا أن نقول كذلك فى صراحة ، انه اذا قورنت كل المشانق فى أوقات الازمات السياسية ، فان المشنقة السياسية تكون أبشعها وأكثرها شؤما وأوفرها سما وأجدرها بالازالة على الاطلاق . ان هذا الضرب من المقصلة تنبت جذوره فى الشارع ، ويترعرع فى وقت وجيز لينتشر فى الارض . ففى وقت الثورة ، خذوا حذركم لاول راس يهوى ، لانه يفتح شهية الشعب

لقد كنا اذن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ

رءوس الوزراء الاربعة ، كنا متفقين معهم على أية صورة من الصور ، وذلك لأسباب عاطفية وأخرى سياسية ، وانما كنا نؤثر فقط أن يتخير البرلمان فرصة غير هـذه لاقتراح الغاء عقوبة الاعدام

ولو أنهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط أربعة وزراء من قصر التويلرى ( قصر الحكم ) الى سجن « فانسين » ، بل من أجل أى مجـرم عادى ، من أجل واحـد من هؤلاء البائسين الذين لاتدقق النظر اليهم حينما يمرون على مقربة منك فى الطريق ولا تبادلهم الحديث ، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم ، هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا فى العراء وهم حفاة فى الوحل عند تقاطع الشـوارع ، يرتجفون من البرد شتاء على قارعة الطريق ، ويستدفئون على دخان المطابخ ، مطابخ مطعم « مسيو فيفور » العظيم ، الذى تتناول طعامك فيه ، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز فى وسط القمامة ويمسحونها قبل ان يتبلغوا بها ، ثم ينبشون عن غيرها . وليس لهم من تسـلية الا ذلك المنظر المجانى ، منظر عيد الملك ، ومنظر المحكوم عليهم بالموت ، وهم فى ساحة الاعدام ، وهذا المشهد الاخير بالمجان كذلك . يالهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع الى السرقة ، وهـذه تدفع بهم الى الباقى ..! انهم أطفال محرومون فى مجتمع قاس تأخذهم اصلاحيات الاحداث فى سن الثانية عشرة ، والليمان فى الثامنة عشرة ، وتتلقفهم المشنقة فى سن الاربعين . انهم

سيئو الحظ ، وكان فى وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم أناسا طيبين صالحين ، أناسا نافعين ذوى خلق كريم . انهم سيئو الحظ لأنكم لاتدرون ماذا تفعلون بهم الا أن تلقوا بهم كما يلقى المرء بحمل لانفع فيه ، تارة فى ليمان « طولون » وأخرى فى مقبرة « كلامار » لتسلبوهم الحياة بعد أن تكونوا قد سرقتم الحرية منهم .. فلو أنكم اقترحتم الغاء عقـــوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال ، لكانت جلستكم اذن مجيدة حقا ، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل . فمنذ أن دعا قساوسة « ترانت » العظماء الخـــارجين على الكنيسة الى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهيـــة ، اذ كانوا يأملون هدايتهم ، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ما هو أكثر عظمة ونبلا وشفقة ببنى البشر من هذا المشهد . لقد كان من الواجب دائما على أولئك الذين هم أقوياء وعظماء حقا أن يعنوا بالضعيف ، وأن يهتموا بأمر الصغير . ان جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو أنها عنيت بأمر الفقير المعدم، وقضية الفقير المعدم هنا ليست الا قضية الشعب . فلو أنكم كنتم ألغيتم عقوبة الاعدام من أجل الشعب ، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة فى ذلك ، لأتممتم بهذا ماهو أكثر من العمل السياسى ، ولأتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة

لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسى بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام ، لا التماسا لهذا الالغاء لذاته ، ولكن لانقاذ أربعة وزراء بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لاحـــداث

انقلاب !

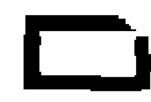
فماذا حدث ؟ انكم قد أثرتم الريب والشكوك ، نظرا لأنكم لم تكونوا مخلصين . وعندما رأى الشعب أن الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث أمر جدير بالملاحظة ، فقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع انه هو الذى يتحمل عبئه كله ! ان افتقاركم الى المهارة هو الذى جعل الامور تسير على هذا النحو ، فأنتم قد أسأتم الى هذه المسألة اساءة طويلة الأمد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة . لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظارة لكم

ومع ذلك ، فقد أخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخذ الجد ، وصدر الامر ، بعد جلسة البرلمان المشهورة مباشرة ، من حامل الاختام — وهو رجل شريف — الى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ أحكام الاعدام الى أجل غير مسمى . وكان ذلك خطوة كبرى فى الظاهر ، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم . كانت وهما قصير الأمد

وانتهت محاكمة الوزراء ، ولا أعرف الحكم الذى صدر عليهم ، وأنقذت رءوسهم الاربعة ، واختير لهم سجن « هام — Ham » كحل وسط بين الموت والحرية . وبعد أن تمت كل هذه الاجراءات ، تلاشى كل أثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم ، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشاعر الانسانية ، ولم يعد أحد منهم يذكر الغاء عقوبة الاعدام ..

ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة ، عاد الخيال خيالا ، وارتدت النظرية الى سيرتها الاولى ، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل

ومع ذلك ، كان لا يزال هناك فى السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين ، كانوا يتنزهون فى ردهات السجون منذ خمسة اشهر او ستة ، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت أنفسهم منذ اثارة هذه المسألة فى البرلمان ، ووثقوا من أنهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا أن ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم .. ولكن ، صبرا لحظة !



حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية ، ففى اليوم الذى كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الغير وعن التقدم ، ظن انه ضائع لا محالة ! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لايحس بأدنى سرور أو ارتياح تحت شمس شهر يوليو ، كبومة فى وضح النهار ، وهو يحاول جاهدا ان يجعل الناس ينسون أمره، وكان يسد أذنيه ، ولا يجرؤ على أن يلتقط أنفاسه .. لم يعد يراه أحد منذ ستة أشهر ، ولم يكن أحد يدرى ما إذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد أخذ الرجل يطمئن رويدا رويدا فى ظلماته ، وكان ينصت الى ما كان يدور فى البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون باسمه ، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التى كانت قد ألقت فى قلبه الرعب . لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية

معالجة الجرائم والعقوبات ، فقد كانوا يهتمون بأشياء اخرى على شيء من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع ، كطريق يصل بين قريتين ، أو منح اعانة لممثلى دار الأوبرا ، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة ألف من الفرنكات !! لم يعد يفكر فيه أحد ، هو : قاطع الرءوس !

وما أن رأى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه ، وأطل برأسه خارج الجحر مقلبا بصره فى جميع الاتجاهات ، ثم خطا الى الامام خطوة أو خطوتين ، كما يفعل أى فأر من فئران الشاعر « لافونتين » ، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه ، ثم قفز على المقصلة واخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها ، ثم لمعها وداعبها وجربها « على الفاضى » وهو يعد نفسه بأن يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التى علاها الصدا وأتلفتها البطالة !!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة ، وأمسك بأحد هؤلاء المنكودى الحظ كما سمحت له الصدفة فى أول سجن صادقه ، أحد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة ، أمسك به من شعره وجذبه اليه ، ثم جرده من ملابسه ، وشد وثاقه ، واعدمه .. وهكذا عادت عقوبة الاعدام !

ان هذا كله شيء شنيع .. ولكنه التاريخ !

نعم ، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة أشهر اجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء ، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون فى الحياة ويتعلقون

بها ، ثم .. بلا سبب .. ولغير ضرورة ، ولمجرد اللذة ألغى وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح ، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس فى برود شـــديد وبطريقة منظمة .. آه ! .. يا الهى ! هل لى أن أسألكم : ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال ؟ ألا يوجد فى فرنسا هواء يكفى الجميع ؟

ونظرا لان كاتبا صغيرا في الحكومة كان لايعنيه الامر، نهض من على مقعده ذات يوم ، وهو يقول : « هيا بنا ! .. لم يعد أحد يفكر فى الغاء عقوبة الاعدام . لقد حان الوقت لنعود الى قطع الرقاب بالمقصلة ! » لابد أن يكون قد حدث فى قلب هذا الرجل أمر وحشى ، أمر بالغ الشناعة !

ونرى لزاما علينا أن نقول من ناحية أخرى انه لم تصاحب تنفيذ أحكام الاعدام ظروف أكثر بشـاعة قط الا منذ الغاء وقف تنفيذ أحكام الاعدام ، الذى صدر الامر به فى شهر يوليو ـ ولم تكن قصص ما يجرى فى ساحة الاعدام قط أكثر اثـارة للنفوس ، مما يبرهن تماما على مقت الناس لعقوبة الاعدام .. ان ازدياد فزع الناس من هذا الحكم انما هو عقاب عـدل موجه لأولئك الذين أعادوا تطبيق قانون الدم ، فليلقوا جزاء وفاقا على ما صنعوه



ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة امثال لما حدث فى بعض وقائع الاعدام ، مما ينضح بشاعة وقذارة . يجب علينا أن نرهق أعصاب زوجات وكلاء النيابة ، فالمرأة لها أثرها أحيانا فى

فى نهاية شهر سبتمبر الماضى على وجه التقريب ، وفى أواسط فرنسا ـ ولا يحضرنا تماما المكان ، واليوم ، واسم المحكوم عليه ، ولكننا سوف نعثر على هذا كله اذا حدث أن شك أحد أو عارض فى صحة هذه الواقعة ـ ونعتقد أن ذلك حدث فى « باميه » . فقد دخلوا على رجل فى سجنه حيث كان يلعب الورق فى هدوء ، فأعلنوه بأنه سوف يموت بعد ساعتين ، فأرسل هذا القول رجفة قاسية فى كل أوصاله . ذلك أنهم كانوا قد نسوا أمره لستة أشهر فلم يعد يفكر فى الموت .. وحلقوا للرجل لحيته ، وقصوا له شعره ، وأوثقوه بالحبال ، وجعلوه يعترف أمام القسيس . ثم اركبوه عربة « كارو » بين أربعة من الجنود ، ومروا به خلال الجماهير حتى وصلوا الى مكان التنفيذ

والى هنا ، فالأمر يهون ، اذ أنه يتم على هذا النحو . ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجلاد من القسيس ، وحمله وربطه على المقصلة ، ثم جعله يطأطىء رأسه وهوت السكين . لقد تحرك المثلث الحديدى الثقيل فى صعوبة ثم هوى وهو يحك فى مجراه ! وهنا بدأت البشاعة ، فقد أخذت السكين تحز فى رقبة الرجل دون أن تذبحه ، فصاح صيحة بشعة . وحار الجلاد فى الامر فرفع السكين ثم تركها تهوى من جديد . فعضت رقبة المسكين مرة اخرى ولكنها لم تقطعها . فصرخ المحكوم عليه ، وصاح الجمهور كذلك ، فرفع

الجلاد السكين مرة ثالثةوهو يأمل خيرا فى الضربةالثالثة ولكن .. بلا جدوى !

ان الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء أخذ يجرى على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته !

والآن فلنوجز : ان السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه ، وخمس مرات صرخ الرجل من اثر الضربة ، وهز رأسه الحى وهو يطلب الرحمة ! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس ، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود .. ولكن هذه ليست نهاية المأساة ..

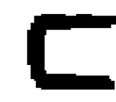
ان المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة ، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع ، وهو يقطر دما ويسند رأســه نصف المقطوع ، الذى كان يتدلى على كتفه ، وراح يطلب فى صياح مبحوح أن يفكوا وثاقه!

فغمرت الشفقة قلب الجمهور ، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وان يخف لنجدة هذا البائس الذى نفذ فيه حكم الاعـــدام خمس مرات . وفى تلك اللحظة بالذات ، صعد على المقصلة صبى الجلاد ، وهو شاب فى نحو العشرين من عمره ، وأمر المحكوم عليه بأن يستدير كى يفك وثاقه ، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت ، الذى كان يسلم نفسه اليه بسلامة نية ، فوثب على ظهره وشرع يقطع له فى صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار !

ان هذا قد حدث وراه الناس راى العين .. نعم ، راوه رأى العين !

وكان هناك بحسب نص القانون ، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم . وكان يستطيع باشارة منه ان يوقف كل شيء ! فماذا كان يفعل هذا الرجل اذن وهو فى عربته بينما كانوا يغتالون انسانا ؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا فى الوقت الذى كانت عملية اغتيال تجرى فى وضح النهار ، أمام عينيه ، وتحت خيول عربته ، وتحت زجاج نافذتها ؟

لم يقدم القاضى للمحاكمة ! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة ، ولم تحقق اية محكمة فى هذا الافناء الوحشى لجميع القوانين فى شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله !



فى عصر همجية القانون الجنائى فى القرن السابع عشر ، ابان حكم « ريشيليو » وحكم « كريستوف فوكيه » ، حينما أعدم السيد « دى شاليه » أمام الناس فى ميدان بمدينة «نانت» على يدى جندى غير ماهر ضربه أربعا وثلاثين ضربة (١) بآلة حادة يستعملها صانع البراميل فى تجميع الخشب ، وذلك بدلا من أن يضربه ضربة واحدة بسيف ، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع فى نظر برلمان باريس ، فأجرى تحقيقا وأقيمت قضية . ولئن كان ريشيليو لم يعاقب ، ولئن كان

(١) يقول لا بورت انها اثنتان وعشرون ضربة ويقول « أوبرى » أنها أربع وثلاثون .. وكان مسيو « دى شاليه » يصرخ فى كل مرة حتى الضربة العشرين !

كريستوف فوكيه لم يعاقب ، فان ذلك الجندى قد لقى جزاءه . كان هذا ظلما دون شك ، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه !

أما هنا، فلم يحدث شيء على الاطلاق . لقد وقع هذا الحادث بعد شهر يوليو فى وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم ، وبعد عام واحد من « محزنة » البرلمان المشهورة على عقوبة الاعدام . حسنا ! ان هذا الحادث لم يذكره أحد على الاطلاق ، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية ، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الاتهام الى أحد !

كان كل ماعرفوه أن المقصلة قد أتلفت عمداً ، أتلفها شخص كان « يريد أن يضر بمنفذ أحكام القضاء » ، كان هذا الشخص هو أحد خدم الجلاد ، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لانه كان قد طرده من خدمته

لم تكن هذه الا مكيدة خادم ، فلنتابع سرد أمثلتنا اذن :

. وفى مدينة « ديجون » ، سيقت امرأة منذ ثلاثة أشهر الى ساحة الاعدام ، ( تصوروا .. امرأة ! ) ، وفى هذه المرة أيضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان (١) عملها كما يجب ، فلم تقطع الرأس تماما بحيث ينفصل عن الجسم . وعندئذ ، تعلق مساعدو الجلاد بقدمى المرأة ، وفصلوا رأس البائسة عن جسدها وهى تطلق صرخات مدوية ، بأن انتزعوها انتزاعا

---

(١) يعنى المقصلة التى عرفت فى فرنسا منذ الثورة الفرنسية بهذا الاسم ، نسبة الى مخترعها الدكتورجيوتان ــ المترجم

بقوة الشد والجذب

وفى باريس ، نعود الى الوقت الذى كان يجرى فيه تنفيذ عقوبة الاعدام فى السر . فنظرا الى أنهم كانوا منذ شهر يوليو لايجرءون على تنفيذ احكام الاعدام فى ساحة الاعدام ، والى انهم كانوا خائفين ، وبما أنهم كانوا جبناء ، فان هــذا هو ماحدث :

لقد أخذوا أخيرا من سجن « بيستر » رجلا محكوما عليه بالاعدام ، يدعى « ديزاندريو » على ما اعتقد ، ووضعوه فى شىء يجر على عجلتين ، مغلقا من كل نواحيه كسلة ، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج ، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه ، بين جنديين أحدهما أمامه والآخر من خلفه ، ثم ألقوا بالسلة والرجل الذى فيها فى وسط الحقــول خارج باريس ، فيما وراء حى « سان جاك » .. وكانت الساعة الثامنة صباحا فى مطلع النهار عندما وصلوا الى هنــاك ، وكانت هناك مقصلة « طازجة » لم تستعمل بعد أعــدت خصيصا لهذا الرجل ، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة أحجار قريبة حول تلك الآلة التى نصبت على غير انتظار .. ثم أخرج الرجل من السلة فى سرعة ، ودون أن تتاح له اية فرصة ليلتقط أنفاسه ، ثم قطع راسه خلسة فى صورة تنطوى على الخيانة والعار ! .. وهذا هو ما يسمونه « عملا رسميا وعاما من أعمال العدالة الكبرى» فيالها من سخرية دنيئة !

فكيف اذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية ؟ وفى اى عصر نعيش ؟ ان العـدالة قد انحطت حتى أضحت حيلا وخططـا فياللشناعة !

ان الشخص المحكوم عليه بالاعدام اذن شىء مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه ، ويأخذ حذره منه الى هذا الحد وعلى هذا النحو !

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما . ففى الصباح ، نادى المنـادون كالمعتاد ، وبيع حكم الاعدام فى شوارع باريس وميادينها .. ويبدو أن هناك اناسا يعيشون من بيع هذه الاشـياء ، فهل تسمعون ؟ انهم يتخذون من جريمة انسان سيىء الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم ! فهل فى وسعكم أن تتخيلوا شيئا أكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم ؟ فمن ذا الذى يلتقطه اذن من بينكم ؟

تلك وقائع كافية ، كافية أكثر مما ينبغى .. أليس هـذا كله شيئا مروعا ؟ فماذا لديكم تستطيعون به أن تؤيدوا عقوبة الاعدام ؟

اننا نلقى عليكم هذا السؤال بصورة جدية ، نلقيه عليكم كى تجيبونا عنه . اننا نوجهه الى علماء الجريمة لا الى المثقفين الثرثارين ، فنحن نعلم أن هناك من يؤيد عقوبة الاعدام ، لالشىء الا ليخالف بذلك رأى الغير كما يفعل فى كل شىء . وان هناك آخرين لايحبون عقوبة الاعدام الا لانهم يكرهون زيدا أو عمرا

ممن يهاجمونها ، فهى بالنسبة اليهم مسألة كلام ... مسألة أشخاص .. مسألة أفراد يسمون فلانا وفلانا . هؤلاء هم الحساد ، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين ، ومثلهم كمثل « جوزيف جريبا » فى معارضته « لفيلانجيرى » ، وكمثل « توريجيانى » فى نقده « لمايكل انجلو » ، وكمثل «سكوديرى» فى تحديه للكاتب المسرحى « كورنى »

اننا لا نتوجه بالحديث الى هؤلاء الناس ، وانما الى رجال القانون بمعنى الكلمة ، والى المفكرين وذوى المنطق السليم ، الى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لانها عقوبة الاعدام ، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها !

هيا اذن .. فليدلوا بدلوهم ، وليقدموا لنا حججهم

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الاحكام ان عقوبة الاعدام أمر ضرورى ، أولا : « لان من الضرورى أن نبتر من المجتمع عضوا قد أساء اليه من قبل وقد يسىء اليه بعد ذلك » . فاذا كان الامر مقصورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفى . فلماذا الموت اذن ؟ أتفترضون أنه يمكن الفرار من السجن ؟ حسنا .. فلتشددوا الحراسة . فان كنتم لاتثقون من متانة القضبان الحديدية ، فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية ؟

ليس ثمة مايدعو الى وجود الجلاد مادام السجان يكفى

ولكنهم يستطردون فيقولون : « ان المجتمع يجب أن يثأر لنفسه وأن يعاقب . « كلا ، لا هذا ولا ذاك ، فالثأر شىء

فردى ، أما العقاب فبيد الله »

والمجتمع بين اثنين : العقاب فوق المجتمع ، والانتقام أقل منه . الاول كبير للغاية ، والثانى صغير للغاية ، وكلاهما لا يلائمه . ومن واجب المجتمع الا « يعاقب لينتقم » ، بل أن « يصلح ليصل الى ماهو أحسن » .. فغيروا اذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو ، فنحن نفهمها ونقبلها على هذا التعديل

يبقى السبب الثالث والاخير ، وهو نظرية ضرب المثل : « يجب أن يضرب المثل الرادع ! .. يجب الارهاب بمنظر المصير الذى ينتظر المجرمين ، نلقى به الخوف فى قلوب الذين يميلون الى محاكاتهم ! » .. ان هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التى يرددها ممثلو الاتهام فى « النيابات » الخمسمائة الموجودة فى أنحاء فرنسا مع تغيير طفيف رنان !

حسنا .. اننا ننكر أولا أن هناك مثلا وعبرة ، ننكر أن منظر التعذيب يأتى بالنتيجة المرجوة منه ، فهو بدلا من أن يهذب الشعب ، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور ، وبالتالى كل فضيلة . والادلة على هذا كثيرة ، يزدحم بها استدلالنا لو أردنا أن نذكرها . ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين ألف واقعة ، ذلك لأنها وقعت حديثا جدا ونحن نكتب ، منذ عشرة أيام فقط ، وهى ترجع على التحديد الى يوم ٥ مارس الماضى ، يوم المهرجان

فقد حدث فى مدينة « سان بول » ، عقب اعدام رجل يدعى « لويس كامى » مباشرة ، وكان قد ارتكب جريمة حريق، حـــدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصـــوا حول المشـــنقة وهى لاتزال ساخنـــة ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاعياد المسيحية ! .. فاضربوا المثل اذن التماسا للعبرة !

نعم ، نعم .. انكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية فى المثل رغم التجربة . فلنعد اذن الى القرن السادس عشر ، وعليكم أن تكونوا مرعبين حقا ! أعيدوا مختلف أنواع التعذيب. .أعيدوا الينا « فاريناتشى » والاشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب .. أعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الاوصـــال واقتلاع الاظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى أعضاء الجسم والمرء حى يعيش !! أعيدوا لنا عند كل ناصية فى شـــوارع باريس ، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت ، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمى الطازج ! أعيدوا الينا ساحة الاعدام التى كانت مهيأة فى « مونفوكون » بقواعدها الحجـرية الست عشرة ، وجـــلاديها الجالسـين و « بدروماتها » المملوءة بالعظام ، وألواح التعذيب الخشبية ، و « كلاباتها » ، وسلاسلها ، وخوازيقها ، وغربانها التى تنهش جثثها العفنة ! ! نعم ، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع المشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التى كانت رياح الشـــمال الغربى تنقلها وتحملها معها على طول حى « التامبل » فى ضواحى باريس ! ! أعيدوا الينا صبى جلاد باريس العظيم فى قـــوته

وسطوته واستمراره وجبروته ! .. حسنا ! .. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة ! ! هذه هى عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا . انها طريقة للتعذيب على نطاق واسع ، وهــذا هو الشىء الشنيع المروع !

أوه ! افعلوا ما يفعلونه فى انجلترا ففى انجلترا ـ وهى بلاد التجارة ـ يأخذون مهربا الى ساحل « دوفر » حيث يشنقونه ضربا للمثل ، ولضرب المثل ايضا يتركونه معلقا فى حبــل المشنقة ! ولكن ، نظرا الى ان تقلبات الجو قد تتلف الجثة ، فانهم يغلفونها فى عناية بقماش مدهون بالقطران ، وذلك حتى لايضطرهم الأمر الى تجديد هذا الغلاف الا أقل عدد ممكن من المرات .. فياله من بلد يتوخى الاقتصاد ! بلد يطلون فيــه المشنوقين بالقطران !

ومع هذا ، فان ذلك فيه شىء من المنطق ، فهو أكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل

ولكن انتم .. أصحيح أنكم جادون حقا ، اذ تعتقدون أنكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس ، بطريقة تعسة فى ركن قصى مهجور من مشارف العاصمة ؟ قد يكون هذا مقبولا لو أنه تم فى ساحة الاعدام ، وفى وضح النهار ! ولكن ، ان يحدث ذلك فى حقول ضاحية من ضواحى باريس .. فى « سان جاك » ؟ .. وفى الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد ؟ من ذا الذى يمر من هناك ؟ ومن ذا الذى يرى ذلك ؟ ومن ذا الذى يعرف انكم تقتلون رجلا فى ذلك المكان ؟ ومن

ذا الذى يشك فى أنكم تضربون مثلاً هنالك ؟ مثلا لمن ؟ لأشجار الطريق طبعا !

افلا ترون اذن أن تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة ؟ افلا ترون اذن أنكم تختبئون ؟ وأنكم تخافون وتخجلون من فعلتكم ؟ وأنكم تتمتمون على نحو يدعو الى السخرية قائلين ان هذه هى العدالة ؟ انكم فى الواقع خجلون وجلون أيها السادة ، ومزعزعون قلقون ، وغير واثقين من انكم على حق ، وان الشك الذي لدى الجميع قد تسرب الى نفوسكم ، وانكم تقطعون الرءوس على سبيل « الروتين » ودون أن تعرفوا تمامــا ما تفعلون ! أفلا تشعرون فى قرارة أنفسكم أنكم قد فقـدتم على الاقل الشعور الاخلاقى والاجتماعى برسالة الدم التى كان اسلافكم القضاة العتاة يؤدونها بضمير مطمئن للغاية ؟ وفى الليل ؟ أفلا تتقلبون على وسائدكم أكثر مما كانوا يتقلبون ؟ ان آخرين من قبلكم قد أمروا بتنفيذ العقوبة القصوى ، عقوبة الاعدام ، غير أنهم كانوا يعتقدون انهم على حق ، وانهم عدول وأنهم يحسنون صنعا . ان « جوفينيل ديزرسان » كان يعتقد انه قاض ، و « أيلى دى توريت » كان يعتقد أنه قاض ، و « لو باردومون » و « لارينيى » و « لافوماس » كانوا يعتقدون أنهم قضاة . . أما أنتم . . أما أنتم فلستم موقنين تماما فى قرارة أنفسكم أنكم لستم قتلة !

انكم تتركون ساحة الاعدام الى ضاحية « سان جاك » ، وتفرون من الجمهور الى العزلة ، ومن النهار الى الغسق ،

ولا تقومون بما تقومون به فى ثقة وثبات . ولست أتردد فى ان أقول لكم : انكم تختبئون !

هذه هى كل الاسباب التى تنتحلونها لعقوبة الاعدام قـد تحطمت اذن ، وهذا هو منطق ممثلى الاتهام بأسره قد أصبح عدما ، وهذه كل مرافعات النيابة قد فندت فصارت رمادا . ان اقل لمسة من المنطق لابد أن تذيب كل تفكير معوج .

انه لاينبغى اذن أن يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا ـ نحن المحلفين ـ برءوس جديدة ، نحن الرجال ، وهم يرجوننـا فى صوت يداعبنا باسم المجتمع الذى تجب حمايته ، وباسم الثأر للشعب ، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع . ان هذا كله ليس الا بلاغة وكلاما أجوف ، ليس الا مجرد بالون منفوخ تكفى وخزة بسيطة من دبوس ، كى تحيله الى لا شىء ، اذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية ، والرغبة فى اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش . اصمتوا أيها السادة ، فاننا نحس بمخالب الجلاد تحت أنامل القاضى الحريرية !

انه ليشق علينا أن نفكر فى برود فى أمر مدع عام جرىء . انه رجل يكسب عيشه بارسال الآخرين الى المشنقة ، فهو المورد الرسمى لساحات الاعدام ! ومن ناحية أخرى ، فهو رجل يزعم لنفسه الاسلوب الادبى الجميل ، وهو ذلق اللسان ، أو يحسب انه كذلك ، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتينى قبل أن يسوق انسانا الى الموت ، ويحاول جاهدا أن

يحدث فى مستمعيه التأثير الذى يريده ، وهو شديد العنـاية بأمر كرامته ــ يا للشقاء ! هذا فى الوقت الذى تكون فيه حياة الآخرين فى الميزان ! ان لهذا المدعى العام نماذج ، نماذج خاصة يتعذر على المرء أن يبلغ مستواها ، مثل «بلاز» ، و«مارشانجى» تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذى مثل « راسين » او « بوالو » . وفى المناقشات التى تدور فى المحكمة ، تراه يجنح دائما الى ناحية المقصلة ، ولا غرو فهى دوره ، وهى شغله الشاغل . والاتهام الذى يوجهه انما هو عمله الادبى الذى يزينه بالاستعارات ، ويعطره بالنصوص ، يستشهد بهـا كى يظفر باستحسان الحاضرين فى الجلسة ، وينتزع اعجـاب السيدات ، ولديه ذخيرة من الافكار الشائعـة التى لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية ، وله بلاغته فى التعبير ، وأسلوبه الرقيق المصطنع الذى يشـبه فى رقته أسـاليب الكتاب . انه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة ، مقتا يدانى المقت الذى يضمره لها شعراؤنا المنتمون الى مدرسة «دوليل» فلا تخشوا اذن أن يسمى الاشياء بأسمائها فذلك لن يحدث ، اذ أن لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن أن تثيركم وهى مجردة عارية . ان فى وسعه ان يجعل الامر المفزع مقبولا ، ويخفف من حدة سكين المقصلة ، ويوازن الميزان ، ويغلف السلة الحمراء (١) فى غلالة رقيقة من الاستعارات . انه رقيق ومتحفظ ، فهل تتصورونه بالليل فى مكتبه ، وهو يتأنق

---

(١) اى سلة المقصلة التى يسقط فيها راس المحكوم عليه عند قطعه

فى اعداد هذه الخطبة التى ستنصب بسببها المشنقة بعد ستة اسابيع ؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماء كى يحاصر راس متهم فى أسوأ بند من بنود القانون ؟ وهل تبصرونه وهو «ينشر» رقبة انسان بائس بمنشار قانون أسيء صنعه ؟ الم تلاحظوا كيف ينقع ثلاثة نصوص أو أربعة سامة فى فيض من العبارات البليغة ، كى يعبر بها ، ويستخرج منها بجهد جهيد موت انسان ؟ أفلا يحتمل أن يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه فى الظلام ، تحت مكتبه وهو جالس يكتب ، وأنه قد يكف عن الكتابة بين آن وآخر ، ليقول له كما يقول السيد لكلبه : « اهدا اهدأ ، فسوف تنال عظمتك ! »

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون رجل الادعاء هذا فى حياته الخاصة رجلا شريفا ، وأبا عطوفا ، وابنا صالحا ، وزوجا مخلصا ، وصديقا وفيا .. الى غير ذلك مما تذكره العبارات الطيبة المنقوشة على لوحات القبور فى مدافن « لاشيز »

فلنأمل اذن أن يأتى اليوم الذى يلغى فيه القانون هذه الوظائف المحزنة ، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء على عقوبة الاعدام فى فترة معينة من الزمن

ويغلب على ظننا فى بعض الاحيان أن الذين يدافعون عن عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير . ولكن ، ضعوا اذن بعض الجرائم فى الميزان ، فهذا القانون العنيف يخول للمجتمع الحق فى أن يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه اياه ، وهذه العقوبة انما هى أكثر العقوبات التى لايمكن اصلاح

ـنائجها وأشدها استعصاء على الاصلاح !

ذلك ان امامكم أمرين لا ثالث لهما :

فاما أن يكون الرجل الذى تقضون على حياته لا أسرة له ولا اهل ولا روابط فى هذا العالم ، وفى هذه الحالة لا يكون قد تلقى تربية أو تعليما أو عناية ما ، بنفسه أو بقلبه .. فبأى حق اذن تقتلون هذا اليتيم البائس ؟ أتعاقبونه لانه كان يزحف فى طفولته على أرض لاسند له فيها ولا مرشد ولا معين ؟ انكم تعاقبونه اذن على العزلة التى تركتموه يهيم فيها على وجهه ، وتجعلون من مصيبته هذه جريمة ، وهو الذى لم يعلمه أحد ماذا كان عليه أن يفعل ! انه رجل جاهل ، والخطأ ليس خطأه ولكنه خطأ القدر .. انكم تعاقبون بريئا !

واما أن هذا الرجل ذو أسرة . فهل تحسبون عندئذ أن الضربة التى تقطعون بها رقبته لا تصيب الا اياه ؟ وان أباه ، وأمه ، واولاده لن يقطروا دما كذلك ؟ كلا ، فأنتم بقتله انما تقطعون رقبات أسرة بأسرها . فأنتم هنا كذلك تعاقبون الابرياء !

ان عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء ، على أى وجه نقلبها نجدها تصيب البرىء !

اسجنوا هذا الرجل ، هذا المذنب الذى له أسرة ، فسوف يستطيع وهو فى سجنه أن يتابع العمل من أجل ذويه ، اذ كيف يكون فى وسعه أن يعولهم وأن يجعلهم يعيشون وهو راقد فى قاع قبره ؟ ترى هل تفكرون دون أن تأخذكم الرجفة فيما

سيئول اليه امر هؤلاء الاولاد الصغار ، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم ، أعنى لقمة العيش ! أم هل تعولون على هذه الاسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما ؟ . . آه ! يا للابرياء المساكين !

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق فى المستعمرات ، فأنهم يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره الف فرنك ! ماذا أيها السادة ؟ انكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الاسرة شيئا ! وهنا أيضا بالله عليكم ، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه أصحاب الحق فيه ؟ أو ليس هو ملكا لوالده ولزوجته ولابنائه الى حد يبلغ فى القداسة أكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده ؟

لقد سبق لنا أيها السادة أن اتهمنا قانونكم هذا بأنه اغتيال ، وهانحن أولاء نتهمه الآن بأنه سرقة

وثمة شيء آخر : فهل فكرتم فى روح هذا الرجل ؟ وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الاستخفاف ؟ فيما مضى ، على الاقل ، كان هناك شيء من الايمان فى قلوب الناس ، وفى اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة فى الهواء تلين أكثر القلوب قسوة وصلابة ، فكان المحكوم عليه فى نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه ، وكان الدين يفتح أمامه عالما ، فى نفس اللحظة التى كان المجتمع فيها يغلق فى وجهه عالما آخر . كانت النفوس جميعا تثق بالله ، ولم تكن المشنقة الا حدا من حدود السماء . اما الآن ،

فما هو الامل الذى تضحونه فى مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير ؟

ليست هذه من غير شك الا « أسبابا عاطفية » كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم الا من رءوسهم ، غير أنها فى نظرنا هى أفضل الاسباب ، ونحن غالبا ما نفضل الاسباب العاطفية على العقلية . ويجب علينا الا ننسى من جهة أخرى أن النوعين يتساندان على الدوام ، فكتاب « قانون الجرائم »(١) مأخوذ من كتاب « روح القوانين » (٢) ، و « مونتسكيو » هو الذى أنجب « بيكاريا »

ان المنطق معنا ، والعاطفة معنا ، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك . ففى الدول النموذجية حيث ألغيت عقوبة الاعدام ، أخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام ، فأدخلوا هذا فى حسابكم

ومع ذلك ، فاننا لا نطالب فى الوقت الحاضر بالغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو الطائش الذى اتبعه مجلس النواب ، بل نريد ، على العكس ، أن نجرب كل المحاولات ، وأن نتخذ كافة الاحتياطات ، وأن نلزم فى هذا الحذر كل الحذر . ومن جهة أخرى ، فاننا لانريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب ، وانما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل أنواع العقوبات من أولها الى آخرها ، من الحبس البسيط الى

(١) تأليف « بيكاريا »
(٢) تأليف « مونتسكيو »

المقصلة ، مع ملاحظة ان الزمن يعتبر احد العوامل التي تجب مراعاتها فى عمل كهذا ، حتى يتم على الوجه الاكمل . وفى نيتنا ان نكتب المزيد فى هذا الموضوع شارحين الطرق والافكار التى تبدو فى نظرنا عملية ممكنة التطبيق . ولكن ، اذا استثنينا الغاء حكم الاعدام جزئيا فى حالات تزييف النقد ، والحريق ، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة ، الى غير ذلك ، فاننا نطالب منذ الآن ، وفى جميع القضايا الكبيرة ، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال : هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة أو بدافع المنفعة ؟ فاذا جاء رد المحلفين بأن « المتهم قد ارتكب ما ارتكب بدافع العاطفة » فيجب الا يصدر عليه حكم بالاعدام .. فهذا كفيل على الاقل بأن يبعد عنا بعض أحكام الاعدام التى تثير نفوسنا ، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من « أولباخ » و « ديباكير » ، وهو خليق كذلك بأن ينقذ رقبة من يقف موقف « عطيل » (١) othello فى المستقبل

ومن جهة أخرى ، فاننا يجب الا نخدع ، فمسألة عقوبة الاعدام هذه تنضج يوما بعد يوم ، وسوف يحلها المجتمع بأسره ، كما نفعل ، قبل انقضاء وقت طويل . فليحذر علماء الجريمة المعاندون ، فقد اخذت أحكام الاعدام تتناقص منذ قرن من الزمان ، وأخذت تجنح تقريبا نحو شىء من اللين

(١) اشارة الى جريمة عطيل فى رواية شكسبير المعروفة عندما قتل زوجته بسبب الغيرة المتأججة

والحنان ، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال . انه علامة من علامات الضعف ، علامة موت قريب . لقد انتهى زمن تعذيب المتهمين وربطهم على العجلة ، وولى عصر صلب المحكوم عليهم .. بل ان المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم ! .. ان هذا لشيء عجيب ! لقد كان « السيد جيوتان » (١) انسانا خيرا حقا !

نعم .. ان هذه الآلة ذات الاسنان والتروس الرهيبة التى التهمت عددا ضخما من الرءوس - آلة « فارمناتشى » و « فوجلانس » و « دولانكر » و « ايزاك لوازيل » و «أوبيد» و « ماشوه » - هذه الآلة قد بدأت تضمحل .. بدأت تهزل .. بدأت تموت ! !

هاهى ذى ساحة الاعدام لا تريدها ، لان هذه الساحة تريد أن ترد لنفسها اعتبارها .. أن شاربة الدماء العجوز قد سلكت فى شهر يوليو سلوكا حسنا (٢) ، فهى تريد منذ الآن أن تحيا حياة أفضل ، وأن تظل جديرة بصنيعها الاخير (٣) .. ان الحياء يعود اليها ، وهى التى كانت قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون ، فهى تخجل من مهنتها السابقة ، وتود أن

---

(١) الدكتور « جيوتان » مخترع المقصلة وقد عرفت باسمه

(٢) كناية عن أن المقصلة لم تقتل أحدا فى ذلك الشهر بعد أن صدر الامر بأيقاف تنفيذ كل احكام الاعدام الى اجل غير مسمى كما سبقت الاشارة الى ذلك - المترجم

(٣) اى بعملها الصالح فى شهر يوليو

تفقد اسمها البشع . انها تطلق الجلاد .. وتغسل الدم من فوق « بلاطها »

وفى هذه الساعة ، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس ! فلنقلها هنا اذن بصراحة ، فخروجها من باريس يعنى خروجها من المدنية

ان جميع الاعراض فى صالحنا ، ويبدو كذلك أن هذه الآلة البشعة ، أو بالاحرى هذا الوحش المصنـــــوع من الخشب والحديد ، والذى هو تحفة الدكتور « جيـــوتان » يبدو أن هذه الآلة تغدر وتقـــاوم . اننا اذا نظرنا من زاوية معينـــة الى هـــذا العدد من أحـــكام الاعـــدام الرهيبة التى نفـــذت وسردنا تفاصيلها آنفا ، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتـــازة ، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر فى تأدية وظيفتها ، وها هو ذا بناء عقوبة الاعـــدام العتيد العتيق بأسره قد أخـــذ يتفكك ويتداعى

وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا ، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه ، وهى سوف ترحل عرجاء ، باذن الله ، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه اليها ضربات قاصمة

فلتذهب اذن عند قوم آخرين ، لتذهب عند شعب همجى يقبل أن يستضيفها

لقد كان البنـــاء الاجتماعى يرتكز فيمـــا مضى على ثلاث قواعد هى : القسيس ، والملك ، والجلاد . ومنذ زمن بعيد ، ارتفع صوت يقول : « لقد ذهب سلطان الأساقفة ! » ...

وفى السنوات الاخيرة صاح صوت آخر يقول : « ان الملوك ذهبوا ! » ٠٠ والآن ، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول: « ان الجلاد راحل ! »

وهكذا ، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر ، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضى بأسره

ان الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين ، استطعنا أن نقول لهم : ان الدين باق ، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع أن نقول لهم : ان الوطن باق . أما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا ما نقوله لهم

ولا يحسبن أحد أن النظام سوف يختفى باختفاء الجلاد ، فسوف لاتتداعى عمد المجتمع الجديد لأن هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها ، وليست المدنية الا سلسلة من التغييرات المتتابعة ، فماذا أنتم واجدون عندئذ ؟

انكم ستشهدون تغيير العقوبات ، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم أخيرا فى اللوائح المعمول بها فى المحاكم ويشع من نوره عليها ٠ اننا سننظر الى الجريمة على أنهـــا مرض ، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين ســـيحتلون أماكن قضاتكم ، ومستشفياته التى ستحتل أماكن ليماناتكم ٠٠ ان الحرية والصحة ستجتمعان معا

نعم ، اننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار ٠ وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعـد أن كان يعالج بالغضب والانتقام

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا
فالاحسان يحل مكان الانتقام
والرحمة تحل محل القتل
وهذا كل ما نهدف اليه

في ١٥ مارس عام ٨٣٢

# الفصل الأول

# قضيتي

# فى سجن (( بيستر ))

محكوم على بالاعدام !

آه ! هاقد مضت على خمسة أسابيع وأنا أقيم وحدى مع هذه الفكرة ، وحدى دائما ، أتجمد رهبة لوجودها معى ، وأرزح تحت وطأتها على الدوام !

وقديما ، كنت رجلا كأى رجل آخر . وأقول « قديما » لان هذه الاسابيع الخمسة تبدو لى وكأنها دهر طويل ! كانت لدى فى كل يوم فكرة ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ،وكانت نفسى الغنية الشابة حافلة بالنزوات والتصورات ، تتسلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى ، بلا ترتيب وبلا نهاية ، وهى تطرز بالنقوش التى لا تنتهى هذا القماش الرفيع المتين الذى تنسجه الحياة

كان رأسى وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات ، وبملابس المطارنة البديعة ، وبالمعارك الرابحة ، والمسارح التى تغمرها الضوضاء والاضواء . وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات فى ظلام الليل الداجى تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة . لقد كان فى خيالى عيد دائم وكنت أستطيع أن أفكر فيما أريد فى أى وقت .. فقد كنت حرا !

أما الآن فانى أسير . فجسمى مكبل بالحديد فى زنزانة ،

ونفسي سجينة في فكرة مروعة دامية لا ترحم ! ولم يعد لدي سوى فكرة واحدة ، سوى اقتناع واحد ويقين واحد: اني محكوم علي بالاعدام !

ومهما فعلت ، فان هذه الفكرة الرهيبة هنا دائما ، الى جوارى ، وكأنها شبح جهنمي من الرصاص يقف غيورا بمفرده أمامي أنا البائس ، ويواجهني وجها لوجه ، فيطرد عني كل تسلية ويهزني هزا عنيفا بيدين في مثل برودة الثلج كلما أردت أن أدير رأسي أو أن أغمض عيني • ان هذه الفكرة المفزعة تتسلل الى بكل الطرق ، في الوقت الذي تريد نفسي فيه أن تهرب منها ، وتمتزج كنغمة رهيبة بكل الالفاظ التي توجه الى ، وتلتصق بي في أسوار زنزانتي الكئيبة ، وتطاردني في يقظتي ، وتتجسس علي في منامي المضطرب ، ثم تظهر مرة أخرى في أحلامي في صورة سكين !

لقد استيقظت الآن فزعا بسببها وأنا أقول في نفسي : « انه ليس الا حلما ! » •• حسنا ! فحتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت كي تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة المحتومة مكتوبة في هذا الواقع المروع الذي يحيط بي على بلاط زنزانتي الرطب المبلل ، وفي ضوء مصباحي الليلي الخافت ، وفي نسيج ردائي الخشن الرديء ، وعلى وجه الحارس المظلم الذي كانت « زمزميته » تلمع من خلال القضبان الحديدية •• حتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت لتريا كل ذلك ، فقد بدا لي أن صوتا قد

همس فى أذنى يقول : « أنت محكوم عليك بالاعدام ! »

كان ذلك فى صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس ، وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتى ثــلاثة أيام • كان اسمى وجريمتى يجمعان خلالها فى كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين ، كانوا يتهافتون على المقاعد فى قاعة الجلسة كما تتهافت الغربان على جثة عفنة ! ثلاثة أيام كانت استعراضات القضاة والشهود والمحامين ، وممثلى الاتهام باسم الملك ، تمر خلالها ثم تمر من أمامى ، فتثير السخرية تارة ، وتارة تكون دامية ، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام

ولم أستطع أن أنام فى الليلتين الاولين من أثر القلــق والرعب ، ولكنى نمت فى الليلة الثالثة من الضيق والكلل • وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون فى منتصف الليل فأعادنى الحراس الى زنزانتى حيث ســقطت من فورى على قشها فى سبات عميق ، فى سبات النسيان • فكانت هـذه أول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة أيام

وكنت لا أزال مستغرقا فى أعماق هذا السبات عندما أتى السجان ليوقظنى . وفى تلك المرة ، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين بحذائه الغليظ ، ولا صليل رزمة المفاتيح التى كان يحملها دائما معه ، ولا قرقعة الاقفال الخشان ، لم يكن هذا كله كافيا لايقاظى ، وانما كان عليه أن يستعين بصوته الجهورى الخشن النبرات لينتزعنى من نومى المحموم ، وأن يقبض على ذراعى ليهزنى بيده الغليظة وهو يقول لى فى ارهاب :

ـ قم اذن !

ففتحت عينى وانتفضت مذعوراً لاجد نفسى جالسـا على القش ! وفى تلك اللحظة ، رأيت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة فى زنزانتى ، قطعة السماء الوحيدة التى كان يمكننى أن اراها من بعيد ، ورأيت هذا الضوء الاصفر الذى يبدو شمسا للأعين ، التى الفت ظلام السجون .. لشـدما أحب الشمس !

وتمتمت أقول للسجان :

ـ ان الطقس جميل !

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد على بحرف ، وكأنه كان يسائل نفسه عما اذا كان هذا الذى أمامه يستحق منه ان يقول له أية كلمة ، ثم غمغم يقول فجأة فى شيء من الجهد :

ـ هذا محتمل

وبقيت بغير حركة ، وروحى نصف نائمة ، وفمى يبتسم وعيناى لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبى الرقيق الذى كان يزين السقف

وعدت أكرر قائلا :

ـ هذا يوم جميل

فأجابنى السجان قائلا فى حزم :

ـ نعم .. انهم ينتظرونك

فنقلتنى هذه الكلمات القليلة ، التى تشبه الخيط الذى يقطع طيران الحشرة ، فى عنف الى عالم الحقيقة والواقع .

وفجأة رأيت فى مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنايات المعتمة ، وقفص الاتهام ، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء ، والجنديين الواقفين عن يمينى وشمالى « والارواب » السوداء تتحرك هنا وهناك ، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة فى الظل ، وأعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على ، الذين سهروا بينما كنت نائما !

ونهضت من فوق القش ، وأسنانى تصطك ، ويداى ترتجفان ، ولا تعرفان أين تجدان ملابسى ، وكانت ساقاى متخاذلتين ، لا تقويان على حملى ، فتعثرت عند أول خطوة خطوتها وكأنى حمال يحمل حملا فوق طاقته ، ومع ذلك فقد تبعت السجان

وكان الجنديان فى انتظارى على باب الزنزانة . وما كدت أخرج منها حتى وضعا فى يدى قيدا حديديا له قفل صغير معقد ، أقفلاه فى عناية ، فتركتهما يفعلان ، فقد كان قيدى آلة توضع فوق آلة



واجتزنا فناء السجن الداخلى ، فبعث هواء الصباح المنعش فى أوصالى شيئا من النشاط ، ووجدت نفسى أرفع رأسى الى أعلى . كانت السماء صافية الاديم ، وكانت أشعة الشمس الدافئة التى تقطعها المداخن المرتفعة ترسم مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية . لقد كان الجو جميلا حقا

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعده دهليز آخر ، ثم ثالث ، حتى إنتهينا الى باب منخفض فتح على الفور ، فلفح وجهى هواء ساخن تختلط فيه الضوضاء • كان هذا هو جو أنفاس المحتشدين فى قاعة محكمة الجنايات

وما كدت أبدو حتى حدثت ضوضاء صادرة من قعقعة الاسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين ، وتحركت المقاعد فى جلبة عالية ، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا • وكان يبدو لى وأنا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير ، وصفين من الجنود ، أننى كنت المركز الذى ترتبط به الخيوط التى كانت تحرك كل تلك الوجوه المتيقظة المشرئبة نحوى

ولاحظت فى تلك اللحظة أنى لم أكن مكبلا بالحديد ، لكنى لم أستطع أن أذكر أين أومتى كانوا قد نزعوا عنى قيدى ؟

وساد عندئذ صمت عميق • وكنت قد وصلت الى مكانى حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور ، فسكتت أيضا الضوضاء التى كانت تدور مع أفكارى ، وفهمت من فورى فى وضوح مالم أكن أتصوره الا مشوشا غامضا منذ لحظات : أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت وأنى أحضرت الى هناك لسماع النطق بالحكم على

وليشرح ذلك من يستطيعه منكم،فان الطريقة التى أوحت الى بهذه الفكرة لم تبعث فى نفسى الرعب ! كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج

دون حائل • وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا لمصاريع النوافذ هنا وهناك ، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة أخرى عند زوايا الجدران

وكان القضاة جالسين فى نهاية القاعة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان ، وربما كان السبب فى ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء • وكان انعكاس زجاج احدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة والهدوء ، بينما أخذ أحد معاونى النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدى قبعة وردية اللون كان قد حاباها باجلاسها خلفه مباشرة ، وكان الرجل يتحدث اليها وهو يمسك بياقة روبه ويعبث بها

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد ، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه أنهم قد سهروا الليل بأكمله ، وكان بعضهم يتثاءب ، ولم يكن فى مظهرهم مايدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعدام ، ولم أقرأ فى وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين الا رغبة كبرى فى النوم

وكانت هناك أمامى نافذة مفتوحة على مصراعيها ، كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصيف نهر «السين» ، وعلى حافة ركن النافذة أدهشتنى رؤية نبتة

صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشـــمس وكانت تلعب مع الهواء فى ثغرة من ثغرات حجر الجدار

فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبـــة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة ؟ . لقد كان يغمرنى الهواء والشمس فكان يستحيل على أن أفكر فى شىء آخر غير الحرية • ان الامـل كان يشع فى نفسى كما يشع من حولى ضوء النهار ، وانتظرت النطق بالحكم على وأنا مطمئن كمـــا ينتظر المرء الخـــلاص والحيـــاة

ووصل المحامى الموكل بالدفاع عنى فى خلال ذلك ، وكانوا فى انتظاره • وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا فى شـــهية كبيرة ، وما كاد يصل الى مكانه حتى مال نحوى مبتســـما وهو يقول :

ــ اننى آمل

فأجبته فى خفة وأنا أبتسم أيضا :

ــ أليس كذلك ؟

فقال المحامى :

ــ نعم ، لست أعرف شيئا عن قرارهم بعد ، ولكنهـم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك ، فلن تكون هنـاك حينئذ الا الاشغال الشاقة المؤبدة

فأجبته قائلا فى سخط :

ــ ما هذا الذى تقول يا سيدى ؟ •• انى أوثر الموت مائة مـــرة !

نعم ·· الموت ! ومن ناحية أخرى ، فان صوتا داخليا لا أعرفه كان يكرر فى نفسى هامسا : « ما الخطر الذى أتعرض له بقولى هذا ؟ هل سبق أن نطق من قبل بحكم الاعدام الا فى منتصف الليل على ضوء المشاعل ، وفى قاعة معتمة سوداء فى ليلة من الليالى الباردة ، ليالى الشتاء المطيرة ؟ .. ولكن ·· فى شهر أغسطس ، وفى الساعة الثامنة صباحا ، وفى يوم جميل كهذا ، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين ·· كلا ، هذا مستحيل ! وكانت عيناى ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهى تتمايل فى الشمس .. »

وفجأة ، دعانى الى الوقوف رئيس المحكمة الذى لم يكن ينتظر سوى حضور المحامى ، فوقف الجنود شاكى السلاح ووقف جميع الحاضرين فى نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية ! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس الى منضدة فى أسفل هيئة المحكمة ، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة ، الذى بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذى كان المحلفون قد نطقوا به فى غيبتى · ولم تكد كلماته تطرق أذنى حتى انبثق من كل أعضائى عرق بارد واستندت الى الجدار لامنع نفسى من السقوط

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامى :

ـ هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة ؟

وكنت استطيع أنا أن أقول الكثير ، غير أن ذهنى ظل خاويا لم يخطر به شيء ، وبقى لسانى معقودا وملتصقا بحلقي

ونهض محامي الدفاع ففهمت أنه كان يحـاول أن يخفف قرار المحلفين ، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الأخرى التى كنت قـد أحسست بأن كرامتى قـد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشيء يأمله

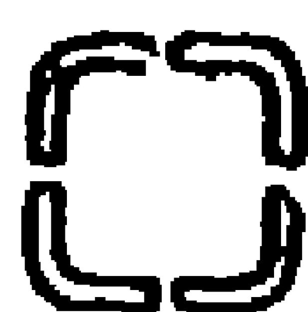
ولابد أن سخطى كان شـديدا بحيث ظهر خلال المشـاعر الكثيرة التى كانت تتضارب فى خاطرى ، وأردت أن أكـرر للمحامي فى صوت مرتفع ما كنت قد قلته له من قبل :

« انى أوثر الموت مائة مرة ! » ، غير أن انفاسى تقطعت ، ولم أستطع الا أن أوقفه بجذبه من ذراعه فى عنف وأنا أصيح فيه بقوة المحموم : « كلا ! »

وقاوم المدعى العام المحامي بكل قواه ، فكنت أستمع الى نضاله فى سرور ينطوى على الغفلة والغباء ! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية الى مقاعدهم ، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذى سبق أن حكم به على !

وقال جمهور الحاضرين : « محكوم عليه بالاعدام ! » .. وفى الوقت الذى كان الحراس يقودوننى فيه الى خارج قاعة الجلسة ، اندفع كل هذا الجمهور من خلفى فى دوى كأنه صوت بناء ينهار ، بينما كنت أسير متعثرا فى خطواتى كالثمل وقد تملكنى الذهول ! ان ثورة كانت قد انطلقت فى نفسى منذ لحظة ، وكنت أشعر حتى صدور الحكم بأننى أستنشق الهواء ، وبأن قلبى يعيش ، وبأنى أعيش فى نفس الوسط الذى يعيش فيه غيرى من الناس . ولكنى الآن كنت أميز فى وضوح حاجزا يفصل

بينى وبين العالم ، ولم يكن يظهر لى شىء على نفس الصورة التى كان يبدو لى فيهـا من قبل : فهذه النوافذ العريضة المضيئة ، وهـذه الشمس الجميلة الحانية ، وهـذه السماء الزرقاء النقية ، وهذه الزهرة الجميلة ، كل ذلك بدا فى عينى أبيض شاحبا بلون الكفن .. وهؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولى ويندفعون فى طريقى كانوا يتراءون لى كالأشباح !



# فى العربة السوداء

وكانت هنـــاك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرنى عند أسفل السلم .. والقيت وانا أصعد اليها نظرة عابرة على الميدان ، فرأيت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين : « محكوم عليه بالاعدام ! » واستطعت أن أميز من خلال السحابة التى كان يبدو لى أنها تفصل بينى وبين الأشياء ، فتاتين شابتين كانتا تتابعانى بأعين نهمات ، فقالت صغـــراهما وهى تصفق بيديها : « حسنا ! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع ! »

أنا محكوم على بالاعدام !

حسنا ! ولم لا ؟ انى أذكر اننى قرأت ذلك فى كتاب من الكتب لم يكن به شىء حسن سوى هذه العبارة : « ان البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام ، وانما يختلف وقت تنفيـــذ الحكم ! » . فماذا الذى قد تغير كثيراً اذن فى موقفى ؟

كم من أناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التى نطق فيها بالحكم على ؟ وكم من شباب حر فى أوج الصحة قد سبقنى وكان يعتزم الذهاب فى اليوم المحتوم ليرى رأسي وهو يهوى فى ساحة الاعدام ! وكم من هؤلاء

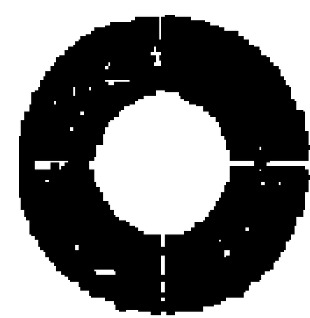
الناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم ، كم من هؤلاء سوف يسبقنى كذلك الى عالم الموت !

ثم . . على اى شيء أندم فى الحياة ؟ أهو اليوم المظلم؟ أم هو الخبز الأسود فى الزنزانة ، مع الطعام الهزيل الذى يلقى الى فى الدلو ، دلو المحكوم عليهم بالاعدام ؟ أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملنى بهما السجانون والحــراس ، وانا الذى ربيت تربية مرهفة ناعمة ؟ أم هو حرمانى من رؤية اى مخلوق آدمى يعتقد انى أستحق أن يبادلنى الحديث ؟ ام ان أرتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه بى ؟ اليس هذا تقريبا هو كل الخير الذى يستطيع الجلاد أن ينتزعه منى ؟

آه ! ولكن هذا لا يهم . . انه شيء فظيع !

نقلتنى العربة السوداء الرهيبة الى هنا ، فى سجن «بيستر» البشع ، وهو مبنى يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد ، فهو يظهر فى الأفق على جبهة تل ، ويحتفظ بشيء من روعته الملكية السابقة اذا نظرت اليه من بعيد ، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه ! فأبراجه التى سقطت تحت مستواها الأصلى تجرح بمنظرها العين ، ولست أدرى أى شيء حقير مخجل لطخ واجهــاته الملكية بالقــذارة ، اذ تبدو كأن جدرانها مصـــابة بالجذام ، ونوافذه لم يبق بهـــا زجاج ولا مصاريع ، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود ، وجه

لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون !
انها الحياة من قرب !



# العودة الى بيستر

ما كدت أصل الى سـجن « بيسـتر » حتى تلقفتنى أيد حديدية ، وضوعفت الاحتياطات فى الحال . فلا سكين مع الطعام ولا « شوكة » ، بل قميص المحكوم عليه فحسب ، وهو عبـارة عن كيس من التيـل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاى !

انهم كانوا مسئولين عن بقائى حيا ، وكنت قد استأنفت الحكم،وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة أسابيع الى سبعة أسابيع غالية الثمن ، وكان من المهم أن يحتفظوا بى سليما معافى لساحة الاعدام !

وعوملت فى الأيام الاولى بلطف كان يبدو لى رهيبا مفزعا ، فظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة ، ثم ما لبثوا أن تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملونى فى غلظة كمـا يعاملون غيرى من المساجين ، ولم يعودوا يميزوننى على غير المألوف منهم بأدبهم الذى كان يجعلنى أتصور الجلاد واقفا أمامى على الدوام . ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذى طرأ على موقفى ، بل ان شبابى ، ودعتى ، وعنـاية قسيس السجن بأمرى،وبوجه خاص بعض الكلمات اللاتينية التى كنت أوجهها الى البواب فلا يفهم من أمرها شيئا ، كل ذلك قد فتح

لى باب النزهة مرة فى كل أسبوع مع المسجونين الآخرين ، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذى كان يشل حركتى . كما أعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير

وكانوا يطلقوننى فى كل يوم أحد بعد القداس فى فناء السجن ساعة الفسحة حيث أتبادل الحديث مع المسجونين ، وكان هذا بالنسبة الى شيئا ضروريا للغاية . حقا ان هؤلاء البائسين أناس طيبون ، وهم يقصون على وقائعهم وحيلهم ، وهى أمور ترسل فى الجسم رعدة قاسية ولكنى كنت أعلم أنهم يفاخرون

وكان هؤلاء المسجونون يعلموننى أن أتحدث بلغة السجون كما يقولون ، وهى لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث ، أو كالسنط فى الجسد ، لبعض ألفاظها وقع عنيف وجمال مخيف ، وذلك مثل قولهم : « انه يمشى على العنب الأحمر » ، ويعنون به أن الدم فى طريقه . وقولهم : « يتزوج الارملة » ، ويعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة ارملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين !

ان رأس اللص له فى السجن اسمان : « السربون » عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة ، و « المقطوع » عندما يقطعه الجلاد ! وفى بعض الأحيان ، تكون ألفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة ( الفودفيل ) ، كقولهم : « شال من خيزران » ( عربة « الزبال » ) .. و « الكاذبة » (اللسان) !

وفوق هذا ، ففى كل لحظة وفى كل مكان تسمع كلمات غريبة

وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة ، ولا أدرى من اين تخرج ، مثل : الدرع (الجلاد) ، و «الخازوق» (الموت) ، و «الصندرة» (ساحة الاعدام)! .. ألفاظ تبدو لى كالعناكب والابراص ، حينما يسمعها المرء تترك فى نفسه الاثر الذى يحدثه الشيء القـــذر المغبر ، وكأنها كتلة من الخرق البالية التى تنفض أمام عينيه

ومهما يكن من شيء ، فان هؤلاء الرجال يرثون لحالى ، وهم وحدهم الذين يفعلون ذلك ، اذ أن السجانين والحراس — ولست أحقد عليهم — يتحدثون ويضحكون ، ويتكلمون عنى فى وجودى وكأننى شيء يمت الى عالم الجماد !



# الفصل الثاني

# أيام لن تعود

# مذكراتى

وقلت فى نفسى :

لماذا لا أكتب ما دامت لدى أدوات الكتابة ؟ ولكن ، ماذا اكتب ؟ اننى سجين بين أربعة جدران ضخمة من الحجر العارى البارد الحزين ، حيث لا حرية لخطواتى ولا أفق يمتد أمام عينى ، ولا تسلية لى طول الوقت الا أن اتتبع بطريقة آلية ما يجرى خارج زنزانتى من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء ، وما كانت تعكسه أمامى مباشرة على الحائط المظلم ، وكما كنت أقول منذ برهة ، فانى كنت وحدى وجها لوجه مع فكرة الجريمة والعقاب ، فكرة القتل والموت ! فهل سيكون لدى ما أقوله وأنا الذى صرت انسانا لا داعى لوجوده فى هذا العالم ؟ وماذا عساى أن أجد فى هذا الانسان الذابل الخاوى ؟

ولكن .. لم لا ؟

اذا كان كل شىء من حولى يسير على وتيرة واحدة ، ولا لون له على الاطلاق ، أفلا تضطرم فى أعماق نفسى عاصفة عاتية ، وكفاح مستعر ، ومأساة دامية ؟ ان هذه الفكرة الثابتة التى تستحوذ على نفسى تتبدى امامى فى كل ساعة وفى كل لحظة فى شكل جديد ، وهى تزداد كآبة وتلوثا بالدماء ساعة بعد

ساعة كلما اقترب المصير المحتوم ! فلماذا لا احاول أن اقول لنفسي كل ما أحس به ، وأقص عليها ما أكابده من مشاعر عنيفة ، بعضها يحاصرني فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرني في موقفي هذا الميئوس منه الذي أجد نفسي فيه الآن

ان الموضوع غني ما في ذلك شك ، ومهما بدا لى ما تبقى من عمري قصيرا فسوف يكون في الهواجس والرعب والعذاب الاليم ، الذي يملؤه منذ هذه الساعة الى أن تحين ساعتي الاخيرة ، مايكفي لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله . ومن جهة أخرى ، فان الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها أن أخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هي أن ألاحظها ثم أصفها ، فهذا خليق بأن يسري عني بعض التسرية

وفوق هذا ، فان ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع . فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة ، ودقيقة فدقيقة ، وعذابا اثر عذاب — لو أني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل على جثمانيا أن أتابع كتابتها — اذ أن قصة مشاعري هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وأن كانت كاملة من حيث طاقتي — هذه المذكرات الن تحمل في طياتها عظة كبيرة وعميقة ؟ ألن يكون في هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر ، وعن الآلام التي تتزايد باستمرار .. هذا النوع من التشريح العقلي لانسان محكوم عليه بالموت .. ألن يكون فيه أكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم ؟

نعم .. فقد تجعلهم قراءة هـذه المذكرات أقل تسرعا ، وتحملهم على شيء من التروى فى المستقبل عندما يكون الأمر متعلقا باسقاط رأس يفكر ، رأس انســـان ، فيمـا يسمونه ميزان العدالة ! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط فى هذا التتابع البطيء لألوان العذاب التى تنطوى عليه هذه الصيغة الموجزة التي ينطق بها في آستخفاف : « الحكم بالاعدام ! » ترى هل وقفوا قط مرة والحدة ، واحدة فحسب ، عند هذه الفكرة الأليمة ليروا أن فى هذا الانسان الذى يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة ، وأن فيه روحا لم تكن قد تهيأت بعد للموت ؟

كلا ! انهم لا يرون في هذا كله الا سكينا مثلثة الشكل تهوى راسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت ، وهم يحسبون دون شك أنه لا شيء هناك بالنسبة اليه ، لا من قبل ذلك ولا من بعده !

ان هذه المذكرات سوف تظهر لهم انهم مخطئون ، فقد يتاح لها أن تنشر فى يوم من الأيام ، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التى لا يشك فيها أحد منهم . انهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المقصلة فى انجاز مهمتها الدامية ، غير أن هذا ليس كل ما فى الأمر ، اذ ما قيمة الألم البدني اذا قيس بآلام النفس ؟

انا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التى تتحرك أنفسنا شفقة بها ،وسوف يأتى يوم تكون فيه هذه

المذكرات ، وهى الأسرار الاخيرة لانسان بائس ، قد أسهمت فى هذا المضمار .. اللهم الا اذا عبثت الريح بعد موتى بهذه الاوراق الملطخة بالوحل فى فناء السجن ، أو لصقها سجان على شكل نجوم فى نافذة مكسورة الزجاج فى حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر

وسواء أكان ما أكتبه هنا يمكن أن يكون يوما ما نافعا لغيرى ، ام أنه أوقف القاضى وهو يهم بالنطق بالحكم ، أم أنقذ البائسين من ابرياء ومذنبين ، انقذهم من الاحتضار الذى حكم به على .. فلماذا كل ذلك ؟ .. وما فائدته ؟ .. وما أهميته ؟ .. ماذا يهمنى من تقطع رءوس أخرى بعد أن يكون رأسى قد قطع ؟.. هل استطعت حقا أن أفكر فى هذه الفكرة الجنونية ، فى أن اقذف بالمقصلة على الأرض واهدمها بعد أن أكون قد صعدت عليها ؟ هل لى أن أسألكم قليلا : ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة بعد أن أذهب ضحية لها ؟

آه ! أن الشمس ، والربيع ، والحقول المملوءة بالأزهار ، والطيور التى تستيقظ فى الصباح ، والغيوم ، والأشجار ، والطبيعة ، والحرية ، والحياة .. كل ذلك لم يعد لى منه شىء !

رباه ! .. انه أنا الذى يجب انقاذه ! هل صحيح أن هذا غير ممكن ؟ وانه يجب أن أموت غدا ، بل وربما اليوم ؟.. هل صحيح أن الأمر هكذا ؟ .. يا الهى ! ان هذه الفكرة الرهيبة لتدفعنى الى التفـــكير فى تحطيم رأسى على جدار زنزانتى

والآن ، فلنعد ما تبقى لى :

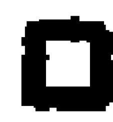
مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحـــكم لتقـــديم طلب الاستئناف الى محكمة النقض • وثمانية أيام من النسيان فى نيابة الاستئناف ترسل بعدها المستندات ــ كمـــا يقولون ــ الى مكتب الوزير • وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذى لايحس بوجود هذه الاوراق ولا يعلم من امرها شيئا،ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها الى محكمة النقض ، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها ، لان المقصلة لديها عمل كثير ، ويجب الا يمر بها كل انسان الا فى دوره ... ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح

وأخيرا ، تنعقد المحكمـــة عادة فى يوم خميس ، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة ، ثم تعيدها الى الوزير الذى يرسلها الى النائب العام ، فيحيلها هذا الى الجلاد • ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام

وفى صباح اليوم الرابع ، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه : « ومع ذلك فيجب أن تنتهى هـــذه المسألة ! » • وعندئذ ، فان كان نائب كاتب المحكمـــة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك ، فان الامر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ ، ثم يحرر ويبيض ويرسل الى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالى صوت اقامة اخشاب المقصـــلة فى ساحة الاعدام ، ويصـــيح

المنادون العموميون عند تقاطع الشوارع وفى الأزقة فى صوت مرتفع مبحوح

كل ذلك يتم في ستة أسابيع • إن الفتاة الصغيرة كانت على حق ! ولكن ها هى ذى خمسة أسابيع على الاقل ، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها ، قد انقضت على فى هـــذا السجن ، سجن « بيستر » الحقير ، ويبدو لى أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس



لقد فرغت الآن من كتابة وصيتى !

ولكن .. مافائدة ذلك ؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده • حقا ان المقصلة باهظة الثمن !

اننى أترك ورائى أما ، وزوجة ، وطفلة !.. طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان ، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائى اللون ، وكانت سن ابنتى سنتين وشهرا واحدا عندما رأيتها لآخر مرة

وهكذا ، فسوف يكون هناك بعد موتى ثلاث نساء : واحدة منهن بغير ابن ، والثانية بغير زوج ، والثالثة بلا أب •• ثلاث يتيمات من انواع مختلفة .. ثلاث أرامل باسم القانون !

انى أوافق على ان أعاقب عقابا عادلا ولكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنـــين ؟ وما ذنبهن ؟ ان هذا لايهم ، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن •• انها العدالة !

وليس ما في الامر أن أمى العجوز المسكين تقلقنى ، فسنها

أربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة ، ولو أنها عاشت من بعدى لبضعة أيام فياليتها تجد فى مدفأتهـــا لآخر لحظة بعض الرماد الدافىء ، فهى لن تشكو ولن تقول شيئا

وأمر زوجتى كذلك لا يبعث فى نفسى القلق ، فهى معتلة الصحة ضعيفة النفس ، وسوف تموت هى الاخرى .. الا اذا أصابها مس من الجنون . انهم يقولون ان الجنون يطيل العمر ، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الاقل ، ومن ثم فانها ستنام وتكون كأنها فى عداد الاموات

أما ابنتى وفلذة كبدى ، طفلتى وصغيرتى « ماري » المسكينة التى تضحك وتلعب وتغنى فى هذه الساعة ولا تفكر فى شىء ، فانها هى التى تثير فى نفسى الالم !

# فى الزنزانة

هذه هى زنزانتى :

أن مساحتها ثمانى أقدام مربعة ، ولها أربعة جدران سميكة من الحجر ، ترتكز بزاوية قائمة على أرضيــــة من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجى . وهناك على يمين الداخل ، عند الباب ، نوع من التجـــويف يقلد فى سخرية صوان ملابس النساء الذى يوجد عادة داخل الجدران. انهم يلقون فيه بحزمـــة من القش من المفروض أن يســــتريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدى سروالا من التيل ، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا أو شتاء

وفوق رأسى كسماء ، يرى المرء « قبوة » سوداء ــ هكـــذا يسمونها ــ تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية . وفيما عدا هذا ، فلا نوافذ هناك ، حتى ولا كوة صغيرة ، فلن تجد اللهم الا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب

كلا ، كلا .. اننى مخطىء ، ففى وسط هذا الباب انى أعلى ، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة ، تتخللها طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب ، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل

وفى خارج الزنزانة ، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة فى اعلى الجدار ، ومقسم الى اقسام بفواصل مبنية ، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الابواب المتينة غير المرتفعة • ويستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز ، على نحو ما ، كمدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتى ، وفى هذه الزنزانات يضعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تأديبية • أما الزنزانات الثلاث الاولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام لانها قريبة من مركز المراقبة ، ومن ثم فهى أكثر ملاءمة للسجان

هذه الزنزانات هى كل ما تبقى من قصر « بيستر » القديم كما بناه فى القرن الخامس عشر الكاردينال « وينشستر » وهو نفس الكاردينال الذى قضى باحراق « جان دارك » •• اننى سمعت هذا من فضوليين كانوا قد حضروا منذ آيام ليرونى فى زنزانتى ، وكانوا ينظرون الى من بعيد كما ينظر الناس الى الوحوش الضارية فى حدائق الحيوان . وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات

لقد نسيت أن أقول ان هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتى ليلا ونهارا ، وان عينى لا تستطيعان أن ترتفعا الى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون أن تلتقيا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين الى على الدوام

وفيما عدا هذا ،فهم يفترضون أن الهواء وضوء النهار ينفذان

الى هذا الصندوق المصنوع من الحجر

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد ، فماذا أفعل بالليل ؟

لقد خطرت ببالى فكرة ، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحى من الجدران الاربعة ، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسوم والاشكال الغريبة ، وبأسماء يختلط بعضها ببعض ويمحو بعضها بعضا . ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا ، هنا على الاقل . انها كتابات بالقلم ، وبالطباشير، وبالفحم ، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة فى الاغلب حفرا عميقا فى الحجر . ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس ، ويبدو أنها قد كتبت بالدم

ولو أن نفسى كانت أكثر حرية مما هى فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عينى صفحة صفحة على كل حجر من أحجار هذه الزنزانة ، ولكنت جعلت من هذه الشرائح من الافكار المبعثرة على الاحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه ، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم ، وأن أعيد المعنى والحياة الى هذه الكلمات المحفورة المحطمة ، الى هذه العبارات المبعثرة المفككة ، الى هذه الالفاظ المبتورة التى بدت لى كأجساد بلا رءوس كالاشخاص الذين كتبوها

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشى المصنوع من القش قلبين ملتهبين يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما : « الحب مدى الحياة !» يا للمسكين ! ماتت أمانيه فى ريعان الشباب !

والى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا ، من تحتها وجه

مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات : « يحيا الامبراطور .. « عام ١٨٢٤ »

ورأيت قلوبا أخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون : « اننى أحب وأعبد « ماتيو دنفان ـ جاك »

وعلى الجدار المقابل لسريرى ، وقعت عيناى على هذا الاسم: « بابا فوآن » ،وكان حرف الباءالاول كبيرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية ، ومن تحت هذا مقاطع من أغنيـــة بذيئة . ثم على « قبعة الحرية » المحفورة فى الحجر بشكل عميق بعض الشىء ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام : « الى الجمهورية ـ بوريس » .. انه كان أحد ضباط الصف الاربعة بمدينة « لاروشيل » ! ياله من شـــاب مسكين ! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة ! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال ، نرى هذه الحقيقة البشعة : المقصلة ! ..وأنا الذى كنت أشكو .. أنا التعس الذى ارتـكبت جريمة بمعنى الكلمـة وأرقت الدماء !

اننى لن أذهب فى بحثى الى أبعد من هذا ،فقد رأيت من فورى صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الأبيض فى ركن الجدار : انها صورة هذه المقصلة التى ربما كانت تقام لى فى هذه اللحظة ! وكاد المصباح يسقط من يدى !



واندفعت عائدا لأجلس على القش ورأسى بين ركبتى ، ثم انقشع فزعى الصبيانى وأخـذتنى من جديد الرغبـــة فى

الاستطلاع ، ومتابعة قراءة ماهو مكتوب على جـدر الزنزانة

انتزعت من جانب اسم « بابافوان » نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار ، ومعلقا فى زاوية الجـدار ، فرأيت تحته اربعة اسماء أو خمسة من الممكن أن تقرأ بسهولة من بين اسماء اخرى لم يبق منهـا سوى بقع على الجدار . أما الاسماء الواضحة فهى : « دوتان » عام ١٨١٥ ـ « بولان » عام ١٨١٨ ـ « جان مارتان » ١٨٢١ ـ « كاستانج » عام ١٨٢٣

وما كدت اقرأ هذه الأسماء حتى انتابتنى ذكريات مظلمة : أما « فدوتان » هو الذى قطع أخاه اربا اربا ، وذهب ليلا الى باريس ليلقى برأسه فى نافورة وبجذعه فى المجارى ! و « بولان » هو الذى قتل زوجته ، و « جان مارتان » هو الذى أطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة . أما « كاستانج » فهو ذلك الطبيب الذى قضى على صديقه وهو يعالجه فى مرضه الاخير ، الذى كان الطبيب نفسه سببا فيه ، وذلك بأن كان يعطيه السم على أنه دواء . والى جانب هؤلاء « بابافوان » المجنون الرهيب الذى كان يقتل الاطفال بطعنة من سكين فى الراس ! !

قلت فى نفسى : هاهم اولاء من اقاموا من قبلى ضيوفا فى هذه الزنزانة ! وأحسست برجفة من الحمى تسرى فى كليتى ! هنا ، على نفس هذه « البلاطة » التى أجلس عليها . جالت فى أذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء ، أفكارهم الاخيرة .. لقد دارت خطواتهم الاخيرة حول هذا الجدار ، وفى هذا المربع

الضيق ، كخطوات حيوان كاسر . لقد تتابع بعضهم فى اثر بعض على فترات متقاربة فى هذه الزنزانة حتى ليبدو لى انها لم تخل أبدا من النزلاء ! لقد تركوا هذا المكان دافئا .. تركوه لى انا ، وسوف أذهب بدورى لألحق بهم فى مقبرة « كلامار » حيث ينمو العشب بغزارة ايما غزارة !

لست أتنبأ بالغيب ، ولا أعتقد فى الخرافات ؛ ومن المحتمل أن هذه الأفكار كانت تثير فى نفسى مزيدا من الحمى ، ولكن بدا لى فجأة وانا أحلم على هذه الصـورة ، أن تلك الاسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الاسود ، ودوى فى اذنى رنين قوى أخذ يزداد عنفا وسرعة ، وامتلأت عيناى بوهج احمر ! ثم بدا لى أن الزنزانة كانت مملوءة بالرجال ، برجال اشكالهم غريبة ، كانوا يحملون رءوسهم بأيديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم ، لانها كانت رءوسا لا شعر فيها .. وكانوا جميعا يلوحون الى بقبضات أيديهم مهددين ماعدا قاتل أبيه !

وأطبقت عينى وقد تملكنى الهلع ، فرأيت عندئذ كل شىء فى وضوح أكثر ، وسواء أكان ما رأيته حلما أم رؤيا أم حقيقة ، فقد كنت خليقا بأن أجن .. لولا انى أحسست بشعور مفاجىء أيقظنى من هذا الكابوس فى الوقت المناسب ، وكدت أقع على ظهـرى عنـدما شعرت ببطن بارد ، وبأرجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمى العاريتين . كان هذا هو العنكبوت الذى كان فى طريقه الى الهرب بعد أن أزعجته

ولقد ازال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظرى . ويا لها من أشباح مرعبة ! كلا ، انهـا كانت دخانا ينبعث من مخى الخاوى المحموم ! كانت كابوسا على طريقة « ماكبث ! » فالموتى ميتون ، وخاصة هؤلاء . لقد اغلقت عليهم القبور جيـدا بالاقفال ، وليس القبر سجنا يهرب منه الانسان . فكيف حدث اذن أنى خفت على هذا النحو ؟

ان باب القبر لا يفتح من الداخل قط



# مشهد رهيب

رأيت فى هذه الأيام الماضية شيئا بشعا !

كنا فى مطلع الفجر ، وكان السجن يضج بالاصوات، وكان يسمع صوت اغلاق الابواب الثقيلة وفتحها، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية ، وصليل رزم المفاتيح التى يحتك بعضها ببعض فى أحزمة السجانين ، واهتزاز درجات السلم من أعلى الى أسفل تحت وقع خطوات مندفعة ، وأصوات ينادى بعضها بعضا ، ويرد بعضها على بعض من طرفى الدهاليز الطويلة ! وكان جيرانى فى الزنزانة ، وهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، أكثر مرحا من المألوف . وكان يبدو على سجن « بيستر » بأسره أنه يضحك ويغنى ، وأنه يلهو ويرقص

وبقيت وحدى صامتا وسط كل هذه الضوضاء ، ساكنا لا أبدى حراكا وسط هـذه الحركة الدائبة . كنت اصغى فحسب ، أصغى فى يقظة وانتباه وقد تملكتنى الدهشة

ومر أحد السجانين فخاطرت بندائه ، وسألته عما اذا كان هناك عيد فى السجن ، فأجابنى الرجل قائلا : « انه عيد اذا شئت ! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالحديد ، أولئك الذين يجب أن يرحلو غدا الى سجن «طولون» أتريد أن تشاهد ذلك ؟ إنه سوف يسليك »

وكان هذا المنظر فى الواقع–مهما بلغ من بشاعته – فرصة طيبة لانسان سجين بمفرده فى زنزانة ، فقبلت هذه التسلية

واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كى يطمئن من ناحيتى ، ثم اصطحبنى الى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الاطلاق ، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد ، ولكنهانافذة بمعنى الكلمة ، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتكىء على حافتها ، وأن يرى السماء من خلالها بالفعل

وقال لى السجان : « حسنا .. من هنا سوف ترى وتسمع ، وسوف تكون وحدك فى مقصورتك هذه وكأنك ملك ! »

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والأقفال والمزاليج

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل ، فسيح الى حد معقول ، يحيط به من الجهات الاربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم . وليس ثمة ما هو أكثر زراية وعريا وأشد ايذاء للعين من هذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد ، التىالتصقت بها – من أسفل البناء الى أعلاه – مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة الضامرة ، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها أحجار فى جدار ، يحيط بها جميعا – ان صح هذا التعبير – اطار من قضبان النوافذ الحديدية . كان هؤلاء هم السجناء ، قد أخذوا يشاهدون هذا الحفل ، فى انتظار أدوارهم حين تحين

ليصبحوا هم الممثلين . ان المرء ليخيل اليه انهم أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم

كانوا ينظرون جميعا فى صمت الى الفناء الذى كان لا يزال خاليا الى تلك اللحظة . انهم كانوا ينتظرون . وهنا وهناك ، كانت بعض الأعين الحية الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة

ان « مربع السجون » الذى يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه ، فأحد اضلاعه الأربعة ( الضلع الذى يطل على جهة الشرق ) مقطوع عند وسطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذى يجاوره الا بسور من حديد ، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الاول ، ومحاط مثله بالجدران والابراج الصغيرة السوداء

ومن حول الفناء الرئيسى ، توجد مقاعد من الحجر ظهورها الى الجدار الضخم ، ويقوم فى وسطه عامود من الحديد مثنى من أعلى ليعلق به المصباح

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا ، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف فى البناء ، وظهرت عربة « كارو » يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوجل ، يرتدون زيا ازرق ، وعلى أكتافهم شارات حمراء ، وسيور صفراء ، من التى تعلق فيها البنادق . ودخلت هذه العربة الفناء فى تثاقل محدثة صوتا حديديا . كانت تلك هى عربة السجانين قد جاءوا ومعهم

وفى تلك اللحظة عينها ، وكما لو كان الصوت الصادر من العربة قد أيقظ كل أصوات السجن ، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والأغانى ، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية ، وضحكات سماعها يؤلم الآذان ، وهم الذين كانوا الى تلك اللحظــة صامتين لا يتحركون ، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين ، وقد بدت مكفهرة مكشرة عن أنيابها ، وبرزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ ، وارتفعت كل الاصوات ، ولمعت كل الأعين ، فروعتنى رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد

ومع ذلك ، فقد شرع عمال السجن ، الذين كنت أميز من بينهم عددا من الفضوليين ، كانوا قد قدموا من باريس ، نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام ، وشرع عمال السجن هؤلاء فى تأدية عملهم فى هدوء ، فصعد أحدهم فوق العربة وألقى الى رفاقه بالأغلال الحديدية ، وأطواق السفر ، ورزم السراويل المصنوعة من التيــــل الرخيص . ثم قسم العمال العمل فيما بينهم ، فذهب فريق منهم الى ركن من أركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التى كانوا يسمونها فى لغتهم « الدوبارة » ، أما الآخرون فقد بسطوا الاقمشة والقمصان والسراويل على « البلاط » ، بينما كان أكثرهم فراسة يفحصون الأطواق الحديدية المخصصة لاقدام السجناء، تحت مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين ، ثم يمتحنون صلابتها

بحكيها فى البلاط حتى يتطاير منها الشرر

وكان هذا كله يجرى بينما كان السجناء يصفقون فى سخرية واستهزاء ، ولم يكن يطغى على أصواتهم الا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين كان ذلك يعد من أجلهم ، وهم يقفون على مرأى منا عند تقاطع السجن العتيق الذى يطل على الفناء الصغير

وما ان تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل فى ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه « السيد المفتش » ، واعطى أمرا الى مأمور السجن . وما هى الا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان و ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة ، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزأرون . كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة !

وتضاعف الفرح فى النوافذ لدى دخول هؤلاء ، وحيا السجناء بعضهم — وهم الاسماء الكبيرة فى الليمان — بالتصفيق والتهليل ، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم فى نوع من التواضع المزوج بالفخر ، وكان أكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بأيديهم من قش الزنزانة ، كى تلفت الانظار الى رءوسهم فى المدن التى سوف يمرون بها . وكان التصفيق لهؤلاء بالذات اكثر شدة وحماسا ، بل ان احدهم بصفة خاصة — وهو شاب فى السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة — قد أثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام ، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان

يغطيه من رأسه الى قدميه ، فدلف الى الفناء وهو يلف ويدور حول نفسه فى خفة لا تحاكيها الا خفة ثعبان ، فثارت بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق ، ومن صيحات السرور . وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يردون على ذلك من ابراجهم ، فكان هذا التجاوب فى المشاعر وتبادل المرح بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئا مرعبا حقا . ومهما كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفضوليون الذين استولى عليهم الذعر ، فان الجريمة كانت تتحداه فى تلك اللحظة وجها لوجه ، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا

وكلما وصل سجناء آخرون، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس الى الفناء الصغير المحوط بالاسوار الحديدية حيث كان ينتظرهم الاطباء . وهناك ، بذل كل واحد منهم جهدا أخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الأعذار الصحية : فهو اما مريض بعينيه ، واما مقطوع اليد ، واما أنه يعرج بساقه ، لكن الاطباء كانوا يجدونهم فى الأغلب الاعم صالحين لليمان ، فكان كل منهم يرضخ عندئذ فى غير مبالاة ، متناسيا فى دقائق قليلة عجزه المزعوم الذى كان مصابا به طول حياته

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة أخرى وأخذ أحد الحراس ينادى بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الأبجدية ، فخرج المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عندئذ واحدا واحدا ، وذهب كل منهم لينتظم واقفا فى الصف فى ركن الفناء الكبير

الى جوار زميل له ، جمعته به صدفة الحرف الذى يبدأ اسمه به. وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه أمام نفسه ، وكان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا الى جنب مع شخص مجهول ، واذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم ، فان القيد الحديدى كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لاسبيل الى الفكاك منه ، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره !

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان ، ثم صفهم أحد الجنود صفا بعصا فى يده ، وألقى أمام كل واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص ، ثم أشار بيده اشارة خاصة فشرعوا جميعا فى خلع ملابسهم ، غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ ، وكأنه كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الاذلال الى عذاب

كان الطقس الى تلك اللحظة جميلا نوعا ما ، ولئن كان نسيم شهر أكتوبر يشيع البرودة فى الجو ، فانه كان يشق من آن لآخر فى غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس . ولكن ما كاد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ينزعون من على أجسادهم أسمال السجن البالية ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم ، حتى أظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار الخريف التى تشبه السيل ، فغمر الفناء المربع بالماء البارد وأغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم

التعسة الملقاة على الأرض

وفى طرفة عين ، كان مدخل الفناء قد خلا تمـــاما من كل شخص لم يكن ســـجانا أو ســـجينا ، وهرع فضـــوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الأبواب

ومع ذلك ، فقد استمر المطر ينهمر مدرارا ، ولم نكن نرى فى الفناء سوى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقةفى الماء .. ان صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصـــاخب فوقفوا يرتجفون ، وأخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركبانهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالأخرى . وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا ، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك الستر والسراويل التى يقطر منها الماء . لقد كان العرى خيرا لهم !

ان واحدا منهم ، واحدا فقط ، وهو شيخ مسن ، كان قد احتفظ بشيء من المرح ، فصيـــاح قائلا وهو يجفف جســـمه بقميصه المبتل : « ان هذا لم يكن ضمن البرنامج ! » ثم أغرق فى الضحك ، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء

وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر ، اقتادهم حراسهـم فى مجموعات تضم عشرين أو ثلاثين شخصا الى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على الارض فى انتظارهم . وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعهـا أفقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط فى

طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق « مفصلة» فيأحدجوانبه ، ويقفل من الجانب المقابل « ببرشمته »بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدى حول رقبة السجين طول مدةالرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الارض بدت لى كأنهـا هيكل عظمى لسمكة ضخمة

وأجلس السجناء فى الوحل على الارض الغارقة فى المـاء وبعد أن قيست الاطواق على أعناقهم ، جاء حـــدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلكالاطواق « على البارد » بطرقها طرقا شديداً بمطرقة من حديد . فكانت هذه لحظةرهيبةاصفر لها وجه أكثر السجناءشجاعة ! لقدكانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود الى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز الى الامام ، وكانت أدنى حركة يمكن أن يأتى بها السجين من الامام الى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة « عين جمل ! »

وما أن تمت هذه العملية حتى وجم الســجناء وأظلمت وجوههم ، ولم يعد يســمع الا صـــليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر ، صوت عصى السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هـؤلاء السجناء يبكون ، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون على نواجذهم ، ووقفت أنا فى نافذة الزنزانة أطل على الفناء وأنظر فى رعب الى كل تلك الصور المحزنة فى اطارهـــا الحـــديدى

وهكذا ، فان زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب ، وأعقب زيارة السجانين تركيب الاطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ٠٠ لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول !

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدا كأنه قد أشعل كل هذه العقول ، اذ نهض السجناء معا دفعة واحدة ، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى ، وتشابكت أيدى سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجأة فى حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذى يتوسط الفناء ، واخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون احدى أغانى الليمان فى لغة عامية دارجة ، وفى نغمة تارة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة مرحة ٠ وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الاغنية الغريبة ، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون ، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الاغنية ، وهى موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم ! ولو بحث فى مخيلتى عن صورة للعفاريت فان أستطيع أن أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة !

ثم أحضر الى الفناء طست كبير ، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم ، ثم ساقوهم الى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئا طافيا كالعشب ـ لست

أدرى ما هو — فى سائل ساخن كان يتصاعد منه البخـــار لست أدرى ما هو كذلك ، فأخذوا يأكلون

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الاسود على بلاط الفنـــاء ثم عـــادوا الى الرقص والغناء من جديد ، ويبدو أنهم يتركون لهمشيئا من هذه الحرية يوم يكبلون فى الاصفاد وكذلك فى الليـــلة التى تليها

ومكثت أرقب هذا المشهد الغريبفى يقظة كبيرة ، واستطلاع منهوم ، وانفعال عميق ، حتى أنى نسيت نفسى تماما ! ان شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحنى فيمزق أحشـــائى ، وكانت ضحكاتهم تملأ عينى بالدموع

وفجأة ، وخلال هذا الحلم العميق الذى كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكفعن الصياح والدوران ، وساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم الى النافذة التى كنت أشغلها ، وصاحوا جميعا ، وهم يشيرون الى بأصابعهم قائلين : « المحكوم عليـــه بالاعدام ! .. المحكوم عليه بالاعدام ! » .. وقد غمرهم فى تلك اللحظة مرح مضاعف ..

وتصلبت فى مكانى متحجرا ! فقـــد كنت أجهـــل من أين عرفونى وكيف تعرفوا على !

وصاحوا بى قائلين ، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة: « عمت صباحا ! .. طاب مساؤك ! » .. ونظر الى واحد من بينهم ، وهو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة سنا ، وكان وجهه خشنا لامعا جامد الملامح ، نظر الى

نظرة تفيض بالحسد ، وهو يقول : « انه لسعيد الحــظ ! فسوف يمحى من العالم ! وداعا أيها الزميل ! »

لست بمستطيع أن أعبر عما كان يدور فى نفسى ‥ اننى كنت فى الواقع زميلا لهم ، فساحة الاعدام هى شقيقة لليمان « طولون » ، بل انى كنت فى درك أســـفل منهم ! ‥ انهم كانوا يشرفوننى ‥

واجتاحتنى رجفة عاتية ‥ نعم ، انى زميل لهم ومن الممكن ان أصير ـ أنا نفسى ـ بعد أيام مشهدا يملأ عليهم أبصارهم !

وكنت قد بقيت فى النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالى وتملكنى الذهول . ولكننى حينما رأيت ســجناء السلاسل الخمس الكبرى يتقدمون الى الامام ثم يندفعون نحوى وهــم يوجهون الى كلمات ودية جهنمية ، وحينما سمعت ضــجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة ، وبوقع خطواتهم تحت نافذتى عند أسفل الجدار ، خيل الى أن هذه الشرذمة من الشــياطين كانت تتسلق البنــاء الى زنزانتى التعسة ، وأطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب وألقيت نفسى عليه بكل قواى كى أحطمه ، لكنى لم أجد سبيلا الى الفرار ، فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج ‥ وعدت أحــاول اقتحام الباب ، وأنا أنادى وأصرخ فى جنون ، فبدا لى وقتئذ أنى كنت أسمع أصوات السجناء المخيفــة تقترب منى أكثر فأكثر ، وظننت أنى أرى رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتى ، فصحت صيحة فزع أخرى مدوية ثم سقطت مغشيا على .

# اللحن الحزين

وعندما أفقت من غشيتى كان الليل قد اقبل ، ووجدت نفسى راقدا فوق « برش » ، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته قرب السقف مكننى من أن ارى « ابراشا » أخرى مرصوصة الي جوار « برشى » عن يمين ، وعن شمال ، فأدركت أنهم نقلونى الى مستشفى السجن

وظللت مستيقظا لحظات ، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد احسست بسعادة غامرة لانى نائم على سرير . وليس ثمة شك فى أن سرير المستشفى هذا كان خليقا فى اى ظرف آخر بأن يجعلنى أفر منه شفقة واشمئزازا ، غير أنى كنت قد اصبحت شخصا آخر .. كانت ملاءة هذا السرير رمادية اللون خشنة الملمس ، وكان الغطاء ممزقا ، وكنت أشعر بقش الزنزانة من خلال تلك « المرتبة » .. ولكن هذا لم يكن يهم ! .. فقد كان فى وسعى أن أبسط أطرافى كما يروق لى فوق هذه الملاءة الرخيصة وتحت هذا الغطاء مهما بلغ من الرقة ، وكنت أحس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذى كان ينفذ حتى نخاع العظام ، والذى كنت قد ألفته فى الزنزانة ، فاستسلمت مرة اخرى للنوم

واستيقظت من نومى على صوت جلبة كبيرة ، وكان الوقت فجرا . كان الصوت يأتينى من الخارج ، وكان سريرى

بجوار النافذة ، فنهضت وجاست فى الفراش لاستجلى مصدر هذا الصوت ..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير فى سجن « بيستر » ، وكان هذا الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنود السجن القدامى الاشداء يجدان مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير ، وبين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات « كارو » محملة بالرجال تتقدم فى بطء وهى تتعثر عند كل « بلاطة » .. كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم

كانت هذه العربات مكشوفة ، وكانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم احدى السلاسل الطويلة الخمس ، وقد جلسوا على جانبيها واتكأ بعضهم على بعض ، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التى كانت تمتد بطول العربة ، والتى كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندى يشهر بندقية معدة للاطلاق . وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربة ، كما كانت رءوس السجناء ترى وهى تقفز ، وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعل سراويل السجناء الرمادية المصنوعة من التيل والتى كانت قد اسودت ، يجعلها تلتصق بركباتهم ، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطولة ومن شعرهم القصير ويغمر وجوههم التى صارت بنفسجية اللون

وكنت أراهم وهم يرتجفون وقد أخذت أسنانهم تصطك من البرد والغضب

وكان هؤلاء السجناء من جهة أخرى عاجزين عن الحركة ، اذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فانه لايصبح الا جزءا من تلك الكتلة القبيحة التى يسمونها « الكردون » والتى تتحرك كأنها رجل واحد .. ان الذكاء لابد عندئذ أن ينمحى ، فطوق اليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت ، اما الحيوان نفسه (١) فيجب ألا تكون له حاجات أو شهية للطعام الا فى ساعات محددة

وهكذا ، فان السجناء كانوا لايستطيعون حركة وقد أصبحوا شبه عراة ، ورءوسهم حاسرة وأرجلهم معلقة فى الهواء . كانوا يبدءون ، على هذا النحو ، سفرهم الذى يستغرق خمسة وعشرين يوما ، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس الثياب ، تحت وهج الشمس المحرقة وتحت أمطار نوفمبر الباردة ، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون أن تشاركهم السماء مناصفة القيام بعملهم كجلادين !

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب : سب من ناحية ، وتحد من الناحية الاخرى ، وشكاوى وشتائم من الجانبين .. ولكن ماهى الا اشارة صدرت من القائد (٢) حتى

---

(١) يعنى الناحيــة الحيوانية فى السجين أى البدن ومطالبه
(٢) الكابتن قائد حرس السجن

رأيت وابلا من ضربات العصى التى كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيغرق أكتاف السجناء أو رءوسهم بلا تمييز ، فعاد كل شيء الى الهدوء ، ولكنه كان ذلك الهدوء الظاهرى الذى يسمونه نظاما ، اذ كانت أعين هؤلاء التعساء تفيض بالانتقام ، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم فى عنف ظاهر

واختفت العربات « الكارو » الخمس ، التى كان يحرسها فرسان البوليس وجنود السجون المشاة ، واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب المرتفع ذى «القبوة » ، باب سجن « بيستر» وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والأوانى النحاسية والسلاسل الاحتياطية (١) •• وكان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا فى المقصف (٢) فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات

ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال عابر ، وأخذت الجلبة التى كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل على طريق « فونتينبلو » المرصوف ، وقرقعة السياط ، وصليل السلاسل ، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء فى سفرهم كل المصائب والنكبات

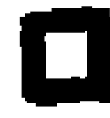
---

(١) سلاسل وأطواق حديدية اضافية وقطع غيار للطوارىء
(٢) « كانتين » السجن

ومع ذلك ، فقد كان هذا بالنسبة اليهم مجرد بدايةفحسب!

فماذا كان يقول لى المحامى اذن ؟ ٠٠ الأشغال الشـــاقة المؤبدة ! ٠٠ آه ! ان الموت خير عندى ألف مرة ! إنى أفضل المشنقة على الليمان ، والفناء على جهنم (١) ، وأوثر أن أسلم رقبتى لسكين الدكتور « جيوتان » على أن أســـلمها لطوق السجان !

آه ! الاشغال الشاقة المؤبدة ؟ ! ٠٠ رحماك أيتها السماء العادلة !



لم أكن مريضا لسوء الحظ ، واضطررت فى اليوم التالى الى الخروج من مستشفى السجن لتتلقفنى الزنزانة مرة ثانية

اننى لست مريضا ! هذا حق ، فأنا شاب قوى ، أستمتع بصحة جيدة ويجرى الدم فى عروقى فى حرية ، وكل أعضاء جسمى تطيع سائر نزواتى ٠٠ أنا قوى الجســـم والروح ، وتكوينى يمكننى من أن أعيش طويلا ٠٠ نعم ، ان هذا كله صحيح ٠٠ ومع ذلك ، فانى مصـــاب بمرض آخر ، بمرض مميت من صنع يد الانسان

فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتنى فكرة مؤلمة، فكرة سوف تورثنى الجنون ! فقد خطر ببالى أنى ربما استطعت الهرب لو أنهم تركونى فى هذا المستشفى ، فهؤلاء الأطبـــاء

---

(١) يعنى المؤلف عذاب الليمان والاشغال الشاقة المؤبدة

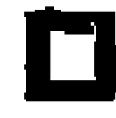
والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرى ٠٠ انني سوف أموت هكذا وأنا بعد شاب صغير السن ٠٠ سوف أموت مثل هذه الميتة الشنعاء !

لقد بدا لى أنهم كانوا يرثون لحالى لكثرة ما كانوا يحومون حولى ويتزاحمون الى جوار سريرى ٠٠ آه ! صمتا أيها التعس! ٠٠ فهو مجرد حب استطلاع فحسب ٠٠ وفوق هذا ، فهؤلاء الاشخاص وان حاولوا انقاذى حقا من الحمى ، فليس فى استطاعتهم أن ينقذونى من حكم الاعدام ! ٠٠ ومع ذلك ، أفليس الأمر يسيرا عليهم للغاية ؟ مجرد باب يترك مفتوحا ! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك ؟

ولكن واحسرتاه ! لم تعد أمامى فرصة الآن ٠٠ إن طلب الاستئناف الذى تقدمت به سوف يرفض لأن كل شيء قد سار طبقا لنص القانون ، فقد شهد الشهود شهادة كاملة ،وترافع المترافعون مرافعة جيدة ، وحكم القضاة حكما صحيحا ! اننى لا أعول على الاستئناف ، اللهم الا ٠٠ كلا ، كلا ٠٠ ان هذا ضرب من الجنون ! ولم يعد ثمة أمل ! فطلب استئناف الحكم ليس الا حبلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتسمعه وهو يتآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما ٠٠ انه كسكين المقصلة عندما تهوى على عنق المرء فى ستة أسابيع !

آه لو صدر عفو عنى ! ٠٠ عفو ؟ ! ٠٠ من ذا الذى سوف يصدره ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ٠٠ من المحال أن يصدر العفو عنى، كل ذلك عبرة للناس ، وضرب مثل .. كما يقولون

لم تعد هناك أمامى ســـوى ثلاث خطوات أخطوها ، ثلاث فحسب : سجن « بيستر » ‥ ثم سجن « الكونسيير جورى » ‥ وأخيرا ، ساحة الاعدام !



وكنت قد جلست فى الشمس بجوار النـــافذة خـــلال الساعات القليلة التى قضيتها فى المستشفى ‥ ان الشمس قد عادت الى الظهور ، أو على الأقل ، كنت أتلقى من أشعتها كل ما كانت تسمح لى به منها قضبان النافذة الحديدية

جلست هناك وقد وضعت رأسى الثقيل المحموم بين يدى اللتين كانتا لاتقويان على حمله ، واسندت مرفقى الى ركبتى وقدمى الى قضبان مقعدى ، لأن الانهاك كان قد بلغ منى مبلغا جعلنى انحنى وأنثنى على نفسى كما لو كنت جسما لم تعد فى أوصاله عظام ولا فى لحمه عضلات

وكانت رائحة السجن التى تزكم الانوف تخنقنى أكثر من أى وقت مضى ، وكانت أصوات كل هؤلاء السجناء المختلطة بصليل ســلاسلهم لاتزال تطن فى أذنى ، وكنت أقاسي كللا كبيرا فى سجن « بيستر » ، حتى أنه كان يبدو لى أن الله فى عدله ورحمته سوف تأخذه الشـــفقة بى فيرســـل الى طائرا صغيرا على الاقل ليغرد هنا أمامى على حافة هـــذا السقف الاردوازى المنحدر

ولست أدرى أن كان الله الرحيم هو الذى استجاب عندئذ لدعائى أو أنه الشيطان الرجيم ، فقد سمعت فى نفس اللحظـــة

تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتى ولكنه لم يكن صوتا لطائر ، وانما كان أجمل من ذلك بكثير .. كان صــوتا نقيا ، صــوتا نضرا شجيا لفتــاة فى الخامسة عشرة .. فرفعت رأسى فجاة كانسـان أدركه الفزع ، وأخذت أستمع فى نهم الى الاغنيـة التى كانت ترددها الصبية فى نغم بطىء حزين كأنه هديل الحمام .. فجاءنى صوتها ينوح قائلا :

كان ذلك فى شارع « ماى » ..

حيث اعتدى على قهرا ثلاثة أشقياء ..

ثلاثة ملاعين هجموا على ..

ولم أستطع أن اعبر عن مدى مرارة الصدمة التىأحسست بها فى تلك اللحظة .. واستطرد الصوت يقول :

لقد هجموا على وطرحونى أرضا

ومر شاب من حينا مصادفة

فقلت له : اننى فى محنة ..

فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان !

فقال لى : « انى هززت شجرة البلوط

ونزعت منها كثيرا من الاغصان »

فأوسعهم ضربا حتى تركونى

وفررت وحذائى ممزق ، وكذلك ملابسى

لسوف أرقص مع هذا الفتى فى يوم العيد

ولم يسبق لىأنسمعت هذهالاغنية من قبل ،وكنتلاأستطيع أن أسمع المزيد من كلماتها التى كانت تحمل بين طياتها شكوى

مفهومة وغامضة معا .. كما غنت الفتاة كذلك أغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجال البوليس ، وتتحدث عن لص يقابل شخصا ويرسله الى زوجته بهذه الرسالةالرهيبة : « انى قتلت رجلا وقبض على » ، وأغنية أخرى ( ١ ) جاء بها : أن سيدة ذهبت الى قصر « فرساى » لتشكو مجرما الى الملك ، وأن صاحب الجلالة قد ثار لذلك ، وقال متوعدا المذنب انه : « سيجعله يرقص دون أن تكون هناك « أرضية » تحت قدميه ! »

كانت الصبية تردد كل تلك الاغاني فى نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان ، وفى صوت لم تسمع أذن امرىء قط أشجى ولا أعذب منه ! حتى أننى جمدت فى مكانى محطما مبهوتا تغمرنى الحسرة والاسف ! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا .. كانت تبدو وكأنها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة !

وما أنا بمستطيع أن أصور ما كنت أشعر به وقتئذ ، لقد كنت مجروحا ، ومسرورا فى آن واحد ! ان لهجة الكهف والليمان ، هذه اللغة الدامية الفظة ذات الرنة الكئيبة والطابع العامى (٢) التى امتزجت بصوت فتاة يافعة فى فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امرأة ، كل تلك الالفاظ رديئة

---

(١) ترجمنا مضمون هذه الاغنية بمعناها فحسب لتعذر نظمها فى أبيات موزونة ومقفاة كما وردت فى النص الفرنسى

(٢) اللهجة الشائعة بين الدهماء والطبقات المنحطة او الجاهلة

الصياغة كانت الفتاة تغنيها ، وترتلها ، وتنظمها دررا ثمينة ،

آه ! ما أشد عار السجن وشناعته ! ان فيه لسما يلطخ كل شيء . كل شيء فيه يذبل ، حتى اغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعا .. اذا عثرت فيه على طير ، وجدت جناحه ملطخا بالوحل .. وان قطفت به زهرة وشممتها ، تأذيت من رائحتها البغيضة

آه لو كنت أستطيع الفرار ، لجريت عندئذ خلال الحقول بكل ما أوتيت من قوة وعزم !

كلا ، فليس ينبغي أن اجري وقتئذ ، فذلك يلفت الانظار ويبعث على الريبة والشك ، بل ان الامر على العكس ، اذ يجب على أن أسير في تؤدة وأنا أغنى مرفوع الراس .. يجب أن أحاول جاهدا أن أحصل على قميص عتيق مفتوح أزرق اللون وبه رسوم حمراء ، فهذا يحكم التنكر ، اذ أن كل بائعي الخضر في الضواحي يلبسون مثل ذلك

اني أعرف على مقربة من « أركوى » (١) أجمة من الاشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت أتردد مع رفاقي لصيد الضفادع في يوم الخميس من كل أسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، وسوف أختبيء هناك الى أن يهبط الظلام ، ثم استأنف سيرى تحت جنح الليل كى أذهب الى «فانسين» .. كلا ، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بيني

---

(١) مكان في ضواحي باريس

وبين المضى قدما ، سوف أيمم آذن شطر « أرباجون » ـ وسوف يكون من الاوفق أن أتجه ناحية « سان جرمان » ، ثم أذهب الى « الهافر » (١) واستقل اية سفينة الى انجلترا ـ ولكن ما جدوى كل ذلك ؟ اذلا أكاد اصل الى « لونجيمو » حتى يمر بى جندى من رجال البوليس ويطلب الى أن ابرز بطاقتى الشخصية ! .. اننى هالك لا محالة ! لقد ضعت !

آه ! يا لى من حالم بائس ! على اذن أن أحطم الجدار أولا .. أن أحطم الجدار الذى يسجننى وسمكه ثلاث أقدام !.. الموت يا الهى !.. الموت !

عندما افكر فى أنى أتيت الى هنا ، الى « بيستر » ، وأنا غلام صغير لأرى البئر الكبيرة ... والمجانين آه !



وفيما أنا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحى وطلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة

ما معنى ذلك ؟ .. ان حارس زنزانتى النوبتجى دخل لتوه عندى وخلع قبعته ، ثم حيانى معتذرا عما سببه لى من ازعاج ، وطلب منى أن أعين له ما اريده طعاما لفطورى ، طلب منى هذا ، وهو يحاول جاهدا ان يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف

فاجتاحتنى رجفة عاتية ، وهمس فى أعماقى صوت يقول :

---

(١) ميناء فرنسى على بحر المانش

« ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم ؟ »

نعم .. انه اليوم !

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتى وسـألنى كيف يستطيع أن يرضينى وكيف يمكن أن يكون نافعا لى فى اى شيء ، وعبر لى عن امله فى الا تكون لدى أية شكوى منه أو من مرءوسيه ، ثم سألنى فى اهتمـام عن صحتى ، وعن الحال التى قضيت فيها الليل .. وخاطبنى بقوله : « ياسيدى » وهو يغادر الزنزانة !

انه اليوم !

ان هـذا السـجان لا يعتقد أن لدى شـكوى منه أو من مرءوسيه .. انه على حق ، فسوف لا تنفعنى الشكوى .. انهم قد قاموا بواجبهم فحرسونى خير حراسة ، وفوق هذا ، فقد كانوا مؤدبين عند وصولى وعند رحيلى .. أفلا ينبغى اذن أن أكون راضيا مسرورا ؟

ان هذا السجان الطيب انما يمثل السجن مجسما ، بابتسامته الساذجة العذبة ، وكلماته الرقيقة اللطيفة ، وعينه التى تمتدح وتتجسس ، ويديه الضخمتين العريضتين .. ان سـجن « بيستر » قد تقمص هذا الرجل .. كل شيء من حولى هو سجن بالنسبة الى ! انى أجد السـجن فى جميع الصـور والاشكال : أجده فى صـورة الانسـان كما أجـده فى شكل القضبان أو فى المزاليج والاقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر ، وذاك الباب سـجن من الخشب ، وهؤلاء الحراس

سجن من لحم وعظم .. ان السجن كائن خفى رهيب شامل لا يتجزأ ، نصفه سكن ونصفه انسان ، وأنا فريسته ، وهو يحيطنى بمخالبه ويحتضننى بكل جوارحه وثناياه ، فهو يغلق على جدرانه المبنية من الجرانيت ، ويقفل على بأقفال من الحديد ، ويراقبنى بعينى السجان

آه ! يالى من بائس . ماذا سيحدث لى ؟ ماذا سيفعلون بى ؟



# الكاهن

انني الان هادىء ، فقد انتهى كل شىء ، أنتهى تمـــاما .. لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التى كانت قد القتنى فيها زيارة الطبيب . ذلك انى أعترف بأنى كنت لا أزال آمل ، أما الان ، والحمد لله ، فلم يعد ثمة أمل لى

وهذا هو ما حدث منذ لحظة :

حينما دقت الساعة معلنة السادسة والنصف ــ بل ان ذلك كان فى الربع الاخير من هذا النصف ــ فتح باب زنزانتى من جديد ودلف اليها شيخ أشيب الشعر ، يرتدى «ردنجوتا» قاتم اللون · وفتح الرجل « الردنجوت » قليلا فرأيت ثيابه البيضاء ، « وياقته » الناصعة · لقد كان قسيسا

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن ، وهذا أمر كئيب · وجلس الرجل قبالتى ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتســـامة عريضة ، ثم هز رأسه ورفع بصره الى الســـماء ، أعنى الى السقف ، سقف الزنزانة ! ·· لقد فهمت !

وقال لى رجل الدين :

ــ أأنت على استعداد يابنى ؟

فأجبته قائلا فى صوت مختنق :

ـ لست مستعدا ولكنني « جاهز » !

ومع ذلك ، فقد غامت عيناى ، واضطرب بصرى ، ونضح من كل أعضاء جسمي عرق بارد غزير ، وأحسست بصدغى ينتفخان ، وامتلأت أذناى بالطنين

وكان الشيخ الطيب يتكلم ، بينما كنت أترنح على مقعدى كانسان نائم ، أو هذا هو على الأقل ما بدا لى فى تلك اللحظة، وأحسبنى أذكر أنى رأيت شفتيه تتحركان ، كما رأيت بريق عينيه ، واهتزاز يديه

وفتح باب الزنزانة مرة أخرى ، فأخرجنى صرير المزاليج من ذهولى وقطع على الرجل حديثه ، ثم دخل سيد لم أره من قبل ، يرتدى ثيابا سوداء ومعه مدير السجن . وقدم الرجل نفسه الى ، وحيانى فى احترام عميق . وكانت ترتسم على وجه الرجل مسحة من حزن « رسمي » مصطنع ، هو نفس الحزن الذى تراه على وجه اللحاد « الحانوتى » ومعاونيه ، وكان يمسك فى يده ورقة ملفوفة

وقال لى الرجل وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة :

ـ سيدى .. انى « محضر » من قبل محكمة باريس الملكية، ويشرفنى أن أحمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام

فأجبته قائلا بعد أن ذهب عنى أثر الهزة الاولى ، واستعدت حضور ذهنى كله :

ـ انه السيد النائب العام ذاته الذى طالب برأسي فى الحاح، وانه لشرف كبير لى ياسيدى أن يكتب الى ، وآمل أن يثلج

موتى صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور ، اذ يشق على أن أعتقد أنه ألح فى طلب موتى بحماس كبير فى الوقت الذى لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة ، ثم استطردت أقول فى صوت ثابت النبرات : « اقرأ ما عندك اذن يا سيدى ! »

فأخذ « المحضر » يقرأ على رسالة طويلة ، وهو يتغنى فى نهاية كل سطر ، ويتردد فى وسط كل كلمة ٠ كان ذلك رفضا للطلب الذى تقدمت به لاستئناف الحكم ٠ وأضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام ، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة : « ان الحكم سينفذ اليوم فى ساحة الاعدام ، وسوف نرحل فى تمام الساعة السابعة والنصف الى سجن « لاكونسيير جورى » ٠ هل لك أن تتفضل فتتبعنى يا سيدى العزيز ؟ »

وكنت لم أعد أنصت الى الرجل منذ وقت ليس بقصير ٠وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس ، بينما ظلت عينا «المحضر » مثبتتين على أوراقه ، وكنت أنا الى جوار الباب الذى كان لايزال مواربا ٠آه ! أيها التعس ! هناك فى الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم !

وأعاد « المحضر » سؤاله على وهو ينظر الى فى هذه المرة ، فأجبته قائلا :

ــ سأتبعك يا سيدى فى أى وقت تريد ٠ انى رهن اشارتك!

فحيانى قائلا وهو يتهيأ للانصراف :

ـ سوف أتشرف بالحضور لاصطحابك معى بعد نصف ساعة

وانصرف الجميع عندئذ وتركونى وحدى



يا الهى ! أما من وسيلة للفرار ؟ أية وسيلة كانت ؟ يجب أن أهرب • هذا لابد منه ، وفى الحال ! من الابواب ، من النوافذ ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف ، حتى لو كلفنى هذا أن أترك لحمى على هذه الالواح ! ياللغضب ! يا للشياطين ! يا للعنة ! لسوف تلزمنى أشهر بأكملها لنقب هذا الجدار ، ان كانت هناك آلات جيدة ، مع أنى لا أملك مسمارا واحدا ، ولم تعد أمامى حتى ساعة واحدة !



# الفصل الثالث

# الطريق إلى الموت

# فى سجن « لاكونسيير جورى »

هأنذا قد نقلت كما قال « المحضر » ، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتى . وقـــال لى الرجل : « انى فى انتظارك ياسيدى »

يا للأسف ! انه كان ينتظرنى حقا ، وكان معه آخرون !

فنهضت من مكانى وخطوت خطوة واحدة ، فبدا لى لحظتها أنى سأعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت اشعر به من ثقل فى رأسى وخور فى ساقى ، ولكنى مع ذلك تمالكت نفسى ، وتابعت السير فى شىء من الارادة والثبات . والقيت نظرة أخيرة على سجن «بيستر» قبل أن أغادره ــ فقد كنت أحب زنزانتى هذه ــ ويؤسفنى أنى تركتها خالية ومفتوحة ، ممـا أكسبها مظهرا غريبا !

انها لن تظل هكذا طويلا على كل حال ، فقـــد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون انهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها فى هذه الليلة ، وهو رجل محكوم عليه، كانت محكمة الجنايات بصدد النظر فى أمره فى هذه الساعة

ولحق بنا الواعظ فى نهاية الدهليز . وكان الرجل قد فرغ

للتو من تناول طعامه

وعند خروجي من الزنزانة ، أمسك مدير السجن بيدى فى عطف ، وشدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامى

وأمام باب مستشفى السجن ، صاح بى شيخ يحتضر قائلا : « الى اللقاء ! »

وبلغنا الفناء واستنشقت الهواء ، فأراحنى هذا بعض الشيء ولم نمش طويلا ، اذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة فى الفناء الاول .. آه ! انها نفس العربة التى كانت قد نقلتنى الى هنا . كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة ،ومقسمة الى قسمين بقضبان من حديد ، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة ، وكان لكل قسم من قسميها باب ، أحدهما فى مقدمة العربة ، والثانى فى مؤخرتها . وكانت العربة بأسرها شيئا بالغ القذارة ، أسود اللون حالكه ، ومغطى بالغبار ، الى حد أن عربة نقل الموتى كانت تبدو الى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك

وقبل أن أدفن فى هذا القبر ذى العجلتين ، ألقيت نظرة على الفناء ، نظرة انسان يائس ، كان يأمل بها أن تتداعى من أمامه الجدران . كان الفناء وهو مكان صغير مزروع بالاشجار ، كان ممتلئا بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالاصفاد اذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حـــدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل ، وهو مطر دقيق بالغ البرودة ، لا يزال يهطل فى هذه الساعة التى أكتب فيها ، وسوف يستمر طول النهار دون شك ، وسوف يستمر كذلك حتى بعـد أن أرحل عن هذه الدنيا

وكانت الطرق مملوءة بالمياه « وبالمطبات » ، وكان الفناء غارقا فى الماء والوحل ، وخامرنى ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور فى الوحل

وصعدنا الى العربة ، فركب المحضر مع أحد الحراس فىالقسم الامامى منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر فى المؤخرة، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة ،وهكذا كان هناكثمانية رجال ــ اذا استثنينا سائق العربة ــ يحرسون رجلا واحدا

وفيما كنت أهم بالصعود الى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقـــول : « انى أفضل هذا كثيرا على السلاسل ! »

اننى افهم ذلك ، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة ، يحيط به فى سهولة وسرعة.أكثر مما يحيط بمنظر السلاسل ؛ وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الاخير ، ولكنه أكثر منه راحة، وليس فيه ما يسليك ، اذ أنه ليس هناك سوى رجل واحد ، وعلىهذا الرجلوحده يقعمن الكوارث ما يعادل الكوارثالتىتقع على كل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مجتمعين ، غـــير أن

الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس ، وانما هو مركز ، كالخمر المركزة تكون أكثر لذة للشاربين

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهى تمر من تحت قبوة الباب الكبير، ثم خرجت الى عرض الشارع ، فأغلق خلفها باب سجن « بيستر » الثقيل . وكنت أحس فى ذهول بأنى محمول كأنسان فاقد الوعى ، لايستطيع أن يتحرك أو يصيح، ويشعر بأن أناسا يدفنونه ، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الخيل يصل الى سمعى فى غير وضوح ، تلك الاجراس التى كانت تجلجل بطريقة منتظمة فى رقاب جياد العربة وكأنها مصابة « بالزغطة » ، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطريق المرصوف ، أو تحتك بصندوق العربة وهى تتنقل من « مطب » الى « مطب » ، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التى تحيط بالعربة لحراستها، وقرقعة السوط الذى يحمله السائق ، كل ذلك كان يبدو لى كأنه دوامة تحملنى وتلفنى فى طياتها

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة فى العربة كانت مفتوحة امامى ، كانت عيناى مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة فى الجدار فوق الباب الرئيسى لسجن «بيستر» « ملجأ الشيخوخة » . وكنت أقول فى نفسى : عجبا ! يبدو أن هناك أناسا يشيخون هنا !

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم ، أخذت أقلب هذه الفكرة على كل جوانبها فى نفسى الخاملة من الالم، وفجأة، تغير

المنظر الذى كنت أراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة فى اللحظة التى انتقلت فيها العربة من الشارع العـــريض الى الطريق الرئيسى ، وأخذت أبراج كنيسة « نوتردام » تبدو لعينى باهتة زرقاء فى ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق ، فتغيرت كذلك وجهة نظرى على الفور . ذلك انى كنت قد اصبحت آلة مثل هذه العربة . وأعقبت فكرة سجن « بيستر » فكرة أبراج « نوتردام » ، فقلت فى نفسى وأنا أبتسم فى غباء : ان الذين يكونون فى أعلى البرج حيث يوجد العلم ســـوف يرون مرور العربة على صورة أوضح

وأظن ان القسيس قد استأنف حديثه معى فى تلك اللحظة بالذات ، فتركته يتكلم وانا أستمع اليه فى صبر ، اذ كان يطن فى أذنى هدير عجلات العربة ، مختلطا بوقع سنابك الخيــل ، وقرقعة السوط ، وكان هذا الصوت الاخير صوتا اضافيا

وجلست أنصت فى صمت الى وقع هذا الكـــلام الذى كان يطرق أذنى على وتيرة واحدة ، كأنه خرير ماء النافورة ، فقد كان كلامه يزيد خواطرى خمولا على خمول ، وتمر ألفاظه من أمامى متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشىء ، شأنها شـأن الاشجار المرصوصة على جانبى الطريق العريض ، عندما هزنى فجأة صوت « المحضر » الموجز المتقطع ــ وكان جالســا فى المقدمة ــ اذ جاءنى يقول فى لهجة تكاد تفيض مرحا : « حسنا يا سيدى القسيس ! ما هو الجديد الذى تعرفه ؟ »

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس ، فلم يرد

عليه هذا الاخير ، اذ كان يتحدث الى دون انقطاع ، وكان صوت العربة يصم أذنيه عن السماع • فاستطرد « المحضر » قائلا وهو يرفع عقيرته فى هذه المرة ، كى يعلو صوته على هدير العجلات : « حقا انها عربة جهنمية ! » وسكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول : « انها « المطبات » دون شك ، هى التى تجعل أحدنا لا يسمع الآخر . ماذا كنت اريد أن أقول ؟ آه ! نعم ، قل لى ياسيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد فى باريس اليوم ؟ »

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عنى ، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه أخيرا :

ــ كلا ، لم اجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح ، وسوف أرى ذلك فى المساء • اننى حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم ، أوصى البواب بأن يحتفظ لى بالصحف حتى اقراها عند عودتى فى المساء

ــ أوه ! من المستحيل أنك لا تعرف خبر باريس ! خبر هذا الصباح !

وهنا تدخلت فى الحديث قائلا :

ــ أحسب انى أعرف هذا الخبر

فنظر الى المحضر ثم قال :

ــ أنت ! احقا ؟ اذن فما هو رأيك ؟

فقلت له :

ــ انك محب للاستطلاع !

فأجابنى الرجل بقوله :

ـ لماذا ياسيدى ؟ ان لكل منا رأيه السياسى ، وانا أحترمك الى حد أنى أعتقد أن ليس لك رأى فى هذا الموضوع • اما انا فانى موافق تماما على اعادة تكوين الحـرس الوطنى . لقد كنت جاويش سريتى وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية . .

فقاطعته قائلا :

ـ كنت أظن انك لا تعنى هذا الخبر

ـ وأى خبر لديك اذن ؟ لقد كنت تقول انك تعرف الخبر

ـ كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك

ولم يفهم الغبى ، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ ، فقـال فى لهفة :

ـ خبر جديد ؟ وانى لك أن تعـرف هـذه الاخبار بحق الشيطان ؟ ما هو هذا الخبر الذى لديك اذن ياسيدى العزيز ؟ أتعرف هذا الخبر يا سيدى القسيس ؟ هل انت أكثر منى دراية بهذه الاخبار ؟ انبئونى بهذا الخبر من فضلكم . ما الذى حدث ؟ ألا تفهموننى ؟ انى أحب الاخبار لانى أقصها على السيد رئيس المحكمة فهذا يسليه كثيرا

وأخذ المحضر يهذى بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة والى تارة أخرى ، فكنت لا أرد عليه الا بهزة من كتفى ، فقال لى آخر الامر :

ـ حسنا ! فيم تفكر اذن ؟

ـ أفكر فى أنى لن أفكر بعد هذا المساء !

ـ آه ! أهو كذلك ؟ .. هيا ! انك حزين أكثر مما ينبغى ؛ لقد كان السيد كاستانج (١) يتحدث رغم محنته

وسكت الرجل لحظة ثم أضاف يقول : « لقد رافقت كذلك السيد « بابا فوان » (٢)، وكان يرتدى قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا. أما فتيان مدينة «لاروشيل» (٣) فقد كانوا لايتحدثون الا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على أية حال

وصمت المحضر لحظة أخرى ثم عاد يقـــول : انهم كانوا مجانين ! كانوا متحمسين للغاية ! وكان يبدو عليهم أنهــــم يحتقرون كل النـــاس . أما أنت أيها الشاب فانى أجـــدك مفكرا حقا

فقلت له :

ـ أنا شاب ؟. انى أكبرك فى السن ؟ ان كل ربع ساعة يمر يجعلنى أشيخ بمقدار سنة !

فالتفت « المحضر » نحوى ونظر الى فى دهشة تنطوى على الغباء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول :

ـ أوه ! عجبا ! أتريد أن تمزح ؟ انت أكبر منى سنا وقد أكون فى سن جدك !

---

(١) مذنب سبقت الاشارة اليه فى الفصل الثانى وهو مجنون رهيب أعدم لانه دس السم لصديق له كان يتولى علاجه

(٢) مجنون رهيب كان يقتل الاطفال بضربة من سكين فى رءوســهم ، ورد ذكره فى نفس الفصل

(٣) ضباط صف اربعة أحدهم يدعى «بوريس» وقد أشرنا اليهم

فأجبته قائلا فى جد ورزانة :

ـ انى لا أرغب فى المزاح

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول :

ـ خذ هذه ياسيدى العزيز ولا تغضب . خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لى فى نفسك بأية موجدة على

ـ لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت امامى للغضب عليك

وفى تلك اللحظة ، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التى كانت بينى وبينه فى عنف ، من جراء أحد « المطبــــات » فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمى الجندى فصاح « المحضر » قائلا :

ـ يا لهذه القضبان اللعينة !

ثم التفت الى وهو يقول : « حسنا ! الست شقيا ؟ هأنذا قد فقدت كل ما معى من طباق !

فاجبته قائلا وانا ابتسم ابتسامة شاحبة :

ـ انى أفقد اكثر مما تفقده أنت

وحاول الرجل أن يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بــين اسنانه :

ـ أكثر مما افقد ؟ هذا كلام يسهل قوله ! سوف أبقى بغير طباق حتى نبلغ باريس ! ان هذا لشىء رهيب !

وواساه الواعظ فى تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء . ولست ادرى ما اذا كنت مفكرا مهموما ، ولكن بدا لى أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعظ الذى كان قد وجه الى بدايته ، ورويدا رويدا سار الحديث بين القسيس و « المحضر » ، فتركتهمـــا

يتحدثان معا وانصرفت الى خواطرى

ولا شك فى انى كنت لا أزال مستغرقا فى التفكير حينمـــا اقتربنا تماما من أبواب باريس ، ولكن خيل الى أن ضوضــاء المدينة صارت أكثر من المألوف . وتوقفت العربة لحظة أمام « كشك » الجمارك حيث قام بتفتيشها موظفو جمرك البلدية ولو أن العربة كانت تحمل خروفا أو ثورا يساق الى المذبح لوجب أن تدفع من أجله مبلغا من المال ، غير أن الرأس البشرى لاتدفع عنه رسوم جمركية ، فمررنا

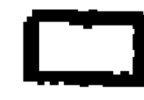
واجتزنا الضواحى ثم دخلت العربة مسرعة فى تلك الشوارع العتيقة المعقدة فى حى « سان مارسو » وحى « لاسيتى » التى تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق فى مدينـــة النمل ، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق « بلاطها » عاليا متتابعا الى حد أننى لم أعد أسمع أى شىء آخر . وكنت كلما القيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة ، بدا لى أن أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر الى العربة المنكودة وان شراذم من الصبية كانت تعدو وراءها ، كما بدا لى أنى كنت أرى هنا وهناك ، من حين لآخر ، عند مفارق الطرق رجلا أو امرأة عجوزا فى ثياب مهلهلة ـ وأحيانا كليهما معا ـ وهما يمسكان فى أيديهما برزمة من الورق المطبوع (١) كان المارة يتخطفونه ، ويفتحـــان فميهما

(١) سبقت الاشارة الى أن أحكام الاعدام وأوقات تنفيذها كانت تطبع على أوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصـــفه المؤلف فى موضع سابق بأنه « صلدى » ملطخ بالدم

كانهما يصيحان صياحا عاليا

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف فى بناء المحكمة لحظة وصولنا الى فناء سجن « لاكونسييرجورى » . ان منظر هذا السلم الكبير ، وتلك الكنيسة الصغيرة السوداء ونوافذ « زنزانات » السجناء الكئيبة قد ارسل فى بدنى برودة الثلج، وبدا لى فى اللحظة التى وقفت العربة فيها أخيرا أن ضربات قلبى على وشك أن تتوقف كذلك

واستجمعت أطراف قواى الواهنة حينما فتح باب العربة فى مثل وميض البرق ، وقفزت خارج هـذه الزنزانة المتحركة وتقدمت فى خطوات واسعة تحت قبوة السجن بين صفين من الجنود . آه ! ها هو ذا الجمهور قد تجمع سريعا فى طريقى



وكنت أشعر بأنى اكاد أكون حرا وعلى سجيتى طيلة اللحظات التىاجتزت فيها دهاليز دار القضاء ، ولكن عزمى قد تخلى عنى عندما فتحوا أمامى ابوابا منخفضة وممرات داخلية وسلالم سرية ، ودهاليز اخرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها الا الذين يصدرون الاحكام أو تصدر عليهم الاحكام

وكان « المحضر » فى رفقتى على الدوام ، أما القسيس فكان قد تركنى ليعود بعد ساعتين . ان الرجل كانت لديه مشاغله

وقادونى الى مكتب المدير حيث أسلمنى المحضر اليه « يدا بيد » . لقد كان هناك تبادل ، اذ رجاه المدير أن ينتظر

لحظة قائلا له أن لديه صيدا سيـــكون معدا للتسليـــم على الفوركى ينقله مباشرة الى سجن « بيستر » فى نفس العربة • فقلت لنفسى ان هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليـه الذى يجب أن ينام الليلة على حزمة القش التى لم يتسع الوقت امامى لأستهلكها

فقال « المحضر » للمدير : « حسنا ، سوف أنتظر لحظة ، وسنقوم بعمل المحضرين (١) معا ان كان هذا ييسر الامور

وفى انتظار ذلك ، وضعونى فى مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير ، حيث تركت وحدى وأوصدت الابواب على فى احكام

ولست أدرى فيم كنت أفـــكر ولا كم من الوقت مضى على هناك ، عندما طرقت أذنى ضحكة عنيفة مفاجئة أيقظتنى من حلمى • فرفعت عينى وأنا أرتجف ، فعرفت أنى لم أعد وحدى فى هذه الزنزانة ، اذ كان معى رجل فى نحو الخامسة والخمسين من عمره ، متوسط القامة ، محدودب الظهر ، أشيب الرأس بعض الشىء ، ووجهه حافل بالتجاعيد • وكانت أعضاء الرجل قوية عريضة ، أما عيناه فرماديتا اللون ، بهما حور بسيط ، وتعلو شفتيـــه ابتســـامة مرة • وكانت هيئتـــه تبعث على الاشمئزاز ، بقذارته وثيابه المهلهلة التى لا تكـــاد تســـتر الا نصف جسمه

ويبدو أن الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل الى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن أفطن الى ذلك •

---

(١)يعنى محضرى التسليم والتسلم

أه لو كان الموت يأتى هكذا !

وأمعن كل واحد منا النظر الى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد فى ضحكته التى كانت كحشرجة المحتضر ، وأنا نهب لمزيج من الدهشة والذعر

فقلت له أخيرا :

ـ من أنت ؟

فأجابنى الرجل قائلا :

ـ هذا سؤال عجيب .. أنا واحد منهم !

فأمدت عبارته متسائلا فى دهشة :

ـ واحد منهم ! ما معنى هذا الكلام ؟

ولاحظت أن هذا السؤال قد ضاعف مرحه

فصاح قائلا وهو يضحك فى قهقهة مدوية :

ـ معناه أن السكين ستلعب برأسى بعد ستة أسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات .. ها ! ها ! ها ! يبدو أنك قد فهمت الآن !

والواقع أنى شعرت فى تلك اللحظة بأن الدماء تغيض من وجهى وبأن شعرى يقف فى رأسى . لقد كان هذا الرجل هو خليفتى فى سجن « بيستر » الذى كانوا ينتظرونه هناك ! كان هو الرجل الذى صدر عليه اليوم حكم بالاعدام

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال :

ـ ماذا تريد ؟ هذه هى قصتى ، قصتى أنا ، أننى ابن الرجل

بائس أتعب « شـارلو » (١) نفسه ذات يوم للاسف في ربط الحبل حول عنقه ، وكان ذلك في عهد المشنقة والحمد لله ، فلم أكد أبلغ السادسة من عمرى حتى وجدت نفسى بلا أب ولا ام. وكنت في الصيف أتمرغ فى التراب على قارعـة الطريق كى يلقى الى بعضهم «صالديا» من خلال أبواب العربات . أما فى الشتاء فكنت أسير حافى القدمين في الوحل وأنا أنفخ فى يدى المحمرتين من شدة البرد ، وكانت فخذاى تطلان من خـلال سروالى .

وبدأت أستعمل يدى فى سن التاسعة ، فكنت من حين لآخر انشل جيبا أو أسرق معطفا . وفى سن العاشرة كنت « نشالا » ، وما ان بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصـا ، فكنت أحطم اقفال الحوانيت وأستعمل مفاتيح مقلدة . ثم قبض على بعد أن بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلونى الى الاشغال الشاقة للتجديف على ظهر السفن . ان الليمان شيء شاق ، فالمرء ينام فيه على لوح من خشب ، ويشرب ماء صرفا ، ويأكل خبزا أسود ،ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدةمنها، ويتلقى ما تيسر من ضربات العصى وضربات الشمس . والى جانب هذا فانهم يقصون له شعره ، وأنا الذى كان لى شعر كستنائى جميل ! وعلى كل حال ، فهذا لايهم !

وقضيت مدة العقوبة : خمسة عشر عاما انتزعت من عمرى

---

(١) لفظة من اللفظات المستعملة فى لغة السجون ويقصد بها الجلاد ( كما يقال عندنا« عشماوى »)

انتزاعا ! وكنت فى الثانية والثلاثين عندما أعطونى ذات صباح أمرا بالافراج عنى من الليمان ، مع سبعين فرنكا جمعتها لنفسى خلال خمسة عشر عاما من الاشغال الشاقة ، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة فى اليوم ، وثلاثين يوما فى الشهر ، واثنى عشر شهرا فى السنة . وكان هذا سواء لدى ، فقد كنت أريد بهذه السبعين فرنكا أن أصبح رجلا شريفا ، وكنت انطوى تحت أسمالى البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها تحت ملابس قسيس ، ولكن .. فلتبارك الشياطين فى صحيفة السوابق ! لقد كانت وثيقة الافراج عبارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها : « .. أفرج عنه من الليمان » ، وكان لزاما على أن أبرز هذه الورقة حيثما ذهبت ، وأن أقدمها كل ثمانية أيام الى عمدة القرية التى كانوا يرغموننى على الاقامة فيها . يالها من تزكية جميلة (١) ! لقد كان الناس يخافون منى ، وكان الصبيان يفرون عندما يروننى ، وكانت الابواب توصد فى وجهى اذا مررت ! ولم يشأ أحد أن يعطينى عملا ، فأنفقت السبعين فرنكا على طعامى ، ثم كان على أن أعيش ، فأبديت ساعدى المفتولين هنا وهناك ، ساعدى اللذين يصلحان تماما للعمل ، ومع ذلك فقد اقفلت فى وجهى كل الابواب . وعرضت أن أعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما ، ثم بعشرة مليمات ،

---

(١) يقصد التزكية المسجلة فى وثيقة الافراج عنه اذ جاء بها : « أفرج عنه من الليمان حيث كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب ... » .

وأخيرا بخمسة ! ولكن دون جدوى ، فماذا أفعل ؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد ، فكسرت بمرفقي زجاجا في واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا ، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبى ، فلم أتمكن من أكل الرغيف ، وحكم على بالاشغال الشاقة مدى الحياة فى التجديف على المراكب ، وختموا كتفى بثلاثة أحرف من نار ، وسوف أريك هذا ان اردت • انهم يسمون هذا النوع من العدالة : « عائدا الى الاجرام ! »

هأنذا قد عدت الى الليمان ، وقد ألقوا بى فى هذه المرة فى ليمان « طولون » ، ووضعونى مع المجرمين العائدين الى الاجرام • وكان لزاما على أن أهرب ، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامى الا أن أنقب ثلاثة جدران ، وأن أقطع سلسلتين ، وكان معى مسمار فى هذه المرة

واستطعت أن أهرب ذات يوم فأطلقت مدافع الانذار • ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما ، ملابسنا حمراء ، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل • لقد اطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة • وكنت فى هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء ، ولكن لم تكن لدى نقود كذلك

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن ، فعرض على رئيسهم أن أكون واحدا منهم ، وكانوا قطاع طرق يغتالون الناس • فوافقت وأخذت أقتل لاعيش ، وكنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب أو البريد ، واخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده ، أو ثالثة نهاجم تاجر ثيران يمتطى جوادا ،

فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق، أما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة ، ونحرص على ألا تبرزقدماه، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التى دفناه فيها ، حتى لاتبدو الارض كأنها نبشت حديثا

وهكذا شخت وانا مختبىء فى الاحراش ، أنام وأنا ألتحف السماء وأطارد من غابة الى غابة ، غير أنى كنت حرا وملكا لنفسى على الاقل • إن لكل شىء نهاية ، وهى نهاية لاتختلف عن سواها

واطبق علينا البوليس ذات ليلة ، فهرب زملائى ، ولكننى وقعت ـ وأنا أكبرهم سنا ـ فى مخالب هذه القطط التى ترتدى قبعات موشاة بالاشرطة ، فساقونى الى هنا !

وكنت قد تدرجت فى كل درجات السجون عدا هذه الدرجة، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا ، فان الامر يستوى من الآن فصاعدا بالنسبة الى ، فقد كانت هناك العودة الثالثة الى الاجرام ، التى طبقت عقوبتها على فى هذه المرة ، ولم يعد أمامى الا أن أمر بالمقصلة !

لم تستغرق قضيتى وقتا طويلا ، اذ أنى بدأت أشيخ حقا ولم أعد اصلح لاى شىء ! ان والدى قد مات شنقا وأنا سوف أموت بالمقصلة . تلك هى قصتى أيها الزميل ! »

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وأنا أصغى اليه ، ثم عاد الرجل الى الضحك بصوت أعلى مما كان يفعل فى البداية ، وهم بأن يصافحنى فتراجعت مذعورا الى الوراء !

فقال الرجل عندئذ :

ـ يبدو عليك انك شجاع أيها الصديق ، فلا تكن جبانا أمام الموت . أتفهمني ؟ انها لحظة سيئة ستقضيها فى ساحة الاعدام ، ولكنها ستنتهى بسرعة ! لشد ما أريد أن اكون هناك لاريك كيف يسقط الجسد ! لست أرغب بحق السماء فى استئناف الحكم ان أرادوا أن يعدمونى معك اليوم . ان نفس القسيس سيتولى أمرنا معا ، ولا يهمنى أن احصل على مخلفاتك . هأنتذا ترى اننى ولد طيب ، أليس كذلك ؟ قل لى اذن ، ألا ترغب فى صداقتى ؟

وخطا الى الامام خطوة ليقترب منى ، فقلت له وانا أدفعه بعيدا :

ـ شكرا لك ياسيدى

وما أن سمع الرجل اجابتى هذه ، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال :

ـ سيدى .. آه ! آه ! أنك ماركيز ! انك لماركيز !

فقاطعته قائلا :

ـ ياصديقى ! انى بحاجة الى أن اخلو الى نفسى ، فدعنى وشأنى

ودفعته جدية كلامى الى التفكير فجأة ، فهز رأسه الرمادى الذى يكاد يكون اصلع ، ثم حك بأظافره فى صدره ذى الشعر الكث الذى كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين أسنانه :

ـ لقد فهمت . انك تفكر فى القسيس !

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول ، وقد شاعت فى نبرات صوته رنة خجل :

ـ أنت ماركيز وهذا حسن جدا ، ولكن لديك هنـــا « ردنجوتا » جميلا لن ينفعك فى شيء ! وسوف يأخذه السجن منك ، فأعطنى اياه فسوف أبيعه لاحصل على طباق

فخلعت « الردنجوت » الذى كنت أرتديه ، وأعطيته اياه ، فأخذ يصفق بيديه فى مرح ، كأنه طفل صغير ، ولكنه حين رأى أننى كنت أرتعـــد فى قميصى قال لى : « انك ترتجف ياسيدى من البرد ، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل ، ثم انه يلزمك أن تكون أكثر وقارا وأنت فوق العربة »

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادى ، ثم وضعها على كتفى وأدخل ذراعى فى كميها ، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة

وذهبت عندئذ لاتكيء على الجدار ، ولن أستطيع أن أصور الاثر الذى تركه هذا الرجل فى نفسى ، وكان قد أخذ يفحص « الردنجوت » الذى أعطيته اياه ، وتصدر عنه من لحظة الى أخرى صيحات تدل على السرور ، ثم أضاف يقول : « ان جيوبه جديدة تماما ! والياقة ليست بالية ! سوف أحصل فى مقابله على خمســـة عشر فرنكا على الاقل .. يا للسعادة ! سيكون لدى طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لى على قيد الحياة ! »

وفتح الباب مرة أخرى . لقد جاءوا لاخذنا نحن الاثنين :أنا الى الغرفة التى ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة التنفيذ ، وهو الى سجن « بيستر » . ووقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم أن يرافقوه ، وهو يقول لهم : « آه ! يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا ، فقد تبادلنا ملابسنا أنا وهذا السيد . لا تأخذونى بدلا منه ، ياللشيطان ! ان هذا لم يعد يروق لى الآن وقد أصبح معى ما أستطيع به أن أحصل على الطباق ! »



لقد اخذ منى هذا اللص العجوز « الردنجوت » لاننى لم أهبه اليه فى الحقيقة ، ثم أنه ترك لى سترته الكئيبة ، هذه الخرقة البالية ، فكيف ستكون هيئتى اذن ؟

اننى لم أتركه يأخذ منى « الردنجوت » عن عدم اكتراث أو بداعى العطف عليه ، كلا ، ولكن لانه كان أكثر منى قوة ، ولو أنى رفضت ماطلب لضربنى بقبضة يده الضخمة

آه ! حسنا ! نعم ، انه الاحسان ! لقد كنت ساعتها أفيض بالمشاعر السيئة ، وكنت أتوق لان اخنق هذا اللص العجوز بيدى ، أو أن أسحقه سحقا تحت قدمى !

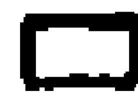
انى لاشعر بقلبى يطفح بالغضب والمرارة ، وأحسب أن مرارتى قد انفجرت ! حقا ان الموت يجعل الانسان شريرا غليظ القلب

وقادونى الى زنزانة ليس فيها الا جدران أربعة ، بنافذتها قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير من المزاليج والاقفال

وهذا أمر طبيعى

فطلبت منضدة ومقعــدا وأدوات للكتابة ، فأحضروا لى ماطلبت . ثم طلبت فراشا فحدجنى السجان بنظرة تطل منها الدهشـة وكأنه يقول : « وماجدوى ذلك ؟ »

ومع ذلك ، فقد نصبوا لى سريرا حقيرا فى ركن الزنزانة ، ولكن جاء فى نفس الوقت حارس ليجلس معى فيمــا كانوا يسمونه « غرفتى » ! ترى هــل يخــافون أن أخنق نفسى بالفراش ؟



الساعة الآن العاشرة

آه يا ابنتي المسكين ! سوف أموت بعد ست ساعات! وسوف أكون شيئا قذرا يلقى به على مناضد مدرجات كلية الطب ! وسوف يشرح الرأس فى جهة والجذع فى جهة أخرى ، ثم يلقى بما تبقى منى فى صندوق بمقبرة « كلامار »

هذا هو يا ابنتى ما ســـــيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين لايكرهنى أحد منهم ، والذين يرثون لحالى جميعــا ، والذين يستطيعون جميعا انقاذى . انهم سيقتلوننى فى الحال ، فهل تفهمين هذا يا « مارى » ؟ سيقتلوننى بكل برود ، وفى حفل رسمى لمصلحة المجتمع ! آه ! يا الهى العظيم !

مسكين أنت ياصغيرتى ! ان والدك الذى كان يحبك حبا لا مزيد عليه ، والدك الذى كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة ، ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريرى ، والذى كان

يأخذ وجهك الجميل المستدير فى يده ، وكان يطيب له أن تقفزى على ركبتيه ، والذى كان يجملك فى المســاء تضمين يديك لتصلى لله !

من ذا الذى سيفعل لك كل هذا يا «مارى» بعد الآن ؟ من ذا الذى سيحبك ؟ ان كافة الاطفال فى سنك سيكون لهم آباء الا أنت يا مارى . كيف تفقدين يا ابنتى عيد رأس السنة ، والهدايا واللعب الجميلة ، والحلوى والقبلات ؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الاكل والشرب ؟

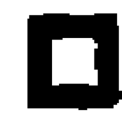
آه لو كان هؤلاء المحلفون قد رأوها على الاقــل ، ابنتى « مارى » هذه الصغيرة الجميلة ! اذن لفهموا أنه يجب الا يقتل أب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام !

وعندما تكبر ابنتى ، اذا قدر لها أن تكبر ، فماذا عسى أن يكون مصيرها ؟ ان أباها سيصبح ذكرى من ذكريات أهل باريس ! لسوف تحمر خجلا منى ومن اسمى ! انها ستكون محتقرة ، ينأى عنها الناس بجنوبهم ، وحقيرة وضيعة بسببى أنا ، أنا الذى احبها بكل مافى قلبى من حنان . آه يا « مارى » ياطفلتى الصغيرة المحبوبة ! أحقا انك ستخجلين منى وتشعرين نحوى بالاشمئزاز ؟

أنا . . يالى من بائس ! ويا للجريمة التى اقترفتها، وياللجريمة التى أتسبب فى أن يقترفها المجتمع !

آه ! أصحيح حقا اننى سأموت قبل نهاية هذا اليوم ؟ أحقا أننى أنا هذا الرجل ؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح

الذى اسمعه فى الخارج ، وهذا السيل المرح من الجماهير التى تسرع على أرصفة نهر « السين » ، وهؤلاء الجنـود الذين يستعدون فى ثكناتهم ، وهذا القسيس بثيابه السوداء ، وهذا الرجل الآخر ذو اليدين الحمراوين ، هؤلاء جميعا هل هم من أجلى ؟ من أجلى أنا الذى سأموت ! أنا نفسى الذى استقر هنا حيا واتحرك وأتنفس ، واجلس امام هذه المنضدة التى تشبه اية منضدة اخرى ، ويمكن أن تكون كذلك فى أى مكان آخر ! أنا كذلك ، هذا الشخص الذى المسه واشعر به ، والذى ثيابه هذه طياتها !؟



آه لو كنت أعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف صنع هذا المقعد ، وبأية طريقة يموت المرء بهما ! لكن هذا شىء رهيب ، انى لا أعرفه . ان اسم هذا الشىء يثير الرعب فى النفوس ولست أفهم على الاطلاق كيف استطعت أن أكتب هذه الكلمة وان انطق بها

ان تجمع الحروف التى تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة ، وان الطبيب المنحوس الذى اخترع هذا الشىء كان اسمه مسطورا فى لوحة القدر ! انها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التى ترتبط عندى مع هذه الكلمة المشئومة ، وكل حرف من حروفها يبدو لى . كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التى اظل اهدم وأبنى أجزاءها الجهنمية فى نفسى دون انقطاع

انني لا أجرؤ على السؤال عنها ، غير أن من المرعب ألا أعرف ماهى ، ولاكيف أتصرف وأنا واقف عليها ، ويبدو لى أن بها مايشبه الارجوحة ، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه. آه ! ان شعرى سوف يبيض لامحالة قبل أن يسقط رأسى !

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة

كنت ذات يوم أمر فى عربة الى جوار ساحة الاعدام ، وكان ذلك فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا . وفجأة توقفت العربة عن المسير

وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة ، وأخرجت رأسى من نافذة العربة فرأيت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على أرصفة نهر « السين » ، وكان الرجال والنساء والاطفال يقفون فوق سور النهر الحجرى ، ومن فوق الرءوس كان فى وسع المرء أن يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال ..

كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم فى نفس اليوم الذى كانوا يعدون فيه الآلة

واشحت بوجهى قبل أن أرى ، وفى تلك اللحظة سمعت امرأة كانت تقف الى جوار العربة تقول لصبى : « عجبا ! انظر ! ان السكين لا تجيد القطع وسوف « يشحمون » المجرى حالا بقطعة من الشمع »

ومن المحتمل اليوم أنهم يفعلون ذلك الآن ، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة ، ولاشك فى أنهم « يشحمون »

المجرى الآن

آه ! فى هذه المرة أيها التعس لن تستطيع أن تشسيح بوجهك !

آه ! العفو العفو !

قد يصدر عنى العفو ، فالملك ليس غاضبا على . فليذهبوا اذن لاحضار محام . الى بالمحامى ، وبسرعة ! انى أقبل الاشغال الشاقة عن طيب خاطر ، والتجديف على السفن ، أقبل الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة ، بل مدى الحياة ، واقبل معها كى كتفى بالحديد الاحمر المحمى فى النار كما يشاءون .. ولكن ، ليعتقوا رقبتى فحسب !

ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يزال يمشى ، ويروح ويغدو . انه يرى الشمس !



# هذا القسيس

وجاء القسيس الواعظ

كان ابيض الشعر ، لطيف الشكل للغاية ، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام . كان فى الواقع رجلا ممتازا كريما ، فقد رايته فى هذا الصباح يفرغ ما فى جيبه فى ايدى السجناء ، فلماذا لايوجد فى صوته مايؤثر أو يدل على التأثر ؟ كيف يتفق أنه لم يقل لى بعد شيئا يؤثر فى تفكيرى أو يمس قلبى ؟

لقد كنت تائها فى هذا الصباح حتى أننى لم أكد أسمع ماقاله لى ، ومع ذلك فقد بدت لى كلماته عديمة النفع ، وبقيت غير متأثر بها . انها كانت تنزلق من فمه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج

ومع ذلك فقد أراحنى مرأى الرجل بمجرد أن عاد الى جوارى ، فهو الذى لايزال بالنسبة الى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال . لقد قلت هذا فى نفسى وقد شعرت بظمأ شديد الى سماع أية كلمة طيبة مواسية

وكنا جالسين ، هو على المقعد ، وانا على السرير ، فقال لى :

— يابنى ..

وأحسست فى تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبى

المغلق ، واستمر القسيس فى حديثه قائلا : « أتؤمن بالله يا بنى ؟ »

ـ نعم يا أبى

ـ وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية ؟

ـ نعم فى كثير من السرور

وهنا استطرد الرجل يقول :

ـ يبدو عليك أنك متشكك يابنى

ثم أخذ يتكلم فأطال الحديث ، وقال كلاما كثيرا . ولما ظن أخيرا أنه قد انتهى من حديثه ، نهض ونظر الى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألنى قائلا :

ـ حسنا.؟

فأكدت له أنى قد استمعت اليه ، فى شغف أولا ، ثم فى انتباه ثانيا ، ثم فى اخلاص ثالثا

ثم نهضت بدورى وأنا أجيبه قائلا :

ـ سيدى .. أرجوك أن تدعنى وحدى

ـ ومتى أعود ؟

ـ سوف أخبرك فى الوقت المناسب

فخرج الرجل عندئذ دون أن يبدو عليه أى أثر للغضب ، غير أنه كان يهز رأسه كما لو كان يقول فى نفسه : « انه غير مؤمن ! »

كلا .. فمهما انحدرت الى أسفل الدرك فأنا لست كذلك ، والله شهيد على أنى أؤمن به . ولكن ماذا قال لى هذا الشيخ ؟ انه لم يقل شيئا أحس به ، أو ألمس حنانه على أو يبكينى .

انه لم ينتزع من روحى شيئا ولم يخرج من قلبه شيء يصل الى قلبى ، شيء يصدر من القلب الى القلب ، بل على العكس ، لقد حدثنى عن اشياء اراها غامضة سطحية من الممكن ان تنطبق على كل شيء وعلى كل انسان ، عن أشياء هى أدنى الى البلاغة منها الى التعمق ، وسطحية فى حين أن الحاجة كانت ماسة الى البساطة . كان حديثه ضربا من الوعظ الوجدانى والتمجيد الدينى ، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية ، أو نص للقديس « أوجستان » أو للقديس « جريجوار » لست أدرى أيهما ! ثم انه كان يبدو عليه أنه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة ، أو أنه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به ، فلا تعبير فى نظرة عينيه ، ولا حرارة فى نبرات صوته ، ولا حركة معبرة من يديه

وكيف يمكن أن يكون الامر على خلاف ذلك ؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمى للسجن ؟ ان عمله ينحصر فى أن يواسى ويعظ ، وهو يعيش من عمله هذا . ان السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ومرضى السجن ، هم الذين يتبعونه ، وهو الذى يجعلهم يعترفون ، وهو الذى يساعدهم ، لأن هذه هى وظيفته التى يؤديها . لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الآخرين الى الموت وألف منذ زمن بعيد ماتقشعر له الابدان ان شعره الابيض لم يعد يقف فوق رأسه ، فاليمان والمشنقة شيئان يراهما فى كل يوم حتى أصبح لا يتأثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم

بالاشغال الشاقة ، وأخرى للمحكوم عليهم بالاعدام . انهم يخطرونه فى الليلة السابقة بأنه سيكون لديه شخص ليواسيه فى وقت كذا ، فيسألهم من أى نوع هو : أالشغال شاقة ام « اعدام » ؟ .. ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه ، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون الى ليمان « طولون » وأولئك الذين يذهبون الى ساحة الاعدام ، يصبحون جميعا لديه أفكارا مطروقة ، كما يصبح هو عندهم فكرة مطروقة كذلك

آه ! فليذهبوا اذن وليحضروا لى بدلا من ذلك واعظا شابا أو قسيسا شيخا كيفما اتفق من أول « أبرشية » تصادفهم ، ولينتزعوه من جلسته وهو الى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له : « هناك رجل سيموت حالا ، ويجب أن تكون أنت من تواسيه ، يجب أن تكون الى جانبه حين يوثقون يديه ، وحين يقصون شعره وأن تركب معه فى العربة ومعك صليبك كى تحجب عنه منظر الجلاد ، وأن تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام ، وأن تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء ، وأن تقبله وهو يرقى آلى المقصلة ، وأن تظل واقفا هناك حتى يفصل رأسه عن جسده ، ويصبح رأسه هنا وجسمه هناك

فليحضروا آلى اذن هذا القسيس وهو يرتجف ، وجسده بأسره يرتعد من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، وليلقوا بى بين ذراعيه وعلى ركبتيه . لسوف يبكى عندئذ ولسوف أبكى

معه ، سوف يكون فصيحا بليغا ، فأشعر بالمؤاساة وأسكب ماقى قلبى فى قلبه ، وسوف يملك على زمام نفسى وتنتقل الى قوة ايمانه

ولكن .. من هو هذا الشيخ الطيب ، أين هو منى وأين أنا منه ؟ اننى انسان شقى ، وظل من الظلال التى طالما رأى كثيرا منها ، وواحد آخر يضيفه الى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام !!

وقد أكون مخطئا بابعاده عنى على هذا النحو ، فهو الرجل الصالح وانا الرجل الطالح ، ولكن الذنب ليس ذنبى للأسف ! وانما مرد ذلك لآرائى كانسان محكوم عليه بالموت ، فالآراء كثيرا ما تفسد كل شيء وتجعله يذبل !

لقد احضروا الى طعاما منذ لحظة . لقد حسبوا اننى لابد أن اكون فى حاجة اليه . هاهى ذى مائدة رقيقة شهية ، عليها دجاجة فيما يبدو ، وألوان أخرى كذلك .. حسنا ! لقد حاولت أن آكل ، ولكن الطعام سقط من فمى عند أول لقمة تناولتها ، وقد بدا لى كريها مر المذاق !

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق رأسه (١) ، فألقى على نظرة عابرة ، ثم نصب سلما من الخشب وأخذ يقيس أحجار الجدار من أسفل الى أعلى ، وهو يتكلم بصوت مرتفع للغاية ،

---

(١) تقضى التقاليد الغربية بان يرفع المرء القبعة عن رأسه عندما يدخل على قوم أو يحيى شخصا ما

ليقول تارة : « انه لكذلك » وليصيح تارة أخرى : « كلا ، ليس كذلك »

وسألت الحارس عمن يكون هذا الرجل ، فقال لى انه يبدو أنه يعمل كمساعد مهندس فى السجن

ومن ناحية أخرى ، فقد ثار حب الاستطلاع فى نفس هذا الموظف من ناحيتى ، فقد تبادل كلمات ، كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذى كان فى رفقته ، ثم انعم النظر فى لحظة، وهو يهز رأسه فى غير مبالاة ، واستأنف حديثه وهو يتابع قياس أبعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التى كان يتكلم بها من قبل

وما ان فرغ الرجل من عمله حتى اقترب منى وهو يقول فى صوت جهورى : « ياصديقى العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة أشهر أفضل من هذا بكثير »

وكانت الحركة التى أتى بها وهو يقول ذلك كأنها تقول : « ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين ! »

كان الرجل يبتسم تقريبا ، فخيل الى وقتئذ أننى كنت أرى اللحظة التى كان يوشك فيها أن يسخر منى برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة فى ليلة الزفاف

وقد تكفل الجندى الذى كان فى حراستى بالرد عليه ، وكان حارسا عجوزا قد ابيض شعر رأسه وهو فى حراسة السجناء ، فقال له : « سيدى لا يرفع المرء صوته هكذا فى حجرة ميت ! »

ورحل المهندس ، أما أنا فبقيت هناك كحجر من الاحجار

التى كان يقيس ابعادها !

وحدث لى بعد ذلك شيء يبعث على السخر ة ، فقد جاءوا ليغيروا حارسى العجوز ، وأنا أنانى وغير معترف بالجميل ، فلم أصافحه حتى بلمسة يد ، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين ، تشبه عيناه أعين البقر ووجهه جامد لاتعبير فيه

ولم أكن من ناحيتى قد أعرت ذلك أى انتباه ، فقد كنت جالسا الى المنضدة وظهرى الى الباب ، وأنا أحاول أن ارطب بيدى جبينى الملتهب ، وكانت خواطرى تثور فى نفسى

وأحسست فجأة بضربة خفيفة على كتفى أدرت لها رأسى . كان هذا جندى الحراسة الجديد الذى كنت معه وحدى

وهذه ـ تقريبا ـ هى الطريقة التى وجه بها الحديث الى !

قال لى الرجل :

ـ هل أنت طيب القلب أيها المجرم ؟

ـ كلا !

وبدا لى أن سرعة اجابتى قد صدمته ، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا فى تردد :

ـ ان المرء لايكون مؤذيا لمجرد الرغبة فى الايذاء

ـ ولم لا ؟ اذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركنى وشأنى . ما الذى ترمى اليه ؟

ـ عفوا أيها المجرم ، لدى كلمتان ، كلمتان فحسب ، أريد أن أقولهما لك : اذا كنت تستطيع أن تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل ؟

فأجبته قائلا وأنا اهز كتفى :

ــ هل أنت قادم ياهذا من مستشفى المجانين ؟ انك تختار اناء غريبا لتستخرج منه السعادة ! أنا ؟ . . أنا أسعد شخصا ؟

فخفض الجندى من صوته وبدا عليه كأنه يخفى فى نفسه سرا ــ وان كان ذلك لا يتفق مع وجهه الذى ينطق بالغباء ــ وهو يقول لى :

ــ نعم أيها المجرم .. نعم ، السعادة ، والثروة ! ان هذا كله سوف يأتينى منك . هذا هو مافى الامر . انا جندى مسكين ، والخدمة ثقيلة ، وأجــرى ضئيل ، ولى جواد يخربنى ! غير أننى أقامر فى أوراق « اليانصيب » كى أوازن حياتى . ان المرء تلزمه صناعة ، ولا ينقصنى حتى الآن كى أربح فى « اليانصيب » ، الا أن أحصل على الارقام الجيدة ، وانا دائب البحث عنها فى كل مكان . انى ابحث عن أرقام مضمونة ولكنى أقع دائما على أرقام تجاورها ، أقامر على الرقم ٧٦ مثلا فيكسب الرقم ٧٧ ، ومهما اصطنعت من فراسة فانى لااهتدى الى الرقم الرابح .. اصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء ــ ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة الى ، اذ يبدو لى ــ عفوا أيها المجرم ــ أنك ستعدم اليوم ، ومن المؤكد أن الاموات الذين تزهق أرواحهم على هذا النحو يرون أرقام «اليانصيب» الرابحة مقدما . عدنى أن تعود مساء غد ــ ولن يضيرك هذا فى شىء ــ لتعطينى ثلاثة أرقام ، ثلاثة أرقام رابحة أليس كذلك؟ انى لا أخاف الاشباح فكن مطمئنا ، واليك عنوانى : « ثكنات

بوبانكور ، سلم رقم ١ ، عنبر رقم ٢٦ فى نهـاية الدهليز »
وسوف تتعرف على فى غير عناء أليس كذلك ؟ ويمكنك أن تحضر حتى فى هذا المساء ان كان هذا يروق لك

وكنت شديد الرغبة فىاحتقار هذا الاحمق بعدم الرد عليه، لولا أن ثار فى نفسى أمل جنونى ، ففى مثل الحالة اليائسة التى كنت فيها ، يعتقد المرء أحيانا أن فى وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بشعرة

فقلت له وانا أمثل بقدر مايستطيع أن يمثل انسان يوشك أن يموت :

ـ اصغ الى .. اننى أستطيع حقا أن اجعلك اغنى من الملك، أن أجعلك تربح الملايين ، ولكن بشرط

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول :

ـ ماهو ؟ ماهو ؟ سوف أفعل كل شيء لارضائك ايهـا المجرم !

ـ أعدك بأربعة أرقام لا بثلاثة . استبدل ملابسك بملابسى

فصاح الحارس وهو يفك الازرار الاولى فى زيه العسكرى :

ـ لو كان الامر مقصورا على ذلك !

وكنت قد نهضت من مقعدى وأنا أرقب كل حركة من حركاته وقلبى ينتفض فى صدرى ، وكنت أتخيل الابواب وهى تفتح أمام زيى كحارس من حراس السجن ، وأتخيل الميـدان ، والشارع ، ثم دار القضاء من وراء ظهرى !

ولكن الرجل التفت الى وهو يقول فى تردد : « آه يا هذا !

لاشك فى انك لا تقصد بهذا طبعا الا أن تخرج من هنا ؟

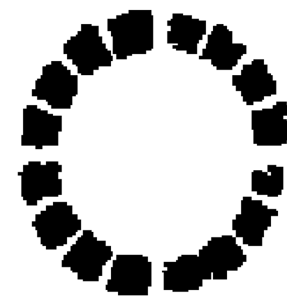
فأدركت عندئذ أن كل شىء قد ضاع ، وبذلت مع ذلك جهدا اخيرا لا طائل تحته ، جهـــدا غير منطقى على الاطـلاق ! فقلت له :

ـ اننى اقصد هذا حقا ، ولكن ثراءك مضمون . . .

فقاطعنى الجندى قائلا :

ـ آه ! حسنا ! كلا ، كلا . . عجبا ! فلكى تربح أرقامى يجب أن تكون انت ميتا !

فجلست ثانية فى صمت وقد تملكنى يأس لم اشعر بمثله قط من قبل !



# أيام صباى

أغمضت عينى ، ووضعت يدى فوقهما ، محاولا أن انسى الحاضر فى الماضى ، وبينما أنا أحلم ، عادت الى ذكريات طفولتى وشبابى ، واحدة اثر أخرى ، عادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الافكار السوداء الغامضة التى كانت تغلى فى رأسى

هأنذا أرى نفسى مرة أخرى طفلا وتلميذا ضاحكا نضرا ، ألعب وأجرى وأصيح مع اخوتى فى هذا الممر الكبير الاخضر بتلك الحديقة غير المنسقة ، حيث انقضت سنوات حياتى الاولى ، والتى كانت فى الاصل حديقة للراهبات ، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضخمة ، قبة كنيسة « لوفال دوجراس »

وهأنذا هناك أيضا بعد ذلك بأربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام . وكانت هناك فتاة شابة فى الحديقة المنعزلة . كانت أسبانية صغيرة تدعى «بيبا» (١) ذات عينين كبيرتين ، وشعر أسود طويل ، وبشرة سمراء ذهبية ، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين . وكانت هذه الاندلسية الجميلة لا تتجاوز الاربعة عشر ربيعا

---

(١) Pepa (اسم التدليل) ، واسمها الاصلى كماورد فى نفس الصفحة Pepita

وكانت أمانا قد قالتـــا لنا أن نذهب لنجرى معا : فجئنا للتنزه . لقد قيل لنا أن نلعب وهانحن أولاء نتبادل الحديث ، ونحن من سن واحدة ، ولكننا لسنا من جنس واحد (١)

ومع ذلك فقد كنا ، منذ عام واحد مضى فحسب ، نلعب ونتصارع معا ، وكنت أتشاجر مع « بيبا » على أجمل تفاحة فى شجرة التفاح ، وكنت أضربها من أجل عش العصافير . انها كانت تبكى فكنت أقول لها : « حسنا فعلت ! » وكنا نذهب لنشكو معا الى أمينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع اننا كنا مخطئين ، ثم تقولان فى صوت خفيض انا كنا على حق

هاهى ذى الآن تتكىء على ذراعى وقد غمرنى الفخر وتملكنى الانفعال. اننا نسير الهوينى ، ونتحدث بصوت خافت . هاهى ذى تترك منديلها يسقط فألتقطه لها . ان أيدينا ترتعش عندما تتلامس . وهى تتحدث الى عن الطيور الصغيرة ، وعن النجم الذى نراه هناك ، وعن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر ، أو عن صديقاتها فى مدرسة الراهبات ، أو عن ثوبها وشرائطها الحريرية . اننا كنا نتكلم فى أمور بريئة ولكننا كنا نحمر منها خجلا .. ان الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة

وفى ذاك المساء بالذات ــ وكان مساء ليلة من ليالى الصيف ــ كنا جالسين تحت أشجار الكستناء فى نهاية الحديقة ، وبعد احدى فترات الصمت الطويلة التى كانت تتخلل نزهاتنا ، قالت لى « بيبا » : « هيا بنا نجر ! » .

---

(١) المقصود هنا أنه ذكر وأنها أنثى

انني لازلت أراها وهي ترتدى ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها . لقد مرت بخاطـرها حينئذ فكرة من أفكار الطفولة ثم عادت « بيبا » لتصبح « ببيتا » مـرة ثانيـــة

وقالت لى : « هيا بنا نستبق ! »

وأخذت تعدو امامى بقامتها الرشيقة ، وخصرها الدقيق ، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبهـا الى منتصف ساقيها . وكنت أتبعها وهي تهرب أمامى ، وكان الهواء الذى يحدثه عدوها يرفع أحيانا قميصها الاسود فيتيح لى أن ارى ظهرها الاسمر النضر

وكنت لا أستطيع مغالبة نفسي ، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة ، وأمسكت بها من حزامها بحق انتصارى عليها فى السباق ، ثم أجلستها على العشب فلم تقاومنى ، وامتثلت وهي تلهث وتضحك ، بينما كنت جادا لا اكف عن النظر الى عينيها الحالمتين من خلال أهدابها الطويلة السوداء

وقالت لى « بيبا » : « اجلس هنا ! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرأ شيئا ، أليس معك كتاب ؟ »

وكان معى يومئــذ الجزء الثانى من كتـــاب « رحـلات سبالازانى » ، ففتحته فى صفحة ما واقتربت منهـا فأسندت كتفها الى كتفى ، وأخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت منخفض ، كل واحد منا من ناحيته ، فكانت هى تضطر الى انتظارى قبل أن اقلب الصفحة ، فقدكانت روحها أكثر استيعابا من روحى وكانت تقول لى وأنا لم أكد أنتهى من قراءة السطور الاولى

من الصفحة : « هل انتهيت ؟ »

وكان رأسانا فى خلال ذلك يلتقيان ، وكان شعرنا يتشابك ، وأنفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجأة تلاقت شفاهنا !

ولما أردنا أن نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السـماء .. وقالت « بيبا » لوالدتها عندما عادت : « آه ! يا أماه ! آه يا أماه ! آه لو كنت تعلمين كم جرينا ! »

أما أنا فلذت بالصمت

وقالت لى والدتى : « انك لا تقول شيئا يابنى ! يبـدو انك حزين ! »

ولكنى لم أكن حزينا ! .. ان الجنة كانت فى قلبى ! لسوف أذكر هذه الامسية مدى حياتى !

طول حياتى !!



دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة . ولست أدرى أية ساعة تلك التى دقت فلم أعد اسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لى ان فى اذنى صوتا كصوت الارغن .. انها كانت أفكارى الاخيرة تدوى فى اذنى :

فى هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتى ، وجدت جريمتى فيها بشعة للغاية للمرة الثانية ،ولكنى أتمنى كذلك أن اندم أكثر من ذى قبل . لقد كنت أكثر ندما منى الآن قبل أن يصدر الحكم على ، ومنذ ذلك اليوم ، يبدو لى أن ليس هناك مكان فى نفسى الا لافكار الموت . ومع ذلك ، فانى راغب حقا فى أن

أندم كثيرا

وعندما حلمت دقيقة ووصلت فى حلمى الى ضربة المقصلة التى يجب أن تضع حدا لحياتى بعد ساعات ، أجتاحتنى رجفة كأن هذا شيء جديد ! يا لطفولتى الجميلة ! ويا لشبابى الجميل ! انهما يبدوان لى الآن كقماش موشى بالذهب وأطرافه ملطخة بالدماء ، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من الدم ، دم الرجل الآخر .. ودمى أنا !

اذا قرأ الناس يوما قصتى هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة ، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذى بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة : انه سيبدو شيئا يشوه بهجة هذه الحياة

ومع ذلك ، فيا أيتها القوانين البائسة ، ويا أيها الرجال التعساء : انى لم أكن شريرا ولا قاسيا !

آه ! أأموت بعد بضع ساعات ، وأنا أفكر فى اننى كنت فى مثل هذا اليوم حرا طليقا ، وطاهرا نقيا منذ عام واحد ؟ وفى أننى كنت أتنزه نزهات الخريف ، وأجول كما يروق لى وأسير تحت أوراق الخمائل ؟

فى هذه اللحظة بالذات ، هناك الى جوارى ، فى هذه المنازل التى تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام ، كما هو الحال كذلك فى كل مكان فى باريس ، يوجد أناس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون ، ويطالعون الصحف ويفكرون فى أعمالهم ، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب

السهرة لحفل الليلة الراقص ، وامهات يلعبن مع اطفالهن !!

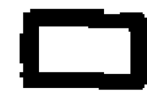
اذكر انى ذهبت يوما وانا صبى لرؤية أبراج كنيسة «نوتردام» وكنت قد أصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزونى المظلم ، وعبور الدهليز الدقيق الذى يربط بين البرجين ، وباريس تحت قدمى ، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة ، وهو يزن الفا من الكيلوجرامات

ولقد مشيت وأنا أرتجف فوق الالواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها ، وأنظر من بعيد الى هذا الناقوس المعروف جيدا لاهل باريس وأطفالها ، والاحظ فى رعب أن المنحنيات المغطاة بالقرميد التى تحيط بالناقوس كانت فى مستوى قدمى ، وكنت ارى فى أثناء ذلك ، وكأنى طير طائر فى الهواء ، المارين بميدان كنيسة «نوتردام» وكأنهم النمل !

وفجأة ، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء ، وجعل البرج الثقيل يرتج ، وكانت « الارضية » الخشبية تقفز فوق العروق ، وكدت أقع على ظهرى من جراء هذا الصوت ، فترنحت بعض الشىء وأوشكت ان انزلق عن الاطار المنحدر المصنوع من القرميد ، فنمت فوق الالواح الخشبية من فرط الرعب وأنا احضنها بذراعى فى عنف ولا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذى يجلجل فى اذنى ، وتحت عينى هذه الهوة السحيقة ، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة الهادئين الآمنين الذين كنت أحسدهم

فى تلك اللحظة على ما هم فيه

حسنا! انه ليبدو لى الآن أننى لازلت فى برج الناقوس الكبير بكنيسة « نوتردام » . ذلك أنى أسمع فى هذه الساعة نفس الدوى وأحس بنفس الذهول ، فهناك شىء ما شبيه بدقات الاجراس يهز أعماق مخى ، ولم أعد ألمح من حولى هــــذه الحياة الممهدة الهادئة التى تركتها وراء ظهرى ، والتى لا يزال الآخرون يدرجون فى طريقها ، لم أعد ألمحها الا من بعيد ، من بعيد جدا ، ومن خلال هوة سحيقة



ان مبنى المحافظة مقبض كئيب !

فسقفه الخشن المدبب ، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب، ومزولته الكبيرة البيضاء ، وطبقاته ذوات الاعمدة الصغيرة ، ونوافذه التى تعد بالمئات ، ودرجات سلالمه التى تآكلت من الخطوات ، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال، كل هذا يجعله جاثما هناك ، كساحة الاعدام ، مظلما كئيبا تنهش الشيخوخة وجهه ، واسود جدا الى حد أنه يبدو قاتما فى الشمس !

وفى الايام التى يتم فيها تنفيذ أحكام الاعدام ، تقذف أبوابه جميعا رجال الشرطة ويطل كل من فى نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت . وفى المساء تظل مزولته التى بينت لى الساعة مضيئة فى واجهته المظلمة

الساعة الآن الواحدة والربع

وهذا هو ما أشعر به الان :

انى أقاسى صداعا شـــــديدأ ، وبرودة مروعة فى كليتى ، وجبينى ملتهب ، وكلما وقفت أو انحنيت بدا لى أن هناك سائلا يجرى فى مخى فيجعله يضطرب فى غلاف جمجمتى

اننى أحس برجفة محمومة ، ومن وقت الى آخـــر يسقط القلم من يدى كما لو كانت تهزنى صدمات كهربائية

ان عينى ملتهبتان كما لو كنت غارقا فى دخان واشعـــر بألم هائل فى مرفقى

لسوف أشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس واربعين دقيقة !

انهم يقولون ان المقصلة لا شىء ، وان المرء لا يتألم ، وانها نهاية حلوة ، وان الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا

آه ! اذن ما هذا الاحتضار الذى دام ســـتة أســـابيع ؟ وما هذه الحشرجة التى دامت يوما بأكمله ؟ وما هى اذن آلام هذا اليوم الذى لن يعوض والذى يمر بسرعة بالغـــة وفى بطء بالغ كذلك ؟ وما هو اذن هذا السلم من العـــذاب الذى ينتهى الى المشنقة ؟

وليس هذا كله الما فى الظاهر !

أو ليست هى نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة ، وحين ينطفىء الذكاء فكرة بعد فكرة ؟

ثم انهم يقولون ان المرء لا يتألم من المقصلة ، فهـــــل هم واثقون من ذلك ؟ ومن ذا الذى قال لهم هذا الكلام ؟ وهل حدث قط أن رأسا مقطوعا وقف يقطر دما على حافة السلة ليصيح

فى الجمهور قائلا : « ان هذا لايحدث ألما ! »

هل حدث ان أمواتا ماتوا بهذه الطريقة ، عادوا ليقدموا لهم الشكر وليقولوا لهم : « ان اختراعكم هذا اختراع عظيم ،وعليكم ان تستمروا فى استعماله ! انه آلة جيدة ! »

وهل هو « روبسبيير » الذى قال هذا أو « لويس السادس عشر ؟ »

كلا ! لا شىء من هذا ! ان الامر ينتهى فى أقل من دقيقة ، بل فى أقل من ثانية ! ـ فهل وضعوا أنفسهم قط ، ولو فى الخيال، موضع الشخص الذى يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتمض اللحم وتقطع العروق ، وتكسر مفاصل الرقبةوعظامها ؟

ولكن ماذا ؟ .. ماذا تقولون ؟ تقولون انها نصف ساعة ! وان الالم يختصر ! . فيا للهول !

من الغريب حقا انى لا أكف عن التفكير فى الملك !

ومهما فعلت ومهما هززت راسى ؛ فان هناك صوتا يتردد فى اذنى ويقول لى على الدوام : « هناك فى نفس هذه المدينة ، فى نفس هذه الساعة ،ولكن فىقصر آخر (١)،رجل لديه كذلك حراس على كل أبوابه » ، وهو شخص فريد فى نوعه بين افراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه مرتفع بقدر ما أنت منخفض . ان حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست الا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة ، وكل شىء من حوله عبارة عن

---

(١) أى فى قصر آخر غير هذا القصرالذى جعلوا منه سجنا ودارا للقضاء

حب واحترام وتبجيل . ان أكثر الاصوات ارتفاعا لتنخفض حينما تتحدث اليه وتنحنى أمامه أكثر الجباه تيها وفخرا ، ولا تقع عيناه الا على الحرير والذهب ، وهو يرؤس فى هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رأيه ، أو أنه يفكر فى رحلة الصيد التى سيقوم بها غدا ، أوفى حفل هذه الليلة الراقص ، وهو على يقين من أنه سيتم فى الساعة المحددة له ، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته . حسنا ! ان هذا الرجل مثلك من لحم وعظم ! — ولكى تنهار المقصلة الرهيبة فى نفس اللحظة ويعاد اليك كل شيء : حياتك ، وحريتك ، وثروتك ، وأسرتك ، يكفى منه ان يكتب بهذا القلم الحروف السبعة التى يتكون منها اسمه فى ذيل قصاصة من الورق ، أو تقابل عربته الملكية العربة التى ستحملك الى ساحة الاعدام ! — وهو رجل طيب ، وقد لا يكون راغبا فى أكثر من هذا العمل الطيب ، ولكن هذا لن يحدث !



حسنا اذن ! لنكن شجعاء مع الموت . ولنقابل هذه الفكرة الرهيبة بشجاعة ، ولنواجهها وجها لوجه . لنسأل ما هو الموت، ولنعرف ماذا يريده منا ، ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها ، ولنقرأ الغيب ، ولننظر مقدما فى القبر

انه ليبدو لى اننى عندما ستغمض عيناى ، سأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحى الى مالانهاية ، ويبدو لى أن السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها ، وان

النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات ! نعم ، يبدو لى أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبى اللون ، بدلا من أن تكون كما تتراءى لاعين الاحياء ، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء .

أو قد تكون ويا لشقائى ــ هوة مروعة ، جدرانها مبطنة بالظلمات ، اهوى فيها بلا توقف وانا أرى أشباحا تتحرك فى الظلام !

أو اننى قد اجد نفسى بعد أن استيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة،وانا ازحف فى الظلام ، وادور على نفسى مثل الرأس الذى يتدحرج ، ويخيل الى أنه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعنى بلا هوادة ، فأصطدم هنا وهناك برءوس أخرى تتدحرج ، واننى سأمر أحيانا فى طريقى بمستنقعات وجداول وانهار بها سائل فاتر مجهول ، وأن كل شىء سيكون حالك السواد ، وانعينىحينما تتجهان فىدورانهما الى أعلى فلن تريا الا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة ، والا قبابا ، ضخمة من دخان أسود كالظلمات ،ترى فى النهاية على بعد سحيق ، وأن عينى سوف تريان كذلكشررا صغيرا أحمر يتطاير فى الظلام ، لا يلبث عندما يقترب منهما أن يتحول الى طيور من نار ، وستظل الحال على هذا النحو الى الابد

وقد يحدث أحيانا فى مواقيت معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا فى ساحة الاعدام خلال ليالى الشتاء السوداوات فىالميدان

الذى هو خاص بهم ، ولسوف يكون هذا الجمع جمهورا شاحبا داميا ، ولن أتخلف عن أن أكون بينهم ، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث فى أصوات خافتة . ان مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهته العتيقة ، وسقفه الممزق ، ومزولته التى كانت لا ترحم أحدا . وسوف تكون فى الميدان مقصلة من جهنم يعدم بها أحد الشياطين جلادا ، وسوف يتم ذلك فى الساعة الرابعة صباحا ، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله !

نعم ، قد يكون الامر كذلك . ولكن اذا عاد هؤلاء الموتى فعلى اية صورة يعودون ؟ وما الذى يحتفظون به من اجسامهم الناقصة المشوهة ؟ وماذا سوف يختارون ؟ هل سيكون شبح كل منهم رأسا أم جذعا ؟

وا أسفاه ! ترى ماذا يفعل الموت بأرواحنا ؟ واى شكل يدعه لها ؟ ما الذى يأخذه منها أو يعطيها اياه ؟ وأين يضع الموت الروح ؟ وهل يجعل لها فى بعض الاحيان عينين بشريتين كى تنظرا الى الارض وتبكيا ؟

آه ! الى بقسيس ! أريد قسيسا يعرف هذا ، ويحدثنى عنه ! أريد قسيسا وصليبا أقبله !

رباه ! انه دائما نفس القسيس ! (١)



لقد رجوته أن يتركنى فأنام ، والقيت بنفسى على السرير ،

---

(١) يقصد نفس الكاهن الذى كان معه منذ قليل ، وقال عنه ان كلامه فاتر لا حرارة فيه ولا تأثير له

وكان دمي كله قد صعد في الواقع الى رأسي ، فحملني هذا على النوم • كانت هذه نومتي الاخيرة من هذا النوع !

ورأيت في المنام أن الوقت كان ليلا ، وخيل الى انى كنت فى مكتبي مع اثنين من أصدقائي أو ثلاثة ، لست أدرى من هم على وجه التحقيق

وكانت زوجتي نائمة مع طفلتها في الغرفة المجاورة

وكنا نتحدث أنا وأصدقائي في صوت خفيض ، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف في أنفسنا

وفجأة ، خيل الى أنى اسمع صوتا ما في الغرف الاخريات من المسكن ! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح !

وكان أصدقائي قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته ،فأنصتنا جميعا : كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة ، أو مزلاج يسحب في صوت ضئيل

وكان ثمة شيء يثلج أطرافنا : وهو أننا كنا خائفين . وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا الى مسكني في هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل ، فقررنا ان نذهب لنرى ما هنالك • فنهضت من فوق مقعدي ، وأخذت الشمعة في يدي ، وتبعني اصدقائي واحدا في اثر الآخر

واجتزنا غرفة النوم المجاورة ، وكانت زوجتي نائمة مع ابنتها ، ثم وصلنا الى غرفة الجلوس ، ولكن لم يكن هناك شيء كانت الصور مثبتة في اطاراتها الذهبية من فوق الستائر الحمراوات ، غير أنه خيل الى أن الباب الذى بين غرفة الجلوس

وبين غرفة المائدة ليس فى مكانه المألوف

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين ، وكنت أنا الذى يسير فى الطليعة . كان باب السـلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ . وعنـدما بلغت المدفأة رأيت أن صوان الملابس كان مفتوحا ، وان بابه كان مشدودا الى زاوية الجدار ، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك . فأدهشنى هذا ، واعتقدنا أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب

فأمسكت هذا الباب بيدى كى أعيد اغلاقه ولكنه قاومنى . فعجبت وجذبته بقوة هى أكبر من سابقتها ، وفجأة استجاب الباب ، واكتشفنا خلفه امرأة عجوزا قصيرة القامة متدلية الذراعين ومغمضة العينين ، قد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار !

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر رأسى عندما أفكر فيه !

وقلت سائلا هذه العجوز : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فلم تحر جوابا ، وعدت أسألها قائلا : « من أنت ؟ »

فلم تجبنى كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين

وعندئذ قال لى أصدقائى : « انها دون شك شريكة هـؤلاء الذين تسللوا الى بيتك لاغراض شريرة ، ولابد انهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم ، ولم تتمكن هى من الهرب فاختبأت هنا ! »

فسألت المرأة من جديد ، ولكنها ظلت لا تتكلم ولا تتحرك ولا تنظر ! ودفعها أحدنا فوقعت على أرض الغرفة ، وقعت كتلة

واحدة ، كأنها قطعة من الخشب أو شيء جامد لا حياة فيه !

وهززناها من قدميها ، ثم أوقفها أثنان من بيننا ، وجعلاها تستند من جديد الى الجدار ، غير أنها لم تبد مايدل على أنها على قيد الحياة ! فصرخنا فى أذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء !

ونفد صبرنا مع ذلك ، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب ، فقال لى واحد من أصدقائى : « ضع الشمعة تحت ذقنها ! »

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها ، وعندئذ فتحت المرأة عينا واحدة ، فتحتها قليلا ، فكانت عينا خاوية لا تنظر ، مخيفة لا حياة فيها !

فأبعدت الشمعة عنها وقلت لها : « آه ! اخيرا ! هلا اجبتنى ايتها الساحرة العجوز ؟ من تكونين ؟ »

وانطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الآخرون : « انها تبالغ كثيرا فى هذه المرة ! أعد الشمعة مرة أخرى اذ يجب أن نحل عقدة لسانها !

فأعدت الشمعة تحت ذقن العجوز ، ففتحت عينيها فى بطء ونظرت الينا جميعا واحدا بعد الآخر ، ثم انحنت فجأة ونفخت فى الشمعة بنفس بارد ، واحسست فى نفس اللحظة بثلاث أسنان حادة تنغرس فى يدى فى الظلام !

واستيقظت عندئذ من نومى مذعورا وقد غمر جسمى عرق بارد . وكان القسيس الطيب جالسا عند أسفل سريرى يتلو بعض الصلوات

فسألته قائلا :

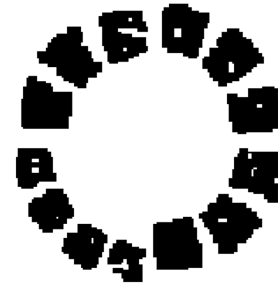
ـ هل نمت طويلا ؟

فأجابنى بقوله :

ـ نمت ساعة يابنى . لقـد أحضروا لك ابنتك وهى هنا تنتظرك فى الحجرة المجاورة ، ولم أشأ أن يوقظك أحد

فضحكت قائلا :

ـ آه ! ابنتى ؟ ليأتونى بابنتى !



# ماری ابنتی

انها نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين ، انها لجميلة حقا !

لقد البسوها ثوبا يلائمها تماما

اخذتها ورفعتها بين ذراعی ، ثم أجلستها على ركبتی وقبلت شعرها

وساءلت نفسی : تری لماذا لم تحضر معها أمها ؟ ألأن أمها مريضة ، وكذلك جدتها ؟ حسنا !

كانت تنظر الى فی دهشة بادية ، بينما أخذت أداعبها ، وأحضنها ، والتهمها بقبلاتی وهی تتركنی افعل كل ذلك، غير انها كانت بين لحظة وأخری تلقی نظرة حائرة علی خادمتها، التی كانت تبكی فی ركن الغرفة

واستطعت أخيرا أن أتكلم فقلت لها :

ـ « ماری ! » ياصغيرتی « ماری ! »

وكنت فی تلك اللحظة أضمها فی عنف فوق صدری المنتفخ بالدموع الملتهبة ، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لی :

ـ آه ! انك تؤلمنی يا سيدی !

« سيدی ؟ ! » ها هو ذا عام تقريبا قد انقضی لم ترنی

خلاله هذه الطفلة المسكين ! لقد نســـيتني ، نسيت وجهى وكلامى ولهجتى ، ثم ... من ذا الذى يستطيع أن يعرفنى وأنا بهذه اللحية ، وفى هذه الثياب ، وفى مثل هذا الشحوب ؟ آه ! اهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة ، وهى الذاكرة الوحيدة التى كنت أود أن أعيش فيها ! آه ! أبمثل هذه السرعة لم أعد ابا ؟ أنا الذى قضى على ألا اسمع قط بعد الآن هذه الكلمة : كلمة « بابا » ! هذه الكلمة التى هى من لغة الاطفال ، والتى تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن ان تبقى معه فى ذاكرة الرجال !

ومع ذلك ، فقد كنت لا أتمنى الا أن أسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة أخرى ، مرة واحدة فحسب ... هذا هو كل ما كنت أريده فى مقابل الاربعين سنة التى سيأخذونها من عمرى !

قلت لها وأنا آخذ بيديها الصغيرتين فى يدى :

ـ اصغى الى يا « مارى » .. الا تعرفيننى ؟

فنظرت الى بعينيها الجميلتين ثم أجابت قائلة :

ـ آه ! حسنا . . اننى لا اعرفك !

فعدت أكرر القول :

ـ أنظرى الى جيدا . . كيف لا تعرفين من أنا ؟

فقالت لى :

ـ بلى ، بلى . . انك سيد

وا أسفاه ! هاهو ذا امرؤ لايحب من اعماق قلبه الا مخلوقا واحدا فى هذا العــالم ، يحبه بكل جوارحه ، ويجده أمامه ،

وينظر اليه ، ويراه ويحدثه ويرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه ، انني لا أريد عزاء الا منها ، فهي الانسان الوحيد الذى لا يعرف أني فى حاجة الى العزاء ، لانى أوشك أن أموت !

واستأنفت حديثى معها قائلا :

ـ ألك اب يا « ماري ؟ »

ـ نعم يا سيدى

ـ حسنا ، وأين هو ؟

فرفعت الى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت :

ـ الا تعلم اذن ؟ لقد مات يا سيدى !

وما أن قالت هذا حتى تصلبت ذراعاى على مارى لهول ما سمعته فصرخت ، وكادت تسقط منى على الارض ! بينما كنت أقول لها :

ـ مات ! أتعرفين يا « مارى » ما معنى أنه مات ؟

فأجابتنى قائلة :

ـ نعم يا سيدى .. انه فى الارض وفى السماء

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها : « انى أصلى من أجله صباحا ومساء وأنا على ركبتى ماما »

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها :

ـ قولى لى صلاتك يا « مارى »

ـ لا أستطيع يا سيدى . ان الصلاة شيء لا يقال بالنهار . تعال عندنا فى البيت هذا المساء وأنا أقولها لك

وكان هذا حسبى لكننى قاطعتها قائلا :

ـ « ماری » أنا والدك !

ـ آه !

فعدت أقول :

ـ أتحبين أن اكون والدك ؟

فأشاحت الطفلة عنى بوجهها ثم قالت :

ـ كلا .. لقد كان والدى اجمل منك كثيراً !

فأخذت اغرقها بقبلاتى ودموعى ، فحاولت أن تفلت من بين ذراعى ، وهى تصيح قائلة : « انك تؤلمنى بلحيتك ! »

وعندئذ أجلستها ثانية على ركبتى وانا أحرسها بعينى ثم سألتها قائلا :

ـ أتعرفين القراءة يا « ماری » ؟

ـ نعم ، أعرفها جيـــدا ، ان والدتى تجعلنى أقرا حروفا اكتبها بنفسى

فقلت لها وأنا أريها ورقة كانت تمسك بها مجعدة فى أحدى يديها الصغيرتين :

ـ أرينى كيف .. هيا اقرئى قليلا !

فهزت راسها الجميل وقالت :

ـ حسنا ! لست أعرف الا قراءة الحكايات

فعدت أقول لها :

ـ استمرى في المحاولة .. أرينى .. اقرئى

فنشرت الورقة واخذت تتهجى مشيرة بأصابعها :

ـ ح .. ك .. حك .. م .. « حكم » (١)

فانتزعت الورقة من بين يديها ، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالاعدام ، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم ، أما أنا فقد كلفتنى غاليا !

ليست لدى كلمات أستطيع بها أن أعبر عما كنت أقاسيه فى تلك اللحظة ! كان عنفى قد روعها وأخافها وكانت تبكى تقريبا . وفجأة قالت لى : « أعد الى ورقتى اذن لالعب بها ؛ عجبا ! »

فأرجعت الطفلة الى الخادمة وأنا أقول :

ـ خذيها من هنا !

ثم تهالكت على مقعدى مكتئبا يائســا شارد اللب ! يجب عليهم أن يحضروا الآن فلم أعد أتمسك بأى شيء اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبى ، وصرت مهيئا لما سيفعلونه بى على الفور !

ان القسيس رجل طيب القلب ، وكذلك الجندى الحارس ، وأحسب أن كل واحــد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة : « خذيها من هنا ! »

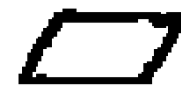
لقد قضى الامر الآن ، فيجب على أن اتصلب فى أعمــاق نفسى ، وأن أفكر بثبات فى الجلاد ، وفى العربة ، والجنود ، والجمهور المحتشد على الجسر ، وفى المحتشدين على رصيف

---

(١) Arrêt « حكم » : كانت هذه أول كلمة مكتوبة على الورقة التى بين يديها ، وكانت صورة من حكم الاعدام الصادر عليه

نهر السين ، وفى الذين يقفون أمام النوافذ ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلى فى تلك الساحة ، ساحة الاعدام المظلمة التى يمكن أن ترصف بما هوى من الرءوس

أحسب أنه لا تزال امامي ساعة كي آلف كل ذلك



ان كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق . وبين كل هؤلاء الرجال الاحرار الذين لا يعرفهم الجلادون ، والذين يسرعون فى مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام ، بين كل هذه الرءوس التى ستغطى الميدان ، هناك أكثر من راس كتب عليه أن يتبع رأسى ان عاجلا أو آجلا الى السلة الحمراء ، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلى سوف يأتون فى يوم من الايام من أجل أنفسهم !

فبالنسبة لهؤلاء الاشخاص المنحوسين ، هناك نقطة معينة فى ساحة الاعدام ، هىعبارة عنمكانمشئوم ومركزجاذبية وفخ منصوب ، وهم يحومون حوله ويحومون الى أن يتردوا فيه !

إبنتى الصغيرة « مارى ! » ـ لقد أعادوها لتلعب .. أنها تنظر الى الجمهور من خلال نافذة العربة التى تقلها ولم تعد تفكر فى هذا « السيد ! »

قد يتاح لى كذلك بعض الوقت لاكتب لها بعض الصفحات حتى تقراها فى يوم من الأيام ، وتبكى بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم

نعم ، يجب أن تعرف « ماري » قصتى منى وأن تعرف السبب فى أن الاسم الذى أتركه لها يقطر دما !

## قصتى

كلمة من الناشر : لم نجد الى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب . وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية ، وكان الوقت قد أزف عندما خطرت له هذه الفكرة .



# الى ساحة الاعدام

من غرفة بدار المحافظة ! انني هنا اذن ! لقد تمت الرحلة البغيضة وهاهي ذي ساحة الاعدام ، وهاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتي وينتظرني وهو يضحك !

وقد حاولت جهدي أن أتشجع أو أستجمع قواي ولكني كنت احس دائما بأن قلبي يخونني ، وقد خانني اكثر ، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين ، وفي نهايتهما هذا المثلث الاسود (١) ، تطالعني من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لي بين مصباحين على رصيف النهر ، فطلبت أن أعترف اعترافا أخيرا ، فأحضروني الى هنا ، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام ، وهأنذا أنتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت !

وهذا ما حدث :

دقت الساعة ثلاث دقات ، عندما جاءوا ليخطروني بأن الوقت قد حان ، فارتجفت كما لو كنت أفكر في شيء آخر منذ ست ساعات أو منذ ستة أسابيع ، بل منذ ستة أشهر ، لقد كان لهذا في نفسي وقع سيىء لم أكن أنتظره

---

(١) ذراعا المقصلة وسكينها

وساقونى أمامهم فاجتزت الدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعونى بين نافذتين صغيرتين بالطابق الارضى فى غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب ، ويصل اليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير • كان الضباب كثيفا ، وكان ثمة مقعد فى وسط الغرفة وأمرونى بالجلوس فجلست

وكان هناك ، عدا القسيس والحراس ، رجال يقفـــون الى جوار باب القاعة وبطول الجدران ، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين

كان أولهم ــ وهو أطولهم قامة واكبرهم سنا ــ بدينا ذا وجه أحمر ، ويرتدى « ردنجوتا » وقبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاث • لقد كان هو !

نعم ، كان هو الجلاد بعينه ، خادم المقصلة ، وكان الرجلان الآخران خادمين له شخصيا !

وما ان جلست حتى اقترب منى الرجلان الآخران من الخلف وكأنهما قطان ، وفجأة ، أحسست ببرودة الصلب تسرى فى رأسى وصلصلة المقصات تدوى فى أذنى ، وأخـــذ شـــعرى الذى كانوا يقصونه كيفما اتفق ، يتساقط خصلا على كتفى ، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان ينفضه فى رفق بيده الضخمة

ومن حولى كان يدور الحديث فى صوت هامس

وكانت تترامى الى أذنى من الخارج جلبة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع الهواء ، فحسبت فى أول الامر أنها صادرة من النهر ، ولــكنى

ما لبثت أن سمعت ضحكات عالية ، فأدركت أن تلك الجلبة كانت منبعثة من الجماهير

وكان هناك شاب يقف الى جوار النافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه ، فسأل أحد الحراس قائلا :

ـ ما هذا الذى يفعلونه الآن بالمحكوم عليه ؟

فأجابه الحارس بقوله :

ـ هذه زينة المحكوم عليه بالموت !

ففهمت عندئذ أن هذا سيظهر غدا فى الصحف

وفجأة ، خلع لى أحد خادمي الجلاد سترتى ، وأخذ الآخر يدى اللتين كانتا تتدليان إلى جانبى وجذبهما وراء ظهرى ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمى فى بطء . وفى نفس اللحظة كان الخادم الاول يفك ربطة عنقى ، لكن قميصى «الباتستا» وهو الخرقة الوحيدة التىتبقتلى مما كنت أرتديه فيما مضي ـ جعله يتردد لحظة ثم شرع الرجل فى قص « ياقته »

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتى ، وارتعد مرفقاى فى عنف ظاهر وند عنى أنين مكتوم ارتعشت له يدا « صبى » الجلاد

وقال لى الرجل :

ـ سامحنى يا سيدى ! هل آلمتك ؟

ان هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية

وكان صراخ الجماهير يتزايد فى الخارج

وعرض على الرجل البدين ذو الوجه الاحمر أن أشم منديلا مشبعا بالخل ، فقلت له بأعلى صوت استطعته : « شكرا ، هذا لا جدوى منه فأنا أشعر بأنى فى حالة جيدة »

وعندئذ انحنى أحدهم ، وقيد قدمى بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لى ان أخطو الا خطوات ضيقة للغاية ، ثم ربطوا هـذا الحبل الاخير بحبل يدى

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفى وربط كميها معـا من أسفل ذقنى • كان كل ما كان ينبغى أن يتم هنا قد انتهى

وفى تلك اللحظة ، اقترب منى القسيس بصليبه وقال لى : « هيا يابنى »

فأمسك بى خادما الجلاد من تحت ابطى فنهضت ومشيت • كانت خطواتى خائرة منهارة ، كما لو كانت كل ساق من ساقى لها ركبتان !

وفتح الباب الخارجى على مصراعيه فى تلك اللحظة ، فاندفع نحوى فجأة وأنا فى الظلام ، صياح الجماهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الابيض • ورأيت فجأة ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذةالصغيرة المعتمة آلافا مؤلفةمن الرءوس رءوس الشعب الذى تكدس بعضه الى جانب البعض فى غير نظام ، وهو يصيح من فوق سلم المحافظة الكبير • وكان هناك الى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البـوليس على ظهور جيادهم التى لم يكن يبدو لى منها سوى صدورهـا وأقدامها الامامية من خلال الباب المنخفض ، وكانت هناك فى

مواجهتى سرية من الجنود فى زى الميدان ، كما ظهــــرت الى اليسار مؤخرة عربة ( كارو ) كان يرتكز عليها سلم غليـــظ خشن ! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تمـــاما مع باب السجن !

وكنت قد استطعت أن أحتفظ بشجاعتى حتى هــــذه اللحظةالرهيبة ،فخطوت ثلاث خطوات الى الامام ، وما كدتأبدو عند باب القاعة ، حتى علا صـــياح الجماهير قائلا : « هــذا هو ! هذا هو ! هاهوذا يخرج أخيراً ! » وكان أقربهم الى مكانى يصفقون ، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفى به مثل هــذه الحفاوة

وكانت العربة عربة ( كارو ) عادية يجرها جواد هـزيل وكان سائقها يرتدى حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن « بيستر »

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان الى العــربة أولا ، وكان الصبية المتعلقون بالسور الحديدى يصيحون لمرآه قائلين : « أهلا وسهلا بالسيد شمشون » ثم تبعـــــه الى العربة أحد خادميه ، فعاد الصبية يصيحون من جـــديد : « مرحى يا ماردى ! » وجلس الرجلان علىمقعد العربة الامامى

ثم حان دورى ، فصعدت الى العربة فى مظهــر ثابت بعض الشىء . وفى تلك اللحظـــة قالت امرأة كانت تقف الى جوار الجنود : « انه على مايرام ! »

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة ، وجاءالقسيس

ليجلس الى جوارى وكانوا قد أجلسونى على المقعـــد الخلفى وظهرى الى جواد العربة ، فارتجف بدنى لهذه اللفتة الاخيرة ! انهم يبدون انسانية فى مثل هذه الامور

وأردت أن أنظر حـــولى • كان أمامى جنـــود ومن خلفى جنود ، ثم الجماهير •• نعم ، جماهير ثم جماهير ثم جماهير : لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان !

وكانت كوكبة من فرسان البوليس فى انتظارى عند باب سور المحافظة الحديدى • وأصدر الضابط أوامره ، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعهـا الى الامـــام

واجتزنا الباب الحديدى ، وما كادت العـــربة تنعطف فى اتجاه قنطرة « أو شانج » حتى انفجرت الضوضاء فى الميدان ، من الارض الى أسطح المنازل ، ورددتها القناطر وأرصفة نهر « السين » فى دوى كأنه زلزال يهز الارض هزا فى غير هوادة ولا رحمـــة !

وفى تلك اللحظة ، انضم البوليس ، الذى كان ينتظرنى ، الى قوة الحراسة

وكانت آلاف الافواه تصيح معا ، تماما كما يحدث عندمرور الملك : اخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! » (١)

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس : « هم القبعات •• وأنا الرأس ! » (٢)

---

(١) لتحية الذاهب الى الموت عندمروره
(٢) أى هم يخلعون قبعاتهم وأنا سيخلع رأسى !

واخذ الموكب يسير خطوة خطوة . وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية ، وكان اليوم يوم السوق ، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلى أنا

وهناك فى مواجهتنا ، قبل البرج المربع الجاثم فى ركن دار المحافظة بقليل ، حانات كان الطابق الارضى منها يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة ، وكان أكثرهم من النساء ! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لاصحاب الحانات ! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقاعد والمنصات والعربات ( الكارو ) ، وكان كل شيء مزدحما بالمتفرجين ، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين : « من ذا الذى يريد مكانا ؟ »

وتملكنى السخط على هذا الشعب ، ووددت لو أصرخ فى الناس قائلا : « من منكم يريد مكانى ؟ »

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم ، وفى كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائها وكنت أرى بعينى الشاردتين أفواجا من الناس ، وهى تسارع الى التجمع فى مواضع أخرى أبعد الى الامام فى الطريق الذى يمضى فيه موكبى

وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة « أوشانج » ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين الى الوراء ، فاستقرت عيناى عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم من وراء أسطح المنازل ، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش،

وكنت أرى فى قمته تمثالين لوحشين من الحجر فى جلسة جانبية . ولست أدرى ماذا دفعنى الى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج

فأجابنى الجلاد بقوله : « انه القديس جاك لابوشيرى »

ولست أدرى كيف كان لايفوتنى شىء مما كان يدورمن حولى رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الابيض الذى كان يملأ الهواء وكأنه خيوط نسيج العنكبوت ، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف الى نفسى عذابا فوق عذاب . ولست أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبر عما أشعر به من انفعالات

وفى نحو منتصف قنطرة «أوشانج » العريضة جدا والمزدحمة للغاية ، والتى كنا نسير فوقها فى صعوبة بالغة ، تملكنى رعب عظيم وخشيت أن أغيب عن الوعى . ياله من غرور أخير ! فحرصت عندئذ على أن أعمل على تشريد ذهنى حتى أصير كالأعمى الاصم فلا أرى شيئا ولاأسمع شيئا عدا القسيس الذى كنت أسمع كلماته فى جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت : « رحماك يا الهى ! » وحاولت أن أفنى نفسى فى هذه الفكرة ، ولكن كل « مطب » تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزنى هزا عنيفا ، ثم أحسست فجأة ببرودة شديدة ، اذ كان المطر قد نفذ من ثيابى وغمر جلد رأسى من خلال شعرى الذى قصوه قصيراً

وسألنى القسيس قائلا :

ـ أترتجف من البرد يا بنى ؟

فأجبته بقولى :

ـ نعم

وكنت للاسف لا أرتجف من البرد وحده !

وعند ناصية القنطرة أبدى بعض النساء عطفهن على لانى شاب حديث السن • ثم مضينا قـــدما على طول الرصـــيف المشئوم ، فبدأت لا أرى شيئا ولا أسمع شيئا ! آه من كل هذه الاصوات وكل تلك الرءوس التى تطل من النوافذ والابواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمدة النور ، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة ، هذا الجمهور الذى يعرفنى كله ولا أعرف شخصا واحدا منه ، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية !! أنى كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن ! ان كل هذه الانظار التى تتطلع اليك شىء لا يمكن احتماله !

لقد كنت أترنح اذن فوق المقعد ولم أعد ألقى بالا الى شىء ، حتى ولا الى القسيس أو الصليب • وفى غمرة الضجيج الذى كان يحيط بى ، صرت لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور ، أو أفرق بين الانات والضحكات ، ولا بين الاصوات والصخب ، فكل ذلك كان ضجيجا يدوى فى رأسى كما يدوى الصدى فى آلة من نحاس !

وكانت عيناى تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية ،وتملكنى مرة فضول عجيب لان أدير رأسى لانظر الى أى مكـــان كنت أسير • كان هذا تحديا أخيرا من العقل ، غير أن جســـمى لم

يستجب لهذا ولبث عنقي مشلولا كأنه مات مقدما !

لقد لمحت فحسب ، عن يسارى من الجانب بعيدا عن النهر، برج كنيسة « نوتردام » الذى اذا نظر اليه من هذا الموضع ، فانه يحجب البرج الآخر ، هذا البرج الذى كان العلم مرفوعا عليه ، وكان به جمع غفير كان المفروض أنه يرى موكبى فى وضوح

وواصلت العربة المسير فأخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر ، واللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة أو مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام ، أما أنا فكنت أترك العنان لنفسى كما يترك الناس عنان انفسهم للاحلام

وفجأة ، أنقطعت سلسلة الحوانيت التى كانت تشغل عينى عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا ، وصار أكثر مرحـــا كذلك ، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفىء على وجهى فوق « أرضـــيتها » الخشبية ، فسندنى القسيس وهو يتمتم قائلا : «تشجع يابنى!»

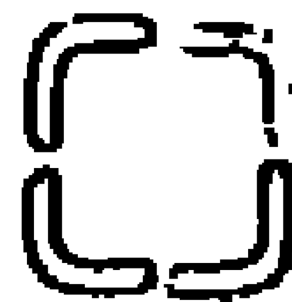
وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم الى القسيس ذراعه فنزلت وخطوت خطوة واحـــدة ثم التفت الى ما ورائى لاخطو بعدها خطوة أخرى ، ولكنى لم أستطع ، اذ كنت قد رأيت شيئا رهيبا بين عمودين من اعمدة النور فوق الرصيف

آه ! لقد كانت هى الحقيقة !

فتوقفت كمالو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة ، ثم صحت

قائلا فى صوت مخنوق : « لدىاعتراف أخير أريد ان افـضى به: » ولكنهم صعدوا بى الى هذا المكان

وطلبت أن يتركونى كى أدون ارادتى الاخيرة ، ففكوا وثاق يدى ، ولكن الحبل هنا الى جوارى على أهبة الاستعداد ، وبقيته ملفوفة على قدمى !



# الرجاء الأخير

لقد حضر منذ لحظة أحد القضاة أو مأمور أو رجل من رجال القضاء لست ادرى أيهم • فطلبت اليه العفو عنى وأنا أضم يدى وأزحف على ركبتى • فأجابنى الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة : « هل هذا هوكل ماتريد أن تقوله لى ؟ »

فعدت أكرر قولى : « العفو عنى ! العفو عنى ! أو خمس دقائق فحسب •• على سبيل الرحمة ! »

من يدرى؟ فقد يصل أمر العفو! ومن الشناعة حقاً أن أموت هكذا وأنا فى مثل هذه السن ! وكثيرا ما رأينا أمر العفو يأتى فى اللحظة الاخيرة وعمن يعفون ياسيدى اذا هم لم يعفوا عنى؟

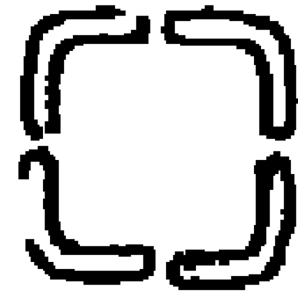
يالهذا الجلاد البغيض ! لقد دنا من القاضى ليقـــول له ان تنفيذ الحكم يجب أن يتم فى ساعة محددة ، وان هذه الساعة تقترب ، وانه كان مســئولا ، وليقول له فوق هـــذا ان السماء كانت تمطر ، وان ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ !

فصحت قائلا : « آه ! دقيقة أخرى على سبيل الرحمـــة ! دقيقة واحدة أنتظر فيها وصول العفو ! وإلا فانى سوف أدافع عن نفسى ! سوف أعض ! »

فانصرف القاضى والجلاد ، وبقيت وحدى !

وحدى مع جنديين

أوه ! يا للشعب الرهيب بصياحه الذى يشبه عواء الضباع!
من يدرى ما اذا كنت أفلت منه ؟ من يعلم ما إذا كنت أعتق ؟
أو أن يصدر عفو عنى ؟ ... من المحال ألا يصدر العفو عنى !
آه ! يا للتعساء ! يبدو لى أنهم يصعدون السلم ! ...
الساعة الان الرابعة !



# مهزلة بمناسبة مأساة

## بقلم ڤيكتور هيجو

## الشخصيات

مدام دى بلانفال
الفارس
ارجاست
شاعر حزين
فيلسوف
سيد بدين
سيد نحيل
سيدات
خادم

**المكان : فى الصالون**

شاعر حزين يقرأ هذه الابيات من شعره :

وفى اليوم التالى ، كانت خطوات تعبر الغابة

وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهــر

ولما حضرت الفتاة وهى تبكى

وعادت لتجلس وقلبها مملوء بالهواجس

على البرج القديم جدا فى القصر العتيق

سمعت « ايزور » الحزينة أنين الامواج

ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك

ربابة القصصى ( الشاعر ) اللطيف !

**كل المستمعين** ـ « برافو » ! .. لطيف ! .. مدهش !

( ويصفقون فى نفس الوقت )

**مدام دى بلانفال** ـ هناك فى نهاية هــذه القصــــيدة شىء غامض لا يمكن تعريفه ، شىء يسيل الدمع من العيون

**الشاعر الحزين** ـ ( فى تواضع ) : أن الكارثة مقنعة ؟

**الفارس** ـ ( وهو يهز رأســــه ) : أن كلمتى ربابة وعازف ربابة : رومانتيكيتان !

**الشاعر الحزين** ـ نعم ياسيدى ، ولكنها رومانتيكية معقولة، رومانتيكية بمعنى الكلمة ـ ماذا تريد اذن ؟ يجب علينا أن نتساهل بعض الشىء

ـ نتساهل .. نتساهل ! اننا بهذه الطريقة نفقــد الذوق

الفنى .. اننى لاعطى بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية فى مقابل هذا الرباعى :

فى بلاد « باند » و «سيتير »

أخطر « جانتيى برنار »

بأن فن الحب يجب فى يوم السبت

أن يتعشى عند فن الاعجاب .

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة ! فن الحب الذى يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب ! حسنا ، حسنا ! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة . لم يعد ثمة شعر به تورية واستعارة .. آه ! لو كنت شاعرا لكتبت أشعارا مملوءة بالاستعارات .. ولكنى لست شاعرا .. انا .

**الشاعر الحزين** ــ ومع ذلك ، فالاشعار الحزينة والعاطفية ...

**الفارس** ــ اننا نريد ياسيدى أشعارا بها استعارة .. ( ثم بصوت هامس الى مدام دى بلانفال ) : ثم انه استعمل كلمة غير فرنسية !

**شخص ما** ــ ( مخاطبا الشاعر الحزين ) : لدى ملاحظة ياسيدى .. انك تقول : « القصر العتيق » ، فلماذا لا تقول : « القصر القوطى ؟ »

**الشاعر الحزين** ــ ان كلمة « قوطى » لا تقال فى الاشعار

**شخص ما** ــ آه ! هذا أمر مختلف

**الشاعر الحزين** ــ ( متابعا حديثه ) : افهمنى تماما ياسيدى

.. يجب أن نحدد أهدافنا ، وانا لست من هؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب فى الشعر الفرنسى والعودة به الى عصر مدرسة « رونسار » ( ١ ) ومدرسة « بريبـوف » اننى رومانتيكى ولكنى معتدل ، والامر عندى تماما كالانفعالات ، فأنا اريدها حلوة رقيقة ، وحزينة حالمة ، ولكنى لا أريد أبدا دما وبشاعة . يجب تغطية الكوارث ، وأنى لاعرف أن هناك أناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف ، وهم .. عجبا ! هل قرأتن سيداتى الرواية الجديدة ؟

**السيدات** ــ أية رواية ؟

**الشاعر الحزين** ــ الرواية التى عنوانها : « آخر يوم » ..

**سيد بدين** ــ كفى ياسيدى ! فأنا أعرف ما تريد ان تقول ان العنوان وحده يرهق أعصابى !

**مدام دى بلانفال** ــ وأنا كذلك .. انه كتاب فظيع ، وهو عندى هنا

**السيدات** ــ أرينا اياه .. أرينا اياه !

( يمر الكتاب من يد الى أخرى )

**شخص ما** ــ ( يقرأ ) : آخر يوم فى حياة شخص ...

**السيد البدين** ــ رحماك ياسيدتى !

**مدام دى بلانفال** ــ حقا انه كتاب شنيع يسبب الكابوس ، ويجلب لقارئه المرض

**سيدة** ــ ( بصوت منخفض ) : يجب أن أقرأ هذا الكتاب

---

(١) شاعر رومانتيكى من شعراء القرن السادس عشر

**السيد البدين** ــ من واجبنا أن نعترف بأن الاخلاق تتدهور من يوم الى يوم . يا الهى ! يالها من فكرة بشعة ! .. أوليس تحليل كل الآلام البدنية ، وكافة انواع العــذاب النفسى التى يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم تنفيذ الحكم فيــه ، واحدة بعد أخرى ، والتغلغل فيهـا ، والتنقيب عن جذورها وملابساتها .. أو ليس هذا كله شيئا شنيعـا ؟ أتفهمــن سيداتى انه قد وجد بالفعل كاتب تبنى هذه الفكرة وان ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب ؟

**الفارس** ــ هذا فى الواقع عمــل ينطوى على أكبر قدر من الوقاحة !

**مدام دى بلانفال** ــ ومن هو مؤلفه ؟

**السيد البدين** ــ لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعــة الاولى

**الشاعر الحزين** ــ انه هو بعينه الذى سبــق له أن كتب روايتين أخريين .. أقسم بشرفى انى نسيت عنوانيهما ! ان الرواية الاولى تبدأ فى المشرحة وتنتهى فى ساحة الاعدام ، وفى كل فصل من فصولها تجدون غولا يأكل طفلا

**السيد البدين** ــ وهل قرأت هذا ياسيدى ؟

**الشاعر الحزين** ــ نعم ياسيدى ، وحوادث هذه الرواية تقع فى « ايسلاندة » ..

**السيد البدين** ــ فى ايسلاندة ؟ ان هذا لشىء مخيف !

**الشاعر الحزين** ــ لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية وألوانا

عدة من القصائد لست أعرفها ، ولــــكن فيها الوحوش ذات الاجساد الزرقاء !

**الفارس** ــ ( ضـــــاحكا ) : يا الهى ! لابد أن يكون هذا بيتا عنيفا من الشعر

**الشاعر الحزين** ــ لقد نشر كذلك دراما مسرحية ــ انهـم يسمون هذا دراما ــ ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر :

غدا ، الخامس والعشرون من يونيو سنة ألف وســتمائة وسبع وخمسين

**شخص ما** ــ ياله من بيت من الشعر !

**الشاعر الحزين** ــ ان هذا يمكننا كتابته بالارقام .. انظرن سيداتى :

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧

( يضحك ويضحك معه الآخرون )

**الفارس** ــ لقد أصبح الشعر الآن شيئا « خاصا »

**السيد البدين** ــ آه ! ان هذا الرجل لا يعرف كيف يقــرض الشعر فما هو اسمه ؟

**الشاعر الحزين** ــ انه اسم يصعب حفظه والنطق به ..وبه المقطع : « جو » .. شىء يشبه « فيزيجو » على ما أذكر ،وعلى كل حال فان فيه شيئا من « الاوستروجو » ( ١ )

يضحك

---

(١) قبائــــل البربر التى غــــزت الامبراطورية الرومانية . وواضح ان الشاعر الحزين يلمح هنا الى اســــم « فيكتور هيجو »

**مدام دى بلانفال** ــ انه رجل بغيض !

**السيد البدين** ــ بل رجل شنيع !

**سيدة شابة** ــ ان شخصا يعرفه قال لى ..

**السيد البدين** ــ أتعرفين شخصا يعرفه ؟

**السيدة الشابة** ــ نعم ، وهو يقول انه رجل حلو الطباع ، بسيط ، يضحك وهو فى عزلتــه ، ويقضى أيامه فى اللعب مع ابنائه

**الشاعر الحزين** ــ ويقضى لياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة .هذا شيء فريد ! اليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقة طبيعية للغاية :

« ولياليه يقضيها فى الحلم فى مؤلفاته المظلمة »

وهو بيت مصقول حسن ، ولا تنقصه الا قافية بيت آخــر آه ! .. هاهى ذى :

**(( فى الليل الحالك ))**

**السيد البدين** ــ كنت تقولين اذن يا ســيدتى ان المؤلف المذكور له أبناء صغار .. ان هذا مستحيل ياسيدتى ، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب ! ... أوه ! مثل هــذه الرواية المفزعة ...

**شخص ما** ــ ولكن ، لاى هدف كتب هذه الرواية ؟

**الشاعر الحزين** ــ انى لى أن أعرف ؟

**فيلسوف** ــ يبدو انه كتبها بقصد الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام

**السيد البدين** ــ انى اقول لكم ان هذه الرواية شىء بشع !

**الفارس** ــ آه ! انى ارى ذلك . . انها اذن مبارزة مع الجلاد

**الشاعر الحزين** ــ الواقع انه يحقد على المقصلة كل الحقد

**سيد نحيل** ــ أستطيع أن أتصور ذلك ، فهى خطب اذن ؟

ــ كلا على الاطلاق أن هناك صفحتين على الاكثر عن نص عقوبة الاعدام ، أما الباقى كله فهو عبارة عن مشاعر

**الفيلسوف** ــ هذا هو وجه الخطأ ، فالموضوع كان جديرا بالتأمل . ان « الدراما » أو الرواية لاتبرهن على شيء ، ثم انى قرات الكتاب ، وهو كتاب ردىء

**الشاعر الحزين** ــ بل وكريه ! هل هذا فن ؟ انه قد تخطى الحدود وحطم الزجاج ! وهناك كذلك هذا المجرم . . آه لو كنت أعرفه ! ولكن . . كلا ! ماذا جنت يداه ؟ اننا لانعرف عن ذلك شيئا ، وليس لاحد الحق فى أن يثير اهتمامى بانسان لا اعرفه

**السيد البدين** ــ ليس من حق الكاتب أن يثير فى القارىء آلاما بدنية . اننى عندما أشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل . . آه ! حسنا . . فذلك لا يؤثر فى نفسى ، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الراس ، انها تجعل جسمك يرتجف بأسره ، وتجعلك تحلم احلاما فظيعة . لقد لازمت الفراش يومين بعد ان قرأتها

**الفيلسوف** ــ زد على ذلك انه كتاب بارد ومتكلف

**الشاعر** ــ أوه ! كتاب ! . . كتاب !

**الفيلسوف** ــ نعم ، وكما كنت تقول منذ لحظة ياسيدى ، انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقى ، الفن بمعنى الكلمة ! اننى

لا اعنى بأمر افتراضى محض ، ولست أرى فى الرواية شخصية تتقمص شخصيتى . وفوق هذا ، فأسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا ، انه ملىء بالكلمات العتيقة ، افليس هذا هو ماكنت تقوله ؟

**الشاعر** ـ بلا شك ، بلا شك ! يجب ألا تكون هناك شخصيات

**الفيلسوف** ـ ان الشخص المحكوم عليه لا يثير الاهتمام

**الشاعر** ـ وكيف يمكن ان يثير اهتمام القارىء ؟ انه ارتكب جرما ولا يشعر بندم ! لو أننى كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما ، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه ، فقلت انه مولود من أبوين شريفين وتلقى تربية طيبة . وبعد هذا يأتى الحب ، والغيرة ، وجريمة لاتكون جريمة .. ثم يأتى دور الندم . نعم ، كثير من الندم . ولكن القوانين التى وضعها الانسان لا ترحم . فيجب اذن أن يموت . وهنا ، كنت أتحدث عن موضوعى الذى أعالجه : عقوبة الاعدام

**مدام دى بلانفال** ـ آه ! آه !

**الفيلسوف** ـ عفوا ! ان الكتاب كما يفهمه السيد لا يبرهن على شىء ، فالخاص لايكون حكما للعام

**الشاعر** ـ حسنا ! هناك ماهو افضل . لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا ، شخصية كشخصية مالزرب ، مالزرب الفاضل ؟ آخر يوم فى حياته وعذابه قبل اعدامه ؟ آه ! انه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جميلا نبيلا ! ولكنت بكيت

وارتجفت من الانفعال ورغبت فى الصعود معه الى المقصلة !

**الفيلسوف** ـ اما انا فلا !

**الفارس** ـ ولا انا . الواقع أن السيد « مالزرب » الذى تتحدث عنه كان ثائرا

**الفيلسوف** ـ ان شنق « مالزرب » لايبرهن على شىء ضد عقوبة الاعدام بوجه عام

**السيد البدين** ـ عقوبة الاعدام ! ماجدوى الاهتمام بهـذا الامر ؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام ؟ لابد ان يكون هذا الكاتب من وضاعة الاصل بحيث يأتى ليثير فى انفسنا بكتابه هـذا كابوسا بشأن هذا الموضوع !

**مدام دى بلانفال** ـ ان الذين وضعوا القوانين لم يكونوا اطفالا

**الفيلسوف** ـ آه ! ومع ذلك ، فعندما تعـرض الامور فى صراحة . . .

**السيد النحيل** ـ آه ! هذا هو ما ينقص الكتـاب تماما : الحقيقة والصراحة

ماذا تريدون أن يعرفه شاعر عن مثل هذه الامور ؟ يجب أن يكون المرء على الاقل وكيلا للنائب العام . عجبا ! انى قرات فى نص ذكرته احدى الصحف عن هذا الكتاب ان المحكوم عليه لايقول شيئا عندما يقرءون عليه نص الحكم . حسنا ! أمـا أنا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام وهو يصيح بقوة فى تلك اللحظة قائلا :

« هل ترون ... ؟ »

**الفيلسوف** ـ هل تأذن ... ؟

**السيد النحيل** ـ عجبا أيها السادة ! ان المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد ، والدليل على هــذا أنه كتاب يفســد الذوق ، ويجعل المرء عاجزا عن أن يشعر بانفعالات نقيــة طازجة وساذجة ! متى ينهض اذن أولئك الذين يدافعون عن الادب السليم ؟ انني أود أن أكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية وقد يعطينى هذا الحق مرافعاتى كوكيل للنيابة . هذه هى حقيقة الامر ياسيد « ارجاست » ، فما رأيك فى كتاب « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام ؟ »

**ارجاست** ـ الحق ياسيدى اننى لم اقرأ هذا الكتاب ولن اقرأه . لقد كنت اتعشى بالامس عند « مدام دى سينانج » ، وتحدثت الماركيزة « دى موريفال » بشأنه مع الدوق « دى ملكور » . ويقال ان هناك بعض شخصيات ضد رجال القضاء، وخاصة ضـــد الرئيس « داليمون » ، وكان الاب « دى فلوريكور » ساخطا كذلك ، ويبدو أن فى الكتاب فصلا يعارض فيه الدين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية . آه لو كنت وكيلا للنائب العام !

**الفارس** ـ حسنا ؟ وكيلا للنائب العام ! وماذا عن الدستور؟ وعن حرية الصحافة ؟ ومع ذلك فسوف تقــرونني على أن شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام أمر شنيع . آه ! فلو أن انسانا سولت له نفسه فى العهد البائد أن ينشر رواية ضد تعذيب

المتهمين . . . ! ولكنهم اصبحوا يستطيعون كتابة كل شيء منذ سقوط الباستيل ! ان الكتب تحدث ضررا بليغا

**السيد البدين** ـ بليغا ! لقد كنا نعيش فى هدوء ولا نفكر فى شيء . كان يقطع فى فرنسا رأس من حين لآخر هنا أو هناك أو رأسان على الاكثر فى كل اسبوع ، غير ان ذلك كله كان يتم فى هدوء وبلا فضائح . كانوا لايقولون شيئا ، ولم يكن أحد يفكر فى الامر على الاطلاق ! وهذا كتاب . . كتاب يحدث لك صداعا اليما !

**السيد النحيل** ـ علينا أن نجد الوسيلة التى تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب

**ارجاست** ـ انه يربك الضمائر

**مدام دى بلانفال** ـ آه ! الكتب ! الكتب ! من كان يصدق ذلك عن رواية ؟

**الشاعر** ـ ليس ثمة شك فى أن الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعى

**السيد النحيل** ـ دون أن نأخذ فى حسابنا اللغة التى يحدث فيها السادة « الرومانتيك » ثورة كذلك

**الشاعر** ـ علينا أن نميز أيها السادة ، فثمة « رومانتيك » و « رومانتيك »

**السيد النحيل** ـ الذوق الفاسد ! الذوق الفاسد !

**ارجاست** ـ انك لعلى حق . الذوق الفاسد !

**السيد النحيل** ـ ليس ثمة مايرد به على ذلك

**الفيلسوف** ــ ( وهو يتكىء على مقعد سيدة ) : انهم يقولون هناك أشياء لم تعد تقال حتى فى شارع موفتار

**ارجاست** ــ آه ! ياله من كتاب بغيض !

**مدام دى برفال** ــ أوه ! لا تلقوا به فى النـــار فهنـــاك من تمتدحه

**الفارس** ــ حدثينى عن زماننا المـــاضى . لشد ما فسد كل شىء منذ ذلك الحين : الذوق ، والاخلاق ! هل تذكرين زماننا يا « مدام دى بلانفال » ؟

**مدام دى بلانفال** ــ كلا ياسيدى . لست اذكره أبدا

**الفارس** ــ لقد كنا نحن الشعب أكثر لطفا وأكثر مرحا وخفة روح ، وكانت الحفلات الجميلة تقام دائما ، وكانت تقرأ الاشعار الجميلة . كان ذلك ساحرا للغاية . أهناك ماهو أروع من الشعر الذى كتبه السيد « دى لاهارب » عن الحفل الراقص العظيم الذى أقامته مدام « لاماريشال دومايى » فى عام ١٧٠٠ وهو العام الذى أعدم فيه « داميان ؟ »

**السيد البدين** ــ ( متنهدا ) : ياله من زمن سعيد ! والآن صارت الاخلاق مروعة ، وكذلك الكتب . هـــذا البيت من الشعر الذى قاله بوالو ( ١ )

« ان سقوط الفنون يتبع تدهور الاخلاق »

---

(١) شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (١٦٣٦ – ١٧١١م)

**الفيلسوف** ــ ( فى صوت منخفض موجهـا الحديث إلى الشاعر ) :

هل هناك عشاء فى هذا البيت ؟

**الشاعر الحزين** ــ نعم ، بعد قليل

**السيد النحيل** ــ والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام ، ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاسدة الذوق ولا أخلاق فيها مثل « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » وغيرها مما لا أعرفه !

**السيد البدين** ــ عجبا ياعزيزى ! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع . وبما اننا قد تقابلنا ، فقل لى ماذا ستفعل فى أمر ذلك الرجل الذى رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة أسابيع ؟

**السيد النحيل** ــ آه ! قليلا من الصبر ! أنا هنـا فى عطلة ودعنى التقط انفاسى . وسوف ارى ذلك بعد عودتى الى العمل، ومع ذلك فان تأخرت كثيرا فسوف اكتب الى من يقوم بعملى

**خادم** ــ ( يدخل ) : سيدتى : أن العشاء قد اعد !

# وكلاء مجلات دار الهلال

| | |
|---|---|
| لبنـــان و الاقليم الشمالى : | وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا<br>صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت |
| العـــراق : | السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية<br>ببغداد |
| اللاذقيـــة : | السيد نخلة سكاف |
| جـــدة : | السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٤٩٣ |
| البحـــرين : | السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١ |
| البـــرازيل : | Dr. Michel H. Tomé,<br>Paeto Do Colegio No. 3<br>3° Andar — Sala 9<br>SAO PAULO — BRASIL |
| غـــانا : | Mr Joseph Hassan,<br>The Cine Travel Co.,<br>P.O. Box 1883,<br>ACCRA, GHANA |
| نيجـــريا : | Mr Mohammed Said Mansour,<br>P.O. Box 652,<br>LAGOS, NIGERIA |
| سيراليـــون : | Messrs, Allie Mustapha & Sons,<br>P.O. Box 410,<br>Freetown Sierra Leone |
| سنغـافورة : | Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit<br>Almaktab Attijari Asshargi,<br>P.O. Box 2205,<br>SINGAPORE |

# هذا الكتاب

اذا كان فيكتور هيجو قد اشتهر أكثر ما اشتهر بموقفه الرحيم حيال البؤساء وحملته على النظم الاجتماعية التى كانت قائمة فى عصره ، فقد اشتهر كذلك بحملاته العنيفة ، وثوراته القاسية على الاوضاع القانونية • وقد ثار هيجو ثورة عنيفة على الحكم بالاعدام • وقد دفعه الى هذه الحملة نزعة انسانية نبيلة كان من أثرها أن أخرج هذا الكتاب الرائع ( آخر أيام محكوم عليه بالاعدام ( La dernier jour d'un condamné ) الذى أحدث ضجة عظيمة بين الناس عامة ورجال القضاء خاصة • وقد جعل الكتاب على لسان أحد المحكوم عليهم بالاعدام الذى شاء أن يسطر على القرطاس أحاسيسه ومشاعره وما لاقاه من ضروب العسف والقسوة من رجال الشرطة • وهذه الصرخة المدوية التى سجلها هيجو فى كتابه دفعت كثيرا من الناس أن يطالبوا بالغاء الحكم بالاعدام • ويسر سلسلة كتاب الهلال أن تقدم اليوم هذه التحفة الرائعة

كتاب الهلال
١٠٨



# الإسلام في القرن العشرين

عباس محمود العقاد

# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٠٨ ـ رمضان ١٣٧٩ ـ مارس ١٩٦٠

No. 108 — March 1960

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ـ فى الامريكتين ٥ ١/٢ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

# الإسلام فى القرن العشرين

## حاضره ومستقبله

بقلم

عباس محمود العقاد

# مقدمة

كان التقليد التاريخى فى القرن السادس للميلاد ان تتقاسم العالم المعمور دولتان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى تنافسها ولا تأمنها ولا تهدأ عن حربها فترة من الزمن الا ريثما تستعد لمعاودة الكرة بقوة من الجنــــد والسلاح أعظم من القوة التى جردتها عليها فى حروبها الاولى

وكانت الدولتان المتنافستان فى ذلك القرن دولة المشرق وهى دولة الاكاسرة ، ودولة المغرب وهى دولة القياصرة : فارس وبيزنطة ، ولا ثالثة لهما فى العالم المعمور بين القارات الثلاث

جهدت كل من هاتين الدولتين الا تدع بقعة من البقــاع المعمورة فى القارات الثلاث بعيدة من سلطانها او قادرة على عصيانها

وكانت بينهما صحراء جرداء تحفــل الدولتان بما حولها ولا تكترثان لما يجرى فى داخلها ، وامتد سلطان كل منهما الى الجانب الذى يليه فاتخذت فيه اتباعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها : فارس تسيطر على الحيرة واليمن ، وبيزنطة تسيطر على أرض غسان والبتراء وتهم أن تنصب لها أميرا على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من أوله فى الجزيرة العربية . ثم لايعنيها الامر عناية جد تنتهى فيه الى عمل فاصل تجاوز به التردد والشروع ، فليس الامر من الخطر عندها بحيث تفرغ منه على قرار

أما الخطر الذى فرغت له كلتا الدولتين فهو الخطر من احداهما على الاخرى ، والخطر من قبل النهرين فى العراق ومن قبل النهر الكبير فى وادى النيل . فلم تكن بقعة من هذه البقاع قد خلت طويلا من جنود الدولتين منتصرين أو منهزمين، ولم تزل الحرب بينهما سجالا فى هذه الاودية وما جاورها ، ولم تزل كل منهما على أمان من قبل الجزيرة الجرداء

نعم كان جيش من الفرس قد انهزم فى وقعة ذى قار على طرف من أطراف تلك الجزيرة ، ولكنها هزيمة حرس فى ولاية كما تخيلوها وليست هزيمة دولة تنازل قرنا لها من دولة أخرى جديرة بالخوف منها وحفز الهمم للتغلب عليها ، ومثلها فى عصورنا الحديثة كمثل الهزائم التى اصيبت بها الدولة البريطانية يوم كانت تدعى سيدة البحار أو يوم كان القائلون منها يقولون ان الشمس لا تغيب عن أملاكها : هزائم تارة فى حدود الافغان أو عند أعالى النيل أو على طرف القارة السوداء فى الجنوب ، ولكنها تنهزم فيها وتبقى بعدها سيدة البحار أو غالبة على كرة الارض بين مشارقها ومغاربها

وكذلك كانت فارس بعد وقعة ذى قار ، فلم تتبع هزيمتها بحذر أو احتراس من تلك الجهة ، وظلت على عهدها من الحذر حيث تخشى الخطر ، فلا ترفع عينها عن بيزنطة وأتباعها فى أودية الانهار أو بين أرجاء الهلال الخصيب ، ولا تحسب هى ولا صاحبتها بيزنطة أن ثمة خطرا عليهما قط متوقعا من جهة الجنوب

فلما جاء كسرى رسول من قبل هذا الجنوب وسأل عن شأن هذا الرسول فقيل انه نبى فى العرب يدعوه الى دينه . . . ضحك غاضبا أو غضب ضاحكا وامر من يذهب الى ذلك النبى الجسور فيأتيه به حيا أو ميتا . . ليلقى جزاءه على هذه الجسارة التى اجترأ بها على الشاهنشاه ملك الملوك

ولما تسامع القوم فى الجزيرة العربية ان ذلك النبى يهم أن يحارب القيصر فى عقر داره سخروا وقالوا فيما بينهم عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية

لا بل قيل ذلك ، أو شبيه ذلك ، بعد ثلاثة عشر قرنا من القرن السادس الذى استعظموا فيه ما استعظموا من جراة النبى العربى على عروش الاكاسرة والقياصرة ، فكان من المؤرخين المحدثين من كتب تاريخ الوقائع التى دارت بين اتباع ذلك النبى وبين جبابرة الفرس والروم ، ومن كتب فى تاريخه هزيمة أولئك الجبابرة أمام أولئك الاتباع ، ولكنه حين روى النبأ عن رسل النبى الى كسرى وقيصر رواه وهو يتعجب ويقول شبيها لما قيل يومئذ قبل النصر والهزيمة : عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية ، أو عساه قد زهاه النصر فى مكة والمدينة فلم يدر ما المدائن وما القسطنطينية وراء الرمال والبحار !



# قوة غالبة

# وقوة صامدة

# قوة غالبة !

ان أعجب العجائب لما ينقضى على وقوعه مئات السنين ثم يتعاظم من يرويه حتى ليوشك أن يرتاب فيه

وكان ماجرى للدولتين ــ الفرس والروم ــ يومئذ أعجب العجائب فى تواريخ الدول من قديم وحديث . فقد هزمت الدولتان معا فى بضع سنوات ، ولم يأت الخطر عليهما من مكان تتوقعان خطره احداهما أو كلتاهما ، بل جاء من المكان الذى هان شأنه حتى لم يحسب له حساب

جاءت القوة التى هزمت الدولتين فى وقت واحد من وراء الرمال أو قل من وراء المجهول أو من وراء الغيب ، ولا تعدو الحق فيما تقول

قوة غالبة لم تصمد لها قوة

قوة نجمت من حيث لا مخافة ولا مظنة ، فما هى تلك القوة ؟ وليست هى قوة دولة ولا قوة سلاح . . !

قيل فيما قيل انها خشونة البادية غلبت ترف الحضـارة ونعمة الرخاء ، ولكن الدولتين اللتين انهزمتا معا قد كانتا تحكمان الملايين ممن لايعرفون من العيش غير خشونته وشظفه ، وكانت فارس تحكم من حولها قبائل لم تعرف غير الجبال والقتال ، وكانت بيزنطة تحكم على تخومها أشباه تلك القبائل فى خشونتها وقوة مراسها ، وظلت تحكمها وتهزمها كلما أغارت عليها من غربها أو شمالها ، بعد أن تلاحقت هزائمها فى وقائعها مع أبناء

انبادية العربية ، وسلمت بالهزيمة بعد الهزيمة تسليم الخيبة والاضطرار

وقيل فيما قيل انه احتقار العرب للعجم ، وكل الناس عجم عند من ينطقون بالضاد

ولكنه سلاح كان ينبغى أن يصدق من الجانبين ، وأن يغلب به العجم فى بعض ميادينهم ان لم يغلبوا به فى الميادين كافة حيثما التقى الخصمان المتساويان فى ذلك السلاح ، بل لعل العجم كانوا اشد احتقارا للعربى فى تلك الحقبة على التخصيص ، وقد حدث فى احدى وقعات العراق أن زعيما عربيا ممن يلوذون بدولة فارس عرض على مهران قائد الفرس أن يتولى عنه حرب خالد بن الوليد لان العرب أعلم بقتال العرب ، فغضب جنود مهران لانهم سمعوه يقول لذلك الزعيم العربى : « صدقت . لانتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم » وثاروا به يستعظمون أن يقول « لذلك الكلب » ما قال ، ولم يرضوا عن هذه المجاملة لمن يريد نصره حتى قال لهم : « دعونى . فانى لم ارد الا ماهو خير لكم وشر لهم .. فان كانت لهم على خالد فهى لكم ، وان كانت الاخرى لم يبلغكم أعداؤكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء »

الا ان هذا « الاحتقار » سلاح موفور فى المعسكرين ، فان كان للعرب نصيب كبير منه فما كان عنـد العجم منه فهو نصيب غير صغير

على أن العرب الذين حاربوا الفرس والروم وانتصروا عليهم لم يكونوا جميعا من أبناء البادية ولا من الناشئين على الشظف والشدة ، بل كان منهم أبناء نعمة وثراء ، وكان قائدهم الاكبر ـ خالد بن الوليد الذى قال الزعيم العربى لقائد الفرس مهران انه أعلم بقتاله ـ مخزوميا من أغنى السروات فى بنى مخزوم ذوى الجاه العريض والثراء المستفيض ، اذ كان جده ـ كما

ذكرنا فى سيرته ـ المغيرة بن عبد الله الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر ان ينسب اليه فيسمى المغيرة تشرفا بالانتساب الى الفرع الذى أناف على الاصول ، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لانه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى، وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالاحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه ، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان ، وكان عمه أبو حذيفة أحد الاربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الاسود الى موضعه من الكعبة كما اشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية . اما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو امية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات ، فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين . ولقب أبو أمية زاد الراكب لانه كان يكفى أصحابه فى السفر مئونتهم فلا يتزودون بزاد ... ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع انسانى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص .
فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الاقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى مابعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لابى العباس السفاح : « ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين ... »

فاذا كان المقصود بترف الروم والفرس ترف الطبقة التي يخرج منها القادة والسادة فليس فى قادتهم من أحاطت به نعمة الثراء كما أحاطت بقائد المسلمين الاكبر فى حربهم للدولتين ، وهو الذى سماه صاحب الدعوة الاسلامية بسيف الاسلام

ولا ننسى أن الجيوش الاسلامية لم تصل الى ميادين العراق وفلسطين حتى كانت قد انتصرت على جيوش عربية من البدو والحضر قد نشأت مثل نشأتها وتدربت على القتال مثل دربتها وعرفت من الترف والخشونة مثل ما عرفته فى بداوتها وحضارتها

ولا ننسى أن الظاهرة قد تكررت حيث لا عرب ولا روم ، وحيث كان الفرس فى صفوف المنتصرين مع أمراء الاسلام . ففى القرن الثانى عشر للميلاد كان السلطان محمد غورى الافغانى يحارب قبائل « راجبوت » الهندية التى اشتهرت بالشجاعة والفروسية فى العالم القديم من أقصى الديار الاسيوية الى أقصاها ، وكان على رأسهم قائدهم « برتوى » الذى قيل عنه انه لم يعرف الهزيمة قط فى منازلة قرين ، فانتصر الجيش الافغانى بمن فيه من الافغانيين والاتراك والفرس على جيوش الراجبوت بعد حرب زبون كان النصر فيها سجالا بين الفريقين ، واوشك الامير الغورى أن يقع فى احدى معاركها أسيرا مثخنا بالجراح فى قبضة عدوه العنيد

وتكررت الظاهرة فى المغرب حيث كان المنهزمون من قبائل البربر التى لم تعرف فى تاريخها القديم غير الخشونة والقتال ، وكان تكرارها فى مواطن شتى دليلا على أن القوة التى انتصر بها دعاة الاسلام لم تنبعث فيهم من خشونة البادية العربية ولا من هوان شأن العجم على العرب ، ولا حاجة الى قول قائل انها لم تنبعث من بأس الملك ولا من عدة السلاح

فلا مناص اذن من الرجوع بها الى السبب الذى اتفق عليه

المؤرخون او كادوا بعد التعلل لها بجميع الاسباب

لا مناص اذن من الرجوع بها الى العقيدة التى حفزت أولئك المجاهدين على اختلاف الاقوام والازمان

غير أن الرجوع بها الى العقيدة لايختم المطاف ولا يغنى عن مزية فى هذه العقيدة تمتاز بها بين العقائد الكثيرة التى سبقتها أو لحقت بها ولم تنبعث منها قوة كهذه القوة ولا ظاهرة كهذه الظاهرة بعد تجريدها من العوامل الاخرى

فما كانت جيوش الروم ولا جيوش الفرس خلوا من عقيدة يؤمنون بها ويقبلون على الموت فى سبيلها ، وما كانت قبائل الهند أو آسيا الوسطى تجهل الدين أو تهمله فى معيشتها اليومية فضلا عن المراسم التى تصحب المتدين من مولده ولا تفارقه مدى الحياة

أيقال انها دفعة الدين الجديد ميزت عقيدة الاسلام على سائر العقائد فى ذلك التنازع بين الدول والاديان ؟

ان دفعة الدين الجديد ولاشك سبب لايهمل فى هذا المقام ، وقد يسبق الى الخاطر لتفسير قوة الدعوة فى القرن السابع للميلاد وفى القرن الثانى عشر يوم كان القائمون بالدعوة فى آسيا الوسطى أقواما من الافغان والترك دخلوا حديثا فى الدين

لكن كم من عقيدة جديدة صنعت مثل هذا الصنيع ؟ وكم ظاهرة كهذه الظاهرة تكررت فى تواريخ الدول والاديان ؟



## وقوة صامدة !

ان العقيدة الاسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب فى ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولابد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لابد من تفسير لتلك القوة الغالبة . فان القوة التى تصمد كالقـوة التى تغلب فى حاجتهما الى التفسير ، أو لعل القوة التى تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لانها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة فى معترك الصدام والصراع

وصمود القوة الاسلامية فى أحوال الضعف عجيب كانتصارها فى أحوال الشدة والسطوة ، ولاسيما الصمود بعد اكثر من عشرة قرون

ولقد تداولت الدول بقاع الارض من القرن السابع للميلاد الى العشرين : قامت دول اسلامية ثم انهارت أمام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الاديان الاخرى ، وحدث فى فترة من الزمن خروج المسلمين من أوربا الغربية ودخولهم الى أوربا الشرقية ، ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقـاهرة وقامت دولة الآستانة أو اسلامبول ، ثم ظلت هـذه الدولة وحدها كفؤا للدول الاوربية مجتمعات أو متفرقات حتى تداعت أركانها وتصدع بنيانها وبقيت قائمـة لاختلاف الطامعين فى ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد الاسلامية بين هزيمـة واضطهاد وتمزيق وتفريق حتى تمـكن منها

المستعمرون فلم تبق منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة الاستقلال ، ومن كان منها مستقلا كالدولة العثمانية او الدولة الايرانية أو الدولة الحسينية بالمغرب الاقصى كان افتيات المستعمرين على حقوقها اشد واقسى من افتياتهم على البلاد التى فقدت حريتها واستقلالها ، وانقضى القرن التاسع عشر كله والامم الاسلامية مخذولة متخاذلة والدول المستعمرة غالبة متحكمة ، وخيل الى الناظرين أن الحاضر والمستقبل جميعا للاستعمار ، وأنه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة واصبحوا فى كل منها عالة على المستعمرين

ثم انتهى القرن التاسع عشر فكيف رأى الناس منتهاه ؟

الاستعمار يتراجع ولا يظفر بغناء من سلطان المال والعلم والسلاح

والاسلام تبرز له دولتان فى آسيا عداد المسلمين فى كل منهما يزيد على سبعين مليونا ، وهما دولتا اندونيسية والباكستان . . وسائر الدول فى آسيا وافريقية تقترب من الحرية وتبتعد من ربقة العبودية ، وهذه هى قوة الصمود بعد أربعة عشر قرنا من الدعوة المحمدية ، لا ينظر المؤرخ فى أطوارها على تعدد ظواهرها وأدوارها الا وجب عليه أن يفترض لها سرا عجيبا كذلك السر العجيب فى صدر الاسلام : سر الغلبة من حيث لا تنتظر الغلبة على دولتى العالم فى مدى خمس سنوات

ان قوة الصمود هنا لعجيبة كقوة الغلبة هناك ، ولعلها ــ كما قدمنا ــ أعجب من قوة الغلبة ، لانها تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، لا بل تملك الدفاع ولا اتفاق بينها على الدفاع

وندع الصراع فى مجال الدول المتداولة بين السطوة والخضوع وبين النصر والهزيمة ، فان قوة العقيدة الاسلامية

قد سرت مسراها فى أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفى افريقية اليوم مائة مليون مسلم لا شأن فى اسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون فى السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه فى الباكستان ، وقد يكون فى الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين

وهؤلاء جميعا سرت فيهم عقيدة الاسلام بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، أو كان الدول والسياسات شأن فى اسلامهم من بعيد متقطع غير موصول ولا مقصود ، ولعله لو انحصر الامر فيه لايكفى لاسلام عدة من الناس تحسب بالالوف والمئات ، ولا ترتفع الى عشرات الملايين فضلا عن مئات الملايين ، ولو حسب جهاد المجاهدين فى سبيل اسلامهم بعد الرءوس التى سقطت فى ميدان القتال ، لكان الرأس الواحد هنا عدلا فى كفة الميزان الاخرى لمئات الالوف

هذه القوة ، غالبة وصامدة ، تتطلب تفسيرا غير كلمة العقيدة مجردة من خواصها ومزاياها ، ولا غنى لها عن مزية تهيأت لها ولم تتهيأ للعقائد الاخرى التى لم يعرف عنها مثل هذه الغلبة ومثل هذا الصمود ، وتلك حقيقة فطن لها الباحثون فى انتشار الاسلام من أصدقائه وأعدائه على السواء ، فذهبوا جميعا يلتمسون الدواعى التى يسرت لهذه الدعوة مالم يتيسر لغيرها ، وهم متفقون على انفرادها بالمزية الخاصة مختلفون فى بيان تلك المزية على حسب اختلاف النية واختلاف الرغبة فى الحمد أو المذمة ، ومنهم مبشرون يلجأون الى المزايا التى تعينهم على الاعتذار كلما وضح عجزهم عن تحويل المسلمين من دينهم أو وضح عجزهم عن مجاراة الدعاة الاسلاميين فى نشر دينهم بغير مشقة وبغير كلفة من المال والعتاد ووسائل التدريب

والتنظيم

فمن أسباب انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ــ عند فريق من هؤلاء الباحثين أو المبشرين ــ انه لا يمنع تعدد الزوجات ولا يحول بين الرجل الافريقى وطلاق زوجاته او الاحتفاظ بما شاء منهن كما يشاء

ومن اسباب انتشاره عند الباحثين فى سرعة الاقبال عليه بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وغيرها من طوائف السادة والاشراف ، فأقبل المنبوذون عليه زرافات وبلغوا به من المكانة الاجتماعية مالم يكونوا بالغيه بالعقيدة المفرقة بين الطوائف والطبقات

ومن هذه الاسباب عند الباحثين فى سرعة انتشاره بين الاندلسيين انه صادف ثمة شعبا فقيرا ساءت ظنونه بساداته من رجال الدنيا والدين وانكروا من أولئك السادات الدنيويين والدينيين تعاليا عليهم واشتغالا عنهم بلذتهم وأبهتهم ، فرحبوا بأصحاب الدين الجديد ودخلوا فى ملتهم لانها ملة لا تفرق بين السادة والعبيد

ومن هذه الاسباب أنه دين بسيط سهل القواعد والاصول لا يحوج المتدين به بعد الايمان بالوحدانية وفرائض العبادة الى شيء من الغوامض والمراسم التى يدين بها أتباع العقائد الاخرى ولا يفقهون ما فحواها !

وهذه كلها ــ على أصح ما تكون ــ أسباب محلية أو أسباب موقوفة تصلح لتعليل انتشار الدين فى بيئة معينة أو فى زمن معين ، ولكنها لا تلازم انتشاره فى جميع البيئات والازمان ، ومشكوك مع هذا فى صدق تعليل بعضها فى البيئة الواحدة كما قيل عن تعليل شيوع الاسلام بين الافريقيين وقلة اقبالهم على العقائد التى تحرم تعدد الزوجات

فليس تعدد الزوجات من اليسر بحيث يقدر عليه كل من

اراده بين اولئك الافريقيين ، ومن كان منهم قادرا على تعديد زوجاته وسراريه فهو يعددهن حتى الساعة كائنا ماكان اعتقاده أو كائنا ما كان دينه بين الاديان الكتابية ، وسائر القوم من غير ذوى القدرة على الجمع بين الزوجات الكثيرات قلما يعنيه السماح له بزوجة أو أكثر من زوجة ، وقلما يوجد فى بيئته سجل يحصى عليه عقود الزواج والطلاق ، وقد أجمع الرحالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدبير المهر المطلوب بين قبائل افريقية الوسطى ، فلا يتأهل الشاب للبناء بالزوجة الواحدة الا أن يكون ذا مال يحسب بما عنده من رءوس الماشية والانعام، ومن المستغرب حقا أن يتخيل المرء افريقيا يدخل فى الدين ثم يخرج منه لانه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التى ارتبط بها بعقد من العقود على أيدى رجال الدين ، واغرب من ذلك أن نتخيل الافريقى الاعزب منتظرا متسائلا لا يدخل فى الدين حتى يتبين مايبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج

وأيا كان أثر العلاقات الزوجية فى انتشار الاسلام بين الافريقيين فمن المحقق أن هذه المسألة خاصة لم يكن لها شأن فى منافسة الاديان الاخرى قبل القرن السادس عشر للميلاد ، فان تحريم تعدد الزوجات لم يرد فى كتاب من كتب العهد القديم أو كتب العهد الجديد ، وكل ماورد فى الانجيل أن القس ينبغى ألا يزيد على زوجة واحدة ان لم يكن بد من الزواج ، وقد جمع شارلمان فى القرن التاسع بين زوجتين وزاد عدد زوجاته على خمس كلهن بقيد الحياة غير من فى القصر من السرارى والزوجات « غير الشرعيات » ... واعترف قبل مماته بعشرة من أبناء هؤلاء عدا الثمانية الذين ولدوا له من زوجاته دسدراتا وهوجارد وفستراادا (١) وعدا الابناء الذين

---

(١) Desiderata, Hildegarde, Fastrada

ولدوا له ولم يعترف بهم لانهم كانوا على غير ما يحب من سمات الامراء

ومن الاوهام الشائعة كما قلنا فى كتابنا عن الفلسفة القرآنية « ان الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الاديان الكتابية ... » لان الواقع الذى تدل عليه كتب الاسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الاديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعا عند أنبياء بنى اسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى وستر مارك Westermarck العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الانسانية « أن الكنيسة والدولة معا كانتا تقران تعدد الزوجات الى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لاتعنىبها الكنيسة عنايتها بزواج الاسر الكبيرة ، وكل ما حدث فى القرن الاول المسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بتة ، فكانت الفكرة التى ذهبت الى استحسان الزواج الموحد هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فان لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شرا من امرأتين ، وكانت المرأة على الاطلاق شرا محضا وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهائها أن تكون لها روح علوية ، فبحثوا فى ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا حياة له بعد فناء جسده ... »

ومن الواضح أن هذه المسألة بذاتها ـ مسألة الزواج والمرأة ـ لم تكن من المسائل التى تسبق الدخول فى دين من الاديان ، ومامن أحد فى افريقية وفى سائر القارات رأىالمسلمين منفردين باباحة الجمع بين النساء فى البيت الواحد ، وما من

وثنى على الفطرة أباح له الاسـلام كل ماكان يسـتبيحه من الشهوات على دين آبائه ، وأولها المسكرات التى تفشو بين البدائيين ويضيقون بمنعها أشـد من ضيقهم بمنع تعـدد الزوجات ، وما من عقبة قامت فى وجه المسيحية بين الشرقيين او الغربيين لانها كانت تحض على الرهبانية أو تنظر الى المرأة نظرتها الى شيطان أو حبالة شيطان . فاذا آمن المرء بفساد عقيدة آبائه وأجداده فلا مناص له من قبول الدين الذى كشف له ذلك الفساد ثم يعالج بعد ذلك طاقته على احتمال أوامره ونواهيه ، ولا يرفض الاوامر لانه يعصيها او النواهى لانه يقدر على اقترافها ، بل يحاول أن يكف عن المعاصى والذنوب ويرتقى فى الدين فوق مرتقاه

ولو كان الاقنـاع المنطقى يكفى وحـده لتعليل الظواهر الاجتماعية أو التاريخية لصح أن يقال أن الاسلام قد شاع بين طوائف المنبوذين فى الهند لانه يرفع عنهم لعنة المذلة والحرمان . فهم خلقـاء أن يوازنوا بين منزلتهم فى دين آبائهم واجدادهم ومنزلتهم فى الدين الاسلامى فيختاروا أفضل المنزلتين ، وقد وازنوا واختاروا فدخلوا أفواجا فى الدين الجديد

غير أن الاقناع المنطقى لايكفى وحده لتعليل ظواهر الاجتماع وظواهر التاريخ فيما له اتصال بأطوار السرائر على الخصوص ، أو لعل الاقناع المنطقى يكفى المؤرخ فى تعليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية اذا اعتمد عليه فى كتابة التاريخ ولم يجعل الناس جميعا معتمدين عليه فى أعمالهم منقـادين له فى أحاسيسهم ودخائل وجدانهم . فمن المنطق الصحيح أن يرجع المؤرخ بالحوادث الى الاسباب الثابتة والعوامل المقنعة ، وليس من المنطق الصحيح أن نتخيل الناس جميعا منطقيين حين يؤمنون أو حين يكفرون ، ومنطقيين فى تمييز الحق والباطل من الدواعى والاسباب

والواقع فى أمر المنبوذين الهنديين ، وفى أمر المحـــرومين جميعا ، أنهم لم يكونوا اضعف ايمانا بعقيدتهم البرهمية من أبناء الطبقات العليا ، ولم يثبت قط أن التحول الى الاديان الاخرى كان بينهم اكثر وأسرع مما كان بين الطبقات العليا ، وربما وجـد فيهم من يصبر على قسمته لانه يعتقد انهــا شرط من شروط الخلاص الابدى وكفارة عن المساوىء التى سلفت منه فى أدوار الخلق الاولى ، وربما كان من المحرومين فى كل أمة من هو اثبت ايمانا على دينه من ذوى النعمة والثراء، لان جانب الوعد والامل قوى فى الدين ، ونصيب المحروم من الوعد والامل اوفر من نصيب القانع المجدود

وقد حدث حقا أن أناسا من المنبوذين رحبوا بالدين الاسلامى ودخلوا فيه لارتياح نفوسهم اليه ولحسن ماعاينوه من القدوة الصالحة فى سيرة المسلمين الوافدين على بلادهم والمقيمين بين ظهرانيهم ، ولكننا لا نجد من أسانيد التاريخ ولا من أسانيد العقل مايفهم منه أن الهنود الذين أسلموا كانوا جميعــا من طوائف المنبوذين ، بل لانجد فى تلك الاسانيد مايفهم منه أن الاكثرين كانوا منهم ولم يكونوا من طبقات العلية وذوى الوجاهة فى المجتمع أو فى الدولة الحاكمة ، وقد تحول الهنود الى الاسلام فى بقاع الهند الغربية من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حيث يوجد المنبوذون وحيث لايوجدون ، وتحول أهل سومطرة وجاوة الى الاسلام بهذه الكثرة أو بأكثر منها وهم بوذيون يقل بينهم المنبوذون ، وتكاد الروايات المحفوظة عن أخبار الاسلام فى الجزر الجاوية أن تجمع على ابتداء الاسلام بين الامراء والقادة ثم شيوعه بأمرهم وهدايتهم بين رعاياهم الوثنيين ، ولعلها هى القاعدة المطردة فى معظم الامم الاسيوية من سكان الجزر الى سكان القارة الوسطى سواء من كان على الوثنية أو من دان فى صبـــاه ببعض الاديان الـكتابية كمـا حدث فى اســـلام

« تكودار خان » أحد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو الذى نقل لنــا القلقشــندى فى صبح الاعشى كتابا منه الى السلطان قلاوون بمصر يقول فيه :

« ... ان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقــاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام .. »

وقد أسلم على هذا النحو بعض زعماء القبائل الاثيوبية ، فلم ينحصر اقبال الاسيويين والافريقيين على الاسلام فى طبقة واحدة من الرعية أو الرعاة ، وابتدأ التحول من العلية الى من دونها كما ابتدأ من الاتباع الى السادة والرؤساء

ومهما يكن من أثر الاسباب المحلية أو الموقوتة فلابد من البحث عن سبب عام محيط بجميع هذه الاسباب التى تختلف فيها بيئة عن بيئة وزمن عن زمن وحالة عن حالة ، ولابد من عامل واحد غير هذه العوامل التى تحبب الاســلام تارة الى الحاكم وتارة الى المحكوم وتفتح له السرائر فى نفوس الضعفاء وفى نفوس الاقوياء ، وتجعله قوة تعين الغالبين على الغلب وتعين المغلوبين على الصمود والدفاع ، ولا تخفى حقيقة هذا العامل بعد هذا الشمول ، فان حقيقته التى تتضح من احاطته بهذه العوامل كافة أنه عقيدة شاملة ، وأنه بذلك حقق الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على أتم شروطها ، فما كانت سريرة الانسان لتطمئن كل الاطمئنان الى اعتقاد يفرقها بددا ويقسمها على نفسها ويترك منها جزءا لم تشمله بقوته ويقينه ، وقد يخرج من سلطانه فيملكه سواه

قلنا فى ختام كتابنا عن عقائد المفكرين انه « لا التباس اليوم

بين وازع الاخلاق ووازع العقيدة الدينية ، وليس اتفاقهما فى الاباحة والتحريم أحيانا بالذى يمنع الباحث أن يعرف لهـا صبغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين أوامر القانون وأوامر الاخلاق وأوامر الدين

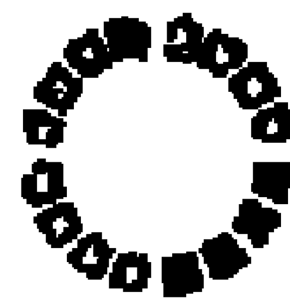
« والغالب على الاوامر القانونية انها ارادية تكتفى بتحقيق السلامة ولا تذهب وراء الاسلم الالزم الى شوط بعيد ، والغالب على الاوامر الاخلاقية أنها لدنية تعمل فيها الارادة شيئا ولكنها لا تعمل كل شيء ، بل يتولى الشعور أهم البواعث فى أعمال الاخلاق ، ويشاهد فيها كثيرا نزوع الى ماوراء السلامة واللزوم وتفضيل للأجمل الامثل من الامور ، فصاحب الوازع الاخلاقى لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعا الى درجة أعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود

« أما الغالب على الاوامر الدينية أو آداب العقيـدة فهو الشمول الذى يحيط بالارادة والشعور والظـاهر والباطن ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال الا أن تكون معهما الثقة التى لا تتزعزع فى صميم الحياة ، بل فى صميم الوجود ، ومن السهل أن يقال ان حاسة القانون تتولد فى الانسان لانه عضـو فى مجتمع وأن حاسة الاخلاق تتولد فيه لانه فرد من أفراد النوع الانسانى كله ، ولكن ليس من السهل أن يقال ان الانسان مهتم بمصيره فى الكون لانه عضو فى المجتمع أو فرد من أفراد النوع ... وانما يتدين الانســان لانه يهتم بمصيره ومعنى وجوده ويطلب له قرارا أوسع جدا من علاقاته الانسانية أو علاقاته بالمجتمع ، ويجب أن يطلب عقيـدة تحتويه ولا يكتفى بعقيدة يحتويها ويريدها كما يشاء »

وعلى هذا الشرط ـ شرط الشمول فى العقيدة ـ يكون الاسلام هو العقيدة بين العقائد ، أو هو العقيدة المثلى للانسان

منفردا ومجتمعا ، وعاملا لروحه أو عاملا لجسده ، وناظرا الى دنياه أو ناظرا الى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه أو معطيا حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لانه روح تنكر الجسد أو لانه جسد ينكر الروح أو لانه يصحب اسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى ، رهينا بوساطة بينه وبين السماء يتولاها فى المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه فى جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس اواصر الاجتماع

ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة فى العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التى توحى الى الانسان أنه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق



# عقيدة شاملة

يبدر الى الذهن أن الشمول الذى امتــازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولابد لاظهــارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الــكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لاول وهلة قبل أن يطلع على حقــائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع

ومن المحقق أن ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات ، وبخاصة فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المســلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيــكل والصنم والايقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرا للكاهن ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة

لقد ظهر الاســلام فى ابان دولة الكهانة والمراسم ، وواجه أناسا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحــالة الوثنية فى تعظيم الصــور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر

العبادة ، ولاح الناس في القرن السابع للميلاد خاصة ان «المتدين» قطعة من المعبد لاتتم على انفرادها ولاتحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه ، فالدين كله في المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقة لا تستقل يوما بقوام الحياة الروحية ولاتزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتتزود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والايقونة ، سواء فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب الى مابعد القرن السابع بأجيال متطاولة

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر أنه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة احد من الكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ، وأينما تولوا فثم وجه الله

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليستتم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه ، ولكنه يذهب اليه كما يذهب الالوف من اخوانه ، ويشتركون جميعا فى شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة الى الكهانة والكهان ، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لاحد منهم عليه

فاذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وأن هذه الرسالة ليست من مناسك الدين ، وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه

واذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى .. »

وقرأ فيه : « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ »

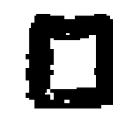
وقرأ فيه : « قل اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » .

وقرأ فيه : « وما انت عليهم بجبار »

وقرأ فيه : « لست عليهم بمسيطر »

وقرأ فيه : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »

وقرأ فيه آيات لاتخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات



مر بنا ان فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين

مثل هذا لا يحصل فى أمة اسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فاننى لا أومن به لاننى لا أومن بك ولا أرى فى سيرتك مصدقا لاوامرك ونواهيك أو اوامره ونواهيه

كلا . ما من رجل دين يبدو للمسلم انه صاحب الدين وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به لانه اله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبينه أو يعطيه من نعمته قواما لروحه

« ... والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد »

نعم . كلهم فقراء الى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الارض وتحت السماء

ان عقيدة المسلم شىء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان اماما له فى مسجده فلن ترتفع

به الامامة مقاما فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذى لايعرف لاحد حقا فيه أعظم من حقه أو حصة فيه اكبر من حصته ، أو مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام فى غيره

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا »

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل ـ فالعقيدة التى توحد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته شفاء له من ذلك الفصام الذى لاتستريح اليه السريرة الا حين تضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فى حياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه

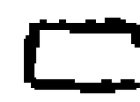
ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر . لان الامر فى الاسلام كله لله « بل لله الامر جميعا » . . « ولله المشرق والمغرب » . . « رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون »

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لامر الله . وهذا

التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى صمود الامم الاسلامية لسطوة الاستعمار وايمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لابد لها من تحويل

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها ، وأبت على الانسان جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام

ان هذا الشأن العظيم ـ شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » ـ لايتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الافريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد فى خلوته لايعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحـد مالم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن أربعون مليونا أو خمسون بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الابيض والاحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقية وشواطئها الا القليل الذى لايزيد فى بداءته على عشرات الالوف



وينبغى أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح . فان الاعتراف بحقـوق الجسد لا يستلزم انـكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربية Mysticism

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ماكانت له حياة ناطقة ومالم تكن له حياة « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وأشار الى هذه الاشياء بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب اليهم من حبل الوريد وانه نور السموات والارض وانه « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم »

وحسب المرء ان يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل مايستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الاديان طرق للتصوف تبلغ مابلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية . فان انكار الجسد فى البرهمية أو البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفى حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وان التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الايمان : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ... « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ... وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا

وضميرا بغير بخس ولا افراط فى ملكة من هذه الملكات

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « آن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب » ... « وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله » ... « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »

ومن عقائد دينه أيضا « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون » .. « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »

وليس فى الاسلام أن الخطيئة موروثة فى الانسان قبل ولادته ، ولا أنه يحتاج فى التوبة عنها الى كفارة من غيره . وقد قيل ان الايمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك أنه كان حافزهم الاول فى صدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الامر أن المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لانه مأمور بأن يعمل فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الامر أن خلاصه كله موقوف عليه ، وأن ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة أن الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير

وأصدق ما يقال فى عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف ، وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولايقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان فى كل باعث وفى كل تعلة كما أوضحنا فى الفارق بين أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد فى عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن    نتعادى فيه وأن نتفـــاني

ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقى المنـــــايا    كالحات ولا يلاقى الهــوانا

والمعرى يقول أن التعب عبث لانه لا يؤدى بعده الى راحة فى الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد

تعب كلها الحياة فما أعجـــ    ـــب الا من راغب فى ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة ان عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين ويقال تارة أخرى انها ضرتهم وأوكلتهم الى التواكل والجمود ، وصواب القول أنهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

وتوصف العقيدة الاسـلامية بالشمول لانها تشمل الامم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير

فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ... « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض » .. « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .. « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون »

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الامم

لانها من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير »

وفى أحاديث النبي عليه السلام أنه « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى »

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالاخلاق

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

***

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم »

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »

***

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »

***

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لان الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف انه أهل لمعرفة الله اذا جاهد وصبر وانف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، والا فانه لمن المجرمين

***

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفواأنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم . بل كنتم مجرمين »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون

وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون »

***

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لأقوى من العصبة الاشداء

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين »

فما كان الاله الذى يدين به المسلم اله ضعفاء أو اله أقوياء ، ولكنه اله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أنه يكون مع الله ، والله مع الصابرين

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الارض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الاديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الاديان لم يسجل لنا قط تحولا اجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضا والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها فى أول نشأتها امما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شىء ، ولم يحدث قط فى امة من الامم ذات الحضارة العريقة انها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ، وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه أناس من أهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه أناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتى

سنة . ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الاقوام والاوطان ، ويحقق المقصد الاكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الاخلاق وآداب الاجتماع

وابراز هذه المزية ـ مزية العقيدة الاسـلامية التى أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود ـ هو الذى نستعين به على النظر فى مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود للاقوياء الى أن يحين الحين ويتبدل من حالتى الغالب والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول . ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانية فى جملتها وللعالم الانسانى فى جملته ، ليكونن المصير فى الغد المأمول أكرم مايكون مع هـذه القوة وهذا الشمول



# الإسلام والمسلمون

## في القرن التاسع عشر

# ١ ـ الاسلام

انتهى الاسلام فى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد الى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية . لانه تلقى عن القرون الاربعة السابقة أثقالا من المتاعب والادواء لم تمتحن أمة من قبله بمثلها ، وكان بعضها كافيا للقضاء على دولة الرومان الشرقية ودولتهم الغربية ، وبعضها كافيا للقضاء على دول الفراعنة والاكاسرة فى الزمن القديم ، وان فى هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقا يبدو لنا فى كثير من الصور بين عظمة الدين وعظمة السياسة ، فان دول السياسة تذهب ولا تعود ولا يوجد بعدها من يحاول اعادتها ، ولكن دولة الدين ـ أو على الاصح قوة الدين ـ تبقى من وراء الامم والحكومات كأنها القوام الذى تتعاقب عليه بنية فى أثر بنية ، وهو باق يتجدد ولا يستسلم للفناء

ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الاسلام بعد ماتلقاه من الضربات منذ القرن العاشر الى القرن التاسع عشر للميلاد ، وانما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التى صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها « وحدة انسانية » هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الامم ولاتزال على أمل وثيق فى المزيد

ونستطيع أن نتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التى صابرتها وصبرت عليها

وهى محيطة بها من خارجها وناجمة فيها من داخلها وبين ظهرانيها

فقد مضت القرون الاربعة بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر فى منازلة الجيوش الصليبية ، ولم تـكد هذه الحروب تنتهى حتى خلفتها حروب « المسألة الشرقية » وهى التى وقفت فيهـا الدولة العثمـانية ـ وكانت يومئذ دولة الخلافة ـ تناهض غارة بعد غارة من غارات الدول الاوربية التى تألبت عليها وأطلقت عليها اسم « الرجل المريض » لانها ... كانت تتنازع ميراثه وهو بقيد الحياة

ولم تكد حروب المسألة الشرقية تنتهى بتنافس « الورثة » على بقية الميراث حتى أعقبتها حمـلات الشركات واصـحاب الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الاسلامى عرضة لاهول الغارات من قبل آسيا الوسطى التى كانت ترسل الفوج بعد الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو وغازان وتيمورلنك وأتباعهم من القادة والامراء وهم لايفهمون معنى الغلبة الا أنها قدرة على الفتك والتـدمير ، وأن أعظم المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير المحاربين ، وعدد ماضرب من المدن والقرى فى الطريق ... ومنهم من كان يظهر الاسلام ويغير على ممالكه لانها فى زعمه تساس على خلاف شريعة الاسلام !

وفى خلال ذلك جميعه كانت الدولة الاسلامية تتسع وتمتد حتى ينقطع مابينها من الصلة ويتعذر على القائمين بهـا أن يجمعوها الى حكومة واحدة ، وكان اتساع الآفاق يصـحبه اختلاف المواقع واختلاف السكان واختلاف المصالح والاهواء ، فلا تلبث أن تتمزق وتتفرق ثم تتعادى وتتعاون على البغى والعدوان

ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة أو الدول التى سميت بالامبراطوريات فى الزمن القديم

وقد رأينا كثيرا من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية فى مقدمتها ، أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ما تعاقب بعدها من الاخطار والاخطاء

وهذه الحروب — ولا نكران — كانت من أعظم الاخطار التى امتحنت بها الامم الاسلامية ، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها انما كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر فى عرف الجملة من مؤرخيها ، لانها فى الواقع لم تنهك قوى الامم الاسلامية ولم تتركها موقنة بالهزيمة فى نظر نفسها ، بل تركتها وقد أورثتها افراطا فى الثقة برجحانها وافراطا فى سوء الظن بأعدائها ، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم الى عدة قرون

ومن آثار الحروب الصليبية التى لاتفوت أحدا من المؤرخين انها وقفت عوامل الشقاق بين الامم الاسلامية ردحا من الزمن ، وانها جاءت بالترك العثمانيين من أواسط آسيا الى أرض الروم ودفعتهم الى مقابلة الغارة بمثلها فى صميم الديار الاوربية ، وأنها أيقظت الشرق الاسلامى كله من تخوم الصين الى جوف الصحراء الكبرى فى القارة الافريقية ، وأن أحمق الحمقى من الصليبيين كان أنفعهم وأقدرهم على اذكاء الحمية فى نفوس الامراء والسلاطين ، وأن منهم لمن شغله الملك فوق اشتغاله بالدين

وقد كان يوسف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير مدافع فى نظر الاوربيين ونظر الشرقيين . ولكن الصفة التى كانت غالبة عليه ولا شك هى صفة الحلم الراجح والاناة الهادئة وايثار الكسب بالسلم والمطاولة على الكسب بالعنف والهجوم ، الا ان هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته حتى الجنون حين سمع بعزم « ارنولد » صاحب الكرك على فتح

الحجاز واعداده العدة فى البر والبحر لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف ، وسرى وعيد أرنولد فى المشرق كله فنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم واقسم صلاح الدين ليقتلن « ارنولد » بيده .. فكانت وقعة « حطين » التى تعد من وقائع التاريخ الحاسمة وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والامراء عفا عنهم جميعا الا « ارنولد » هذا فانه لم يقبل فيه شفاعة من أحد وتناول سيفه وضرب عنقه بيده وهو يقول : « برئت من شفاعة محمد ان قبلت فى هذا الاحمق شفاعة شفيع »

وقد استنكر الصليبيون انفسهم حماقة ارنولد هذا لانهم ادركوا انها استثارت من نفوس المسلمين كل قوة كامنة واكسبتهم وقعة « حطين » بعد هزيمتهم فى الوقائع التى سبقتها ، وهكذا كان الشأن فى احمق الحماقات التى اقترفها شذاذ الصليبيين ، فانها أفادت من أرادوه بشرها ، وارتدت على اصحابها ، وعجلت بالتوفيق بين المتنازعين والمتنافسين وقد بطلت فيهم حيلة الموفقين

وليس هذا الذى نعنيه من آثار الحروب الصليبية فى نفوس المسلمين ، فانها آثار ظاهرة لم يغفل عنها أحد من مؤرخى تلك الحروب

ولكننا نعنى الاثر الذى عاد بالضرر الوخيم بعد عصر الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهذا الاثر الوخيم العقبى هو افراط المسلمين فى الثقة بأنفسهم وافراطهم فى سوء الظن بالامم الاوربية وكل ما يأتى من نحوها ، حتى اوشكوا ان يوقنوا انها لا تأتيهم يوما بشيء يحتاجون اليه ، ولولا هذه الثقة لما خطر لرجل كسليمان القانونى فى حصافته واقتداره ان يتبرع بالامتيازات الاجنبية لأبناء الامم الاوربية الوافدين على بلاده ، ولم يكن فى وسعها أن تقسره عليها لو لم يتبرع

بها فى غير اكتراث بعقباها

ان الامم الاسلامية قد انكرت على الاوربيين الذين قدموا فى جيوش الصليبيين ضروبا من الخشونة والجلافة حسبتها من البربرية التى تعافها وتشمئز منها ، ورسخ فى نفوسهم ان هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لانهم لم يعملوا بوصية واحدة من وصـايا المسـيح التى يحفظهـا المسـلمون ، وكان انكر ما استنكروه سماحهم بجلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الازواج بغير زواج ، وكان اشد من ذلك نكرا لديهم انهم يعظمون الصور والتماثيل تعظيم عباد الاصنام للطواغيت والاوثان ، فلم ينظروا اليهم نظرة الاعلين الى الادنين وحسب ، بل وقرت فى اخلادهم سخافة ما يدعون من حق المطالبة بشىء قط باسم المسيح عليه السلام ، فهم فى دعواهم مبطلون ، وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين

مثل هذا الشعور قد يحيك بصدور الامم فى أوقات كثيرة فلا يضـيرها ، بل يمدها فى قوتها اذا خامرها فى ابان النمو والصعود ، ولكن الظروف التى تطورت اليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الاوقات ، بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ، فكانت فى الشرق فترة هبوط فى النهضات العلمية وكانت فى الغرب فترة صعود فى النهضة العلمية الحديثة ، قامت بعدها أوربا مقـام القيادة على هذه النهضة وتخلف الشرق زمنا عن اللحاق بها ، وليس اخطر على الامم من الاكتفـاء بالذات والاعتزاز بالرجحان فى امثال هذه الظروف

هبطت النهضات العلمية فى الشرق بعد القرن الثانى عشر على أثر الغارات التى تعاورته فى كل مكان ، وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منها ما بين بخارى ، وسمرقند ، ومرو ، وبغداد ، ودمشق ،

وحمص ، وسائر المدن التى اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها فى الزمن القديم ، ويحصى عدد الكتب التى احترقت خلال غارات التتر ، والمغول ، وغارات الصليبيين بمئات الالوف وعدد المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ، وانصرف الامراء وطلاب العلم عن العناية بالمدارس والمصنفات الى التأهب والاستعداد لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة تلو أخرى بغير انقطاع ، وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطرارا فى اول الامر ثم اختيارا واعتسافا مع تمادى الزمن حتى ساءت الصلة بين الحاكم ومحكوميه ، وتراخى الزمن على اثر الحروب الصليبية واستقرت الاحوال بعض الاستقرار فعاودت البلاد الاسلامية الوسطى شيئا من رخائها عن طريق التجارة الهندية ، ثم انقطع هذا الطريق واتجه الرواد الى غيره من الطرق حول القارة الافريقية ، فاجتمع سوء الحكم الى سوء الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية ، وهذه هى الفترة التى كان ينبغى فيها للشرق الاسلامى ان يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل على التقدم أو يؤمن بمزايا العلم الحديث ، ولكنها كانت ـ بحكم هذه الظروف جميعا ـ هى الفترة التى اعرض فيها الشرق عن كل حديث وعما يأتى على الخصوص من قبل القارة الافريقية ، فتأخر عن ركب الحضارة العصرية زهاء قرن كامل ، لو انه استفاده ناهضا ومجاريا للنهضة فى مضمارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنة للتهمة وكلاهما موضع للحذر والاتقاء

جاءت المدارس العصرية على ايدى الحكومات التى بلغ التنافر بينها وبين المحكومين حد العداء والاتهام بغير بحث ولا روية ، فكان الناس يحسبون التلميذ المطلوب للمدرسة كالعامل المطلوب للسخرة أو كالجندى الذى يساق الى المشقة والوبال

فى غير مصلحة أو كرامة

وجاءت المدارس العصرية أيضا على أيدى رسالات التبشير التى صارحت الناس فى ظل الامتيازات الاجنبية بفرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر فى كثير من البلدان : فأحجم المسلمون عن تعليم أبنائهم فى مدارسها وجاوزوا ذلك الى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بنية المعلمين وايمان المتعلمين

وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الاولى فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها : كالفقه ، واللغة ، والادب ، والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية ، فنظر الكثيرون منهم الى علوم الجغرافيا ، والطبيعة ، والكيمياء ، كأنها الكفر البواح أو السحر المزيف ، واتصل ما بينهم وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه وحديثه ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه ، وتوسلوا للعمل فيه بغير اسبابه ، واتهموا الناصحين وأسلموا مقادتهم للمدجلين والمحتالين

فى هذه الفترة كان الاسلام كما يفهم الجهلاء ـ والجهلاء هم الاكثرون فى سائر الامم ـ مزيجا من الخرافة والشعوذة ومن الطلاسم والاوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتى

فى هذه الفترة كان بعض المتعالمين من أدعياء المعرفة يحكم بكفر القائلين بدوران الكرة الارضية ، ولا يتردد فى تكفير من يسميها بالكرة !

وفى هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الارض ومغاربها يسألون عن الكبريت : هل يجوز مسه ؟ وهل يجوز قدح النار منه ؟ وطبخ الطعام على تلك النار ؟ أو يأثم من يمس « صنفرته » لانها من مادة نجسة تنقض الطهارة !

وفى هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير

والادخـار ، وعن معـاملات التجـارة من طريق المصـارف والشركات ، ويحسبون أن الياذ بالاضرحة والتوابيت وترتيل الاوراد والعزائم يغنيهم عن السعى والتدبير ، وعن الجهـاد والاجتهاد

وفى هذه الفترة على الاجمال كان المسلم يعيش فى العـالم كمن يمشى فى خرابة مظلمـة ، لايدرى من أين تسرى اليـه عقاربها وحياتها ، ومتى تخرج عليه اشباحها وشيـاطينها . وانقلب معنى الاسلام الى معنى المخافة والاتهام ، اذ كان اول معانى الاسلام انه طمأنينـة الى الخالق وخلقه ، وكان هـذا الاسلام الذى صار اليه المسلمون مخافة لا سلم فيهـا ولا سلامة ، واتهاما لا تسليم فيه ولا مسالمة

قلنـا ان الافراط فى الثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحروب الصليبية مضارعا للافراط فى سوء الظن بالاعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتى من قبلهم ، وقلنا انه اكتفاء بالذات وخيم المغبة فى امثال هذه الاحوال

ونقول على الدوام انه ما من شر يخلو من بعض الخير ، وما من ضرر مطلق ان كان معنى الضرر المطلق انه لا يقبـل الترياق أو لا يحتويه فى كثير من الاحايين

هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها فى المقاومة والامل فى التبديل وفى عدل الله بين عباده ، ولم تكد تبلغ اقصى مداها من الاضرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة من دروس الحروب الصليبية ، لانها شككت المسلمين فى كفايتهم واستغنائهم وشككتهم فى رجحانهم وغلبتهم ، وقام بين المسلمين من يقول لهم ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الغربيين نجحوا وتقـدموا لانهم اخـذوا بالوصايا والاحكام التى كان المسلمون اولى بها لو عقلوا وصايا الدين واحكامه

« عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون »

« فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

نعم . وفى اصطدام الشرق الاسلامى مرتين بالقارة الاوربية مصداق لهذه الآيات البينات

انه سلم من الحروب الصليبية فاكتفى وقنع وغفل عما يحتاج اليه ، وانهزم فى وجه الاستعمار فعرف حاجته وتيقظ لنقصه ، واستقام على النهج الذى لا غنى له عن الاستقامة عليه ، وعادت به البأساء الى « العقيدة الشاملة » التى ميزته بين عقائد الاديان ، فهو فى مده اليوم عند منتصف القرن العشرين ، فان لم يبلغ من مده اليوم ما يرجوه لقد ترك تلك المرحلة التى انتهى فيها الى جزره فى أوائل القرن التاسع عشر، وما فى ذلك من خلاف



# ٣ ـ المسلمون

بدأ القرن التاسع عشر ، وفى العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون ، وانتهى وعددهم حوالى اربعمائة مليون موزعين بين آسيا وافريقية ، وقليل منهم فى أوربا لا يزيدون على خمسة عشر مليونا بين البلقان ، والقرم ، والبانيا ، واليونان ، وقبرص ، ورودس ، وبلاد البشناق ، وبولونيا ، وشواطىء بحر البلطيق فى لتوانيا ، وفنلندا ، وما جاورها

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة ان عدد المسلمين فى دولتى الهند يقارب تسعين مليونا ، وانهم يبلغون فى جزر السوند الكبرى ، وجزر السوند الصغرى ، وجزر الملوك التى تدخل فى دولة اندونيسية نيفا وسبعين مليونا ، ويختلف المقدرون لعددهم فى الصين من خمسة ملايين الى مائة مليون ، فتقويم جوثا يقدرهم بثلاثين مليونا ، وجلال نورى بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقدرهم فى داخل الحدود الصينية ، وفى منشورية ، وانام ، وسيام ، والهند الصينية ، وفى الجزر التابعة لانجلترا من ارخبيل ملقا بنحو ستين مليونا ، اما احصاءات بعثات التبشير فهى تقدرهم تارة بثلاثة ملايين ، وتارة أخرى بخمسة ملايين فى داخل حدود الصين ، ويرتفع الرحالة عبد الرشيد ابراهيم بعددهم الى مائة مليون ، ويقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا انه « قد انبعثت شعبة منه فى الصين فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب بعضهم الى القول بأن العشرين مليونا من المسلمين الموجودين

فى الصين لا يلبثون ان يصيروا مائة مليون ، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لساكيامونى .. »

ويعقب السيد توفيق البكرى على هذا فى رسالته عن مستقبل الاسلام فيقول : « ان تاجرا بلوجيا جاء القاهرة فى هذه الايام وكان قد ذهب الى الصين مرارا ، يؤكد القول بأن مسلمى الصين يبلغون ثمانين مليونا وأن علماءهم يهزءون بقول الاوربيين انهم اربعون مليونا »

وقد تلقت الصحف الاوربية برقية من الجماعة الاسلامية فى الصين أرسلتها أثناء حرب الصين واليابان تقول فيها : « انها تتكلم بلسان خمسين مليونا من المسلمين »

فلا مبالغة ـ مع ملاحظة هذه الاحصاءات جميعا ـ فى تقدير مسلمى الصين اليوم بنحو ستين مليونا ، يضاف اليهم ثلاثون مليونا فى التركستان ، وبخارى ، والقفجاق ، وغيرها من ولايات روسيا الاسيوية ، ويضاف اليهم خمسة عشر مليونا فى ايران ، وبلاد الافغان ، وثلاثون مليونا فى بلاد العرب والعراق ، والشام ، وفلسطين ، وشرق الاردن ، وآسيا الصغرى ، وبضعة ملايين فى الجزر التابعة لانجلترا ، والولايات المتحدة ، فلا يقل عدد المسلمين الاسيويين عن ثلثمائة مليون ، وان قل ، فهو بين مائتين وخمسين وثلثمائة من الملايين

أما فى افريقية ، فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ، منهم خمسة وعشرون مايونا فى مصر والسودان ، وعشرون مليونا فى طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وعشرون مليونا فى الصحراء الغربية ، والسودان الفرنسى ، وبحيرة تشاد ، والشواطىء الغربية ، ونحو عشرة ملايين فى زنجبار ، ومدغشقر ، والسواحل الشرقية ، والصومال ، وسائرهم بين الحبشة ، وأوغندة ، وكينيا ، وافريقية الجنوبية

فليس من المبالغة أن يقدر عدد المسلمين فى العالم بأربعمائة

مليون أكثرهم فى آسيا وافريقية ، واقلهم فى أوربا ، ماعدا الوفا معدودة فى العالم الجديد

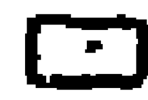
فهم جميعا بحكم موقعهم من أبناء العالم القديم ، يقابلهم سكان أوربا الغربيون الذين نشأت بينهم الحضارة العصرية ، ويصدق عليهم وصف واحد فى المقابلة بينهم وبين الاوربيين المحدثين ، فلا يقال عنهم انهم تقهقروا منتكسين الى الزمن القديم ، وانما يقال عنهم انهم وقفوا حيث تقدم غيرهم مع العلم الحديث ، ولا ينسى المنصف فى هذه المقابلة أن الاوربيين الذين تقدموا هم الاوربيون الذين اتصلوا بالاسلام من قريب ، وهم أبناء أوربا الغربية ، ثم أبناء أوربا الذين احتكوا بالاسلام فى الحروب الصليبية ، ولا نعنى ان اسباب التقدم تنحصر فى هذه الصلة أو فى هذا الاحتكاك ، ولكننا نعنى ان الاسلام لم يكن قط قوة مهملة فى حركة من الحركات الانسانية سواء نشأت بين ظهرانيه ، أو نشأت فى مواطن أخرى ، وان المؤرخ المحقق لن يستقصى أسبابا للنهضات الانسانية على اختلافها دون ان يرجع بمرحلة منها الى نهاية أو الى بداية فى عالم الاسلام

وفى هذا السياق ينبغى الالتفات الى أمر واقع قلما يلتفت اليه المؤرخون من الغربيين أو الشرقيين ، وهو ان محاربة الاسلام كانت على الدوام نكبة على محاربيه من المستعمرين ، فان السابقين الى الشرق من المستعمرين الاوربيين هم البرتغاليون والاسبان ، ولكنهم لم يثبتوا فى الشرق طويلا لانهم ذهبوا اليه بسمعة العداء للاسلام ، وكان الاسبان يسمون المسلمين فى جزر الهند بالمور متابعة لما عهدوه من تسمية المسلمين بالمراكشيين ، وكان البرتغاليون أول من نزل بجزائر السوند الكبرى ، وجزائر السوند الصغرى ، وما بينهما من الجزائر التى يكثر فيها المسلمون ، فلما تنافس

البرتغاليون والاسبان وغيرهم من أبناء أوربا الغربية وامريكا دارت الدائرة على الاولين لانهم وجدوا العداء من المسلمين ، حيث نزلوا بينهم ، وهكذا كان نصيب روسيا فى آسيا الشمالية حيث اشتهرت بعداوة الخلافة الاسلامية ، فقد كان موقف المسلمين منها فى التركستان ، ومنشوريا ، والصين الشمالية الغربية ، عقبة من أقوى العقبات التى رصدت لها فى ذلك الطريق

هذه القوة التى لم تسقط يوما من حساب السياسة العالمية لن تسقط اليوم من هذا الحساب ، وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية لحربها واقصائها من الميدان ، ولكنها تتغلب على هذه السياسات حين تنقلب الامور على غير ارادة الساسة والمقدرين ، لأن العقيدة الدينية أثبت من برامج السياسة وخططها الظاهرة والخفية ، بل هى أثبت من الجغرافية وما يسمونه حديثا بالسياسة الجغرافية ، لأن العقيدة الدينية تحول السكان حيث تثبت معالم الارض ورواسى الجبال

ونحن نستطرد هذا الاستطراد فى مقدمة الكلام على المسلمين فى القرن التاسع عشر ، لأنه يعيد الى الاذهان اخطاء المقدرين واصحاب السياسات قبل مئات السنين ، ويجعل هذه الاذهان على استعداد لانتظار اخطاء أخرى من هذا القبيل ، قد ينكشف عنها الزمن بعد آن قريب



انقسم العالم فى بداءة القرن التاسع عشر الى حضارة حديثة فى الغرب ، وحضارات قديمة فى الاقطار الاسيوية والافريقية ، وكان المسلمون – الا القليل منهم – فى هذه الاقطار

تخلفوا عن ركب الحضارة فى الصناعات ، والمخترعات ، والعلوم الحديثة ، وأصابهم هذا التخلف فى مرافقهم جميعا

ومنها الزراعة ، والتجارة التى كان قوامها الاكبر على الملاحة الشراعية ، فتراجعت شيئا فشيئا أمام ملاحة البخار ، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار

ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة فى الغرب تقدمت معها وسائل التنظيم والادارة ، وبقى الشرقيون جميعا ، والمسلمون منهم ، متخلفين فى هذه الوسائل الى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل

واصبح العالم الاسلامى فى مقدمة الاهداف التى تصوبت اليها حملات الغرب الثلاث ، وهى : حملات التبشير ، والاستغلال ، والاستعمار ، ويتقدم التبشير هذه الحملات فى ترتيب الزمن لا فى الخطر والاثر ... فانه قد بدأ مع الحروب الصليبية حوالى القرن الثانى عشر ، وكان فى كثير من الاقطار رائدا لحملة الاستغلال وحملة الاستعمار

أما العالم الاسلامى من وجهة النظر الى مركزه السياسى ، فقد كان معظمه عند أوائل القرن التاسع عشر فى حوزة الدول الاجنبية ، ولم يبق فيه من الدول التى كانت على نصيب من الاستقلال فى عرف السياسة غير دول ثلاث ، وهى : الدولة العثمانية التى سميت بدولة الخلافة من عهد السلطان سليم ، والدولة الايرانية ، والدولة الشريفية بالمغرب الاقصى

ولم تكن هذه الدول على شىء من الاستقلال فى غير الظاهر، لانها لم تكن تملك من حقوق التصرف فى سياستها الداخلية أو الخارجية ما تملكه الدول المستقلة ، وأكبرها وأقواها ــ وهى الدولة العثمانية ــ كانت عرضة للتدخل الدائم من قبل الدول الكبرى فى كل شأن من شئونها ، اذ كانت هى محور المسألة الشرقية التى تتلخص فى عبارة واحدة ، وهى تقسيم بلاد الشرق « اولا » بين روسيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، ثم تلحق بهذه الدول كل دولة اثبتت لها وجودا فى ميدان الاستعمار

أو فى ميدان السياسة العالميــة على الاجمــال ، كالنمســا ، وبروسيا ، وايطاليا ، واسبانيا

### ١ ــ الدولة العثمانية :

وكانت المسألة الشرقية قائمة على محو الدولة العثمانية ، ولكن الدول التى تعنيها هــذه المسألة لم تكن على اتفــاق فى طريقة التنفيذ ، ولم تكن على اتفاق كذلك فى العجلة أو الاناة ، ولم تكن على اتفاق بينها فى نصيب كل منها من تركة «الرجل المريض» كما سميت الدولة العثمانية فى ذلك الحين

فروسيــا كانت تتعجل التقسيم لتحتل القسطنطينيــة ومضايق البسفور ، والدردنيل ، وفرنسا كانت تتوسط بين العجلة والاناة لانها كانت تكتفى بلبنان ، وســورية ، وبيت المقدس ، ولا تحرص على تقويض الدولة العثمانية من راسها ، وانجلترا كانت تطمح الى طريق الهند ولا تأبى عند الضرورة أن تساعد فرنسا لتستعين بها على صد روسيا والحيلولة بينها وبين بلاد البحر الأبيض ، وحاولت كل منها ان تتخذ لها صفة الرعاية لجميع المسيحيين بالديار الشرقية ... وكانت روسيا وفرنسا قد حصلتا على اعتراف من السلطان العثمانى بهذه الصفة ، أولاهما لرعاية الكنيســة الاغريقية ، والاخرى لرعاية الكنيسة اللاتينية فحاولت انجلترا فى أواخر القرن التاسـع عشر أن تضيف الى القاب التاج لقب الحارس للديانة المسيحية ، ولكن المسيحيين انفسهم فى الشرق الادنى لم يعترفوا لها بهذه الصفة ، لان أتباع الكنيسـة الانجيلية كانوا يومئذ جد قليل بين الشرقيين

ولم تجد هذه الدول صعوبة فى اقلاق الدولة العثمانية ، لانها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الاجنبية حين تشاء ، وكيفما تشاء ، وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية فى بلاد المغرب والمشرق ، فلم يكن من العسير على الدول أن

تجد المطاوعين لها فى ثورتها على الحكم التركى سواء من المسيحيين ، وغير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينقمون على الادارة التركية ... ولكن الامر الجدير بالنظر أن السياسة الجهنمية لم تتورع عن خلق المذابح فى المكان المطلوب وفى الآونة المطلوبة ، فحدثت مذابح ارمينية ، ومذابح لبنان ، ومذابح الاسكندرية على هذا التقدير كلما كانت لازمة لتنفيذ احدى الخطط التى ترسم قبل ذلك بسنوات أو شهور ، وكانت هذه المذابح هى التى تدعو الى التدخل من جانب الدول الكبرى ، اما المذابح فى روسيا ، أو فى البلقان ، فلم يعرض لها احد بمجرد الاحتجاج ، فضلا عن التدخل أو التهديد بالاحتلال

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعا على الدولة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فانهزمت جيوشها فى ميادين لم تتعود فيها غير النصر العاجل قبل هذه الفترة ، ولما ارادت أن تدرب جيوشها على النظام الحديث تمردت فرق « الينى شارى » التى كانت هى نفسها تجديدا على النظم الحديثة فى حينها كما يدل عليه اسمها ، فقمعتها وكادت أن تستأصلها بالقليل الذى دربته على الاساليب العصرية ، قبل ان يتم لديها من الجيوش العصرية مايغنيها فى حروبها المتتابعة. وكانت قد استكثرت من عقد القروض لسداد نفقات هذه الحروب ، واشباع نهمة السلاطين والامراء الذين أفسدهم الضعف والاستبداد ، فانغمسوا فى الترف والبذخ ، وكلفوا بلادهم مالاتطيق من الضرائب ، والاتاوات ، وأفضى سوء السياسة المالية الى اعلان الافلاس والعجز عن أداء فوائد الديون ( فى سنة ١٨٧٤ ) فى مواعيدها ، واعتمد ساسة الباب العالى فى مقاومة الدول صواحب الديون وصواحب الامتيازات على المضاربة بينها ومنح الامتيازات الاقتصادية تارة لهذه ،

وتارة لغيرها ، وقد كانت الدولة البروسية تبرز شيئا فشيئا الى ميدان السياسة العالمية ، ولا سيما بعد حرب السبعين التى انتصرت فيها على فرنسا ، فاتخذ منها ساسة الباب العالى ذريعة للتخويف والتهديد ، ورحبوا بالاتفاق معها على اصلاح المواصلات الداخلية فمنحوها ( فى سنة ١٨٨٨ ) امتيازا بمد الخط الحديدى الى انقرة بعد امتداده فى المجر الى القسطنطينية ، واتبعوا هذا الامتياز بامتياز آخر لمد الخط الى قونية على ان تخترق السكة آسيا الصغرى الى الشام وبغداد ، ولم تقف الدولة الانجليزية مكتوفة اليدين أمام هذا الخطر الذى يقترب من الهند ، ولكنها اضطرت الى التراجع والسكوت حين لمحت من بروسيا بوادر الاتفاق عليها مع فرنسا على هذا الجانب من جوانب المسألة الشرقية ، وعلى التدخل فى القضية المصرية لمطالبتها بالجلاء عن مصر تحقيقا لوعدها

ومن خطوط المواصلات الهامة التى تمت فى بلاد الدولة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته قنـــاة السويس ( سنة ١٨٦٩ ) وسكة حديد الحجاز (من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٨) وهى السكة التى تجاوبت بأخبارها دوائر الاستعمار على انها تعبئة من تعبئات الجامعة الاسلامية

والى هذه الآونة كانت كل دولة ذات أثر فى المسألة الشرقية قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا فى أوربا أو آسيا ، أو افريقية ، ما عدا بروسيا التى سيطرت فى هـذه الآونة على الاقاليم الالمانية بأجمعها ، فاغتنم عاهلها « ولهلم الثانى » هذه الفرصة للتقرب من تركية ومن العالم الاسلامى بأسره ، وزار الآستانة وبيت المقدس ونادى فى بعض خطبه بصداقة دولته للثلثمائة مليون مسلم المنتشرين بين بقاع المشرق ، ونظـر ساسة الترك الى دولة أوربية يعتمدون عليها فى تنظيم جيشهم

فلم يطمئنوا بطبيعة الحال الى روسيا ولم يجدوا عندها الكفاية الفنية لهـذه المهمـة ، ولم يطمئنوا الى انجلترا لان وزيرها جلادستون أعلن غير مرة وجوب « طرد الترك » بقضهم وقضيضهم من كل بقعة فى أوربا ، فرحبوا بالمساعدة الالمانية على تنظيم الجيش وتدعيم الاسطول على حـذر ، ولم يكن عبد الحميد داهية بنى عثمان لينسى مؤتمر برلين ومرامى الالمان فى الوقت المعلوم نحو المشرق ، ولم تغب عنه الدعوة العسكرية والثقافية التى نجحت بين الالمان المعاصرين واتخذت صيحتها ( الى الشرق ) شعارا تردده وتعلق عليه الآمال فى توسيع ممالك الجرمان واستيلائهم على طريقهم من برلين الى آسيا الصغرى الى اواسط آسيا ، ولم يخف عليه ماوراء حملة العاهل الجرمانى على الاسيويين وتحذير الغرب من يقظتهم وتأليبه الاوربيين على الشرق كله باسم الحذر من الخطر الاصفر ، فتوخى فى سياسته على الدوام أن يجنح الى كل دولة من دول الاستعمار بمقدار وترك بعده ساسة تربوا فى مدرسته ( حتى من أقطاب تركية الفتاة ) ينهجون نهجه فى مسلكهم بين تلك الدول ، فكان الكثيرون منهم يميلون الى الحيدة عند اشتباك الحرب العالمية الاولى . وليس بالصحيح أن ساسة الترك كانوا مجمعين يومئذ على دخول الحرب الى جانب دولتى المحور ، ولكن الصحيح أن دول أوربا الغربية أستثارت الترك الى محاربتها لتضمن بذلك معاونة الروس الى النهاية طمعا فى القسطنطينية ، وتضمن معاونة المتربصين بالرجل المريض من دول البحر الابيض المتوسط وسائر الدول الطامحة الى الشرق الادنى ، وقد يفيد فى بيان الاعاجيب من خفايا سياسة الاستعمار أن نومىء هنا ـ على غير تأييد ولا تفنيد ـ الى ماقيل عن دسائس المستعمرين التى احكموا تدبيرها للتعجيل بالثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف ، فلعلهم لم يجدوا لهم مخلصا أوفق من هذا التحلل

من الاتفاق مع آل رومانوف على دخول القسطنطينية

## ٢ ـ ايران

كان على عرش ايران فى مفتتح القرن التاسع عشر شاه من أسرة قاجار ـ اسمه فتح على شاه ـ تولى الملك بعد عمه اغا محمد الذى اشتهر بصرامته وقسوته فى اخضاع ثوار الكرج وخراسان . وقد سمى فتح على باسم رأس الاسرة ولكنه لم يكن على نصيب من خلائق المؤسسين والفاتحين غير الطمع وحب الفخفخة ، فاغتر بمظاهر التعظيم التى أحاطه بها رسل الدول الاجنبية وراقه ان يرى بلاطه قبلة للسفراء والوفود من ملوك الغرب فاستسلم لهذا الغرور وتحالف مع بريطانيا العظمى على الافغان لاسترجاع أقاليم فارس الشرقية ، وأملى له فى مجاراة السياسة البريطانية أن روسيا انتزعت من فارس بلاد الكرج تلبية لطلب أميرها جورج الثانى عشر ، فاستقبل الشاه مندوب شركةالهندالشرقية سير جون ملكولم وعقد معه محالفة سياسية تجارية تتعهد فيها الشركة بامداد فارس بالسلاح والمال فى حالة الاعتداء عليه من جانب الافغان أو فرنسا ، ويتعهد فيها الشاه بألا يعقد صلحا مع الافغان مالم تنزل هذه عن مطالبها فى الهند ، وقد تمكن الشاه من صد الغارة الروسية على « أروان » فى سنة ١٨٠٤ بمعاونة الضباط الانجليز وضغط السياسة الانجليزية . ثم ابرم فى أواخر سنة ١٨١٤ ـ بعد نكبة نابليون ـ محالفة عامة تتعهد فيها فارس بالغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لانجلترا وتتعهد فيها انجلترا بنقدها مائة وخمسين ألف جنيه وتبادل المعونة فى حالة الدفاع

ولم تمض على هذه المعاهدة بضع سنوات حتى التحمت فارس وتركية فى الحرب التى انتهت بصلح أرضروم ، ثم حاربت روسيا على أثر احتلال هذه لبعض الاقاليم المتنازع عليها فانهزمت وتخلت عن أروان وتبريز ( ١٨٢٧ ) وخذلتها انجلترا

فى هذه الحرب فاستدارت بسياستها الى مجاراة روسيا . . . واخرجت البعثة العسكرية الانجليزية التى قدمت اليها لتدريب جيشها على النظم الحديثة وهاجمت « هرات » ثم تفاهمت مع حكام الهند على فك الحصار عنها ، وفى سنة ١٨٥٦ شهرت انجلترا الحرب على فارس ـ اذ عادت الى مهاجمة هرات واستولت عليها فاحتل الانجليز بوشير والمحمرة وتراجع الجيش الايرانى عن أرض الافغان ثم تم الاتفاق على الحدود الافغانية الايرانية

وفى سنة ١٨٦٤ أنشىء أول خط تلغراف بين بغداد وطهران وبوشير على اعتباره « توصيلة » للخطوط الهندية ، وافتتح خط أوديسة وتفليس وطهران بعد ذلك ببضع سنوات

واستمر السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات والرخص من الحكومة الايرانية ، فلما حصل البارون دى روتر على امتياز باستغلال بعض الموارد الايرانية وارتهان المكوس الجمركية أسرع الروس الى احباط هذا الامتياز وحصلوا على الاذن بانشاء فرقة القوزاق والحاقها بجيش ايران . ثم احتلوا مدينة « مرو » واستولوا على بلاد التركمان ، ( سنة ١٨٨٤ ) وتجددت مساعى الماليين الانجليز فمنحوا امتيازا بافتتاح نهر قارون للملاحة ، ومنح البارون دى روتر هذه المرة امتيازا بانشاء المصرف الامبراطورى مع الترخيص له باستغلال المناجم فى ايران ماعدا مناجم الذهب والفضة ( سنة ١٨٨٩ )

وبعد هذا الامتياز بسنة واحدة حصلت احدى الشركات على امتياز الدخان المشهور الذى تصدى جمال الدين الافغانى لاحباطه ، ثم تمادى الشاه ( ناصر الدين ) فى الاقتراض وبذل الرخص ورهن الموارد ، ومنها قرض انجليزى فى مقابلة رهن المكوس الجمركية بالخليج الفارسى ، فتمكن جمال الدين من اثارة القوم عليه واغرائهم بعصيانه واغتياله على البعد والقرب فقتل فى سنة ١٨٩٦ وقيل ان قاتله صاح به وهو يضربه ( خذها من

جمال الدين )

وجاس ابنه مظفر الدين على العرش فأصبحت ايران فى عهده نهبا مقسما بين النفوذين ومساعى المستغلين من الجانبين ، فتقدم بنك الخصم الفارسي – وهو فرع من وزارة المالية الروسية – باقراض الحكومة نيفا وعشرين مليون روبية فى مقابلة مكوس الجمارك بجميع انحاء البلاد ماعدا خليج فارس ، واشترط على الحكومة أن تصفى القرض الانجليزى ولا تتقبل قروضا اخرى مدى عشر سنوات ( فى سنة ١٩٠٠ )

واحتاج الشاه الى قرض آخر بعد سنتين فأمدته به الحكومة الروسية فى مقابلة الترخيص لها بمد السكة الحديديةمن جلفةالى تبريز قطهران ، وأوشك الاتفاق أن يتم على مد الخط الى شواطىء الخليج لولا المقاومة الشديدة من جانب الانجليز : تعززها مساعى الماليين على يد(دارسى) من زيلاندة الجديدةلاغناء خزانة ايران عن معونة الروس ، فانعقد الاتفاق بين دارسى D'Arcy وحكومة ايران على الترخيص له باستخراج النفط من منابعه التى كشفت بعد ذلك بمسجد سليمان ، وحصة الحكومة من الارباح ست عشرة فى المائة عدا رسوم الامتياز وحصة بقيمتها من اسهم الشركة

ولما كثرت المطالب والرهون على مكوس الجمارك وضعت الادارة كلها فى عهدة نوس البلجيكى وكادت الدولة أن تشهر افلاسها ، وتفاقم سخط الشعب فثار على الشاه وعلى وزيره عين الدولة المسئول عن سياسة القروض والرخص والرهون ، ولاذ الثوار بمبنى السفارة البريطانية ( يولية سنة ١٩٠٦ ) فأسرع الشاه الى عزل عين الدولة والمناداة بالدستور ، وكظمه الغيظ فمات بعد افتتاح مجلس النواب بأسابيع ( ديسمبر سنة ١٩٠٦ )

أما الدولتان المتنافستان على أسلاب فارس فانهما قابلتا

اعلان الدستور بالاتفاق الودى المشهور باتفاق سنة ١٩٠٧ ؛ فاعترفت روسيا بمصالح انجلترا فى الخليج الفارسى واعتبرت الجزء الجنوبى الشرقى فى المملكة «دائرة نفوذ بريطانية» وسلمت انجلترا باعتبار الجزء الشمالى منها دائرة نفوذ روسية ، وتركتا بين الدائرتين بقعة مفتوحة لكلتا الدولتين ، وختمتا الاتفاق بتوكيد الحرص على استقلال البلاد وسيادتها !

ولم تمض على هذا الاتفاق سنة واحدة حتى كان الشاه الجديد « محمد على » العوبة فى أيدى الروس لانه آثر الخضوع للدولة الاجنبية على الخضوع لاحكام الدستور . فأغلق المجلس واعتقل اعضاءه وأنصاره ، وأعلن الحكم العرفى وامعن فى المتظاهرين تقتيلا وتشريدا واستعان بالجيش الروسى على قمع الثوار فى تبريز ، وكانت قوتهم فيها غالبة على قوة الشاه

ثم اغتنمت انجلترا الفرصة فعملت على انشاء الشركة الانجليزية الفارسية لاستغلال امتياز دارسى باستخراج النفط فى جزيرة عبدان ، واشتد غليان الشعور الوطنى فهجم الزعيم البختيارى على قولى خان على طهران وخلع الشاه ، ثم ظهرت السياسة الامريكية فى الميدان فقدم الى طهران مستر مورجان شستر Shuster — بطلب من المجلس — لتنظيم الادارة المالية وافتتح عمله بانشاء فرقة عسكرية فى خدمة الخزانة ، وتطمين انجلترا بدعوة ضابط بريطانى لقيادة تلك الفرقة ؛ فأطلقت روسيا الشاه من مأواه وأرسلته الى « استراباد » وأغارت على الشمال منذرة المجلس بالتقدم الى الجنوب ان لم يبادر الى طرد شستر ومرءوسيه ، فرفض المجلس انذارها وأصر على استبقائه ، وظهرت فجأة فى طهران جماعة من الرؤساء ذوى النفوذ بين القبائل فأغلقوا المجلس وقبضوا على ازمة الحكومة ومن ورائهم قوة الدولة الروسية ، وظلت فارس فى قبضة الروس الى مابعد اعلان الحرب العالمية الاولى

## ٣ - مراكش

كانت مراكش فى بداءة عصر الاستعمار أول هدف للمستعمرين لانها كانت على أقرب نظرة من دول الاستعمار فى أوربا الغربية ، وكانت فى الزاوية المقابلة لاوربا الغربية تشرف على البحر الابيض وعلى المحيط الاطلسى فكانت فى هذا الموقع مطمح الانظار أمام فرنسا وأسبانيا وانجلترا ، ولكن فرنسا لم تتقدم اليها لانها كانت مشغولة بحروبها فى القارة وكانت تعلم أن انجلترا لاتطيق دولة كبيرة على العدوة المقابلة لجبل طارق ، وأسبانيا وصلت الى أوائل القرن التاسع عشر وهى تلهث من الاعياء وتكاد بعد تنازع طلاب الملك فيها أن تصبح فى عداد المستعمرات الخاضعة لغيرها . أما انجلترا فكان جبل طارق يغنيها فى ذلك الموقع عن العدوة الافريقية وكان همها أن تبقى مراكش فى يد أبنائها وفى حوزة حكومة لاتقوى على منازعتها ؛ وكانت وجهتها الاولى أن تحتل البحر الابيض من شرقه عند مجاز التجارة الهندية فلم تشأ أن تحسب عليها مراكش بدلا كبيرا فى سوق المساومات الاستعمارية ، واتفق بعد ظهور المانيا فى ميدان الاستعمار وانتصارها على فرنسا أن المسألةبحذافيرها طرحت على مائدة المؤتمرات الدولية فتفاهمت فرنسا وانجلترا على التعاون المشترك فى قضيتى مراكش ومصر واستقر الرأى على تقسيم مراكش بين فرنسا وأسبانيا والمنطقة الدولية

وقد بدأ القرن التاسع عشر ومراكش على شىء من القوة بالقياس الى بلاد افريقية الشمالية ، فتصدى زعماؤها لمقاومة الفرنسيين بالجزائر بعد أن سلمت الدولة العثمانية بمركز الفرنسيين فيها وزحف الجيش المراكشى الى تلمسان مستثيرا قبائل العرب والبربر فى طريقه واستطاع « أبو معزى » المراكشى أن يقتحم الجزائر بعد احتلالها بخمس سنوات ولم يتمكن القائد الفرنسى من مقاومته الا بنجدة قوية جاءته من فرنسا ،

ولكن سلطان مراكش لم ينقطع عن مناوشة فرنسا بعد هزيمة أبي معزى وأسره الى أن تلاقى الجيش المحتل وجيش السلطان في سنة ١٨٤٤ فمنيت جيوش السلطان بهزيمة منكرة اضطربت لها جوانب المغرب ونبهتها من غفلتها فنهضت لاصلاح الجيش وتثمير المرافق الوطنية ، ووافق ذلك قيام السلطان « مولاى الحسن » بالملك ـ وهو من أقدر سلاطين المغرب ـ فأحسن التصرف في مواجهة الدول المستعمرة والاستفادة من تنافسها وتنازعها ، وأدخل الاساليب العصرية على دواوين الحكومة ومعامل الصناعة ومدارس التعليم وأكثر من ايفاد البعثات الى جامعات الغرب لتخريج الخبراء في الشئون الفنية والعسكرية . ومن فضائح الاستعمار أن الدول الموقعة على معاهدة مدريد احتجت عليه حين اتصل بالآستانة لمثل هذا الغرض واعتبرت ذلك منه اشتراكا في حركة دينية معادية لاتنظر اليها بعين الارتياح والاطمئنان ، واستنكرت تجديد العلاقة بين حكومة الآستانة وحكومة طنجة والتمهيد لتبادل السفارات بينهما لانه يغير الوضع السياسي الذى اتفقت تلك الدول على أن تلاحظ فيه بقاء الحالة الراهنة

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت دول الاستعمار في موقف يسمح لها بالتفاهم على هذه القضية العسيرة . فبريطانيا تحسب حساب اليقظة الوطنية في مصر فتجنح الى مسالمة فرنسا ، وفرنسا تسترضي ايطاليا وتعدها بالاغضاء عن مطامعها في ليبيا ، والنمسا تطمع في بلاد البشناق من تراث الدولة العثمانية ، وألمانيا تعلم أن الحرب العالمية تحول دون وصولها الى مقام في المغرب الاقصى لمعارضة انجلترا وفرنسا وترضى بنصيبها في الكونغو وبلاد التوجو من القارة الافريقية

وفي هذه الاثناء توفي السلطان الحسن وخلفه السلطان عبد العزيز والمغرب الاقصى في أشد مأزقه وأحوجها الى الحزم

والحنكة ، فعبث فى مقام الجد وسوأ سمعته فى العالم الاسلامى فضلا عن العالم الاوربى بما كان يشتغل به — أو يتلهى به على الاصح — من سفساف الامور ، وارسل الى مصر وغيرها فى طلب المغنين والراقصات وأطمع الدول فى العدوان على بلاده بهزله وغرارته ، فانعقد مؤتمر الجزيرة ( سنة ١٩٠٦ ) فى أسوأ الظروف بالنسبة الى المغرب وشهده مندوبون من قبل السلطان وافقوا على ماتقرر فيه باتفاق الدول التى اشتركت فيه وعدتها بضع عشرة دولة ، وكانت قرارات المؤتمر فى ظاهرها مؤيدة لاستقلال مراكش وسيادتها ولكنها ناطت بفرنسا مهمة الحراسة وتنظيم ادارة الشرطة ، فكان هذا الاعتراف بالاستقلال والسيادة من قبيل اعتراف انجلترا وروسيا باستقلال ايران ذودا للدول الاخرى عنها وانفرادا بالنفوذ فيها ، ومعنى الحراسة الفرنسية مع هذا الاستقلال هو اطلاق يد فرنسا شيئا فشيئا فى البلاد وتحريم التعرض لها على غيرها

وشبت الثورة الوطنية على أثر مؤتمر الجزيرة لعجز السلطان واسترساله فى لهوه واسراعه الى اقرار الوضع الجديد فى بلاده، فبويع السلطان عبد الحفيظ بعده وتعهد قبل مبايعته بمقاومة السيطرة الاجنبية واعلان الاحتجاج على قرارات مؤتمر الجزيرة، فتعلل الفرنسيون بهذه المقاومة للعهود الدولية واغاروا على العاصمة وأعلنوا الحماية ، فكان اعلانها فى تلك الآونة ( ١٩١٢ ) أول خطوة من الخطوات الحثيثة التى دفعت بالعالم الى الحرب العالمية الاولى ، ثم انطلقت يد فرنسا بعدها فى شمال افريقية بغير معارضة من الدول المنهزمة التى كانت تحول بينها وبين التبسط فى مطامع الاستعمار

وهكذا تطورت الحوادث بالدول الاسلامية المستقلة خلال القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين

أما الامم التى كانت فى حكم غيرها خلال هذا القرن فشأنها

فى حاضر الاسلام ومستقبله لايقل عن شأن الدول المستقلة ، سواء بكثرة عددها ومواقع بلادها ومكانتها من عالم الحضارة ، واكثر المسلمين عددا على هـذا الترتيب هم مسلمو الهنـد ومسلمو الجزر الشرقية ( اندونيسية ) ومسلمو الصين

**١ ــ الهند**

فى أوائل القرن التاسع عشر ثبت حكم الانجليز فى الهند وخيل الى الاكثرين أنه قد صار فيها معلما من معالم الاقليم كالجبال والانهار ... وتندر المتندرون بموعد خروجهم منهـا فرددوا تلك الكلمات المشهورة عن المواعد التى تضرب لوقوع المستحيل ، ومنها أنهم يخرجون فى الثلاثين من شهر فبراير ، أو يخرجون حين يلتقى أحدان ، أو حين يلتقى المشرق والمغرب وهيهات يلتقيان

واذا كان ثمة أحد فى الهند كان يؤمن بخروج الانجليز منها لا محالة فهم مسلموها ، لانهم على يقين بوعد كتابهم انهم هم الاعزة اذا استقاموا من أمورهم ، ولا يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

وقد شعر المستعمرون بصعوبة مراس هذه الامة ودخلوا الهند والدولة التى تقودها فى أيدى المسلمين فحاربوهم وعملوا على اضعافهم وصرح أحدهم لورد النبرو Ellenborqugh بعداوتهم فقال : « ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الاسلامى عدو أصيل العداوة لنا وان سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه الى تقريب الهنديين » وجهـر لورد الفنستون Elphinstone فى سنة ١٨٥٨ بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنديين فى ادارة البلاد ، وهى الخطة التى نادى بها كاتب المجلة الاسيوية قبل ذلك بنيف وثلاثين سنة

« وكان المسلمون فى ابان دولتهم قانعين من الحيـاة العامة بالوظيفة الحكومية وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة انهم يحرمون

الربا ، وعن ملك الارض أن الارض لم تكن مملوكة لاحد ولكنها كانت متروكة للزراع والجباة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجباة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما أصــدر الانجليز قانونا لتسوية مسائل الارض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكا وجعلوا الزراع اجراء فى أرضهم واعتمدوا على هذا النظــام زمنا لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجباة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الارض على اقامة العزلة بين المسلمين وغيرهم فى الحياة الاجتماعية » (١)

ثم زاد المسلمين ضعفا أنهم حرموا وسائل التعليم الحديث لان المدارس الحديثة كانت فى أيدى المبشرين ، وأن البراهمة بالغوا فى عزلة الطوائف والطبقات بعد انتشار الاســلام بين صفوفهم ، وشرح ذلك أحدهم الاستاذ لونيا مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار فقال : « ان المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم حياة القارة الهندية المرنة التى لا تنى تمتد وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالاغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطووا فى الغمار بعد أجيال قليلة انطواء تاما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم فى الواقع خلال المجتمعات الهندية الا المسلمين . فانهم لم يزالوا فى الهنــد طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة فى الوحدانية كل هوادة فى قبول الشرك والارباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون فى أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات فى وضع القنطرة على الفجوة ، ومابرح المسلمون خــلال القرون التالية يولون وجوههم شــطر الكعبة بمــكة وينفردون بشريعتهم ونظام ادارتهم ولغتهم وأدبهم وأضرحتهم وأوليائهم »

---

(١) كتاب « القائد الأعظم » للمؤلف .

وشهد المؤلف بفضل المسلمين فى تعليم أهل الهند مبادىء المساواة ولكنه قرن هذه الشهادة بقوله : « ان إحدى النتائج التى نجمت من حكم المسلمين فى الهند أن المجتمع قد انقسم فى عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا مثل هذا الانقسام لانهما ما عتمتا ان اندمجتا فى المجموع بسهولة وسرعة ، على حين أن الاسلام قد شق المجتمع من الاسفل الى الاعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين فنشأ فى أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران فى جميع طبقاتهما قل أن تصل بينهما علاقة فى المعيشة أو معاشرة ، واشتدت محافظة البرهميين أمام غيرة الاسلام فى نشر دعوتهم الدينية فاندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم والمبالغة فى قيود الطبقات والطوائف وما اليهـا من القيود الاجتماعية »

وهذه القيود الاجتماعية تشمل الطعام والشراب والاعراس والمآتم بما فيها من مباحات عند قوم محرمات عند آخرين

وازدادت هذه العزلة بعد شيوع المقـاومة الوطنية بين الهنديين ، لان زعيمها الاكبر طيـلاق بنى دعوته صراحة على تخليص الهند من الغرباء والغاء اللغة الاردية وابطال القوانين التى تحترم شعائر المسلمين ، ونظر الى المسلمين نظـرته الى الانجليز ، ثم نهجت على سنته جماعة الغلاة الذين جهـروا بضرورة القضاء على كل أثر للاسلام فى الهند وندبوا احدهم لقتـل غاندى لانه كان يوصى بغير هـــذه الخطة فى معاملة المسلمين

ان الاستاذ لونيا الذى اقتبسنا ماتقدم من كلامه لم يعلل نجاح الاسلام حيث أخفقت البوذية والجينية ، ولو أنه علل هذا النجاح بعلته الصحيحة لاظهر الخطأ البين فى قول القائلين أن

الاسلام قد شاع بين المنبوذين لانه خولهم حقوق المساواة بينهم وبين سائر الطبقات . فان البوذية كانت خليقة أن تنجح مثل هذا النجاح لو كان مرجعه الى معاملة المنبوذين ، وانما يتجلى هنا سر نجاح الاسلام الذى أجملنا بيانه فيما تقدم من هـذه الرسالة ، وهو شمول العقيدة الاسلامية وعلاجهـا النفس الانسانية من داء الفصام الذى يقلقها ولا يريحها الا باعتزال الدنيا وحل المشكلات بتجاهلها والخروج منها ، فهذا الشمول هو مصدر القوة الغالبة والقوة الصامدة فى المسلمين ، وهو هو البقية التى بقيت لهم فى الهند بعد زوال الدولة وزوال المناصب الكبرى والوظائف الصغرى والحرمان من ثروة الارض والمال ومن زاد العلم الحديث والخبرة العملية والعزلة أمام الحكومة المسيطرة وأمام الكثرة التى تربى على ثلاثة أضعاف ... ومن أعماق هذه العقيدة الشاملة نجمت لهم عدة الخلاص حين لم يبق للهندى المسلم من عدة غير أنه مسلم وكفى ، وتحركت بينهم أقدر دعوة للاصلاح برعاية السيد أحمد خان ، ويرجع مبدؤها الى انشاء جماعته العلمية فى عليجرة ( سنة ١٨٦١ ) ثم انشاء صحيفته « تهذيب الاخلاق » وكلية عليجرة بعد رحلته الى انجلترا ( سنة ١٨٧٠ )

وتشعبت حركات الدعاة الاسلاميين فى الهند خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر على حسب اتســاع الاقاليم والمشارب فظهر فيها من اتخذ من ابتداء القرن الرابع عشر للهجرة حجة للظهور بدعوة الاصلاح ثم دعوة المهدية على قول من قال انه يظهر على رأس كل مائة سنة داع يجدد شباب الدين ، ومن هؤلاء غلام أحمد خان القاديانى الذى نشر فى أوائل القرن الهجرى كتابه « براهين الاحمدية » ثم ادعى أنه المسيح المنتظر بعد بضع سنوات ثم ادعى ( سنة ١٩٠٤ ) أنه اقنوم كرشنا واقنوم الروح الالهى كله ، فاتبعه فى أول الامر طائفة

من المصدقين ، ثم انقسم أتباعه فريقين : فريق يدين بنبوته وفريق يحسبه من المصلحين ويرفض مايروى عنه من دعوى النبوة والحلول . وقد أحيط ظهور القادياني بالشبهات لانه لقى من تشجيع الحكام البريطان مالم يكن مألوفا منهم فى معاملة أمثاله ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الاجنبى وتفسير أمر الجهاد على هوى الحكومة مرجحة عند الاكثرين لتلك الشبهات ؛ وانما استحق الخلاف عليه أن يقوى لان هذه الفتوى حملت على محمل التقية ، وهى مقبولة فى اعتقاد بعض الفرق من الشيعة منذ لقى الدعاة الى أهل البيت ما لقوا من عسف الامويين والعباسيين

على أن الهند ــ مع بعدها فى المشرق ــ كانت تتجاوب بكل صديق قريب أو بعيد من الدعوات الاسلامية فى بلاد العرب ، فسرعان ماظهرت دعوة ابن‌عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها فى البنغال ( سنة ١٨٠٤ ) واتبعتهاطائفةالفرائضية بنصوصها الحرفية . فاعتبرت الهند دار حرب الى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد أحمد الباريلى فى البنجاب وأوجب على اتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم فى القتال حتى قتل ( سنة ١٨٣١ ) ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاتصل بطريقة الفرايضية وافتى بأن البلاد الاسلامية تجب فيها صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وان كان الحكم فيها لغير المسلمين

وترامت الى الهند انباء الدعوة المهدية فى السودان وبخاصة بعد وقعة « هكس » المشهورة وانهزام القائد الانجليزى فيها ؛ فقد حذر الانجليز مغبة هذه الدعوة ونشروا فى أرجاء الهند مئات الالوف من فتاوى العلماء المنكرين لها ، وذهب بعض ساستهم الى الزعيم المصرى « أحمد عرابى » فى منفاه بسيلان

يسألونه عن مهدى السودان فكان جوابه لهم من جنس السؤال .. وقال لهم ان المهدى فى الاسلام هو كل من هداه الله

وقد تطلعت الهند الى دعوة جمال الدين الافغانى كما تطلعت الى الدعوات التى سبقتها ، وصح فيها أنها كانت لاتساعها وتعدد بيئاتها أصلح الميادين لتجربة النافع والضار من حركات العاملين باسم الدين ، فثبت من تجاربها جميعا أن أصلح الحركات وأدومها أثرا هى حركات التجديد التى تجارى العصر ولاتنقطع عن أصول الدين ، وأخفقت فيها حركات الجامدين المتشبثين بالحروف ، كما حبطت فيها حركات المبتدعين الذين انقطعوا عن الاصول وخرقوا فى العقيدة خرقا يخالف جوهر الاسلام

ولقد بدأ القرن العشرون والمسلمون فى الهند يتطلعون الى دولة الخلافة ، ثم أسفرت الحرب العالمية الاولى عن شدة فى الحركة الوطنية لم تكن معهودة من قبلها ، ثم بلغت هذه الشدة قصواها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتعاقبت التجارب التى يراد بها تسليم الوطنيين زمام الحكم حتى أستقرت على التجربة الاخيرة بقيام دولتى الهند والباكستان

**٢ ـ أندونيسية :**

واذا كانت الهند أوفى الميادين بتجارب الحركات الدينية فالجزر الاندونيسية أوفى الميادين بتجارب الاستعمار بأنواعه ومشتقاته ، لانها كابدت ضروب الاستعمار التجارية والزراعية والثقافية والسياسية ، واختبرت أساليب البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانجليز واليابانيين ، وعاصرت الاستعمار من أيامه الاولى فى الشرق الى أيامه الاخيرة على النحو الذى صار اليه فى القرن العشرين ، ولا نظن أن خطة من خطط الاستعمار اتبعت فى ناحية من أنحاء العالم لم يتبع لها

شبيه فى هذه الجزر التى تعد بالالوف

ولعل هذه الجزر أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار الإسلام بين الامم التى كانت تدين بغيره قبل وصوله اليها . ففى كل موضع فيها تصحيح لاوهام من يزعمـون انه دين ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشاره بغير عنف بل بغير اجتهاد فى الدعوة أكثر من الاحيان ، وحيثما وجد التجـار والرحالون من العرب على شواطيء هذه الجزر فهناك مسلمون على المذهب الذى يأتمون به من مذاهب الائمة الاربعة ، واذا كان الترك على الاغلب يأتمون بمذهب أبى حنيفة وكانت للعشائر التركية دولة فى الهند فالدولة لم تصل الى الجزر بسلطانهـا وقوتها بل وصلت اليها بالمسافرين من تجارها ومهاجريها ، ولهذا يوجد الحنفيون حيث وجد هؤلاء التجار والمهاجرون ويوجد الى جانبهم اتباع المذهب الشافعى الذين اقتدوا بالعرب القادمين من بلادهم غرباء بغير دولة ولا صولة تكره الناس على مذهبها فى شئون العقيدة ، وهى أعصى الشئون على الاكراه .. ومع هؤلاء وهؤلاء يوجد الشيعة حيث لم توجد قط دولة ذات سلطان تدين بمذهب من مذاهبها . ولم يزد عدد العرب فى القرن التاسع عشر على ثلاثين ألفا فى جميع جزر الارخبيل ، ولكن المسلمين يقاربون سبعين مليونا من أبناء البلاد الاصلاء وبعض الهنود

وهذه البلاد من أغنى أقطار العالم بالمحصولات الزراعية ، ينمو فيها القصب والبن والشاى والارز والبطاطس وتنبت فيها الاشجار التى تخرج الاصماغ المختلفة ومنها صمغ المطاط ؛ وأشهر محصولاتها الابازير والتوابل التى تهافتت عليها أوربا ومن أجلها حاول الرحالون فى القرن الخامس عشر أن يصلوا الى منابتها من المغرب ، فانكشفت لهم القارة الاوربية على غير

انتظار ، وسميت جزرها بجزر الهند الغربية مقابلة لهـذه الجزر التى كانت تعرف باسم جزر الهند الشرقية

لا جرم كانت قبلة المستعمرين الاول وصحبت الاستعمار من أول بعثاته الى عهده الاخير

وأبناء هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة هى لغة الملايا ، وشيوع هذه اللغة بينهم مع شيوع الاسلام هو الذى وحدهم وعودهم الشعور بقومية واحـدة ، على الرغم من الجهود التى بذلت للتفرقة بينهم باحياء اللهجات الاقليمية وتشجيع «الابجديات» التى تلائم كل لهجة منها ، ومن مفارقات الزمن أن الاستعمار قد زود هذه اللغة على غير قصد منه بالابجدية اللاتينية التى رسمت لها كتابة واحدة لايسهل تنويعها وتفريقها على حسب اللهجات فى معاهد التعليم الحديث

جاءها البرتغاليون عند ختام القرن الخامس عشر ، ولم يعرفها الهولنديون الا بعد قرن كامل ، ثم تبعهـم الانجليز والفرنسيون ، وظفر الهولنديون بمعونة أبنـاء البـلاد لانهم جاءوهم بعد البرتغاليين فحالفهم الوطنيون للخلاص من هؤلاء واقصائهم عن أسواق المشرق ، وتكاثرت شركات التجـارة الهولندية تنافسا على الربح الغزير الذى استأثرت به الشركة الاولى ، فوحدت حكومة هولندة بين هذه الشركات وجمعتها الى شركة واحدة هى شركة الهند الشرقية الهولندية ، وقد تعاقدت هذه الشركة فى مطلع القرن السابع عشر مع مملكة بنتام على احتكار التجارة فى موانئها واسواقها واعفائها من الضرائب وامدادها بالجند والعـدة اللازمة لصـد الشركات الاوربية الاخرى ، اذا ادى اغلاق الموانىء دون سـفنها الى الاعتداء على بلاد المملكة

ولما وفد التجار الانجليز على الجزر كان الهولنديون قـد اسرفوا فى مطالبهم فرحب القوم بالانجليز وأعانوهم على الشركة

الهولندية ، ولكن هذه لم تلبث أن عادت بقوة بحرية كبيرة وحاصرت الموانىء ومنعت خروج السفن منها ثم تغلبوا على جزيرة جاوة وافتتحوا عهد استعمارهم بانشاء مدرسة فى العاصمة « جاكرتا » تتبعها كنيسة ، واغتنموا فرصة النزاع بين الامراء فضربوا بعضهم ببعض وكادوا ينهزمون لولا المعونة الوطنية التى أسعفتهم مرارا فى اشد أوقات الحاجة اليها

الا ان التنافس التجارى بين المستعمرين قد اضطر الشركة الى التحول من التجارة الى الزراعة ، واضطرها التنافس كذلك الى الاكثار من بناء السفن الحربية والاستعداد بالاسلحة والذخائر ، ووقعت الحرب بين الدولتين الهولندية والانجليزية تكسدت تجارة الشركة ولجأت الى الاستدانة ونزلت على كره منها عن عقود الاحتكار التى أتفقت عليها مع الوطنيين ، ثم احتلت فرنسا أرض هولندة فى أثناء الحرب الفرنسيةالانجليزية فاستولى الانجليز على مستعمرات هولندة جميعا ، وآلت البلاد الى شركة الهند الشرقية الانجليزية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، فسعى بعض الامراء والمصلحين الى الحاكم الانجليزى لاقناعه بتوحيد الامارات الاندونيسية فى شبهولايات متحدة تتولاها هيئة نيابية ... فلم يقبل مجلس الشركة فى لندن هذا الاقتراح ! واستعاض عنه بالاكثار من الحكومات المحلية والغاء قوانين السخرة وتخفيف بعض الضرائب واحتكار تجارة الملح لتعويض خزانة الشركة عن الضرائب الملغاة

ولما عاد الى هولندة استقلالها بعد انهزام نابليون أمام الجيش الانجليزى الهولندى فى وقعة « واترلو » طالبت بمستعمراتها المختلفة فردت لها ... واظهر القادة العسكريون المسيطرون على تلك المستعمرات عصيانا « متفقا عليه » حتى تم الاتفاق بين الدولتين ( سنة ١٨٢٤ ) على تسوية تحفظ لانجلترا جزءا من المستعمرات وتعيد سائرها الى الحكومة الهولندية

وعادت الادارة الهولندية الى السخرة وزيادة الضرائب وحرمان البلاد من غلاتها ومحاصيلها فتعاقبت الثورات مع المجاعات والازمات الاقتصادية ، وكاد السخط على الحكومة المستعمرة أن يعصف بها لولا استغلال الوقيعة بين أمراء الممالك وتأليب صغارهم على كبارهم وانقياد صغارهم للدسيسة الاجنبية خوفا على سلطانهم المحدود من غلبة الامراء الكبار عليهم . ولم تهدأ هذه القلاقل الا فى السنوات الاولى من القرن العشرين ، ثم اذعنت هولندة كما أذعن غيرها من دول الاستعمار لمطالب النهضات الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى ، فاستجابت الشعب الاندونيسى الى بعض حقوق الحكومة الذاتية وقامت المجالس النيابية فى هذه البلاد لاول مرة فى ظل الاستعمار

ويرجع فضل النهضة الوطنية الى يقظة المسلمين وتاسيس أول جماعة من جماعات الاصلاح باسم « شركة اسلام » وهى الجماعة التى انضوت اليها جماعات متعددة بعد ذلك باسم « مسجومى » ... كلمة منحوتة من « مجلس سجورو مسلمين اندونيسية » Madjelis sjuro muslimin Indonesia

واكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار ، لانهم استفادوا من تجارب الاصلاح السابقة على مقربة منهم فى الهند ، واتفق نشاطهم للاصلاح بعد توافر أسبابه فى ابان دعوة الاستاذ الامام بالديار المصرية ، وهى دعوة تعول على تعزيز الجامعة الاسلامية من الوجهة الثقافية ولا تشتد فى طلبها من الوجهة السياسية على طريقة جمال الدين ، وقد تمحصت التجارب خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر بعد حركة الجامعة الاسلامية الاولى وبعد حركة الخلافة فى الهند ، فأسفرت عن رجحان المنهج القويم الذى اختاره الاستاذ الامام رحمه الله

## ٣ ـ الصين :

ومسلمو الصين لهم تاريخ يتناقلونه عن السلف وتغلب عليه الصحة ، وانما يرجع الخطأ فيه الى تعديل التقاويم الصينية من حين الى حين ، بحيث تتسع فى بعض العصور لفرق عشرين سنة أو ثلاثين تزيد تارة وتنقص اخرى ، وعلى حسب التاريخ الذى يتناقلونه يكون الاسلام قد دخل الى الصين بعد الهجرة النبوية بقليل . وقد هزم المسلمون الفرس والروم معا بعد الهجرة النبوية بجيل واحد فأرسل كلاهما الى الصين يستغيثون بابن السماء ويهولون له فى خطب هذا المدو الظافر . . ظنا منهم أن هذا التهويل يحفزه الى المبادرة باغاثتهم فى الطريق حرصا على حدود الصين ، فكان هذا العاهل أحذر مما حسبوه، ودعته استغاثة الروم بعد استغاثة الفرس الى مسالمة هذه القوة الجديدة ، فأوفد رسله الى الخليفة عثمان وقابل الخليفة هذا التقرب بمثله فأوفد اليه بعثة قوبلت بالحفاوة والترحاب

وقبل أن يمضى قرن واحد على هذه الزيارات عرضت لبلاط الصين تلك المشكلة التى حيرت سفراء الغرب وقهارمة البلاط فى مملكة ابن السماء بعد أكثر من عشرة قرون ، حين اشترط ابن السماء على السفراء أن يتقدموا اليه راكعين وعز على هؤلاء السفراء أن يحيوه بتحية أكبر من تحياتهم لملوكهم . فان العاهل سوان تسنج غره ماسمعه عن اضطراب احوال الدولة الاسلامية فجرد على تخومها جيشا كبيرا يريد أن يدحر به جيش قتيبة بن مسلم الرابض على تلك التخوم . فانهزم وأمر قتيبة الرسل الذين انفذهم الى بلاط ابن السماء ان يعرضوا عليه الاسلام أو الجزية أو مواصلة القتال . فدخل هؤلاء الرسل على ابن السماء لاول مرة مترفعين عن السجود منذرين متوعدين . ثم مات الخليفة الوليد وقتل قتيبة وأجزل العاهل

عطاء الجيش الاسلامى وأذن لهم بالبقاء فى بلاده ، فسموا باسم القبيلة الصينية التى كانت الى جوارهم ودانت بالاسلام مقتدية بهم ، وهى قبيلة هوى شوى ، ولا يزال المسلمون جميعا يعرفون باسم « هوى هوى » فى جميع بلاد الصين

ويؤخذ من سجلات أسرة تانج أن الدولة كانت تمنح الاسر الاسلامية المقيمة فى « سيانغو » خمسمائة ألف أوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل « سو تسنج » الذى ثار به الجند بعد اكراه ابيه على النزول عن العرش ، فاستنجد بالخليفة العباسى ابى جعفر فأمده ببضعة آلاف جندى هزموا الثوار وأقروه على عرشه فاستبقاهم فى أرضه ( سنة ٧٥٧ ) ... ومن هؤلاء ومن سبقهم من جنود قتيبة تناسل المسلمون فى غرب الصين

الا أن المسلمين قد دخلوا الصين من غير طريق الغرب ، ولم ينقطع تجارهم وسياحهم والملاحون منهم عن زيارة موانى الجنوب فى كانتون وما جاورها ، وأوغل بعضهم الى داخل البلاد من الجنوب والغرب والشمال مع القبائل الرحل فلم يخل منهم اقليم فى الاقطار الصينية على الاجمال ، ويسمى المسلمون فى الشمال الغربى عند قانصوه وشنسى بالتنجان أى المنتقلين الى الدين الجديد ، ويسمون فى سنكيانج بالترك لانهم من السلالات التركية فى التركستان ، ويسمون فى يونان بالبنشاى وهم من سلالة الترك والعرب وأهل الصين الاقدمين ، وليس هؤلاء جميعا من سلالة المسلمين الاولين ، بل منهم أناس من أبناء الصين آثروا الاسلام اعجابا بأهله ، ومنهم من كان آباؤهم يبيعونهم فى أعوام المجاعة فينشأون بين المسلمين على عقيدتهم، ولم يحل تحريم المسلمين اكل الخنزير وتعاطى الخمر والمخدرات دون اجتذاب جيرانهم الى دينهم بالقدوة الحسنة

والمعاملة المرضية والامانة فى التجارة والزراعة ، فاسلم كثيرون بغير اكراه على قلة اكتراث الصينيين بالتحول من دين الى دين لانهم لايبالون مايعتقدون اذا تركت لهم عبادة الاسلاف ورعاية التقاليد فى الشعائر وآداب السلوك .

وقد شقى المسلمون فى الصين بحكم أسرة المانشو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعلمت هذه الاسرة الواغلة تاريخ المسلمين فى نصرة الاسرة المخذولة فأشفقت من ثورتهم وتعللت لهم بالعلل التى تصطبغ بصبغة الدين لتنفير البوذيين منهم ، فحرمت عليهم ذبح البقر ( سنة ١٧٣١ ) مع انها تبيح ذبح الخنازير ، وظنت انها ترضى بذلك طوائف البوذيين وترضى سائر أهل الصين الذين يبيعون الخنزير ويسرهم أن يضطر المسلمون الى أكله بعد تحريم لحوم البقر عليهم ، فثار المسلمون وتتابعت ثوراتهم وهزموا جنود الحكومة فى معارك كثيرة ومنها معركة فى التركستان الصينية قتل فيها الفان وانتحر الوالى خوفا من القصاص ( ١٨٦٣ ) . وفى هذه الآونة استقل البطل التنجانى يعقوب بك بحكم التركستان واوشك ان ينفصل بها وبالاقليم المجاور لها لولا انه مات فجأة ( ١٨٧٧ ) واختلف أتباعه وقادة جنده فتلاحقت بعده المذابح والثورات ، الى أن سقطت دولة المانشو وكان لثورات المسلمين فى الغرب والشمال أثر فى اسقاطها وتحريض الناقمين منها على مهاجمتها

وقد أحس المستعمرون الشرقيون والغربيون وطأة الصينيين المسلمين فى حروب تلك الدول مع الصين ، وكانت اليابان أول من تعرض لبأسهم فى حربها مع الصين ( سنة ١٨٧٥ ) فخطبت ودهم وتقربت منهم جهرة وخفية ، ثم أوفدت سفراءها من أمراء البيت المالك الى دار الخلافة لتستميل اليها المسلمين الصينيين فى خصوماتها مع أسرة المانشو ومع الروس فى وقت واحد ، وكانت أسرة المانشو قد حرمت على المسلمين الاتصال

بالعالم الخارج فتعذر عليهم أداء فريضة الحج ولكنهم كانوا يتحيلون على الخروج لاداء هذه الفريضة بمختلف الحيـل ، فلما أحست بمساعى الدول بينهم وتسلل الدعاة اليهم من اليابان والروس والترك وحكومة الهند ضربت حولهم السدود وحظرت العودة على من يغادر منهم البلاد للحج أو لطلب العلم، فنشأت بينهم عادة غريبة وهى عادة الحج بالنيابة ، وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الامم القريبة لينوبوا عنهم فى الحج بأسمائهم ، خوفا من النفى الدائم اذا غادروا البلاد بغير اذن الحكومة ، ولم تخل القيود من أثرها المحمود . فانها ضاعفت عنايتهم بدراسة الدين وحفظ القرآن فكثر بينهم من يعرفون لغته ويقرءون بها قراءة المجتهد فى أرض معزولة عن الثقـافة العربية ، وتعزى الى هذه الفترة نهضة التجديد بين مسلمى الصين الغربية ، وهى كسائر النهضات مقبولة عند فريق ، مستنكرة أو مشتبه فيها بين فريق المحافظين على كل قديم

ولا يزال مسلمو الصين فى غمرة من جرائر الظلم الذى حاق بهم على عهد الاسرة المنشورية ، ولم يرتفع عنهم كثيرا بعد قيام الجمهورية ، ولكنهم على اية حال كانوا فى مطلع القـرن العشرين قوة لا تهمل فى حساب أحد يعنيه أمر الصين كلها ، ولهذا جعلتهم الجمهورية عنصرا من العناصر الخمسة التى يقوم عليها بناء النظام الجديد

# أمم أخرى

تلك فى العالم الاسلامى أكبر الجماعات التى بقيت الى ختام القرن التاسع عشر فى حكم غيرها ، وهى جماعات كبيرة حتى بالقياس الى أكبر الجماعات من حولها ، اذ ليست الصين مثلا على عقيدة واحدة بملايينها الاربعمائة، ففيها الطاويون والبوذيون وأتباع كنفشيوس وطوائف شتى لاتقيم شعائرها فى بيعة واحدة وقد تواترت الادلة على الرغبة فى الاقلال من عدد المسلمين بين هؤلاء فى جميع الاحصاءات الحكومية وغير الحكومية ، ولم تتبدل هذه الرغبة بعد اعلان الجمهورية ، فقال دكتور ليمان هوفر معتمدا على مراجع الحكومة العامة أن عددهم يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ، وكشف الاستاذ أحمد على الباكستانى عن خطأ هذا الاحصاء معتمدا على عدة مراجع منها دليل الصين الرسمى فى سنة ١٩٤٣ ، فان تعداد سنكيانج وحدها فى ذلك الدليل ٢٠٫٠٣٦٠٫٤ وتعداد قانصوه ٤٦٧٫٢٥٥٫٦ وتعداد شنسى ٦١٧٫٧٩٩٫٩ وكلها بلاد اسلامية أكثر من فيها مسلمون ، وهذا عدا مسلمى يونان وشنفهاى ونتغسيه وهم هناك قلة كبيرة ، وعدا المسلمين بوادى اليانجتسى وقد ذكر ولز وليامس احصاءهم فى كتابه الذى ظهر قبل خمسين سنة ( ١٨٨٣ ) فقدرهم بناء على ذلك الاحصاء بعشرة ملايين ، ولا حاجة الى شواهد أخرى أو الى استقصاء سائر الاقاليم لاثبات تلك الرغبة فى الاقلال من عدد المسلمين الصينيين ، فقد يرى بعضهم أن الجماعة الاسلامية التى كان ولاة الامر الصينيون يودون الاكبار

من شأنها لم تذكر كل الحقيقة حين كتبت ـ باذن ولاة الامور ـ انها تمثل خمسين مليونا من الصينيين

ووفرة العدد هنا لها شأنها الخطير فى قارة كالقارة الاسيوية يتقدم أعتبار العدد فيها اليوم على كل اعتبار

وهناك شأن آخر لابد من الالتفات اليه فى كل كلام يتعلق بالجغرافية الاسلامية ، فلا يخفى أن البلاد الاسلامية تبتعد عن شواطىء البحار بتدبير أو بغير تدبير ، وذلك مصدر ضعف لها فى بعض المواقع ومصدر قوة لهـا فى المواقع الاخـرى ، فالمسلمون فى وسط آسيا قوة لانهم هناك ميزان القارةالداخلية لا يتم أمر من الامور فى سياسة العالم التى ترتبط بتلك المواقع ان لم يحسب فيه حسابهم قبل كل حساب ، ولكنهم فى الجزر الهندية الشرقية يملكون الشواطىء فلا يهمل شأنهم فى كل سياسة عالمية لها علاقة بحرية ، وهم فى الباكستان شرقا وغربا يتوسطون البر والبحر ، فلا تنفصل سياسة القارة الاسيوية بعد النظر الى هذه الاعتبارات كافة عن سياسة الاسلام

وتعاصر هـذه الجماعات الاسلامية الاسيوية أمم شتى لا تساويها فى العدد ولكنها ملحوظة المكانة والمكان لغير ذلك من الاعتبارات ، وفى طليعتها وادى النيل والبلاد العربية

# وادى النيل

فوادي النيل قضى القرن التاسع عشر كله ــ اسما ورسما ــ فى حوزة الدولة العثمانية ، ولكنه كان قبل قيام الدولة العثمانية وبعد انحسار ملكها محور العالم الاسلامى ، لجملة أسباب تدور على الدين تارة وعلى السياسة أو الثقافة تارة أخرى

فقد كانت القاهرة تحسب عاصمة الاسلام ، وكان ملوك الافرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير الاسلام اذا انتحل أحدهم لنفســه لقب الامارة على المسيحيين ، وكانت مصر طليعــة الجيوش الاسلامية فى مقاومة الصليبيين وبيت القدس تابع لها فى أيام تلك الحروب ، ومضى زمن على العــالم الاسلامى فى القرون الوسطى وهو لايعرف قبلة لعلوم الدين أولى بالرحلة اليها من الجامع الازهر ، وعظمت مكانتها أمام الغرب بعد الحروب الصليبية فى عهد الاستعمار وفى عهد المسألة الشرقية ، فكان الفيلسوف الالمانى « ليبنتز » يغرى لويس الرابع عشر بفتح مصر للقضاء على المستعمرات الهولندية ويقول له : «ان هولندة لا تجسر حينئذ على معاداته لانهــا تجر عليها غضب العــالم المسيحى اذا حاربته وهو مشغول بفتح معقل الاسلام » ، ولما فكرت الدول فى أمر قناة السويس كان المركيز دارجنسون Dargenson يروج للمشروع من الناحية الدينية فيقول :

« انه فتح صليبى لجميع المسيحيين »

وشاءت الحوادث ، كما شاء حكم الموقع ، أن تسبق مصر بلاد العالم الاسلامى الى الحضارة الحديثة ، لانها تنبهت الى مزايا

هذه النهضة عند وصول الحملة الفرنسية اليها بقيادة نابليون بونابرت قبيل ابتداء القرن التاسع عشر ، وكانت فى حقيقتها حملتين : حملة عسكرية وحملة علمية يشترك فيها جلة العلماء من المختصين الثقات فى كل علم حديث

ويعتبر القرن التاسع عشر فى مصر بمثابة الازمة النفسية التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فاعتلجت فيها النفس المصرية بتجارب النكسة والتقدم وعوامل الاسر والحرية، واستهلت أمة مصر سنواته الاولى بحركة من حركات الاستقلال تمثلت فى اجماع القادة على عزل الوالى العثمانى وترشيح وال يختارونه ليخلفه على شرطهم من الاستقامة فى الحكم والتعفف عن الحرمات والاموال ، فتولى الامر « محمد على » ولجأ الى النظم الحديثة فى ادارة الدولة وتثمير الارض والانتفاع بمـاء النيل ، ولولا اسرافه فى العدة لتوسيع ملكه لادركت البلاد اضعاف ما أدركته من المنعة والتقدم بعد القضاء على عصابة المماليك

وقد استفادت مصر فى هذا القرن من الحضـارة الاوربية وأوشكت أن تخلص لها فوائدها لولا بقايا الامتيازات الاجنبية وأثقال الديون وشطط الولاة وعجزهم من أيام عباس الاول الى أيام توفيق بن اسماعيل ، وفى عهد هذا تفاقمت بواعث السخط والنقمة فثارت الامة تطلب الاصلاح وتعالج أن تفك قيودها بتقييد سلطان الولاة ، فتذرعت بريطانيا العظمى باختلال الامن فى مصر لضرب الاسكندرية واحتلال القطر كله ، ولم تنس أن تثير العصبية والطمع فى الغرب بدعوى حماية المسيحيين وحراسة حقوق أصحاب الديون ، ولم يحدث قط أن مسألة الديون سوغت احتلال شبر من الارض فى أوربا أو أن اضطهاد المخالفين فى الدين ضيع استقلال أمة من غير الشرقيين

وكان القرن التاسع عشر كما أسلفنا بمثابة الازمة النفسية

التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فحدثت فيه نكبة الاحتلال الاجنبى وحدثت فيه قبل الاحتلال وبعده نهضة الحرية فى وجه الدولة صاحبة السيادة وهى الدولة العثمانية ، وفى وجه حكام مصر وهم سلالة محمد على ، وفى وجه السيطرة الفعلية وهى سيطرة المستعمرين ، ويحسن بالمؤرخ الذى يعنيه الاستقصاء فى النهضات الفكرية على الخصوص أن يقرر فى ثقة ويقين أن العصبية العمياء لم تكن قط عاملا فعالا فى حوادث مصر الهامة . فقد كان شعور مصر اسلاميا كلما أحس العصبية من الغرب فى عدائه للأمم الاسلامية . ولكن الهتاف بالسخط على « العثمانلى » كان على لسان الخاصة والعامة ، يدل عليه أن جماهير العامة كانت تنادى فى أواخر أيام المماليك مستنجدة بالمتولى لهلاك العثمانلى ، وكان هتافها الذى لايعقل أن يصدر من غير العامة « يامتولى يامتولى . تخرب بيت العثمانلى » .. وبعضهم يتعلم ويتخرج فيستبدل المتجلى بالمتولى ، وهو وما جرى مجراه مسطور فى تواريخ مصر بأقلام المصريين والاجانب ، وأقلام المسلمين وغير المسلمين

اما الخاصة فمنهم الحزب السياسى الذى نادى « بمصر للمصريين » قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين سنة ، وعلى راسهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أستاذ رجال الدين من المصلحين ، وأحد أصدقائه وتلاميذه سعد زغلول قائد الثورة بعد الحرب العالمية الاولى وكان وكيلا للهيئة النيابية التى تألفت فى أوائل القرن العشرين باسم « الجمعية التشريعية » وأثبتت أن الجماعات النيابية تنال منزلتها ومقدرتها على قيادة الامم بفضل من فيها من الاعضاء لا بمقدار مالها من الحقوق فى النصوص والاحكام

# البلاد العربية

ومن تاريخ الاصلاح الاسلامى فى جزيرة العرب يبدو أن الاصلاح فى العالم الاسلامى يخلق حيث توافرت دواعيه على حسب البيئة ، فهو سابق فى المجتمعات التى تدور فيها المعيشة على بساطة البداوة وما شابهها ، وهو كذلك سابق فى المجتمعات الحضرية التى تشعبت جوانبها وتركبت عناصرها فلا يصلح لها مايصلح للبداوة ، وكل ماهنالك أن الاصلاح فيها يتأخر به الزمن لانه يستلزم من الدواعى العلمية والاجتماعية مالم يكن لزاما فى البيئات البدوية

فالنهضة فى مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع عشر . ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الامام الشوكانى صاحب كتاب « نيل الاوطار » ، وكلاهما ينادى بالاصلاح على نهج واحد : وهو العود الى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هوادة ، وانمـا تسامع الناس بحـركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة كتب الفقه والحديث لان الوهابيين هدموا القباب والاضرحة فى الحجاز واصطدموا بجنود الدولة العثمانية فى ابان حربها مع الدول الاوربية التى اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام قد أودى بدولة على بك الكبير فى مصر فانتفض عليه أعوانه

وتمكن منه حساده بعد محالفته لروسيا فى حــرب الخلافة الاسلامية

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثا فى الجزيرة العربية ولا فى ارجاء العالم الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه الى الهند والعراق والسودان وغيرها من الاقطار النائية ، واعجب المسلمين ان سمعوا أن علة الهزائم التى تعاقبت عليهم انما هى فى ترك الدين لافى الدين نفسه ، وأنهم خلقاء أن يستجدوا مافاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع والعودة الى دين السلف الصالح فى جوهره ولبابه

أما سياسة الاستعمار فلم يفتها فى هذه المرحلة ان تستغل التمرد على الدولة العثمانية كما تستغل التنازع بين أمــراء الجزيرة فى داخلها وعلى شواطئها . فسارعت بريطانيا العظمى الى التعاقد مع أمراء الشواطىء على نوع من الحماية الخفية ، واحكمت عقودها هذه بعد فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية الى العراق ، فلم ينقض القرن التاسع عشر حتى كانت قد أحاطت الجزيرة العربية بحلقات من هــذه الامارات التى تخضع لها وتعمل لها فى السر مالا تستطيعه فى العلانية



# الهلال الخصيب

والهلال الخصيب وسط بين مصر والجزيرة العربية فى نهضة الاصلاح الدينى ومجاراة الحضارة الحديثة ، فالمسلمون فى بلاد الهلال الخصيب يشعرون بالحاجة الى التغيير ولكنهم لايلتمسونه فى بساطة القديم ولا تتوافر لهم الوسائل لالتماسه فى العلوم الحديثة ، وتقيدت أحوالهم بأحوال الدولة التركية فتعلم منهم من تعلم فى المدارس التركية وقدم بعضهم الى الجامع الازهر بمصر أو تلقى العلم على منهاجه من علماء بلده .

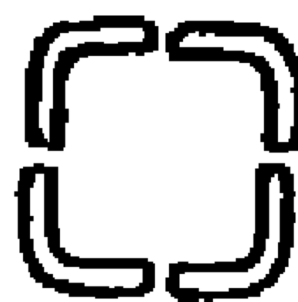
ولما تسابقت الدول الغربية الى فتح المدارس فى لبنان وسورية لم يقبل عليها المسلمون لاعتقادهم أن التعليم فيها وسيلة للتبشير ، وهو أمر لا يخفيه رؤساء تلك المدارس بعد انقضاء جيلين على افتتاحها ، ومنهم رئيس جامعة كبيرة يقول : « ان التعليم خير الوسائل فى التبشير والتنصير »

ومن خدام الاستعمار طائفة تمهد له بخدمة اللغة العربية تشجيعا لثورة العرب على دولة الخلافة ، واحتيالا على نفث بعض المغامز فى طيات الكتب التى تنشرها ، وان خدام اللغة هؤلاء لشاهد من شواهد شتى على أن العلم لايخلو من الخير وان ساءت النية عند ناشريه

وجملة الحال فى بلاد الهلال الخصيب عند أواخر القرن التاسع عشر أنها تتقدم فى نهضة اسلامية تتوسط بين منهج محمد بن عبد الوهاب ومنهج محمد عبده ، وأن هذه النهضة

يمتزج فيها طلب الحرية وطلب التجديد كأنها جيش ذو جناحين يذهب الجناح السياسى منهما بعيداً ويصطنع الجناح الدينى شيئاً من الاناة والمحافظة

وفى داخل هذا الهلال الخصيب فرق من المسلمين كالمتاولة والدروز يحسبون من غلاة الشيعة ويذهبون الى اقـــوال فى مسألة الحلول ومسألة الامامة يخالفهم فيها السنيون والشيعة المعتدلون ... وتكاد كل فرقة منهما أن تنطوى على عزلتها ، الا أفراداً منهم يقصدون الى معاهد العلم الحديث فى لبنان ومصر والديار الاوربية



# افريقية الشمالية

اما فى أفريقية الشمالية فقد احتلت فرنسا الجزائر فى سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس فى سنة ١٨٨١ وسلكت فى كل منهما السياسة التى تبصر من لا يبصر بأساليب الاستعمار سواء منه ما ينتحل المبادىء الديمقراطية أو ينتحل الدعوة الدينية

فنابليون الثالث قد منح المسلمين فى الجزائر حقوقا كحقوق المواطنة ، وهو عاهلٌ مطلق اليدين ... ثم جاء غمبتا داعية الحرية فحرم المسلمين هذه الحقوق وضاعفها لليهود

وحكومة فرنسا وهى تنادى باعتزالها للدين تضع فى « الميزانية » التى عجزت مواردها عن مصروفاتها بابا واسعا لمعونة المبشرين فى أفريقية الشمالية ، ويعلن وزيرها فى البرلمان أن « السياسة اللادينية » تقف عند حدود فرنسا ولاتتخطاها الى المستعمرات

وقد ابتدأ القرن العشرون فى الجزائر وتونس بنهضة من نهضات التقدم يستعجلها المجددون ويستمهلها المحافظون ، ولم يبق من المحافظين فى نهاية القرن التاسع عشر من يحرم الدستور لانه بدعة مستمدة من الشرائع الغربية ، ولكن أنصار القديم مع هذا يتحرجون مما يتوسع فيه أنصار التجديد

وتم احتلال المستعمرين لافريقية الشمالية باحتلال طرابلس فى سنة ١٩١١ فكانت الغنيمة هذه المرة من نصيب الايطاليين ،

وسمعت فى ايطاليا قبيل الزحف على طـرابلس أناشـــيد « الصليبية » فى نغم جديد ، ولكنها سمعت أيضا بعد ذلك بزهاء ثلاثين سنة تمجيداً لغزوة الحبشة وابتهاجا بتخليص أثيوبية القديمة من « الهمج » الذين دنسوا دين المسيح !



# مسلمو الحبشة

ومن اكبر المجاميع الاسلامية فى القارة الافريقية مسلمو الحبشة وعدتهم مع المسلمين فى الصومال وأريترية لاتقل عن ستة ملايين

وتجمع التواريخ التى كتبها الشرقيون والغربيون عن الحبشة فى القرن التاسع عشر على سوء حالهم .واضطهادهم ، وقد أمر أحد ملوكهم يوحنا بتنصير سكان الحبشة جميعا ومنهم المسلمون ، وجاء فى أحدى الرسائل التى كتبها جوردون الى أخته « أن يوحنا ــ ويا للعجب ــ يشبهنى تعصبا للدين وله رسالة سينجزها ، وهى تنصير جميع المسلمين » (١)

وقد أشار ترمنفهام فى كتابه عن « الاسلام فى الحبشة » الى أعمال يوحنا هذا فقال فى صفحة ١٢٢ « أن بعض المسلمين تحولوا الى بلاد الفالا أو المنخفضات الاسلامية أو البلاد الوثنية حيث ينشرون دينهم ، وبعضهم تنصر ولكنه تنصر لا يعنى لديهم الا القليل ، اذ كان مقصورا على التعميد وأداء العشر ، وقد قال الكاردينال ماسيا Massaia انه رأى بعينه أناسا منهم يخرجون من الكنيسة التى عمدوا فيها الى المسجد ليزيلوا أثر العمادة على يد الامام » (٢)

---

(١) صفحة ١٥٥ من رسائل جوردون التى طبعت سنة ١٩٠٢ .

(٢) Islam in Ethiopia by Trimingham

وبعد ان قتل هذا الملك فى حربه مع الدراويش حسنت احوال المسلمين بعض الشيء ولكنهم تعرضوا لمظـالم شتى يذكرها السياح من الاوربيين كما ذكرها السياح الشرقيون فى كتب الرحلات الحديثة



# السودان

ونريد بالسودان هنا جملة الاقطار الافريقية التى يقطنها الزنوج ... وفيه مسلمون فى جماعات قليلة أو متفرقون بين بواديه وقراه

وموقف الحكومات الاجنبية فى أقطار هذا السودان جميعا هو موقف المقاومة كما يؤخذ من تقارير المبشرين والسياح من الاوربيين ، وقد تمنع هذه الحكومات رسالات التبشير من دعوة المسلمين الى النصرانية ولكنها تيسر لهم عملهم كل التيسير فى بلاد الوثنيين ، فتبيح لهم السفر الى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات (١)

وصرح القس شو فى سنة ١٩٠٩ « بأن قبائل الوثنيين مالم تدخل فى المذهب الانجيلى قريبا فهى حتما صائرة الى الاسلام »

وعقب ترمنغهام على هذا فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان فقال فى صفحة ٣٨ « ولكن هذا الخطر قد زال الآن »

ويفهم من كتاب السودان المتغير The changing Sudan تأليف ولسون كاش Cash أنه مامن قائد أو رائد أرسلته مصر الى أعالى النيل فى القرن التاسع عشر بايعاز من الدول الا كان من رواد التبشير على وجه من الوجوه

---

(١) صفحة ٢٤٨ من كتاب « الاسلام فى السودان »

# التبشير على الاجمال

وبعد هذه الخلاصة العاجلة عن موقف الاسلام من الاستعمار فى القرن التاسع عشر على الخصوص ـ نوجز الموقف الذى يقفه منه جماعات التبشير بعد تجربة قرن كامل فى مختلف الاقطار

فالتقارير التى كتبها رسل التبشير مجمعة على صعوبة تحويل المسلم عن معتقده الى دين آخر ، وأكثر هؤلاء المبشرين تابعون لكنيسة رومة أو للكنيسة الانجيلية ، ومنهم من يجتهد فى تحويل المسيحيين الشرقيين الى مذهبه لان التحول من مذهب الى مذهب فى ديانة واحدة أيسر من التحول من ديانة الى أخرى .

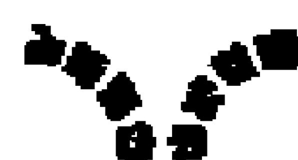
وربما شجر النزاع بين المبشرين من المذهبين فى أواسط افريقية وفى الشرق الاقصى من آسيا ، وربما انتهى أمرهم جميعا بين المسلمين الى الكف عن الدعوة والاكتفاء بالقدوة والتعليم على أمل النجاح بهما حيث أخفقت الدعوة الصريحة كما ذكر داعيتهم الكبير ترمنفهام فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان

وجملة الموقف الآن أن جماعات التبشير قد فرغت أو كادت من اتخاذ الاسلام هدفا لدعوة التنصير ، وهى تنظر اليه الآن نظرتها الى منافس خطـر فى بلاد الوثنيين من الاسيويين والافريقيين ، واذا أمنت خطره فقد تستريح اليه للتعاون على مقاومة الدعوة الى المذاهب الهدامة أو مذاهب الالحاد ، وبخاصة

فى البلاد التى تصطدم لديها الكتلتان الشرقية والغربية

ويبدو لنا أن هذه الجماعات فى الشرق انما تطيل رسالتها لاستبقاء الاتاوات المخصصة لها فى بلادها ، ولو كان بقاؤها على قدر نجاحها فى التبشير لعدلت عنه منذ عهد بعيد

ولكن هذه الجماعات التى تمدها الاتاوات والحبوس من بلادها تتخفى بغرضها المدخول وراء كل غرض ظاهر من التعليم أو التطبيب أو الاحسان . ولها أساليب ملتوية لمحاولة التأثير ، نذكر منها أسلوبا صغيرا اختبره كاتب هذه السطور فى تشجيع بعض ذوى الاقلام وغمط الآخرين ممن يحذرون خدمتهم الثقافية ، فلا يخفى على أحد فى الشرق العربى أن كل ترتيب للكتاب العشرين الذين تشيع كتبهم بين قراء العربية لابد أن يرد فيه اسم كاتب هذه السطور فى آخر القائمة على الاقل ان لم يرد فى أولها ، ولكن احدى هذه الجماعات زعمت أنها تعنى بترتيب الكتب العربية التى تقرأ فى الشرق فلم يأت بينها ذكر لكتاب واحد ألفناه ، ولم تصنع شيئا بهذا السفساف الا ان تدل على النية المدخولة والتواء الاسلوب ... ومن دلالة كهذه يظهر ماوراء هذه الجماعات من الفرض ، وان ابتعدت عنه فى الظاهر غاية الابتعاد



# الدعوات ونهضات الإصلاح

# الدعوات ونهضات الاصلاح

اتى على الامم الاسلامية حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا

حرمت العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، وهى عدة الامم فى تنازع البقاء

والويل للأمم التى تحرم هذه العدة فى الحالتين

الويل لها اذا احست نقصها ، والويل لها اذا غفلت عنه ولم تفطن لمصابها

فان احساسها بالنقص فى جميع هذه العدد يذلها وييئسها ويهون عليها الخضوع لغيرها والاستسلام لسوء مصيرها

أما الغفلة عن النقص فهى أشد عليها من الاحساس به ان كانت هنالك حالة أشد من حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، لانها تزيد عليها حرمانا آخر لا تزال له بقية فيها ، وهو الحرمان من محاولة التبديل ، ان كان للمحاولة سبيل

ويحدث فى بعض هذه الاحوال أن تتماسك الامة بعض التماسك لاعتصامها بكبرياء الجنس أو بكبرياء الدم والسلالة ، وهى كبرياء تخامر النفوس بغير حجة وتداخل الجاهل مداخلة العارف أو أشد وأقوى

فالجنس الاصفر ينظر الى الامم الاخرى كأنها الغريب المتطفل على العالم لان أوطانها فى عرفها هى مركز العالم ومحوره ، فلا

محل فى خارجه لغير المتطفلين المشردين

والجنس الاسود يعيب على جميع الامم أنها لا تأخذ بعاداته ومراسمه ، واليونان الاقدمون كانوا يحسبون الناس ماعداهم فى زمرة واحدة هي زمرة البرابرة ، والمصريون يحسبون الناس واليونان منهم اجلافا مستوحشين ، والعرب يسمون غيرهم عجما ، والعجم يأنفون من عيشة الصحراء كأنها مسبة لمن يقبلها ومسبة لمن يفضلها على غيرها

وكان للأمم الاسلامية أن تلوذ بهذه الكبرياء لولا أنها تنتمى الى جميع الاجناس ، وقد تنتسب فى رقعة واحدة الى البيض والسود والصفر كما تنتسب الى الآريين والساميين والحاميين، وأعلم من فيها يعلم أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى

فقى هـــذه المحنة التى مرت بالامم الاسلامية فى عصر الاستعمار لم تكن لها غير عصمة واحدة : وهى عصمة الدين

عصمها لانها لم تهلك هلاك الامم التى حرمت مقومات الحياة وعدد الكفاح فاستسلمت ويئست وأيقنت أنها أقل من سائر الامم فى جميع الصـــفات وأنها محتـــاجة من تلك الامم الى كل شىء

وعصمها لانها لم تهلك هلاك الامم التى تجهل حاجتها وتغفل عن نقصها ، لان نزولها منزلة العبودية كاف وحده لتعريفهـــا بتبدل حالها وقبولها ماليس ينبغى أن تقبله وتستقر عليه

بقى لها شىء يوحى اليها أنها ليست ضائعة محرومة من كل شىء بعد حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمـكانة السياسية

ولم يكن هذا الشىء كبرياء الجنس العمياء أو كبرياء الحيوانية فى الانسان ، بل كان شيئا يليق بالانسان لانه منوط بأشرف مزاياه وهى مزية الضمير والوجدان

بقى لها الايمان بدينها

بقى لها الايمان بأنها فى حالة لن تدوم ، وأنهـا قمينة أن تغيرها لو غيرت ما بنفسها ، وأن الله يريد منها هذا التغيير ويعينها عليه

ولم يزل الاسلام منذ كان يعلم المسلم أنه مطالب بعلم الدين وعلم الدنيا ، وأن نبى الاسلام ـ فضلا عمن هو دونه ـ قد يقول لمن يهديهم أنكم أعلم بأمور دنياكم

وانحلت المعضلة الكبرى على هذه الصورة التى لا صعوبة فيها على النفس المسلمة ، ففى وسع الدول المستعمرة أن تتغلب بسلاحها ، وفى وسع الامم الاسلامية أن تدفعها بمثل ذلك السلاح اذا ملكته ، وعليها أن تملكه بأمر دينها

هذه العصمة هى سر العقيدة الوافية الذى تلوذ به حين تخذلها كل عصمة ، وهو قيمة حقيقية لا تفرط فيهـا أمة متى وجدتها ولا يكون التفريط فيها الا علامة على الوهن والانحلال

ولم تشعر الامم الاسلامية بمثل هذا الشعور قبل عصر الاستعمار

لم تشعر به فى عهد الحروب الصليبية لانها خرجت منها وهى مالكة لبلادها منفردة بانتصارها وارتداد المغيرين عليها

ولم يكن ثمة فارق فى عدد القتال بينها وبين الصليبيين فيدخل فى روعها أنها مطالبة باقتباسه مفتقرة اليه

ولم يكن فى أحوال الصليبيين ما تغبطهم عليه ، بل كان الاكثرون منهم على حالة يترفع عنها بنو الحضارة ويحسبونها من التخلف والهمجية

أما صدمة الاستعمار فلم تكن من هذا القبيل ، ولم تكن بالصدمة العابرة التى تمر فى ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثرا للمتأثر ، بل كانت هى الصدمة الماثلة أمام كل

نظر ، الملحة فى كل حين ، المتجددة فى كل جهة ، المعاودة على نحو واحد فى جميع الاقطار وعلى اختلاف التجارب والاحداث

وقد تقدم فى خلاصة أحداث القرن التاسع عشر ان هزائم تركيا وايران ومراكش ومصر كانت هى نقطة التحول فى تواريخ تلك الامم ، وأن الجامدين على القديم لم يؤمنوا بضرورة التحول الا بعد هزيمة من هذه الهزائم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

وسيتبين من « رد الفعل » الذى أعقب هذه الهزائم أن « العالم الاسلامى » لم يزل بنية حيــة تستجيب المؤثرات وتستبقى منها ماصلح وأجدى

وتلك هى العلامة الصادقة على كل بنية حية

علامتها أن تستجيب للمؤثرات وأن تعالجها بما يصلح ويجدى، فلا يبقى فى البنية عارض من حقه أن يطرد وينفى

ان رد الفعل الذى أعقب الهزائم أمام الاستعمار قد تنوع بكل نوع يخطر على البال ، فكانت منه الدعوة الى معاودة القديم على قدمه ، وكانت منه الدعوة الى البدعة التى لم تسبقها سابقة ، وكانت منه الدعوة الى حفظ الاصول واقتباس الجديد على توافق واتصال . وكانت منه الدعوة الغالية والدعوة المعتدلة، فلم تستبق البنية الحية من جميع هذا الا ماهو جدير بالبقاء ، ودلت البنية الحية بذلك على نصيبها من الحياة

وسنعلم الاصلح من هذه الدعوات فى خلاصة سريعة لما أرادته ولما حققته ولما تركته بعدها غير قابل للتحقيق أو قابلا له على مدى من الزمن قد يقصر وقد يطول

# الدعوة الوهابية

كان أول هذه الدعوات فى تاريخ ظهورها دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الذى ولد فى أوائل القرن الثانى عشر للهجرة ببلد العيينة من نجد فى جزيرة العرب

وسبق هذه الدعوة فى تاريخها يرجع الى بساطة المجتمع الذى ظهرت فيه والى ابتعاده فى داخل شبه الجزيرة عن عوائق الحياة العصرية بين الامم الاسلامية الاخرى التى تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع

وقد ترجم له المولى محمود الالوسى صاحب تفسير روح المعانى وهو بعض مريديه فقال انه « ابن سليمان بن على ابن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد ابن مشرف بن عمر بن معضاض بن ريس بن زاخر بن محمد ابن على بن وهيب التميمى النجدى صاحب الدعوة المشهورة »

قال : « وقد نشأ الشيخ محمد فى بلد العيينة من بلاد نجد فى حجر أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضى فى بلد العيينة فى زمن امارة عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله ابن معمر المشهور صاحب العيينة التى تزخرفت فى أيامه ، وذلك قبل انتقال الشيخ عبد الوهاب الى بلد حريملة من بلاد نجد . فقرأ الشيخ محمد على أبيه الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وكان الشيخ محمد فى صغره كثير المطالعة لكتب التفسير والحديث والعقائد ، فصار ينكر على أهل نجد كثيرا من الامور فلم يسعفه على ذلك أحد وان استحسن

انكاره بعض الناس ، فسافر من بلده العيينة الى حج بيت الله الحرام فلما قضى نسكه صار الى المدينة فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد المجمعة المعروفة فى ناحية سدير من نجد ، والشيخ عبدالله هو والد الشيخ ابراهيم مصنف كتاب « العذب الفائض فى علم الفرائض »

وروى الالوسى فى الهامش أن محمد بن عبد الوهاب كان عنده يوما فقال له : تريد ان أريك سلاحا أعددته للمجمعة ؟ قال محمد بن عبد الوهاب : نعم . قال : فأدخله منزلا فيه كتب كثيرة . فقال : هذا الذى أعددت لها !

ثم استطرد الالوسى فقال انالشيخمحمد بن عبدالوهاب انكر استغاثة الناس بالنبى صلى الله عليه وسلم عند قبره ، ثم رحل الى نجد ثم الى البصرة يريد الشام ، فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ على العالم الشيخ محمد المجموعى من أعلى المجموعة محلة من محال البصرة ، فأنكر أيضا أشياء كثيرة على أهل البصرة فأحس الناس به فآذوه وأخرجوه وقت الهجيرة ، ولحق بعض الاذى بالشيخ محمد المجموعى أيضا لمؤاتاته للشيخ محمد . فلما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب هاربا من البصرة وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير فى وقت الصيف فى شدة الحر وكان ماشيا على رجليه كاد يهلك من شدة العطش فوافاه رجل من أهل بلد الزبير يسمى أبا حميدان ووجده من أهل العلم فسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله الى بلد الزبير . ثم ان الشيخ محمدا أراد السفر الى الشام فضاق زاده فانثنى عزمه عن الشام فقصد الاحساء فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى الاحسائى ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من نجد ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب قد انتقل اليها من

بلد العيينة سنة تسع وثلاثين ومائة وألف ، بعد وفاة عبد الله ابن معمر صاحب العيينة فى الوباء الذى وقع بها فأفناها ، وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ، فوقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب منازعة فعزله عن قضاء العيينة وجعل مكانه أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبد الله النجدى قاضيا ، فانتقل الشيخ عبد الله الى بلد حريملة ، ولما وصل الشيخ محمد الى بلد حريملة لازم اباه وقرأ عليه وأظهر الانكار على أهل نجد فى عقائدهم فوقع بينه وبين أبيه منازعة وجدال وكذلك وقع بينه وبين الناس فى بلد حريملة جدال كثير فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفى أبوه الشيخ عبد الوهاب سنة ثلاث وخمسين ومائة والف

ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والانكار على الناس ، وتبعه اناس من أهل حريملة واشتهر بذلك ، وكان رؤساء بلد حريملة قبيلتين اصلهما قبيلة واحدة وكلّ منهما يدعى الرئاسة ، وليس فى البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لاحدى القبيلتين عبيد يقال لهم الحميان وهم أهل الفساد ، فأراد الشيخ محمد أن يمنعهم من فسقهم وفجورهم ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فهم العبيد ليلا بقتل الشيخ محمد خفية ، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم ، فانتقل الشيخ محمد من بلد حريملة الى العيينة،ورئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر ، فتلقاه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال لعثمان : انى أرجو ان انت قمت بنصر ( لا اله الا الله ) أن يظهرك الله وتملك نجدا واعرابها ، فساعده عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وشدد فى النكير على الناس فتبعه بعض أهل العيينة وقطع أشجارا كانت تعظم فى تلك النواحي وهدم قبة قبر زيد ابن الخطاب رضى الله عنه عند الجبيلة فعظم أمره فبلغ خبره

الى سـليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صـاحب الاحساء والقطيف وما حوله من العربان ، فأرسل سليمان كتابا الى عثمان وكتب فيه : ان المطوع الذى عندك قد فعل مافعل وقال ما قال فاذا وصلك كتابي فاقتله ، فان لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا فى الاحساء وكان خراجه ألفا ومائتين ذهبا ومايتبعها من طعام وكسوة

فلما ورد الكتاب الى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل الى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا بحرب سليمان ، فقال الشيخ محمد : انك أن نصرتنى ملكت نجدا ، فأعرض عنه عثمان . وأرسل اليه ثانيا أن سليمان قد أمرنا بقتلك فى بلدنا ، فشأنك ونفسك وخل بلادنا ، وأمر فارسا يقال له الفريد الظفيرى باخراجه من البلد ، فركب الفارس جواده والشيخ يمشى على رجليه أمامه وليس معه الا المروحة وذلك فى أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس بقتله فى الطريق ، فكف الله يده عنه لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخلى سبيل الشيخ ... فصار الشيخ الى الدرعية ، وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والالف ، ووصل اليها وقت العصر فنزل فى بيت عبد الله بن سويلم العرينى ، فلما دخل عليـه ضاقت به داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود صاحب الدرعية فوعظه الشيخ وسكن جأشه وروعه ، وقال : سيجعل الله لنا ولك فرجا ، فاستقر ، فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ويرغبه فى نصرته ، فالتجأ الى أخويه مشارى وثنيان ولدى سعود وزوجته موخى بنت أبى وحطان من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقذف الله محبة الشيخ فى قلبها فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله، وقالت له ان هذا الرجل اتى اليك وهو غنيمة ساقها الله تعالى اليك ،

فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها والقى الله محبته في قلبه ، ورغبوا محمد بن سعود في زيارته لعل ذلك يكون سببا لتعظيم الناس له واكرامه . فسار محمد بن سعود اليه فلما دخل عليه في بيت ابن سويلم رحب به وقال : أبشر بالخير والعزة والمنعة ، فقال له الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد . وهذه كلمة ( لا اله الا الله ) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمـــة التوحيد وأول مادعت اليه الرســل من أولهم الى آخرهم

واستطرد الالوسي الى تعاهد الرجلين على النصرة اذ قال الشيخ للامير : « أما الاولى فامدد يدك فمدها وقبضها وقال له الدم بالدم والهدم بالهدم ...(1) وأما الثانية فلعل الله تعالى يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ماهو خير منه ؛ اى من خراج أهل الدرعية . فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى استقامة الشعائر »

الى أن قال : « ثم امر أهل الدرعية بالمقاتلة معهم فامتثلوا أمره وقاتلوا أهل نجد والاحساء دفعات كثيرة الى أن ادخلوهم الى طاعتهم وحصلت امارة بلاد نجد وقبائلها جميعا لآل سعود بالغلبة ، وكان الشيخ كثير العطايا بحيث كان يهب كل ما غنمه الجيش مع كثرته الى رجلين أو ثلاثة ، وفي تاريخ ابن بشر الى حمد وابنه عبد العزيز ، وكانت الغنائم تسلم بيده ثم هو يضعها حيث يشاء ويعطيها الى من يشاء ولا يأخذ أمير نجد شيئا من ذلك الا بأمره ... ولما فتحوا الرياض من بلاد نجد واتسعت

(1) اى دمي دمك وهدمي هدمك . قال ابو عبيدة : « كانوا في الجاهلية الاولى اذا تحالفوا وتعاقدوا أوقدوا نارأحتى تكاد تحرقهم ... ويتصـــافحـــون عندها ويقولون الدم الدم والهدم الهدم ... »انتهى من شرح الالوسي .

بلادهم وأمنت الطرق وانقاد لهم كل صعب فعرض الشيخ أمور الناس وأموال الغنائم الى عبد العزيز الامير وانسلخ الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم ، ولكن لا يقطع عبد العزيز الامير ولا أبوه أمرا ولا ينفذ حكما الا بأمر الشيخ محمد ، وتوفى الشيخ المشار اليه فى سنة ست بعد المائتين والالف ، وهى السنة التى غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحية جبل شمر وأخذ أهله وكسب منهم أموالا كثيرة منها ثمانية آلاف بعير ، وقتل منهم عدة رجال فأخرج خمسها وقسم الباقى على جيشه »

قال الالوسى : « وله من التصانيف كتب كثيرة ، منها كتاب التوحيد وتفسير القرآن وكتاب كشف الشبهات وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والاصولية ... واعقب أربعة أولاد كلهم من أجلة العلماء وهم الشيخ حسين والشيخ عبد الله والشيخ على والشيخ ابراهيم تغمدهم الله برحمته أجمعين »

والكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب التى ذكرها المولى الالوسى هو كتاب « التوحيد ... حق المولى على العبيد » وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الاحبار والاولياء ، ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمائم للوقاية والتبرك بالشجر والحجر ، والذبح لغير الله والنذر لغير الله والاستعاذة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والاحاديث التى تحرم الاستسقاء بالانواء ، وأنكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بما ورد عن مسلم : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى » (١)

---

(١) ( يراجع كتاب التصوير عند العرب تأليف أحمد تيمور باشا ص ١٣١ )

ويقول النبى عليه السلام فى رواية عائشة : « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وحذر من المغالاة فى تعظيم النبى عليه السلام مستشهداً بقول أنس : ( ان ناسا قالوا يارسول الله ياخيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال: أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، انا محمد ابن عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل »

وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام : « اياكم والغلو فانما أهلك من كان قبلكم الغلو » وقوله عليه السلام : « هلك المتنطعون . هلك المتنطعون . هلك المتنطعون »

ولا آخر للمناقشات التى دارت حول دعوة ابن عبد الوهاب مقابلة لتفسير بتفسير أو لآية بآية او لحديث بحديث أو مخالفة لما يفهم من مقاصد هذه الآيات وهذه الاحاديث ، فلا يعنينا هنا ان نفصلها أو نخوض مع الخائضين فى جدلها ، ولكننا نرى فى جملة ماتصفحناه من الآراء المتقابلة أن الاجماع منعقد أو يكاد على استنكار البدع والخرافات التى ذكرها ابن عبد الوهاب ولكن الخلاف على الشرك والتكفير أو على درجة الشرك الذى يخرج صاحبه عن الملة . وأكبر من خالف الشيخ فى ذلك أخوه الشيخ سليمان صاحب كتاب الصواعق الالهية ، وهو لايسلم لاخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة ويقابل تفسيراته بتفسيرات تذهب فى غير مذهبها ، ويعتمد على ابن تيمية وابن القيم فى مناقشة أخيه فيقول ان من أصول أهل السنة المجمع عليها كما ذكراها « أن الجاهل والمخطىء من هذه الامة يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين الحجة التى يكفر تاركها بيانا واضحا لا يلتبس على مثله أو ينكر ماهو معلوم بالضرورة من دين الاسلام مما أجمعوا عليه اجماعا جليا قطعيا يعرفه كل

من المسلمين » ويرى أن البدع التى يمر بها الائمة جيلا بعد جيل ولا يكفرون أصحابها لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذى يوجب القطع به ويستباح من أجله القتال ويقول فى ذلك :
« ان هذه الامور حدثت من قبل زمن الامام أحمد فى زمان أئمة الاسلام وانكرها من أنكرها منهم ولازالت حتى ملأت بلاد الاسلام كلها وفعلت هذه الافاعيل كلها التى تكفرون بها ولم يرو عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمروا بجهادهم ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم بل كفرتم من لم يكفر بهذه الافاعيل وان لم يفعلها . أتظنون أن هذه الامور من الوسائط التى يكفر فاعلها اجماعا وتمضي قرون الائمة من ثمانمائة عام ولم يرو عن عالم من علماء المسلمين أنها كفر ؟ ... نبهنا الله وأياكم من الضلال »

وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقى فى رسالته عنتا فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت اطباق الناس على الجهل والتوسل بما لايضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها واتيان المسالك من غير أبوابها ، وقد غبر على البادية زمان يتكلون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ويدعون السعى من وجوهه توسلا بأباطيل السحرة والدجالين حتى فى الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات، ولكن المهم فى الاصلاح أن ينصرفوا عن الجهل الذى يوقعهم فى بدع غير تلك البدع وخرافات غير تلك الخرافات ، وأن يكون النهي على قدر الضرر الزائل وعلى قدر النفع المنتظر ، وهذا ما بقى للزمن ان يحكم فيه بعد دعوة ابن عبد الوهاب

## السنوسية

وتقارب الوهابية فى عصرها دعوة أخرى فى البادية هى السنوسية التى تنسب الى السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الذى ولد ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر (سنة ١٧٨٧)

والدعوتان تتشابهان فى حماسة الدعوات البادية وفى نبذ البدع والخرافات والرجوع بالاسلام الى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك فى أمور كثيرة

فليست السنوسية مذهبا ولا نحلة ولا نقضا لمذهب من المذاهب وانما هى « أخوة » فى الله أو طريقة يتبعها من شاء من المسلمين ولا يطلب منه عند أتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، واتباعها على درجات أولها درجة الخواص ثم الاخوان ثم المنتسبون ، ولا فرق بين هذه الدرجات فى غير العلم والاخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ، ولا يشترط فى درجاتها العليا أن تنحصر فى البيت السنوسى بل يكون منهم الاقرباء وغير الاقرباء

والسنوسى مجتهد ولكنه يتبع مذهب الامام مالك الا فى القليل الذى صح عنده أنه أقرب الى السنة ، ولا يتصدى بالنقض لاحد من الائمة بل كان أبغض الاشياء اليه ــ كما قال الشيخ محمد بن عثمان الحشايشى فى رحلته ــ أن يسمع مقالة السوء فى امام أو غير امام ، وقد تعرض للقتل من جراء اجتهاده وألمع الاستاذ الامام محمد عبده الى ذلك فى كتابه عن الاسلام والنصرانية اذ يقول : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى

كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء فى كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى مايخالف رأى مجتهد او مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الازهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لانه خرق حرمة الدين وتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة »



وقد اجتهد الشيخ فى مذهبه بعد أن حضر دروس الفقه والتفسير والحديث فى بلده وفى مراكش ولقى العلماء بمصر ومكة واليمن وصاحب بعض أئمة الطرق فى المغرب والمشرق ، ثم ضاقت به سبل الدعوة تحت نظر الحكومة العثمانية التى كانت تتوجس من أمثال هذه الدعوات فعكف على زاويته البيضاء واختار لمقامه واحة جغبوب وبنى بها مسجدا ومدرسة للعلوم الدينية واستصوب أن ينشر طريقته بنشر الزوايا فى أرجاء العالم الاسلامى فانتشرت حيثما استطاع بين برقة وطرابلس ومصر والسودان وبلاد العرب ، واطلعنا فى كتاب « سنوسي برقة » الذى ألفه برتشارد Pritchard على أسماء مائة وست وأربعين مدينة وقرية فيها زوايا للطريقة ويوشك أن يكون شيوخ هذه الزوايا مرجعا لاتباعهم فى أمور الدين والدنيا يرشدونهم الى الفرائض والواجبات ويفضون خصوماتهم ، ويكفونهم عن الشر كما قال ابن مقرب :

فكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا
بمال غنى لا يخافون عاديا

فأرشـــدهم للرشـــد من حل بينهم
فـــلا زال مهـــديا ولا زال هاديا
وكم بدوى فى الفـــلا خلف ناقـــة
« يجول » على الاعقاب أشعث حافيا
تلقـــاه فى مهد الضـــلالة هاويا
فأصبح نجمـــا فى الهداية عاليـــا
وكم من جهول أسود اللون خلقـــة
كســـاه لباس العلم أبيض صـــافيا

ولا تبيح السنوسية الغلو فى تقديس المشايخ الاحياء أو الاموات ، ولا تأذن لاتباعها أن يذكروا ميتا عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه ، ولكنها لا تمنع اللياذ بالمقامات للعظة والتبرك. وشرعتها فى ذلك أنها نشأت حيث كانت مقامات المرابطين من عهد الاندلس فارادت أن تجددها ولا تشعر أهل الصـــحراء بالتقحم عليها

وكان الشيخ السنوسى ـ بخلاف الغالب على مشايخ الطرق ـ خبيرا بأحوال السياسة العالمية فوقر فى ذهنه أن النابلطان اى الايطاليين مغيرون لا محالة على برقة فى يوم قريب فأوغل بمقامه الى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ويهيىء فى جوف الصحراء ملاذا لمن تقصيهم غارات المستعمرين عن السواحل ومدن الحضارة

وتوفى الشيخ سنة ١٨٥٩ فدفن بالجغبوب حيث بنى مزاره الكبير وخلفه على امامة الطريقة ابن أخيه السيد أحمد الشريف

وقد كان أثر الطريقـــة السنوسية فى المغرب والســـودان والصحراء الكبرى أثرا صالحا فى جملته وشهدنا ما لابناء الشيخ وعشيرته من السلطان الروحى بين أهل البادية فى رحلتنـــا الانتخابية يوم كنا نرشح للنيابة عن الصحراء فرأينا من هذا

السلطان مالم تبلغه القوة ومخافة السطوة ، وحدث مرة ان واحدا من أصحابنا ألقى على جمع من البدو الى جوار بيت السيد السنوسي بمرسى مطروح أكوابا من الورق المقوى لشرب الماء فتهافتوا عليها وتعذر على الجند أن يفضوهم بالحسنى ، فما هو الا أن نهض السيد ابراهيم وناداهم الى قراءة الفاتحة حتى تركوا ماهم فيه جميعا وقاموا يتبعونه فى تلاوتها ثم أومأ اليهم فانصرفوا بسلام

ويرى العارفون بالصحراء أن هذا السلطان الروحي ينبسط الى جوفها الاقصى ويهدى أبناءها مع حسن التعهد والقوامة الى سبيل الصلاح والتعمير



# طرائق أخرى

وقد عاصرت الوهابية والسنوسية حركات كبيرة اكثرها من قبيل الطرائق و « الاخوات » التى تنشر الزوايا والخلوات فى البوادى الشاسعة كالصحراء الغربية وما يليها ، ومنها طرائق تضارع فى كثرة أتباعها الوهابية والسنوسية ، ولكنها نمط آخر من الحركات الاسلامية التى لاترتبط بحوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين خاصة ، ويصح أن تظهر قبل ثلاثة قرون أو أربعة كما يصح أن تظهر بعد العصر الحاضر فى بيئاتها التى تلائمها ، فليست هى من قبيل رد الفعل للعوارض السياسية أو الاجتماعية التى أصابت الدول الاسلامية فى القرون الاخيرة ، لان أمثالها من حركات الاعتكاف قد ظهر قبل ستمائة سنة وشعاره الغالب عليه « دع الخلق للخالق » بخلاف الحركات الاخرى التى تتصدى لشئون السياسة بالتأييد أو بمقاومة . تهيىء العدة للمستقبل فى هذا الميدان

وأكبر الطرائق التى عاصرت الدعوة السنوسية على وجه التقريب طريقتان : احداهما شاعت فى المغرب وشواطئه ثم فى السودان وآسيا الصغرى وهى الطريقة التجانية ، والاخرى شاعت فى الحجاز ثم فى مصر والسودان وهى الطريقة الميرغنية

وتنسب الطريقة التجانية الى تجان بالمغرب حيث أقام امامها الشيخ « أحمد محمد المختار » الذى ولد بقرية « عين ماضى» سنة ١٧٣٧ الميلادية ، وكان فى شبابه من أتباع الطريقة الشاذلية

ثم دعا الى طريقته بعد أن جاوز الاربعين ، ومن آداب هذه الطريقة أنها لا تناهض الحكم القائم ولا يعنى أتباعها بعد الولاء لشيخها بتغيير السلطان حيث كان ، فمنهم من بايع الدولة الشريفية بمراكش ، ومنهم من بايع « محمد سعيد باشا » بمصر واعتبره من الزمرة التجانيـة ، ومنهـم من كان يسفر بين سلطان دارفور والسلطان العثمانى عبد المجيد ، ولـكنهم لا يقبلون الهوادة فى مسألة الولاء للشيخ الكبير ويرتابون أشد الريب فيمن يشرك فى ولائه أحدا غير امام طريقته كأنه قابل لان يتدرج من ذلك الى المشاركة فى ولائه لنبيه وخالقه ، وقد قال صاحب كتاب الرماح وهو من كتبهم المعدودة : « ان من أكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده الا يشرك فى محبته غيره ولا فى تعظيمه ولا فى الاستمداد منه ولا فى الانقطاع اليه ويتأمل ذلك فى شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان من سوى رتبة نبيه ( ص ) برتبة غيره من النبيين والمرسلين فى المحبة والتعظيم والاستمداد والانقطاع اليه بالقلب والتشريع فهو عنوان على ان يموت كافرا الا أن تدركه عناية ربانية »

ويعرف أتباع التجانية فى السودان باسم « الفلاتة » وهو الاسم الذى يطلق فى الغالب على الغرباء المهاجرين من شواطىء افريقية الغربية ، ومن أتباعها من يقيم الآن فى آسيا الصغرى ويحاول أن يسترد حريته فى نشر الدعوة الى شعائر الدين

ويرجع الفضل الاكبر فى انتشار الطريقة الميرغنية الى السيد محمد عثمان الميرغنى المتوفى سنة ١٨٥٣ الميلادية ، أحد تلاميذ السيد أحمد بن ادريس بالحجاز . وقد زامله فى هذه التلمذة السيد السنوسى الكبير ، وكلاهما عالم لا فقيه واسع التحصيل ولكن الميرغنى أقرب الى خلائق العزلة والتعمق فى الاسرار الصوفية ، وزميله السنوسى أقرب الى خلائق الدأب والمجاهدة والسياسة العملية ، ولهذا كان الملوك والامراء يتتبعون أخباره

ويخشون بأسه من سلطان القسطنطينية الى سلطان دارفور ، وكان المحافظون من العلية والرؤساء فى الحجاز يميلون الى الطريقة الميرغنية ويوجسون خيفة من شيوع السنوسية بين أهل البادية العربية والبادية المغربية ، ولم يتفق التلميذان بعد شيخهما الكبير ولكنهما لم يتنازعا فى مكان واحد ، وانقسم الميدان لهما بغير تقسيم

كان الشاغل الاكبر للسيد محمد عثمان فى شبابه أن يبحث عن الحقيقة الصوفية حيثما وجد سبيلا اليها ، فاتبع الطريقة النقشبندية ثم الطريقة القادرية ثم الطريقة الجنيدية ثم الطريقة الشاذلية طريقة أستاذه أحمد بن ادريس . وقد ندبه أستاذه للدعوة باسمه فى مصر والسودان فبرح الحجاز الى القصير وقصد الى أسوان من طريق النيل فانتشرت دعوته بين النوبيين . وبرح مصر من ثم الى السودان ونجح نجاحا طيبا بين أهل دنقلة وكردفان واتبعه كثيرون من قبائل البجاة ، ثم قفل الى الحجاز وواظب على حضور الدروس وملازمة أستاذه الكبير الى يوم وفاته ( سنة ١٨٣٧ ) ولكنه أحس العداء ممن كانوا ينافسونه فى مكة فعكف على العبادة بالطائف واكتفى بجهود ولديه فى نشر الدعوة اذ اتجه السيد محمد سر الختم الى اليمن واتجه السيد الحسن الى سواكن فالتف به المريدون من قبائل بنى عامر والحلانقة وأكثرهم من البجاة

ولم تظهر فى العهد الحديث طريقة أكبر من هذه الطرق الثلاث : وهى السنوسية والتجانية والميرغنية ، ويستلفت النظر أن هذه الطرق جميعا تشيع بين السنيين وقلما تشيع بين الشيعة ولا سيما الشيعة الامامية ، ولعلها بين السنيين بديل من اعتقاد الشيعة فى الامامة المنتظرة بشروطها الخاصة التى يصعب ادعاؤها بغير ادعاء المهدية ، وهى دعوى كبيرة يشتد الشيعة أنفسهم فى محاسبة من يجترىء عليها

# المصلحون المعلمون

# السيد أحمد خان

تقدم ان النهضة الاسلامية فى القرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربة من تجارب الاصلاح : اصلاح بالعودة الى القديم ، واصلاح بالتجديد ، واصلاح باحياء الحماسة الدينية ، واصلاح بمجاراة الحضارة العصرية ، ودعوات يقوم بها الثائرون وأخرى يقوم بها المتطهرون المعتكفون ، وغير هذه وتلك دعوات يقوم بها المعلمون والمهذبون ، وسنرى أن هذه الدعوات ـ دعوات المعلمين المهذبين ـ كانت ألزم دعوات الاصلاح وابقاها اثرا وأوفقها لكل زمان ومكان ، وأبعدها من أن تضيع عبثا كيفما كانت أحوال الامم التى تنجم فيها وتنمو بين ظهرانيها

وقد ظهرت فى أهم البيئات التى ينبغى أن تظهر فيها وفى الزمن الذى ينبغى أن تظهر فيه

ظهرت فى الهند وفى مصر وفيما بينهما من بلاد الشرق الاوسط ، وكان قادتها على هذا الترتيب الزمانى : السيد أحمد خان الهندى والسيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهو المصلح المخضرم بين عصر الجمود وعصر اليقظة والتقدم

ولد السيد أحمد خان سنة ١٨١٧ بمدينة دلهى ولا تزال للدولة المغولية بقية فيها وكانت أسرته لابيه وأمه من كبار المتصلين بها ، وخاله فريد الدين أحد وزرائها ، وقد أنعم عليه بهادر شاه ـ آخر ملوكها ـ بلقب « أستاذ الحرب » بعد وفاة

والده ، ولما يبلغ العشرين

وكان التقليد المرعى بين مسلمى الهند مقاطعة الوظائف فى ظل الحكم الانجليزى ، ولكن نشأة أحمد خان بين رجال الدولة رشحته لولاية الوظائف فلم يرفض الوظيفة التى عرضت عليه فى سلك القضاء

وانفجرت ثورة الهند « سنة ١٨٥٧ » وهو قاض فى بجنور فحال جهده بين الثوار وقتل المسالمين والنساء ، ولم يمنعه ذلك أن يؤلف كتابه فى أسباب الثورة فيلقى تبعتها على الادارة الانجليزية ويدحض ماقيل من تدبير هذه الثورة فى بلاد الافغان بايعاز من الحكومة الروسية ، لان أسبابها الوطنية كافية لنشوبها مغنية عن كل تدبير يتسلل اليها من خارج البلاد الهندية

روى عن السيد أحمد خان وهو طفل صغير أنه دعى مع أنداده واهليهم الى بلاط بهادر شاه فنودى عليه مع التلاميذ الذين استدعاهم الملك لتشجيعهم ومكافأتهم فلم يجب ، وتكرر النداء ولاجواب ، ثم وجده رجال الحاشية منزويا فى مكان قريب فسألوه : لم لم تجب حين نودى باسمك بين زملائك ، فلم يحجم أن يذكر السبب الصحيح ، وهو أنه انتظر وطال انتظاره فاستسلم للنوم !

وضحك رجال الحاشية وظنوا أنه سبب لا يقال فى حضرة ملك ، فلم يشأ الصبى الصغير أن يتلطف فى الاعتذار ويتعلل بسبب غير هذا السبب الصحيح

ولم يتغير أحمد خان بعد أن جاوز الاربعين ، فانه كاشف أبناء قومه بعلة جمودهم ، ولم يقبل قط أن يتملقهم ويخفى عنهم أسباب قصورهم وعجزهم ، وصارح الدولة الحاكمة بأسباب الثورة ومايقع عليهم من تبعاتها ، وصارح أبناء قومه بتبعاتهم فكانت خلاصة هذه التبعات فى رأيه أنهم

« نائمون »

وقد وصف السيد احمد خان بالاناة والحذر، وكاد المترجمون له أن يصفوه بالمبالغة فى أناته وحذره . ولكنهم لو وصفوه بالاقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الاناة ان كان معنى الاناة أن يتخلف المستأنى عن العمل فى حينه ، فما توانى أحمد خان عن مصارحة الانجليز بتبعاتهم وعيـوب ادارتهم ، وماتوانى عن مصـــارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبتهم ، وما توانى بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذى يصلح لجميع ابنائها مع تعدد النحل وتفاوت النسبة فى توزيع السكان ، ولكنه كان يتأنى حين يخشى مغبة العجلة ولا يؤمن بجدواها ، وكانت هذه الاناة منه أدل على الشجاعة من الهجوم السريع ، لانه كان يغضب بهـا أضعاف من يرضيهم بالتعجل فى غير جدوى

وقد عرف مكامن الضعف فى قومه ولم تخف عليه مكامن القوة فى الدولة الغالبة على وطنه ، فجزم بضرورة التعليم الحديث ثم بدأ بارسال ابنه الى الجامعات الانجليزية واعتزم أن يصحبه اليها ليطلع بنفسه على حقائق الحضارة الاوربيـة فى بلادها ، وقد لخصـــها فى جوهرها أحسن تلخيص فجمـع حقائقها النافعة فى كلمتين : وهما العلم والخلق، ورأى أن الشاب المسلم لا يكسب الخلق المتين بغير دين ، فلخص برنامج الاصلاح عنده فى الدين المستنير ، وجعل شعاره كله كلمة واحدة يعيدها مرات : وهى علم ، ثم علم ، ثم علم ، أو تعلم ثم تعلم ثم تعلم . بغير انقطاع عن التعلم أو التعليم

ولما توفى وهو فى الحادية والثمانين كان للمسلمين فى الهند مدرسة كلية عالية ومدارس حديثة متفرقة ، وكان لهم ماهو أهم من ذلك وألزم وهو الوجهة المرسومة ومعالم الطريق التى

لا تخفى على ذى عينين ، وقد خطا السيد أحمد خان هـذه الخطوة التى أحجم عنها معاصروه لانهم لايعرفونها ولايجسرون عليها ، فعرفها ولم يحجم عنها . وقال من قال انها لخطـوة عظيمة واستصغرها آخرون فقالوا انه قد أطال الاناة فيها ، ولكنهم مجمعون على أنها هى الخطوة التى لابد منها فى البداءة ، فلا تتأتى الخطوات التالية الا بعد الاقدام عليها ، وقد أقدم عليها فاتبعه فى الطريق من يؤثر العجلة ومن يؤثر الاناة



# جمال الدين

والمعلم الاكبر جمال الدين من أبناء الاقاليم الوسطى . بين الهند والبلاد العربية وبلاد الدولة العثمانية ، وكأنما شاءت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الاسلامى ويتولى فيه دعوة الاصلاح والتعليم من أقصاه الى أقصاه

والقول المشهور أنه هو وآباؤه وأجداده من أبناء الافغان ، ويقال غير هذا انه ولد بقرية « أسد اباد » فى جوار همدان من بلاد فارس ثم انتقل الى الافغان وتعمد اخفاء نسبته الفارسية بعد أن تجرد لدعوة الاصلاح فى العالم الاسلامى كافة وتوقع من شاه العجم أن يطالب بتسليمه لانه من رعاياه ، فضلا عن غلبة المذاهب السنية على البلاد التى خاطبها بدعوته .ومنها بلاد الترك ومصر وسائر البلاد العربية

الا أنه لاخلاف فى نشأته منذ صباه فى بلاد الافغان ، وفيها تعلم الفقه على مذهب أبى حنيفة ودرس علم الكلام وهو خلاصة الفلسفة الدينية ، كما أحاط بالميسور من علوم الرياضة والهندسة فى كتب الاقدمين ، وكان فى أخريات أيامه يعرف الفرنسية والتركية وقليلا من الانجليزية ، عدا الفارسية والعربية التى كان يتكلم الفصيح منها بلهجة الفرس المستعربين

واذا لخصت رسالة جمال الدين فى كلمتين فرسالته بالايجاز هى « الجامعة الاسلامية »

ولكن الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين شىء غير

الجامعة الاسلامية التى يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعا الى حكومة واحدة ، وانما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة احوال الامم التى درج جمال الدين وهو يستمع الى اخبارها ويشترك فى شئونها ، وهى بلاد الافغان وايران ، وقبائل الترك ومن ورائهم دولة بنى عثمان ، ومن حولهم مطامع الاستعمار ودسائسه فى أوج سلطان المستعمرين من البريطان والروس بعد اجتياحهم للهند وأواسط آسيا بزمن قليل

فقد فتح السيد عينيه على بلاد الافغان وفارس وهى على أعنف مايكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهند البريطانية تستغل الخلاف بين الامتين فى المذهب والخلاف بينهما على الحدود كما تستغل حاجتهما الى المال والسلاح ، فتغرى احداهما بالاخرى وتبذل لها من مالها وسلاحها ماتقوى به على جارتها وتشترط عليها الا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها والا قطعت عنها المدد والمعونة ، وكانت حكومة الهند لا تأذن بالصلح الا أن تكون الدولة المغلوبة قد نزلت عن دعواها فى الحدود الهندية

وربما سكن القتال بين الافغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بايعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك بغنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الافغان والفرس والترك أجمعين

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما أدرك أن العلاج السريع لهذه المحنة انما يبدأ بالتوفيق بين الامم الاسلامية وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيرا أن يرى هذه الامم كما قال : « متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد مطاوعين للمستعمرين والمستغلين جادين فى خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين » . فعقد عزيمته على رسالة

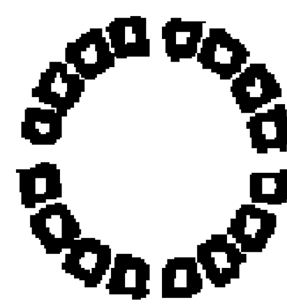
واحدة يتحراها مدى الحياة وهى حسم الخلاف بين الامم الاسلامية وايصاد الابواب على المستعمرين والمستغلين حتى تنقطع المطامع التى تسول لهم العـدوان على الامم الاسلامية وايقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها

وهذه هى الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين ، وفى سبيلها رحل الى الهند وبلاد العرب والآستانة ومصر وروسيا وفرنسا وانجلترا وخرج من الهند مرة ، على رواية مستر بلنت المستشرق الايرلندى ، قاصدا الى الولايات المتحدة ليتجنس بالجنسية الامريكية ويستثير الامريكيين على الانجليز والروس، وكان قد سمع بمساعى الامريكيين فى الشرق الاقصى فخطر له أن يستخدمها فى قضيته ، ولكنه أقام أشهرا فى الولايات المتحدة على قول مستر بلنت فعدل عن عزمه ولم يتمم ما نواه من رحلته ، ولعله عرف بالخبرة الواقعة أنه يعلق الرجاء حيث لا رجاء

وقد خطر لجمال الدين يوما أن يرسل تلميذه ومريده الشيخ محمد عبده الى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها الى خدمة الجامعة الاسلامية ، وخطر له فى مصر أن يسقط الخديو اسماعيل ويقيم فيها الجمهورية ، بل خطر له أن يحرض على اسماعيل من يغتاله عسى أن يجد من خليفته توفيق مستمعا لنصائحه ووصاياه

وقد توسل جمال الدين فى رسالته بكل وسيلة تملكها يداه فأصدر فى أوربا صحيفة « العروة الوثقى » وصحيفة « ضياء الخافقين » وانشأ فى مصر محفلا ماسونيا بعيدا من سيطرة المحافل الاجنبية ، وقيل أنه ألف فى مكة المكرمة جماعة « أم القرى » وهم بالسفر الى نجد لقيادة الحركة الوهابية ، ولم يهدأ قط فى حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة الاسلامية ، واتهمه السلطان عبد الحميد بالعمل فى الآستانة

على استمالة الخديو عباس الثانى الى تنفيذ مساعيه يوم زارها فى ضيافة السلطان ، ثم أصيب بالسرطان فمات به ( سنة ١٨٩٧ ) وحظر السلطان الاحتفال بجنازته فلم يشيعه الى مقره الاخير غير آحاد معدودين ، وفارق الحياة ولم تتحقق مساعيه لانها أكبر من ان تحققها جهود جيل واحد ، غير أنه احسن بذر البذور فلم تمت فى تربتها الصالحة ، وحق لمترجمه ان يقول : « ان تاريخ الشرق الاسلامى فى ثوراته على الحكم المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال لن ينفصل عن تاريخ جمال الدين »



# محمد عبده

هؤلاء المصلحون المعلمون الثلاثة نشأوا كنشأة الاخوة فى أسرة واحدة : ولد السيد أحمد خان فى سنة ١٨١٧ وولد السيد جمال الدين فى سنة ١٨٣٩ وولد الشيخ محمد عبده فى سنة ١٨٤٩ ... وكان بينهم من التخصص على غير قصد مايشبه توزيع الوظائف فى المهمة الواحدة ، فتولى كل منهم عمله الذى يستطيعه حيث يستطاع ، ولم يكن للعالم الاسلامى غنى عن واحد منهم فى موضعه أو فى مهمته كما فرضتها عليه دواعى الاصلاح .

ولقب الشيخ محمد عبده بحق « الاستاذ الامام » .. لان هذا اللقب يلخص رسالته فى الاصلاح بين زميليه أحمد خان وجمال الدين .

فهو مصلح معلم كالسيد أحمد خان ، ولكنه يزيد عليه بالامامة الدينية التى لم يتهيأ لها السيد أحمد ولم يرشح نفسه لها ، بل قصر جهوده كلها على أيقاظ المسلمين وتنبيههم الى حاجتهم من العلم الحديث

فالشيخ محمد عبده أستاذ أمام ، ورسالته هى التعليم والامامة فى وقت واحد . وفحواها أنه خرج من تجاربه كلها بنتيجة واحدة وهى فساد الجو السياسى من حوله ، فلم يبق له أمل فى اصلاح المسلمين بالوسائل السياسية وآمن برسالته « العلمية الدينية » كل الايمان فانصرف بعزيمته كلها الى رفع

الحجر عن العقول بأجازة الاجتهاد لمن يقدر عليه وتفسير المسائل الدينية تفسيرا يطابق العلم الحديث

وتبدو هذه الكلمات سهلة هينة لمن يقرؤها فى العصر الحاضر، ولكنه يعرف صعوبتها ـ بل خطرها ـ اذا عرف أن القول بدوران الارض كان يعرض القائل به لتهمة الكفر والتواطؤ مع أعداء الدين على افساده ، وأن استخدام التليفون حرج شديد لانه قد يكون من آلات الشيطان وأفاعيل السحرة «المتشيطنين»

وقد بدا للأستاذ الامام عبث السياسة وهو يعاون السيد جمال الدين فى مساعيه الاوربية ، فكان يعاود له المشورة بتركها والاقبال على تعليم المصلحين والمرشدين ، وكان يقول له حينا بعد حين : « اننا اذا علمنا عشرة وأرسلناهم فى أرجاء العالم الاسلامى فعلم كل منهم عشرة من مريديه أصبح فى العالم الاسلامى مائة مرشد فألف مرشد بعد ثلاثين سنة أو أربعين ، وذلك أوثق وأوفق من عملنا الضائع بين الساسة والامراء .. » وكان السيد جمال الدين يستمع اليه مرة ويحتد فى جوابه مرة أخرى فيقول له : « انك لمن المثبطين »

وقد بدأ الشيخ محمد عبده حياته بالتعليم بعد حصوله على درجة العالمية من الجامع الازهر ، فألقى بعض الدروس ( سنة ١٨٧٩ ) فى دار العلوم ثم طاحت به شبهات السياسة فأخرج منها وألزم المقام بقريته « محلة نصر » باقليم البحيرة ، ثم أفرجت عنه وزارة رياض ووكلت اليه الاشراف على تحرير الصحيفة الرسمية فأدركته الثورة العرابية وهو فى تلك الوظيفة، وقد اشترك فى الثورة حتى أفلت العنان من يديها فأنف من خذلانها فى أحرج مآزقها وأصابه ما أصاب رجالها من عقوبات السجن والنفى الى خارج البلاد ، فاتخذ من النفى فرصة لنشر الدعوة الى الحرية الفكرية وضاق به المقام فى بيروت فلحق بأستاذه جمال الدين فى باريس ، وتعاونا معا على اصدار

صحيفة « العروة الوثقى » فلم تتم عشرين عددا حتى ضربت حولها السدود فى البلاد الاسلامية فتعذر المضى فى اصدارها واختار الشيخ محمد عبده أن يشخص الى تونس عسى أن يتسع له فيها مجال العمل لما كان بين الدولتين الفرنسية والانجليزية يومئذ من التنافس ، على اجتذاب أقطاب المسلمين، فلم يلبث غير قليل حتى خاب ظنه وأزمع الرحلة الى بيروت ليقيم فيها مشتغلا بالدراسات الادبية ، وفى هذه الفترة عكف على شرح نهج البلاغة ومقامات البديع وترجم من الفارسية رسالة أستاذه جمال الدين فى الرد على الدهريين

ثم عفى عن المنفيين فعاد الى القاهرة وتولى القضاء قاضيا فمستشارا بالمحكمة العليا ، وشغله فى وظيفته بالقضاء الاهلى ان ينظر فى اصلاح المحاكم الشرعية وفى تجديد نظام التعليم بالجامع الازهر فأشار بتأليف مجلس من المختصين يشرف على شئونه العلمية والادارية وندب للعمل فى هذا المجلس عند تأليفه ، ثم اختير لمنصب الافتاء فلم ينقطع فى هذا المنصب عن القاء الدروس بالجامع الازهر واصلاح التعليم فيه

واستفاضت شهرة الشيخ فى العالم الاسلامى من تخوم الصين ومراكش الى أفريقية الجنوبية ، واعتمد عليه المسلمون فى استجازة مايجوز وتحريم مايحرم وهم بين الحضارة الحديثة وجمود الجامدين حائرون فيما يأخذون وما يدعون من اموال الدنيا والدين ، ويدل على استفاضة هذه الشهرة فتوى « الترنسفال » التى أقامت الدنيا واقعدتها عدة شهور، لانه أفتى فيها بتحليل طعام أهل الكتاب ولبس ملابسهم ، كما أفتى بالاجازة فى أمر صناديق التوفير توضيحا للمقصود من تحريم الربا المضاعف بنص القرآن الكريم ، وقد كانت الاسئلة تتقاطر على « المفتى » من أرجاء العالم الاسلامى فيبادر الى الاجابة عنها على مافى الجواب أحيانا من العنت والاصطدام

بجهالة الجامدين ومنافعهم الموروثة في كل قطر من أقطار المشرق والمغرب ، ولا يغلو من يقول انه فارق الدنيا ــ وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ــ وله فى كل بلد اسلامى دليل ينير الطريق من فتاواه ودروسه وسيرته التى ارتفع بها مكانا عليا من النزاهة النادرة والخلق المتين

وعلى الجملة ينبغى أن يقال ان هؤلاء المصلحين المعلمين قد عملوا غاية مافى الوسع للاصلاح والتنبيه واقامة القدوة المثلى لمن تابعهم من المصلحين والمنبهين

الا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نقول ان أعمال ثلاثة أو ثلاثين من المصلحين المعلمين لم تكن لتبلغ هذا المدى البعيد من حث العالم الاسلامى واستنهاضه لو لم يكن لهم سميع مجيب من جيشان الشعور بين المسلمين ، وان يكن جيشانا مبهما يتخبط بين غواشى الظلم والظلام

وفضل العقيدة هو الفضل الاكبر فى اعداد النفوس للاستماع من المصلحين والايمان بوجوب التغيير والاتجاه الى وجهته القويمة ، ومن ثم وجدت فى الحكومات الفاسدة نفسها عوامل اليقظة والانتباه الى التغيير أو الاصلاح ، فوجد فى ايران وزير كميرزا تقى خان يحاول أن يحد من سلطان الشاه ناصر الدين ، ووجد فى تركية رجال كأحمد مدحت يحاولون مثل هذا مع السلطان عبد الحميد ، ووجد فى مصر رجال كمحمد شريف وأحمد رياض قبيل انفجار الثورة العرابية ، ووجد فى المغرب أمثال خير الدين ، ولم يكن وجودهم مصادفة ولا فلتة من الفلتات العارضة ، بل كان علامة من علامات الزمن لابد لها من معقبات وآثار

# المهديون

من أقوى الدلائل على عمق الاثر الذى تركته ضربات الاستعمار فى أرجاء العالم الاسلامى هذه الظاهرة المتفقة التى تواترت فى تلك الارجاء ولما ينقض على هجوم الاستعمار جيل واحد ، وخلاصة هذه الظاهرة : أن رد الفعل بعدها قد برز بكل نوع من أنواعه فى تلك الارجاء فلم يكن فى العالم الاسلامى كله بلد خلا كل الخلو من احداها

فكما توزع العالم الاسلامى دعوات المعلمين المصلحين كذلك توزع دعوات الساسة وأصحاب الطرق الصوفية ودعوات التجديد أو العودة الى القديم الصحيح وتخليصه من شوائب البدع والخرافات ، ثم توزعته كذلك دعوات أخرى من نوع آخر وهى دعوات المهديين الذين زعموا أنهم مبعوثون على موعد وأنهم رسل الخلاص والنجاة .. فظهر منهم من ظهر فى الهند ، وظهر منهم من ظهر فى الرقعة الوسطى من أرض فارس ، وظهر غيرهم فى وادى النيل ، ومن قبل رأينا أن هذه الاقطار هى التى أخرجت العالم الاسلامى السيد أحمد خان والسيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وأخرجت كذلك رواد السياسة والوزراء

ظاهرة تدل على قوة الاثر وتدل كذلك على حياة البنية التى تستجيب لكل فعل برده الذى يناسبه فى حينه ، وليست البنية هنا الا العقيدة التى هى مرجع تلك القوة وتلك المقاومة

والمهديون نوع آخر من الدعاة ، ولكنه نوع له محله وأوانه كيفما كان

وأشهرهم فى عصر الاستعمار ثلاثة : هم ميرزا على محمد الملقب بالباب وقد ظهر فى ايران ، وميرزا غلام أحمد القادياني وقد ظهر فى الهند ، ومحمد احمد عبد الله وقد ظهر فى السودان

والغالب على اعتقاد المؤرخين أن المهديين قوم خادعون يتعمدون الكذب فى دعوتهم ويسرون غير مايعلنون من طلب الاصلاح والعناية بشئون الدين

ولكن الكذب المحض فى أمثال هذه الدعوات أمر غير معقول.. والاقرب عندنا الى المعقول فى أمرهم أنهم عاشوا فى فترة انتظار متفق عليه ، وأنهم نشأوا نشأة « صوفية » فى أكثر الاجيال فاشرأبت نفوسهم أن يكون الرجاء المنتظر على أيديهم ، وربما ساورهم الظن أنهم مندوبون لتحقيق الرجاء فأشفقوا أن ينكلوا عن هذه الندبة وأقدموا خوف المخالفة وأملا فى صدق الوعد مع العمل والجهاد ، ثم طوتهم الشبكة المعقدة من هواجس ضمائرهم ومما أحاط بهم من عقائد أتباعهم ومن ضرورات المواقف المتلاحقة التى لا يسهل الخلاص منها ، فأسلموا أنفسهم للحوادث واعتذروا لها بحسن المقصد وسلامة النية ، أو كان منهم من يلج فى المكابرة والمغالطة لانه لا يأمن التراجع ولا يقدر عليه ، ومنهم من يخالطه الوسواس فيفعل أفعال المجانين!

ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه فى البداية وأقلهم ثقة بها فى النهاية ، ولهذا كان أبعدهم عن العقيدة السوية فى الاسلام

## (١) الباب

وأول نشأة البابية فى عصر الاستعمار شيخ يسمى الحاج كاظم الرشتى الجيلانى ولد فى أول القرن الثالث عشر الهجرة ( سنة ١٢٠٥ ) وتتلمذ على الشيخ أحمد الاحسانى الذى ولد

فى البحرين وجال فى بلاد فارس وتلقى الدروس عن الفلاسفة والمتصوفة ، ودان بمذهب الحلول مع تغليبه لمذهب الشيعة الامامية الاثنى عشرية

وقد أخذ كاظم الرشتى مبادىء الفلسفة والتصوف عن هذا الشيخ الذى تنسب اليه الفرقة « الشيخية » وتعلم من أستاذه أن المهدى المنتظر سابح فى عالم الروح يوشك أن يظهر بالجسد خلافا لاعتقاد الامامية أنه محتجب بجسده الى أن يحين يوم الفرج الموعود ، وكان من تلاميذ الحاج كاظم فتى يسمى على محمد يتنسك وتعاوده حالات الوجوم والغيبوبة . فتسمى باسم باب المهدى أو باب الدين ، وقال ان المهدى انما يأتى الى الدنيا بعد اجتماع الخلق على كلمة واحدة تتوافق فيها عقائد الاسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ، وبث بين أصحابه عقيدة كعقيدة الحلول يزعم من آمن بها أن جسده يستنزل اليه الروح المتشبه به من الشهداء والقديسين ... وسبقه أصحابه الى دعواه فزعموا له أنه تلبس بروح الامام على رضى الله عنه فنادى من ثم بأنه هو المهدى الموعود ، وأنه صاحب كتاب يسمى البيان هو المشار اليه فى القرآن بقوله تعالى : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » وتلا على الناس سورا من هذا الوحى فعابوا عليه أخطاءه النحوية فتعلل لها بعلة توائم دعوته التى تحلل المؤمنين بها من قيود العقائد السالفة ، وقال ان الكلمات لما علمها الله آدم عصت كعصيانه فعاقبها الله وقيدها بقيود الاعراب ثم أذن له أن يطلقها فهى بعد اليوم فى حل من تلك القيود .. !

قال ميرزا عبد الحسين صاحب الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية : ان حضرة الباب وضع كتاب البيان ورتبه على تسعة عشر واحدا وقسم كل واحد الى تسعة عشر بابا والآن نقول : ان أبواب هذا الكتاب تكون اذن من حيث

الجملة والمجموع ثلاثمائة وواحدا وستين بابا وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد حروف ( كل شيء ) اذا استخرجت بحساب الجمل ، وقد خصص حضرته الواحد الاول لنفسه والثمانية عشر واحدا الباقية لكبار الصحابة لكل منهم واحدا ، ولما كان حاصل جمع أعداد حروف ( ص ) اذا استخرجت بحساب الجمل ثمانية عشر لذلك سمى أصحابه المشار اليهم حروف ص ونسب انتشار الحركة الروحية ونفخ الحياة الايمانية التى برزت وظهرت تحت ظل البيان الى تلكم الاصحاب ، ولكن حضرته لم يكمل بقلم كتابة جميع هذه الابواب وانما تمم كتابة آحاد ثمانية وتسعة أبواب من الواحد التاسع فقط تاركا كتابة البقية الباقية . ويتضح لكل من يطلع على كتاب البيان ويتصفح ماكتبه الحضرة أن حضرته عهد بمهمة اتمام بقية الكتاب الى حضرة بهاء الله . وكذلك كل من طالع كتاب البيان ودرسه بامعان وسبر غور مطالبه تبين له أن الكتاب لا يرمى الى تشريع كامل مستقل بنفسه ولا الى أحكام قائمة على حدة دونت لتقوم باحتياجات أمة فى دورة كاملة من دورات الزمن ، وانما يفهم منه أمران : الامر الاول حل نظريات اعتقادية اسلامية ومشكلات مهمة أصولية من مثل الرجعة والساعة والقيامة والحياة والموت والجنة والنار ونحوها ، وغير خاف أن هذه المواضيع من حيث التفسير والفهم كانت منذ القدم موضع مباحثات علماء الاسلام ومجادلاتهم ومنشأ اختلافهم فى الرأى . مثال ذلك أن جمهورا فهموا من القيامة أنها حشر الموتى بأجسادهم الاولية بعد قيامهم من هذه الاجداث الترابية وذهب آخرون الى تفسيرها بظهور المهدى المنتظر واحتشاد الناس تحت لواء أمره ونيلهم الحياة الايمانية من الايمان به والايقاف بصدقه والتخلق بالاخلاق الفاضلة الالهية ، وكذلك اختلفوا فى معنى الرجعة ، فذهبت قبائل الى أنها عبارة عن رجعة الائمة السابقين بأجسادهم ولم تزل

هذه القبائل تتصور ذلك الى اليوم ، وآخرون توصلوا الى خرق حجب الظـواهر واماطة البراقع عن وجوه الحقائق والسرائر واعتقدوا أن المغزى من الرجعة هو رجوع الآثار والصفات التى كانت كالمعنى الذى يفهم من قول القائل عند امتـداح فتى بالشجاعة ان فلانا رجعة رستم « وهو بطل الفرس المشهور »

وفى هذه النبذة مايكفى للوقوف على نهج الباب فى تأسيس قواعده وعقائده ، وهى مزيج من أسرار التصوف والتنجيم وتأويلات الباطنية ومحاولات التوفيق بمـا هو أقرب الى التلفيق

أما فرائض البابية فالصلاة عندهم ركعتان فى الصباح ، والكعبة عندهم مسجد فى شيراز ، ثم البيت الذى ولد فيه الباب بمدينة تبريز ، والصوم شهر من آخر نزول الشـمس ببرج الحوت ليوافق عيد الفطر يوم النوروز أول الحمل ، ويجوز الزواج من اثنتين ولايجوز الطلاق ، وشرب الخمر والتدخين محرمان ، ولاحرج فى شرب الشاى والقهوة ، وهذه الاحـكام تسرى بعدد حروف « المستغاث » بحساب الجمل الى نيف وألفى سنة ، ثم يظهر باذنه امام آخر يعيد النظر فى جملة تلك الاحكام

ونقل الدكتور ميرزا محمد مهدى خان فى كتابه مفتاح باب الابواب أنه « كان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى بأم سلمة (١) من بنات أحد المجتهدين فى العجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل ــ أى الباب ــ عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فـكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك . . . ولما وقعت المحاربة بين

---

(١) قال الدكتور فى التعليق على هذاان الصحيح أن اسمها زرين تاج .

البابيين وعساكر الدولة فى مازندران جيشت جيشا قادته مكشوفة الوجه وسارت أمامه طالبة أعانتهم ، وفى أثناء الطريق قامت فى الناس خطيبة وقالت : « أيها الناس ! ان احكام الشريعة الاولى ـ أعنى المحمدية ـ قد نسخت وان أحكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الآن فى زمن لاتكليف فيه بشيء .. فوقع الهرج والمرج وفعل كل من النــاس ماكان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها والبست البرقع جبرا وحكم عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجلاد خنقها قبل أن تلعب النار بالحطب الذى أعد لاحراقها »

ويختلف فى نسب الباب ، ولكنه على الاشهر ينمى الى اب بزاز يسمى ميرزا رضا وأم تسمى خديجة ، وكان مولده أول المحرم سنة ١٢٣٥ الهجرية ، ومات أبوه قبل فطامه فرباه خاله ميرزا سيد على التاجر وعلمه الفارسية والعربية واتقان الخط . أما أتباعه فيزعمون أنه لم يتعلم وانما كان أميا يكتب بالهام من الله ، وقد شغل فى صباه بالرياضــات الصــوفية وتسخير روحانيات الكواكب ، وقيل انه كان يصعد فى بلدة ابو شهر الى أعلى البيت عارى الراس ويمكث فى الشمس فى الهجيرة الى العصر حيث تبلغ الحرارة درجة أثنتين وأربعين ( سنتجراد ) ثم تعتريه من جراء ذلك نوبات ويعيد الكرة اياما على هذه الحال حتى أشفق خاله من عقبى هذه الرياضات الشاقة فأرسله الى كربلاء أملا فى شفائه على أيدى الائمة والمجتهدين ، ولكنه أمعن هنالك فى رياضاته وتراءت له الاشباح فى خلواته ، فكاشف أناسا صدقوه لانهم كانوا على رقبة الامام الموعود ، ثم استفحل أمره واجترأ أتباعــه على نشر دعوته وتهديد من يخالفهم فى معتقده ، وهبت الثورة باسمه فى زنجان ومازندران وتبريز ، وعرض أمره على العلماء فتحرج بعضهم من الحكم بقتله لعله أن يكون مخالطا فى عقله غير مسئول عن

فعله ، وافتى غيرهم بوجوب القتل اتقاء للفتنة ، فسجن ثم قتل ( فى سنة ١٨٥٠ م ) وحدث عند اطلاق الرصاص عليه فى زعم البابيين انه ظل واقفا لان الرصاص قد أصاب قيوده ولم يصبه فى مقتل ، ولكن شهود الحادث من غير البابيين يقولون انه مات وألقيت جثته فى خندق فأكلتها السباع

وكان الباب قد أوصى قبل اعتقاله باتباع خليفته ميرزا يحيى الذى نعته بصبح أزل ، فانتقل صبح أزل الى بغداد ومعه أخوه ميرزا حسين على الملقب بالبهاء ، ثم اختلفا فانقسمت الطائفة الى فرقتين : تعرف احداهما باسم الازلية وتعرف الاخرى باسم البهائية ، ونشط كلاهما للدعوة فى البلاد الاسلامية وغيرها ولم يبق من أتباعهما فى العصر الحاضر غير القليل

## ٢ ـ مهدى السودان

أشرنا فيما تقدم الى علامات كثيرة من علامات التوقع والاستعداد فى العالم الاسلامى عند أواسط القرن التاسع عشر بعد اصطدام الشرق بغزوات الاستعمار ، ونضيف الى هذه العلامات علامة أخرى فى هذا الصدد نلمحها فى التجاوب السريع بين بلدان المسلمين لكل خبر من أخبار الدعوات والحركات العامة، وبخاصة ماكان من أخبار الثورة والتغيير ، فلم يكد داعية البابية يلقى مصرعه حتى تسامع بهذا المصير مسلمو الهند وافريقية الشرقية والوسطى على التخصيص ، وهى قديمة الصلة ببلاد ايران لاتنقطع عنها أخبارها من صدر الاسلام ، وقد ترجع هذه الصلة الى حقبة طويلة قبل البعثة المحمدية

ولو كان الباب قد انتصر فى معاركه مع جند الحكومة الايرانية لقد كان هذا الانتصار خليقا أن يوصد الطريق على من يطمحون الى ادعاء المهدية بعده ، ولكن خذلانه على نقيض ذلك قد فتح الطريق فى الهند وافريقية ومواطن شتى لمن يطمحون الى نصيب

يكون خيراً من نصيبه ، ويؤمنون فى سريرتهم بصلاحهم وصلاح أوقاتهم للقيام بالرسالة المهدية

وكان أقوى من تصدى للقيام بالرسالة المهدية بعد الباب « محمد أحمد » الذى اشتهر باسم المهدى السودانى ، ويلفت النظر فى هذا المقام أن دعوته الاولى كانت باسم الامام الثانى عشر الذى يترقبه الشيعة الاماميون ، وقد نشأ بين أهل الطريق وقرأ أشراط الساعة فى كتب محيى الدين بن عربى واطلع على قول ابن حجر والسيوطى أن من هذه العلامات خروج صاحب السودان ، ولم يكن فى السودان يومئذ من يشك فى اقتراب الساعة لسوء الحال وشيوع الفساد واجتراء المفسدين على الجهر بمنكراتهم حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، فلما انهزمت الدعوة المهدية فى ايران تهيأت الاذهان فى البلدان الاخرى لقبول دعوة غيرها يكتب لها النجاح ، ووافق ذلك سخطا عاما بين كبار الزعماء الذين كانوا يتجرون بالنخاسة وبين العامة الذين أرهقتهم الضرائب وبين التجار الذين كسدت مرافقهم لاضطراب المواصلات وتتابع المنازعات بين مصر والسودان والحبشة فتهيأت العقول للاصغاء الى دعاة الاصلاح أو دعاة التغيير كيف كان

وينتسب المهدى الى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويقال ان أجداده الاقربين أقاموا باقليم المنيا زمنا بعد مقامهم الى جوار الفسطاط ، ثم انتقل بعضهم الى بلاد النوبة ، ثم استقروا فى دنقلة ، ثم انتقل أبوه عبد الله الى الخرطوم فعمل فيها بصناعة السفن وتوفى بقرية كررى الى جوار أم درمان

وقد ولد له ابنه محمد من زوجته آمنة ( سنة ١٨٤٥ ) وفى مكان مولده خلاف ، الا أنه على القول الاشهر قد ولد بجزيرة لبب ومات أبوه وأمه وهو صغير

ودرج الطفل الصغير فى موطن يكثر فيه أبناء الطريق وهو يطيل التفكير فى يتمه وفى المشابهة بينه وبين النبى عليه السلام باسمه واسم أبيه وأمه ، فمال الى النسك والعبادة وحفظ القرآن ودرس الفقه وطرفا من التاريخ ، وأخذ نفسه بالرياضة الصارمة فاجتنب الملاهى وحرم على نفسه مايستباح من غشيان مجامع الطرب والغناء وكانت صرامته هذه مثار الخلاف بينه وبين أستاذه الشيخ محمد الشريف أحد مشايخ الطريقة السمانية لانه سمح لتلاميذه ومريديه بالغنـاء والرقص فى الاحتفال بختان ابنائه ، فأنكر عليهم محمد أحمد هذه المجانة .. وغضب عليه أستاذه ففارقه ولاذ بشيخ آخر من شيوخ الطريق بجزيرة أبا الى أن استقل بالمشيخة وناهز الاربعين ووافق ذلك لقاءه للشيخ عبد الله التعايشى من المشتغلين بالتنجيم فطابق ماعنده من علامات الحروف والحساب على ظهور المهدى وتبادلا التشجيع والتعاون على بث الدعوة باسم المهدى الموعود ووزيره « صاحب الخرطوم » كما جاء فى بعض النبوءات

وبعد وقائع بينه وبين جنود الحكومة تم له الظفر بالحملة المعروفة باسم حملة هكس وهى حملة لم يكن لها نظام ولا مدد من الذخيرة والمال بل كان جنودها يجمعون جزافا من المجندين المرفوضين فى القرعة العسكرية وكانت الحكومة البريطانية تعوق مصر عن ارسال المال اللازم والعدة الضرورية لتسيير الحملة الى كردفان ، فلم تستطع أن ترسل لقائدها غير أربعين ألف جنيه من المـائة والعشرين ألفا التى طلبهـا ، وأبرق اللورد جرانفيل من لندن الى القاهرة فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٨٣ م يعلن : « أن حكومة جلالة الملكة غير مسئولة بحال من الاحوال عن حملة السودان التى تولتها الحكومة المصرية بأمرها ولا هى مسئولة عن تعيين القائد هكس أو أعماله » ونشب الخلاف بين قادة الحملة لقلة وسائل النقل وصعوبة التخلف

فى وقت واحد بعد أن تسامع أهل السودان جميعا بتأهب الحكومة لتجريد حملتها منذ عدة شهور ، واستبد هكس برأيه فى اختيار الطريق مع ندرة الماء وارتياب الخبراء بأمانة الادلاء ، فوقع الجيش فى كمين بعد كمين ثم فوجىء بضعفى عدده من الدراويش وهو على غاية الجهد من العطش والجوع والتعب فلم ينج منه غير آحاد معدودين ، وكان عدد الدراويش اكثر من عشرين ألفا قتل منهم بضع مئات وبلغ القتلى من الحملة المصرية نحو عشرة آلاف

كانت هذه الكارثة ذريعة لاكراه الحكومة المصرية على اخلاء السودان ، فانحصرت القوة التى رفضت الاخلاء بقيادة جوردون فى مدينة الخرطوم ثم انقطع عنها المدد تنفيذا لسياسة الاخلاء وتمهيدا لاعادة فتح السودان باسم جديد ، واضطرت المدينة بعد اليأس من النجدة الى التسليم

وقد تقدم أن القوم عاشوا ردحا من الزمن يترقبون ظهور المهدى المنتظر ويتخيلون أنهم يلمسون حولهم أشراط الساعة من عموم الفساد وسوء الحال وغلبة الكفر على الايمان ، وقد شهدوا انتصار صاحبهم على الجيوش التى حسبوها من قبل قوة لاتغلب فكان هذا حسبهم من دليل على صدق دعواه ، ومن بقى من دهمائهم منكرا لهذه الدعوى فانما كان ينكرها لانه يأتم بامامة لا تقبلها ولا تقول فى علامات المهدية بقولها ، ومنهم أتباع الميرغنية والسنوسية والتجانية ، وبعضهم كان يستمع الى فتاوى العلماء خارج السودان بانكار هذه المهدية

ويبدو أن صاحب الدعوة قد توطدت فى نفسه الثقة برسالته مما عاينه حوله من دلائل الايمان به وانتظار الفلاح على يده ، فأكثر من كتابة الكتب الى الامراء والملوك يدعوهم الى تصديقه وينذرهم عاقبة الكفر به ، وأشفق أن يلتقى أتباعه خارج السودان بمن يشككهم فيه فحظر الخروج وحرم الذهاب

الى الحج واقنعهم بكفاية الحج الى مقامه ، ومن أمثلة كتبه التى كان ينشر بها رسالته قوله فى منشور عام : « ... أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لى على المهدية علامة وهى الخال على خدى الايمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة الا خذله الله ... هذا وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله ، كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وجميع ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدية فقد أخبرنى به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى حالة الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولاسكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل أقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر فيما أمر به والنهى عما نهى عنه ... وليكن فى معلومكم أنى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى حسنى من جهة أبيه وأمه ، وأمى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى ... والعلم لله أن لى نسبة الى الحسنين .. ! »

ولم يطل بقاء محمد أحمد بعد سقوط الخرطوم فأصابته حمى التيفوس وتوفى صيف سنة ١٨٨٥ ، وكانت آخر كلماته « .. ان النبى صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله الصديق خليفة لى وهو منى وأنا منه فأطيعوه ما أطعتمونى .. أستغفر الله »

## (٣) القاديانى

كان من أسباب ذيوع الاخبار عن مهدى السودان فى البلاد الاسيوية ، ولاسيما الهند والصين ، أنه هزم القائدين هكس وجوردون ، وكان أولهما من قواد الجيش الانجليزى الذين

اشتركوا فى قمع الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ وثانيهما من الضباط الدوليين الذين اشتركوا فى تدريب الجيش الصينى على النظام الحديث وقمع الثورة على حكومة بكين

فلما قتل هكس وجوردون فى حروبهما مع مهدى السودان طارت الانباء بوقائعه الى كل مكان ، وخشيت الحكومة البريطانية عاقبة الايمان به ولما تهدأ عقابيل الثورة فى الهند ــ فكان هذا على الارجح باعثا من بواعث عطفها على الحركة القاديانية الهندية عسى أن يكون الايمان بصاحبها ميرزا غلام أحمد صارفا للقوم عن تصديق المهدى السودانى ومعززا للعقائد الحديثة التى كان يبثها بين أتباعه وقوامها اسقاط فريضة الجهاد بالسيف وايجاب الجهاد بالاقناع والبرهان

وقد كان مولد ميرزا غلام أحمد سنة ١٨٣٩ بقرية قاديان من أسرة عريقة آلت بها الحال الى الخمول والفاقة بعد الثورة، فتعلم فى مكتب القرية وعمل فى وظيفة حكومية صغيرة ، وشب وهو يسمع الاقاويل عن كرامات أبيه ومنها أنه كان يعرف المولود من أبنائه قبل أن يولد ويسميه باسمه ، وقد سمى أبناءه جميعا بأسماء النبى وألقاب الامراء ، فمنهم سلطان أحمد ومحمود وبشير أحمد وولى الله ومبارك أحمد ، وبنت تسمى بعدة أسماء من أسماء نساء آل البيت

نشأ الغلام منقبضا عن الناس جانحا الى العزلة ومطالعة الاسفار القديمة من كتب الشيعة والسنة وكتب الاديان الاخرى وقد لقى فى سياحاته من أنباه بموافقة أحواله وأحوال زمنه لعلامات المهدى المنتظر وجعل من هذه العلامات خسوف القمر وكسوف الشمس وانتشار الوباء وخروجه من المشرق وسبق الدعاة الكذابين لدعوته ، ولم يقصر علاماته على الكتب الاسلامية بل ذكر منها ماجاء فى الاصحاح الحادى والاربعين من سفر أشعيا . وفى « الجاماسبى » من كتب المجوس ، فلما حدث

الخسوف والكسوف فى شهر رمضان ( سنة ١٨٩٤ ) الميلادية كانت هذه الآية عنده وعند أتباعه برهانا من الله على أنه هو صاحب الزمان الموعود

وقد زعم أنه المسيح المنتظر وألف كتابا سماه « البراهين الاحمدية ، على حقيقة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية » وفسر ظهور المسحاء الذين يظهرون بعد الاسلام بأنهم هم الاولياء ورثة الانبياء ، وقال أنه محدث . ولم يثبت أنه ادعى النبوة وانما دعواه على قول الاكثرين من أتباعه أنه مجـدد القرن الرابع عشر للهجرة ، وقد جاء فى باب ازالة الاوهام « لا أدعى النبوة وما أنا الا محدث » وقال فى منشور ابريل سنة ١٨٩٧ « لعنة الله على كل من ادعى النبوة بعد محمد »

ومدار الرسالة القاديانية كلها على التوفيق بين الاديان وتدعيم السلام بين الامم ، وفى كلام القاديانى مايشبه القول بالحلول فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم من الصالحين ، وقد توفى سنة ١٩٠٨ فانقسم أتباعه الى فريقين : فريق يسمى الاحمدية وهم الذين يؤمنون بامامته ولا يؤمنون بنبوته ، وفريق يسمى القاديانية وهم القائلون بنبوته وحجتهم التى يقابلون بها عقيدة الاسلام فى ختام النبوة بعد البعثة المحمدية أن « خاتم » التى وردت فى القرآن الكريم انما وردت بفتح التاء بمعنى الزينة .. وينكرون قراءة ورش بكسر التاء متشبثين بقراءة حفص عن طريق عاصم ، ولكن الفرقة الاخرى تورد من كلامه مايبطل دعوى النبوة على غير معنى المجاز وتستشهد بآخر كلامه فى حقيقة الوحى ونصه بالعربية « .. وما عنى الله من نبوتى الا كثرة المكالمة والمخاطبة ولعنة الله على من أراد فوق ذلك أو حسب نفسه شيئا أو أخرج عنقه من الربقة النبوية ، وأن رسولنا خاتم النبيين وعليه انقطعت سلسلة المرسلين فليس

من حق أحد أن يدعى النبوة بعد رسولنا المصطفى على الطريقة المستقلة وما بقى بعده الا كثرة المكالمة وهو بشرط الاتباع لا بغير متابعة . . . »

ويبدو أن الفرقة القاديانية كانت أقرب الفرقتين الى هوى الدولة البريطانية ، لانها لم تكن تعارض الحكومة ولم تتورع عن اشتراط الطاعة لها على من يدخلون فى زمرتها ، وقد كتب أحدهم فى كتاب فارسى باسم « تحفة شاه زاده ويلز » يقول فيه وهو يدعو ولى العهد الى الاسلام : « . . . ان هذه التحفة تقدم اليك من الجماعة التى صبرت على مصائب شتى ثلاثين سنة أو أكثر على أيدى أعدائها وذويها من جراء ولائها لجدتك الموقرة الملكة فكتوريا ثم جدك العظيم الامبراطور السابق أدوارد السابع ثم والدك الجليل الامبراطور الحالى ، ولم تكن قط طالبة مكافأة حكومية ومازال منهج هذه الجماعة من يوم تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة وتنكب عن جميع أنواع الفتنة والفساد وأن مؤسسها عليه السلام كان وضع شرطا من شروط المبايعة التى لا تسمح لاحد أن ينضم اليها الا على عهد العمل بها وهو أن تطاع الحكومة القائمة »

ويعتذر أصحاب هذه السياسة برعاية الضرورة والتوسل بسلطان الدولة الى تيسير الدعوة ، ولكنها قوبلت بالنقد الشديد من أتباع القاديانى أنفسهم بعد نشاط نهضة الاستقلال وقيام الدعاة الى نصرة الخلافة ، وكان لهذا الانقسام السياسى أثره الاكبر فى تفرق أتباع الطائفة الى أكثر من فرقتين ، على كونهم جميعا لايزيدون على مائة ألف أو نحوها ، ولهم مع هـذا التفرق ايمان وثيق بصدق دعوتهم ودأب عظيم على نشرها فى العالم بمختلف اللغات

# تعقيب

أولئك المهديون الثلاثة أنماط متقاربة للدعوة المهدية فى عصر الاستعمار ، يتشابهون أو يختلفون على حسب ما أحاط بهم فى بلادهم من دواعى الاستعمار وموانعه ، وعلى حسب المذهب الذى توارثوه من أسلافهم ، والتربية التى هيأت أفكارهم وعقائدهم ، فهم أبناء ماضيهم وحاضرهم فى مواضع الشبه بينهم ومواضع الخلاف ، ولا يلوح لهم فى الوقت الحاضر مستقبل يرتبط بمستقبل الاسلام غير ما انتهوا اليه

ونحن كلما أمعنا فى استقصاء سيرتهم وما تأثروا به من أحوال زمانهم — بدا لنا أن التاريخ يظلمهم اذا وصفهم بالدجل المتعمد وفرغ منهم على هذه الصفة ، فانهم على الاغلب الاعم من ظواهرهم مسوقون الى دعوتهم على الرغم منهم ، وربما انساقوا اليها وهم مؤمنون بها ثم دار بهم دولاب الحوادث دورته التى لا فكاك منها ، فاستعصى عليهم الفكاك من وثاقه وأصبح الرجوع عن الدعوة بعد ذلك أخطر عليهم وعلى أتباعهم من المضى فيها

يفيض العصر الذى ينشأون فيه بحوافز الترقب والامل واليقين بالتغيير الذى لامحيص منه ، وقد تكون عوامل هذا التغيير موصوفة لديهم بارزة لهم فى الصورة التى يتخيلونها كما تبرز صور السحاب لمن يحاول أن يرتق فتوقها على مثال مرسوم

وبين هذه الهواجس والقلاقل تنمو النفوس القلقة المتشوفة

فيتفق حتما لزاما أن يكون منها من يتعلق بالغيوب ويروض عقله على استطلاع خفاياها وتطول مناجاته لنفسه وتساؤله عن واجبه ، فيخطر له أنه مندوب لامر جسام يروقه أن يصبح أهلا له ويخيفه أن يكون هو المقصود به ثم ينكل عنه خوفا من تبعاته وأهواله ، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن الخاطر منه وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد ويجلو له حقيقة الامر الذى هو فى ريب منه . واذا احتجبت عنه آيات الالهام فترة فليس بالعجيب فى هذه الحالة بين الامل والخوف أن يذكر فترات الحيرة التى مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص فى انتظار الموعد الموقوت ، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة رجاء وكلمة تشجيع فيتشبث بها ويستصعب اهمالها ، وما أسرع النفس الى التشبث بأمثال هذه العلالة فى أمثال هذه المآزق والأزمات

ثم يخطو الخطوة الاولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه الى مابعدها ، ثم تدفعه المصادفات تارة وتصده تارة حتى يتوسط الطريق وتنسد وراءه شيئا فشيئا منافذ الرجوع ، أن فكر فى الرجوع . ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى اليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى اليها ، فان خامره شك فلعله يحسب فى هذه المرحلة أن المصلحة فى التقدم أكبر واضمن من المصلحة فى التراجع والنكوص ، ويزعم لضميره أنه انما يريد الخير ولا يحاسبه الله الا بما نواه

على أن العبرة من هذه الحركات جميعا أن ضجتها أعظم جدا من جدواها ، وأنها تجشم الامم كثيرا ولاتنفعها ببعض ماتتجشم من أهوالها ومتاعبها ، وتنجلى الغاشية وقد حبطت الحركة فى أول أغراضها وأضافت نحلة جديدة الى النحل التى ارادت أن

تمحوها وتدمجها فى كيانها ، وقد تنشعب الحركة شعبا شتى بين أتباعها ومريديها وهى لم تتحرك أول الامر الا على امل التوفيق بين النحل التى تنازعت ضمائر الناس قبلها

ولو وضعت كل هذه الدعوات فى الميزان لرجحت عليها جميعا دعوة التعليم والتقويم وهى اقلها ضجة واطولها امدا وأبقاها ثمرة .. ففى كل ما أجملناه من الدعوات ونهضات الاصلاح لم ينتفع الاسلام بمنفعة محققة اثبت وأعظم من منفعة التعليم على هدى العقيدة النيرة والخلق المكين ، ولم يخدم الاسلام أحد فى العصر الحديث كما خدمه المعلمون من طراز أحمد خان وجمال الدين ومحمد عبده ، ويشبههم فى النفع بين أهل البادية دعاة السلوك الحسن والاستقامة من أصحاب الطرق المخلصين

وخير خدمة للاسلام تجلت لنا فى ضوء تجاربه من مطلع القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين هى الخدمة التى تكفل للمسلم أن يؤمن بعقيدته ولايتخلف عن عصره فى علومه ومعارفه ومقتضيات أعماله ، أو هى خدمة التوفيق بين الدين وعلوم التقدم ، وغاية مانلاحظ على أساليب التوفيق أننا لا نستصوب التعجل بتفسير الكتاب على الوجوه التى تتراءى لاول وهلة من نظريات العلم وفروض العلماء المحدثين ، لان النظريات تتبدل وشواهد الواقع تتراءى فى كل حقبة على غير صورتها فى الحقبة التى تسبقها أو التى تليها ، ومثال ذلك تفسير السماوات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، وقد ينكشف كما انكشف فعلا بعد سنوات أن السيارات والنجيمات عشر ولاحصر للشهب الصغار التى تشرق وتغرب فى هذا المدار

وعبرة الدعوات جميعا منذ أواسط القرن التاسع عشر انها تنحصر فى كلمتين قال بهما رائد الهند وامام مصر ، وهما العلم والايمان

# الدعوات ونهضات الإصلاح

## في منتصف القرن العشرين

تتعدد المقاييس التى يقاس بها تقدم الامم ، ويأتى فى طليعتها مقياس الحرية ومقياس الحضارة ومقياس الحالة النفسية

وبهذه المقاييس جميعا تبدو دلائل التقدم على الامم الاسلامية عند المقابلة بين ماكانت عليه فى منتصف القرن التاسع عشر وما صارت اليه فى أواسط القرن العشرين ، وتبدو هذه الدلائل كذلك بارزة بينة عند المقارنة بين ماهى عليه الآن وبين ماكانت عليه فى أوائل القرن منذ خمسين سنة

فالمسلمون الذين يعيشون فى بلاد مستقلة أو شبيهة بالمستقلة ، يزيدون على خمسة أضعاف المسلمين الذين يخضعون لحكم دولة أجنبية

ومهما يكن من شأن الاستقلال الواقعى أو الشكلى فمن الغباء أن يقال ان الاستقلال كعدم الاستقلال كائنا ماكان ، ومن الحذلقة ان يستشهد على ذلك بخضوع الامم المستقلة كثيرا أو قليلا لسلطان الدول القوية بحكم الضعف أو الاضطرار

فالصبى القاصر يخضع لوصاية وليه ، والرجل الراشد لا يفعل كل مايريد ولايزال فى حياته الراشدة خاضعا لذوى السلطان عليه بحكم الضعف أو الاضطرار ، ولكن لايقال من أجل هذا أن الصبى والرجل الراشد سواء لانهما ، كليهما ، لايعملان كل مايريدان

وقد خرج معظم الامم الاسلامية من ربقة السيادة الاجنبية وأصبحت لها مشيئة الى جانب مشيئة الاقوياء . أو أصبح

الاقوياء مضطرين الى التماس الحيلة والذريعة للتوفيق بين المشيئتين ، وهذه خطوة فى الطريق لابد منها قبل مايليها من الخطوات

أما الامم التى لاتزال خاضعة للسيطرة الاجنبية ففى كل منها نهضة قومية ووعى متيقظ يقلق المسيطرين عليها ، وتنبئنا حوادث الماضى القريب أن السيطرة ترجع الى الوراء مع الزمن ، ولا ترجع اليقظة بعد المسير ولو الى غير شوط بعيد

## فى آسيا

فى آسيا ظفرت أندونيسية باستقلالها ولا تزال أمامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها ازدحام السكان وشيوع الامية وحاجة الامة الى الخبراء الكثيرين فى الادارة وتدبير الثروة وانفصال بعض أجزائها وتنازع الآراء والاحزاب على سياستها

وقد ظفرت الباكستان بكيانها السياسى ولاتزال أمامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها تباعد شطريها وحاجتها الى موارد الماء فى كشمير ، وخلافها مع الهند ومع الافغان

وفى الصين عشرات الملايين من المسلمين متيقظون يشعرون بخطر واحد وحقوق واحدة ، وعلى التخوم بين الصين والهند ملايين آخرون خاضعون لسلطان الدولة الروسية يخشون على ضمائرهم كما يخشون على ديارهم ومعالم أوطانهم ، وتقوم الافغان وايران مستقلتين الى جانب هذه الامم وفى كل منهما كفايتها وفوق كفايتها من مشكلات السياسة والمعيشة

ولا خطر من جميع هذه المشكلات

ولن يجىء اليوم الذى تستريح فيه الامم من أمثال هذه المشكلات أو تعيش فيه حقبة من الزمن بغير مشكلة كبيرة أو صغيرة

انما الخطر الاكبر أمة بغير ايمان وبغير معرفة ، فاذا بقى

للأمة ايمانها ومعرفتها فكل ما اصابها بعد ذلك هين مأمون العاقبة بعد حين

وليس الخطر كله من الاعداء ، وليس الامان كله من الاصدقاء أو الابناء

فقد يجيء الخطر على الايمان من غلاة التجديد ، وقد يجيء الخطر على المعرفة من غلاة الجمود ، وقد يتقابل هؤلاء وهؤلاء على قوة واحدة فيسرى الى الامة شلل لا تنفع معه معرفة ولا ايمان

ومن وجوه الرجاء ، أو العزاء ، بين المشكلات الجسام التى تستقبلها الامم الاسلامية أنها لاتحمل العبء كله ولا تنفرد بالعمل على دفعه أو تخفيفه ، لان سنن الحوادث أن تأتى بالنجدة كما تأتى بالعقبة ، وأن العامل لاييأس من مفاجآت الغيب وان كان لايأمن الغدرات من تلك المفاجآت

لقد كان على أندونيسية شوط بعيد مع هولندة وشبكة الاستعمار التى تمكن لها فى مستعمراتها ، ثم ابتليت هولندة باليابان فأخرجتها ، ثم ابتليت اليابان بالهزيمة فخرجت مكرهة وتركت سلاحها للثوار فى سبيل الحرية ، ثم اضطر المنتصرون من الامريكيين والانجليز الى مداراة الشعوب الآسيوية ونفس بعضهم على بعض أن تخلف هولندة على تلك الغنيمة الضخمة ، فاذا بالاستقلال يسعى الى أندونيسية كما سعت اليه ، ثم تبقى الكفاية لمشكلات الحكم والمعيشة وهى لاتعضل قوما كأبناء تلك الامة كادوا أن يستأثروا بالتجارة والملاحة فى بحار الهند قبل زحف المستعمرين عليها

وكان على الباكستان شوط بعيد مع الدولة البريطانية والكثرة البرهمية ، ثم تغير الموقف فى القارة الآسيوية بعد هزيمة اليابان وبعد كساد التجارة البريطانية فى المشرق وبعد التزاحم الجديد بين الروسيين والامريكيين على القارة فى شرقها

الاقصى ، فاذا بالاستقلال يسعى الى الباكستان كما سعت اليه ، ثم تبقى مشكلة كشمير وتبقى بازائها صناعة فى الهند تتوقف على الباكستان ، وصناعة فى الباكستان تتوقف على الهند ، ومصلحة مشتركة تلجىء الجانبين الى المصالحة ، وخطر من جانب الصين الشيوعية يفتح الاعين هنا وهناك

وثمة عامل جديد فى سياسة الدول القوية لم يكن له خطر قبل منتصف القرن العشرين ، وذلك هو عامل العقيدة فى المجتمع

فلم تكن دولة من دول الاستعمار تبالى شيئا بعد غلبتها العسكرية والسياسية على بلد من البلاد المستضعفة . ولكنها اليوم تبالى مايعتقده الشعب وتعلم أن هذه العقيدة عامل هام فى الترجيح بين المستعمرين من كتلة المشرق وكتلة المغرب .. وقد تعودوا المبالاة بالاسلام وماتحتويه عقيدته من المقاومة أو المسالمة للمذاهب الاجتماعية ، فليست السطوة بقوةالسياسة أو بقوة السلاح هى كل ماتباليه الدول الكبرى فى منازعاتها ، وقد يخافون من هذه السطوة أن تدفع بالمسلمين الى جانب وتصرفهم عن جانب ، فيبنون علاقاتهم بهم على هذا الاساس

والفرق بين الكتلتين أن الامريكيين والانجليز لايستطيعون أن يجعلوا الامة المسلمة أمريكية أو انجليزية . أما الكتلة الشرقية فاذا جعلت أمة من الامم شيوعية لم تكترث بعد ذلك بجنسها وعقيدتها ، لان الشيوعية تبطل الاوطان والاديان

## دولتان قديمتان

وفى آسيا دولتان قديمتان هما ايران وتركية ، وكلتاهما فى شقة الصدام بين الكتلتين ، يحميهما هذا الصدام ان تقعا فى قبضة هذه أو تلك ، ولكنها حماية مانعة وليست بالحماية العاملة ، فلابد من سند لها فى بنية الامة ، ولابد من قيام هذا

السند من الايمان والمعرفة

ويقال اليوم ان تركية تعود الى الدين بعد ثورة مصطفى كمال على تقاليدها الدينية ، ولكن تركية فى الواقع لم تفارق الدين حتى يقال انها تعود اليه ، وكل ماحدث انما هو تغيير فى مراسم الحكم لم يتغلغل قط الى ضمير الامة ، وقد يكون الاعتدال بين ثورة مصطفى كمال وتقاليد الجامدين أصلح لتركية من أيام الخلافة المتداعية وأيام الثورة الكمالية الاولى

أما الامم العربية فقد وضع لها الغرب اسفينا فى صميم بنيتها يوم أقيمت بينها دولة اسرائيل ، ولن تؤمن العقبى ما بقى فيما بينها هذا الصدع الوبيل تتسلل منه المفاسد والمطامع الى جوفها

ولكن اسرائيل على قوة الدول التى تسندها لا تعيش ولا تتمكن فى موضعها بين أمم تقاطعها وتبعد المسافة بين مواردها ومصادرها ، وباب الامل فى هذا الجانب أن المصير لايعدو حالة من حالتين : اما ان تسيطر اسرائيل على أمم العرب ونهضتها ، واما أن تنخذل دون هذا المطلب العصى فتنهار أو تقبع فى أضيق حدودها ، وأصعب هاتين الحالتين سيطرة اسرائيل على أمم ناهضة تتقدم ولاتنكص على أعقابها

## فى أفريقيا

والاسلام فى القارة الافريقية يشغل شواطئها على البحرين الابيض والاحمر وعلى المحيطين الاطلسى والهندى . فكل الشواطىء الافريقية يقطنها مسلمون ماخلا الجانب الغربى الى الجنوب ، ويتخللها المسلمون فى جوف الصحراء الكبرى كما يتخللونها فى أواسطها من السودان الى أعالى النيل

وتنصب قوة الاستعمار كلها على القارة الافريقية فى الوقت الحاضر ، فعلى الاسلام عبء كبير ينهض به فى وجه هذا الاستعمار

ومهما يكن من تفاوت القوى المتنازعة فى هذه القارة فليس السؤال هنا : من يقدر على الغلبة ؟ بل هو من يقدر على البقاء بعد طول الصراع ؟

ونخال أن الجواب لايقبل الخلاف ، فلن يبقى المستعمرون ويزول ابناء البلاد ، ولن يستطيع المستعمرون مهما عملوا أن يخرجوا ابناء البلاد عن أجناسهم وعقائدهم ليدمجوهم فى غمارهم افريقيين « مغتربين »

وقد تطول المسافة على الشعوب الافريقية قبل بلوغ المرحلة التى تخرج الاستعمار ، ولكن الاستعمار يحمل من جراثيم الفناء مايعاون المنكوبين به على الخلاص منه ، وليس اللازم أن يتساوى الافريقيون والمستعمرون فى العلم والثروة والحول والحيلة ، وانما اللازم أن يضيق المستعمرون بقهر الافريقيين

ومصر — فى طليعة الامم الافريقية — تمضى قدما الى هذه المرحلة وتقترب منها حقبة بعد حقبة منذ أوائل القرن العشرين . فلم تمض من هذا القرن عشر سنوات متعاقبة دون أن تتدرج فيها من حالة الى حالة أفضل منها ، فخرجت من السيادة العثمانية ثم خرجت من الحماية البريطانية ثم تخلصت من حكم الملكية الرثة التى صار بها الزمن الى أسوأ أطوارها فى عهد فاروق ربيب الفساد ، واذا اطردت مراحلها عشر سنوات بعد عشر سنوات على هذه الخطى فليس الرجاء فى مرحلتها التى تقود فيها القارة الافريقية ببعيد

وعلى شواطىء البحرين الابيض والاحمر أمم من هذه القارة تتيقظ وتتحفز وتوشك أن تبلغ المرحلة التى تمنت فيها الاستعمار كما يعنتها ، ومن آمالها وحدة المغرب ووحدة وادى النيل ، وأيا كان مآل هذه الآمال فى عالم السياسة فمناط الامر كله أن يتم لها حظ الامم المستقلة فى المعرفة والكرامة ، وكل وضع من أوضاع السياسة بعد ذلك مرضى ومقبول

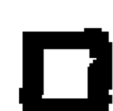
# فى نظر الغرب

منذ القرن الاول للهجرة لم يعرف العالم حقبة من حقب التاريخ خلا فيها الغرب ممن يهتمون بالاسلام على نحو من الانحاء ، ولكن الذى يعنينا فى هذه العجالة هو اهتمام الغرب بالاسلام فى عصر الاستعمار ، وقد كان على الاغلب اهتماما يروده الباحثون من وجهة النظر العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ، فلم يهتم الغرب بالاسلام قط من وجهة نظر عامة أو من وجهة نظر علمية فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، وانما التفت الغربيون الى دراسة الاسلام من هذه الوجهة ـ وجهة النظر العلمية ـ منذ أوائل القرن العشرين ، وهى مع هذا لاتخلو من غرض وان تخفى الغرض فيها أحيانا وراء نقاب

فمن أواخر القرن التاسع عشر الى اليوم تقوم الجامعات والمعاهد فى هولندة وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة لدراسة أحوال المسلمين وأسرار العقيدة الاسلامية على أضواء العلم الحديث ، وينشىء بعض الجامعات كراسى لهذه الدراسة أو قاعات لالقاء المحاضرات وانتداب المختصين لالقاء سلاسل من هذه المحاضرات سواء كانوا من الاساتذة فيها أو ممن يعلمون فى الجامعات الاخرى

وسنجمل فى هذا الفصل أقوالا متفرقة من مباحث المختصين الذين صوروا الاسلام للغرب كما فهموه ، فاننا اذا عرفنا كيف

يفهموننا عرفنا كيف يكون موقفهم منا وكيف يكون موقفنا منهم ، ولو كانت المحاولة « علمية » تدور عليها دراسات علماء



افتتحت جامعة شيكاغو قاعة محاضراتها الاسلامية منذ نحو خمسين سنة ( ١٩٠٦ ) فحصر المحاضر الاول ـ دنكان بلاك مكدونالد ـ أهم الموضوعات التى يمكن أن يدور عليها البحث فى ثلاثة ، وهى الشخصية المحمدية ، ومدارس التصوف ، وأطوار الامم الاسلامية فى حركة التجديد

وصفوة ما انتهى اليه فى هذه الموضوعات الثلاثة أن الشخصية المحمدية لاتزال بعد أربعة عشر قرنا مصدر المدد المتصل فى تقوية المسلم ، وأن الصوفية قد خلقت منفسا للعقيدة الفردية التى يدين بها المسلم المستقل بتفكيره واعتقاده عن سلطان الشيوخ وسلطان الجماهير ، وان أطوار المسلمين تختلف اختلافا لابد منه بين أناس ينتمون الى كل جنس وكل أصل من الاصول البشرية ، ولكن الاسلام قد أوجد بينهم أخوة عامة قل أن يوجد لها نظير فى أتباع الكنيسة الواحدة ، وقد طبعت هذه المحاضرات بعنوان « الموقف الدينى والحياة الدينية فى الاسلام » (١)

ومن الدارسين لموقف الاسلام فى القرن العشرين المؤرخ الكبير أرنولد توينبى Toynbee فى محاضراته عن « العالم والغرب » التى ألقيت سنة ١٩٥٢ وفى محاضرات أخرى عن حركة التجديد التى سماها بالهيرودية وحركة التجديد المقابلة لها التى سماها بالآسية

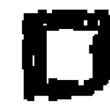
وعند توينبى أن المسلم يواجه الغرب اليوم كما واجه الاسرائيلى حضارة رومة واليونان قبل ألفى سنة ، ولا يعنى بذلك أنه جامد على أساليب ذلك العصر بل يعنى به أن من المسلمين من يقاوم الحضارة الاوربية بالاقتباس منها كما فعل

---

(١) The Riligious Attitude and Lifein Islam by Macdonald.

هيرود فى عصر السيد المسيح ، ومنهم من يقاومها بالمحافظة الشديدة والاصرار على القديم بنصه وحرفه

وقد ذكر الانقلاب التركى وما تلاه من الحركة الكمالية نحو الغرب ، فقال ان التجديد التركي قد تطور هذا التطور لان التجديد كله قد بدأ من ناحية العسكريين على اثر الهزائم المتوالية التى منيت بها الدولة العثمانية فاتخذ صبغة التنفيذ العسكرى بعد الهزيمة الاخيرة فى الحرب العالمية الاولى . ثم قال ما فحواه أن النظام العسكرى قد اقترن بالنظام النيابى الذى علقت جذوره على مايظهر بالتربة الاسلامية ، وفضل العقلية الاسلامية على العقلية الاوربية فى أخوة الدين . فانها فى هذا العصر الذى تقاربت فيه المسافات قمينة أن تحشد الاسلام صفا واحدا أمام غزوات الشيوعيين ، وقد نوه بالرسالة التى تؤديها اللغة العربية فى هذا الموقف وهى لغة الكتابة على اختلاف اللهجات بين مراكش وايران ومسقط وزنجبار



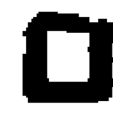
وصنف الاستاذ جب Gibb أستاذ العربية بجامعة اكسفورد عدة رسائل تدور بالتفصيل أو بالاجمال على هذا الموضوع

وملاحظته الاولى هى أن التجديد فى الاسلام يبدأ من جانب « العلمانيين » أو الدنيويين خلافا لتجديد الغرب الذى يتولاه رجال الدين ، وأن المسلمين العصريين يعتمدون على مكانة الامام محمد عبده لتسويغ جهودهم التى لايرضى عنها الجامدون كلما حاولوا التقريب بين الاسلام والحضارة الحديثة ، وتعليل ذلك عنده أن المسلم المتعلم على المنهاج الاوربى هو الذى يعرف مايستفاد من علوم الغرب وحضارته ، وهو منهاج لم يفتح أمام الشيوخ قبل الجيل الجديد

ويرى الاستاذ جب أن التجديد ينتشر فى العواصم وقلما

يسرى الى الاقاليم النائية فى جوف البلاد

ويلاحظ أن المجددين فى مصر قد يتأولون الاحاديث النبوية ولكنهم لا يجترئون كما اجترأ بعض مجددى الهند على المناقشة فى التنزيل ولاسيما المناقشة حول تنزيل القرآن بلفظه أو بمعناه ، ولم يعلل الاستاذ جب هذا الاختلاف ولم يذكر له أمثلة كثيرة فى الهند أو غيرها ، ولكننا نظن ان خاطر التنزيل بالمعنى انما يخطر لمن يتعودون أن يفهموا القرآن بمعناه أو يترجموا هذا المعنى مع قراءته بالحروف العربية ، وقليل جدا مع هذا من يعلق التجديد بهذا الضرب من التأويل



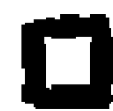
وممن ألفوا عن الاسلام فى الهند خاصة الاستاذ ولفرد كانتويل سميث Welfred Cantwell Smith مدرس التاريخ الاسلامى بجامعة ماكجيل

وأهم مالاحظه أن دعاة التجديد يهتمون باثبات « قابلية الاسلام » للتحضير والتمدين ، ويشيدون بفضله على حضارة الغرب من عهد دخوله الاندلس الى عهد الحروب الصليبية ، وأن بعض المجتهدين — وسمى منهم أبا العلاء المودودى — يؤمنون بأن الاسلام نظام الكون ، وأن العالم العلوى يمشى على نظامه فيصح أن يقال عن الشمس والقمر والكواكب انها كائنات مسلمة ، بل يصح أن يقال عن تكوين الملحد نفسه انه فى « كيانه الجسدى » يتبع نظام الخلق فيتبع من ثمة أحكام الاسلام

وينزع الاستاذ سميث الى التفسيرات الاقتصادية فى عقائد الطبقات ، فيقول ان « الشخصية النبوية » هى مدار العقيدة حيث يلتمس المسلم فى العصر الحاضر « مثلا أعلى » لمسلكه وأدبه وقواعد خلقه ، وان المساس بالنبى عليه السلام يثير المسلم أشد من ثورته على من يمس الربوبية ، ولا يقصد بذلك

أن مقام النبوة أعظم عنده من مقام الاله فهذا ممتنع كل الامتناع فى الاسلام ، ولكنه قد تعود أن يسمع بالملحدين المنكرين لوجود الاله ولم يتعود أن يواجهه أحد بالقدح فى نبيه ولو لم يكن من المتدينين بدينه ، وهذهالحركةالواسعة قد عرفت خاصة بتعظيم شخص الرسول صلوات الله عليه حتى سميت باسم حركة « السيرة » وأصبح قوامها الاعجاب والاقتداء بسيرة النبى فى حياته الخاصة والعامة ، وهنا يستطرد الاستاذ الى تعليلاته الاقتصادية فيقول ان الطبقة الوسطى فى جميع الامم « فردية » أو معنية بالشخصية الفردية ، ومن ثم اتجه الشعور الدينى عند المتعلمين — ومعظمهم من الطبقة الوسطى — الى « شخصية » تملك اعجابهم وتقنع المتدين بجدارتها للقدوة والامانة فكانت « الشخصية المحمدية » هى مدار هذا الشعور وقبلة هذا التفكير

وليس من غرضنا أن نطيل التعقيب خلال تلخيص الآراء الغربية عن الاسلام ، ولكننا نحسب أن الخطأ هنا لا يحتاج الى اسهاب فى التعقيب عليه ، لان الاهتمام بذوات الاولياء والقديسين يشيع فى كل امة بين العامة وسواد الناس أشد من شيوعه بين الميسورين المتوسطين ممن يسميهم أصحابالتفسير الاقتصادي بالبرجوازيين . ونرى أن تعظيم النبى عام بين المسلمين فى هذا العصر ، وأن كتابة السيرة المحمدية عامة كذلك بينهم فى كل امة . فلا عجب أن تعم البلاد التى كان للشخصية الانسانية فيها مكانة بارزة فى كل عقيدة من أقدم العصور ، وهذا عدا ماهو مأثور عن طبيعة الانسان اذ تدرك القداسة متمثلة فى صورة واضحة قبل أن تتمثلها فى عالم التجريد



وبين أحدث الكتب عن الاسلام كتاب الاستاذ تريتون Tritton أستاذ الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن

وقد اختار للمسلم المعاصر مثالين : احدهما هندى وهو الشاعر الصوفى محمد اقبال ، والآخر مصرى وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهو يحاول أن ينفذ الى طبيعة ادراك الماضى والحاضر والقديم والجديد فى ذهن اقبال فيقول ان الزمن المطلق عنده كل عضوى شامل لا نتركه خلفنا بل هو يتحرك معنا ويعمل فى حاضرنا . ثم يقول أن الاسلام يعطى كلا من العالمين ـ الدنيا والآخرة ـ حقهما ، وفى وسع المسلم العصرى أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى ، وله أن يراجع احكام المعاملات والشريعة لان باب الاجتهاد مفتوح لايزال

قال : وقد أدى ضغط الآراء الغربية الى تغيير واحد فى التفكير الاسلامى ، فان المسلمين فى القرون الوسطى كانوا يتجاهلون قواعد التفكير الاخرى فأصبحوا اليوم معنيين بالرد على وجوه الاعتراض التى تأتى من غيرهم ، وهم يجتهدون ليثبتوا أن الانسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى ارفع تعبيراتها فى شريعة الاسلام وأحكامه ، ويسلمون أن ديانتهم اليوم ليست على مايحبون وأن الاصلاح ضرورة لا محيص عنها ولكنهم يصرون على أن الاسلام دون غيره هو الذى يصلح لمطالب النوع الانسانى ، فقد تغيرت الاحوال ووجب أن تتغير معها النظرة الى الديانة . وقد كان أثر الغزالى فى الشيخ محمد عبده قويا يبدو واضحا فى فهم الذين على أنه عقيدة باطنة حيوية من شئون السريرة ، وأن الشعائر الخارجية ثانوية مضافة اليها ، وقد أخذت طائفة من الذين يدعون على العموم تلاميذ الشيخ تنقاد لمذهب الحنابلة فتجمعت من ذلك دعوة الى رفض البدع المستحدثة والعود الى سلامة العقيدة الماضية وتضمنت هذه الدعوة برامج اصلاح فى الشئون الدينية والاجتماعية والاقتصادية تثبت قابلية الاسلام للتدين به فى الاحوال الحاضرة ... وهؤلاء التلاميذ يتجهون الى أهداف

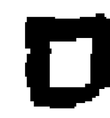
مختلفة بعضها وطني قومي وبعضها مدرسي ينظر الى الحرية العقلية ، وبعضها يقدم الاصلاح الديني ويعتبره مبدأ لكل اصلاح ، ومنهم من يصبح بانقياده للنزعة الحنبلية محافظا في بعض الامور أشد من المحافظين ، وتنصل الصبغة الغزالية عن حياتهم ... وانهم ليعتقدون أنهم معتدلون يتوسطون بين البساطة التي ترجع بقوتها كلها الى التسليم الاعمى في طوائف الدهماء وبين المتطرفين من دعاة التقدم الذين يجنحون الى الحرية العقلية المطلقة والاتجاه الى الحضارة العصرية ونظم الحكم الحديث والشريعة الوضعية ، ويؤكدون أن الاسلام اذا فسر كما يفسرونه يتكفل بالحل الوحيد لمشكلات المجتمع والسياسة والدين .. »

وانتقل تريتون الى مسألة الخلافة فقال : « أن الغاء الترك للخلافة صدم العالم الاسلامي وان كانت الخلافة قد صارت منذ زمن بعيد أسما على غير مسمى ، ولكنها كانت عندهم ذات قيمة عاطفية ، ومنهم من يؤثر ايجاد الخلافة بأية صبغة روحية خادمة للشريعة لا حاكمة مسيطرة عليه ، وانما وظيفته ان يراقب القيام بحكم الشرع ولا يستطاع ذلك بغير سلطان وراءه ، ومثل هذا الخليفة أدنى الى ان يكون كالامام عند الشيعة ، الا أنه لم توجد قط ولا توجد الآن أداة معترف بها تتولى اختياره ، وأقرب مايكون الى هذه الاداة فتاوى الفقهاء بغير صفة رسمية ، وهم لايعينون بل يرتقون الى مكانتهم بالمعرفة ووجاهة الشخصية كأنهم المثل المحسوس لاتفاق الجماعة . ويعتبر الوطنيون الذين يعتقدون أن خلاص الاسلام مرهون باقامة الحكومات المستقلة أناسا من الوجهة النظرية مقترفين لخطيئة التفرقة بين صفوف الجماعة ، ولكن الحكومات المنفصلة قد وجدت قديما دون أن تفصم وحدة الجماعة وليس ما يمنع أن يعود الامر كما بدأ ويومئذ يصدق على عالم

السياسة ما روى عن النبى حيث يقول : « أن الاختلاف بين أمتى رحمة »

« ... وربما تأثر المسلمون باجلال النصارى للمسيح فرفعوا مقام النبى الى أوج المثل الاعلى وجعلوا الدين محاكاة له فى سيرته ، ولم تزل نظرة المسلمين الى نبى الاسلام تتنوع من حقبة الى أخرى . ولكن النبى نفسه كان يقول انه انما هو رسول وانسان من البشر وليس فى يديه ان يصنع المعجزات »

وختم تريتون هذا الفصل قائلا أن الفجوة بين مدرسة التجديد ومدرسة المحافظة لا تزال على اتساع لا يأذن بالمراجعة التى دعا اليها محمد اقبال ، وكلتاهما مع هذا قد تثوب الى القرآن الذى يوحى الى المدرستين أن الله ليس كمثله شىء وانه أقرب اليهم من حبل الوريد



واشترك نحو عشرة من الباحثين الغربيين والشرقيين فى دراسات متفرقة عن الثقافة والمجتمع فى أمم الشرق الادنى Near Eastern Culture and Society فقال أحدهم الاستاذ عبد الخالق عدنان أديوار — وهو تركى — ان حركة التجديد العصرية بدأت بدعوة ضيا شوق آلب المسماة بحركة « ينى مجموعة » أو الجماعة الجديدة ، وغايتها أن تنشىء فى الاسلام توفيقا كالتوفيق بين المسيحية والحضارة العصرية على مبادىء اللوثرية ، ولكن غلطة شوق آلب كانت على الاغلب غلطة لغوية فى الترجمة ، اذ كان من سوء حظه انه ترجم كلمة الدنيوى أو العلمانى Laic باللادينى فنفر المحافظون من مذهبه على اعتباره زندقة مناقضة للدين ، فى حين أن الكلمة لا تعنى اللادينية بل تعنى « غير الكهنوتية » .. ولو أنها ترجمت بهذا المعنى لما نفر منها المسلمون لانهم يسلمون أن ديانتهم خلو من

سلطان الكهنوت ، ثم جاء الاندفاع فى سبيل « التغرب » فبلغ من سورته حدا أخرجه من الدعوة الفكرية الى حالة تشبه الحتمية الحكومية فى سبيل « اللادينية » وانقلبت الآية من تعصب قديم الى تعصب جديد لا يسمح بالتمحيص وحرية المناقشة

ولخص خبيب أمين الكورانى حركات التجديد فى ثلاث دعوات كبرى هى دعوة جمال الدين المنادى بالجامعة الاسلامية على أساس التقريب بين الاسلام والعلم ودعوة الوهابيين على أساس العودة الى السلف الاول ودعوة الشيخ محمد عبده على أساس العمل بمقتضيات العصر كما يسوغها التفسير الحديث لاحكام الاسلام

وتكلم كويلر يونج Cuyler Young عن ثورة السخط فى ايران على المادية والاباحية وعزاهما الى سوء المعيشة الدنيوية لا الى سوء العقيدة الدينية ، وقال أن تحسين المعيشة ونشر التعليم خير علاج للمشكلة النفسية مع تذليل صعوبة اللغة المختلفة بين الاقاليم

ومن الكتب التى درست الاسلام دراسة علمية على اتصال بمساعى المبشرين كتاب قنطرة الى الاسلام Bridge to Islam لصاحبه اريخ بتمان Erich Bethmann وكتاب طوالع الاسلام The Prospects of Islam لصاحبه لورنس براون Laurence Browne

أما الاول فيصرح باخفاق التبشير وينعى على الحضارة الغربية أنها نفرت المسلمين من المسيحية ، ويشتد فى نقد الروايات السيمية لانها ادخلت فى روع المسلم الشرقى أنها تمثل حياة الامم المسيحية فنظروا اليها نظرة طالب التسلية ولم ينظروا اليها نظرة طالب الاصلاح

وكأنما خشى من أنصار التبشير اعراضا عن المعونة فلام الذين ينصحون بالتحبب الى الشرق من طريق التعليم والاحسان

والتطبيب ، وقال أن الذهن الشرقى مطبوع على التفكير الدينى « الثيولوجى » فهو لا يفهم الاصلاح على غير هذه القاعدة ومالم يكن هنالك حافز دينى فالامر عنده من الشواغل العرضية التى لا تستحق الجهد ومحاولة التبديل . . . وأنه لرأى فى الحق جد عجيب ، لانه الرأى الذى ينقلب على صاحبه ويقنع انصار التبشير بضياع المسعى وخيبة الرجاء فى كل تغيير يتوقف على تغيير العقيدة أو تغيير « الذهن » بما اشتمل عليه

وأما لورنس براون فمحاولته كلها متجهة الى تكذيب القول بعقم المساعى التى تبذل فى « تبشير المسلمين » ، وهو لاينكر أن المسلمين الذين يصبأون عن دينهم جد قليلين ، ولكنه يرى أن المسألة هنا مسألة الطبقة لا مسألة العقيدة ، وأن أبناء الطبقات الميسورة من المسلمين كأبناء هذه الطبقات فى جميع الملل والنحل ، قوم قد استقروا على عاداتهم الاجتماعية وعلاقاتهم العائلية فلا مطمع فى تحويلهم عن هذه العادات أو قطعهم لهذه العلاقات . ولكن المطمع كبير فى الطبقات البائسة كما ظهر من نتائج التبشير بين الهنود المحرومين ، وكما ظهر فى رأيه بين المتنصرين الهنود الذين يرجح انتماؤهم فى الاصل الى أجداد كانوا يدينون بنحلة من نحل الاسلام

وقد ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الاسلام والغرب ثم ترجم الى العربية باسم الاسلام فى نظر الغرب ونشر منذ شهور قليلة ، وقام بترجمته الدكتور اسحاق موسى الحسينى من فلسطين

يقول الاستاذ « فيليب حتى » ان الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدان وبينهما جماعة وسطى « تواجه عملية اختيار دائم » يتيسر فى المسائل الفنية والعلمية ويتعسر فى مسائل المجتمع ومشكلات المعيشة أو المشكلات الاقتصادية ، ويقول ان المتفرنجين من الترك قد غيروا لباس الرأس ولكنهم

لا يستطيعون أن يغيروا مافى داخل الراس بمجرد لبس القبعة وخلع الطربوش ، ويختم كلمته قائلا ان الدول العربية ليست جزءا من آسيا ... وعلى الغرب أن يقنع تلك الدول التى ترغب فى توطيد التفاهم مع الغرب أنها تنتسب الى تلك الثقافة .. اى الى الثقافة الغربية !

ويسهب الدكتور بايرد دودج المدير السابق للجامعة الامريكية فى ايراد الامثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على المطابقة بين الاسلام والعلم الحديث ، ومن مسائل العلم الحديث التى اشار اليها مسألة التطور والجراثيم ومسائل الاقتصاد التى تتناول المعاملة بالربا وما اليها ، ولكنه يقول ان الناشئة تنبذ فرائض دينها « ويلوح لى أن هوليوود قد أثرت فى الجيل الحاضر من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية »

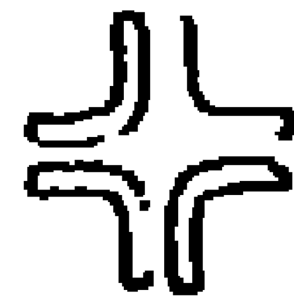
ثم يقول : « واليوم وقد أصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصرا قويا فى الفكر الاسلامى والمجتمع ، وهذا يؤدى بالطبع الى مناهضة فكرة الوحدة الاسلامية أو الخلافة وكون الاسلام أخوة منظمة — فالقومية قد حلت محل المظهر الدينى للوحدة الاسلامية الى حد كبير ، وغنى عن البيان أن الشبان المسلمين الذين لايبالون بالاسلام باعتباره نظاما عظيما هم الذين يغلب عليهم اعتناق الشيوعية ... »

وزبدة كل هذه الآراء ، ماكان منها لمحض العلم أو ماكان منها منظورا فيه الى التبشير والسياسة ، أن الغربى مشغول بأمر الاسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ماوراء هذه اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه ، وأهم مايهمه أن يعلم كيف يقف الاسلام غدا من مجاميع الامم الغربية والشرقية ، وكيف يكون مسلكه اذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذاك

ويقابل هذه النظرة ، أو هذه النظرات من الغرب . نظرة

أو نظرات مثلها من جانب المجموعة الاممية التى تسمى بالكتلة الشرقية ، وتدل نظراتها جميعا على تناقض غير مطـرد فى وجهته . فيرحبون حينا بنشاط القوميات لانها تفرق بين المسلمين فى البقاع المتقاربة ويرحبون حينـا آخر بنشـاط الوحدة الاسلامية لانهم يخشون العصبية القومية ولا ييأسون من تفسير الدين بما يوافق دعوتهم الاجتماعية

واذا صرفنا النظر عن « أهتمام البواعث » أو عن الشغلان الذى يبعث اليه حب المعرفة وحب الانتفاع بهذه المعرفة فى توجيه السياسات وتقرير المواقف الدولية ، فالحقيقة البينة أن الاهتمام شامل لجماهير الاقوام غير مقصور على معاهد العلم ومراجع السياسة ، واحدى ظواهر هذا الاهتمام شـيوع الطبعات الشعبية من ترجمة القرآن الكريم ، وأبلغ من دلالة هذا الشيوع أن يقول رجـل من رجال الدين وهو يقـدم المختارات من آى القرآن انه اذا لم يكن كتابا فهو صوت قوى حى Strong Living Voice ... وهو غاية ما ينتظر ممن ينكر الكتاب (١)



(١) من مجموعة الكتب المقدسة فى العالم للقس بوكيه !
Sacred Books of the World by Bouquet.

# آسيا وأفريقا

وكل بحث فى مستقبل المسلمين يستتبع البحث فى مستقبل القارتين آسيا وافريقية على الخصوص ، لان تسعة اعشار المسلمين يسكنون هاتين القارتين ، وحولهما تحوم اليوم مطامع الاستعمار والاستغلال والتبشير

وجملة مايقال فى آسيا أن شعوبها أضخم من أن تبتلع فى بنية شعب آخر ، وجملة مايقال فى افريقية أنها أبعد أصلا من أن تندمج فى الغرب وهى قائمة على تربتها

انما ينظر فى هذه وتلك الى عاقبة السيطرة الثقافية ؛ ولانعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العلم الحديث ، فان الامم التى تتقدم فى العلم الحديث لا تقع تحت سيطرة أمة من جراء ذلك ، وقد تتغلب بعلمها على السيطرة الاجنبية ان كانت واقعة فى قبضتها

وانما نعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العقيدة من جانب المذاهب الاجتماعية أو من جانب التبشير

ان الدول الكبرى التى تتجاذب سياسة العالم هى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وروسيا الشيوعية

والظاهر أن سياسة بريطانيا فى القرن العشرين أن تتراجع عن آسيا ، وعن الشرق الاقصى خاصة ، وتترك ميدان السباق فيه للروس والامريكيين ، ثم تلوذ بمفترق الطرق بين القارات الثلاث فى آسيا الغربية ، أى فى بلاد العرب التى تمتد من العراق الى البحرين الابيض والاحمر

أما السيطرة الروسية فهى تقوم على نشر الشيوعية . وهى مذهب لايوافق الاسلام فى أساسه ولكن الاسلام يغنى عنه اذا اتبع المسلمون قواعد المساواة والانصاف وعملوا بأصول دينهم فى التوسط بين التهالك على الدنيا والاعراض عنها ، وينبغى أن نذكر فى هذا المقام أن بلاد الروس وما جاورها هى قطعة من أوربا أخذتها آسيا من زمن غير بعيد ، وقد يحـــدث فى المستقبل تكرار لهذه الظاهرة على صورة أخرى ويكون للاسلام شأن كبير فى هذا التكرار

وتتسابق الدولتان الروسية والامريكية على المناجم وينابيع النفط ونقط الاستحكام فى هذه القارة الواسعة ، ومآل كل ذلك حتما الى أبناء البلاد لان حبل الزمن أطول من حبل المال وحبال السياسة ، وذلك على شرط واحد وهو الاحتفاظ بكيان الامة وقوامها ، وليس فى آسيا قوة روحية أقدر من الاسلام على حفظ الكيان والقوام للأمة التى تؤمن بدينه

أما بلاد العرب حيث تتراجع الدولة البريطانية فقد أحيطت بحلقات من المشيخات والسلطنات تتعاقد معها بريطانيا على ضروب من الحماية المقنعة ، وتحسب من وراء ذلك حساب المواصلات وآبار النفط ومواضع الاستحكام العسكرى فى حالة الحرب العالمية ، ولكنها لا تهمـل حساب التبشير ولا تنـكر مسعاه فى حمايتها ، وهذه عبارة فى سلسلة السيطرة العالمية تدل على كثير

يقول هارولد ستورم فى كتابه الى أين ياجزيرة العرب(١) :

« ان قبائل الجبال وراء ظفار ـ وهم من سلالة مخالفة كل المخالفة ـ تستخدم لهجات غير عربية كالشحرية والمهـرية والبوطهارية والخرسوسية ، وكل لهجة من هذه اللهجـات لا يفهمها المتكلمون باللهجات الاخرى ، وقد تمكن العالم اللغوى

---

(١) Whither Arabia, by Harold Storm
من سلسلة «World Dominion survey series»

الالماني الدكتور مكسمليان بثنر Bethner من رسم اللهجتين الشحرية والمهرية بالكتابة وهما على مايلوح لى على قرابة من احدى اللغات الهندية حيث تدل بعض الروايات على هجرة سابقة من الهند الى ظفار ولا تزال ثمة عادات قريبة من عادات الهنود ، وقد اضطررت الى استخدام مترجم بين هذه القبائل حين عشت فى بلادها ، وتبين لى من صعوبة اللغة أن العمل بينها ــ أى عمل التبشير ــ عسير

« ولما كانت ظفار على بعد خمسمائة ميل من مسقط تحت سيادة سلطانها فكل محاولة لتكوين العمل هنا تستلزم لامحالة رجوعا الى العمل الذى تأسس فى مسقط نفسها ، ويدعو موقف السلطان الودى فى الوقت الحاضر الى الامل فى الانتفاع بهذه الفرصة لانجاز شيء . اذ تتنقل بعثات التبشير بغير عائق فى عمان ويرجى من تعزيز مركز مسقط مزيد من العمل ، وهناك فى داخل عمان قبائل لا حكم عليها للسلطان نجحت بعثات مسقط فى حمل رسالة الانجيل اليها على نطاق أوسع مما تيسر قبل الآن فى أى مكان »

أما القارة الافريقية فقد أحيطت كذلك بحلقات من الجهات الاربع تسيطر عليها الدولة البريطانية ، وتكاد المصنفات الكثيرة عن هذه القارة أن تجمع على اعتبارها فى عالم الاستعمار « حظيرة خاصة » ببريطانيا العظمى ، وأحد هذه المصنفات صريح بهذا المعنى فى عنوانه وهو « افريقية امبراطورية بريطانيا الثالثة «Africa, Britain's third Empire» من تأليف جورج بادمور Padmore

وقد ظهر باللغة الانجليزية فى السنوات الاخيرة أكثر من مائة كتاب عن القارة الافريقية ، وبعض عناوينها ينم على مبلغ الامل والحذر من هذه الجهة التى احاط بها الظلام الى أوائل القرن العشرين

من عناوين هذه الكتب عنوان « الامل فى افريقية » لمؤلفه آلبورت ، وعنوان « افريقية الغربية الجديدة » لاربعة مؤلفين ، وعنوان « الافريقى اليوم وغدا » لمؤلفه ديديرنج وسترمان ، وعنوان « قضية الحرية الافريقية » لمؤلفه جويس كارى ، وعنوان « افريقية تنهض » لمؤلفه . و . م . مكميلان ، وعنوان « قارة الغد » لمؤلفه بطرس بن ولوسى ستريث .. وهكذا وهكذا عشرات من التصانيف الجديدة تتلوها عشرات

ومامن كتاب من هذه الكتب خلا من ذكر الاسلام والتحدث عن سهولة انتشاره بين الشعوب الافريقية ، ونجتزىء بنماذج من هذه الاشارات للدلالة على السياسة التى قد توحيها معلومات القوم عن اثر هذا الدين فى مستقبل الافريقيين

يصف وسترمان دين الاسلام وصفا غريبا يعلل به قابلية الشعوب الفطرية للاصغاء الى دعوته ، فيقول عنه انه دين مذكر أو دين ذو رجولة Masculine يعجب الافريقى ببساطته وقوته ، ثم يقول « ان المسلم لايهبط الى مثل هذا الاقتداء الخاضع الذى يهبط اليه الزنجى الوثنى ، فبينما يفخر الزنجى الوثنى اذا اتيح له أن يلف نفسه بخرقة عتيقة يلقيها الاوربى اليه ويعرض نفسه للسخرية بهذه القدوة الهزلية ــ لايخطر على بال المسلم أن يستبدل ملابس الاوربيين بردائه الفضفاض وقلنسوته السعفية »

ويضيف الى ذلك أن الاسلام متى بدأ فى مكان لم ينتظر مددا من الخارج للتوسع فى جواز ذلك المكان ، فمعظم التبشير به افريقى لايحتاج الى معونة من غير الافريقيين

وقد الف الاستاذ نادل Nadel النمسوى أستاذ علم الاجناس البشرية بجامعة النمسا الوطنية ــ كتابا مفصلا عن عقيدة النيوب فى بلاد النيجر وأثر الاسلام فيها قال فيه : « أن الاسلام يطوى جميع العقائد والشعائر ويلحق به الاتباع ولا

يدعهم شراذم هنا وهناك ويتطلب الايمان التام ولايكتفي بعلامات الموافقة والمجاراة »

ويقول البروفسور مكميلان فى كتابه « أفريقية تنهض » Africa Emergent « ان الجانب الاسلامى فى بلاد النيجر قد أنمى فيه مايحسب الآن ثقافة مقررة بمعنى الكلمة الصحيح ، وقد تلقت هذه الطوائف حكمة جمة قد يكون القليل منها اليوم هو الحقيق بأن ينسى »

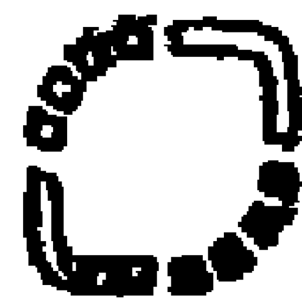
وبديه أن كل اعتراف من هذه الاعترافات يستتبع وراءه خطة الحذر والحيطة للمستقبل ، ولكن المستقبل سيكشف للافريقيين ولاريب حيلته فى مقاومة هذه الخطط أو محاذرتها واتقائها من جانبه

أما الامل الذى يتخايل أمام المستعمر البريطانى فى هذه القارة فهو تأليف دولة شاسعة من ولايات متحدة تتصل كل مجموعة منها مع المجاميع الاخرى بصلة المحالفة ، وقد شرح صاحبا كتاب « قارة الغد » برامج هذه الولايات . وقالا ان مصلحة الاوربى والافريقى فيها لاتتعارضان ولا تتناقضان بل تتوازيان ، وان افريقية اما أن تحكم على هذا المثال أو تصير فى نصفها الجنوبى على الاقل وطنا مدمجا فى الشعوب الشرقية التى تهاجر اليها وأكثرها من الهنود ، وقد تطمع الشيوعية فى استخلاصها لها من مصير كهذا أو مصير كذاك

ويوشك الرأى الغالب على هذه المصنفات أن يتجه الى غاية واحدة : وهى ادخار افريقية لتزويد الامم الغربية بمواد الغذاء وخامات الصناعة ، مع بعض الرجاء فى العثور على المعادن والزيوت فى باطن أرضها ، حيث يتيسر تصنيعها الى جانب مناجمها

وقليل من الكتاب الغربيين من يطيب له أن ينظر بعينيه جميعا مفتوحتين الى الغد الذى لا مهرب منه فى قارة « الغد »

كما يسمونها . فمهما يبلغ من نجاح خطط الاستعمار أو التبشير فلن تكون افريقية فى النهاية لغير الافريقيين ، ومن داخلها سيخرج لهم من ينتزع سيادتها من أيديهم ، ومن يناصبهم العداء لانهم قد استأثروا دونه زمنا بهذه السيادة ، ولا يسره يومئذ أنهم استعمروه أو بشروه



# لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثيل التى تعاد ولا تمل أمثولة للكاتب الروسى ( ديستيفسكى ) عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش فى قصة الاخوة كرامزوف

وخلاصة الامثولة أن السيد المسيح عاد الى الارض واخذ فى وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ! .. وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ القضاء فيك

أمثولة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضى فى حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله فى أحاديث المصلحين والمفسدين

ولم يبالغ الكاتب العظيم فى تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان ماتخيله بعيدا أو غريبا فى بابه ، ولكنه فى الواقع أقرب شىء الى الاحتمال مع هذه البشرية التى تختلط فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية فى وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها والعوبة فى أيدى العابثين بها ، وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه

وينتحلون هدايته

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام ، والاسلام برىء منهم ، وكل ماهنالك من خلاف أن المسألة لاتمر بتلك السهولة التى توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى فى الاسلام لمثل عمله ، وانه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير

وأسأل نفسى كيف ينتفع المسلمون على احسن وجـوه النفع بعودة النبى عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وماهى المسائل التى يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسى فتخطر لى مسائل خمس يرجع فيهـا الى شخصه الـكريم ويغنى جوابه فيهـا كل الغنـاء فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد فى هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هى : مسألة الاحاديث النبوية ،ومسألة الروايات فى قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقول نبى الاسـلام فيها

## مسألة الاحاديث النبوية

أن رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشـكور فى جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون

وبعد كل هذا الجهد المشكور لاتزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة فى الكتب وعلى الالسنة

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث ! » وينتهى القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئـك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب فى التضـليل وترويج الاباطيل

## قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث فى أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التى لم يتفق عليهـا القراء لاتغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر فى ذلك ولا ضرار

الا أنها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبى الذى تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القـراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته ــ فى عصر التسجيل ــ فتلك ذخيرة الابد فى ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون فى مجالس الذكر الحكيم

## الخلافة والملك

وتأتى مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة

تلك المعضلة التى سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره فى الاسلام حين نذكر السـنة والشـيعة والاماميين والزيديين والاسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكـر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم من المنقسمين وأقسام المنقسمين

بم أوصيت يارسول الله فى أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أم دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أم على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هى بيضاء من غير سوء ، واذا هى بقية من بقايا الماضى تحال الى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بهما حيث لا حس ولا خبر

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال

## الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا فى مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع فى هذه المسألة واحد فى كل خمسمائة مسلم ، وسينتهى خلافهم عما قريب

ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذى يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هى النهاية الفاصلة ، وقد تمنع فى المستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها فى الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد !

## المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يارسول الله فى دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة الى السؤال عن الديمقراطية ، فان سابقة الاسلام فيها أصلح من كل سابقة

ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين

ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة فى كل دين

وانما يسأل النبى عليه السلام فى الاشتراكية فيقول ماقاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول

وتأتى على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين فى الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشـــباه الصحفيين

ويسمع من النبى عليه السلام فى أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب

ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين

ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان فى الاقناع

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه أناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس فى رائعة النهار

وليس بالمستحيل عندى أن يعاندك المعاند ويكابرك المكابر فى « أثنين واثنين يساويان أربعة وفى واحد وواحد يساويان اثنين »

بل ليس بالمستحيل عندى أن يكابرك المكابرون فى معنى الواحد ومعنى الاثنين وأن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام

فاذا عاد النبى عليه السلام وقضى قضاءه فى أحكام الاسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك فى كلامه وبيانه وفى ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج فى العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون فى الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد فى الاولين والآخرين ، فما هو الا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لايهتدون ، فلا يصدون احدا عن الدنيا ولا عن الدين !!

# التراث الاسلامى

## ووسائل احيائه فى هذا العصر

احياء التراث الاسلامى لابد له من عملين متلازمين يتوقف احدهما على الآخر

أحدهما نشر الكتب والآثار الاسلامية فى جميع الاقطار التى تقرأ لغة العرب

والثانى ايجاد الرغبة فى قراءة هذه الكتب والاحاطة بهذه الآثار ، أو تنشيط هذه الرغبة اذا كانت موجودة على حالة من الضعف والفتور ، اذ لايكفى نشر الكتب والآثار لاحياء التراث الاسلامى اذا نحن نشرناها بين أناس لا يحفلونها ولا يقبلون عليها ولا يشعرون بالحاجة الى دراستها والالمام بها

وكثيرا ماتكون طريقة النشر سببا من أسباب الترغيب فى القراءة والتنشيط اليها ، وكثيرا ماتكون الرغبة فى القراءة والنشاط اليها سببا من أسباب العناية بالنشر والتوفر على وسائله المثلى . ومن ثم نقول أن احياء التراث الاسلامى يحتاج الى عملين متلازمين ، وأن كل عمل من هذين العملين يتوقف على الآخر

وعندنا أن الوسيلة المثلى لايجاد الرغبة فى احياء التراث الاسلامى هى مزجه بالحياة الحاضرة وتحويله الى مجراها ، فلا يشارفه الانسان كما يشارف متحفا قديما للآثار المحفوظة بل يشارفه كما يدخل فى معترك الحياة وينغمس فى تيار الشعور

والعاطفة وليس ذلك بعسير اذا حسنت المطالعة وحسن الاختيار وحسن التنبيه

(٤)

فالتراث الاسلامي عامر بسير العظماء والابطال ، وكل واحد من هؤلاء العظماء والابطال له حياة ، وله أشواق ، وله همومٌ، وله وثبات بين الرجاء وبين النجاح والاخفاق ، ونعيد هذه الحقيقة بعبارة أخرى فنقول ان كل عظيم من عظماء الامم الاسلامية وكل بطل من أبطالها صالح لان يصبح مدار قصة أو حادثة كهذه القصص أو كهذه الحوادث التي نقرؤها ونشاهدها فتهز نفوسنا وتنطبع في خواطرنا وتصبح حية بحياتنا عصرية بانتقالها الى عصرنا ومشابهتها الوقائع والاحداث التي تجرى بيننا

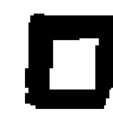
التراث الاسلامي عامر بالحركات الاجتماعية التي تحتاج منا الى فهم جديد وتفسير جديد ، فاذا استخرجنا هذه الحركات الاجتماعية وعرضناها وفسرناها على الوجه الامثل ، فسنرى يومئذ أنها حركات حية تشبه كل الشبه مانراه بأعيننا أو مانقرؤه في الانباء البرقية والصحف السيارة ، وسنرى يومئذ أن عالم التاريخ الماضي وعالم الحياة الحاضرة يلتقيان أقرب التقاء، ويتعاونان في افهامنا حقيقة الماضي والحاضر على السواء ، فرب مسألة عصرية لا نفهمها حق فهمها الا اذا قارناها بمسألة مثلها في العهود الغابرة ، ورب مسألة غابرة لانفهمها حق فهمها الا اذا ضاهينا بين أسباب اليوم وأسباب الامس ، ورجعنا الى البواعث المشتركة بين ماكان وبين ماهو كائن ، فنحس ونحن نقرأ أننا لانتقل الى عالم التاريخ الدابر بل ننقل التاريخ الدابر الى عالمنا الذي نعيش فيه ونضطرب بالرجاء والكفاح في نواحيه

والتراث الاسلامي عامر بالفكاهات والنوادر والاحاديث التي لا زمان لها لانها انسانية تصلح لكل زمان ولا تختلف باختلاف

البلدان والاطوار ، فاذا بحثنا عنها وجمعناها وجدنا أنها صالحة لوقتنا كما كانت صالحة لاوقاتها التى جرت فيها ، لان الطبيعة الانسانية فى أساسها قلما يطرأ عليها التغير فى عناصر الفكاهة والعبرة ومقاييس الفطنة والبلاغة ، فالنادرة البارعة والجواب السريع والفكاهة الحسنة والكلمة النافذة هى بنت كل زمان يعيش فيه الانسان ، وليس بالمتغير عليها مع تغير التواريخ الا طريقة العرض والتناول دون المعدن الاصيل

والتراث الاسلامى عامر بالشعر « الغنائى » والمقطوعات الباهرة والشواهد السيارة ، ومنها ماليس يحتاج الى غير النقل والتعليق اليسير ليلقى نصيبه من الرواج والاعجاب ، ومنها مايحتاج الى تعليق يجعل الفائدة منه فائدتين والرغبة فيه رغبتين ، يقرؤه القارىء ليستوعب محاسنه فهــذه فائدة ، ويقرؤه ليدرك الفرق بينه وبين مايقابله من آداب الامم الاخرى أو من آداب العــرب فى العصر الحاضر فهـذه فائدة أخرى

وهذه عندنا هى وسائل « احياء التراث الاسلامى » اى نقله الى عالم حياتنا وتحويله الى مجرى زماننا ، وتمثيله للقراء كى يشارفوه كما يشارفون الدنيــا الحية لا كما يشــارفون المتاحف المزوية . فهو يحيا بنا ونحن نحيا به فى آن



من الذى يقوم بهذا الواجب ؟ ؟

جماعات أو أفراد لا يستغنون عن جهد الجماعات ، وسنبين لحضرات القراء فيما يلى أن الادب العربى خاصة ــ سواء أكان قديما ام حديثا ــ احوج الآداب الى جهود الجماعات التى لاتغنى فيها أعمال الافراد المتفرقين

فعلى الحكومات قبل كل شىء أن تقبل فى بلادها المختلفة على

احياء ماعندها من المخطوطات المتروكة أو المطبوعات الكاسدة ، وعليها أن تربط بين هذا العمل وبين قوانين الانتاج الناجح فى سوق الاعمال الاقتصادية ، فلا تلقى به الى موظفين مطمئنين الى مرتب مضمون كيفما كان مصير عملهم من النجـاح أو الخيبة ، بل تنوط به أناسا يعنيهم رواجه وكساده ويهتمون به اهتمام الزارع بمحصوله والتاجر بكسبه ، وتجعله مقرونا الى بعض الشركات على نحو تشترك فيه الغيرة على الادب والغيرة على الرواج

وهناك اقسام كثيرة لاحياء التراث الاسلامى غير مجرد الطبع والاذاعة ، فمن الكتب ما يطبع كمـا كتبه مؤلفوه ، ومنهـا مايختار منه الاصلح والادنى الى التشويق ، ومنها ما يشفع بالتعليق أو التفسير ، ومنها ـ وهو أصعب الاقسام جميعا ـ ما يحتاج الى المقارنات بينه وبين نظائره فى الامم الاخرى ، والى الملاحظات عن البواعث والاسرار التى لا يقتصر العلم بها على العلم بالشئون الاسلامية

وعلى الحكومات الى جانب هذا أن تهتم باقامة المؤتمرات والمحافل فى مناسباتها المتجددة ، كذكرى الادباء والعلمـاء والعظماء ، وافتتاح المعاهد التى تعنى جميع الناطقين باللغة العربية ، وتكريم النابهين وتبادل الزيارات ، وما الى ذلك من المناسبات التى تلفت الانظار وتجذب الاسماع وتخلق بواعث الرغبة فى الاطلاع

وقد أسلفنا أن الادب العربى أحوج الآداب الى جهود الجماعات لان اللغة العربية موزعة بين أقطار عدة وحكومات شتى على خلاف اللغات الاخرى التى تشتمل كل منها على أمة واحدة أو أمتين كبيرتين تستغنى احداهما عن الاخرى

فالكتاب الانجليزى له ـ على سبيل التمثيل ـ مائة الف

قارىء يتبعون حكومة واحدة ويتعاملون بنظام واحد ويتبادلون الاخذ والعطاء فى ظل دولة واحدة ، ويكفى أن يطبع الكتاب فى لندن أو فى نيويورك ليعتمد على قرائه فى انحاء الدولة البريطانية أو فى انحاء الولايات المتحدة بغير حاجة الى أمة خارجة عن هذا النطاق

أما الكتاب الذى يطبع فى القاهرة فلابد له من طابع قادر على معاملة أناس متفرقين فى عشرة أقطار ، وحكومات بينها من الاختلاف مثل مابين مراكش والعراق أو مابين سورية والسودان أو مابين طرابلس وحضرموت ، وأين هو القلب الواحد الذى يحرك الدم فى جميع هذه الشرايين من أدناها الى أقصاها ان لم يكن قلبا كبيرا يتجاوز طاقة الفرد الواحد الى طاقة الجماعة القوية بالمال والنفوذ ؟

بل خذ مصر وحدها تعلم أن الجهود الثقافية فيها تكاد تنحصر فى القاهرة ولا تتعداها الى سائر المدن الموزعة بين الاقاليم ، فالاسكندرية خلو من مكتبة عربية كبيرة ، ودع عنك طنطا والمنصورة وأسيوط وأسوان ، ويرجع هذا الى قيام الافراد بالطبع والنشر دون الشركات الواسعة النطاق ، فان الشركة تستطيع أن تسير الباعة فى الاقاليم مرة كل اسبوع أو مرة كل شهر لتوزيع الالوف المطلوبة من الكتب هناك ، ولكن الفرد الواحد لا يستطيع أن يدير مكتبة فى البلدة الصغيرة من أجل عشرين نسخة من كل كتاب جديد لايدرى متى يكون صدوره ولا من يتولى اصداره وهل هو صاحب المكتبة التى يعاملها أو هو صاحب مكتبة غيرها ، وقس على ماتقدم سائر المصاعب والعراقيل

وخلاصة الرأى أن احياء التراث الاسلامى انما يتأتى بأعمال ثلاثة هى (١) اظهار ذلك التراث ، (٢) تنشيط الرغبة فيه بتحويله الى مجرى الحياة الحاضرة وتقريبه من شواغل الاذهان

والنفوس فى الزمن الحديث ، (٣) تنظيم النشر والتوزيع على أيدى جماعات قوية يتسنى لها ماليس يتسـنى للافراد من توحيد المعاملة وتوسيعها بين الجهات المتنائية والحكومات المتباينة وسيكون هذا العمل العظيم مفيدا للقائمين به ولابناء الامم العربية كافة ، أيا كان معنى الفائدة الذى نتوخاه



# الغد

والغد غيب مجهول !!

ولا حاجة بنا الى التنجيم عن حوادثه وصروفه ، فانه بأية حال لن يخلو من الحوادث والصروف ولن تخلو حوادثه وصروفه من سلم وحرب ونصر وهزيمة ودول تعلو ودول تهبط وعلاقات تتصل وعلاقات تنفصل ، وصداقة تنقلب الى عداوة وعداوة تنقلب الى صداقة ، وتكرار على نسق الماضى وبدع جديد كأنه من الماضى المتكرر ، فما خلا زمن قط من بدع جديد

انما نحن آمنون اذا واجهنا الغد المجهول بعدته ، وانما نحن مستعدون له بخير مانستطيع اذا خرجنا من الماضى الطويل بعبرته الوافية ، وعبرته الوافية أن العقائد أثبت من السياسات وأن الامم أثبت من الدول ، وأن الجاهل أعدى لامته من اعدى أعدائها ، وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمار كما نكب من أبنائه الجهلاء

ولا نرجع الى الف سنة مضت منذ ابتدأت الحروب الصليبية لنرى مصداق هذه العبر واحدة بعد واحدة

كفى أن نرجع الى أول هذا القرن العشرين ولما ينصرم منه غير نصفه أو أكثر من نصفه بسنوات . فقد كانت فى أوله دول يخشى منها على قارة كاملة ، وكانت فيه دول تشبثت بكل بقعة من بقاع المشرق اقصاه وأدناه ، وكانت فيه دول

تعتزل العالم القديم وتطلب من العالم القديم أن يعتزلها ، فتغيرت المواقف وتغيرت السياسات وتغيرت الدول وتغيرت العلاقات ، وقاتل الناس فى صفوف ثم قاتلوا فى غير تلك الصفوف ، ولم تتغير معالم الارض ولكن تغيرت الحدود وتغيرت الدول التى تقوم بين تلك المعالم والحدود

فمهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها

ومهما تكن الدولة فالأمة هى الباقية

ومهما يكن الخطر فالجهل فى كل معترك ومع كل خصم أو منازع هو أخطر الاخطار

واذا بقى للاسلام ايمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول ، وأخطر من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء

ومثل من امثلة الجهل والغباء أن يطول اللجاج ويحتدم الهياج على التحريم والتحليل ، ومحصول ذلك كله أهون من خطر اللجاج وخطر الشقاق والهياج

ان الجهل الذى يغرى صاحبه بتحريم البرق واتهام العاملين فى الكهرباء بمحالفة الشيطان لهو أخطر على الاسلام من كل حلال وحرام

ولقد تطول الاقاويل فى حل التماثيل وتحريمها وفيما هو تمثال وليس بصورة أو ماهو صورة وليس بتمثال ، ولكن التماثيل والصور على اختلاف أوصافها وتعريفاتها قد وجدت بين ابناء الاديان من المسيحيين واليهود والبراهمة والبوذيين ولم نسمع قط أنهم سجدوا لتمثال بطل عظيم أو تعبدوا لضريح نابغ مشهور ، وليست عقيدة المسلم بأضعف من عقائد الاديان عن مدافعة هذه الاخطار ان خيفت منها الاخطار ، فلا يمتنعن البحث فى الحلال والحرام ولا فى الصحيح والباطل

من عقائد المعتقدين ، ولكنه اذا بذل فيه من الجهد فوق حقه ، واضعاف خطره ، فذلك هو الخطر الاكبر وذلك هو الجهد العقام ، واحتفاظ المسلم بايمانه امام هذه المحرمات أيسر جدا من احتفاظه بالايمان أمام جاهل يكفر القائلين بدوران الارض او تسخير الكهرباء أو الاستماع الى المذياع من غير ذى صوت منظور ، ثم يزعم أنه يفتى بحكم الدين فيصــدقه من يجهل الدين ويكفر بالدين من يحمل عليه جريرة فتواه

ولا خطر على المسلمين أوبل من هذا الخطر ، فاذا اتقوه وعاذوا بالايمان على علم وبصيرة فلا خطر عليهم من الدول والسياسات ، ولا من ذوات اليمين ولا من ذوات اليسار

ولا ينسين المسلمون انهم مجموعة من الامم فى عصر المجموعات وان لم يكن عصر الجامعات كما عرفت قبل هذا القرن العشرين

لا ينسين المسلمون أنهم مجموعة من أمم العالم فان العالم لا ينسى هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويتذاكرها ويرتب عليها ما يرتبه من الخطط والمواقف بازائها

وعصر المجاميع غير عصر الجامعات ، أو هكذا تتمثل لنا المجاميع والجامعات باصطلاح الزمن مع التقارب بينها فى مادة اللغة العربية ، فالمجموعة قائمة سواء ارادها اصحابها أو لم يريدوها ، والجامعة لا تقوم الا اذا أريدت لغرض مقصود ، وغالبا مايكون هذا الغرض وحدة فى الحكم أو فى السياسة أو فى مشروع من مشروعات المحالفة والمعاهدة

والاسلام شاء أو لم يشأ مجموعة بين مجاميع الامم الكبرى فى القرن العشرين ، وليست مجاميع الامم مقصورة على الكتلة الشرقية التى يتزعمها الروس أو الكتلة الغربية التى يتزعمها الامريكيون والانجليز ، ولكنها أكثر من ذلك وأحق أن تعرف جميعا أو يعرف بعضها على سبيل التمثيل ثم يقاس عليه

فالمجموعة الشرقية والمجموعة الغربية معا تتخللهما مجموعة

واحدة يمكن أن تسمى بمجموعة الكنيسة الرومانية ، ويظهر موقف المجاميع فى هذا العصر من موقف الكنيسة الرومانية بين الكتلتين

ان الكتلة الغربية يقودها انجيليون ، والكتلة الشرقية يقودها اناس يقضون على الكنيسة الروسية الكبرى . ومن هنا يتميز موقف الكنيسة الرومانية وتحرص على بقاء أتباعها من امم العالم على حدة فى الشئون الروحية ، ومن هنا أيضا تظهر فى أمريكا الجنوبية وفى أوربا الوسطى وأوربا الغربية برامج فى السياسة لاتنضوى كل الانضواء الى الكتلتين ولا تنفصل عنهما كل الانفصال

ومجموعة الامم الاسلامية مقصودة ، ولابد أن تقصد ، بخطة واحدة فى بعض الاحوال

فاذا غفلت عن هذا الامر الواقع أصابها مايصيب كل غافل عن الامر الواقع ، ولكنها لاتتنبه له بداهة لتجتمع على عدوان فى الاستغلال أو على عدوان فى التبشير ، وانما تتنبه له لتدفع العدوان من هذه الجوانب كافة ، وتجعل لها صوتا مسموعا فى كل سياسة تصاب بها على سوء النية أو حسنها ، وتربأ بنفسها ان تكون بحيث كانت تيم فى رأى الشاعر :

ويقضى الامر حين تغيب تيم     ولا يستأمرون وهم شهود

ومتى استطاعت هذه المجموعة العالمية أن تسهم فى أمانة « الانسانية » وأن تعطيها من عندها ولا تعيش عالة عليها ، وأن تؤدى رسالتها للحضارة والسلام وأن تفرض وجودها على من يهملونها ولا يحسبون حسابها فذلك حق الاسلام منها ، وحقها هى من الاسلام

وامامها على الدوام « ايمان على هدى وبصيرة » ولا خذلان لمن يقتدى بهذا الامام !!

# الفهرس

صفحة

# كتاب الهلال

## سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى سلسلة ثقافية كبيرة قامت بنشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد ( نفد )
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب ( نفد )
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى ( نفد )
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء ( نفد )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ أشعب أمير الطفيليين ( نفد )
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان ( نفد )
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف ( نفد )
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية ( نفد )
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد
٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل ( نفد )
٢٣ ـ مذكرات عرابى
( الجزء الاول ) ( نفد )
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٤ ـ مذكرات عرابى ( جزء ثان )
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٥ ـ عبقرية عمر ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٢٦ ـ آمنة بنت وهب ( نفد )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والاخرة
تأليف توفيق الحكيم
٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى
٣٠ ـ البؤساء ( نفد )
تأليف فيكتور هيجو
٣١ ـ علمتنى الحياة ( نفد )
لنخبة من علماء الشرق والغرب
٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى
٣٣ ـ مدرسة المغفلين ( نفد )
تأليف توفيق الحكيم
٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
( نفد )
٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران
٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان
٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر
٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جماتى
٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم
٤٢ ـ الله ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز
٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان
٤٥ ـ نساء النبى ( نفد )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور
٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم
٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب
٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج
٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد
٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
٥٣ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الاول ) ( نفد )
٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٥٥ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الثانى )
٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم
٥٧ ـ ألف ليلة وليلة
( الجزء الثالث )
٥٨ ـ معاوية بن أبى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
٥٩ ـ ألف ليلة وليلة
( الجزء الرابع )
٦٠ ـ اعرف نفسك ( نفد )
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٦١ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الخامس )
٦٢ ـ مع الله .. فى السماء ( نفد )
تأليف الدكتور احمد زكى
٦٣ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء السادس )
٦٤ ـ قصة الثورة كاملة ( نفد )
تأليف أنور السادات
٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٦٧ ـ عبقرية الامام على ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٦٨ ـ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد
( نفد )
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ـ محمد الرسول البشر ( نفد )
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم
٧٥ ـ قصة الثورة كاملة ( نفد )
تأليف أنور السادات
٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ ـ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ـ البؤساء ( طبعة جديدة )
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم
٧٩ ـ أخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ـ قصة الوحدة العربية ( نفد )
تأليف أنور السادات
٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ـ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ـ سارة
بقلم عباس محمود العقاد

٨٧ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد أبو حديد
٨٨ ـ يا ولدى .. هذا عمك جمال
بقلم أنور السادات
٨٩ ـ ابليس
بقلم عباس محمود العقاد
٩٠ ـ جبران خليل جبران
بقلم ميخائيل نعيمة
٩١ ـ روائع شكسبير ( الجزء الاول )
تلخيص شارل ومارى لام
٩٢ ـ سكينة بنت الحسين
بقلم الدكتورة بنت الشاطىء
٩٣ ـ روائع شكسبير ( الجزء الثانى )
تلخيص شارل ومارى لام
٩٤ ـ روائع شكسبير ( الجزء الثالث )
تلخيص شارل ومارى لام
٩٥ ـ آخر الطريق
بقلم أمينة السعيد
٩٦ ـ دروس من القرآن الكريم
للاستاذ الامام محمد عبده
٩٧ ـ حديث عيسى بن هشام
( الجزء الاول )
بقلم محمد المويلحى
٩٨ ـ حديث عيسى بن هشام
( الجزء الثانى )
بقلم محمد المويلحى
٩٩ ـ مذكرات نجيب الريحانى
بقلم نجيب الريحانى
١٠٠ ـ ليالى سطيح
تأليف حافظ ابراهيم
١٠١ ـ اعترافات شبابى
بقلم ليوتولستوى
١٠٢ ـ عجائب وأساطير
تأليف الدكتور شوقى ضيف
١٠٣ ـ المرأة فى القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
١٠٤ ـ الملك والثوار فى عربة
تأليف فتحى رضوان
١٠٥ ـ الدكتور زيفاجو ( الجزء الاول)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٦ ـ الدكتور زيفاجو (الجزء الثانى)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٧ ـ مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هيجو
ترجمة لطفى سلطان

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة ، وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذه السلسلة

# وكلاء مجلات دار الهلال

**لبنان و الاقليم الشمالي :** وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا
صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت

**العراق :** السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية
ببغداد

**اللاذقية :** السيد نخلة سكاف

**جدة :** السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

**البحرين :** السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١

**البرازيل :**
Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

**غانا :**
Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

**نيجريا :**
Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

**سيراليون :**
Messrs, Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

**سنغافورة**
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

# هـذا الكتاب

كتاب ضخم ، لا فى حجمه ، بل في مبناه وفيما اشتمل عليه من بحوث هامة رائعة عن الاسلام ، وعن قوته الغالبة منذ بداية عهده وعن قوته الصامدة حين ضعفت أممه بعد ذلك بعدة قرون ، وكيف انتشرت هذه العقيدة الشاملة شرقا وغربا ، وكيف غزت مختلف الاقطار ، وكيف اعتنقها الملايين • انه كتاب نفيس يحدثنا عن الاسلام والمسلمين • في مختلف الاجيال ، وفي متباين الاقطار والامصار ثم ينتهي بالقارىء الى الحديث عن الاسلام فى القرن العشرين

والاستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، مؤلف هذا الكتاب ، هو بلا مراء خير من يعالج مثل هذا الموضوع ، فقد عهدناه وعهده القراء في بحوثه العديدة باحثا مدققا ، لا يغفل ناحية من نواحي البحث الذى يعالجه ، وهو حين يحدثنا عن الاسلام انما يتحدث حديث الملم بجميع اطراف الموضوع ، ولهذا كان كتابه تحفة رائعة يهم كل مؤرخ وكل مسلم • وانه ليسر سلسلة كتاب الهلال ان تقدمه للقراء في مستهل شهر رمضان المبارك •

كتاب الهلال



# تيودورا الممثلة المتوجة

شارل ديل

الثمن ١٠ قروش

# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

---

**العدد ١٠٩ ـ شوال ١٣٧٩ ـ ابريل ١٩٦٠**

**No. 109 — April 1960**

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ للسعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ـ فى الامريكتين ٥١/٢ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

# تيودورا

## الممثلة المتوجة

---

تأليف

شارل ديل

ترجمة

حبيب جاماتي

---

# مؤلف الكتاب

ولد ميشل شارل ديل فى مدينة ستراسبورج بفرنسا سنة ١٨٥٩ . وبعد دروس منوعة ورحلات طويلة ، تخصص فى دراسة تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وتناوله من جميع وجوهه ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية والاثرية ، فاحتل بين المؤرخين مكانة سامية ، وأصبحت مؤلفاته مرجعا يعتمد عليه فى كل ما يتعلق ببيزنطة والدور الذى لعبته الامبراطورية الرومانية الشرقية ـ أو امبراطورية الروم كما يسميها العرب ـ فى تاريخ العالم

ولقد ظل شارل ديل نحو ستين سنة يبحث ويدقق ، ويكتب فى تاريخ هذه الامبراطورية العظيمة ، حتى مات فى سنة ١٩٤٤ عن خمس وثمانين سنة ، تاركا ذخيرة تاريخية خالدة

وكان من عادته الا يكتب شيئا الا بعد التحقق من صحته بالاطلاع على ما يتصل به من الوثائق المطبوعة ، أو المخطوطة ، وزيارة المتاحف والاماكن الاثرية . ومن هنا أصبح حجة فى كل ما يتعلق بالامبراطورية البيزنطية وأثرها فى حياة الشعوب ،وفى التطورات التى انتابت الشرق على الخصوص

ومن أشهر المؤلفات التى تركها : كتابه « درس فى الادارة البيزنطية فى ايطاليا » وقد فصل فيه تاريخ الحكم البيزنطى فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية تسيطر على ايطاليا مهد الامبراطورية الرومانية الغربية . وكتاب « رحلات فى الاماكن الاثرية باليونان » وقد بسط فيه تاريخ

الامبراطورية البيزنطية من خلال الآثار الباقية من ذلك العهد فى بلاد اليونان مهد الامبراطورية الشرقية . وكتاب « أفريقا البيزنطية » وهو تاريخ الحكم البيزنطى فى ليبيا والبلدان المجاورة لها . وقد ضم اليه تاريخ الحكم البيزنطى فى مصر منذ انهيار الحكم الرومانى حتى الفتح الاسلامى

وقد اجمع النقاد على أن كتابه « تيودورا امبراطورة بيزنطة » الذى نقدم ترجمته لقراء العربية هو أوفى وأصدق كتاب صدر عن تلك المرأة العجيبة ، التى حكمت الامبراطورية الرومانية مع زوجها جستنيان

وقد زار شارل ديل بلدان الشرق العربى التى كانت خاضعة للحكم البيزنطى فى وقت من الاوقات ، وهى مصروليبيا وسورية ولبنان وفلسطين وآسيا الصغرى وغيرها . وبحث ودقق ونقب فى المكتبات الخاصة والعامة : وفى الاماكن الاثرية ، والمتاحف وغيرها . ودون ثمرة جهوده هذه فى الكتب التى وضعها عن الحكم البيزنطى فى هذه البلدان . وقد كان له فى الشرق العربى أصدقاء كثيرون بين علماء الآثار والباحثين والمنقبين . وألقى قبل الحرب العالمية الثانية محاضرات عن بيزنطة فى مصر والآستانة وأثينا وغيرها من العواصم

وقد امتازت مؤلفات شارل ديل بأسلوبها السلس ، وتعد همزة وصل بين التاريخ والقصة . وهذا ماجعلنا نختار كتابه عن « تيودورا امبراطورة بيزنطة » لنقدمه فى سلسلة « كتاب الهلال »

# مقدمة بقلم المترجم

« تيودورا » .. شخصية من أعجب شخصيات التاريخ . ممثلة خرجت من بيئة وضيعة ، ثم ارتفعت الى أوج المجد ، وتربعت على عرش أعظم دولة فى عصرها . فهى جديرة اذن بأن يتناولها محبو الاطلاع بالدرس والتمحيص

والكتب التى ألفت عن حياة هذه الامبراطورة كثيرة ، وقد كتبت بمختلف اللغات ولكن الخيال كثيرا مايمتزج فى هـذه الكتب بالحقائق الثابتة . ومن هنا يصعب على قارئها ان يميز الحد بين الحقيقة والخيال ، وبين التاريخ والقصة

وحياة تيودورا موضـــوع مرن قابل للتحوير والتشـويه والابتكار . فقد اقترن أسم « الممثلة المتوجة » بسلسلة من الحوادث الرائعة التى اهتز لها العالم فى منتصف القرن السادس للميلاد . وانبرى الـكتاب يظهرون تيودورا فى صورة امرأة فاسدة فاجرة تارة ، وفى صورة قديســـة تقية طاهرة تارة اخرى . وبقيت الحقيقة تتأرجح بين الصورتين .. فتيودورا لم تكن هذه أو تلك ، وانما هى مزيج من الصورتين معا . غير أنها ، على كل حال ، أمرأة عظيمة حكمت أعظم امبراطورية عرفها العالم فى عصرها

وقد أعجبت بتاريخ هذه الامبراطورة وشخصيتها ، فطالعت كثيرا من الكتب والابحاث التى تناولت حياتها بالنقد والتحليل

وكان آخر ما طالعت عنهـا كتاب « تيودورا امبراطورة بيزنطة » للمؤرخ الفرنسي شارل ديل . وما ان انتهيت من

مطالعته حتى تبين لى أن كل ما يمكن أن يكتب عن تيودورا ـ الممثلة والمرأة والامبراطورة ـ قد تضمنه هذا الكتاب ، وأن مؤلفه قد قتل الموضوع بحثا ، فدون الحقائق والوقائع الثابتة ، وحقق الحوادث المشكوك فيهـا ، وأشار الى ما يعد اختلافا وخيالا ، فجاء بحثه خير ما يمكن أن يكتب عن تلك الممثـلة المتوجة فى جميع مراحل حياتها العجيبة ، وعن الاثر الذى تركته فى تاريخ الشرق الأدنى

وعلى هذا نقلت هذا الكتاب الى العربية . وها هو ذا الآن بين أيدى القراء . ولست أدرى أهناك كتاب آخر بالعربية عن « تيودورا » أم لا ، ولكن هناك رواية مسرحية للمؤلف الفرنسى « فكتوريان ساردو » نقلت الى العربية ومثلت على مسـارح القاهرة فى الماضى وقامت فيها الممثلة الكبيرة السيدة فاطمـة رشدى بدور تيودورا ، وقام الاستاذ حسين رياض أمامها بدور الامبراطور جستنيان ، وأخرج الرواية المرحوم فقيد المسرح العربى عزيز عيد

ولكن فكتوريان سـاردو لم يصور على المسرح شخصية تيودورا كما تبدو على حقيقتها من خلال وقائع التـاريخ الثابتة . بل أطلق لخياله الخصب العنان ، وحشا مسرحيته بالحوادث المثيرة والمشاهد العنيفة ، التى تجعل الرواية بلا شك من أقوى المسرحيات ، وان كانت فى كثير من تفصيلاتها لا تتفق والتاريخ الصحيح

وقد جاء فى بعض كتب التاريخ أن تيودورا مصرية الاصل . وجاء فى بعضها الآخر أنها سورية من حمص أو من حماة ، أو فينيقية من لبنان . وقد حاولت عبثا أن اتبين الحقيقة من خلال المطالعات العديدة ، على أن شارل ديل نفسه ، وهو الخبير المتخصص فى تاريخ بيزنطة ، يعترف هو الآخر بأنه عجز عن معرفة مسقط رأسها . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن ، بالتأكيد ، انها شرقية هبطت بيزنطة قادمة من أحد الاقطار

الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، اى من آسيا الصغرى ، أو من سورية ، أو من لبنان ، أو من مصر !

وحياة تيودورا صفحة من تاريخ الشرق حافلة بالمآثر ، والأحداث ، فقد كانت شديدة الاهتمام بالنهضة النسائية ، وتحسين حالة الرعية ، والقيام باصلاحات اجتماعية وعمرانية ، وقد اختلفت مع زوجها ثم أقنعته بوجوب الاعتماد على محبة الشعب وولائه ، بدلا من الاعتماد على القوة الغاشمة للبطش بالشعب وارهاقه وارهابه . ولا عجب فتيودورا هى ابنة الشعب التى أصبحت سيدة الشعب ، وقد ظلت بعد تتويجها تشعر بشعور الشعب وتعمل لاسعاده . وهى فوق ذلك كله أول ملكة فكرت فى أن ترفع مستوى المرأة وتمنحها حقوقا توازي حقوق الرجال

وتعتبر تيودورا أول ملكة فى التاريخ وضعت قانونا ينص على وجوب اعتبار المرأة التى تحترف التمثيل متساوية مع أية امرأة أخرى من النساء فى أنحاء الدولة . وكانت مهنة التمثيل من قبلها ممتهنة محتقرة ، وهى كذلك أول ملكة حاولت أن تنقذ المرأة من هوة العار والفساد . وقد ترك زوجها مجموعة قوانين عرفت باسمه : « قوانين جستنيان » ولو أنصف المؤرخون ورجال القانون لسموها « قوانين تيودورا » . فقد كانت الامبراطورة هى التى أوصت بها الى زوجها ، بل انها هى التى كتبت بيدها جانبا منها

هذا ، وأن حياة تيودورا المليئة بالدروس والعظات ، فلا شك أن فى مطالعتها فائدة كبرى ، بجانب ما فيها من عبرة وتسلية

# معلومات فى سطور

● **تيودورا :** ممثلة اصبحت امبراطورة بيزنطة . من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٤٨

● **جستنيان الاول :** امبراطور بيزنطة .. تزوج تيودورا قبل ارتقائه العرش . وملكه من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥ . وعاش ١٧ سنة بعد وفاة زوجته ، ولم يتزوج بعدها

● **جستين الاول :** امبراطور بيزنطة من سنة ٥١٨ الى سنة ٥٢٧ . عم جستنيان . كان جنديا ثم انتخبه الجيش امبراطورا واصدر قانونا خاصا لكى يسمح لابن أخيه جستنيان بأن يتزوج تيودورا الممثلة

● **أنطونينا :** وصيفة تيودورا وكاتمة أسرارها .. وهى زوجة بليزيروس قائد الجيش البيزنطى . وكانت دساسة ماكرة

● **بليزيروس :** أعظم قائد فى عصره . فتح كثيرا من البلاد التى ضمت الى الامبراطورية الرومية . وحالفه التوفيق فى كل المعارك التى خاضها فلم يهزم فى معركة منها بقوة السلاح

● **كوميتو :** أخت تيودورا .. ممثلة أصبحت أميرة

● **أناستاسيا :** الاخت الثانية لتيودورا .. كانت هى الاخرى ممثلة وأصبحت أميرة

● **صوفيا :** ابنة كوميتو .. زوجتها خالتها تيودورا من ابن أخى الامبراطور جستنيان ، فاعتلت العرش مع زوجها بعد وفاة الامبراطور

● جان كابادوكي : وزير بيزنطى كان داهية عصره ، ولكنه عارض تيودورا فحطمته

● نرسيسي : خادم تيودورا ومن خصيان القصر الامبراطورى فى بيزنطة . كان موضع ثقة الامبراطورة ورسولها الى العظماء

● هيباتيوس : مطالب بعرش بيزنطة . رفعه زعماء الثورة الى العرش ولكن تيودورا عادت فأسقطته وسجنته

● معنى كلمة تيودورا « هبة الله »

● بيزنطة هى القسطنطينية . أنشأها اليونانيون فى العصور الخالية ، وسماها الامبراطور « قسطنطين » باسمه فى أواخر القرن الثالث للميلاد ، ولكنها ظلت محتفظة أيضا باسمها الاصيل . ولما فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣ م على يد محمد الفاتح أطلقوا عليها اسم « الآستانة » أو « استانبول »وأصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية الى أن نقل كمال اتاتورك مركز الحكم فى تركيا الى « أنقرة » بعد الحرب العالمية الاولى

● مات الامبراطور جستنيان ، زوج تيودورا ، فى سنة٥٦٥ اى قبل نحو مائة سنة من نشوب القتال بين امبراطورية الروم والجيوش العربية فى بدء الفتوحات الاسلامية فى القرن السابع للميلاد

● كانت امبراطورية الروم ، أو امبراطورية بيزنطة ، تضم بلاد اليونان والبلقان وجانبا من ايطاليا وآسيا الصغرى وسورية ، ولبنان وفلسطين ، وجانبا من بلاد العرب ومصر وليبيا وتونس . فكانت أعظم امبراطورية فى عصرها ، وأوسع من امبراطورية الفرس . وقد هاجم العرب أطرافها فانتزعوا منها فلسطين وسورية ، ولبنان ومصر ، وافريقا . فانكمشت فى آسيا الصغرى ثم فى القسطنطينية أو بيزنطة ، الى أن جاءتها الضربة القاضية على يد السلطان الفاتح محمد الثانى فى سنة ١٤٥٣ الميلادية

● لما فتح العرب مصر ، كانت البلاد خاضعة للحكم الرومى

البيزنطى ، وكان فى مصر جيش رومى حاول صد الغزو العربى. ولم يكن لمصر ولا لسورية جيش وطنى فى ذلك الحين

● الامبراطورية الرومية ورثت الامبراطورية الرومانية فى الشرق . فقد انقسمت امبراطورية « روما » الى شطرين ، عرف الاول منهما بامبراطورية الغرب ، والثانى بامبراطورية الشرق . واول امبراطور « رومانى » اتخذ بيزنطة عاصمة لدولته هو « قسطنطين » الذى أطلق عليها اسمه . وكلمة « رومى » أطلقها العرب على البيزنطيين وهى غير معروفة فى لغات الغرب . وقد جاءت على لسان العرب تحريفا لكلمة « رومانى » ثم أطلقها العرب والترك على « اليونانيين »الذين عرفوا منذ ذلك الوقت باسم « الروم » أو « الاروام »

● لما اعتنق الامبراطور قسطنطين الدين المسيحى ، فى القرن الثالث للميلاد ، فرضه على رعاياه ، فانتشر فى جميع أنحاء الغرب وفى بلدان الشرق التى لم يكن الدين الجديد قد عمها بعد . اما مصر ، فكان سكانها جميعا يدينون بالمسيحية قبل قيام الحكم البيزنطى فيها



# الفصل الأول

# المثلث

# اليتيمات الثلاث !

فى أوائل القرن السادس للميلاد ، كانت تيودورا ، الممثلة الراقصة ، تملأ مسارح القسطنطينية بشهرتها ، وتسترعى بفنها وجمالها اعجاب النظارة على اختلافهم . وقد اختلف المؤرخون الذين جاءوا بعدها فى تحديد المكان الذى ولدت فيه . فقال بعضهم انها ولدت فى جزيرة قبرص ، موطن الربة افروديت الهة الجمال عند اليونان . وقال آخرون : انها ولدت فى سورية ، أو فى جبال لبنان ، أو على ضفاف النيل بمصر

والذى لاشك فيه ، أن تيودورا جاءت الى القسطنطينية مع اهلها ، وهى فى سن الطفولة . وانها نشأت فى تلك المدينة ، بين ألوان الضجيج والفجور !

ومن العجيب أنها ظلت طول حياتها محتفظة بطابعها الشرقى وفية للبلاد الشرقية التى انجبتها . وبينما كان زوجها الامبراطور جستنيان الذى ولد فى جبال مقدونية العليا ، متشبعا بالروح الغربية الرومانية ، كانت هى متشبعة بالروح الشرقية مستمسكة بجميع مظاهر الشرق وميوله ومعتقداته وأوهامه . وكما لم يوفق المؤرخون الى معرفة موطنها كذلك لم يوفقوا الى معرفة شىء يذكر عن الاسرة التى تنتمى اليها تلك الممثلة التى صارت امبراطورة . وقد تعمدوا فيما بعد — ولعل هذا كان من قبيل التملق — أن يفتعلوا لها حسبا ونسبا يتفقان مع المقام الاسمى الذى بلغته ، ومع مكانة الاسرة المالكة فى النفوس . فادعى بعضهم انها ابنة نبيل من أعضاء

مجلس الشيوخ . وادعى آخرون أن أباها كان قائدا من قواد الجيش المعروفين . ولكن الحقيقة والواقع بعيدان كل البعد عن هذا الادعاء . ولم يبق الآن شك فى أن تيودورا ابنــة رجل يدعى « أكاسيوس » لا هو بالنبيل ولا هو بالقــائد . وانما كانت مهنته ترويض الدببة فى ملعب المدينة

أما أمها فكانت امرأة لا تحسب حسابا للاخلاق الـكريمة فى حياتها ولا فى حياة أفراد اسرتها ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة عاشت فى السرك بين مروضى الوحوش والمهرجين فى ذلك الحين

وكان الملعب أو « السرك » الذى يعمل فيه أبواها ، يضم الى من فيه من المروضين والمهرجين ، زملاء لهما من الممثلين والحواة ومحترفى الرقص والغناء

وفى ذلك الوسط الصاخب البوهيمى الذى نشأت فيــه مع والديها ، كانت تشترك معها أختها الكبرى « كوميتــو » وأختها الصغرى « أنابستاسيا »

وكان مولد تيودورا نحــو ســنة ٥٠٠ للميلاد . ومات أبوها وهى وأختاها مازلن فى سن الطفولة ، لم تجاوز كبراهن السابعة من عمرها وأرادت والدتهن بعد ان ترملت ، أن تحتفظ بالعمل الذى كان يقوم به زوجهــا ، لـكى تبقى باب الرزق مفتوحا أمامها وأمام بناتها الصغيرات ، فتزوجت رجلا آخر ، رضى بأن يصبح حارسا للدببة فى الملعب ، ومعيــلا للصغــيرات الثلاث فى البيت !

وكان عليها لتحقيق هذه الامنية ، أن تحصل على موافقة « أستيريوس » منظم الالعــاب ، الذى كان زوجهــا الاول أكاسيوس تابعا له . ولكن الامر لم يكن سهلا . اذ كان الذين يشتركون فى هذه الالعاب ، كما كان الموظفون بالملعب ، يشترط فيهم أن يكونوا من المنتمين الى الفريق الاخضر أو الفريق الازرق ، اللذين تخصص أفرادهما فى هذه الاعمال وتدربوا

عليها حتى أتقنوها فاستحق كل منهم أن يرتدي الثوب الخاص بفريقه وأن يعلق الشارة الخاصة به على صدره

وكان الاهلون فى المدينة قد انقسموا حزبين : أحدهما يناصر الفريق الاخضر ، والآخر يناصر الفريق الازرق . وتبعا لاشتداد المنافسة بين الفريقين ، كانت الخصومة تشتد بين الحزبين المناصرين لهما من الاهلين . بل لقد تمدت الخصومة حدود الملعب ، فانتقلت منه الى ميدان السياسة وغيره . فأصبح كل واحد من السكان معروفا بأنه من « الخضر » أو من « الزرق » حسب انتمائه الى هذا أو ذاك من فريقى المهرجين والمروضين والممثلين فى ملعب القسطنطينية !



وكان أكاسيوس ، والد تيودورا من أفراد الفريق الاخضر الذى يتولى رياسته وينظم ألعابه ويدير مصالح أفراده « استيريوس » وقد رفض هذا اجابة رغبتها فى تعيين زوجها الجديد خلفا لزوجها السابق فى وظيفة حارس الدببة ، وعين فى هذه الوظيفة رجلا آخر من محاسيبه ، اتضح للمرأة فيما بعد أنه اشترى تلك الوظيفة بالمال !

على أنها برغم ذلك لم تيأس ، وأخذت تواصل سعيها فى سبيل تحقيق تلك الرغبة ، لان تحقيقها كان يعنى ايجاد المورد الذى تعيش منه هى وبناتها الثلاث . وعلى هذا قررت أن تستثير عطف جمهور المتفرجين واهتمامهم بأمرها وأمر بناتها. وفى ذات يوم بينما كانت مدرجات الملعب تغص بالناس، والانظار كلها متجهة الى الحلبة المستديرة حيث تجرى المباريات والمصارعات وغيرها من فصول برامج التسلية ، ظهرت على الحلبة وهى تدفع أمامها فتياتها الثلاث وقد توجت رءوسهن بالازهار ، فاندفعن الى وسط الحلبة مسرعات حيث وقفن فى خشوع ، رافعات أكف الضراعة والاستعطاف نحو المدرجات

المليئة بمختلف النظارة ، وفى الوقت نفسه أخذن فى البكـــاء استزادة من التأثير فى النفوس

وكانت الام تأمل أن يسارع الفريق الاخضر عقب ذلك الى تلبية رجائها بايجاد عمل للرجل الذى تبنى صغيراتها وتولى أمرهن بعد موت والدهن . كما انها كانت تؤمل آلا تقوم أية معارضة من جانب الفريق الازرق وانصاره فى سبيل عمـل انسانى كهذا ، ولاسيما بعد ذلك المنظر المؤثر الذى اعدته . ولكن الامر جاء على غير ما توقعته ، اذ قابل الفـريق الاخضر وانصاره ذلك المنظـر بالضحك وعـدم المبالاة ، أما الفريق الازرق فقد رأى فى ذلك فرصـة سانحة لربح يجنيـه على حساب الفريق الاخضر المنافس له ، وسرعان ما هب أفـراده يؤيدهم انصارهم داعين المرأة وبناتها الى الانضمام اليهم ، متعهدين بتعيين زوجها الثانى فى وظيفة بفريقهم ، لا تقـل عن الوظيفة التى كان زوجها الاول يشغلها فى الفريق الاخضر !

ولم تجد الارملة بدا من اجابة هذه الدعوة على الفـور ، وهكذا انتقلت الاسرة من فريق الى فريق ، أو من حزب الى حزب ، فأصبحت « زرقاء » بعـد أن كانت « خضراء » . وكان هذا العرض الذى نظمته لصغيراتها فى الملعب على مشهد من النظارة ، هو أول اتصال لتيودورا بالشعب البيزنطى ، الذى قدر لها فيما بعد أن تحكمه وتصرف شئونه كما تشاء . وقد ظلت ذكريات طفولتها مطبوعة فى ذهنها طول حياتها . ولم تنس تنكر « الخضر » لها ولامها وأختيها يومذاك قط ، فلما أصبحت أمبراطورة قادرة على كل شيء ، عمدت الى الانتقام منهم ، ونكلت بفريقهم شر تنكيل !



ولقد ترعرعت تيودورا مع أختيها جنبا الى جنب ، فى كنف أم لم تكن الفضيلة همها ورائدها ، وفى وسط موبوء ، بين

أناس يبيعون الرذيلة وأناس يشترونها ، فضلا عن فريق ثالث يتاجر بها على حساب هؤلاء وأولئك معا !

ولما كانت امهن امراة عملية ، وقد رات ان بناتهـا الثلاث يكتسبن مع الايام مسحة من الجمال ، لم تحجم عن أن تدفع بهن الواحدة تلو الاخـرى الى الاشتغال بالتمثيل . وكانت كوميتو أول من ظهرت منهن على المسرح ، حيث حازت منـذ ظهورها نجاحا عظيما . فكان هذا النجاح الذى لقيته الابنة الكبرى مما شجع اختها تيودورا على أن تحـذو حذوها ، فبدأت تظهر الى جانبها على المسرح ، فى أدوار بسيطة تافهة ، كانت لها خير تدريب عملى مفيد على التمثيل

وفى الوقت نفسه ، جعلت تيودورا ترافق أختها فى روحاتها وغدواتها ، فتؤم المجتمعات العامة والمجالس الخاصة ، حيث لفتت الانظار بسرعة الى جمالها الناشىء ، ورشاقتها وطلاقة لسانها ، وما بدا عليها قبـل الاوان من مستلزمات الاغواء واللعب بالعواطف والمشاعر

وكان طبيعيا أن يؤدى اختلاطها بالناس ، فى ذلك المجتمع الذى يحوى طلاب اللهو والمتعة ، وفى تلك السن ، الى التأثير فى سلوكها ، فجنحت عن جادة الاستقامة ، وفقدت البقيـة الباقية مما كان لها من طهر وعفاف

ولما أصبحت قادرة وحدها على الاشتغال بالتمثيل ــ مثل أختها الكبيرة ــ ولم تعد بها حاجة الى مرشد أو دليل يأخـذ بيدها على المسرح وفى المجتمعات والاندية ، راحت تبحث عن النجاح والثروة ، سالكة الطريق الذى مهده لها ذووها وساروا فيه من قبلها

والواقع انها كانت جميلة بارعة الجمال ، مغرية شـديدة الاغراء ، جذابة ساحرة . وقد أجمع الذين عرفـوها وكتبوا عنها ، سواء أكانوا من أصدقائها المعجبين أم من أعدائها المفترين ، على أن جمالها من الطراز الاول ، وعلى أن الفنانين الذين سجلوا

صورتها فى تماثيلهم ولوحاتهم ، لم يستطيعوا أن يرسموا تلك الصـــورة على حقيقــة ما كانت عليــه من روعة وبهجــة وبهاء . وصحيح انها قصيرة القـــامة ولكنهـــا على جانب عظيم من الاناقة والطلاوة واللطافة .. واذا كان لون بشرتهـــا يميل الى الشحـــوب ، فان هذا كان يزيد فى لمعان عينيهـــا الواسعتين ، وفى الاشعاع الذى كان ينبعث منهما ساحـــرا آخاذا ، وطالما أحرقت به القلوب ، والهبت المشاعر فى طيـات الصـدور !



ولعل الناظر اليوم الى صورتها الرسمية المحفوظة فى مدينة « رافينا » بايطاليا ، لا يجد فيها شيئا ينطبق على ذلك الوصف الذى أجمع عليه من عرفوها من الاصدقاء والاعداء على السواء . ولكنه مع ذلك لن يسعه الا أن يقف مشدوها أمام عينيهـــا السوداوين البراقتين ، اللتين امتد اشعاعهما حتى غمـر كل وجهها كما يبدو فى تلك الصورة !

ولم يكن ذلك الجمال الاخاذ كل ما لدى تيودورا من سلاح تغزو به القلوب ، فقد كانت مع ذلك على حظ عظيم من الذكاء والفطنة وبراعة التعبير وسرعة الخـــاطر والتفنن فى التنكيت ورواية النوادر المسلية . وقد اكتسبت ذلك كله من ممارســة التمثيل على المسرح ، والرقص فى الاعياد والحلقات الشعبيــة والحفلات الخاصة . كما انها بطبعها كانت شديدة الميل الى التهكم والسخرية ، ولم تكن تحجم عن اطلاق أقسى العبــارات اللاذعة الجارحة كلما سنحت لها فرصة مناسبة ، غير انها كانت سرعان ما تستدرك ما فرط منها فى لباقة عجيبة ، فاذا بتلك العبارات الجارحة نفسها وكأنها على قلوب من نالتهم بها برد وسلام !

كانت تيودورا تعرف كيف تمزج فى حديثها بين الجـــد

والهزل ، وبذلك كانت تضـــحك من تؤلمهم بعبـــاراتها او تصرفاتها ، واستطاعت ان تظل حائزة على رضاهم ، مستوليـة على أفئدتهم فى جميع الظروف والاحوال !

وكانت جريئة ليس لجرأتها حد تقف عنده ، كما أنها فى كثير من الاحيان لم تكن تنتظر حتى يوجه اليها محدثوها آيات المديح والثناء من تلقاء أنفسهم ، بل كانت تمهد لهم السبيل، وتشجعهم على ذلك بما تبديه من ضروب التحدى أو الاغراء !

على انها برغم عدم مبالاتها بالنواحي الادبية والخلقية والتقليدية فى أحاديثها مع الناس . وبرغم استساغتها كل عبارة تلفظها مادامت تؤدى المعنى الذى تقصده ، وتصيب الهـدف الذى تريده .. كانت تحمل فى صدرها قلبا أشبه ما يكون بالاتون المتأجج ، ذلك لانها كانت مشبوبة العاطفة دائما .. تحب الحب للحب ، وتنشد المرح والتسلية حتى فى أحرج الاوقات . ولذلك كان لابد من أن تلقى على مسرح الحيـــاة فى ذلك المجتمـــع البيزنطى ، مثل النجاح الذى لقيته منذ اللحظة الاولى فى ملعب العاصمة ، ثم على مسرح التمثيل !



وقد مارست تيودورا الى جانب التمثيل ضروبا من الرقص والغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ولكنها كانت تنفر من أن يقول عنها الناس أنها راقصة أو مغنية أو عازفة ، بقـدر ما كانت ترغب فى أن يصفوها بأنها ممثلة !

وكانت تبحث عن الادوار التمثيلية الناطقة أو الصامتة، التى تتيح لها ــ فى تأديتها ــ فرصة الظهور أمام المشاهدين والسامعين عارية أو شبه عارية ، لكى تتجلى أمام الانظار بدائع جسمهـــا وتقاسيمه الخلابة !

كذلك كان ميلها شديدا الى الادوار الهزلية المضحكة ، لانها تلائم طبعها المرح ، ومع رغبتها فى أن تنقل مرحها من المسرح

حيث تمثل الى القاعة حيث النظارة يرمقونها بأعينهم وانتباههم!

وكان البيزنطيون يؤثرون المناظر المثيرة ، والمواقف المضحكة، على ما عداها من أنواع التمثيل واللهو . ومن هنا كانوا يصفقون كالمجانين كلما تجلت لهم تيودورا على المسرح بابتسامتها الساحرة وجسمها العارى الا من غلالة شفافة أو بدونها ! كما كانوا يضحكون ملء أشداقهم لكل كلمة أو كل حركة تصدر عن تلك الممثلة الجميلة البارعة ذات الصوت الرخيم !

ومن المشاهد التى كان البيزنطيون يؤثرونها على غيرها ، رؤية تيودورا على المسرح وقد تعرت من ثيابها وجعلت عصافيرها الاليفة المتنوعة الالوان تتنقل على كتفيها وراسها وذراعيها . ولم يكن هؤلاء البيزنطيون اقل حماسة أمام المشاهد الهزلية التى تظهر فيها تيودورا مع بقية أفراد فرقتها ، وتتبادل معهم اللطمات والصفعات ، فتضرب بشدة ، وتتلقى الضرب بقدم ثابتة !

وليس بعجيب اذن . . ان كان نجاح تيودورا ، فى علاقاتها الخاصة وفى داخل بيتها ، مع المعجبين والمريدين ، لا يقل عن نجاحها على المسرح ان لم يزد عليه !

ومما يذكر أنها كانت فوق ذلك كله كريمة سخية ، تنفق المال بلا حساب مادام المال متوفرا بين يديها . ويقول عنها المؤرخ جيبون « ان كرمها كان مضرب الأمثال فى بيزنطة ، وان مآدبها الفاخرة كانت أهم ما استرعت به الانظار فى حياتها الخاصة ، كما كانت مضرب الامثال . فى أحاديثها الجريئة ، وتعدد عشاقها ! »

ووصفها مؤرخ آخر بأن هدفها الاول على المسرح وخارجه كان هو حمل الناس على الاعجاب بجمالها وخفتها ، ولهذا كانت لا تكاد تنتهى من تمثيل دورها على المسرح ، حتى تدعو زملاءها وأصدقاءها ، لترقص أمامهم خلف الكواليس « رقصة البطن » التى تجيدها ، على توقيع تصفيقهم وغنائهم . وكانت

تفعل مثل هذا فى بيتها ، بعد العشـــاء أو فى أثناء السهرة ، لا رغبة فى ارضاء المدعوين فقط ، بل لكى تشبع رغبتها أيضـا فى انتزاع الاعجاب والتصفيق ممن يشاهدونها حينذاك حتى من الخدم والاتباع !



وقد عرفت تيودورا بأنها خصبة المخيلة ، بارعة فى رواية النوادر ، واسعة القدرة على الابتكار ، دائمة الاهتمـام بادخـال السرور الى نفوس سامعيها ومدعويها أيا كان عددهم وأيا كان نوعهم . ولكن هذا التحرر من كل قيد ، وذلك الانغماس فى الشهوات ، جعلا فريقا من المجتمع البيزنطى يأنف من مجالستها ويتهرب منها . فقد ذاعت شهرتها بسرعة كممثلة وغانية ، ولكن شهرتها هذه ما لبثت أن امتزجت بشىء من ســوء السمعة ، فصار كثيرون من البيزنطيين المحافظين يتأففون من الاتصـال بها والاقتراب منها . ولكنها كانت لم تقم وزنا للرأى العام وما يقوله عنها أولئك المتأففون الحذرون ، ولم يكن ليهمها الا أن تنعم بمباهج الحياة ، وأن تشرك من حولها فى هذه المباهج ، غير عابئة بنقد الناقدين وعتب العاتبين . فلا يهمها أن يغضب عليها فريق من المتمسكين بأهداب الفضيلة ، ما دامت الجماهـــير تصفق لها ، وما دام العشاق يزداد عددهم حولها على مر الايام!

غير أن هناك حادثا وقع لها نغص عليها عيشها بضعة أشهر ، وأوشك أن يترك فى حياتها أثرا مزعجا . فقد حملت ووضعت طفلا . وخشى والد الطفل أن تعمد الأم الى قتله ، فأخذه منها ، وسافر به الى بلاد العرب حيث أرسل فى مهمة رسمية . وهكذا تخلصت تيودورا من ابنها الذى كرهته منذ اليوم الذى رأى فيه النور . وقد عاد ذلك الابن فيما بعد وحاول استغلال نفوذ أمه بعد أن أصبحت فى أوج الشهرة والمجد !

ولم يكن هذا الحادث درسا كافيا لتيودورا ، فقد تـكررت

المأساة ، ووضعت مرة اخرى طفلة ، لم تقف منها ذات الموقف الذى وقفته من الابن . بل عنيت بها وظلت تعطف عليها بعد ان كبرت .. وكان ذلك فى سنة ٥١٧ . ولم تكن تيودورا قد جاوزت بعد سنتها الثامنة عشرة . ولكنهـا كانت فى سمـاء القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، نجما يتلألأ ويبهر الانظار !



# سلطان الشياطين !

كانت القسطنطينية حين بدأت تيودورا تظهر فى مجتمعاتها ، فى أوائل القرن السادس للميلاد ، مدينة موبوءة يعم الفساد جنباتها ، فالدعارة منتشرة جهارا نهارا . والبيوت الخاصة بها منتشرة فى جميع الاحياء بلا تمييز ، حتى أن بعضها كان يقع بجوار الكنائس والاديرة . وتجار الرقيق الأبيض الذين يقومون بجلب النساء الى تلك البيوت يطوفون أرجاء الامبراطورية الشاسعة ، ويمنون فرائسهم التعسات بالامانى والآمال والوعود الخلابة ، ملوحين لهن بالنقود والثياب الفاخرة والجواهر البراقة . وكثيرا ما وقعت فى حبائل أولئك الشياطين الاشرار فتيات لم يجاوزن العاشرة من العمر ، ونساء من حرائر العائلات ، فضلا عن الجوارى والخادمات ، مدفوعات جميعا بدافع الحاجة أو الرغبة فى حياة أخرى . وهكذا كان أولئك النسوة يتجهن الى العاصمة ، حيث يرتبطن بعهود ومواثيق مع القائمين بادارة تلك البيوت ، وبذلك يتعذر عليهن أن يتركنها اذا ما أردن ذلك فيما بعد . وما أشبه القسطنطينية، وقد عمها الفساد وانتشرت فيها الدعارة خلال تلك المرحلة من مراحل تاريخها ، بمدينة سدوم التى احرقها الله بالنار اقتصاصا من سكانها الذين انغمسوا فى المحرمات والموبقات . وكان القليلون الباقون على وفائهم لمبادىء الدين وتعاليمه من أهل القسطنطينية يأسفون لهذه الحالة ، ولكنهم لا يملكون أن يعملوا شيئا لعلاجها . ولئن كان هؤلاء لم ينصرفوا الى الغواية والضلال خوفا من غضب السماء ، فانهم من ناحية أخرى لم

يكونوا يحجمون عن ممارسة الالعاب المختلفة وحضور مبارياتها متحمسين لهذا الفريق أو ذاك . ولذلك كان ملعب القسطنطينية ملتقى جميع الطبقات . وفى الوقت نفسه كانت أماكن اللهو والميسر تعج بروادها من الجنسين ، وكان الكثيرون يقامرون بثرواتهم كلها بلا حياء ولا وجل ، اذ استشرى داء المقامرة فى المدينة الموبوءة فلم يسلم منه حتى بعض رجال الدين انفسهم !

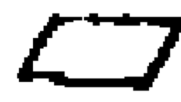
ولم يكن ذلك عجيبا فى الوقت الذى كان فيه « جستنيان » ولى عهد الامبراطورية نفسه يصرح بقوله : « لابد لنا من ألعاب مثيرة لتسلية الشعب ! » . وكان الكبراء جميعا يتسابقون الى تشجيع جميع تلك الالعاب بلا استثناء ، حتى صارت تجرى فى نطاق المساكن والقصور ، فضلا عن الملعب الكبير الذى انفقت الحكومة مبالغ طائلة لتشييده واعداده وتنظيم الالعاب فيه ، بحيث يجد السكان فيه ، على مدار السنة كلها ما يشفى غليلهم ويشبع نهمهم !

وفى هذا الملعب الكبير بالعاصمة كانت تنظم المباريات والمسابقات على اختلاف أنواعها ، كسباق المركبات ، وسباق الخيل ، وصيد الحيوانات ، والمصارعة بين الرجال أو بينهم وبين الوحوش الكاسرة ، والتمثيل الناطق والصامت ، وحلقات الرقص ، وحفلات الغناء والموسيقى ، وكل مايمكن أن تتفتق عنه الاذهان لتسلية الشعب البيزنطى وحمله على المراهنة والتصفيق والهتاف !

وكثيرا ماكانت تقام فى الملعب ــ ولا سيما فى أول كل عام ــ حفلات تستمر سبعة أيام بلياليها بلا انقطاع ! .. وكان أحد هذه الايام السبعة يطلق عليه اسم « يوم بائعات الهوى » . وفيه تخرج الى الملعب جميع النسوة اللائى تضمهن بيوت الدعارة بالمدينة ، حيث يشتركن فى الالعاب والمراهنات ، فيتضاعف تبعا لذلك عدد رواد الملعب من جميع الطبقات !

وكان الامبراطور نفسه يشرف اشرافا مباشرا على تنظيم

تلك الالعاب ، فهو يريد أن يكون هناك دائما ما يدفع الشعب الى التردد على الملعب ، لانه يرغب فى استمالته واكتساب عطفه، وكان لا يبخل بشيء فى هذا السبيل . وقد حدث مرة أن نظم الامبراطور بنفسه حفلة عامة شاهد فيها الجمهور الهائج عشرين أسدا وعشرين نمرا تتنـاهش وتتقاتل ، ثم وزع الامبراطور فى نهاية تلك الحفلة خيولا مطهمة على اللاعبين الذين فازوا فى المباريات ، واقام مأدبة هائلة جعل الدعوة اليها عامة بحيث يسمح بحضورها لكل من شـاء من أفراد الشعب . واستمرت هذه المأدبة الكبرى ثلاثة أيام بلغ ما أنفقه الامبراطور خلالها أربعة ملايين من القطع الذهبية !



وكذلك كان أهل القسطنطينية جميعـا يهرعون الى دار التمثيل أو الى « السرك » فى ملعب العاصمة ، لا فرق فى ذلك بين النبلاء وعامة الناس ، ولا بين الرجال والنساء ، أو بـين الشيوخ والشبان

وصحيح أن التقاليد حتى ذلك العهد كانت لا تبيح حضـور تلك الحفلات الصاخبة الاباحيـة لرجال الدين ونساء الاسر النبيلة ، ولكن الكثيرين والكثيرات من هـؤلاء وهؤلاء كانوا يحضرونها بملابس تنكرية . كما كانت القليلات اللائى يتورعن عن حضورها ، يحرصن على الاشتراك فى المراهنات وهن قابعات فى بيوتهن . ذلك لان الاهتمام كان عاما فى أنحاء الامبراطورية كلها بكل ما يتعلق بالالعاب والمسابقات . ولم يحدث فى أية حقبة من حقب التاريخ أن بلغ اهتمام شعب من الشعوب ، بما يجرى فى الملاعب ، ما بلغه اهتمام الشعب البيزنطى فى أوائل القرن السادس ، خلال عهد الامبراطور جستنيان ، حتى لقد فاقت هواية البيزنطيين للألعاب هواية أسلافهم الرومانيين !

وكان الفائزون فى المباريات من سائقى المركبـات وغيرهم

يصبحون ملوك الساعة فى المدينة ، لمدة يوم أو اكثر . ولم يكن الامبراطور نفسه يأنف من التقدم اليهم ليصافحهم ويهنئهم على فوزهم ، فى حين كانت الحكومة تقيم لهم النصب والتماثيل، وكان الشعراء ينظمون فى مديحهم القصائد ، ورجال العلم والادب يعلنون فى تأكيد ان هؤلاء الفائزين هم زينة الحياة ولولاهم لبدت خالية من البهجة والحبور !

أما الجمهور فكانت حماسته لهم لا تقف عند حد ، وكان افراده عادة ينقسمون الى حزبين اثنين : كل منهما يتحمس لاحد الفريقين الكبيرين المتنافسين فى مختلف الالعاب ، أى الفريق الاخضر والفريق الازرق ! . . وهكذا بقيت القسطنطينية بضعة قرون واهلوها منقسمون على أنفسهم بين خضر وزرق ، وتناحرهم يشتد يوما بعد يوم لهذا السبب ، حتى لكان بينهم عداوة قديمة لا يخمد لها أوار !



ولم يكن هناك بد لتنظيم تلك الالعاب والاشراف على ادارة الملعب من عدد كبير من الموظفين والخبراء والفنيين والخدم وغيرهم . فكان هناك الشعراء المكلفون بنظم القصائد والاغانى التى ينشدها اللاعبون لتمجيد الامبراطور . وهناك الموسيقيون المكلفون بتلحينها ، وعزفها ، والمغنون والراقصون والمهرجون الذين يقومون بتسلية الجمهور أثناء المباريات . أو بين الفصول وهناك الممثلون والمخرجون ومديرو المسارح ، ثم الموظفون المكلفون بحفظ النظام داخل الملعب ، وعلى المدرجات واجلاس المشاهدين فى أماكنهم ومراقبة الدخول والخروج وفتح الابواب والمنافذ لابطال المباريات من البشر والحيوان على السواء ،فضلا عن المكلفين بحفظ الثياب والدروع ومعدات اللعب والاكاليل التى توضع على رءوس الفائزين، وفضلا عن حراس الاسطبلات ومروضى الوحوش والمدربين والخياطين والخياطات ، والحوذية

الذين يقودون المركبات فى السباق داخل الحلبة الواسعة ، وفى شوارع المدينة نفسها فى بعض الاحيان !

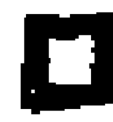
وهكذا كان فى داخل الملعب وحوله أقوام يعدون بالمئات بل بالآلاف ، مهمتهم التنظيم والاخراج . وكثيرا ما كان ينضم اليهم فريق آخر من الناس ، هم المغامرون والانتهازيون من السماسرة وأصحاب الغايات وطلاب الربح والتسلية ، على حساب غيرهم .. وبائعات الهوى الساعيات الى اصطياد الاغنياء وابناء الذوات من طلاب المتعة

وطبيعى أن الاحاديث فى مجتمعات القسطنطينية ومنتدياتها فى ذلك العهد كان محورها الذى تدور حوله غالبا هو الملعب وما يجرى فيه . فجميع الناس ، من مختلف البيئات ، كانوا يتبادلون الآراء والافكار والمراهنات حول هذا أو ذاك من اللاعبين ، ويتحدثون عن الحوذى الفائز فى ذلك اليوم ، أو عن الممثلة التى حازت الاعجاب فى المسرحية الاخيرة ، ويتكهنون بما سوف يحدث فى الحفلة القادمة . حتى أكثر الناس وقارا لم يكونوا يأنفون من الدخول فى مناقشات حادة حول أصل هذه اللعبة أو تلك ، أو حول فائدة الرياضة والمقامرة وضررهما وكثيرا ما كان المتحدثون يتسابقون الى التنبؤ بما ينتظر حدوثه فى المستقبل القريب ، استنادا الى فوز « الزرق » أو الى فوز « الخضر » فى آخر مباراة !

وكان المفهوم حينذاك أن اللون الاخضر يرمز الى الارض ومروجها . فاذا فاز الخضر ، فمعنى ذلك أن السنة الجديدة ستكون سنة خير وبركة ، وأن موسم الحصاد سيكون محققا للآمال . اما اللون « الازرق » فهو يرمز الى مياه البحر . فاذا فاز الزرق فمعنى ذلك أن السفن ستكون موفقة فى رحلاتها فى العام الجديد . وعلى هذا الاعتبار ، كان الزراع جميعا من حزب الفريق الاخضر ، وكان رجال البحر من حزب الفريق الازرق !

وكان الملعب معرضا للأزياء . فهو من هذه الناحية يشبه ميادين السباق فى العصر الحاضر . والشبان من «أبناء الذوات» الذين يؤمونه يفتنون فى ابتكار أزياء عجيبة ليلفتوا بها الانظار اليهم . فهم يرخون لحاهم كما يفعل الفرس ، أو يطلقون شواربهم كما يفعل المغاليون ، أو يحلقون رءوسهم ووجوههم مثل الرومانيين . وهم يقتبسون ازياء ملابسهم عن الرومانيين أو الفرس أو قدماء المصريين ، ويتجملون ويتعطرون ويضعون الحلى فى معاصمهم وأصابعهم وآذانهم . ثم انهم كانوا دائما يتقلدون سيوفا بحدين

وكان أولئك الشبان المتحذلقون يخرجون ليلا الى شوارع المدينة حيث يتعمدون ازعاج المارة ، ولا يترددون أحيانا فى الاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم وحليهم ، واغتيالهم اذا أبدوا أية مقاومة !



ولقد أصبح « الزرق » أصحاب الحظوة منذ وفاة الامبراطور انستاسيوس واعتلى « جستين » العرش . ذلك لان الاسرة المالكة الجديدة كانت تحمى الزرق وتشجعهم على المضى فى مناوأة الخضر . وكان الشرطة لذلك لا يحركون ساكنا فى حالة اعتداء واحد من الزرق على واحد من الخضر مما شجع الاشقياء وقطاع الطرق على الانضمام الى الفئة التى يشملها الامبراطور بعطفه وحمايته ، لكى يتمكنوا من المضى فى أعمالهم الاجرامية فى مأمن من اقتصاص العدالة ؟

وأمام هذا التهديد الدائم الذى تعرض له الخضر ، لم ير هؤلاء بدا من تأليف عصابات مسلحة تتولى الدفاع عنهم وعن أنصارهم ومريديهم : وهكذا اضطرب الامن فى المدينة وأصبحت حياة السكان فى خطر دائم !

ولما رأى السكان الهادئون تفاقم الحالة الى هذا الحد المزرى،

صاروا يخافون الخروج من بيوتهم ليلا ، وصار الاغنياء يرتدون ملابس بالية قديمة ، ويتحلون بجواهر مزيفة من الزجاج ، لكى يأمنوا شر أولئك الاشقياء وقطاع الطرق !

وعم الارهاب المدينة شيئا فشيئا . ولم يعدالناس يتساءلون فى حالات الاعتداء عليهم : هل المعتدون ينتمون الى الزرق أم الى الخضر ؟ بل لم يعد المعتدون انفسهم يهتمون بالتحقق من شخصيات المعتدى عليهم ليعرفوا أهم من الحزب الذى ينتمون اليه أم من الحزب الآخر !

واغتنم المدينون فرصة تلك الفوضى الشاملة ، فأخذوا ينتزعون بالقوة من دائنيهم مخالصة بأنهم دفعوا الدين . وصار العبيد يرغمون أسيادهم على عتقهم ، والابناء يبتزون الاموال بالقوة من آبائهم ، والعشاق يخطفون عشيقاتهم ، وطلاب المتعة يرضون شهواتهم فى ظل اختلاط الحابل بالنابل !



وكان من له عدو يخشاه ، يعمد الى المرتزقة من القتلة المأجورين ليخلصوه منه . وبلغ من جرأة اللصوص انهم أصبحوا يقتحمون الكنائس . ويزهقون فيها الارواح ، وصار الناس يتناقلون فى مجالسهم أخبار تلك الاعتداءات المتوالية ، ويبدون اعجابهم بالقاتل الذى يقضى على غريمه بضربة واحدة ، ويعدون ذلك نوعا من البطولة ، خصوصا اذا تمكن القاتل من الهرب دون أن يعرف شخصيته أحد !

وكما كان الشرطة لا يتدخلون فى حادثة ، الا لمساعدة الزرق ضد الخضر ، ارضاء لرغبة الامبراطور الجديد ، كان القضاة من ناحيتهم لا يحكمون على مذنب الا اذا كان من « الخضر » . أما « الزرق » فنصيبهم البراءة دائما ، لان القضاة حريصون على الاحتفاظ بمراكزهم ، وهم يعلمون ان الامبراطور وأسرته يحمون الزرق !

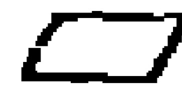
وقد حدث مرة أن كانت امرأة تستعد لركوب سفينة مقلعة الى الشاطىء الآسيوى ، ومعها زوجها . فرآها فريق من الشبان وراقت فى أعينهم . فأرغموها على الصعود معهم الى قارب كانوا فيه ، وعبثا حاول الزوج انقاذ زوجته من خاطفيها. ولم تجد المسكين وسيلة للخلاص غير الالقاء بنفسها فى البوسفور ، فغرقت تحت أنظار الزوج العاجز

وتكررت أمثال هذه الحادثة من غير أن يتمكن الباقون على قيد الحياة من الاقتصاص من الاشرار الذين سببوا موت زوجاتهم أو بناتهم ، لأن أولئك المجرمين كانوا ينتمون الى فئة الزرق صاحبة الحظوة لدى أصحاب السلطان !

وقليل من القضاة والشرطة هم الذين كانوا يجدون فى انفسهم الشجاعة لكى يطبقوا العدالة على الزرق المشمولين بعطف الامبراطور وحمايته ، وقد جرب محافظ القسطنطينية ذلك فدفع الثمن غاليا وكان هذا المحافظ ـ واسمه «تيودوث» ـ معروفا بأنه رجل نزيه شديد التمسك بواجبات وظيفته ، فاتفق مرة أن قتل فى المدينة رجل يدعى «هيباتوس» من كبار الاغنياء وأصحاب النفوذ بها ، وكان مصرعه فى داخل كنيسة آيا صوفيا ، وأحدثت هذه الجريمة المروعة دويا فى العاصمة ، وكان جستنيان ابن أخى الامبراطور ، المشهور بعطفه على الزرق ، مريضا طريح الفراش ، فتمكن أهل القتيل وأصدقاؤه وهم من الخضر ، من الوصول مباشرة الى الامبراطور جستين وعرض الامر عليه ومطالبته بالاقتصاص من القتلة . فدعا الامبراطور محافظ المدينة اليه ، وأمره بأن ينزل عقابا صارما بالذين قتلوا هيباتوس ، أيا كانت مكانتهم . وما كاد المحافظ النزيه يسمع هذا الامر حتى سارع الى اعتقال الجناة الاشقياء واعتقال الذين حرضوهم على القتل ، ثم شنق بعضهم ، ومن بين هؤلاء رجل يدعى « تيودوز تسيكا » من الاغنياء وأصحاب الحول والطول . فلما شفى ابن أخى الامبراطور من مرضه ،

عمد الى الثأر لاصدقائه ، والانتقام من المحافظ . فقبض عليه وقدمه للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ ، فحكم عليه بالطرد من منصبه والنفى الى بيت المقدس ، حيث اضطر الى دخول أحد الاديرة ، خوفا على نفسه من خنـــاجر الزرق التى كانت ترقبه !

وهكذا كانت الخلافات المنبعثة من داخل الملعب ، تمتد الى الى الخارج ، وتحدث فى المدينة اضطرابا وقلقا وفوضى . ولم تمر بضعة اعوام حتى تطورت هذه الحالة الى ثورة جامحة !



وفى أثناء ذلك ، كان المنجمون وضاربو الرمل ومدعو النبوة وقراءة الغيب ومعرفة ما يخبئه المستقبل فى طياته ، يمرحون فى العاصــمة ويزيدون الافـكار بلبلة والنفوس اضطرابا ، ويقضون على البقية الباقيــة من التوازن المــادى والادبى والروحى !

وقد حدث مرة ، عند « الباب الذهبى » أن وقفت بين الناس امرأة شــاردة النظر محلولة الشعر ، وجعلت تصيح متنبئة بأن مياه البحر سوف تطفو قبل ثلاثة أيام على البر ، فيحدث طوفان جديد يغرق العــالم . وصدق الناس هذه النبوءة ، وهرعوا الى الكنائس حيث ظلوا فيها ثلاثة أيام يصلون لله فى انتظار الكارثة التى اعتقدوا أنها واقعة لا محالة !

وحدث مرارا وتكرارا أن ادعى المنجمون ، وهم يتظاهرون بقراءة الغيب مستعينين بحركات النجوم والكواكب ، أن كوارث ماحقة سوف تقع ، ايذانا بقرب نهاية العالم وحلول يوم القيامة فكان الجمهور يصـــدق تلك النبوءات ، وينطلق النــاس فى الشوارع مذعورين خائفين ، أو يلجئون الى الصلاة فى الكنائس طالبين من الله المغفرة عن خطاياهم ، وسقط كثيرون فى ميادين العاصمة مغمى عليهم ، ظنا منهم أن أشباحا مرعبة تطاردهم .

وعمد آخرون ، تحت تأثير تلك الموجة من النبوءات المزعجة ، الى هجر العالم ودخول الاديرة للترهب والتنسك والانصراف الى العبادة تكفيرا عن ذنوبهم . وتنازل بعض الاغنياء عن أموالهم وأملاكهم للكنائس للغرض نفسه . وصار كل بيزنطي يرغب في الا يدركه الموت وهو في حالة الخطيئة غير حائز على رضا السماء . وكان الذعر يستمر أحيانا بضعة أسابيع قبل أن يستطيع الامبراطور تهدئة الخواطر واعادة الطمأنينة الى النفوس ، بل كان الامبراطور نفسه في بعض الاحيان يشاطر رعيته مخاوفها وذعرها !

نعم ان أصحاب العقول الراجحة والايمان الثابت كانوا يقاومون هذا التيار ، ويرون أن على الامبراطور أن يقضي على تلك الترهات بالقبض على الدجالين ، وحبسهم أو اعدامهم . ولكن الرأي العام كان قد تسمم بتلك النبوءات الكاذبة ، واستولت الخرافات على عقول الناس ، فتعذر على العقلاء وضع حد لتلك الحالة المقلقة !

وكانت النساء طبعا أقرب الى الاندفاع في هذا التيار من الرجال . فعمدت كثيرات منهن الى الاعمال السحرية واستخدام الكلام والتعاويذ وما شابهها ، للاحتفاظ بزوج شارد أو بعشيق متقلب . فأصبحت المرأة تعتمد على المنجمين والسحرة والمشعوذين أكثر مما تعتمد على جمالها أو فضائلها !

أما تيودورا ، فقد جارت عصرها في هذا المضمار ، وراحت تعد المساحيق السحرية وتمزجها بالشراب اعتقادا منها بأن هذا يكفل لها بقاء عشاقها على وفائهم لها وتعلقهم بها . وكانت تساعدها في هذا العمل اثنتان من صديقاتها ورفيقات لهوها هما: « أندارو » الشقراء و « كريزومالو » السمراء . وكانت النساء الثلاث يعتقدن أن الشياطين تساهم معهن في الاحتفاظ بسيطرتهن على الرجال ، وهكذا باتت تيودورا تنتظر ارتقاء القمة بمساعدتهم !

# عاقبة التوبة !

كانت تيودورا تحب المرح ، كما تحب المال ، حبا جما . وقد جمعت ثروة لا يستهان بها . ثم حدث أن أحبت شابا سوريا يدعى « هيسيبولى » أصبح عشيقها المفضل ، وأشد المعجبين بها سلطانا عليهـــا . وكان يشغل وظيفة فى دوائر القصر الامبراطورى . وله حظوة لدى الامبراطور جستين فوقع عليه الاختيار ليشغل منصب الحاكم فى ولاية ليبيا بافريقـا التى كانت تشمل خمس مدن كبيرة بضواحيها . وقررت تيودورا أن تصحب عشيقها الى مقر منصبه الجديد . ويظهر من هذا أنها كانت قد ملت المغامرات الغرامية العابرة وفكرت فى أن تحتل مكانا ثابتا بالقرب من رجل واحد ، اما كزوجة ، أو كعشيقة !

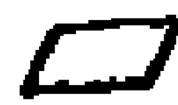
ولكن هذه القصة الغرامية الجديدة لم تدم أيامها طويلا . فقد اختلف العاشقان ولم يعرف سبب الخلاف بينهما . وكان هيسيبولى شرسا قاسى القلب ، فطرد تيودورا من بيته بعد أن أشبعها سبا ولكما ، فهامت على وجهها ، وتنقلت فى بلدان الشرق مدة من الزمن ، وهى فى حالة مزرية . وقد رئيت فى الاسكندرية وانطاكية وبيروت وحمص وغيرها من المدن المصرية والفينيقية والسورية ، تمـــارس مهنتها وتحترف الرذيلة لتضمن رزقها . ويقول المؤرخ « بروكوبس » الذى كتب تاريخ تيودورا وحشاه بالحكايات المعيبة عنها : « ان الشيطان اراد ألا يجهل بلد واحد فى العالم من هى تيودورا الفاسقة ! »

وكان ذلك فى سنة ٥٢١ م

ويبدو أن اقامة تيودورا مدة طويلة بمصر وسورية،وفينيقيا كان لها أثر بعيد فى تكييف حياتها وتوجيهها فى المستقبل . ففى ذلك العهد كانت الاسكندرية مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة ، يرحل تجارها الى الصين والهند وسيلان لجلب الحرير والتوابل والحجارة الكريمة وغيرها . كما كانت مستودعا تصدر منه الى موانىء البحر المتوسط حنطة وادى النيل ومنتجات الشرق الادنى وفضلا عما عرفت به فى ذلك العهد من انها مركز من أهم مراكز التجارة فى العالم ، ومدينة اللهو والبذخ والترف والاناقة ، بفضل ما فيها من الثروات الضخمة، ومختلف الغانيات الجميلات اللواتى حفظ التاريخ أسماءهن ، مثل تاييس وكريزيس وغيرهما . كانت الى ذلك كله قد اشتهرت منذ القرن الرابع للميلاد بأنها احدى عواصم المسيحية ومعاقلها الكبرى بجانب كونها عاصمة مصر !

ولم تبلغ المشاحنات المذهبية والخلافات الدينية والمجادلات القائمة على التعصب حينا وعلى التراخى حينا آخر ، مابلغته فى الاسكندرية من شدة وعنف ومبالغة

على أن سكان الاسكندرية كانوا يمجدون ذكرى الابرار الذين انشأوا الاديرة فى صحارى مصر وأشاعوا فيها حياة الرهبنة ، من أمثال القديسين انطون وباخوم وشنودة وسرابيون . فقد احاطت الاديرة وأماكن العبادة مدينة الاسكندرية وملأت ضواحيها ، وكان عدد الرهبان والمتعبدين والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا فى الصحراء الغربية ، حيث الاديرة وصوامع العبادة التى لا عداد لها ، كبيرا الى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم « صحراء القديسين »



ولما نزلت تيودورا فى مصر ، للبقاء فيها مدة من الزمن ،

كانت البلاد فى حالة قلق واضطراب ، من جراء ذلك العراك الدينى الذى أشرنا اليه ، والذى لم تخفف من غلوائه جهود المتعبدين والنساك الداعين الى السلام والوئام . بل ان ذلك العراك ما لبث أن امتد الى الاديرة وأمكنة العبادة نفسها .

وذلك لان الامبراطور جستين ، الذى كان فى ذلك الوقت جالسا على عرش بيزنطة — ومصر ولاية بيزنطية — كان شـــديد الرغبة فى ازالة الخلاف الذى أدى الى انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية ، أو بعبارة أخرى عن سلطة البابا فى روما . وقد بذل جستين جهده فى هذا السبيل ، وراح يضغط على رؤساء الكنيسة التابعين له فى أنحاء امبراطوريته الشاسعة، لحملهم على مجاراته فى التساهل مع روما والانقيـــاد الى توجيهها . ولكن رؤساء الكنيسة الشرقية عارضوه وقاوموه ، ورفضوا الاذعان لاوامره ، فجعل يضطهدهم ويشردهم ويسجن بعضهم ، واضطر كثيرون منهم ازاء ذلك الى الهرب والالتجاء الى مصر حيث حماهم بطريرك الاسكندرية « تيموثاوس » وأنزلهم بالاديرة المصرية حول الاسكندرية أو فى الصحراء الغربية !

ولم تتناول الاضطهادات رجال الدين وحدهم ، بل تعدتهم الى العلماء والاثرياء ورؤساء العائلات النبيلة ، وسيداتها : فكل من عارض الامبراطور أو تمرد على ارادته ، كان يناله شىء من نقمته ، وهكذا فر أيضا من سورية الى مصر عدد كبير من علية القوم ، بينهم كثيرات من النساء ، ولجأ هؤلاء جميعا الى الاديرة حيث ظلوا محتفظين بعقيدتهم ، رافضين الانقياد لرغبات الامبراطور !



وفى ذلك الجو المضطرب وتلك الظروف الحرجة ، هبطت تيودورا أرض مصر شريدة طريدة . فلم يكن عجيبا أن تدفعها طبيعتها الجامحة الى أخذ نصيبها من الجدل الذى شغل الناس

كبيرهم وصغيرهم فى مدينة الاسكندرية عاصمة البلاد !

وقد اتصلت تيودورا بالبطريرك تيموثاوس ، فرحب بها ، ولاشك فى أنه حاول التأثير فى نفسها ليحملها على العدول عن سيرتها وتحسين سلوكها . ولا شك أيضا فى أن تيودورا قد تأثرت بوعظ ذلك الشيخ الجليل التقى الورع ، وانها حاولت اصلاح ما فى نفسها من مفاسد . وقد ظلت طول حياتها تقدس اسم ذلك الشيخ الذى كانت تتحدث عنه باجلال ، وتقول : « انه صاحب فضل على لن أنساه » . وكانت تلقبه كلما ذكرت اسمه بلقب : « أبى الروحى »

ولما شاءت الاقدار ، فيما بعد ، أن تتولى تيودورا شئون الدولة الرومية وتدبر أمورها وتنظم كنيستها ، أظهرت فى ذلك براعة ومهارة ، ومعرفة تدل على أن الدروس التى تلقنتها عن البطريرك الاسكندرى لم تذهب سدى !

وقد اشترك فى ارشادها ، مع البطريرك تيموثاوس ، عالم آخر من علماء الكنيسة الشرقية هو « سفيروس » . وقد اعترفت هى فيما بعد بأن هذا الرجل الصالح قد هذب نفسها وأبعدها عن الهاوية وعلمها الكثير مما كانت تجهله . ولما أصبحت فى بيزنطة صاحبة قوة واقتدار ، دعت سفيروس وأصحابه الى الاقامة بالقسطنطينية وفتحت لهم أبواب قصرها وحملت زوجها الامبراطور على تأييدهم وحمايتهم ومساعدتهم بماله ونفوذه وسلطانه . وظلت من ناحية أخرى تعطف على الاسكندرية عطفا خاصا وتقول عنها : « انها أحب المدن الى قلبى ! »

ولكن تيودورا لم تذهب الى مصر للاقامة بها ، ولذلك سرعان ما قررت مغادرتها لتستأنف رحلتها الى حيث تجد الاستقرار الذى تنشده لنفسها !

وكان أن رحلت الى سورية حيث نزلت بمدينة أنطاكية ، أكبر المدن السورية فى ذلك العهد . وكانت أنطاكية ، مثل

الاسكندرية ، مسرحا لمشاحنات دينية منوعة ، ولكنها أقل عنفا من مشاحنات العاصمة المصرية . كما أنها كانت اقرب الى بيزنطة منها الى الاسكندرية ، من حيث الحياة الاجتماعية وميول الشعب وأنواع لهوه وتسليته . ففى انطاكية كان هناك ملعب مثل ملعب القسطنطينية . وكانت هناك دور للتمثيل والتهريج . ومواخير للفسق والفجور بجانب أماكن العبادة . كما كان فيها ممثلات وراقصات ، ومنجمون ودجالون !

وفى أنطاكية ، عادت تيودورا شيئا فشيئا الى سيرتها الاولى ، وجعلت تتردد على قارئات الكف وضاربات الرمل ، وابتعدت عن الرهبان والوعاظ والمبشرين !

وهناك توثقت عرى الصداقة بينها وبين « ماسيدونيا » الغانية التى اشتهرت بأنها تجيد استطلاع الغيب بقدر ما تجيد الرقص والغناء . وقد تنبأت ماسيدونيا لصديقتها الجديدة بأن مستقبلاباهرا ينتظرها ، وبأنها سترتقىمدارج المجد والشهرة، وترتفع الى أعلى ما يمكن أن ترتفع اليه امرأة !

وصدقت تيودورا نبوءة صديقتها الجديدة . وصارت تأوى كل ليلة الى فراشها ، وتغمض أجفانها وهى تتخيل نفسها زوجة لسيد الابالسة ، الحائز على كنوز الارض .. الكنوز التى سوف تصبح لها دون سواها من الناس !

كانت الاحلام الحلوة تداعبها فى منامها . فتصحو قبل الفجر وتصلى ... ثم تطلب من الله أن يحقق آمالها ، واعدة بأن تعدل عن حياة اللهو التى تحياها ، وتصبح امرأة تقية صالحة !

وكانت ماسيدونيا تعرف الامير جستنيان ابن اخى الامبراطور جستين وولى عهده . وقد خدمته من قبل فى القسطنطينية فى ظروف عصيبة ، فحفظ لها الامير الشاب جميل صنعها . ويغلب على الظن أن ماسيدونيا هى التى مهدت لصديقتها تيودورا سبيل الاتصال بولى العهد ، ودخول

القصر ، وانهـا استعانت لذلك ببعض أصدقائها فى حاشية الامبراطور وابن أخيه

وقد ثبت الآن ان تيودورا رحلت عن انطاكية عائدة الى القسطنطينية وكلها آمال وأحلام ، وانها ابتعدت عن الوسط الذى عاشت فيه من قبل ، فهجرت المسرح والملعب والمرقص ، ولم تعد تختلط بالنساء اللواتى عرفتهن فى عاصمة الامبراطورية قبل رحيلها مع عشيقها السورى الى ليبيا . بل استأجرت بيتا صغيرا فى حى هادىء منعزل ، وجعلت تعمل بيديها ، فى الغزل والحياكة ، وتعيش قانعة بما يدره عليها هذا العمل الشريف !

وفى الروايات المأثورة عن القرن الحادى عشر ، أن كنيسة « بانتيلمون » التى يرجع تاريخ تشييدها الى عهد جستنيان ، وتيودورا ، كانت قائمة فى مكان ذلك البيت الذى اعتكفت فيه الغانية التائبة بعد عودتها من سورية ، وعاشت مدة من الزمن عيشة أقرب الى الزهد والتنسك . والمأثور أيضا أن تيودورا شيدت تلك الكنيسة لتعبر عن شكرها لله ، بعد توبتها واتصالها بولى العهد ثم الاقتران به ، وارتقاء العرش معه جنبا الى جنب !

# الممثلة المتوجة !

حينما التقى جستنيان وتيودورا ، نحو سنة ٥٢٢ م ، وهو مازال وليا للعهد ، كانت سنه تتراوح بين الثـامنة والثلاثين ، والاربعين . وكان جميلا جذابا ، ذا بشرة زاهية ، وشعر مجعد ، ووجه صبوح ، وقامة معتدلة ، تضمها ثياب فاخرة ، تسبغ عليها اناقة تسترعى الانظار

وكان جستنيان خفيف الروح ، حلو الحديث ، لطيفا مع الناس ، على جانب عظيم من الثقـافة ، فضـلا عن الثروة الضخمة التى يملكها ، ومنصب الامبراطور الذى ينتظره

ولما نجحت المؤامرة التى دبرها رجال القصر ، وجلس عمه جستين على العرش بقى هو وليا للعهد ، مقدما على جميـع رجال الدولة . فقد أغدق عليه عمه الالقاب والنعم ، وجعله قائدا لحامية العاصمة ، واخذ يعده ليكون خليفته على العرش ولم يكن بالعجيب اذن ان تتطلع اليه انظار تيودورا ، الحسناء وان تعمل جاهدة لاكتساب قلبه !

وكان جستنيان بعيد المطامع بعيد الاهداف واسع الحيلة حريصا على أن يسير كل يوم خطوة الى الامام فى سبيل غرضه الاسمى وهو الجلوس على العرش . وقد حصر جهده ، منذ اللحظة الاولى فى ابعاد منافسيه من طريقه ، والتخلص شيئا فشيئا من جميع الاشخاص الذين قد يعترضون ارتقـاءه العرش او يقيمون فى سبيله العراقيل . وقد نجح فى هـذا نجاحا عظيمـا ، بفضل استمالته جميع الاوساط والبيئات فى

المجتمع البيزنطي الى أبعد حد ، ولان حبه للنـــاس جعلهم بدورهم يحبونه بصدق واخلاص !

وكان طبيعيا ان يعطف رجال الدين فى العاصــــــمة على جستنيان وان يحرصوا على تأييده فى جميع خطواته ، ذلك لانه كان متدينا عن ايمان وعقيدة ، متمسكا بمبادىء الكنيسة الشرقية برغم المساعي التي بذلها عمه الامبراطور للتقــرب من روما والكنيسة الغربية !

وعشقته الجماهير لانه كان كثير التجوال فى المدينة ، يختلط بالناس ويلاعبهم ويغدق عليهم العطايا والهبات ويقيم لهــم المآدب الشعبية الشهية من حين الى حين

ولم يجد أعضاء مجلس الشيوخ ، والنبلاء فيه ما يحملهم على الشك فى نواياه أو التأفف منه ، فأخلصوا له كما أخلص لهم

أما عمه الامبراطور فكانت ثقته به لا تقف عند حد ، لعلمه بأنه حكيم حازم كثير التجارب واسع المعرفة بشئون الدولة كبيرها وصغيرها ، وبأنه يعمل بجلد لا يعرف الكلل ، ولا يفوته شيء من دخائل الامور مهما تكن تفاهتها !

وعلى هذا ، فان الشعب كان ينظر الى جستنيان نظره الى الحــاكم الاصــيل ، والامبراطور الحقيقى ، ويكن فى الوقت نفسه لعمه الامبراطور الشيخ عواطف الولاء والاحترام

وهكذا كان كل شيء يدل على أن جستنيان جدير بثقــة الامبراطور وبمحبة الشعب على السواء . كما كان كل شيء يدل على أن هذا الامير الناضج القوي المحبوب ، قد أحب من كل قلبه تيودورا الحسناء ، وبات لا يعدل حبها عنده أى شيء فى الوجود !

وقد حار الناس فى تعليل تلك العلاقة الغرامية التى توطدت بين ولى العهد الراجح العقل ذى الاهداف السامية وبين تلك الممثلة ، ولم يستطع كثيرون منهم أن يكتموا دهشتهم من

قيام تلك العلاقة الغريبة وجعلوا يبحثون عن الاسباب والعوامل التى حملت جستنيان على الارتباط بتيودورا برابطة الحب ، فلم يعثروا على ما يشفى غليلهم . ولهـذا راحوا يقولون : « ان الغانية الحسناء عمدت الى السحر والشعوذة للتسلط على قلب عشيقها !»

ولم يكن هناك ما يدعو الى ذلك . فان الامير الشاب كان يحمل بين ضلوعه قلبا سريع التاثر ، يلتهب من الشرارة الاولى وكان يميل الى مغازلة النساء ، ويصغى باهتمام الى مايروى حوله من مغامرات غرامية ، وفضلا عن ذلك كله كان ضعيف الارادة أمام المرأة ، بل امام كل شخصية قوية ، برغم مظاهر الشدة والعناد التى كانت تبدو عليه !

وفى نفس الوقت كانت تيودورا بارعة الجمال ، حـادة الذكاء ، لطيفة المعشر ، عذبة الصوت والحديث ، تعـرف كيف تأسر قلوب الرجال الذين يتقربون اليها وكيف تبقيهم فى أسر جمالها وظرفها . كما أنها تعودت ان تدرس أهدافها بدقة وترسم الخطة المثلى لبلوغها ، ثم تمضى فى سبيل ذلك فى صبر ومثابرة ، لا يثنيها عن عزمها أى شىء . وهكذا ماكادت ترى جستنيان للمرة الاولى ، وكانت قد علمت عنه كل هـذه الصفات ، حتى قررت اقتناصه ، ورسمت لذلك خطة نفذتها بحذافيرها فكللت بالنجاح !

اما هو فقد وقع فى حبائلها منذ اللقاء الاول . فقد انقض عليه الحب انقضاض الصاعقة . وشعر بأن هناك قوة خفية تدفعه الى أحضان تلك المرأة التى قال عنها فيما بعد : « أن جميع الصفات التى كنت أرغب فى أن أجدها عند المرأة وجدتها مفرغة فى تيودورا ! »

وظل جستنيان وفيا لتيودورا طول حياتها ، وبقى حبه لها قويا عنيفا حتى موتها ، كما كان منذ اليوم الاول الذى لقيها فيه !

وقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين لهما أن جستنيان كان يعد تيودورا الزم له من الهواء ، وقال آخر انها كانت « السعادة الكاملة المجسمة فى امرأة كاملة ! » وكثيرا ما وصفها جستنيان نفسه بأنها اسم على مسمى .. وكلمة «تيودورا » معناها : « هدية الله » أو « هبة الله » . وطبيعى أنه وقد أحبها كل ذلك الحب العنيف لم يكن يرفض لها طلبا أو يبخل عليها بأى شيء تطلبه منه !

كانت تحب المال فاغدقه عليها بلا حساب !

وكانت تهوى المظاهر والالقاب فأقنع عمه الامبراطور بأن يمنحها لقب نبيلة فارتفعت الى أعلى درجات المجتمع البيزنطى !

وكانت عنيدة فى آرائها متشبثة بها ، فعمل جستنيان بجميع تلك الآراء بعد ان وافق عليها ، وأصبح منفذا لارادتها مؤيدا لأهوائها ، صديقا لاصدقائها ، خصما لخصومها !

ولما كانت تحقد على جماعة « الخضر » منذ العهد الذى كانت فيه ممثلة فى ملعب العاصمة ، فقد سايرها جستنيان وناصب الخضر العداء ، وأعلن نفسه مدافعا عن الزرق وحاميا لهم ، الى حد أثار عليه فى النهاية ثائرة النقمة والانتقاد !

وكذلك كانت تميل الى فريق دون آخر من أصحاب المذاهب الدينية ، منذ اقامتها بالاسكندرية ، فاعتنق جستنيان أفكارها وآراءها فى هذا المضمار أيضا ، وسار بعد وفاة عمه على سياسة تتعارض مع السياسة التى كان الامبراطور الشيخ راغبا فى تطبيقها بين الكنيستين المتخاصمتين !



ولقد فطن الشعب سريعا الى العلاقة بين جستنيان وتيودورا فما مرت اسابيع على قيامها بينهما حتى أصبحت حديث الخاصة والعامة فى بيزنطة . بل لقد تخطى خبرها أسوار

العاصمة ، فلم يكن اهتمام الناس بهـــا فى حمص وبيروت وانطاكية والاسكندرية بأقل منه فى بيزنطة ولم يكتم أهل تلك البلاد عجبهم من أن الممثلة الشريرة ، والخاطئـة التائبة ، تلميذة تيموثاوس وسفيروس ، أصبحت من نبيلات بيزنطة، وعشيقة لولى العهد !

ورأى البسطاء من الناس أن هذا الحادث العجيب ليس الا مظهرا من مظاهر العطف الربانى ، وان الله اراد أن يضـع بجانب الامير ولى العهد ، امراة من بيئة وضيعة ، لكى تصبح حامية الشعب وحاملة رغباته وأمانيه الى أصحاب السلطان !

وبدءوا يتوجهون الى تيودورا بطلباتهم وتوسلاتهم . وكان أول ما طلبوه منها ، ان تتدخل لدى جستنيان لكى يقنـع الامبراطور بتخفيف وطأة الاضطهاد عن رجال الدين الذين يخالفونه فى الراى والميول

وقد أجابتهم تيودورا الى رغبتهم وحققت املهم . وكان بين المغضوب عليهم جماعة منالرؤساء الروحيين وأنصارهم، يقيمون فى منفاهم ببلاد العرب ، فأقنعت تيودورا عشيقها بأن يجعل الامبراطور يصفح عنهم ، وسرعان ما راح يسعى فى هذا السبيل لارضـاء رغبتها ، فكلل مسـعاه بالنجاح ، وعفا الامبراطور عن أولئك المنفيين ، وسمح لهم بأن يذهبوا الى الاسكندرية ليعيشـوا فيها بين زملائهم الذين تجمعهم واياهم وحدة العقيـدة ووحـدة الرأى . وكان ذلك نصرا عظيما للمرأة الساحرة ، ودليلا على نفوذها وقدرتها وحسن تدبيرها !

وحدث فيما بعد ما هو أعجب من ذلك وأبعد أثرا ، فقد تمكن الحب من قلب جستنيان الى حـد أنه أعلن ذات يوم أنه راغب فى اتخـاذ عشـيقته زوجة حليـلة . ويظهر أن

الامبراطور جستين الطيب القلب لم يمانع كثيراً فى اقدام ابن أخيه وولى عهده على ذلك الزواج المخالف للعرف والتقاليد والكرامة . وكان هذا هو المنتظر لان هذا الامبراطور نفسه نشأ جنديا ولم يكن ينحدر من سلالة ملوك أو امراء أو نبلاء ، ولذلك لم ير ضيرا فى أن يتزوج ابن أخيه من راقصة الملعب التى اتخذها خليلة له . ومما يذكر أن الامبراطور العظيم كان هو الآخر قد تزوج جارية مجهولة الاصل ، بعد أن اتخذها عشيقة له فى خلال توليه قيادة الجيش الرومانى لفتح بعض البلدان . وقد رافقته فى غزواته وحروبه ، ثم تزوجها وأجلسها على العرش يوم بايعه الروم بالملك على أثر انتصاراته الباهرة !

فلماذا اذن يمانع الامبراطور جستين فى زواج جستنيان من تيودورا ؟.. على أن العراقيل جاءت من حيث لم يكن أحد يحتسب فقامت المعارضة فى زواجه بتيودورا ، لا من الامبراطور عمه ، ولا من أحد من رجال الحكومة أو الجيش أو رجال الدين ، بل جاءت هذه المعارضة من جانب الامبراطورة « أوفاميا » زوجة الامبراطور الشيخ وعشيقته السابقة المجهولة الاصل !!

نعم ، ان الجارية التى توجها جستين امبراطورة فى بيزنطة ، عارضت بكل قوتها فى أن يتزوج ولى عهد زوجها من امرأة من بنات الشعب ، لانها فيما يبدو لم تكن تريد أن تصل امرأة غيرها الى عرش بيزنطة ، بالطريقة التى وصلت بها هى اليه !

وأيا ما كانت الاسباب التى حدت بالامبراطورة الى هذه المعارضة فقد كانت مفاجأة صعق لها جستنيان وثارت ثائرة تيودورا . بينما ضحك الشعب البيزنطى لذلك كثيرا !

وقد حاول الامبراطور جستين أن يقنع زوجته بالعدول عن موقفها ، لكنها لم تقتنع . ومما يزيد فى غرابة ذلك الموقف

ان أوفاميا لم تكن تكره جستنيان أو تحتقر الشعب الذى خرجت منه . ولـكنها كانت تقـول ان تكرار الخروج على العرف والتقاليد والقانون فيه ضرر كبير من شأنه أن يؤثر فى مركز الاسرة المالكة وسمعتها . واذا كان زوجها جستين قد رفعها الى العرش ، فان هذا لا يعنى أن سـلم العرش أصـبح فى متنـاول جميع الاقدام ، ترتقيه بنـات الشعب الوضيعات كما ترتقيه بنات الاسر النبيلة سواء بسواء !

غير أن الاقدار حلت المشـكلة .. فقد ماتت أوفاميـا فى سنة ٥٢٣ ، وجاء موتها فى الوقت المناسب . وهدأت ثورة جستنيان ، وعشيقته . ولم يبق عليهما الا التمهيدالقانونى للزواج المنشود !

وكان القانون البيزنطى يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ ، وذوى المنـاصب الرفيـعة فى الدولة ، الـزواج من الاماء والخادمات والممثـلات وغيرهن من النسـاء اللواتى يحترفن حرفة معيبة أو وضيعة . ولكن لم يكن من الصـعب على جسـتنيان أن يقنع عمه بالغـاء هذا القـانون أو بتعديله . وهكذا رضى الامبراطور بادخال التعديل المطلـوب على ذلك القـانون ، ونص فيه على ان المرأة التى تنطبق عليها احكام هذا القانون ، اذا حسنت سلوكها ، وتطهرت من خطاياها ، وخرجت من البيئة التى تعيش فيها ، يحق لها أن تتزوج أى رجـل من رجال الدولة ، بشرط أن تحصـل على اذن من الامبراطور !

وذهب التعـديل الى أبعد من هـذا ، فنص على أن كل ممثلة ممن ينطبق عليهن القانون المعـدل ، اذا أنعم عليهـا برتبة ، أو تولت منصبا من المناصب ، فان ذلك يكون كافيا لاعفائها من الحصول على الاذن الامبراطورى . وقد وضع هذا التعديل الاضافى خاصة لاعفاء تيودورا من طلب التصريح لها بالاقتران بالامير ولى العهد . ولكى يصبح كل شىء على

خير ما يرام ، أضيف الى التعديل أيضا أن بنات الممثلة التى تتزوج بمقتضى هذا التعديل لا يطبق عليهن القانون المذكور، ولا يفرض عليهن طلب الاذن من الامبراطور لعقد زواجهن ، سواء أكان مولدهن قبل توبة الام أم بعدها . وهكذا أصبحت ابنة تيودورا أيضا فى حل من كل قيد ، اذا أرادت أن تتزوج !

وقبل أن يتزوج جستنيان عشيقته تيودورا ، نفحها بائنة باهظة جعلتها فى مصاف الاغنياء . ولم يقابل البيزنطيون هذا الزواج بشىء من الامتعاض . ولم يتأفف منه غير بعض المحافظين المتمسكين بالتقاليد ، ممن رأوا فى هذا الحادث دليلا على أن جستنيان قليل الاهتمام بمكارم الاخلاق ، فى حين كان بوسعه أن يختار زوجته من بنات الاسر النبيلة الغنية أو من بنات الملوك فى الشرق أو الغرب !

ولم تصدر كلمة اعتراض واحدة عن مجلس الشيوخ أو الجيش أو رجال الكنيسة . اما الشعب ، فقد تذكر أنه طالما صفق لتيودورا الممثلة فى ملعب العاصمة ، فراح من جديد يصفق لها وهى على مدارج العرش !

وما كادت تعقد زواجها ، حتى بدأت تتدخل فى شئون الدولة ، بوصفها شريكة ولى العهد فى نشاطه ومسئولياته ، وقد رضى هو بذلك كما رضى به الامبراطور الشيخ الذى غمرها بعطفه وحنانه ، منذ عرفها ووافق على زواجها

والواقع أن تيودورا كانت بجانب عيوبها الكثيرة تمتاز بفضيلة نادرة ، هى الوفاء للاصدقاء الذين عرفتهم وأحبتهم . وكان رجال الدين المضطهدون أول من تجلت لمصلحتهم وفائدتهم هذه الفضيلة التى لازمتها طول حياتها . فقد أدركت تيودورا ، بثاقب نظرها ، مبلغ الضرر الذى يعود على الامبراطورية من جراء تفاقم الخلافات المذهبية ، والاضطهاد القائم على التعصب . وبدأت من فورها تبذل جهدها لوضع حد حاسم لذلك الاضطهاد فرسمت لذلك

خطة جريئة راحت تمهد لها وتنفذها بسرعة مقرونة بالدقة والمهارة ، بحيث لا تغضب أحدا ولا تثير شكوك أحد !

ومن اجل ذلك دعت جميع المغضوب عليهم من الامبراطور ومن رجال الذين الموالين له ، الى بيزنطة حيث أنزلتهم ضيوفا عليها . وقد لبوا هذه الدعوة الكريمة جميعا شاكرين مغتبطين ، فوضعت تحت تصرفهم دارا فسيحة فخمة اقاموا بها . وأجرت عليهم الارزاق واغدقت عليهم الهبات ، ثم وقفت نشاطها وجهودها وبراعتها على التوفيق بين المتخاصمين وتقريب وجهات النظر فيما بينهم وازالة أسباب الجفاء واقتلاع جذور الاحقاد من الصدور . وبرغم ما كان فى ذلك العمل من خطر عليها ، ومن تحد لخصوم أولئك المغضوب عليهم ، فقد كلل التوفيق مساعيها ، وعرفت كيف تفرض ارادتها وتصل الى أغراضها !

ان تيودورا كانت تتمتع بسلطة لم تكن هى نفسها قد ادركت بعد مداها ، وبنفوذ لم تكن بعد قد لمست قوته !. فزواجها من جستنيان ، الامير المحبوب ، ضاعف حب الناس لها ، لانها من بنات الشعب . فصعد نجمها جنبا الى جنب مع نجم الزوج الذى اختارها شريكة لحياته . وبعد أن كان الامبراطور قد منحها لقبا نبيلا قبل الزواج ، عاد فمنحها لقبا أرفع منه بعده . وفى شهر ابريل سنة ٥٢٧ ، أصدر جستين مرسوما امبراطوريا يقضى بأن تكون تيودورا ، مثل جستنيان ، شريكته فى العرش . وبعد ايام من ذلك الاعلان الرسمى الصريح ، عقد أعضاء مجلس الشيوخ جلسة فى بهو القصر الامبراطورى ، حضرها مندوبون عن الجيش والحرس ، وصعد الامبراطور جستين الى منصة العرش ، واعلن مرة أخرى أن ابن أخيه جستنيان أصبح امبراطورا ، وأن زوجته تيودورا أصبحت امبراطورة تشاركه السلطة والحقوق والواجبات !

ووقف بطريرك القسطنطينية « ابيفانوس » عن يمين الامبراطور الشيخ وتلا الصلوات المعتادة فى مثل هذا الظرف، ورد عليها الحاضرون بكلمة واحدة ودعاء واحد : « آمين ! » . ثم نزع جستين التاج عن رأسه ، ووضعه بيده على رأس ابن أخيه وشريكه فى الملك جستنيان وهتف الحاضرون ثلاثا للامبراطور الجديد ، ورفع جستنيان يده شاكرا ، ووعد الجنود بمكافأة مالية عملا بالتقاليد المرعية !

وبعد ثلاثة أيام ، أقيمت حفلة رسمية فى كنيسة القديسة صوفيا ، بمناسبة عيد الفصح ، فبدت الازهار والاكاليل والانوار المتلألئة تسبغ على المكان رونقا جديرا بتلك المناسبة الجليلة وذلك العيد المزدوج . وقام البطريرك باجراء المراسيم الدينية لتكريس الامبراطور الجديد ودهنه بالزيت المقدس

ووقف جستنيان بردائه الارجوانى ، وقميصه المموه بالذهب والمرصع بالاحجار الكريمة ، وفى قدميه حذاء بلون الرداء ، وحول وسطه حزام مرصع بصفوف من الجواهر وعلى رأسه تاج الملك، وفى عنقه ومعصميه الحلى الامبراطورية المتوارثة ، وتسلم السلطة العليا فى الدولة الرومية الشرقية!

ووقفت تيودورا بجانبه ، تشاركه العظمة والمجد والتكريم ، وقد وضعت على كتفيها رداء بنفسجيا ، ينتهى بذيل طويل من خيوط الذهب ، وعلى رأسها التاج وفى شعرها المسترسل عقود من الماس وغيره من اللآلىء الثمينة تتساقط على كتفيها كمطر من نور !

وبعد ان توجت الممثلة السابقة امبراطورة على الشرق مع زوجها العاشق المتيم ، فى الكنيسة التاريخية ، خرجت معه الى الممرات المزدانة بالازهار والرياحين والاعلام ، ورافقته الى الملعب حيث تلقت هتاف الجماهير وتصفيقهم ، فى المكان الذى كانت من قبل ترقص فيه وتمثل وتغنى ! وهكذا تحقق لها حلمها الجميل !

وفى السـنة ذاتها ، فى اول اغسطس سـنة ٥٢٧ ، مات جستين تاركا الملك لابن أخيه الذى لم يجد اية صعوبة فى الاحتفاظ بالعرش . وظلت تيودورا بجانبه تشـاركه المجد والمتاعب !

وحكمت الممثلة السابقة احدى وعشرين سنة ، من سنة ٥٢٧ الى سـنة ٥٤٨ ، كانت فيـها مطلقة التصرف حاكمة بامرها ، على عرش اعظم دولة عرفها العالم فى ذلك العهد !



# امرأة وأسطورة !

ان قصة تيودورا قبل ارتقائها العرش أكثرها مأخوذ عن المؤرخ « بروكوبس » . فهو وحده من بين المؤرخين الذى عنى بتدوين تلك الحقبة من حياة الامبراطورة العظيمة ، فى كتابه الذى سماه « التاريخ السرى » وقد بقى هذا الكتاب مطويا كما خطه مؤلفه حتى كشف عنه فى أوائل القرن الثامن عشر فكان المصدر الوحيد الشامل الذى يمكن الرجوع اليه فى هذا الشأن !

ولكن هل يجب أن نصدق كل ما جاء فى هذا الكتاب عن تيودورا وعن سلوكها الشائن ، وسمعتها الملطخة ، وما الصقه بها بروكوبس من أعمال يندى لها الجبين ؟

يحق لنا أن نتساءل : اذا كانت تيودورا تلك المرأة التى وصفها بروكوبس ، فكيف لم يجرؤ أحد غيره على التحدث عنها بمثل ما تحدث به من قسوة وحرية ؟

ان الناس كانوا ينتقدون الملوك والملكات والعظماء فى ذلك العهد ، ويوجهون اليهم أفظع التهم جهارا ، فكيف لم يعمد واحد منهم الى تدوين مثل ما دونه بروكوبس عن تيودورا ، فى حين أن خصوم جستنيان حملوا عليه حملة شعواء ، وقذفوه بعبارات جارحة وصل صداها الينا من خلال صفحات التاريخ من غير أن يذكروا فى حملاتهم كلمة عن المرأة التى يصفها بروكوبس بأنها من أنذل النساء الساقطات ؟ .

وكيف يمكن أن يضرب جستنيان عرض الحائط بجميع الاعتبارات ، ويتزوج امرأة ملطخة بالعار الى هذا الحد ،

وهو الامير الموعود بالعرش ، الحكيم المثقف ، البالغ نهاية العقد الرابع من العمر ؟

يبدو لنا ان الحقيقة لاتطابق تماما ماذكره بروكوبس ، وانه قد بالغ فى تلطيخ سمعة تيودورا لغرض فى نفسه . ولا شك ان تيودورا ارتكبت كثيرا من الهفوات والاخطاء التى تؤخذ عليها ، ولكن مثل تلك الهفوات والاخطاء كان الناس فى ذلك العهد ينظرون اليها بعين غير التى ننظر بها نحن اليوم الى مثلها . وفى هذا ما يفسر لنا سكوت معاصرى تيودورا عن سلوكها الشخصي وسيرتها قبل ان تصبح امبراطورة على رأسها التاج !

ولقد ذكر لنا التاريخ أسماء طائفة كثيرة العدد من الامراء والنبلاء والاغنياء ورجال الحكم ورجال الدين والقواد فى مختلف عهود الامبراطورية البيزنطية ، ومن بين هؤلاء كثيرون ، عمدوا الى انتشال النساء الساقطات من بؤرهن ، واتخذوا منهن زوجات حليلات . وكان الرأى العام ينظر الى ما أقدم عليه أولئك الاشخاص المحترمون على أنه عمل انسانى أراد به صانعوه اكتساب الاجر والثواب !. فلكل عصر من العصور ولكل شعب من الشعوب ، آراؤه ونظرياته وعقليته . وتلك كانت عقلية البيزنطيين المستمدة من عقلية الرومانيين ، وتلك كانت نظرياتهم وآراءهم !

من أجل ذلك ، نميل الى الاعتقاد بأن تيودورا لم تكن كما وصفها بروكوبس ، ولكنها على كل حال كانت تلك الراقصة والمغنية والممثلة التى سقطت ومشت فى الطريق الذى تسلكه مثيلاتها ، ثم حاولت الخروج من البؤرة التى تردت فيها ، ونجحت فى محاولتها ، فندمت على مافرط منها . ولما وجدت الرجل الذى تطمئن اليه ، أخلصت له ، واستقرت فى حياتها الزوجية ، ووجدت عزاء فيما أصابته من مجد وسؤدد ، وفيما انصرفت اليه من تدين وتعبد !

ان تيودورا امرأة مغامرة ، هذا مالا شك فيه . وهى ملطخة بالعار ، هذا ما لا سبيل الى انكاره . ولكنها امرأة ذكية نبيهة بارعة فى كل شىء ، عرفت كيف تتخلص من عارها ، وتمحو سيرتها القديمة الشائنة بسلوكها طريق الخير وخدمة المصلحة العامة والاحسان الى شعب خرجت منه وحكمته وأحبته !

ان ماحدث لتيودورا ، التى ارتفعت من الحضيض الى الاوج الاعلى ، كان له أثر بعيد فى مخيلة مواطنيها ومعاصريها . فقد دهشوا له وكانت دهشتهم فى محلها . وليس عجيبا اذن ان يتناول الناس تلك الحياة العجيبة بعد موت تيودورا وأن يزيدوا فى وقائعها وعلى حواشيها وهوامشها ما شاء لهم الخيال حتى غدت أقرب الى الاساطير منها الى حقائق التاريخ !

لقد كان الغربيون والشرقيون على السواء يتحدثون عنها وعن صعود نجمها المفاجىء واعمالها العظيمة بكثير من الاعجاب والتقدير . وراحوا يضيفون الى ما سمعوه وعرفوه وقرءوه تفصيلات من عنـــــدهم . فنسج البيزنطيون والسوريون والمصريون والصقالبة والعرب وغيرهم ممن كان لتيودورا أو لزوجها صلة بهم ، خيوطا من الخيال حول حياتها ، وتحولت هذه الخيوط مع الوقت الى نسيج جلل تلك الصورة العجيبة وأحاطها بهالة جعلتها تبدو كقصة مثيرة رائعة وان كانت فى الوقت نفسه لا يمكن أن تكون حقيقة مجردة من الخيالات والاوهام !

وهكذا وصلت الينا تلك الاوصاف التى علقت بتيودورا ، بعضها ممزوج بالعطف والتغاضى عن السيئات ، وبعضـــها مصحوب بنقد لاذع جارح ، وبعضها فيه لين وفيه قسوة معا فى آن واحد !



والغريب فى تاريخ هذه المرأة ، ان الذين صاغوا لها عقود

المديح قد بالغوا فى مديحهم ، وان الذين كالوا لها الذم قد بالغوا فى ذمهم . فلابد لمعرفة الحقيقــة من استيعاب أقوال هؤلاء وأولئك ثم تحكيم العقل والمنطق ، وأخذ مايمكن تصديقه من أقوال الفريقين ، وصـــياغته فى قالب جديد بعيد عن قالب الاساطير !

ولقد ثبت ان البيزنطيين الذين اغدقت عليهم تيودورا عطفها واحسانها قد أرادوا أن يجعلوا منها قديسة طاهرة ! ومنذ القرن التاسع ظهرت فى بيزنطة سيرة جديدة للامبراطورة تيودورا ، طهرتها من كل رجس ونفت عنها كل عيب . وبلغ من حماسة أحد هؤلاء المؤرخين أن قال عنهـــا : « ان جميع الفضائل التى منحها الله للناس قد أفرغت فى تيودورا . . ! »

وأكد غير واحد من المؤرخين الصقالبة انها كانت أجمـل نساء عصرها ، وأشدهن ذكاء ، واقواهن شكيمة

وخرج المؤرخون السوريون عن حدود الاعتدال ، فقالوا : أن تيودورا لم تكن ممثلة ولا راقصـــة ولا لاعبـــة فى ملعب بيزنطة ، بل كانت ابنة رجل من أعضاء مجلس الشـــيوخ . واضافوا الى هذا قولهم : ان أباها المحترم تردد كثيراً قبل أن يرضى بأن تصبح زوجة لولى العهد ، واشترط فى النهاية ان يقسم جستنيان بأن يكون حاميا للكنيسة الشرقية فى جميع الظروف والاحوال

ولا شك فى أن السوريين أرادوا أن يجعلوا من تيودورا امرأة من أصل رفيع ليس بالوضيع ، لانهم أحبوهـــا اكثر من غيرهم من رعايا الامبراطورية ، بسبب مواقفها الجريئة فى الدفاع عن رؤسائهم الروحيين ، ورجال كنيستهم !

على ان الغرب اسطورة عن تيودورا هى بلا شك تلك التى دونها المؤرخ الفرنسى « ايموان دى فلورى » فى القرن الحادى عشر . وقد وجدت مخطوطة فى أحد الاديرة

ومما جاء فى أقوال هذا المؤرخ الخصب المخيلة أن : «جستنيان

وصديقه بليزير كانا من قواد الجيش البيزنطى . وحدث مرة ان التقى الصديقان بأختين جميلتين هما : أنطونيا وانطونينا ، وهما من سلالة النساء الفارسات اللائى ينتمين الى احدى الممالك الواسعة على ساحل البحر الاسود ، وكان اللقاء فى بيت من البيوت المشبوهة فى القسطنطينية ، بعد أن وقعت الفتاتان أسيرتين فى أيدى البيزنطيين ، وانتهى بهما المصير الى ذلك البيت الموبوء ، حيث سقطتا فى هوة العار وسرعان ما أحب بليزير واحدة منهما ، وأحب جستنيان الاخرى . وذكرت هذه لجستنيان ان عرافة فى بلادها تنبأت لها وهى صغيرة بأنها ستعرف شابا وترتبط معه برابطة الحب ، وأن ذلك الشاب سيصبح ملكا . وطلبت منه أن يقسم لها لئن تحققت هذه النبوءة ليتزوجن منها ويتوجها ملكة معه ! فأقسم جستنيان وترك بين يدى الفتاة خاتما ثمينا ، كعربون لوفائه ! »

ثم تمضى الاسطورة قائلة : « ان الصلة ما لبثت قليلا حتى انقطعت بين الشابين والفتاتين ، ثم دارت الايام دورتها واذا بجستنيان يتبوأ عرش بيزنطة خلفا لعمه جستين وآذا بامرأة تصل الى القصر ، وتطلب مقابلة الامبراطور ، فلما أذن لها بمقابلته لم يعرف أنها هى حبيبته أنطونيا الا بعد أن وضعت أمام عينيه ذلك الخاتم الذى تركه لها يوم أن تقابلا فى البيت المشبوه ، ثم طلبت اليه أن يبر بقسمه ويفى بوعده لها. ولما كان حبها قد عاد الى قلبه فانه لم يسعه الا أن يجيب طلبها على الفور فاتخذها زوجة له ونادى بها امبراطورة بجانبه لتشاركه التاج والمجد والحياة كلها . وقد ارتفعت أصوات بعض الشيوخ بالاحتجاج ، ولكن جستنيان عرف كيف يبطش بالمعارضين ، وهكذا شاركت انطونيا زوجها فى ملكه وعرشه !»

وانطونيا التى روى المؤرخ الفرنسى قصتها هى تيودورا نفسها بدمها ولحمها . ويتضح من هذه الرواية الى أى مدى بلغت شهرة هذه الامبراطورة التى كانت راقصة وممثلة ، وكيف

داعبت مغامراتها مخيلة الكتاب فخلطوا فى احاديثهم عنها بين التاريخ والقصص ، وبين الحقائق والاساطير !

وممن تحدثوا عن تيودورا الامبراطورة ، رجل من كبارالآباء الروحيين وأعلام الكنيسة هو الاسقف يوحنا ، وقد وصفها بأنها امرأة ساقطة. وهو وصف يتفق مع ماذكره عنها بروكوبس فى كتابه « التاريخ السرى » الذى أشرنا اليه



ويمكننا اليوم أن نلخص فى سطور ، بل فى كلمات ، حياة تيودورا العجيبة ، بفضل ما أسفرت عنه الابحاث والدروس

انها فتاة من أصل وضيع ، عملت فى ملعب بيزنطة ، ومارست طائفة من الحرف ، وكان سلوكها مدعاة للنقد ومجلبة للعار . ولكن الناس لم يعرفوا عنها الشىء الكثير فى ذلك الوقت ولم يلتفتوا اليها أكثر من التفاتهم الى أية امرأة أخرى من نوعها . ولكن ، بعد أن أصبحت الراقصة امبراطورة ، وبعد أن انتقلت من الملعب الى العرش ، راح الناس يروون عنها ما يشاءون ، بعضهم يمدحها ، وبعضهم يقدحها ، وآخرون يجمعون بين المدح والقدح . ولكن أعمال تيودورا الامبراطورة قد غطت على كل ماعداها ، وكانت جديرة بأن تغطى على كل ما كانت عليه تيودورا الراقصة !

والحقيقة قد تكون أحيانا أغرب من الاساطير !

# الفصل الثاني

## الامبراطورة

# القصر المقدس

فى القــرن الســادس كان القصر الامبراطورى فى بيزنطة يشغل الربوة القائمة بين الملعب والبحر ، الى غرب كنيسة آيا صوفيا ، ويمتد على سفوحها من القمة الى ساحل بحر مرمرة

ولم يكن ذلك القصر شبيها بالقصور الملكية فى أيامنا هذه، اى لم يكن مكونا من دار فخمة أمامها ميدان فســيح . بل كان مثل قصور السلاطين العثمانيين ، ومثل الكرملين مقر القياصرة فى روسيا ، يضم خلف أسواره طائفة من المبــانى المنوعة المتعــددة ، بينها قاعات الاســتقبال والكنــائس ، والحمامات والملاعب والمسارح ، والثكنات والاديرة ، والدور الفخمة ، والبيوت المتواضــعة ، والمســاكن البســيطة ، والشرفات الفسيحة المطلة من بعيد على البحر والســاحل الاسيوى

اى ان القصر كان مجمــوعة ضخمة من المبــانى المختلفة تربط بعضها ببعض شبكة من الطرق المرصــوفة بالبلاط ، ومن الممرات والدهاليز والســلالم ، وتكتنفها كلها حــدائق الازهار وبساتين الفاكهة الممتــدة الى حيث تتكسر الامواج على الشاطىء !

وبعبارة أخرى ، كان ذلك المقر الامبراطورى مدينة داخل مدينة بيزنطة ، تحوطها الاسوار ، وتخفيها جدرانها العالية عن الانظار ، ويتجلى فيها البذخ والترف ، وتقام بها المآدب والحفلات الصاخبة ، وتتم فى نطاقها الدسائس والمؤامرات،

وتجرى بين جوانبها حياة خاصة ، حيـاة امبراطور بيزنطة حياته التى لاتجاريها ولا تشبهها حياة أى أحد سواه من أصحاب التيجان ؟!

وكان ذلك المقر يعرف باسم « القصر المقدس » ولم يكن فى العالم ، فى ذلك العهـد ، قصر آخر يضـاهيه فى ضخامته وفخامته وروعته وبدائع هندسته وزخرفتـه وتنسيقه ، ومقدار مايحويه من تحف وكنوز !

كان مدخله الرسـمى من ميـدان الامبراطور ، ومن باب هائل من البرونز المزخرف . وخلف البـاب مبـاشرة قاعة الانتظار التى أنشأها جستنيان نفسه ، وافرغ فيهـا أروع ما وصل اليه فن الزخرفة . وعلى جدران تلك القـاعة الفسيحة ، رسمت بالفسيفساء جميع المعارك التى انتصر فيها الاباطرة على أعدائهم

وتجىء بعد هذه القاعة البديعة ثكنـات الحرس ، ومنها ينتقل الزائر الى نطاق القصور المتتابعة . وكانت قاعةالعرش تحفة من تحف الدهر . وفيهـا كان الامبراطور يسـتقبل السفراء والمبعوثين ووفود الملوك . وأبواب هذه القـاعة من العاج الناصع البياض ، من ناحيـة ، ومن الناحية الاخرى أبواب من البرونز . والارض والجـدران مغطاة بالفسيفساء والرسوم والحجارة الكريمة وخيوط الذهب والفضة !

وفى الاجنحة المخصصة لسـكنى الامبراطور والامبراطورة ، تكدست التحف بين قطع الاثاث الفـاخر ، وتوفرت جميع أسباب الراحة والمتعة . ومن هذه الاجنحة تبدأ الدهاليز الواسعة والممرات المزدانة بالرسوم ، والموصلة الى الملعب من ناحية ، والى كنيسة أيا صوفيا من ناحية اخرى

فحياة الشعب البيزنطى اذن تدور حول هذين المحورين ، الملعب ، والكنيسة ، الصلاة واللهو ، الخشوع والضوضاء ،

الهــدوء والصخب . وحيــاة الامبراطور أيضــا موزعة بين الاثنين !

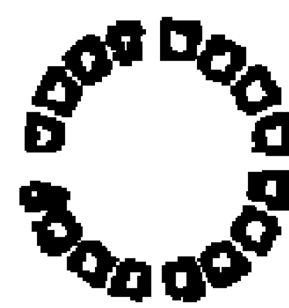
ويعجز القلم عن وصف ما كانت تحويه تلك القصـــور ، وما ضمته بين جوانبها وأجنحتها المعدة لســكنى الامبراطور والامبراطورة ، فضلا عن محتويات الكنائس والمتاحف وبيت المال والمسارح الخاصة والحمامات وغيرها !

اما ســكان المقر الامبراطورى فانهم يؤلفون شـعبا قائما بذاته داخل الاسوار . فهناك أصــحاب المناصب الرفيعة ، وكبــار الموظفين ، والقواد والجنــود ، ورجال التشريفــات وحاشــية الامبــراطور والامبــراطورة ، والمشرفــون عــلى الاسطبلات وما فيها من خيــول مطهمة ، وعلى المركبــات المرصعة بالجواهر ، وهنــاك الاســاقفة ومن اليهم من رجال الدين بين قساوسة ورهبان وشمامسة وغيرهم . وهنــاك جيش من النساء فى خدمة الامبراطورة

وكانت المراســيم تجرى داخل تلك القصور على الطريقة التى كانت متبعة فى روما وورثهــا اباطرة الشرق عن أباطرة الغرب . وهى تفوق بأبهتها ما كان معروفا عن الاكاسرة أرباب التيجان وســادة البــذخ والعظمة . فالامبراطور البيزنطى اشبه بالالة .. فى نظر رعيته ، لانه صــاحب السلطان الذى لا تعلو كلمة على كلمته غير كلمة الله . ولهذا ، فان رجال الدين وحدهم كانوا يجدون فى أنفسهم الجرأة الكافية للوقوف أمام الامبراطور وتحــديه . فالشــعب لا يرضى بأن ينــاقش الامبراطور فى غير الشئون المتعلقة بالدين والعقيدة . وقد حدث غير مرة أن اقتحم اساقفة من مصر أو ســورية أو فينيقيــا أبواب القصر ، ووجهوا الى الامبراطور عبــارات جارحة فيها لوم وفيها عتاب وفيها قذف !. وكانت قاعات القصور تتحول الى حلبة صراع عنيف بين القابض على زمام القوة المادية ، وبين القابض على زمام السلطة الروحية . وفى

عهد جستنيان توالت احتجاجات رجال الدين وبلغت جرأتهم حدا أوشك معه الامبراطور أن يفقد صبره ويقدم على أعمال طائشة ، لولا أن تدخلت تيودورا وبذلت براعتها ولباقتها لتجنب الكوارث !

وهناك فى داخل ذلك المقر الامبراطورى ، كانت تيودورا ترسم الخطط وتعد العدة لتنفيذها. وهناك كانت تستضيف المغضوب عليهم ، وتحميهم سرا ، وتمهد السبيل لاعادة الصفاء بينهم وبين الامبراطور . ومن داخل ذلك « القصر المقدس » حكمت المرأة العجيبة أوسع امبراطورية فى ذلك العهد ، وهناك أيضا تمتعت بملذات الحياة الى أبعد ما يمكن أن يتمتع بها انسان ، فى جو من العظمة والبذخ . ولكنها ظلت وفية لاصدقائها ، وفية للشعب الذى أحبها وأحبته !



# فى قصر البوسفور

لم يذكر التاريخ ان ملكة ما أحبت البذخ والترف بقدر ما أحبتهما تيودورا . ولم يحدث أن حفظ التاريخ اسم امرأة مارست السلطة العليا بمثل المهارة التى مارستها بها تلك الممثلة المتوجة ابنة حارس الدببة !

كانت تيودورا منذ نشأتها تميل الى التبرج والبهرجة والزينة . فلما استقرت فى القصر المقدس ، بذلت فى هذا المضمار كل ما فى وسعها من أساليب التغنى ، فبلغت اقصى ما يمكن أن تبلغه امرأة من الاناقة والذوق السليم والاختيار الحسن !

وكانت تحلم بأن يكون لها قصر فخم خاص ، فيه قاعات فسيحة جميلة ، وازياء بديعة ، وحلى ومجوهرات نادرة . فسعت حتى تحقق لها ذلك الحلم وكان لها ما أرادت وزيادة !

ولما كانت شديدة العناية بنفسها ، والمحافظة على جمالها فقد صار فى وسعها ، وهى امبراطورة ، أن تسرف ما شاء لها الاسراف فى الانفاق فى هذه النواحى ، فلم تضن على جمالها بشىء من مستلزمات المحافظة والعناية ! وكان لها فى ذلك أسلوب خاص ظلت مثابرة عليه طول حياتها . فكانت تنام كثيرا ، ولا تنهض مبكرة فى الصباح ، ولا تحرم نفسها من الراحة بعد الظهر . كما كانت تكثر من الاستحمام وتعود الى الراحة بعد كل حمام . ولم تكن تنظر الى جمالها بوصفه وسيلة من وسائل الاغراء أو سلاحا لابقاء سيطرتها على زوجها وغيره من الرجال ، بل كانت تعتقد ايضا أن الملكة

الجميلة تروق فى أعين رعيتها ، وأن الشعب يؤثر الا تكون له ملكة ، على أن تكون ملكته قبيحة الصورة أو تافهة الجمال . ولهذا السبب خاصة ارادت تيودورا أن تبقى جميلة ساحرة ، لكى يفتتن بها الشعب الذى جعلتها الاقدار ملكة عليه

ولم تكن عنايتها بمائدتها تقل عن عنايتها بشخصها . وقلما ذكر التاريخ مآدب بلغ فيها التفنن والسخاء ما بلغاه فى مآدب تيودورا . وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور جستنيان يتوخى البساطة ، كل البساطة ، فى مأكله ومشربه ، فلا تمتد يده الى خمر ، ولا يأكل حتى الشبع ، ويكتفى بقليل من الخضروات ، وكثيرا ماكان يعمد الى الصوم بضعة أيام بلياليها ، اشباعا لرغبته فى التقشف والتعبد ، كانت تيودورا تحرص كل الحرص على ان تصنع عكس هذا تماما . فتفرض أن يقدم على مائدتها أطيب ألوان الطعام وأشهاها واغلاها ، والذ انواع الشراب واعتقها . كما كانت على النقيض من زوجها الذى يؤثر تناول طعامه وحيدا أو برفقتها وحدها ، فتدعو الى مائدتها نخبة كثيرة العدد من عظماء الدولة أو الضيوف الاجانب الممتازين !

وفى الوقت نفسه كانت تيودورا مولعة بمظاهر الملك : تريد حاشية كبيرة ، وحرسا لا عداد له ، ووصيفات كثيرات ، ومواكب لها أول وليس لها آخر . ولم يكن اسرافها فى هذه الناحية يقف عند حد . بل لم يكن يكفيها أن تكون مراسم التشريفات معقدة ، فكانت تعمد الى زيادة تعقيدها فى كثير من الاحيان !

كان الامبراطور يقابل كل شخص يريد المثول بين يديه ، ويغض الطرف عن الهفوات التى تبدو من جانب الذين يقابلهم ، ولا يؤاخذ احدا على مخالفته التقاليد والانظمة المتبعة فى مثل هذه الاحوال . أما تيودورا ، فكانت على عكس ذلك ، تفرض على الجميع شروط المجاملات والمصطلحات التى

تنص عليها القوانين واللوائح . وقد ظلت ـ بعد أن اعتلت العرش ـ متمسكة بما الفته على المسرح من الخضوع لمقتضيات الاخراج والتمثيل : ظلت تمثل على منصة العرش كما كانت تمثل على خشبة المسرح !

وكانت متكبرة شديدة الاعتداد بنفسها ، خصوصا بعد أن واتاها الحظ فاعتلت العرش . وقد دفعها ما ركب فى طبيعتها من كبرياء واعتداد بنفسها الى التمسك باقامة فاصل بينها وبين الناس ، ووضع حد لرفع الكلفة بينها وبين أقرب المقربين اليها . ولعلها كانت تجد لذة خاصة فى رؤية العظماء يحنون الرءوس امامها ، بعد ان كانوا بالامس ينظرون اليها نظرات لا تخلو من الاحتقار والازدراء ، يوم كانت تبدو أمامهم فى ثياب الرقص وازياء التمثيل !

وكانت التقاليد المرعية فى قصر بيزنطة الامبراطورى كثيرة الشعاب ، متنوعة الوجوه . فقد اختفت شيئا فشيئا تلك البساطة التى امتاز بها القياصرة الاولون ، وحل محلها قانون يحدد لكل طبقة من طبقات الناس حركاتهم وسكناتهم . واتسع نطاق النشاط داخل القصر فى عهد تيودورا وجستنيان ، واتخذت الحياة خلف أسوار المقر الامبراطورى شكلا جديدا ، فالامبراطورة تريد ــ والامبراطور يجاريها فى ذلك اكراما لها ــ أن يحضر الى القصر كل يوم جميع من يشغلون مناصب كبيرة فى دوائر الدولة ، وجميع من تقع على عواتقهم مسئوليات الحكم والادارة ، وتيودورا ترى فى ذلك وسيلة من وسائل الاشراف على سير الامور ، ومراقبة كل واحد من أصحاب المناصب المسئولين ، من غير أن يبدو أن هناك تعمدا فى الاشراف والمراقبة !

ولما كانت جميع شئون الدولة تقضى داخل القصر ، فان جميع الذين لهم علاقة ، من بعيد أو من قريب ، بشأن واحد منها ، كانوا يسرعون الى المقر الامبراطورى ، كى لا يلفت

تخلفهم الانظار ، أو يثير غيابهم الشكوك !

كان القياصرة الاولون يفتحون ابواب قصورهم ويستقبلون رعيتهم بقليل من الكلفة . ولكن هذه العادة تلاشت مع الوقت بعد أن اعتلى جستنيان العرش ، فكانت مقابلة الامبراطور والامبراطورة من الامور الشاقة ، تعترضها العراقيل والصعاب وكان على صاحب المنصب الرفيع ، اذا مثل امام الامبراطور ، أن يكتفي بانحناء خفيف ووضع يده على صدره للتحيــة . أما تيودورا فقد فرضت فى أنظمتها الجديدة على من يمثل بين يديها أن يجثو على ركبتيه ، ثم ينحني حتى يلمس الارض بجبهته ، ويضع يديه خلف ظهره ، ويقبــل طرف حــذاء الامبراطورة ــ أو الامبراطور ، لان المراسم واحدة بالنسبة اليه واليها !

وكان على من يخاطب الامبراطور ان يخاطبــه بقــوله : « يا صاحب الجلالة » وأن يسمى نفسه « الخادم المطيع » أو « العبد المخلص » وكانت تيودورا تؤنب بعنف كل من يخل بهذه التعليمات أيا كان مركزه ومنصبه !

وأصبح على طالب المقابلة ، أن يحضر قبل موعدها وينتظر فى قاعة مجاورة ، وقد يطول انتظاره الى مابعد الموعد المحدد. وكانت تيودورا تتعمد ذلك كأنها تجد تسلية أو لذة فى جعل كبار المملــكة يتميزون غيظا أو تداخلهم الشــكوك فى نوايا الامبراطورة أو الامبراطور !

والواقع أن جستنيان لم يكن فى قرارة نفسه يقر هــذا التصرف ، ولكن تيودورا كانت تفرض عليه ارادتها . واذا قال لها ان دستور الامبراطورية يحرم معاملة المسئولين بمثل هذه القسوة وهذا الاستهتار ، أجابته قائلة :

ــ أنا أعرف منك بعقلية هؤلاء الناس . ان كبراء مملكتك ليسوا الا جماعة من المتزلفين ، وهم يقبلون حذاءك راضين مسرورين . ولا خوف عليــك منهم . أما أبنــاء الشعب ،

الذين خرجت انا من بينهم ، فهؤلاء يحملون فى نفوسهم من الاعتزاز بالكرامة ما لا أثر له فى صدور العظماء . فالعظماء خدم الامبراطور ، أما عامة الشعب فجنوده !!

والغريب فى هذه المرأة ، انها كانت تلاطف عامة الشعب حقا ، ولا تتعمد تحقير الزائر ان كان واحدا من بيئة وضيعة ؛ وكانت تقول لزوجها :

ـ اذا أنت أكرمت عظيما من هؤلاء ، فانه سرعان ما يرفع رأسه أكثر مما يجب ، ويظن أنك تتزلف اليه كما يتزلف هو اليك ، وقد تحدثه نفسه بالانتقاض عليك ، وعلى العرش . اما اذا أكرمت واحدا من العامة ، فانه يحبك ويخلص لك ويظل على ولائه . وعلى هذا يجب أن تضرب دائما على أيدي الكبار ، وأن تحرص على مجاملة الصغار !

وكانت المرأة على حق فيما ذهبت اليه . فان خضوع عظماء المملكة كان تاما كاملا ، وكان كل واحد منهم يعرف ما طبعت عليه الامبراطورة من كبرياء وحب للسيطرة ، فلا يسعه الا أن يمعن فى اظهار الخضوع أمامها ،والتزلف اليها !

ولم يكن أولئك العظماء يجهلون أن مخالفة الاوامر والتعليمات ، ومحاولة الظهور أمام الامبراطور ـ وأمام الامبراطورة على الخصوص ـ فى مظهر القوى المستهتر ، معناه اثارة الحفيظة فى نفس تيودورا ، وحملها على رفض كل طلب للمخالف ، ان لم يحملها هذا على أن تنتقم منه شر انتقام !

وعلى هذا ، كانت قاعات القصر تغص كل يوم بطلاب الحاجات من أولئك العظماء ، وقد جلسوا أو وقفوا جامدين خاشعين كالعبيد الاذلاء . وكثيرا ما كان يرى بينهم أشخاص يشغلون أرفع المراتب ، جاءوا من أقصى أنحاء الامبراطورية ، وطلبوا مقابلة الامبراطورة ، فوعدتهم باجابة طلبهم وحددت لهم يوم المقابلة وساعتها ، ولكنها تركتهم ينتظرون بضعة

أيام أو بضعة أسابيع !

وفى الوقت نفسه ، كثيرا ما كانت تيودورا تضرب موعدا لواحد أو أكثر من عامة الشعب ، وتقابله ببشاشة ولطف فى اللحظة التى يصل فيها الى القصر !

وكان الخصيان المكلفون بادخال الزائرين على الامبراطورة او على الامبراطور ، يستغلون الظروف ، ويفرضون أتاوة على الراغبين فى المثول بسرعة بين يدى تيودورا أو جستنيان !

ولابد من الاشارة هنا الى أن اباطرة بيزنطة هم أول من استخدم هذا النوع من الخدم ، اذ كانوا يعمدون الى حرمان طائفة من الاسرى والعبيد من رجولتهم ، لاستخدامهم فى جناح الحريم . وقد انتشرت هذه العادة فيما بعد ، وانتقلت الى بلدان اخرى ، وعن البيزنطيين أخذها ملوك الفرس والعرب وغيرهم فى الشرق والغرب

وكان على العظيم الذى يدخل على الامبراطورة أن يقف ويتكلم ويتحرك حسب القواعد المرسومة ، المفروض انه اطلع عليها والم بها من قبل . فهو لا يوجه الحديث الى الامبراطورة وعليه أن يجيب عن الاسئلة التى توجهها اليه فقط . والمقابلة لا تستغرق أكثر من بضع دقائق ، تلقى خلالها الامبراطورة سؤالين او ثلاثة ويرد عليها الزائر بكلمات مقتضبة ، ثم ينصرف باشارة من تيودورا !

وليس فى هذا ما يدعو الى الدهشة والاستنكار . فان تيودورا كانت بعيدة النظر ، ثاقبة الفكر ، سريعة الادراك ، وقد ارتفعت من حضيض الفاقة الى قمة الغنى ، وصعدت من بين الشعب الى منصة العرش ، ودرست أخلاق الناس من جميع الطبقات والبيئات . واذا كانت قد فرضت تلك المراسم القاسية ، فان ذلك يدل على أنها عرفت كيف تملأ المنصب الذى وصلت اليه ، وتكيف سلوكها حسب مقتضيات الجو اللائق بهذا المنصب ، وظروف العصر الذى كانت تعيش فيه !

أرادت تيودورا أن تكون ملكة يخشاها الاقوياء ويحبهـا الضعفاء ، لا ملكة يستخف بها الاقوياء ويكرهها الضعفاء ! .. أو بعبارة أخرى ، أرادت تلك الممثلة المتوجة أن يكون الشعب راضيا عنها ؛ ولم تعبأ بعد ذلك بما يكنه لها أصحاب المناصب والالقاب !



وقد أشركها زوجها فى الملك ، فأرادت أن تكون ملكة لا لعبة فى يد ملك . ولهذا طالبت بأن تمارس مع زوجهـا ، جميع السلطات بلا استثناء . فكانت تقوم بأعمال كالتى يقوم بهـا زوجها ، أو على الاصح كانت تتقاسم معه أعباء الملك فى جميع الميادين ، فتوزع الاعلام على فرق الجيش ، وتسلم شارات القيادة الى رؤساء هذه الفرق ، وتمنح الجـوائز للفائزين فى المباريات ، وتناقش حكام الولايات ومديرى المصالح فى شئون وظائفهم !

ورأى العالم فى عهدها شيئا لم يره ولم يعهده من قبل : رأى ملكة تقابل ملوكا جاءوا من أطراف الامبراطورية لتحيتها ، أو لتجديد ولائهم لها ، وتتحدث مع الوفود القـادمة من مختلف الاقطار والامصار ، وتغدق عليهم الهدايا والهبات !

ولقد كان يهمها استرضاء هؤلاء جميعا : الملوك وأعضـاء الوفود ، لانها أدركت ان السلام لن يخيم على أجزاء الامبراطورية، الا اذا كانت الشعوب التى تضمها هذه الامبراطورية موالية لها، كما أدركت أن ولاء هذه الشعوب مرهون بحسن المعاملة التى تجدها من الحكام

ومما قالته مرة لزوجها جستنيان :

ـ ان اتفاقنا فى الرأى على سياسة واحدة قائمة على حسن التفاهم ، فى البلدان الخاضعة لنا ، من العـوامل الاولى التى تجعلنى أخلص لك مدى الحياة اخلاصا لن تشوبه شائبة !

فهى اذن .. لا تريد ان تقوم علاقتها بزوجها على العاطفة فقط ، وعلى وحدة الشعور والحب المتبادل ، بل تريدها أن تقوم ايضا على وحدة النظر فى الشئون السياسية والادارية . وقد فهمها جستنيان ، وجاراها فى آرائها ، ولم يندم على ذلك

وانه لما يدعو الى الدهشة والاعجاب ، أن تكون تلك المرأة قد أدركت فى ذلك العصر ان الحكم لا يقوم دائما على القوة ،وان السياسة التى لا تحسب حسابا للعاطفة معرضة للفشــــل والخذلان . فالخطة التى سارت عليها تيودورا طول حياتهــا كانت تنطوى على مزيج من الشدة والمكر واللطف . أما المظاهر التى كانت تحيط نفسها بها ، والمواكب التى كانت تشرف على اعدادها بنفسها ، فكان الغرض منها التاثير فى مخيلة الشعب من ناحية ، واشعار رجال الدولة من ناحيـــة أخـرى بأن الامبراطور والامبراطورة لا يتساهلان فى شىء من مستلزمات الملك وما تقتضيه من أبهة وجلال !



كانت تيودورا ، اذا ارادت الخروج من بيزنطة الى «بيثينيا» حيث الحمامات المشهورة ، تحرص على أن تخرج فى موكب لايقل فى فخامته عن المواكب التى كانت ترافقها فى الاحتفالات الرسمية بالعاصمة نفسها .. فكان يحف بها اثنان من وزراء القصر ، وعدد كبير من النبلاء واعضاء مجلس الشيوخ ،وأربعة آلاف جندى وضباطهم ، وبضع مئات من رجال الحاشيـــة والحرس الامبراطورى . وبذلك كان هذا الموكب أشبه بجيش قادم من نصر أو ذاهب الى نصر !

وأهدى اليها جستنيان مساحات شاسعة من الارض فى مختلف بقاع الدولة ، فوقفت جانبا من وقتها على العنــاية بهذه الارض والاشراف على زراعتها . وكانت تلك الامــلاك والمزارع تدر عليها دخلا عظيما . وتسابق الفلاحون الى العمل

فى مزارعها ، لانهم لم يكونوا يجدون عند غيرها معاملة كريمة كالتى يجدونها عندها ، فضلا عما يضفيه عليهم انتماؤهم اليها من مكانة مرموقة ، واحترام لدى الآخرين !

على أن اعمال تيودورا لم تكن تخلو من التناقض ، ففى الوقت الذى كانت تقسو فيه على كبراء الدولة من امراء ووزراء وقواد ومن اليهم من أصحاب الجاه والنفوذ والثراء ، كانت تميل الى ملاطفة الخدم والعمال ومن اليهم من عامة الشعب !

وكانت تحب المال حبا جما ، فلاتنى فى السعى للاستزادة منه . ولا تتردد قط فى اتخاذ اية وسيلة للحصول عليه ، مهما يكن فيها من الاضرار بالغير . ولكنها لم تتعمد ايذاء أحد من الفقراء والمعوزين أو العمال والفلاحين ، كما كانت تتعمد ايذاء الاغنياء وأصحاب الاملاك والمزارع والجاه والسلطان !



وقد حملها حبها للبذخ على التفكير فى تشييد قصور جديدة خارج أسوار العاصمة ، تقضى فيها الاسرة المالكة ورجال الدولة شطرا من السنة . ولا شك فى أنها فى ذلك كانت منقادة الى ميولها كامرأة هوائية تحب التلون والتنقل ، ولعلها كانت قد ملت الاقامة فى « القصر المقدس » حيث عاش اباطرة الروم مئات السنين ، ورغبت فى أن يكون لها مقر آخر يحمل اسمها ويخلده !

وجاراها جستنيان مرة أخرى ، فحقق لها تلك الرغبة ، وأمر بأن تشيد باسمها فى ضواحى العاصمة قصور عديدة لا قصر واحد ، واختار لذلك أبدع المواقع وابعدها عن الضوضاء !

ومن بين تلك القصور الجديدة ، أعجبت تيودورا كل الاعجاب بقصر « هريا » القائم على الضفة الاسيوية ، مطلا على

البوسفور . وقد وصف احد الشعراء ذلك القصر فى قصيدة جاء فيها : « ان عرائس البحر وحوريات الانهار يرقصن تحت أفنان حدائقه ويتسابقن الى اعتلاء عرش الجمال والدلال فيه» وقال شاعر آخر فى قصيدة مدح بها الامبراطورة : « ان مقرك فى هريا يحسدك عليه الارباب فى السماء ! »

والى ذلك القصر الغارق فى بحر من الخضرة والاغصـان والازهار ، كانت الاسرة المالكة تذهب لقضاء الايام الاولى من موسم الحصاد ومن موسم قطف العناقيد فى الكروم . وكانت الامبراطورة تذهب اليه أحيانا وحدها ، فلا يرافقها الامبراطور . ولكنها كانت تصر على ان تصحبها حاشية كبيرة وجيش من الخدم والوصيفات . وكان هؤلاء جميعا يشكون من انهم ، فى ذلك القصر البعيد عن وسط المدينة ، لا يجدون كثيرا من الاشياء التى يحتاجون اليها ، فضلا عن أن ركوب القوارب الى الشاطىء الآخر كان يقلقهم ويبعث الخوف فى نفوسهم . ذلك لان حيوانا بحريا هائل الحجم كان فى ذلك الحين يجوب بحر مرمرة ويتجول فى مياه المضايق ، من غير أن يتمكن الصيادون من اقتناصه أو طرده . ولم يكن ذلك الحيوان غير حـوت جاء من حيث لا يدرى أحد ، ودخل الى تلك المياه الضيقة ، حيث جعل يهاجم القوارب والسفن ويقلبها بمن فيها ! . وكان طول ذلك الحوت نحو عشرين ذراعا أو اكثر ، ولم تقع العين على مثله من قبل فى تلك الجهات . وقد ظل نحو خمسين سنة ينشر الرعب فى مياه بيزنطة . ولما بلغ تيودورا أن حاشيتها تخاف ركوب البحـر بسبب ذلك الحوت ، ضحكت ، وقالت :

ــ وأنا ؟ ! . أتخافون على أنفسكم ولا تخافون على أنا ؟ . . انى اعرض نفسى للخطر ذاته الذى تعرضون له أنفسكم ، فأنا اركب سفينة مثلكم ! ثم اى شعب هذا الذى يخاف من سمكة فى البحر ؟ !

ولما قيل لها : ان السمكة التى تتحدث عنها بمثل هـذا

الاستخفاف والاستهانة طولها عشرون ذراعا ، وانهـــا تقلب القوارب والمراكب بضربة واحدة من ذيلها الهائل ، تمادت فى الضحك والسخرية ، وأمرت بأن يكون موكبها منذ ذلك الوقت مكونا من قوارب صغيرة بحيث تتعرض لخطر الانقلاب ، وتتعرض له هى قبل سواها !

ودبت الحماسة فى النفوس أمام هذا التأنيب الذى وجهته تيودورا الى قزمها ، وأصدر الامبراطور أوامره الى صـيادى العاصمة بأن يطاردوا ذلك الحوت جمـــاعات جماعات الى أن يطهروا مياه البوسفور منه بأية طريقة من الطرق !

وانطلق الصيادون ينفذون أوامر سيدهم . وخـــرجت تيودورا معهم لمشاهدة المطاردة . ولكن الايام مرت من غير أن يعثروا على أى اثر لذلك الحوت العظيم !

وذات مساء ، ذاع فى العاصمة خبر ، طرب له النـاس كل الطرب ، وابتهجوا أعظم الابتهاج ، فقد رأى الفلاحون عندمصب نهر « سنغاريوس » جسما ضخما جاثما على الشاطىء بـين الصخور والرمال . ولما اقتربوا منه ، أدركوا أنه جسم ذلـك الحوت ! وتبين انه كان يطارد سربا من الاسماك الصغيرة فاندفع الى الشاطىء وعاقته الرمال والصخور عن الرجـوع من حيث اتى ، فأصبح أشبه بالسجين عند مصب النهر الصغير . وهكذا استطاع الفلاحون أن يجهزوا عليه ضربا بالفئوس والخناجر ، ثم اقتسموا لحمه وعظمه !

ولما علمت تيودورا بما حدث ، ضحكت أيضا وقالت :

ـ لقد انقذكم الحوت من نفسه بنفسه ، بعد أن عجزتم عن النيل منه وهو فى عرينه بالبحر ، ولم تجرءوا على الاقتراب منه والإعتداء عليه ألا وهو سجين لا يقوى على الحراك ! . وعلى كل حال مادام ذلك الحوت قد مات ، فان هذا يكفى لـــكيلا يبدى أحد منكم ، بعد الآن ، مخاوفه من ركوب القوارب والانتقال بها من شاطىء الى آخر !

ولم تكن تيودورا تحسب حسابا لما يبديه الناس حولها من آراء وما يعبرون عنه من شعور . وكانت تقول للمقربين منها :

ــ انني حرة فى أن أحيا الحياة التى أريدها . ولن أسمح لاحد أن ينتقدنى الا اذا أقدمت على الاساءة الى فرد أو الى جماعة من أبناء الشعب . ولكن مادمت لا ألحق ضررا بأحد ، فليس على أن أقدم حسابا على ما أصنع الا لزوجى الامبراطور!

وكانت اذا أقدمت على عمل من شأنه أن يبعث السرور الى نفسها ، لا يهمها فى كثير ولا قليل أن يرضى الناس عن عملها هذا أو يسخطوا ! ... ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تثنيها عن عزمها ، أو تحملها على العدول عن أمر قررت الاقدام عليه!



وقد خطر لها ذات يوم أن تدعو الى قصرها بعض النساء اللواتي عرفتهن من قبل ، عندما كانت تحترف التمثيل فى ملعب بيزنطة . وكان بين أولئك النسوة راقصة تدعى « كريزومالو » وممثلة تدعى « اندارو » . وقد بالغت فى اكرام صديقاتها وزميلاتها القديمات ، فأقامت لهن أفخم المآدب ، وأغدقت عليهن من الهدايا والهبات ما أطلق كثيرا من الالسنة بالانتقاد!

وبلغ تيودورا أن حاشيتها غير مرتاحة الى ما فعلت، فعمدت الى التحدى ، وعينت الراقصة والممثلة المذكورتين فى وظيفتين رسميتين ، بمجلس الشورى الخاص بالامبراطورة

وقالت فى تعليل ذلك :

ــ ان آراء الممثلة والراقصة ، قد تكون أحيانا أكثر فائدة وأقرب إلى الصواب من آراء النبيلات وبنات الاسر الكبيرة . فنحن هنا ننظر فى شئون الشعب البيزنطى ونرعى مصالحه . واذا لم نصغ الا الى الآراء التى تمثل مطالب الطبقة المترفة ، فاننا نكون قد ظلمنا أنفسنا باهمال الطبقة الكادحة الفقيرة ، وجهل مطالبها فى حين أنها تمثل أكثرية الشعب . ولهذا اعتقد

أن وجـــود ممثلة وراقصـــة فى مجلس الشـــورى الخاص بالامبراطورة ، أكثر فائدة من وجود نساء لايعرفن من الحياة غير صفحاتها الناصعة ونواحيها المذهبة !

لقد كان يسعد تيودورا أن تظهر عطفهـــا على رفيقاتهـــا السابقات ، ووفاءها للوسط الذى خرجت منـــه ، فى الوقت الذى كانت تحرص فيه على إن تبدو متكبرة متعجـرفة ازاء بنات الاسر النبيلة المتعجرفات ! وما كان تعيينهالصديقتيها الراقصة والممثلة فى مجلسها الخاص الا وســـيلة الى بلوغ غرضها المنشود ، وايثارها بالعطف والتقدير عامة الشـــعب على فريق الخاصة .

والواقع أنها برغم امتزاجها التـــام بالبيئة التى رفعتها الاقدار اليها ، ما كانت لتنسى او تتناسى تلك البيئـــة التى خرجت منها ، وقد ظلت تحن الى مهنتها الاولى ، مما دفعها بين حين وآخر الى الالتجاء فى تصريف شئون الدولة الى الاساليب التى كانت تجيدها من قبل وهى تعمل على مسرح التمثيل ، ومن تلك الاساليب التنكيت ، ورواية النوادر والحـــركات المسرحية ، والتعبيرات الهزلية الممزوجة بكلمات لم تطرق عادة آذان سكان القصور !



كانت النكتة على طرف لسانها فى كل ظرف وكل حال ! وقد أعانها على ذلك أنها كانت سريعة الخاطر الى مدى بعيد . فاذا جاءها أحد وشكا اليها تصرفات بعض أفراد اسرتهـــا ، أو بعض المقربين اليهـــا من رجال الحاشـــية او نسائهـــا فانها سرعان ما تتخلص من المآزق بنكتة تنبعث من بين شفتيها مصحوبة بتلك الابتسامة الخلابة الكفيلة بأن تســـكت كل معترض وترضى كل ناقم !

واذا جاءها شخص مزعج لجـــوج ، وألح عليها طالبـــا منها أمرا لا تقدر عليه أو لا تريد تنفيذه ، فانها كانت تعمـد

أيضا الى التنكيت او الى تغيير مجرى الحديث بطريقة تمثيلية مصحوبة بحركات مضحكة تجعل طالب الحاجة يكتفى بالكلام الحلو ويقنع من الغنيمة بالاياب !

وحدث مرة أن كان أحد النبلاء ممن شغلوا فى الماضى أرفع المناصب ، مدينا بمبلغ من المال لواحد من خدم تيودورا ، وعجز عن سداد دينه ، ففكر فى عرض الامر على الامبراطورة، على أمل أن يثير عطفها واهتمامها فتنقذه مما هو فيه !

ولما طلب الرجل مقابلتها ، سارعت الى اجابة طلبه وحددت له موعدا قريبا إستقبلته فيه وهى بادية الفرح والاغتباط . ولكنها فى الوقت نفسه عمدت الى اعداد مشهد مسرحى أشرفت على اخراجه وتمثيله خلال تلك المقابلة ، فجاءت بنخبة من خدمها ووزعت على كل منهم دوره فى المسرحية التى ابتكرتها . وما كاد ذلك النبيل المدين يدخل إلى قاعة الاستقبال فى جناح الحريم ، حتى وجد نفسه أمام الامبراطورة وقد اصطف حولها أولئك الخدم على هيئة هلال ، وانحنوا حتى مست جباههم الارض مسلمين !

وتقدم الرجل وركع أمام الامبراطورة ، فسألته ان يبسط لها طلبه ، فمضى يقول :

ــ يا صاحبة الجلالة ، انه لشىء فظيع ان يكون رجل مثلى ، من النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ ، مدينا بمبلغ من المال لاحد الخدم ! .. آن المدين من عامة الشعب تثير حالته الشفقة . أما المدين من النبلاء فان حالته تكون مدعاة لاحتقار الناس اياه . فالفقير حين يعجز عن الدفع ، يعلن عجزه بلا خوف ولا وجل . أما النبيل فلا يفعل ذلك لانه يعده عاراً وعيبا ولان الناس لا يصدقون أن النبيل عضو مجلس الشيوخ يمكن أن يكون معدما الى حد يعجز معه عن تسديد دينه . وأنا ياصاحبة الجلالة مدين ، ولى عند الناس ديون ، أى اننى فى آن واحد دائن ومدين ... ولكن لا يسعنى آن اضايق المدينين لى والح عليهم

فى أن يدفعوا لى ماعليهم لان هذا ليس من شيمة النبلاء • أما أصـــحاب الدين الذى على فهـــم يلاحقوننى ويلحون على ان أدفع ، وذلك لاننى أيضا من النبلاء فلا بد أن أكون قادرا على الدفع ! •• أليس هذا مما يحير العقل ؟ •• ولهذا جئت أليك يا صاحبة الجلالة أطلب تدخلك لكى تنقذينى مما أنا فيـه

وأصغت تيودورا الى الرجل حتى انتهى من كلمته ثم قالت بلهجة مفعمة باللطف :

ـ يا عزيزى النبيل ، يخيل إلى ان •••

ثم سكتت فجأة بينما إنطلق الخـــدم الواقفون قائلين فى صوت واحد اتماما لعبارتها حسب تعليماتها :

ـ •• أن فى بطنك ورما ! •

فدهش الرجل لهذه المباغتة • وأراد أن يتكلم فاستطردت تيودورا تقول :

ـ وسبب هذا •••

وسكتت فقال الخدم معا :

ـ وسبب هذا أنكابتلعت أموال الفقراء !

واضطرب الرجل وانتابته رعشة عقدت لسانه عن النطق، بينما قالت تيودورا :

ـ وأنت تريد •••

فأتم الخدم عبارتها قائلين :

ـ أن تأخذ منالفقير ماله !

ـ ولا تريد •••

ـ أن تدفع للفقير ما عليك !

ثم أخذ الخدم يرددون : « ان فى بطنك ورما ••• ان فى بطنك ورما ! » حتى تراجع النبيل المسكين وخرج من الباب وهو لا يلوى على شىء !

قد يكون فى هذا الاسلوب سماجة لا يســـتسيغها الذوق السليم فى عصرنا هذا • أما فى ذلك العهد ، فان هذا النوع

من التشنيع والسخرية كان يعد من أنواع الفنون الرافيه ، ولا شك فى ان تيودورا كانت تعلم علم اليقين، قبل ان يجيئها الرجل لبسط شكايته ، ماذا يريد ، واذا كان حقيقة قادرا على الدفع أم عاجزا عنه • ولا شك أيضا فى أنها كانت واثقة من أنه يتظاهر بالعجز عن الدفع رغبة منه فى أن « يبتلع أموال الفقراء » • كما علمت الخدم أن يقولوا له ، وأن يحتفظ بورم بطنه الناتج عن أكل تلك الاموال بالباطل !

واذا كانت تيودورا قد عمدت من وقت الى آخر ، فى داخل جناحها بالقصر المقـــدس ، الى اتخاذ تلك الاســـاليب التى أجادتها وهى ممثلة ، فانها لم تكن تسمح لاحد بأن يذكرها بماضيها وبالايام التى كانت فيها تسلى الناس بمسرحياتهـــا وتنكيتها ورقصها !

كانت تعطف على زميلاتها السابقات ، ولكنها لا تغفر لمن يحدثها عن تلك النسوة بوصفهن زميلات لها فى عهد مضى ! • وهذه أيضا ناحية من نواحى التناقض فى تلك المرأة الغريبة الاطوار !

على أنها منذ اعتلائها العرش ، لم تقدم على أى عمل طائش من شأنه أن يجعل زوجها، أو يجعل الناس من حولها ، يعيبون عليها ذلك العمل بحجة انها خرجت من بيئة تفصل بينها وبين الاسرة المالكة هوة اجتماعية سحيقة • فقد تسربلت برداء الملك وعرفت كيف تصونه من العار بعد صعودها الى القمة ، برغم ما أقدمت عليه من أعمال معيبة فى ماضيها القديم !

كانت غانية تتاجر بجمالها وتعرض قلبها للبيع والشراء• ولكنها لم تندفع فى أية مغامرة غرامية وهى امبراطورة •وبقدر ما كانت فى ماضيها مستهترة مبتذلة ، كانت وهى ربة التاج والصولجان حريصة كل الحرص على سمعتها ، حافظة لمكانتها، سالكة طريق العفاف والطهر والوفاء لزوجها الذى رفعها الى أعلى مكان !

# سوق الاخبار

كانت تقام كل يوم ، فى بيزنطة ، تحت قناطر مدخل القصر الامبراطورى ، سوق فريدة فى نوعها ، هى « سوق الاخبار » . ففى ذلك الحى المكتظ بالسكان ، حول القصر المقدس ، تكثر الحوانيت المعدة لبيع المخطوطات وادوات الكتابة والرسوم والتماثيل وغيرها . وهناك يلتقي الكثيرون من المثقفين والادباء والمتأدبين ومدعى الفلسفة ، يقفون داخل هذه الحوانيت أو على أبوابها ، ليتبادلوا الثرثرة ، بينما تجتذب أحاديثهم المارة فسرعان ما يلتفون حولهم !

ولقد كانوا يتحدثون فى كل شيء ، ويخطبون فى كل شيء : فى العلوم اللاهوتية ، والطب ، وفى السياسة والدين ، والشئون الاقتصادية والاجتماعية .. كما كانوا يعلقون بآراء مختلفة متباينة على كل حادث يقع فى المدينة أو فىالقصر الامبراطورى !

ولا شك فى أن عامة الناس كانوا يتأثرون الى أبعد حد بأقوال أولئك الفلاسفة والخطباء ؛ لان هؤلاء يحسنون الاداء ويجيدون التمثيل ؛ فيتكلمون بصوت جهورى ولهجة مقنعة ، ويدعمون خطبهم بحركات مسرحية يقف الجمهور امامها مشدوها فيصفى ويصفق ، سواء أكان مقتنعا ام غير مقتنع بما يسمعه منهم !

والواقع ان أكثر أولئك الثرثارين ، لم يكونوا من ذوى العلم الواسع والادب الصحيح ، بل هم من المرتزقة الذين اتخذوا الثرثرة حرفة ، مستغلين قدرتهم على رص الكلام بعضه فوق بعض بمهارة وسهولة . وهم اما أنصاف متعلمين ، واما سكارى

لعبت الخمر برءوسهم واطلقت السنتهم بدل أن تعقدها عن الكلام !

هكذا كان موقف الشعب من خطباء تلك الحوانيت . أما الخاصة ، فكانوا ينظرون اليهم بعين الاحتقار أو عدم الاكتراث ، ويعدونهم من المتزلفين الراغبين فى استغلال سذاجة النـاس وحماقة أصحاب النفوذ . . بدليل انهم يعمدون الى كيل الثناء والمديح للعظماء الذين يجزلون لهم العطايا والهبات ، فاذا كف هؤلاء أيديهم عن البذل والعطاء فسرعان ما ينقلب المدح الى ذم والثناء الى هجاء ! . .

أما هؤلاء الثرثارون أنفسهم ، فكانوا لايلقون بالا الى آراء الخاصة من المثقفين والعقلاء فيهم ، واذا كان هؤلاء يضحـكون من أقوالهم ولا يعيرونها اهتماما ، فحسبهم أن موقف الشعب منهم يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهو يبالـغ فى تقديرهم ويضيع الساعات الطوال فى الاصغاء الى خطبهم . ويصدق كل ما يروونه له من أنباء ونوادر وفضائح ، خصوصـا اذا كان الخطيب منهم عائدا من سفر بعيد من احدى الولايات النائية !

وكان من بين أولئك الخطباء رجل يمـارس الطب ويدعى الفلسفة ، اسمه « أورانيوس » نجح فى التقرب من كسرى واقام حينا من الزمن فى ايوانه ، ثم جاء الى بيزنطة وانخرط فى زمرة خطباء الحوانيت أمام مدخل القصر . وكان بارعا لبقا فى أحاديثه الى الناس ، يعرف كيف يؤثر فى نفوسهم بما يثيره من عجبهم واعجابهم ، وحينما يأخذ فى الخطابة ، يحرص على اختيار العبارات الطنانة الرنانة ، ويكثر من الحركات المسرحية، وبين حين وآخر ، يخرج من جيبه أوراقا لينشرها أمام الانظار قائلا :

ــ هذه رسائل كسرى الى أورانيوس !

ثم يتلو هذه الرسائل على سامعيه ، فلا يسع البسطـاء منهـم الا أن يتلقوها بمزيد من التصفيق الحاد والاعجاب

بالفيلسوف الطبيب الذى ظفـــر من كسرى ـ ملك الملوك ـ بأحسن التقدير والتكريم !

وفى كثير من الاحيان ، كان يحـــلو لاورانيوس أن يروى لسامعيه بيانات غريبة عن دخائل السياسة العليا وما اليها من أسرار يزعم ان ليس هناك من يعرفها سواه ؛فيتلقفها السامعون فى غبطة وابتهاج ، ويحدث كل منهم نفسه قائلا : « ان رجلا هذه مكانته لا يمكن الا أن يكون مطلعا على أسرار السياســة ودخائل الامور ! »

وعلى هذا الاساس كان كثير من العظمـــاء يتسابقون الى خطب ود اورانيوس ويجزلون له العطاء ، لكى يمدحهم امام الشعب !

والواقع أن خطة أورانيوس هذه كانت هى الخطة المفضلة لدى جميع الخطباء فى ذلك العهد ، وما زالت وستبقى الى آخر الدهر خطة أمثالهم من طلاب المنفعة ومستغلى الجماهير الساذجة واذناب الكبراء وذوى الثراء . ومن هنـــــا كانت القسطنطينية فى عهد جستنيان ـ كغيرها من عواصم العـــالم الكبرى ـ ملجأ لجماعات من العاطلين واللصوص والنصـــابين والشحاذين ، كما كانت فى الوقت نفسه ملتقى أفراد الفئـــة المختارة الممتازة من المثقفين وأصحاب العقول الراجحة والآراء السديدة . فكان كل خبر مثير ، وكل نبأ غريب ، وكل تعليق على خبر ، يجد فى الاوساط البيزنطية آذانا صاغية ، فيصدقه الناس ، وتتناقله الألسنة !

غير أن « سوق الاخبار » فى العاصمة الرومية لم تكن تجاريها أية سوق أخرى من نوعها فى العــــالم . فهى كما قلنا فريدة لا مثيل لها . وكثيرا ما كانت خطبة يلقيها واحد من أولئـك الثرثارين المأجورين أو الموتورين ، تحدث فى جموع السامعين قلقا أو اضطرابا أو هياجا ، فيختل الامن فى العاصمة ساعة أو ساعات !

وكان البيزنطيون أنفسهم كثيرا ما يعمدون الى الاتيان بأعمال شاذة يغلب عليها طابع البرود والسماجة ، أو المزاح الثقيل الذى يتفق مع طريقة حياتهم وتربيتهم ونظرتهم الى الحياة والى العلاقات بين الناس !

وفى ذلك العهد نفسه ، كان يعيش فى بيزنطة رجل فيلسوف مشهور يدعى « زينون » وكان راجح العقل عميق التفكير ، تجله الخاصة وتحترمه . وقد اشتهر بأن له جارا من المهندسين يدعى « انطميوس » لا يفتأ يدبر له المكايد لمعاكسته ومشاكسته والسخرية منه ، اشباعا لحقده عليه وميله الى الانتقام منه . وحدث فى ذات يوم أن عمد ذلك المهندس الى حيلة غريبة لتخويف جاره الفيلسوف واظهاره بمظهر يدعو الى الاستهزاء به ، فأعد أوانى كبيرة كثيرة فى قبو مسكنه ، ثم ملأها بالماء ، وأوقد تحتها النار حتى وصل الماء الى درجة الغليان ، ثم غطى تلك الاوانى ، وأوصل بأغطيتها أنابيب من الجلد ، مد أطرافها الاخرى الى قبو مغلق بمسكن جاره الفيلسوف فانبعث اليه البخار الصاعد من الماء المغلى فى الاوانى ، ولم يمض الا قليل حتى امتلأ ذلك القبو المغلق بالبخار وأحدث فى البيت كله ما يشبه الزلزال . وما كاد الفيلسوف زينون يشعر بذلك حتى استولى عليه الرعب ، وهرع الى الطريق صائحا مستنجدا ، متسائلا عما عسى أن يكون الزلزال قد أحدثه من اضرار لدى الجيران !

وضحكت بيزنطة كلها لهذا « الفصل البارد » الذى دبره للفيلسوف الوقور جاره المهندس الخبيث !

ولم يكتف انطميوس بهذا الفصل ، فجاء ببعض المرايا ، وربطها بقطع من المعدن ، وأعد جهازا يحركها بحيث تنعكس منها أشعة الشمس وتحدث أصواتا ، توهم أن هناك برقا ورعدا ، ثم أخذ يسلط هذا الجهاز الجهنمى على جاره الفيلسوف فى مسكنه المجاور له ، فى الاوقات التى يخلو فيها

الى نفسه ، فكانت النتيجة أدهى وأمر ، اذ اعتقد زينون أن ما يراه ويسمعه من برق ورعد انما هو حركات لارواح سماوية تطارده لتفسد عليه خلوته وتحول دون مضيه فى تفكيره الخاص بالفلسفة واللاهوت . ولم يسعه بعد أن تكرر ذلك الا أن هرع الى الامبراطور وأفضى اليه بمخاوفه هذه ، وسرعان ما انتشر النبأ بين رجال الحاشية ثم بين الناس جميعا ، وتبينوا ان الامر كله من تدبير المهندس أنطميـــوس ، فشاركوه فى الضحك والسخرية من زينون المسكين !

على أن اهتمام البيزنطيين بهذه المداعبات الثقيلة لم يكن شيئا يستحق الذكر بالقياس الى اهتمامهم الشديد بالمسائل الخاصة بالتنبؤ ومعرفة الغيب وما يخبئه المستقبل ، ذلك لان بيزنطة فى ذلك العهد كانت أشبه بمتحف تكدست فيه مخلفات الاديان الوثنية ، منذ العهدين اليوناني والروماني ، وكانت لذلك تعج بتماثيل الآلهة من كل حجم ونوع ، ولكل تمثال من هذه التماثيل اسطورة أو اساطير عجيبة يستمع اليها العامة وكثيرون من الخاصة فى خشوع وايمان ، معتقدين أن هناك قوة كامنة تتجلى من وقت الى آخر فى أحد تلك التماثيل فتجعله قادرا على أن يأتى بالمعجزات !

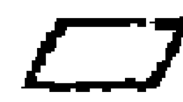
ولم يكن الدين المسيحى الذى أصبح دين الدولة والشعب قد قضى بعد على ما علق بالاذهان من خرافات الوثنية جيلا بعد جيل ، وعلى هذا كان البيزنطيون يعتقدون أن تمثال الثور النحاسى القائم بجوار الملعب يجأر من وقت الى آخر . فاذا جأر وسمعه الناس ، فان ذلك يعد نذير شؤم ، ويعنى أن كارثة ماحقة سوف تحل بالعاصمة !

كذلك كانوا يعتقدون أن النقوش الظاهرة على أحد جدران الملعب من الغرب ، تضم بين سطورها الغامضة تميمة رهيبة ، لم يستطع احد فك رموزها لمعرفة معناها . ولهذا تعودوا أن يمروا أمامها مسرعين ، بينما يرسمون على صدورهم شارة

الصليب لكى يدفعوا شرها عن عاصمتهم !

وهنـــاك جدار آخر من جدران الملعب كانت للنقـوش التى عليه شهرة عجيبة بين طبقات الشعب البيزنطى على اختلافها، فهى عند أكثرهم طلاسم سحرية سجلت عليها حوادث المستقبل بالتفصيل ، وقد تناقل الرواة أن المنجم « ابولونيوس » تمكن من فك بعض رموزها فعرف جميع أسمـــــاء الاباطرة الذين سيرتقون عرش بيزنطة ، وآخرهم امبراطور اسمه «قسطنطين» تنهار بعده الدولة وتقع عاصمتها فى قبضة غزاة من الشرق !

وأغرب ما فى الامر أن هـــذه النبوءة قد تحققت بعد ذلك بحوالى تسعة قرون ، فسقطت بيزنطة او القسطنطينية فى أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ وكان هذا على عهد الامبـراطور قسطنطين



وقد كان جستنيان يكره المنجمين ، ويحارب ميل الشعب الى تصديقهم النبوءات والايمان بالاساطير الخاصة بالتماثيل والرسوم والنقوش . وكان رجال الشرطة يجدون فى مطـاردة المنجمين ومروجى الاشاعات ، ولكن هذا كله لم يضع حـدا لانتشار تلك النبوءات المقلقة المزعجة ، لان الايمان بها كان قد وصل الى حد المعتقدات الدينية

وعلى ذكر هذه المعتقدات ، نقول أنها كانت بدورها تثـــير اهتمام الشعب وتسيطر عليه الى أبعد حد ، وكان أكثر الناس فى ذلك العهد يؤمنون بكل ما يروى ويروج عن المعجزات الخارقة التى تمت أو تتم على أيدى رجال الدين ! .. ولا شك فى أن شعبا تتنازعه كل هذه المعتقدات والخرافات والاهواء خليق بأنه يقف حائرا أمام كل حادث خارج عن المألوف ، ولا يسعه الا أن يعده تدخلا من السماء ، وأن يلمس خلفه أصابع القديسين والعالمين بفنون السحر والتنجيم !

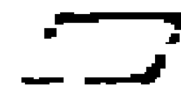
وقد جرت عادة رجال الدين حينـذاك على ان يوزعوا على تلاميذ المدارس ما يتبقى من « الخبز المقدس » الذى يعـده القساوسة لكنائسهم ، وذلك على سبيل التبرك والاحسان معا . فحدث مرة كما تروى احدى الشائعات أن كان بين تلاميذ احدى المدارس صبى يهودى يعمل أبوه فى صناعة الزجاج ،وكان من عادة ابنه أنه يمر عليه فى مصنعه بعد انصرافه من المدرسة. فما كاد الصبى يخبر أباه بأنه أخذ نصيبه من ذلك الخبز وأكله حتى جن جنون الرجل ، واشتد حنقه عليه لأكله ذلك الخبز الذى يباركه رجال الدين المسيحى ويقدمونه لاتباع دينهـم احياء لذكرى « العشاء السرى » الذى قاسم فيه السيـد المسيح رسله وانصاره الاولين . وبلغ من شدة غيظ اليهودى صانع الزجاج أنه لم يتمالك نفسه فرفع ولده الصغير بيديه وقذف به الى داخل الفرن الموقد الذى كان واقفا أمامه ، ثم اغلق عليه باب الفرن وتركه هكذا حتى تأتى عليه النار !

وبعد ثلاثة أيام خرجت أم الصبى للبحث عنه فى أنحـاء المدينة ، ثم توجهت الى مصنع زوجها لعلها تجد عنده خبرا عنه ، وفيما هى تتحدث مع زوجها بالقرب من الفرن ، سمعت صوت ابنها يناديها من خلف بابه الحديدى المغلق ، فسـارعت الى فتحه ، ولشد ما كانت دهشتها ، ودهشة زوجها نفسه ، حين خرج الصبى من الفرن حيا سليما لم تمسسه النيران بأى سوء !

وروى الطفل لامه أن سيدة جميلة ترتدى ثوبا ارجوانيا ظهرت له فى داخل الفرن ، فأبعدت عنه النيران وقدمت له الطعام والماء

وشاع الامر بين النـاس ، فآمن أكثرهم بأن تلك السيدة هى مريم العذراء ، واعتبروا هذه المعجزة دليلا على أن الصبى وامه كانا قد تنصرا فى الخفاء . ولم يمض الا قليـل حتى قبض على والد الصبى وشنق عقابا له على محاولة قتل ابنه !

وقد رويت حوادث مماثلة اخرى لا تقع تحت حصر : فلم يكن يمر يوم دون ان يشاع فى المدينة ان قديسا من القديسين أو وليا من الاولياء قد اتى بمعجزة مع واحد أو عـدد من السكان الورعين الاتقياء . وكان الشعب يركع فى الشوارع ويصلى فى خشوع وايمان كلما سمع بمعجزة من تلك المعجزات ثم يشكر الله على حسن عنايته بالبيزنطيين !



وكان الشعب اكثر تصديقا لكل ما يروى من هذا القبيل عن الامبراطور ، والامبراطورة ، والحاشية . ولما كانت حياة جستنيان وتيودورا خلف أسوار القصر المقدس يحيط بهما كثير من الغموض ، فقد امتازت الاقاويل المروية عنهما بأنها اعجب واغرب ، لان أكثرها كان من نسج الخيال !

كان الامبراطور يقضي معظم أوقاته فى تلك العزلة ، بعيدا عن أعين رعاياه ، فانتشرت لذلك اشاعات تؤكد أن عزلتـه هـذه انما تعنى انشغاله بالاتصـال خفية اما بالملائكة واما بالشياطين !

وقد تعود الامبراطور ان يأوى الى فراشه فى ساعة متأخرة من الليل ، وأن ينهض فى ساعة مبكرة من الصباح ، كما تعود ان يغادر مخدعه احيانا فى جنح الظـلام ليجلس الى مكتبـه ويواصل الاعمال التى صرف فيها نهاره ، وكان يفعل هـذا لانه جم النشاط لا يعرف التعب ولا يحب أن يؤجل الى الغد ما ينبغى أن يصنعه فى يومه . ولكن أفراد الشعب أبوا الا أن يفسروا ذلك تفسيرا عجيبا ، فراجت بينهم عن ذلك أغرب اشاعة سمعت عن ملك فى أى عصر من العصور ، وهى أن الامبراطور جستنيان حين يخرج ليلا من مخدعه ويطوف فى ممرات القصر وأحيانا فى طرقات الحديقة ، يبدو لمن يراه جسما بلا رأس فى أول الامر ، ثم يعود رأسـه الى جسمه

فى نهاية المطاف هابطا من السماء حيث كان هناك لسبب خفى لا يدركه انسان !

وكذلك راجت اشاعات أخرى تؤكد كل التأكيد أن المقربين من رجال الحاشية الامبراطورية ، يشعرون أحيانا ، وهم وقوف حول الامبراطور بأن شيئا غير طبيعى قد انتابه فجأة ، ثم يرون وجهه يعلوه الشحوب ، ويتقلص حاجباه تدريجيا حتى لا يبقى لهما أى أثر ، ثم سرعان ماتلحق بهما عيناه فتغوران وتختفيان . وهكذا يبدو لناظريه ، وكأنه خرج من صورته البشرية وأصبح روحا متشحة بالضباب !

وعلل الكثيرون ظاهرة تحول جستنيان من جسم الى روح ، بعد أن تناقلتها الالسنة وأقرتها العقول ، بأن الامبراطور فى حالته الاولى يكون على أتصال بالارواح الشريرة والشياطين ، أما فى حالته الاخرى فيكون على اتصال بالارواح الخيرة والملائكة !

وزاد الناس على ما تقدم أن الراهب « زوراس » كان فى القصر ذات يوم فرأى الامبراطور وهو يتحول أمامه على ذلك النحو ، ولم يسعه الا الركوع فورا حيث جعل يصلى ويبتهل الى الله ، حتى شفى الامبراطور من نوبته وعاد الى صورته الطبيعية !

وتناقل الناس خبرا أعجب مما تقدم ، فقالوا :

ان الناسك « سابا » الذى كان يعيش فى صومعته بأرض فلسطين على مقربة من القدس ، توجه يوما الى القصر المقدس ليقابل الامبراطور . ودخل عليه فى قاعة العرش حيث كان جالسا وحده ، ولكن الناسك سرعان ما غادر القاعة مهرولا مذعورا ، كمن به مس من الجنون ، وقال لمن كانوا بالباب حينذاك :

— ان الامبراطور ليس فى القاعة .. أما الشخص الجالس فيها متربعا على العرش فلاشك فى أنه شيطان !

وكان بين رجال الحاشية ورفاق الامبراطور وخدمه من ينكرون رؤيتهم هذه الخوارق . ولكن أكثر هؤلاء جميعا كانوا يؤكدون وقوعها على مرأى ومسمع منهم ، ويتبعون ذلك بأغلظ الايمان !

وأخيرا ، شاع الخبر الاكبر ، والعجب العجاب ، فروى الناس بعضهم لبعض أن الامبراطورة الوالدة ، أم جستنيان اعترفت لراهب من النساك بأنها فى صباها خانت زوجها ووقعت فى غرام مخلوق من غير سكان الارض ، وأن ذلك العاشق الذى جاءها من عالم الارواح وتجسم لها فى صورة انسان ، قد تبخر أمامها واختفى كأنه نفخة من دخان ، ولكن بعد أن جاء ابنها جستنيان ثمرة ذلك الغرام الشيطانى العجيب !!

وهكذا ، صار الناس يعتقدون أن امبراطورهم النابغة الحكيم الادارى المحنك ، انما هو ابن عفريت من الجن ، وأصبح من السهل على سكان بيزنطة ، الذين راجت بينهم هذه الخرافات والاساطير ، أن يفسروا كل عمل من أعمال جستنيان بأنه من وحى الملائكة أو الشياطين !



وقد كان الامبراطور جستنيان مسرفا ينفق الاموال بلا حساب . ولم يكن أحد يعرف من أ ن يأتى بكل ما ينفقه من فضة وذهب ، يفوقان دخله الخاص وما يدره خراج الدولة على بيت المال ، الى أن روى أحدهم القصة التالية فصدقها الناس ، وهى : أن جستنيان كان مرة يتفقد سير الاعمال فى أثناء تشييد كنيسة آيا صوفيا العظيمة ، وكان الحزن مرتسما على وجهه ، لانه فى حاجة الى المال اللازم لمواصلة البناء . فوقف فوق صقالة من الخشب وانهمر الدمع من عينيه . ثم اذا به يلمح أحد خصيان القصر مسرعا اليه . ولما اقترب

منه قال الخصي : « لاتكتئب يامولاى من أجل المال ولاتشغل بالك بالبحث عنه .. اننى أطلب منك أن تضع غـدا تحت تصرفى لفيفا من رجال الحاشية وذوى المناصب الرفيعة ، وأتعهد بأن آتيك بما تريد من مال ! »

ولم يلتفت جستنيان الى ما قاله الخصي وظنـه يمزح . ولكن هذا عاد فى اليـوم التالى يلح على الامبراطور قائلا : « أعطنى من طلبتهم منك امس لكى اعطيك ما تطلب ! هيـا يامولاى ولا تتردد ! »

وعجب الامبراطور من الحاح العبـد عليـه ، وأمر بعض أخصائه بأن يذهبوا معـه الى حيث يريد ، فذهب معـه ستراتيجيوس مدير الخزينة ، وباسيليدس رئيس الحسابات وكولوكنتاس محافظ العاصمة ، ومعهم آخرون ، وعشرون من البغال القوية . حتى اذا بلغوا احدى الضواحي وقف العبد فجأة هناك ، حيث وجدوا أنفسـهم أمام قصر بديع لم يشاهدوه من قبل ، ثم دعاهم الى الترجل عن خيولهم ففعلوا ، ودخل بهم الى القصر حيث قادهم الى قاعة ملئت بالقطع الذهبية . وتناول مجرفـة وراح يغترف بها المـال ويملأ به الاكياس التى حملوها معهم ، ويأمرهم بوضعها على البغال ، فلما انتهى من ذلك امرهم أن يعودوا ادراجهم الى حيث ينتظرهم الامبراطور ، ويسلموه تلك الاحمال الذهبية ، ريثما يلحق بهم بعد أن يوصد أبواب القصر السحرى كى لا يدخله أحد سواه بعد ذلك !

وذهل جستنيان لرؤية تلك الاكوام من الذهب ، وأصغى الى ما قصه عليـه رجاله ، وبات ينتظر عودة العبـد الذى تخلف فى القصر السحرى ، ولكن هذا لم يعد حتى صـباح اليوم التالى ، ولما ارسل جستنيان بعض من صحبوه للبحث عنه حيث تركوه عادوا بعد قليل مؤكدين للامبراطور أنهم لم يجدوا لذلك القصر أى أثر فى الموضع الذى شاهدوه فيه ،

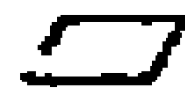
بل وجدوا ذلك الموضع قفرا كعهدهم به من قبل ذلك الحادث العجيب !

ولم يسع الامبراطور الا ان ركع واخذ يصلى بحرارة وايمان ، ثم قرر أن يصوم بضعة ايام شكراً للسماء التى ارسلت اليه المال لينجز بناء الكنيسة ، وقال لمن حوله :

ـ ان ذلك العبد لم يكن من سكان الارض بل كان رسولا من السماء ، تمت المعجزة على يده !

واعتقد الروم ، وظلوا بضعة أجيال يعتقدون ، أن المال الذى أنفقه الامبراطور جستنيان ، مشيد الكنيسة البديعة ، جاءه مباشرة من السماء

وكنيسة آيا صوفيا هي التى حولها العثمانيون ، بعد دخول محمد الفاتح بيزنطة ، الى مسجد ، وظلوا محافظين على اسمها ، فعرف المسجد باسم « جامع آيا صوفيا »



اما خصوم الامبراطور ، فانهم كانوا يفسرون توفر المال بين يديه ، ووجود تلك الثروة التى لا تنضب تحت تصرفه ، بادعاءات من نوع آخر ، يروجونها سرا فتنتقل من فم الى فم بين جدران البيوت ، ولا ينادى بها الخطباء الثرثارون فى حلبة « سوق الاخبار » امام القصر المقدس !

كانوا يقولون ، أن جستنيان كان يتظاهر بالتقوى والورع وصيانة أملاك الناس واحترام حقوق رعاياه ، ولكنه فى الواقع كان لصا لا يتورع عن النهب والسلب والسرقة ، وكثيرا ما عمد الى التزوير فى الوصايا التى يوصى بها كبار الاثرياء من رعاياه بحيث يثبت فيها أنهم أوصوا له بكل ما تركوه من اموال ، ثم يستولى على تركاتهم لنفسه ويحرم منها الورثة الشرعيين !

وروى آخرون : أنه كان يضارب ويتاجر فى سوق الحنطة

والحرير والمواد الغذائية ، فيحدد أسعارا منخفضة ، ويبتاع لحسابه كميات كبيرة منها ، ثم يرفع الاسعار ويبيع ما اشتراه بأغلى الاثمان !

وهناك من نسبوا اليه أنه كان يساوم كل طالب حاجة ولا ينجزها له الا بعد أن يحصل منه في مقابل ذلك على ما يمكن الحصول عليه من المال ، ومن هنا جمع مالا كثيرا من التجار وأصحاب الملاهي والحرف وغيرهم !

وأكد كثيرون أن الامبراطور لم يكن يتورع عن الاقدام على اية جريمة في سبيل الحصول على المال ، وقد اغتيل في عهده كثيرون من الامراء والكبراء في ظروف غامضة ثم آلت ثرواتهم وممتلكاتهم الى الخزانة الامبراطورية بعد اتهام ورثتهم بذلك الاغتيال للتخلص منهم والاستئثار بها من دونهم . وكذلك حكم على كثيرين من الاثرياء في عهده بالنفي ومصادرة اموالهم ، لا لذنب اقترفوه ولكن لان الامبراطور في حاجة الى تلك الاموال !

وتطاولت ألسنة أولئك الخصوم فنالت من الامبراطورة نفسها ! .. فقالوا عنها : أنها تحب المال وتتواطأ مع أهلها واصدقائها لسلب اموال الناس . كما انها كانت تطلق أعوانها ليوافوها بأخبار العظماء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ثم تدبر المكايد بالاتفاق مع الامبراطور زوجها للايقاع بكل من هؤلاء طمعا في الاستيلاء على ماجمعوه وكنزوه !

واتهم الامبراطورة خصومها أيضا بأنها طالما اجتذبت اليها أصحاب الاموال ورجال الاعمال بمساعدتهم على تنفيذ مشروعاتهم الى أن تنجح هذه المشروعات وتدر أرباحا كبيرة ، ثم تعمل على اتهامهم بالغش والجشع للاستيلاء على ثرواتهم بعد أن يلقى بهم في غياهب السجون !

والواقع ان بيت المال كان كثيرا ما يصادر لحسابه كميات من البضائع أو التحف أو المواد الغذائية وغيرها . ولكن الشعب

كان يعزو تلك المصادرات كلها الى تدبير تيودورا ، مهما تكن الاسباب القانونية لها

والعجيب أن عامة الشعب كانوا اكثر تصديقا لما يروى عن الامبراطورة تيودورا من هذا القبيل ، برغم أنها كانت معروفه بالعطف على العامة والبر بالفقراء فى الوقت الذى تبدو فيه متكبرة متعجرفة نهمة ، شديدة الاعتداد بنفسها والتمسك بسلطتها ازاء الكبراء وذوى النفوذ واصحاب المناصب العالية

وهكذا استطاع أولئك الخصوم أن يلصقوا جميع انواع التهم الشائنة بالامبراطورة عدوة الاقوياء وصديقة الضعفاء ، وصدق الجميع ما نسب اليها من مختلف ألوان الظلم والاستبداد والفساد ، وفى مقدمة ذلك انها لا تكاد تغضب على شخص ما لسبب من الاسباب مهما يكن تافها ، حتى تأمر باحضاره الى القصر ، حيث تسلط عليه من يكبلونه بالحديد ، ثم يوجعونه ضربا ، وبعد ذلك تأمر بارساله الى المنفى فى أطراف الامبراطورية ، أو بحبسه فى أقبية القصر المظلمة حتى يلقى حتفه بعد أن يذاق ألوانا من التعذيب ، وهنا تأمر الامبراطورة بوضع جثته فى كيس خاص ومعه أثقال من الحديد ثم يلقى بالكيس وما فيه ليلا فى مياه البوسفور ! .. كما كانت أحيانا تشتد فى قسوتها على ضحية غضبها فتأمر باغراقه هكذا وهو على قيد الحياة ! وكانت هذه الانباء تنتشر بسرعة بين الناس فى الاسواق والبيوت والحقول ، فاذا مر بعضهم أمام أسوار القصر المقدس ، تهامسوا فيما بينهم ، وجعل كل منهم يروى للاخرين ما سمعه عن السجون المظلمة فى أقبية القصر السحيقة ، حيث تحبس تيودورا صديقة الشعب ، خصومها وخصوم الشعب !

واشتط الخيال بخصوم الامبراطورة ، فاخترعوا من بنات أفكارهم مئات من آلات التعذيب زعموا أنها هى التى أعدت

تصميمها بنفسها للتنكيل بضحاياها من الكبراء والأثرياء .
فمنهم من يربط بالسلاسل بحيث يتعذر عليه أن يتحـــرك ،
ومنهم من تفقأ عيناه مبالغة في حرمانه من النور ، وهنـــاك
آخرون يقضى عليهم بألا يأكلوا غير العظام المجردة من اللحم ،
فاذا قدر لاحدهم أن يبقى على قيد الحياة شهورا في سجنه على
هذه الحال فانه غالبا لاينجو من الاصابة بالعمى أو الجنون .
وهنا تطلق تيودورا سراحـــه وتتركه يهيم على وجهـــه فى
الاسواق . وكان هذا هو التعليل المقبول لكثرة المجـانين فى
بيزنطة ، ولاسيما أن هؤلاء جميعـا لم يكـــونوا يعرفون عن
ماضيهم شيئا ، أو على الاصح لم يكونوا يذكرون عنه شيئا ؛
لان السجن والتعذيب قد أفقداهم الذاكرة والعقل !

وتناولت الالسن حكاية ابن تيودورا الذى اختفى قبل أن
تصبح عشيقة ولى العهد وزوجـة الامبراطور ! .. فانتشرت
اشاعة تقول : ان ذلك الابن عاد الى القسطنطينية عقب وفاة
أبيه بعد أن عرف منه أن أمه التى أنكرته ونبذته هى تيودورا
امبراطورة الروم وزوجة جستنيان ، وعلى أثر وصـــوله الى
العاصمة أرسل يطلب مقابلة الامبراطورة ، فتظاهرت بالسرور
لمقدمه وبالغت فى الترحيب به ، ولكنها كانت قد أوعزت الى
زبانيتها بأن يتربصوا لاقتناصه عقب انتهاء المقابلة ، فانقضوا
عليه وهو خارج من عندها وقادوه فورا الى حيث لم يره أو يسمع
عنه أحد أى خبر بعد ذلك !

تلك هى الاخبار المثيرة التى كان الناس يروجونها ويتناقلونها
عن جستنيان ، وزوجته العجيبة ولكن هذه الاخبار لا تخلو من
مبالغة ودس وكذب . ان فيها شيئا من الحقيقة ولكنها ليست
كلها صحيحة !

⌂

ان بروكوبس ، الذى نقل الينا الكثير من الفضـــائح عن

تيودورا : يقول عنها حرفيا . في كتابه «التاريخ السري» مايلي:
« كانت تيودورا امرأة غامضة . واذا أرادت أن يبقى عمل من أعمالها سرا مكتوما ، فان ذلك كان ميسورا لها ، ولم يكن في وسع أحد أن يكشف الستار عن ذلك السر مهما تكن مهارته وشجاعته »

وبروكوبس هذا هو نفسه الذي نقل معظم الحوادث والاساطير والفضـــائح التي أشرنا اليها . فكيف عرف هو تلك الاسرار التي يدعي أن تيودورا كان بوسعها أن تخفيها من غير أن يتمكن أحد من كشف الستار عنها ؟

ثم ان بروكوبس ، بعد أن روى بعض تلك الفظائع التي ألصقها بالامبراطورة عاد فاعترف بأن الهرب من الســـجون والاقبية ومعتقلات المنفى التي تحدث عنها ، كل ذلك لم يكن من الامور المتعذرة وان كان صعبا . ثم أضاف الى ذلك قوله: ان كثيرين من أولئك الذين قضوا في سجون تيودورا وأقبيتها مدة من الزمن ، بسبب غضب الامبراطورة المؤقت ، عادوا الى استنشاق نسيم الحرية وعادت اليهم أموالهم وأملاكهم !

وفي ذلك كله تناقض وتباين يحملنا على القول بأن الكثير مما روى عن تيودورا كان تحاملا عليها وافتراء من أعدائهـــا وخصومها

نعم ، ان قصور الاباطرة في بيزنطة كانت تضم ســـجونا وأقبية . ولا بد أن يحدث فيها ما يحدث في غيرها من القصور، في عصر كانت فيه الرحمة والشفقة من الفضائل المجهولة أو الممتهنة . وكان أولئك الحكام الذين يبدون من التعصب الديني أشده ، هم في الواقع أبعد الناس عن العمل بتعاليم المسيح ودينه ، وما نصت عليه تلك التعاليم من محبة ووئام !

ولا يستغرب أن تكون تيودورا قد انتقمت من أشـــخاص ناصبوها أو ناصبتهم العداء لسبب من الاسباب ولا أن تكون قد سجنتهم وعذبتهم أو قتلتهم . فالواقع أنها كانت على جانب

كبير من الحقد ، ولم تكن تنسى الاساءة قط ٠٠ وقد عاشت حتى آخر حياتها وهى تذكر موقف « الخضر » منها ومن أهلها ، وكيف احتقروها وامتهنوها وحاولوا حرمانها من أسباب الارتزاق !

كذلك كانت تيودورا جبارة فى ممارسة سلطتها الامبراطورية، فلم تكن تتردد فى الالتجاء الى القسوة والبطش للتخلص من أعدائها الذين أرادوا أو حاولوا أن ينقصوا من سلطتها او يسلبوها شيئا منها



وكانت الغاية عندها تبرر الوسيلة ، وعلى هذا لم تتورع عن استخدام أى سلاح ضد أعدائها ، ولم تتردد فى اتخاذ اية وسيلة مشروعة او غير مشروعة فى سبيل الاحتفاظ بسلطتها المطلقة ، فكذبت ونافقت وغدرت غير مرة ، ولكن هذه المرأة التى حكمت عشرين سنة ، كانت ــ باعتراف بروكوبس نفسه ــ كثيرا ما تفتح قلبها للرحمة والشفقة ، كما كانت تحافظ على وفائها للذين خدموها وأخلصوا لها ، وتغفر لاعدائها اذا ما تابوا وطلبوا منها الصفح عما بدر منهم !

وهناك حقيقة لا يمكن نكرانها ، وهى أن أشد خصوم تيودورا عداء لها وسخطا عليها ، لم يقتلوا ولم يسجنوا ، بل حكم عليهم بالنفى ، فاكتفت الامبراطورة بأن تبعدهم عن العاصمة لكى تأمن شرهم ، وفرضت عليهم رقابة شديدة فى أطراف المملكة حيث كان منفاهم

ولا شك أيضا فى أن تيودورا قد وضعت ثقتها ، فى وقت من الاوقات ، فى أشخاص كانوا من قبل أعداء لها وكانت هى تكرههم وتخشاهم . فالقول اذن بأنها كانت تلاحق خصومها وتطاردهم حتى تقضى عليهم ، قول لا تؤيده الحوادث نفسها . ولا يستغرب من انسان حقود أن يصفح عمن كان يحقد عليه ، وان ظل يذكر الاساءة التى لحقت به من أجله أو على يده

اما ابنها ، فليس هناك ما يثبت أنها تخلصت منه بالقتل .

وقد يكون هناك سر لم يرفع عنه النقاب أحد الى اليوم . ولا يستبعد أن تكون تيودورا قد نفحت ذلك الابن مبلغا من المال على شرط أن يذهب الى مكان قصى ولا يظهر ثانية فى العاصمة . ولم يكن فى وسع الابن أن يقاوم أو يتمرد ، وأمه على ما هى عليه من جبروت وسلطان !

والذى يحمل على الشك فيما رواه الرواة عن قتل ذلك الابن : أن تيودورا كان لها ابنة كما أسلفنا . وأن تلك الفتاة عاشت فى بيزنطة وفى كنف أمها ، وكانت تيودورا تغدق عليها النعم ، ثم فتحت لحفيدها أثاناسيوس ، ابن تلك البنت غير الشرعية ، طريق النجاح والثروة ، ورعته بعنايتها وسألت عنه ساعة موتها !

ولا نظن أن اهتمام عامة الشعب بأمثال تلك التفاصيل التى رواها بروكوبس كان بالغا ذلك المبلغ الذى ادعاه . والشعب عادة يبحث عن الاسباب فى غير موضعها . انه كان يرى نفوذ تيودورا على زوجها ، وسلطانها المطلق على الامبراطور الذى يفعل ما تريد ، فاعتقد الناس أن هناك تدخلا من الملائكة أو من الابالسة أو من العفاريت ، فى حين انه كان فى وسعهم أن يفسروا هذا السلطان وذلك النفوذ بأن زوجة الامبراطور تمتاز بارادة أقوى من ارادة زوجها ، وأن شخصيتها تطغى على شخصيته !

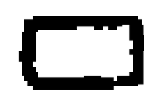
فأقرب الى التصديق اذن أن يقال ان طغيان تيودورا على جستنيان كان أمرا طبيعيا ولاحاجة الى أن نعلله بأسباب خارقة للطبيعة !

ولكن الشعب كالطفل الكبير ! والاساطير والخرافات تؤثر فيه وتغرى مخيلته اكثر مما تغريه الوقائع الملموسة . ومن هنا كان شعب بيزنطة ــ برغم حبه لتيودورا ــ يصدق بسهولة كل ما يشاع عنها ، ثم انتهى به الامر الى أن اعتقد أنها على صلة بالشياطين ، وأن الشياطين كانت تعاشرها فى صباها وتطرد عشاقها وتحل محلهم ، بل اعتقد انها حين تسنمت العرش ، كانت واسطة

تعارف بين زوجها ، وسكان الجحيم !

ولا يمكن تصديق الافتراءات التي حاول بعضهم الصاقها بتيودورا ، من حيث سوء سيرتها بعد تسنم العرش . فلو ان هذا كان صحيحا ، لتناولته الالسنة بالنقد والتجريح ولما بقي كاتب أو مؤرخ أو راهب لم يذكره ويسجله وينقله الينا خلال الاجيال التالية !

ولا يغرب عن البال ان فضائح النساء في بيزنطة ، كانت ركن الاحاديث ومحورها في المجتمعات والاندية والاسواق على السواء . ولم تسلم امرأةواحدة، كبيرة كانت أم صغيرة ، من السنة الناس . فكيف سلمت منها تيودورا الامبراطورة ، وهي التي عرفها الشعب بأسره ورآها ممثلة ، وراقصة ومهرجة ، في الملعب ؟



ولنختم حديثنا عن ثرثرة العاصمة البيزنطية بذكرالاعتقاد الذي كان شائعا في المدينة عن تمثال « الزهرة » ـ اي الربة فينوس ـ على ساحل القرن الذهبي :

كان ذلك التمثال بقية من آثار العهد الوثني ، وكان الناس يعتقدون أن صاحبته فينوس الواقفة عارية على قمة عمود مرتفع ، تشرف على مياه القرن الذهبي ، ترغب بحمايتها بيوت الملذات المحرمة ، ولا تتردد في اداء أجل خدمة يمكن أن تؤديها ربة من الربات لرجل محافظ يغار على سمعته !

فاذا ما شك زوج في وفاء زوجته له ، واتهمها أو مال الى اتهامها بالخيانة ، فانه يأخذ بيدها ويقول لها : « هيا بنا الى تمثال فينوس ! »

والمرأة الشريفة وحدها دون سواها هي التي كانت ترضى بأن تقوم بالتجربة وتذهب مع زوجها الى التمثال الرهيب ، ذلك لان المدينة كلها كان يسودها الاعتقاد حينذاك بأن كل امرأة مذنبة تمر في ظلال التمثال لا بد أن تسقط عنها ثيابها فتبدو

عارية مثلما يبدو تمثال فينوس !

أما اذا كانت الزوجة شريفة غير مذنبة ، فانها تمر بسلام ولا تقدم الربة على تجريدها من ثيابها ، وبذلك لا يسع الزوج الا أن يؤمن بأنها باقية على وفائها له !

ويرون أن حادثا مزعجا وقع من هذا القبيل لابنة أخت تيودورا، فقد ذهبت تلك المرأة الى القرن الذهبي لزيارة احدى صديقاتها ، ففاجأها المطر ، واضطرت الى سلوك طريق آخر، فقادتها قدماها الى التمثال المعهود ، واذا بها تجد نفسها مجردة من الثياب ، عارية فى وسط الطريق ! فغضبت ، وقصت ما حدث لها على خالتها الامبراطورة ، فأمرت تيودورا بأن ينزل التمثال عن قاعدته ويحطم . وهكذا أنقذت الامبراطورة نساء الدولة الخائنات من ذلك الكابوس !

وقال الناس همسا : « اذا كانت تيودورا قد حطمت التمثال ، فذلك لانها خائفة من أن يعمد زوجها الامبراطور الى اخذها بيدها قائلا : « هيا بنا الى تمثال فينوس ! »

والحقيقة يمكن تفسيرها الآن بأن المرأة التى مرت أمام التمثال قد فوجئت برياح قوية هبت عليها كما فوجئت بالمطر ، وان تلك الرياح رفعت ثوبها أو أسقطته ، ولكنها جارت الاعتقاد السائد : ونسبت الى التمثال الاصم تهمة تجريدها من ثيابها ، فعمدت الى التخلص منه بمساعدة خالتها !

هذا الى أن تيودورا تعد فى مقدمة شهيرات النساء اللائى كتب عنهن المؤرخون والرواة مجلدات لا عداد لها . وقد ثبت أن واحدا ممن كتبوا عنها ، لم يذكر أنها بعد جلوسها على العرش كانت امرأة منحلة الخلق سيئة السيرة كما كانت فى عهدها الاول . ونحن نميل الى الاعتقاد بأنها كانت زوجة صالحة وفية للأمبراطور الذى وضع فيها ثقته وأحبها حبا جعله ينسى نفسه من أجلها ، ويضحى بسلطته فى سبيل سلطتها !

# تيودورا الزوجة

كان المؤلف المسرحي الفرنسي «فكتوريان ساردو» من الكتاب الذين اتخذوا حياة تيودورا موضوعا لكتاباتهم ، وقد وضع عنها مسرحية « تيودورا » واظهرها فيها بمظهر امرأة مستهترة سيئة السلوك . وقد ساعد ذلك على ترسيخ الاعتقاد لدى بعض الناس بصحة ما قيل وأذيع عن الممثلة الحسناء التى صارت امبراطورة ، وباتوا ينظرون اليها عن بعد خلال حقبات التاريخ ، نظرهم الى غانية ظلت بعد اعتلائها العرش ، منغمسة فى سيرتها الاولى غارقة الى ما فوق رأسها فى أحضان الرذيلة !

ونحن لا نرغب هنا فى الدفاع عن الامبراطورة واظهارها أمام القراء فى مسوح القديسين . فان التأكد من أنها تحولت الى امرأة صالحة ليس من الامور السهلة ، ولا يهمنا نحن أن تكون تيودورا قد تابت من ذنوبها أم لا . ففى شبابها ، كانت تيودورا منغمسة فى الملذات المحرمة بلا وجل ولا حياء . واذا كانت ، فيما بعد ، قد استمرت فى غيهـا وعاشت بين جدران القصر الامبراطورى كما كانت تعيش بين جدران المواخير ، فهذا لا يضيرنا نحن بل يضير زوجها الامبراطور جستنيان !

غير أن الوقائع هى الوقائع . والدلائل هى الدلائل . واذا فحصناها ووزناها ، فانهـا تنطق بما فى مصلحة تيودورا لا ضدها . فلنفحصها اذن ولنزنهـا بميزان الانصاف وعدم التحيز

ومن بين هذه الوقائع الملموسة والدلائل الجلية ، أنه ليس هناك كاتب مؤرخ واحد من معاصريها ، ولا ممن عاشوا فى

الجيلين التاليين ، سطر كلمة واحدة يستفاد منها ان الامبراطورة ظلت ، بعد اعتلاء العرش ، تلك المرأة الفاسقة الفاجرة ، التى عرفها البيزنطيون فى ملعب عاصمتهم . مع أن أولئك الكتاب المؤرخين كثيرون

وقد نقلوا الينا أشياءكثيرة عن تيودورا ، وعددوا لنا عيوبها ونقائصها ، فقالوا : انها كانت متكبرة قاسية جشعة ، متعصبة ماكرة . ولم يكن هناك ما يمنعهم من أن يقولوا أيضا : انها كانت زوجة سيئة السلوك !

وهؤلاء المؤرخون الذين نشير اليهم ، وفى مقدمتهم بروكوبس ، قد سردوا لنا بالتفصيل جميع ما عرفوه أو سمعوه أو ابتكروه من مخيلتهم عن تيودورا الراقصة الممثلة ، وعن الامبراطورة الطاغية . ولو كانت زوجة جستنيان قد خانته أو لطخت اسمه بالعار ، لما سكت هؤلاء المؤرخون عن هذا ، ولرووه لنا بالتفصيل كما فعلوا عن الشطر الاول من حياة تيودورا . وماداموا قد لزموا الصمت ولم يقولوا شيئا فى هذا الصدد ، فمعنى ذلك أنه لم يكن هناك شىء يقال !

ان كل ما أشار اليه بعضهم ، فى كتب التاريخ التى يعتمد عليها ، هو أن الامبراطورة كانت صديقة حميمة لثلاثة من الرجال ، غمرتهم بعطفها ونعمها . فمن هم أولئك الثلاثة ؟ . وهل كانوا أصدقاء فقط أم كانوا عشاقا ؟ كان هؤلاء الثلاثة هم : تيودوسيوس ، وبرسيماس ، واريوبنداس . وأولهم كان عشيق انطونينا ، زوجة القائد العظيم بليزيروس ، ووصيفة الامبراطورة المحببة المقربة . وقد استمرت علاقة تيودوسيوس بالزوجة الخائنة بضعة أعوام . فقد لحق بها الى حيث كانت تذهب مع زوجها القائد ، وهو على رأس الجيش الرومى : ذهب معها الى افريقا ، والى جزيرة صقلية ، والى ايطاليا ، من غير أن يفتح بليزيروس عينيه ويدرك الحقيقة ، رغم محاولات أصدقائه العديدة لتنبيهه وتحذيره . فان الرجل كان عاشقا متيما ،

والزوج العاشق لا يرى فى زوجته عيبا مهما يكن العيب ظاهرا . وهو ايضا ضعيف الارادة برغم صرامته وشدته وقسوته كجندى وقائد

ومرت عشرة أعوام ، شعر الزوج فى نهايتها بأن هناك شيئا يمس كرامته ، وأدرك الحقيقة المرة المؤلمة . فعول على وضع حد لتلك الحالة . وحبس زوجته فى دارها ، ونادى « فوتيوس » ابنها من زوجها الاول ، وعهد اليه بأن يقتص من أمه ويعاقبها على ما فعلت !

ولم يتردد الشاب فى تنفيذ ما كلفه به زوج أمه . وكان تيودوسيوس قد فر من وجهه ولجأ الى حرم كنيسة على أمل الا يجرؤ أحد على اللحاق به اليها . ولكن فوتيوس لم يحترم قدسية المكان ، بل اقتحم الكنيسة ، وقبض على عشيق أمه ، وارسله مكبلا بالحديد الى قلعة منعزلة فى جبال قيليقية بسورية !

وتم كل شيء بسرعة عجيبة وحذر شديد ، حتى ان الناس ظلوا مدة من الزمن يجهلون مصير تيودوسيوس ، الى ان تدخلت تيودورا فى المسألة .. وقيل أنها كانت تعطف على تلك العلاقة القائمة بين وصيفتها وعشيقها تيودوسيوس ، وأنها كانت تحمى الحبيبين ارضاء لأنطونينا . فان رضاء وصيفتها كان من شأنه ان يجعل زوجها بليزيروس دائما تحت نفوذ الامبراطورة ، والامبراطورة فى حاجة الى تأييد قواد الجيش . وهكذا رأت تيودورا أن تكتسب الزوج ، بأن تساعد زوجته على خيانته لترضيها وتؤثر بواسطتها فيه !

وحدث ذات مرة أن لاكت الالسنة حكاية أنطونينا وتيودوسيوس ، فخشى العشيق على نفسه ، وابتعد عن العاصمة ، ولكن تيودورا نفسها أرسلت فى طلبه ، وطمأنته على حياته ، وحملته على البقاء فى بيزنطة بجانب صديقتها ووصيفتها أنطونينا العاشقة !

ولما بلغها ما حـــدث لانطونينا ، وكيف حبسها زوجهـــا بليزيروس فى بيتها ، وعهد الى ابنها فى معاقبتها ، كما بلغها أن فوتيوس أرسل العاشق الى قلعة فى قيليقية ، أسرعت الى التدخل ، ودعت بليزيروس للعودة الى بيزنطة مع زوجته ، وأرغمته على أن يصطلح مع انطونينا وينسى ما فات . وهكذا فعل القائد الضعيف الارادة ما طلبته منه الامبراطورة !

وبعد أن تم الصلح بين الزوج والزوجة ، بفضل تيودورا ، أرسلت الامبراطورة فى طلب تيودوسيوس نفسه ، وجاءت به سرا الى القسطنطينية ، وأدخلته القصر ليـــلا ، وخبأته فى الجناح المعد ، ثم نادت وصيفتها أنطونينا : الزوجة الخائنة، وقالت لها :

ـ يا عزيزتى الحبيبة ، لقد وقع بين يدى كنز ثمين ، جوهرة لم تقع على مثلها يد انسان .. فاذا أردت ، فانتى اجيئك بالجوهرة لكى تمتعى بها النظر !

ولمـــا رأت حمـــاسة أنطونينا لرؤية الجوهرة ، أخرجت تيودوسيوس من مخبئه ، وألقته بين أحضان عشيقته ، التى طارت من الفرح ، وجعلت تقبل يدها مرددة :

ـ أنت سيدتى ، أنت ملاكى ، أنت منقذتى !

واحتفظت تيودورا بالعشيق داخل القصر ، حيث أعدت له ولعشيقته جناحا خاصا ، وعينت لهما الخدم والخصيان ، وفكرت فى وقت من الاوقات أن ترفع تيودوسيوس الى مصاف القواد وتضعه على رأس فرقة من الجيش . ولكنه مات قبل أن تحقق تيودورا وعدها !



هذه قصة أنطونينا وتيودوسيوس كما رواها بروكوبس . ولا شىء فى روايته هذه يدل على أن الامبراطورة انتزعت من الوصيفة عشيقها . ولو كانت قـــد فعلت ذلك ، لما سكت بروكوبس ولا إتخذ عملها هذا حجة للتشهير بها كعادته !

وقال آخرون أن تيودورا كانت عشيقة « برسيماس » وهو

شاب سورى بدأ يجمع ثروته الطائلة بالاتجار بالفضة والذهب. ولفت الى نفسه الانظار بالمضاربات الجريئة التى كان يقدم عليها ، فى غير مبالاة بالصدق او الامانة !

ثم اصبح برسيماس فى خدمة الحكومة بعد ان صار على جانب عظيم من الثراء ، فاسترعى نشاطه انتباه الامبراطورة ؛ وسرعان ما قربته منها وجعلت تستخدمه فى قضاء مآربها السياسية . ومهدت له سبل الارتقاء فأصبح رئيسا للمحكمة العليا ! .. ودهش الناس لهذا الصعود السريع المفاجىء ، فراحوا يفسرونه بما يوحى به الخيال فقال « الفلاسفة » فى « سوق الاخبار » : ان برسيماس يتعاطى السحر ، وانه يضع فى كأس الامبراطورة شرابا تعده له الشياطين ، وهذا هو سر نفوذه عليها وعطفها عليه !

والحقيقة أن برسيماس لم يكن فى حاجة الى شراب سحرى ولاالىمساعدة الشياطين لكى يتقدم وينجح . فهوذكى جرىء. وقد انتقل الى منصب وزير المالية فعرف كيف يحصل على المال كلما كان الامبراطور أو الامبراطورة فى حاجة اليه . وفى هذا ما يكفى لاكتساب ثقة جستنيان وتيودورا

وكان الرجل قاسيا فى معاملة الناس . ولم يحجم عن الدخول فى مضاربات ومساومات أحدثت فى النهاية امتعاضا عاما ، فاضطر جستنيان الى اعفائه من منصبه ، برغم قدرته على احضار المال وقت اللزوم !

وحاولت تيودورا أن تثنى زوجها عن عزمه ولكنها فشلت . غير انها ظلت تشمل برسيماس بحمايتها ، فكان هذا عزاء له عما أصابه من نقمة الامبراطورة . وليس هناك ما يدل على أن علاقة غرامية قامت بين تيودورا وبرسيماس . وقد قال بروكوبس نفسه : « ان تيودورا أحبت برسيماس لبراعتهفى الحصول على المال ، ولخبرته فى الاعمال السحرية ، وهى الاعمال التى كانت الامبراطورة تميل اليها وتمارسها ! »

واذن .. لم تحبه الامبراطورة ، لأنها اتخذته عشيقا لها، بل أحبته كخادم أمين تثق به وتستغل مواهبه !

وبعد موت تيودورا ، عاد برسيماس الى القصر وشغل مرة أخرى منصب مدير بيت المال وظل حائزا بقية حياته على ثقة الامبراطور !

وكتب قصاص يدعى « ريلاس » فى القرن الثانى عشر قصة عن رجل يدعى « برسيماس » قال عنه أنه كان من أخصاء الامبراطورة تيودورا ، وروى فى قصته الرواية الآتية :

« عرف برسيماس وهو فى حمص بسورية ، ساحرةمصرية جاءت من الاسكندرية تحمل معها لوحات عليها رسوم فرعونية لا يعرف غيرها معناها . ولكنها وقعت فى غرام برسيماس ، فاصطحبها معه الى بيزنطـــة ، حيث فكت له رموز تلك اللوحات ، فأصبح يملك قوة خارقة تزيل من سبيله العراقيل وتمهـد الصعاب وتجعل أقوى النـــاس شكيمة يقف أمامه مستسلما طائعا . وبقوة تلك الطـلاسم الفرعونية ، توصل برسيماس الى أعلى المنـــاصب وملك قيـــاد الامبراطورة والامبراطور . ولكن الساحرة التى كانت تحبه داخلتها الغيرة من تيودورا الجميلة ، فلجأت الى استخدام سحرها للتفريق بين عشيقها والامبراطورة ، فنجحت ! »

ولا يعرف من أين أتى ذلك القصاص بهـذه الرواية عن الساحرة المصرية . واغلب الظن انه نقلها عن مخطوط قديم ، أو ابتكرها من مخيلته ، شأنه فى ذلك شأن معظم القصاصين !



أما « اريو بندوس » الذى قيل أيضـا انه كان عشيق الامبراطورة ، فهو من الشـعوب التى كان الروم يسمونهـا « برابرة » وقد عطفت عليه تيودورا وقربته اليها وعينته فى حرسها ، لانه كان قويا جميلا مفتول العضلات . وتهامس

الناس فيما بينهم : « أهو حارس أم عشيق ؟ »
وبلغت أخبار هذا التهامس مسامع تيودورا ، فسارعت الى ابعاد الشاب فارسلته الى احدى الحاميات البعيدة . ولو كانت تحبه كعشيق لما منعها شيء من اخفائه في قصرها من غير أن تصل اخباره الى الخارج . واذا كانت قد أبعدته ، فان هذا دليل على أنها ارادت أن تكذب الاشاعات وتصون سمعتها !
والذي نعتقده ، أن تيودورا صانت سمعتها فعلا ، وكبحت جماح نفسها كامرأة ، منذ أصبحت امبراطورة . وذلك لبضعة أسباب :
فقد اعتلت العرش وهي في نحو الثلاثين . والمرأة في هذه السن ، خصوصا في الشرق ، تكون قد فقدت كثيراً من روعة الشباب . فضلا عن أن تيودورا ، في الوقت الذي قيل فيه انها اتخذت لنفسها عشاقا وهم الذين ذكرناهم ـ كانت قد جاوزت الخامسة والاربعين !
يضاف الى هذا أن تيودورا الذكية النابهة ، أدركت أن منصب الامبراطورة وعرش بيزنطة يستحقان أن تضحي في سبيلهما بميولها العاطفية . واذا كانت قد أخطأت فقد يكون ذلك في داخل القصر ، وبصورة خفية سرية ، لا يمكن ان يفطن اليها الناس من الخارج ، ويتحققوا منها ، ويستطيعوا اثباتها !
واذا لا نتصور تيودورا في صورة امرأة كانت فاسقة فاجرة ، ثم ضحك لها الحظ فجلست على العرش ، ومنذ تلك اللحظة شعرت بالاشمئزاز من حياتها السابقة ، وصممت فعلا على اسدال ستار بين ماضيها وحاضرها ؟
لقد اثبتت أكثر من مرة ، وهي امبراطورة ، أنها تحمي الازواج وترغب في صيانة حرمة الزواج . ولا عبرة بحادثي تيودوسيوس وانطونينا ، حيث ضعفت تيودورا أمام وصيفتها وأرادت ان ترضيها باحضار العشيق والقائه بين احضانها . فهناك مئات من الحوادث الاخرى ، أبدت فيها الامبراطورة

غيرتها على سمعة الزواج ورغبتها فى أن يحافظ الناس على الرابطة التى جمعت بينهم فجعلت من الرجل رفيق المرأة ومن المرأة رفيقة الرجل فى الحياة !

ومن الفضائل التى لا يمكن انكارها ، ان تيودورا عملت وهى امبراطورة على انقاذ النساء الساقطات من هوة العار ، وأعادتهن الى الحياة الشريفة ، ثم حملتهن على الزواج لكى يجدن فيه الراحة والاستقرار . فهى تساعد المرأة على النهوض لا على السقوط . أليس فى ذلك دليل على أنها كانت تأسف لأنه لم يوجد أنسان ينقذها من حياة الفسق والفجور وهى شـــابة يافعة !

ثم ان تيودورا كانت متدينة ، هذا مالا شك فيه . وأعمالها التى تثبت تدينها ــ وهى امبراطورة ــ لا تعد ولا تحصى . ومهما قيل فى أعمال الناس ، فانه لا يعقل ولا يمكن أن يتصور المحقق المدقق ، أن انسانا تقيـا ورعا مؤمنا ، يحيـــا حياة مزدوجة ، شطر منها نظيف شريف ، وشطر منهـــا ملطخ مريبة ؟!

# ثورة ضد العرش

كانت القسطنطينية قد سادها القلق والاضطراب ، لتفاقم الخلاف بين فريقي « الخضر » ، و « الزرق » . وبلغ الخطر ذروته في شهر يناير سنة ٥٣٢ فباتت العاصمة مهددة بانفجار هائل رهيب !

وكانت الامبراطورة تيودورا تميل الى الزرق وتعطف عليهم، نتيجة لحقدها على الخضر ورغبتها فى الانتقام منهم لاساءتهم السابقة اليهـا قبل أن تعتلى العرش . وعلى هـذا تعودت التستر على الزرق وحمايتهم ، كلمـا أقدموا على عمل غير مشروع أو جريمة يعاقب عليها القانون !

وعبثا حاول جستنيان أن يثنيها عن تحزبها . وكان يقول لها كلما أقدمت على شيء من هذا القبيل :

ــ الا تخشين خروج الخضر عن جادة الصواب واحداث فتنة فى العاصمة ؟

فكانت تجيب ضاحكة : « فليحاول الخضر احداث الفتنة ان استطاعوا ! . . ان الزرق لهم بالمرصـاد ، وهم خليقون أن يخمدوا أنفاسهم فضلا عن فتنتهم التى تخشاها ! » وحينئذ يسـكت الامبراطور مقتنعا ، ثم يجاري زوجته فى تماديهـا ومبالغتها فى تأييد أصدقائها !

على أنه كان فى بعض الاحيـان يضيق بحمـاقات الزرق واستهتارهم فيأمر باتخاذ اجراءات عنيفة لردهم وكبح جماحهم حتى لا يتمادوا فى غيهم وغرورهم . . ولكن الامبراطورة تيودورا

سرعان ما كانت تتدخل فى الامر ، فتثور غاضبة وتصارح زوجها وهى ترغى وتزبد بأنها قد تتسامح فى أى شيء الا أن يكون فيه ما يمس الزرق من قريب أو بعيد !

وكان الزرق يعرفون هذا ، ويدركون لماذا تتشبث الامبراطورة بحمايتهم ومحاباتهم على حساب الخضر. فيزيدهم هذا تماديا وامعانا فى مفاسدهم واعتداءاتهم على خصومهم ! .. واذا حدث أن غضبوا يوما لتصرف فى غير مصلحتهم من أحد موظفى الدولة أو ضباط الجيش أو احد الحكام والمحافظين فما أسرع ما كانوا يجمعون جموعهم ، ويزحفون على القصر المقدس ، حيث يتظاهرون فى ساحته صاخبين ، مطالبين الامبراطور بمعاقبة خصمهم بالطرد .. وهنا لا يسع الامبراطور الا أن يجيب طلبهم حتى لا تغضب زوجته الحبيبة الحسناء !. وما كان يحدث فى العاصمة ، كان يحدث أيضا فى الاقاليم والولايات والمدن النائية

وقع ذات يوم شجار فى انطاكية ، اشترك فيه الزرق ، فقبض حاكم المدينة على فريق منهم وضربهم بالسياط فى أحد الميادين العامة . وكان يتوقع ان يهنئه الامبراطور على حزمه وشدته فى معاقبة المذنبين ، ولكن الامر جاء على نقيض ذلك اذ أمر الامبراطور بالقبض عليه ، وبأن يجلد بالسياط فى الميدان نفسه الذى جلد فيه أولئك الزرق المشاغبين !

ومرة أخرى ، هاجم جماعة من الزرق حاكم قيليقية ، وسلبوه نقوده بعد أن شهروا أسلحتهم فى وجهه ، فارسل فى اليوم التالى قوة اعتقلت المعتدين ، واعدم اثنين منهم شنقا فى عاصمة الولاية . وما بلغ الخبر تيودورا ، حتى أمرت بالقبض على ذلك الحاكم ، وبأن يصلب فى المكان الذى أعدم فيه الشقيين .. وهكذا شنق المسكين لأنه حرص على صيانة الامن وتنفيذ القانون !

وفى القسطنطينية ، كانت حوادث الاغتيال تقع فى وضح

النهار ، وكان الزرق يهاجمون خصومهم بالخناجر والسيوف على مرأى ومسمع من الامبراطور نفسه !

وكثيرا ما حدث أن ضرب الزرق عرض الحـــائط برأى الامبراطور ، فلم ينتظروا حتى يبت فى شـكواهم ضد احد خصومهم ، بل عمدوا الى التربص لهذا الخصم ، ثم الانتقام منه بأنفسهم لأنفسهم بأن انهالوا عليه بالضرب حتى مات ! .. وقد يكون من موظفى القصر المقربين من الامبراطور ! . وقد ينفذون فيه حكمهم الرهيب وهو خارج من القصر !

ولم يكن احد من رجال الشرطة ليجرؤ على التدخل لتاديب أولئك الاشرار أو منعهم من قتل خصومهم ، ذلك لان الزرق كانوا لا يترددون فى اشهار الســلاح فى وجوه رجال الشرطة انفسهم ، ومقاومتهم بالقوة ، ثم رفع شكواهم بعد ذلك الى الامبراطور مدعين أن رجال الشرطة هم المعتدون !

وزاد فى خطورة الحالة أن الخضر حين ادركوا تحيز البلاط الى خصومهم الزرق ، وآلمهم أن تجـاهر الامبراطورة بحمايتهـا لهؤلاء ، عمدوا الى اعطاء معارضتهم صبغة سياسية . وكان كثيرون منهم ما زالوا أوفياء لذكرى الامبراطور «أنستاسيوس» الذي كان يميل اليهم ويحميهم . وهو آخر امبراطور من الاسرة السابقة ، التى حلت أسرة جستنيان محلها بعد موته فأخذ زعماء الخضر يتصلون خفية بالاميرين : « هيباتيوس ، وبومبيوس » . ابنى أخى انستاسيوس ووارثيه الوحيدين ، ويحرضونهما على العصيان والتمرد . وما زالوا بهمــا حتى أقنعاهما بالخروج من عزلتهما ، وتزعم حزب سياسي تألف من الخضر وغيرهم من الساخطين على الحكم الراهن فى العاصمة والاقاليم !

وقلقت الحكومة ، وأدركت أن العاصمة مهددة بثورة جارفة يضرم الخضر نيرانها انتقاما لانفســـهم من الزرق ومن الاسرة المالكة ! . واضطر الامبراطور الى مضاعفة الحراسة ، ودعا

الى العاصمة فوات من الجيش كانت مرابطة فى الاقاليم ، وأصبح الناس يرقبون ، بين ساعة وأخرى ، أن تنبعث الشرارة التى يندلع منها اللهيب !

ومما ساعد على تغذية روح التذمر وانتشار الفوضى ، ان الناس كانوا يشكون من الشدة التى يعاملهم بها بعض كبار الموظفين وذوى المناصب الرفيعة . وفى مقدمة هؤلاء المغضوب عليهم من الشعب رجلان من نوابغ ذلك العصر : « تريبونياتس » المشرف على الشئون المالية ، و « جان كابادوكى » المشرف على شئون العدل والمحاكم

كان جان من كبار رجال القانون ، وهو من هذه الناحية مفخرة من مفاخر الانسانية ، هذا مالا شك فيه ، ولكنه كان جشعا لا رادع له من ضميره . ففى سبيل المال ، كان جان كابادوكى يتاجر بكل شىء ، بما فى ذلك ضميره ، وكان يسخر القضاة والمحاكم والقوانين لخدمة مآربه وأطماعه . وقد ثبت أنه زور أوراقا رسمية ، ومسخ القوانين ، وأخفى وثائق هامة ، ارضاء لأشخاص دفعوا له فى مقابل ذلك رشوة باهظة ، وهكذا كان جان كابادوكى نموذجا للقاضى النابغة فى فهم القانون ، ولكنه يسخر نبوغه فى مخالفة ذلك القانون !

أما تريبونياتس . فكان اداريا حازما بارعا ، يعد هو الآخر من مفاخر عصره فى هذا الميدان ، ولكنه كان مثل زميله شديد الجشع ، يحب المال أولا وآخرا ، ولم يكن يتردد فى ارتكاب عمل ظالم أو مخالف للقانون ، ما دام فى ذلك حصوله على المال !

وكثيرا ما كان هذا الطاغية يرسل فى طلب المال من الاغنياء بلا مبرر لهذا الطلب ، فاذا امتنعوا بحجة أن المال غير متوفر لديهم ، فسرعان ما يقبض عليهم ويعذبهم حتى يدفعوا المال المطلوب ! . وبلغ به الامر انه عذب أناسا حتى الموت . وكان يقول لزبانيته جباة الضرائب والمكوس :

ـ أريد منكم مالا أكثر مما يحق لكم أن تأخذوا من الناس ، وانني أطلق أيديكم فى عمل ما تريدون لهـذا الغرض ، ولن أحاسبكم على شيء تقدمون عليه ، مهما تكن الشكايات التى ترفع ضدكم ، على شرط أن تعودوا الى ومعكم المال الذى أريد !

وكان الامبراطور راضيا عن هذين الرجلين القاسيين . لأن ما كان يهمه قبل كل شيء هو أن تسير الاعمال الادارية سيرا حسنا ، وأن تظل خزائن القصر عامرة بالمال . فضلا عن أنه كان يعلم ان كابادوكى وتريبونياتس لا يأخذان لنفسيهما غير القليل ويعطيانه الكثير !

غير أن رضاء الامبراطور عنهما لم يكن كافيا لحمل الشعب نفسه على الرضـاء عنهما . ففى الوقت الذى كان فيـه الامبراطور يؤنب زوجته تيودورا على حمايتها الزرق واطلاقها أيديهم فى التنكيل بخصومهم الخضر ، كانت هى الاخـرى بدورها تؤنبه على اطلاقه أيدى عماله للتنكيل بدافعى الضرائب وأصحاب الثروات والاملاك !

وهكذا انتشر الامتعاض وتحول الى تذمر فالى غضب ثم ثورة .. وقد عرفت تلك الحـركة باسم لازمها فى خلال التاريخ : « فتنة نيكاس » . وبدأت هذه الفتنة داخل الملعب ، ثم عمت المدينة الضخمة وأوشكت أن تودى بعرش جستنيان وتؤدى الى خراب المملكة بأسرها !

كان ذلك فى يوم الاحد ١١ يناير سنة ٥٣٢ ، وكان الملعب يغص بالمتفرجين الذين هرعوا اليه لمشـاهدة سباق الخيل والمراهنـة بأموالهم جريا على عادتهم . وكان الامبراطور جستنيان جالسا فى مقصورته ، وحوله رجال الحاشية . أما الامبراطورة تيودورا، فكانت جالسة بين وصيفاتها خلف ستار شفاف ، فى شرفة كنيسة القـديس اسطفانوس المطلة على الملعب ، ولهذه الشرفة نوافذ يسدل عليها ستار أو ترفع أمامها

شبكة خشبية ، لأن البلاط البيزنطى كان يحرص على الاتظهر الامبراطورة ونساء القصر أمام الجمهور الا فى ظروف خاصة وأوقات معينة . وكان الجمهور فى ذلك اليوم مضطربا هائجا ؛ فقد حدثت فى الايام الاخيرة سلسلة من الجرائم فى المدينة قتل فيها بعض الاشخاص معظمهم من فئة الخضر . وكان الخضر قد رفعوا الى الامبراطور شكاية ضد ضابط من ضباط القصر يدعى «كالوبوديوس» اتهموه بأنه متحيز الى الزرق ضدهم : وصيغت الشكاية فى كلام جاف عنيف !

فى ذلك الجو المضطرب ، بدأ السباق ، ولكن الانظار كانت متجهة الى مقصورة الامبراطور ومقصورة الامبراطورة . ومن المدرج حيث احتشد الخضر صفوفا متراصة ، تصاعدت أصوات تحولت شيئا فشيئا الى صيحات منكرة ، وصفير وضجيج . وانزعج جستنيان ، وجعل يرقب ذلك الجمهور الهائج . ثم دعا المنادى الواقف خلفه ، وطلب منه أن يخاطب الناس سائلا : « ضد من يوجه هذا الصياح ؟ »

وخاطب المنادى الناس موجها اليهم الكلام باسم الامبراطور ، ودار بينه وبين مندوب الخضر حوار من أعجب ما سجل فى صفحات التاريخ . وقد نقل الينا ذلك الحوار بحذافيره . ويظهر بوضوح من خلاله الى أى مدى كان البيزنطيون يتمتعون بحرية القول والعمل ، فى عاصمة دولتهم ، وفى داخل الملعب حيث يقف الشعب ليناقش الامبراطور ويحاسبه على أعماله

بدأ مندوب الخضر يرد على أسئلة المنادين ، ومن حوله رفاقه يؤيدونه فى حالة عصبية ظاهرة . وكان الرجل فى بادىء الامر متحفظا فى كلامه ، مؤدبا فى تعبيراته ، يشير الى الاشخاص الذين يشكو منهم من غير أن يذكر اسماءهم . ولكنه تحمس شيئا فشيئا ، وكان أول اسم انطلق من بين شفتيه اسم كالوبوديوس ضابط القصر . ثم صاح الرجل قائلا :

ـ اننا نستنزل عدالة السماء ونقمتها على كل من يسىء الينا فى المستقبل !

وسأل الامبراطور بلسان المنادى :

ـ أنتم لم تحضروا الى هنا ، اذن ، لكى تشاهدوا السباق ! . بل جئتم لكى تشتموا الحكومة !

فارتفعت الاصوات بصيحات عالية من جميع انحاء المدرج وسمعت هذه الكلمات :

ـ الحكومة تظلمنا ! .. الحكومة تضطهدنا ! .. العدالة معدومة فى هذه المدينة !

ورفع المنادى عقيرته بالصياح مشيرا بيده قائلا :

ـ اسكتوا .. اسكتوا أيها اليهود ! .. أيها المتمردون ! .. أيها السامريون ! .. اسكتوا والا قطعت رءوسكم جميعا !

وارتفعت الصيحات من جوانب الملعب مدوية :

ـ يهوذا ! .. يهوذا ! .. أنت خائن ! .. أنت قاتل ! .. انت مجرم ! ..

وحاول المنادى أن يتكلم ولكن الخضر أسكتوه بصيحاتهم المنكرة قائلين :

ـ اسكت ! .. ليت أباك لم ير النور ! .. لسنا متمردين أيها المجرم القاتل ، ولكننا نطلب الانصاف !

ثم مضى الحوار بينه وبينهم على مسمع من الجميع :

ـ انكم تتكلمون بلهجة خالية من الاحترام !

ـ اننا لا نحترم من لا يحترم ضميره !

ـ تعالوا نتفاهم ...

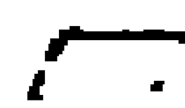
ـ نحن مستعدون للتفاهم ولكن مع أناس يعرفون ما هو الخير وما هو الشر !

ـ الامبراطور يريد الاصغاء اليكم وانصافكم !

ـ الامبراطور أغلق فى وجوهنا أبواب القصر !

ـ والحكومة مستعدة ...

ـ الحكومة متحيزة ضدنا لأنها مؤلفة من خصومنا !
ـ اذا تماديتم فى صراخكم ، سأمتنع عن الرد ...
ـ هذا أوفق ! .. اسكت من الآن !
وتوالت الشكايات وسط الضجيج :
ـ نحن محرومون من الحريات ... نحن مقيدون ... نحن مضطهدون ... ان موظفى الدولة يتآمرون علينا مع أعدائنا !
وهنـــا التفت مئات من الخضر الى الامبراطور وصاحوا موجهين اليه الكلام :
ـ انك تقتلنا ! .. انك تقتلنا !
وقال مندوبهم مخاطبا الامبراطور أيضا :
ـ انك لا تكتفى بحماية الزرق ، بل تقتل الخضر اذا اعتدوا عليهم أو اذا ردوا عن أنفسهم الاعتداء !



وكان الزرق فى أثناء هذا الحوار العجيب قد لموا شملهم وتجمعوا فى جهة واحدة ثم راحوا يصيحون بدورهم مؤيدين المنادى المتحدث باسم الامبراطور ، فأصبح الملعب منقسما الى مضمارين ، مضمار تجمع فيه الخضر ، ومضمار تجمع فيه الزرق
وانطلق الزرق يردون على اتهامات الخضر . فعلا الضجيج الى حد لم يعد المنادى يستطيع معه أن يتكلم . وكان الجند المكلفون بالحراسة يحاولون حصر الخضر فى دائرة ضيقة وترك الزرق يسيطرون على الموقف . وكان هؤلاء يصيحون مخاطبين خصومهم :
ـ يا لصوص ! .. يا خونة ! .. يا يهود ! .. يا أعـداء الله ! ... سوف نسكتكم !
وفجأة ، سكت الخضر .. وتقـدم مندوبهم الى وسط الحلبة ، وخاطب الامبراطور قائلا :

ـ يا جلالة المولى .. اذا كنت ترضى بهذا ، فليكن ما تريد .. اذا كنت تامرنا بأن نسكت ، فسنسكت نزولا على أمرك أيها الامبراطور المقدس .. ولكننا نسكت مرغمين ، لا مقتنعين ! .. اننا نعرف كل شيء .. أســـأمع أنته ؟ .. نعم نعرف كل شيء ! .. ولكننا سنسكت .. عم مساء ! .. طاب مساؤكم جميعا .. أيتهـا العدالة ، لقد أصبحت ميتة ودفنت تحت التراب ! .. طاب مســـاؤكم ، اننا منصرفون من هنا .. سنصبح يهودا .. فخير لنا أن نكون يهودا من أن نكون من الزرق !

وخرج المندوب من الملعب وتبعـه الخضر جميعا . وكان خروجهم على هذه الصورة أعظم اهانة يمكن أن توجه الى الامبراطور ، لان من يدخل الملعب لا يمكن أن يخرج منه بأى حال من الاحوال ، ولأى سبب من الاسباب ، ما دام الامبراطور باقيا فى مقصورته !



وبينما كان الشعب الصاخب يتدفق من أبواب الملعب على الشوارع ويسير فيها صائحا هاتفا ، غادر الامبراطور جستنيان مقصورته ، وعاد الى قصره ، على أمل أن تخمد تلك الفتنة التى أثارها الخضر بفضل الموقف الذى سيقفه الزرق ، وبقائهم على ولائهم المعروف للامبراطور وزوجته !

ولكن محافظ المدينة « اوديمونوس » ارتكب خطأ بدد هذا الامل وقلب الحالة رأسا على عقب ! .. فقد أراد هذا الرجل المعروف بولائه للامبراطور أن يثبت قدرته على اعادة النظام والمحافظة على الامن ، فخرج الى الشوارع على رأس قوة من رجال الشرطة ، وقبض على فريق من المشاغبين ، وحكم على اربعة منهم بالاعدام بالسيف ، وعلى ثلاثة بالاعدام شنقا ؛ من غير أن يتحقق من انتمـــاء أولئك السبعة الى أحد الفريقين المتخاصمين !

ولما علم هؤلاء وأولئك ، راحوا يسألون عن المعتقلين وعن الذين حكم عليهم المحافظ ، ليعرفوا أسماءهم ويتأكدوا من شخصياتهم ، وكان الجلاد قد قطع رءوس الاربعة ، وقاد الثلاثة الى ساحة المشنقة . ولما أراد أن ينفذ فيهم الحكم ، انقطعت الحبال وسقط المساكين على الارض . . . ثلاث مرات متوالية !

وصاح الحاضرون :

ـ العفو ! . . العفو ! . . يجب أن يعفى عنهم !

ذلك لان التقاليد جرت ـ منذ أقدم العصور ـ على أن يعفى المحكوم عليه بالشنق من تنفيذ الحكم ، اذا انقطع الحبل وقت التنفيذ وسقط الرجل على الارض !

ولكن محافظ المدينة رفض اجابة الجمهور الى طلبه ، وصمم على اعادة الشنق للمرة الرابعة ، غير عابىء بالعادات والتقاليد !

وكان هـذا كافيا لازدياد هياج الشعب ، فهجم على الجند والجلادين وانقذ المحكوم عليهم بالقوة وأطلق سراحهم !

ولجأ المتهمون الثلاثة الى دير مجاور فحماهم الرهبان وأدخلوهم الى الدير وأغلقوا عليهم الباب . . ثم اتضح أن أحد الثلاثة محايد ، وأن زميليه أحدهما من الخضر ، والآخر من الزرق . . وهكذا قربت الظروف بين الفئتين ، وشعر الزرق والخضر على السواء بأنهم مهددون بالاعتقال والاعدام !

وفجأة ، تغيرت الحالة ، وعم الاستياء الجميع ، واصبح السكان كلهم يعطفون على الفتنة والقائمين بها ، وتوحدت هتافاتهم وصيحاتهم !



وفى اليوم التالى ، هرعوا جميعا الى الملعب وتظاهروا طالبين من الامبراطور العفو عن الثلاثة الذين انقطع بهم حبل المشنقة ، واطلاق سراح المعتقلين الآخرين من أية فئة كانوا !

ودهش الامبراطور لهذا المظهر الذى لم يكن ينتظره ، وراعه

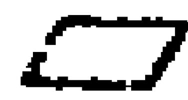
أن يتفق الزرق ، والخضر فى التآمر عليه ، فرفض اجابة الشعب الى طلبه ! . وكان هذا خطأ فاحشا أضيف الى الخطأ الذى اقترفه محافظ العـــاصمة من قبل ، فطفح الكيل وانطلقت الشرارة التى اشعلت العاصمة !

وبدل أن تنتهى الالعـاب كالمعتاد بالهتـــاف من صفوف المشاهدين : « النصر للامبراطور جستنيان ! » علت صيحات صاخبة من نوع آخر ، لم يطرق مثلها مسمع الامبراطور من قبل : « عاش الخضر وعاش الزرق ! . . عاش الاتحاد فى سبيل الرحمة والعفو ! »

ثم غادر الخضر الملعب وفيه الامبراطور كما فعلوا فى اليوم السابق ، وسرعان ما لحق بهم الزرق أيضا ، فتدفقت جموع هؤلاء وهؤلاء على الشوارع ، وتركوا جستنيان فى حالة من الذعر أوشكت أن تفقده الصواب !

وكان الناس يتنادون ويتصايحون ويتجمعون وقد اتخذوا كلمة واحدة للتفاهم : « نيكاس » ومعناها « النصر ! »

وأصبحت تلك الثورة تعرف فى التاريخ منذ ذلك الوقت باسم : « نيكاس »



وفى اليوم التالى ، طرقت الجموع الثائرة ابواب القصر ، مطالبة بطرد الضابط كالوبوديوس ، والمحافظ أوديمونوس ، وكابادوكى وتريبيونيانوس !

وخاف الامبراطور ، ورأى نفسه مضـــطرا الى التسليم بمطالب الشعب ، فطرد الاربعة وأعلن ذلك على الثائرين . . . وعين فى الوقت نفسه فى منصب المحافظ رجلا معروفا بشعبيته يدعى « فوكاس » . وفى منصب مدير الشئون المالية عين رجلا آخر رضى به الشعب أيضـا يدعى « بازيليدس » . وخرج الرجلان الى الميدان فقابلتهما الجماهير بالتصفيق والهتاف ،

واعتقد الامبراطور أن الخطر قد زال وان الثورة توشك ان تخمد !

ولكن الثائرين كانت لهم مطالب اخرى ، وقد جاءت اجابة الامبراطور بعد فوات الوقت ، وبعد ان بلغ الهياج أشده وأدرك الشعب مدى قوته من اتحاده فى ساعة الخطر . وعلى هذا استمرت الثورة حتى شملت جميع المنتمين الى فريقى الخضر والزرق وكثير من المحايدين

على أن الثورة لم تمتد الى الفئة الوادعة السليمة البعيدة عن روح الحزبية . ولهذا اعتقد جستنيان أن هناك أملا فى اعادة الهدوء الى المدينة بغير حاجة الى دفع الجيش الى الشوارع لمطاردة الشعب والفتك بالثائرين !

غير ان تفاقم الحالة واتساع نطاق الاضطرابات ، وتمادى فريقى الخضر والزرق فى الجرأة والاعتداء على دور الحكومة ، جعل الامبراطور يطلق على الثائرين فرقة الحرس الامبراطورى المؤلفة من الجنود الاجانب بقيادة « بليزيروس » زوج الوصيفة أنطونينا !

وخرج أولئك الجنود الاشداء القساة الى ميادين العاصمة وشوارعها ، وراحوا يطاردون الناس بلا تمييز ولا تفريق ، وحدث أن التقوا ، فى ميدان آيا صوفيا ، بجماعة من الرهبان خرجوا من الكنيسة حاملين الصلبان والايقونات المقدسة ، على أمل أن يعيدوا الوئام الى المدينة ،فهاجموهم واعتدوا عليهم بالضرب !

وأمام هذا المنظر المثير ، جن جنون السكان ، واعتقدوا أن الجنود قد تلقوا أمرا من قائدهم ، ان لم يكن من الامبراطور ، بالاعتداء على الرهبان انفسهم ، واهانة الدين فى أشخاصهم ، فاختلط الحابل بالنابل ، وانقلب الناس جميعا الى ذئاب مفترسة !

هجم البيزنطيون على الجنود فى الشوارع ، وجعلت النساء

يقذفن عليهم من الشرفات والنوافذ كل ما يمكن أن يقذف من البيوت : الحجارة والادوات المنزلية والاباريق وقطع الأثاث ، والعلب المملوءة بالرمل ، والخرق الملتهبة ، وقرميد السطوح ، وكل ما وصلت اليه الأيدى !

وأدى اشتراك النساء فى تلك المعركة العجيبة الى مضاعفة ثورة الرجال ، فاضطر الجنود الى التراجع بانتظام عائدين الى القصر حيث دخلوه وأغلقوا على انفسهم الابواب ، بينما انطلق الشعب يضرم النار فى المبانى الحكومية وبيوت الموظفين وقصور الحكام ورجال الحاشية !

وكانت رؤية النيران المندلعة والسنتها المرتفعة نحو الفضاء ، تزيد الناس جنونا على جنون ، فجعلوا يطوفون فى المدينة حاملين المشاعل والمواد الملتهبة ، ويوسعون نطاق الحريق ما استطاعوا الى ذلك سبيلا !

واحترقت دار مجلس الشيوخ ، كما احترقت كنيسة آيا صوفيا نفسها ، درة الدرر فى بيزنطة فضلا من ثكنات الحرس ، ودور الشرطة وغيرها من المبانى الحكومية . وامتدت النيران الى أطراف القصر المقدس نفسه !

وظلت النار تلتهم المدينة ثلاثة أيام ، تساعدها الرياح على الانتشار ، حتى اتت على طائفة من المبانى المشهورة ، ككنيسة القديسة أرين ، وحمامات الاسكندر ، ومستشفى سامبسون الذى مات فيه المرضى حرقا ، ومخازن السوق الكبرى ، وأتت على حى كامل بما فيه من قصور وبيوت ومخازن وكنائس وغيرها ، بين ميدان الامبراطورية وملعب قسطنطين ! وهكذا تحول ما يقرب من ربع المدينة الى رماد !

ثم ان الجيش نزل الى الميدان من جديد ولكنه فشل فى اعادة النظام !



وساد الذعر جوانب القصر المقدس نفسه ، فان الجيش لم

يكن عدده كافيا للسيطرة على الحـالة ، برغم النجدات التى وصلت الى العاصمة تباعا من حاميات المدن المجاورة !

وكان جنود الحرس جميعا معـدين للزينة والاشتراك فى المواكب الرسمية ، لا للقتال فى الميادين أو لاخماد الثورات ، فضـلا عن أن ولاءهم للامبراطور والامبراطورة كان مشكوكا فيه . فمعظمهم من الاجانب الذين دخلوا فى خدمة جستنيان طمعا فى الاجر المرتفع والمغانم الاخرى . فلما نشبت الثورة : لم ينفذوا عن طيب خاطر الاوامر الصادرة لهم بالتدخل ، حتى اذا ما تفاقمت الحالة وأبدى الشعب الثائر ما أبداه من جرأة واقدام ، بأن أولئك الجنود يرقبون تطور الاضطرابات لكى ينضموا الى الفريق المنتصر . وقد أدرك جستنيان ـ والقائد بليزيروس ـ خطورة هذا الموقف ، وتباحثا فيما يجب عمله أمام تردد الحرس ، وما ترتب عليه من فشل كل خطة للقضاء على الفتنة . ولم يكن فى وسعهما الاعتماد التام الا على فرقة الجنود الروم التى عادت أخيرا من بلاد الفرس مع بليزيروس ، وعلى حرس القـائد الخاص ، ومجمـوع هؤلاء كلهم نحو ثلاثة آلاف من الجنود المدربين . يضاف اليهم ثلاثة آلاف غيرهم وصلوا صدفة الى بيزنطة من مختلف أنحاء الدولة ، وبعض السكان ممن كانوا يستنكرون الثورة ويربطون مصيرهم بمصير جستنيان وتيودورا

أمام هذه الحالة ، دب اليأس الى نفس الامبراطور . وخيل اليه أنه يرى متآمرين فى كل ناحية ، وأن فى القصر نفسه أعداء مجهولين يتربصون به الدوائر ، متأهبين للانقضاض عليه !

وكان هيباتيوس وبومبيوس ، ابنـــا أخى انستاسيوس ، والوارثان الشرعيان للعرش ، قبل أن ينتقل الى أسرة جستنيان، قد أسرعا فى الحضور الى القصر ، لاعلان ولائهما للامبراطور ، مؤكدين له أنهما لا يفكران فى الانتقاض عليه ، أو الانضمام الى الناقمين ، أو اغتنام الفرصة السانحة لتحقيق هدف أو مأرب

لانهما ليس لهما مآرب واهداف !

وعرض عليه الشابان أن يقيما معه بالقصر، ووضعا انفسهما تحت تصرفه ، والحا عليه أن يلحقهما بجيشه أو حرسه ، ليدافعا عنه وعن العرش

ولكن جستنيان شك فى ولائهما . وظن أن تصرفهما هذا ليس سوى حيلة ماكرة للايقاع به ، وأن رغبتهما فى البقاء بجانبه انما الغرض منها تدبير مؤامرة فى القصر المقدس للاستيلاء على العرش والصولجان ! .. وعلى هذا قابلهما بفتور . وطلب منهما أن يعودا الى دارهما ، ولم تؤثر فيه توسلاتهما !

ولم يدر الامبراطور انه بطردهما من القصر قد زود الثائرين باهم ما كان ينقصهم ، اذ قدم لهم زعيما بل زعيمين يلتف حولهما الناقمون ويتخذونهما رمزاً لثورتهم الجامحة التى لا تقف عند حد !



وفى ١٨ يناير ، أى فى اليوم السادس للفتنة ، قرر جستنيان الاقدام على عمل مشبع باليأس ، وجاء قراره هذا بعد ليلة قضاها ساهدا قلقا ، فخرج من جناحه بالقصر ، فى ساعة كان فيها الشعب يملأ مدارج الملعب ، واجتاز الممرات والدهاليز المؤدية الى مقصورته ، وظهر فيها فجاة وفى يده الانجيل قد رفعه فوق رأسه ، وخاطب الشعب قائلا :

ـ اننى أقسم لكم بالانجيل الطاهر ، اننى أعفو عن جميع الذين اشتركوا فى هذه الفتنة ، من قريب أو من بعيد ، وأيا كان نصيبهم فيها ، وذلك اذا ألقيتم جميعكم السلاح من أيديكم الآن ، وعدتم الى بيوتكم والى أعمالكم فى هدوء وسلام ونظام !

وساد الصمت ذلك الجمع الصاخب . وتطلع الناس مدهوشين الى الامبراطور وهو فى ذلك الموقف الذى لم يقفه ملك من قبل ، واذا به يستطرد قائلا بلهجة فيها رجاء وفيها ندامة ، بل فيها توسل :

ـ انني أعلن على مسمع منكم جميعا انني سبب ذلك الذي حدث ، وانني المذنب الوحيد ! . . لقد اخطأت عندما رفضت اجابتكم الى ما طلبتم مني في الملعب ، يوم جئتم تناقشونني وتحاسبونني وتتوسلون الى بأن انصفكم ! . . نعم انني مذنب ، وانا على استعداد للتكفير عن ذنوبي !

كان هذا الموقف العجيب فوق ما يمكن أن يتصوره عقل انسان ، ويحار المؤرخون في تعليله وتحديد الاسباب التي دعت جستنيان الى هذا التذلل أمام الجماهير الناقمة الثائرة !

والذي حـدث بعد أن ألقى الامبراطور هذه العبـارات المدهشة ، كان لابد من حدوثه في مثل هذا المقام !

فقد علا الصياح بعد الصمت المؤقت ، وارتفع الضحك من بعض الصفوف ، وانطلقت في الجو عبارات لم تطرق سمع ملك من قبل :

ـ كذاب ! . . كذاب ! . . خائن . . حمـار . . ملعون . . حمار ابن حمار !

وتطايرت من الايدى مئـات من الحجـارة نحو المقصورة الملكية ، مصحوبة بأبشع الشتائم والمسبات :

ـ الامبراطور حمار . . . الامبراطورة خائنة . . . لعنة الله على الاثنين ! . . الى الجحيم أيها الكلب المسعور !

ولم يبق أمام الامبراطور الا أن ينسحب . فانسحب مسرعا ، وعاد من خلال الدهاليز والممرات الى جناحه في القصر المقدس ، وحبس نفسه فيه وهو لا يدري ما ينبغي له أن يصنع !

وكانت الامبراطورة غارقة في التفكير مترددة بين الآراء التي تسمعها والافكار التي تجول في خاطرها . وكانت تنهض وتروح وتجيء في جناحها ، متمتمة بين شفتيها :

ـ أممكن هذا ؟ . . أممكن هذا ؟ . .

ووقع ما مهد له جستنيان بنفسه ، عندما طرد من قصره هيپاتيوس وبومبيوس !

كان الشعب فى خلال الحوادث التى توالت منذ نشوب الثورة ، يهتف من وقت الى آخـــر باسم هيباتيوس . وكان المفكرون من الخضر والزرق على السواء يشعرون بأنه لابد لهم من زعيم يتولى قيادة حركتهم ، لأن كل حركة شعبية تفتقر الى زعامة لكى تنضج وتنجح وتؤتى ثمارها . فذهبوا الى قصر الامير ، وطلبوا منه أن يخرج الى الشارع ليتولى قيادة الثورة !

وعبثا حاولت زوجتــه « مارى » أن تثنيه عن الذهاب معهم . فأمسكت بثيابه ، وتعلقت بعنقه ، وجعلت تبـــكى وتتوسل طالبة منه أن يبقى فى قصره ولا يخرج منه . وطلبت من أصدقائه ومريديه أن يتركوه وشأنه ويبحثوا عن زعيم آخر يتولى القيادة فى ثورتهم ، مصرحة لهم قائلة أن نفسها تحدثها بأن زوجها ذاهب الى الموت !

ولم يكن هو نفسه مرتاحا الى تطور الحالة على هذه الصورة ، والى اقحامه فى مسألة كان يود البقاء بعيدا عنها . فحاول أن يمانع وأن يقنع الناس بأن يبحثوا عن غيره زعيما لثورتهم . ولكنهم تشبثوا برأيهم اذ لم يكن امامهم سواه ، وأرغموه على الخروج معهم فى مظاهرة رائعة الى ملعب قسطنطين ، وهناك رفعوه على ترس من النحاس وحملوه على الاكتاف ، ومعنى هذا انهم نادوا به ملكا عليهم !

وبحثوا عن تاج يطوقون به جبينه فلم يجدوا . وانتزع جندى عقدا من العقود الذهبية التى يضعها جنود الجيش الرومى حول أعناقهم ، وطوق به جبين هيباتيوس ، قائلا : ان هذا العقد خير من ألف تاج !

وجاءه أتباعه بالطيلسان وشارات الملك ، وكانوا قد سرقوها كلها من القصر يوم حرقوا جانبا منه ونهبوه . وهكذا وجد هيباتيوس نفسه محاطا بجموع من الاعوان المتحمسين ، وقد ارتدى ثياب الملك ووضع على رأسه تاجا ، وأمسك بيده

صولجانا ، فأصبح « امبراطورا » باسم الثائرين !
وتألف موكب ذهب به الى ملعب العاصمة ، وهناك حمله الناس على الاكتاف مرة أخرى ، وصعدوا به الى المقصورة الملكية ، واجلسوه فى المكان المعد لجستنيان . وراحوا يتباحثون ويتناقشون لتقرير الخطة المثلى للهجوم على القصر المقدس ، وللاستيلاء عليه واجلاس هيباتيوس على عرش جستنيان !
وعبثا حاول بعض العقلاء اقناع الجماهير بأن هذا قد يؤدى الى عواقب وخيمة ويثير حربا أهلية فى البلاد ، فقد صمم الثائرون على المضى فى خطتهم الى النهاية ، وظل هيباتيوس صامتا مستسلما لارادة الجماهير !
وازداد عدد الثائرين بمن انضم اليهم من الناقمين وسكان الضواحى والمترددين . واعلن فريق من أعضاء مجلس الشيوخ والاشراف والنبلاء والقواد انضمامهم الى حركة العصيان ، وتأييدهم للمناداة بهيباتيوس امبراطوراً على بيزنطة بدلا من جستنيان !
وراجت فى المدينة اشاعة تؤكد ان جستنيان وتيودورا غادرا القصر خلسة وفرا من العاصمة !! وجعل الشبان المنتمون لحزب الخضر يطوفون فى الشوارع معلنين هذا الخبر . واعتقدوا أن النصر قد حالفهم وأن خطتهم قد نجحت بحذافيرها ، حتى أن هيباتيوس نفسه عاودته الثقة وظن انه أصبح حقا امبراطورا على بيزنطة !



كان ذلك فى مساء يوم ١٨ يناير . وكانت الساعة رهيبة . وخيل لمن كانوا يراقبون الحالة أن الامبراطورية توشك أن تنهار .. فالمدينة تحترق ، والنيران تمتد بدل أن تنحصر أو تخمد . وفى داخل الملعب ، يحتشد الشعب واثقا من أنه أحرز النصر ، وهتافاته للامبراطور الجديد هيباتيوس تدوى

فى الارجاء . بينما اقذع التهم والشتائم توجه الى جستنيان وتيودورا ! .

وهكذا صار القصر المقدس مهددا بالسقوط فى قبضة الثوار بين لحظة وأخرى . بينما الامبراطور جستنيان يائس من نفسه وممن حوله ، ولا أمل له فى القضاء على الفتنة ، اذ ليس لديه الوسائل اللازمة لانقاذ نفسه من ذلك المأزق الحرج . بل انه ليرتعد خشية على حياته ويشعر بأن ساعته الاخيرة قد دنت !

وصدرت الاوامر بأن ترسل كنوز العرش وما تحويه الخزائن من أموال وتحف ، الى المراكب الراسية أمام القصر . فقد اعتزم جستنيان أن يغادر العاصمة ويهرب الى الخارج بأمواله ، ومعه زوجته ومن يرغب من رجال الحاشية فى اللحاق به !

وعقد جستنيان مجلسا خاصا دعا اليه الاشخاص الذين لا يشك فى ولائهم له وفى مقدمتهم : بليزيروس ، وموندوس، وبازيليدس وحضرت الامبراطورة تيودورا هذا الاجتماع بعد أن قضت أياما معتكفة فى جناحها الخاص مستغرقة فى التفكير . والواقع أنها هى وحدها التى ظلت محتفظةبهدوئها ورباطة جأشها وثقتها بنفسها ، بينما كان زوجها الامبراطور قد استسلم لليأس ، وفقد كل أمل فى الخلاص ، ولم يعد يفكر الا فى الهرب ، وكان وزراؤه وقواده يشاركونه هذا الشعور !



لقد خارت عزائم كل من فى القصر الامبراطورى المقدس ، ما عدا عزيمة تيودورا ! !

لم تكن قد تكلمت بعد ، لا قبل انعقاد المجلس ، ولا فى خلاله ، ولا فى أثناء الحوادث الدامية التى ظلت العاصمة

بضعة أيام مسرحا لها .. وبقيت تصغى لكل ما يقوله المجتمعون وهم يتجادلون ويتباحثون . ثم رفعت يدها فسكتوا جميعا . ونهضت الامبراطورة من مكانها ووقفت فى وسط أولئك الرجال ، وصاحت بهم قائلة :

ـ مالى أراكم مستضعفين متخاذلين ، ترتجفون خوفا . وتستطمون استسلام اليائسين الخانعين ؟! . مالى اراكم تنسون واجباتكم أو تخونونها ، أو تتخلون عنها ؟.. مالى اراكم تعترفون بالهزيمة ، والهزيمة لم تحل بكم بعد ؟.. هل قاومتم ففشلتم ؟.. هل قاتلتم فانكسرتم ؟ .. هل لجأتم الى جميع مافى متناول أيديكم من وسائل فأفلت منكم الزمام انكم تفكرون من الآن فى الفرار بينما توجد أبواب أخرى مازالت مفتوحة أمامكم !.. والله لو لم يعد أمامى منفذ آخر الى النجاة غير الهرب ، لرفضت ولوج هذا المنفذ ، حتى لا ادير ظهرى للاعداء ؟.. كلا ! ان تيودورا لن تهرب !. ان الذين يضعون التاج على رءوسهم ، يجب أن يظلوا احياء اذا فقدوا ذلك التاج ، أيا كانت الاسباب التى من أجلها فقدوه .. اذا سقط التاج عن راس ملك ، فعلى الملك أن يموت مع تاجه .. فاذا كان ملكا صالحا ، وجب عليه الدفاع عن تاجه أو الموت دونه !.. واذا كان ملكا طالحا ، وجب عليه أن يخلط عاره بعار تاجه ويفقد الحياة مع فقده .! وتيودورا لن ترى اليوم الذى يمتنع فيه الناس عن مناداتها بلقب صاحبة الجلالة !

ثم التفتت الى زوجها الذى وقف مشدوها ، وقالت له :

ـ أما أنت يا امبراطور بيزنطة ، فاذهب ، أن كنت عازما على الفرار ، ولديك ما يكفى من المال ، وامامك السفن تنتظرك لتقلع بك الى حيث تريد ، والبحر مفتوح فى وجهك وفى طريقك .. اذهب ان شئت ، اما انا فباقية !.. نعم باقية ، للدفاع عن تاج شرفنى فشرفته ، وراق لى فرقت له ، ولم

ارتكب ذنبا أستحق من أجله ان أطرد عن العرش ، لانني حافظت على كرامته وسمعته ، ولم الطخه بعار !.. نعم انني باقية ، لانني أومن بقول من قالوا : ان طيلسان الملك أبدع الاكفان على الاطلاق !

هذا ما قالته تيودورا للامبراطور اليائس ولرجاله اليائسين . قد انقذت الامبراطورة عرش زوجها بهذه العبارات الجريئة وذلك الموقف الرائع !

ان تيودورا ، المرأة ذات الماضي الملطخ ، والممثلة المتوجة ؛ قد ارتفعت في ذلك اليوم العصيب ، وفي غمرة ذلك الصراع العنيف في سبيل التاج والحياة ، الى مصاف الابطال الخالدين !

كانت المرأة في ثورة نيكاس اعظم من الرجال !

فما كادت الامبراطورة تتفوه بتلك الكلمات الجارحة ، حتى شعر زوجها ورجال حاشيته وقواده بالخجل يعلو جباههم ، وبالامل يدب من جديد في نفوسهم . ونهضوا لساعتهم ، ورفعوا أيديهم ، واقسموا أن يناضلوا حتى النهاية ، فأما أن يحرزوا النصر واما أن يموتوا في الميدان !

وقال جستنيان لزوجته

ــ سأبقى بجانبك .. ولن أهرب . وسوف نحتفظ بالتاج لاننا كما تقولين لم ندنسه بعار !

ووضع الامبراطور وزوجته واعوانهم خطة العمل . بل انهم وافقوا على الخطة التي كانت تيودورا نفسها قد وضعتها، وجاءت تعرضها عليهم في ذلك الاجتماع الحاسم . وانصرف كل منهم للقيام بنصيبه من التنفيذ !

عهدت تيودورا الى صديقها الامين « نرسيس » ان يحمل فئة الزرق على الانفصال عن فئة الخضر . فيذكرهم بماضيهم وبالخدمات والنعم التي اغدقتها عليهم الامبراطورة . وزودته بمبالغ طائلة من المال لكي يشترى اقتناع المترددين

ويدفع لهم ثمن تأييدهم !

وانطلق نرسيس ومعه جماعة من الانصار الاوفياء ، ينفذ ما أمرته به المرأة الداهيـة . فنجح الى أبعد مما كان يرجو ويتصور . ومنذ اليوم الاول ، تمكن من القاء بذور الخلاف بين الزرق والخضر ، فتفككت صفوفهم وانحلت وحدتهم . وفى مساء اليوم الذى عقد فيه مجلس الامبراطور ، سمعت هتافات أمام القصر منبعثة من آلاف الحناجر :

ــ عاش جستنيان !. عاشت تيودورا صديقةالضعفاء !. الله يرعى جستنيان وتيودورا !. الحياة والسعادة لحامية المظلومين !

وفى الوقت الذى أخذ فيه هذا التحول يتسع نطاقه ، كان بليزيروس وموندوس يحشدان قوات كافيـة لضرب الحصار على الملعب واقتحامه . وكان الشعب لا يزال محتشدا فيه، يهتف لهيباتيوس الجالس فى مقصورة الامبراطورة ، وعلى رأسه العقد المذهب ، وعلى كتفيه الطيلسان الارجوانى !

وفى اليوم التالى ، أمر بليزيروس وموندوس جنـودهما بالهجوم . وتحطمت الابواب وزالت العراقيل ولكن الجنود الموالين للثائرين ، والذين كانوا معتصمين فى معاقـلهم داخل الملعب ، ردوا المهاجمين على اعقابهم ورفضـوا التخلى عن الامبراطور الجديد . فاضطر بليزيروس ورفيقه الى التقهقر عائدين الى القصر المقـــدس ، وقالا : أنهما لن يقـويا على احتلال الملعب وأن القضية التى يدافعون عنها قضية خاسرة!

وفى هذه المرة ، تقدم جسـتنيان نفسه لاعادة الثقة الى نفوس رجاله ، وتشجيعهم على استئناف الكرة . . وانضمت اليه تيودورا قائلة :

ــ ان أصـدقاءنا الزرق قد ارسلوا يؤكدون لنـا انهم على استعداد لتمهيد الطريق للجيش ، وفتح ثغرة ينفذ منها الى حلبة الملعب الوسطى !

وعاود بليزيروس الكرة بنخبة مختارة من جنوده الاشداء، ونجح الهجوم فى هذه المرة ، وتم للقائد دخول الملعب واحتلال حلبته ، بعد أن فتك بعدد كبير من المتمردين الذين دافعوا عن المنافذ دفاع اليائس المستميت !

ولما بلغ موندوس ما حدث ، وثب برجاله البرابرة وانضم الى زميله ، بعد أن اقتحم الملعب من باب يعرف بباب الموت . وانقسم الجنود الى فريقين : فريق ظل يعمل السيف فى الثائرين فى حلبةالسباق ، وفريق صعد الى المدارج والمقاصير، وراح يمطر الخضر وابلا من السهام والنبال والحجارة ، بينما كان الزرق من ناحيتهم يسهلون للجنود مهمتهم ، أو ينضمون اليهم علنا لمهاجمة الخضر الذين كانوا حلفاءهم بالامس !

وتحولت ساحة الملعب الىميدان لمجزرة هائلة . واستولى الذعر على الشعب فراح الباقون على قيد الحياة يطلبون النجاة . ولكن الجنود كانوا ينفذون الاوامر الصادرة اليهم بألا يدعوا أحدا يخرج من الملعب حيا . واذا خرج ، فان الزرق كانوا يتلقفونه فى الشارع ويقضون عليه !

وفى مساء ذلك اليوم ، غطت أرض الملعب وشوارع المدينة ثلاثون ألف جثة ! وكان معظم القتلى من الخضر . أما الزرق فلم يقتل منهم غير القليل . وذلك لان الجنود كانوا يتجنبون الفتك بهم ، ولان فريقا كبيرا منهم كان قد انفض عن الحركة وانقلبعلى الخضر فبقى هؤلاءوحدهم فى الميدان!

وهكذا فشلت ثورة نيكاس ، لان الثوار لم يحافظوا على وحدتهم ، ولان تيودورا عرفت كيف تستغل عطف الشعب عليها ، وتعلق الزرق بها ، واعتقاد الضعفاء ، والفقراء أنها صديقتهم وحاميتهم !

وقبض انصار جستنيان على هيباتيوس ، من غير أن يحاول الذين توجوه والبسوه الطيلسان أن يحموه أو

بنقذوه ، وجيء به الى جستنيان مع رفيقه بومبيوس ، وكان هذا رجلا ضعيف الارادة جبانا رعديدا . فجعل يبكي ويتوسل طالبا الصفح والمغفرة مؤكدا أنه زج به كارها فى تلك النكبة . أما هيباتيوس ، فكان رابط الجاش ولكنه جعل يقسم ، مثل رفيقه ، بأن الشعب دفعه دفعا الى مسايرة الحركة الثورية ، والبسه التاج والطيلسان بغير رضاه . وأكد أنه دعا أنصاره الى القاء سلاحهم ، فى حلبة الملعب ، لكى يسيطر الجنود على الحالة ويعود الامن الى نصابه وتعود الحقوق الى اصحابها . واقسم انه عهد الى واحد من أصدقائه بالذهاب الى جستنيان ، ودعوته الى الملعب ليسمعه بنفسه وهو يعلن ولاءه لعرشه ودعوة المتمردين الى الاستسلام !

وكان هذا صحيحا . فقد فعل هيباتيوس ذلك فى اثناء معركة الملعب . ولكن رسوله لم يتمكن من الوصول الى الامبراطور لابلاغه الرسالة . ولهذا ، فان جستنيان ، وقد استعاد رشده وأحس بأنه ملك زمام الامر من جديد . التفت الى هيباتيوس وقال بلهجة المستهجن المستنكر :

ـ هذا جميل !.. ولكن ما دامت لك هذه السلطة على الثائرين ، وما دمت قادرا على دعوتهم لالقاء السلاح ، فلماذا لم تستخدم هذا النفوذ قبل أن تستفحل الحالة ، وقبل أن يحرق المشاغبون عاصمة ملكي ؟

وفى اليوم التالى ، أمر جستنيان بأن يعدم هيباتيوس وبومبيوس . فنفذ أمره . والقيت جثتاهما فى مياه البوسفور !

وقيل فى هذا : أن جستنيان كان يميل الى العفو والصفح ، بعد ان أكد له ابنا أخيه أنهما لم يتعمدا العصيان ولم ينضما الى الثورة بملء ارادتهما . ولكن تيودورا تدخلت فى الامر ، وهي التي الحت على زوجها بوجوب التخلص من الرجلين ،

واعدامهما علناً ، لكي يأمن الامبراطور شرهما في المستقبل !

وهذا هو الاقرب الى التصديق . فان تيودورا كانت قد اقسمت ، يوم وضعت خطتهـا موضع التنفيذ إلا ترحم الزعماء الذين أثاروا هذه الحركة واضرموا النار في المدينة . ولهذا أطاعها الامبراطور وامر باعدام ابنى أخيه !

ولم يكن اعدام الشابين كل ما أقدمت عليه تيودورا بعد ان أخمدت الثورة ، وتشتت القائمون بها ، وقتل منهم من قتل . فقد حوكم فريق من أعضاء مجلس الشيوخ ومن النبلاء وكبار القوم ، بتهمة الاشتراك في الثورة او التحريض عليها أو تشجيعها ، وأعدم بعضهم ، وأرسل البعض الاخر الى المنفى !

وصودرت أملاك هؤلاء جميعا وأموالهم ، واستولى عليها بيت المال أو وزعت على أسر الموظفين والجنود الذين أصيبوا في خلال الاضطرابات . ولكنها لم تمس عامة الشعب بأذى بل عفت عنهم جميعا !

وطورد الاشخاص الذين ثبت أنهم خانوا الامانة وتخلوا عن الحكومة في ساعة الشدة ، كالحكام والموظفين والضباط وجنود الحرس والزرق الذين تواطأوا مع الخضر فكان تحالفهم معهم سببا لاتساع نطاق الثورة !

واشرف محافظ العاصمة على التحقيق واحالة المتهمين الى المحاكم ، وعاشت المدينة مدة من الزمن في ظل الارهاب .



وأسدل الستار على تلك الثورة ، وأعلن جستنيان في أنحاء المملكة أنه قضى على محاولة قام بها اثنان من المطالبين بالعرش لاقصائه عنه !

غير أن الفضل أولا وآخرا ، في ازالة الخطر وبقاء جستنيان

على عرشه ، يعود الى تيودورا .!

وثورة « نيكاس » تعد فى حيـاتها صفحة رائعة . ففي ذلك الظرف العصيب ، أثبتت الممثلة المتوجة انها سياسية بارعة ، وبطلة جريئة ، وقائدة تعرف كيف تفرض ارادتهـا وتحمل الناس على احترامها . كما أثبتت قبل ذلك أن لها مكانة سامية فى نفوس طبقات الشعب ، وانهـا تعرف كيف تخاطبه وتعامله

وكانت تيودورا ، حتى ذلك الوقت ، تشـاطر الامبراطور سلطته باعتبـار أنه أضعف منها ارادة وشخصية ، ولكنها بعد انتصارها فى ثورة « نيكاس » استحقت أن تشـترك فى الحكم لانها أهـل له ، ولان آراءها كانت فى كل حين وآن ، أفضل من آراء الامبراطور ورجال حاشيته ووزرائه . ولو لم تكن تيودورا شريكة زوجها فى السلطة ، لما تمكن جستنيان بدوره من التغلب على ثورة نيكاس. فتيودورا أنقذت للامبراطور عرشه ، وصانت له سـلطته ، وعرفت كيف تحتفظ بحب الشعب برغم أن الثورة التى أخمدتها كانت شعبية ، اشتركت فيها الفئتان اللتان ينتمى اليهما سكان بيزنطة !

ولما جاءها الذين عفت عنهم من زعماء الحركة ، يشكرونها ويجددون الولاء لها ، قال لها المتحدث باسمهم :

ـ لقد خضعنا لك أنت ، وألقينا السـلاح لانك أنت التى اردت منا أن نلقيه ! ونريد الآن أن يعود الصفاء بينك وبيننا !

وعاد النـاس الى أعمـالهم وهم يتهامسون بأن تيودورا انتقمت لنفسها من الكبار ولم تنتقم من الصغار !

# حينما تحكم المرأة !

اجمع معاصرو تيودورا على القول بانها مارست السلطة التى استمدتها من زوجها الامبراطور ، بلا قيد ولا شرط ، بل أن سلطتها أحيانا كانت تعلو على سلطة جستنيان نفسه ، وقد اعترف هو بذلك فى وثيقة رسمية ، حين أصدر المرسوم التاريخى الذى أعاد بمقتضاه تنظيم الادارة فى انحاء المملكة، وعده المؤرخون أعظم الاعمــــال التى قام بها . ففى مقدمة ذلك المرسوم التاريخى ، صرح الامبراطور بأنه لم يصدره الا بعد ان استشار الامبراطورة المبجلة والزوجـــة الوفية التى من بها الله عليه ، فى كل ما تضمنه المرسوم من قرارات !

كان جستنيان يحب زوجته حبــا لا حدود له . وظل هذا الحب يضطرم فى قلبه حتى بعد موتها ، وحتى ســاعته الاخيرة . فأنه لم ينس أبدا تلك الحسناء الســـاحرة التى عشقها وهى فى أوج جمالها وروعتها ، وطغت عليه بذكائهـــا الخارق وفطنتها وبعد نظرها وارادتها النـــافذة . لذلك لم يرفض لها طول حياتها أى طلب . ولم يحدث مرة واحدة أن علت كلمته على كلمتها ، او نفذ رأيا لم يكن متفقا مع رأيها ، وقد أغدق عليهـــا جميع أنواع المجـــد والثروة والجـاه وشاطرها عرشه وسلطـانه فجعلها تحكم معه ، بل جعلهـــا تحكم وحدها فى كثير من الاحيان !

وقد ظلت تيودورا على العرش أحدى وعشرين ســـنة ، وضعت يدها خلالها على كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة وفرضت كلمتها ، فكانت تفعل ما تريد ، بصرف النظر عمـــا

يريده الامبراطور او اعوان الامبراطور

نظمت شئون الادارة كما تريد ، ووضعت أعوانها ومحاسيبها وصنائعها فى الوظائف التى اختارتهم لها أو اختارتها لهم ، وتدخلت فى شئون السياسة فنظمت العلاقات بين بيزنطة والدول الاخرى كما أرادت ، وفرضت على مندوبى الدولة مارسمته بنفسها من خطط وتدابير • كما تدخلت فى شئون الكنيسة ، فكانت وراء كل عمل أقدم عليه الرؤساء الروحيون ، وكل قرار أصدرته المجامع الكهنوتية !

ولابد من الاعتراف بأن تيودورا لم تسلم من ارتكاب أخطاء كثيرة ، فهى امرأة على كل حال ، وقد كان لكبريائها وجشعها فى بعض الاحيان أثر مشئوم فى أعمال الامبراطور ، وعواقب يؤسف لها ، الحقت بالدولة بعض الاضرار

على أنه لابد من الاعتراف أيضا بأن حسنات تيودورا كانت أكثر من سيئاتها ، وبأنها كانت ملكة عظيمة عرفت فى أكثر الظروف والاحوال كيف توجه سياسة الدولة طبقا لمقتضيات الصالح العام ولو أنها عاشت وظلت تمارس السلطة مع زوجها حتى وفاته ، لاستطاعت أن تنفذ المشروعات الرائعة التى كانت تخامر ذهنها • ، ولاصبحت الدولة البيزنطية أقوى وأصلح مما كانت ، ولتغير وجه التاريخ ومجراه !

ولكن تيودورا ماتت قبل الاوان !

ولا تزال آثار تيودورا باقية حتى الآن ، تتحدث عما كان لها من همة عالية ومكانة سامية فى تاريخ الدولة البيزنطية، أعظم الدول فى عصرها •• فهناك على جدران الكنائس التى بناها جستنيان وفوق أبواب المعاقل والحصون والقلاع التى شيدها فى أنحاء المملكة ، حفر اسم تيودورا بجانب اسمه !

وفى أماكن كثيرة يرجع عهدها الى عهد تيودورا ، حفرت آيات الشكر والثناء والتقدير ، موجهة كلها الى الامبراطورة

التى صنعت فى حياتها ما يعجز عن صنعه أعاظم الرجـــال ، واشتهرت بتقواها وورعها ، بعد أن اشـــتهرت بفســـقها وفجورها • وكان مواطنوها يلقبونها بالامبراطورة المبعوثـة من الله ولم يلقبوا أحدا غيرها بمثل هـذا اللقب المقـدس الفريد !

واقيمت لها النصب والتماثيل فى حياتها ، ولم يحـدث مثل ذلك لغيرها ممن جلسن على عرش بيزنطة !

وكثيرا مـا كان البيزنطيون ، بعـد موت امبـراطور او امبراطورة ، أو بعد سقوط اسرة وقيام أخـرى مكانهـــا ، يعمـدون الى محـو إسـماء الراحلين وتحطيم آثارهـــــم ليحلوا محلها أسماء وآثارا أخرى • وقد فعلوا هذا مع عشرات من ملوكهم وملكاتهم ، فأزالوا أسماءهم وآثارهم من الميادين والحصون والملاعب والقصور ، ولكنه لم يحدث فى أى عصر من العصور التالية لعهد تيودورا وزوجها جســـتنيان ، أن امتدت يد لمحو اسميهما او طمس معالم صورهما وتماثيلهمـا من أى مكان !

ومما لم يحدث مثله أيضا لغير تيـــودورا ، أن موظفى الدولة كانوا يقسمون يمين الولاء لها كما يقسمونها لزوجها • فكانوا يقولون : « نقسم بأن نكون أوفياء صادقين فى خدمة المليكين جستنيان وتيودورا ! »



وكثيرا ما أنقذت تيودورا زوجها من مواقف حرجة وأخطار داهمة • ويرجع ذلك الى أنها كانت برغم كبريائها وحبهـــا للسيطرة واذلال الكبراء تميل الى الشـــعب وتخطب وده • فهى قاسية مع الاقوياء والعظماء ، رفيقة مع الضعفاء والمساكين

وان من ينظر بعين مجردة عن الغرض إلى ما حدث فى فتنة « نيكاس » ليدرك بلا عناء أن الشـــعب الذى ثار على العرش

لم يقصد تيودورا ، ولم يضمر لهـا الشر ، واذا كان بعض خصومها قد حاولوا حمل الجماهير الصاخبة على الهتـاف ضدها ، وتعييرها بماضيها ، وقذفها بالتهم ، فانهم لم ينجحوا في ذلك الا في نطاق ضيق جدا • وقد كان لها وحدها أكبر الفضل فى استرضاء الشعب ووضع حد لثورته !

وكثيرا ما كان نفوذ تيودورا يجاوز حدود بلادها ، فتفرض كلمتها على الدول المجاورة • فيتقبلها أهل هذه الدول راضين مغتبطين !

ولم تخن تيودورا فى حياتها صديقا ! بل كانت على عكس ذلك تعفو عن الاصدقاء الذين يتخلون عنها ثم يعودون اليهـا نادمين تائبين

وقد ضمنت الثروة والجاه لجميع الذين أخلصوا في خدمتها وكان لها فى ذلك أساليب على جانب عظيم من البراعة والدهاء وان كانت فى الوقت نفسه قد تفننت فى محاربة خصومها والقضاء عليهم :

كانت متطرفة فى حبها ، كما هى متطرفة فى حقـدها ، فاذا وثقت باخلاص انسان لها بذلت من أجله كل ما تستطيع بذله من عطف ومساعدة وحماية وتشجيع ، واذا أساء اليها انسان ، وادركت عزمـه على مناصبتها العـداء لم تتردد فى اتخاذ كل وسيلة للقضاء عليه ، مهما تكن منزلته ، او علاقتـه بالامبراطور نفسه ! وفى هذه الحالة كانت تسـعى أولا الى حمل الامبراطور على سحب ثقته من خصمها لكى يخلو لهـا الجو للانتقام منه وتفقده كل سند يمكنه الاعتماد عليه !

وليس فى هذا الجانب من خلقها وطبعها مـا يبعث على الدهشة ، فهى كما قلنا امرأة قبل كل شىء !

وكانت بدافع من كبريائها تحرص على أن تكون دائمـا صاحبة الفضل فى ارتقاء كبار الموظفين وارتفاع منزلتهم ، فاذا وصل أحد منهم الى شىء من ذلك بغير علمها أو مساعدتها

سلكته فى عداد خصومها ، وراحت تعمل جاهدة لوضع العقبات فى طريقه ، ولا يهدأ بالها حتى تقيله من منصبه أو تنقله الى مكان بعيد وتقصيه عن دوائر الحكم لكى يدرك ويلمس أن لا سبيل الى الاطمئنان على مركز او على منصب فى بيزنطة ، خارج نطاق نفوذها ، وأن تيودورا هى كل شىء فى الدولة !

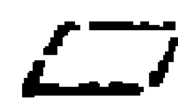
وكان أصدقاؤها ـ وما أكثرهم ! ـ يسمونها «الامبراطورة الوفية » لان وفاءها لهم كان مثل عدائها لخصومها ، لا يعرف حدا يقف عنده . وما كانت تطلب منهم فى مقابل ذلك الا أن يخدموها باخلاص ويقابلوا وفاءها بوفاء مثله ، وينفذوا رغباتها وأوامرها من غير أن يناقشوها أو يترددوا فى التنفيذ !

. ولهذا ، كان جميع البيزنطيين يتوجهون اليها برغباتهم ومطالبهم ، لعلمهم بأن الامبراطور قد يعجز عن ارضائهم اذا أراد ذلك ، اما هى فلن تعجز عن صنع ما تريد !

وقد رأينا كيف رفعت برسيماس الى قمة المجد ، وكيف قربت اليها « نرسيس » الخصى الذى كان خادما صغيرا فى القصر ، جىء به من حيث لا يدرى أحد ، فاختارته اول الامر خادما خاصا لها ، ورفعته بذلك درجات فوق المئات من زملائه وأقرانه . وكان ذكيا متأنقا حلو الحديث ، كما كان نشطا قوى البنية ، فلم تمض مدة قصيرة حتى كان موضع ثقتها التامة ، واخذت تطلعه على أسرارها وتستخدمه فى قضاء مآربها السياسية ، وتعهد اليه فى تنفيذ الخطط التى ترسمها فى سكون مخدعها للنيل من عدو أو لاكتشاف مؤامرة !

وكان نرسيس عند حسن الظن به . فقد أخلص للامبراطورة اخلاصا لاحد له . ونجح فى جميع ما كلفته القيام به الى أبعد ما كانت ترجو ، فأصبح فى نظرها نابغة من نوابغ عصره ،

ورفعته الى مصاف القادة ووضعته على رأس قوة من الجيش فصار منافسا ومزاحما لبليزيروس ، أشهر قواد ذلك العهد على الاطلاق !



وقد أصابت تيودورا في اختيار بعض صنائعها وأخطأت في اختيار البعض الآخر ، ومن بين الذين رفعتهم وحمتهم أشخاص ليسوا أهلا لرفعة وحماية ، كذلك الحاكم الذى وضعته على رأس الادارة في مدينة الاسكندرية ، واسمه « سرجيوس » لا لسبب الا لانه تزوج امرأة كانت انطونينا تحبها وتعطف عليها !

وقد كتب أحد الاساقفة المصريين في الاسكندرية عن سرجيوس ، يقول :

« إن حاكمنا يمتاز بصفات خفية لا تعرفها ولا تدركها عقولنا الضعيفة ، ويظهر أن هذا النوع من الصفات الحسنة لا يتوافر الا في نوع من الرجال ، أى في أولئك الذين يوفقون في زواجهم • فالامبراطورة تيودورا اختارت لنا حاكما عرف كيف يختار زوجته ! »

وقد حكمت الاسكندرية في عهد سرجيوس امرأة هي زوجته ، وكانت هذه الزوجة تتلقى الوحى من أنطونينا وصيفة تيودورا • !

والاخطاء التى ارتكبها سرجيوس في ادارة شئون الاسكندرية لا تعد ولا تحصى • وقد أوشك في مدة اقامته بالعاصمة المصرية أن يقضى على سمعة حكومة بيزنطة وسمعة الامبراطورة ، ولولا أن جستنيان سارع بنقله لحدثت فتنة في مصر شبيهة بفتنة نيكاس في بيزنطة !

غير أن مسألة سرجيوس هذه لم تكن من المسائل المألوفة في عهد جستنيان وتيودورا • وأكثر الذين عينتهم الامبراطورة

فى مناصب عالية كانوا فى الواقع أهلا لثقتها !

ومن أغرب ما حدث أنها فكرت يوما فى تعيين النساء فى بعض المناصب الرفيعة والوظائف الادارية • وأوشكت أن توفد أنطونينا الى بيريت ـ وهى مدينة بيروت الحالية ـ للاشراف على اعادة تنظيم شئون المدينة ، وذلك على أثر فتنة وقعت فيها !

ولكن جستنيان لم يوافقها على ذلك ـ برغم انه عود زوجته ألا يعارضها فى شيء ـ لانه رأى فى تعيين النساء فى الوظائف والمناصب ابتكارا لم يحن الوقت بعد للاقدام عليه • ومما قاله لزوجته فى هذا الشأن :

ـ لنفرض يا عزيزتى أن الحاكمة التى تريدين تعيينها باسم بيزنطة اضطرت الى ملازمة الفراش لانها حامل او لانها وضعت مولودا جديدا ، فماذا يحدث فى مثل هذه الحالة ؟ • وبأية عين ينظر سكان بيريت الى منصب الحاكم البيزنطى الذى تشغله وهى على هذه الحال ؟!

وعدلت تيودورا عن فكرتها • ولكنها فى الوقت نفسه كانت ـ وهى امرأة أيضا ـ تحكم الامبراطورية كلها بالنيابة عن زوجها الامبراطور ، ولم يرتفع أى صوت باستنكار ذلك وقد حملت وولدت ولزمت الفراش ولم يجد هو ـ ولا غيره ـ فى ذلك ما يدعو الى الدهشة !

وما أردنا أن نسجله هنا هو أن تيودورا كانت أول امرأة حكمت امبراطورية ، وفكرت فى إعطاء بنات جنسها حق ممارسة الحكم بمقتضى قانون صريح



وفى المضمار الدينى ، وكل ما يتعلق بالكنيسة ، كان نفوذ تيودورا يشمل جميع النواحى بلا استثناء

وهنا أيضا عمدت الامبراطورة الى رفع أصدقائها الى أعلى

المناصب ، وعينت صنائعها فى معظم الوظائف الهامة • وقد امتد نفوذها الى خارج حدود الامبراطورية الرومية ، بل شمل روما أيضا ، ومقر البابا فى الغرب ! اذ عينت الاسقف « انتيموس » بطريركا على القسطنطينية ، ونجحت فى تعيين « فيجيليوس » فى منصب بابا روما ورئيس الكنيسة ، وأجلست على كرسى بطريركية أنطاكية صديقها الاسقف « سفيروس » وعلى كرسى بطريركية الاسكندرية المصرية صديقا آخر هو « تيودوسيوس » •• وهكذا تمت لها السيطرة المطلقة على شئون الكنيسة والدين ، أى أنها كانت تراقب سير الادارة ، وسن القوانين ، وتكييف الاتجاهات فى المشاحنات المذهبية التى كان العالم المسيحى ميدانا لها فى ذلك الحين !

ومن ناحية أخرى ، كانت تيودورا فى الوقت نفسه تضرب بلاشفقة ، ولا هوادة جميع الاشخاص الذين يتمردون عليها أو يحاولون الافلات من نير نفوذها • ومن هؤلاء القائد العظيم « بليزيروس » وزميله « بوتزين » • فقد حلت بهما نقمة تيودورا لانهما لم يخضعا لها خضوعا أعمى •• ومثلهما الوزير « كابادوكى » لانه نازعها السلطة فى بعض الظروف الحرجة ، والبابا « سيلفيروس » لانه رفض أن يجعل الكنيسة آلة فى يدها !

وفى موقفها مع هؤلاء وغيرهم ممن نزعت منهم ثقتها ، لم تتردد تيودورا فى الالتجاء الى أبشع الوسائل للانتقام • فقد أرادت أن يكون انتقامها من خصومها درسا للجميع ، وأن يعرف كل كبير وصغير أن أوامر الامبراطورة يجب أن تنفذ وأن سلطانها يجب أن يظل فوق كل سلطان ، وأن من يعاكسها مصيره الهلاك !

وفهم الجميع هذا ، وأدركوا أنه من الحكمة والخير لهم أن يسايروا تيودورا على طول الخط ، حتى أن كان فى ذلك

مايتعارض مع أوامر الامبراطور ، فقد دلت التجارب العديدة على أن رغبتها لابد من أن تنفذ فى النهاية ، وعلى أنها لن ترحم من يخالف رأيها .. فى حـــين أن الامبراطور كان دائمـــا يتساهل ويتغاضى ويعفو عن كثير ! . بل أن تيودورا كانت أحيانا تعاكس علنا رغبات الامبراطور . حدث مرة أن أحـد أعوانهـا المقــربين وهو « جوليـــانوس » أحد أســـاقفة الاسكندرية المصريين ، أبدى رغبتـــه فى أن يذهب الى بلاد النوبة للتبشير بالدين المسيحى ، فشجعته تيودورا على القيام برحلته هذه ووعدته بالمساعدة والتأييد . ولكن جستنيان أراد أن يعهد بهذه المهمة الى أساقفة آخرين غير جوليانوس ، واختار من بين أصدقائه وفدا للذهاب الى ملك النوبة حاملا اليه المال والهدايا ، وبعث الى حاكم مصر العليا لكى يستعد لاستقبال الوفد وتوفير أسباب الراحة له ، وتسهيل سـفره ومهمتـه

فماذا صنعت تيودورا ؟

أرسلت الى الحاكم نفسه خطابا قصيرا جافا حازما ، جاء فيه ما يلى :

« أريد أن يصل رسولى الاسقف جوليانوس الى بلاد النوبة قبل رسل الامبراطور . واذا لم تتخذ التدابير اللازمة لـكى تبقى رسل الامبراطور فى مصر ، بحيث يسبقهم جوليانوس فان حياتك ستكون فى خطر ! »

ووقع الحاكم المسكين فى حيرة بين تعليمات الامبراطـور وتعليمات الامبراطورة ، ثم لم يسعه الا اتخاذ الموقف الذى لا خطر فيه على حياته ، فنفذ تعليمات تيودورا ، وســـافر رسولها فورا ومعه حاشية كبيرة مجتازا حدود مصر الى بلاد النوبة . ولما وصل رسل الامبراطور بعد ذلك الى مصر ، أطال اقامتهم بها الى أقصى حد ممكن ، بحجة ان البلاد ليس بهـــا ركائب كافية لنقلهم الى النوبة ، بعد أن صادر وفد تيودورا

تلك الركائب كلها وأخذوها معهم الى هناك !

وهكذا تأخر سفر وفد الامبراطور بضعة أسابيع • ولما تيسر له السفر ووصل الى النوبة ، كان جوليانوس ورفاقه قد أدوا رسالتهم ولم يتركوا لرسل الامبراطور مجالا لاى نشاط ، فعادوا الى بيزنطة خائبين !

ولا شك في أن تيودورا كافأت الحاكم على تنفيذ أوامرها دون أوامر الامبراطور • وعلى كل حال ، فان جستنيان لم يعاقبه ولم يحاسبه على موقفه وتحيزه للامبراطورة ! ولكنه عاتب زوجته ، فطوقت عنقه بذراعيها وقالت له في دلال :

ــ اذا كنت قد عاكست أوامرك بأوامر مضادة لها ، فذلك لان مصلحة الدولة والعرش تقضى بأن تنفذ أوامرى لا أوامرك !

وقبل الامبراطور من زوجته هذا التعليل العجيب ، وخارت قواه ــ وما اكثر ما كانت تخور ! ــ أمام تلك المرأة التى ملكت عليه قلبه وقياده ، والتى قال عنها : « ان نظرة من عينيها ، وقبلة من فمها ، تنسياننى السلطة والعرش وكل شىء فى الوجود ! »

وكان لتيودورا آراء ونظريات خاصة فى الشئون السياسية والدبلوماسية ، والادارية على السواء • ولا شك فى أنها كانت الموحية بكثير مما تضمنته مجموعة القوانين واللوائح والانظمة التى عرفت باسم « قوانين جستنيان » • وفى هذه القوانين مواد ونصوص تتعلق بالمرأة وتحسين حالها والنهوض بمستواها • وفيها أيضا لوائح خاصة بتنظيم الشئون الادارية وهى جديرة بأن تقارن بأحسن وأفضل اللوائح التى من هذا النوع فى أرقى بلدان العالم الآن !

وكانت تيودورا ترى بنظرها الثاقب أن كيان الامبراطورية وهيكل الدولة مهددان بمشكلتين رئيسيتين هما : الازمة المالية ، والازمة الدينية • وبرغم حاجتها الملحة الى المال ،

فقد كانت تشعر هى وجستنيان ، بأنه ليس من الحكمة في شيء أن يرهقا الرعية بالضرائب وغيرها لملء الخزانة ، لان في ذلك ما يزيد الامتعاض ويبذر بذور التمرد والعصيان!

ومن أجل ذلك أوحت تيودورا الى زوجها الامبراطور باصدار المرسوم المعروف بمرسوم ٥٣٥ ، نسبة الى السنة التى صدر فيها ، وهو الذى حدد فيه جستنيان واجبات الموظفين فى دوائر الدولة ، وحتم عليهم أن يتوخوا العدالة والانصاف فى معاملة الناس ، وان يكونوا للرعايا اخوة وآباء • ولهذا أيضا استنكرت تيودورا أعمال الوزير كابادوكى وناصبته العداء ، لانه كان قاسيا جافا فاسد الضمير !



ولم يكن اهتمامها بالشئون الدينية يقل عن اهتمامها بالشئون الادارية • ولكنها لم تكن على وفاق مع زوجها فى هذا الشأن ، لان آراءها كانت تختلف عن آرائه ، وخطتها غير خطته !

كان جستنيان شديد الاعجاب بعظمة الامبراطورية الرومانية وما تركته روما فى التاريخ من آثار ، وكان يحلم باعادة تلك العظمة الى ما كانت عليه ، ويفكر فى توحيد الامبراطوريتين الغربيةوالشرقية ، وجعل بيزنطةعاصمةلذلك الملك الهائل ، وحمل الكنيسة الشرقية ــ ومركزها بيزنطة ــ والكنيسة الغربية ــ ومركزها روما ــ على نبذ الخلافات المذهبية ، بحيث لا يبقى فى العالم غير كنيسة واحدة فى امبراطورية واحدة فيكون هو الامبراطور ، ويكون رئيس الكنيسة ــ البابا ــ فى روما ، خاضعا له حائزا على حمايته !

أما تيودورا ، فكانت ترى رأيا آخر !

كان زوجها ينظر الى الغرب وكانت هى تنظر الى الشرق ! •• كان جستنيان يحلم بالتوسع وبسط السلطان من ناحية

أوربا ، وكانت هى تحلم بالتوسع وبسط السلطان من ناحية آسيا وافريقا !

كان جستنيان يمنى النفس باعادة الامبراطورية « الرومانية الغربية » بينما كانت تيودورا تمنى النفس بتدعيم الامبراطورية « الرومية الشرقية »

وكانت مصر وسوريا والولايات الاسيوية التابعة لبيزنطة هى الدرر التى ترغب تيودورا فى الاحتفاظ بها ، لانها تشعر بأن فيها كوامن الحياة والقوة لامبراطورية فتية تضرب صفحا عن الماضى وتسير فى طريق جديد !

وفى عبارة موجزة ، كان جستنيان يريد إحياء الماضى ، وكانت تيودورا تريد تشييد مستقبل على أنقاض ذلك الماضى !

وحينما كانت تيودورا تخلو الى نفسها ، وتنصرف الى البحث والدرس ، كانت تدرك بفطنتها وذكائها أن الخلافات الدينية لا يمكن ازالتها بين الشرق والغرب ، وأن الاساقفة والرؤساء الروحيين فى البلدان الشرقية يختلفون فى تفكيرهم عن زملائهم فى الغرب .. وكانت تدرك ايضا أن الروح الوطنية والنزعة القومية لهما أثر بعيد فى تكييف العلاقات بين الشعوب الشرقية المسيحية ومركز الرياسة الدينية فى روما !

وقد أدركت تيودورا أن أساقفة الشرق يبغون الانفصال عن روما ، ورأت هى فى ذلك الانفصال تدعيما للامبراطورية الرومية ، فقررت أن تضحى بروما من أجل الكنيسة الشرقية أما زوجها جستنيان فكان على نقيض ذلك يؤثر التضحية بالكنيسة الشرقية من أجل روما !

ويتضح لنا الآن أن تيودورا كانت أبعد نظرا وأعمق تفكيرا وأصدق فراسة من زوجها الامبراطور !

وقد ظلت طول حياتها منصرفة الى معالجة الخلافات الدينية

وعاملة فى سبيل حلها بطريقة ترضى اصدقاءها اساقفة الكنيسة الشرقية . وظلت فى الوقت نفسه تضع نصب عينيها المسائل السياسية لان السياسة والدين فى نظرها مرتبطان ، ولانها كانت ترى أن الصراع بين المذاهب الشرقية والغربية ليس الا صراعا سياسيا بين الشرق والغرب ، أكثر مما هو صراع دينى !

وكان زوجها خياليا فى تكهناته وآماله وأحلامه . أما هى فكانت واقعية عملية . وقد رأت لذلك أنه خير لها وللامبراطور أن يؤيدا الاساقفة الانفصاليين الذين كانت روما تنظر اليهم بوصفهم هراطقة خارجين على مبادىء الايمان المسيحى الصحيح وتلك المشاحنات الدينية هى التى انتهت فيما بعد بالانفصال التام بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الغربية ، وبين الكنيسة الاورثوذكسية الشرقية . ولا تزال الكنيستان الى الآن منفصلتين . ولسنا هنا فى مجال الخوض فى بحث دينى لتبيان الفوارق بين المذهبين

وفى عهد تيودورا ، كان الاساقفة فى الشرق لا يزالون منقسمين الى حزبين ، ولم تكن الكنيسة الاورثوذكسية قد كونت نفسها بعد تكوينا تاما كاملا

وانتهى الامر بأن نجحت الامبراطورة فى اقناع زوجها بأن يقف معها جنبا الى جنب فى تأييد الاساقفة المنشقين ، ثم اندفعت فى تأييدها لهؤلاء الاساقفة ولم يتطرق اليها الوهن حتى آخر لحظة من حياتها . وتجلت فى هذا العراك مواهبها السياسية كما تجلت أيضا قدرتها كامرأة ذات عواطف عنيفة ملتهبة !

كانت جريئة الى أبعد حدود الجرأة ، فقد اعتقلت البابا وخلعته عن عرشه وعينت بدله فى مكانه . وشملت بحمايتها الاساقفة المنشقين على روما . ووفرت لهم الوسائل اللازمة لانشاء كنيسة مستقلة وتنظيمها والتبشير بها . وفرضت

سياستها فرضا على عظماء المملكة ، كما فرضتها على الامبراطور نفســـه !

وكانت على جانب عظيم من اللبــاقة فى رعــاية مصــالح الاسرة المالكة ، والقيام بدورها كشريكة للامبراطور فى تحمل أعباء الملك وصيانة العرش . فكانت تستقبل السفراء مثــل زوجها ، وكان السفراء يعرفون مقامها ونفوذها فيتقــربون اليها ويخطبون ودها !

وتوثقت العلاقات من بعيد بينها وبين الاباطرة والملوك ، فكانت تراسلهم . وكانوا من ناحيتهم يبالغون فى توجيــه آيات الثناء اليها ، لعلمهم بأنها دائمة التلهف الى سماعهــاء وهكذا وصلت تيودورا شيئا فشيئا الى ايجاد شــبكة من الاتصالات السرية مع كثيرين من ملوك الغــرب والشرق ، وجرت بينها وبينهم مخابرات ومساومات سياسية بغير علم الامبراطور !

وكان جميع الرسل الذين يوفدهم جستنيان الى الخارج ، لمقابلة الملوك أو لعقد معاهدات أو لحمل هدايا ، من صنائع تيودورا . فهى التى كانت تختارهم وتقدمهم لزوجها !

وجه جستنيان مرة انذارا الى « تيودات » ملك القوط فى ايطاليا ، فحمل الانذار اليه القائد « بطرس » الذى اختــارته تيودورا . وبعد أن سلم الرسول الانــذار ، طلب من الملك القوطى أن يبعث بالرد الى جستنيان بواسطة تيودورا

وظنت الامبراطـــورة مرة أن ابنة الملك « تيــودوريك » الحسناء الفاتنة « أمالاسونتا » تميل الى زوجها جســـتنيان وتخطب وده من بعيد ، وخشيت أن يتحول ذلك الميــل الى علاقة غرامية بين الاميرة الجميلة والزوج الخاضـــع لارادة زوجته ، فسعت للايقاع بها ! ... ويقال انها ارسلت من يدس لها السم فى الطعام . ولا يستبعد أن يكون هذا صحيحا فان تيودورا كانت لا تتردد أمام وسيلة للتخلص ممن تكرههم

أو تخشياهم او توجس شرا من مزاحمتهم !

ولما ماتت امالاسونتا وبلغ تيودورا خبر موتهـا ، قـالت لوصيفاتها الجالسات حولها : « خير لها أن تموت اليوم من أن تقتل غدا ! »

وكتب مرة وزير كسرى الى وزير القصر فى بيزنطة يعرض عليه اتفاقا بين الدولتين حول مسألة مختلف عليها ، وعلمت تيودورا بخبر هذه المراسلة ، فـــكتبت مباشرة الى الوزير الفارسى تقول : « أعلم أيها الوزير أن زوجى الامبراطـور لا يقرر شيئا بغير علمى ولا يقطع خيطا بدون استشارتى ! »

ولابد من الاشارة هنا الى أن سيطرة تيودورا على زوجهـا الى هذا الحد لم تكن دائما مدعاة للارتياح ومجلبة للخير . فقد وقعت فى أخطاء يغلب على الظن ان الامبراطـور ما كان ليقع فيها لو أن الامر كله كان فى يده . وكان ملوك الدول المجاورة يسخرون من وقت لآخر من تلك الامبراطورية المترامية الاطراف التى تحكمها امرأة !

وفى الحق أن تيودورا كانت بارعة ماهرة ، ولكنها قبـل ذلك وبعده كانت امرأة ، فيها ما فى معظم النساء من ضعف وعيب . ولهذا فان اندفاعها فى بعض الظروف والمناسبات ، وتطرفها ، وحقدها ، وتغليب العاطفة على العقـــل ، كل ذلك أحدث للاسرة المالكة وللعرش فى بيزنطة هزات عنيفة !

ومن عيوب تيودورا أنها كانت شديدة الوفاء لاهلها وأفراد أسرتها . وكثيرا ما أضرت بالمصلحة العامة لارضاء مصلحتهم الخاصة . وهذا ما نسميه الآن « المحسوبية » وهو استغلال السلطة والنفوذ لخدمة الآل والاقرباء على حســـاب الدولة والامة . وتيودورا لم تسلم من هذا العيب !

ولكن ، من هى أسرة تيودورا وما هو مصير أفرادها ؟

ان اختها كوميتو ، التى كانت تحبها حبـا جمـا ، والتى

بقيت بالقرب منها دائما ، تزوجت القائد « سيتاس » • وهو من صنائع الامبراطور وأصدقائه الاوفياء • وتيودورا هى التى مهدت السبيل لهذا الزواج • وقد جمع سيتاس وزوجته ثروة طائلة ، مستغلين فى ذلك نفوذ تيودورا وسلطتها !

وأرادت الامبراطورة أن تضمن مستقبل حفيدها فبحثت له عن زوجة فى داخل القصر ، ووقع اختيارها على ابنة القائد بليزيروس ، وهى وحيدته ووريثته • وقد رأت الامبراطورة فى هذا الزواج وسيلة لاستيلاء حفيدها على ثروة بيزيروس الهائلة بعد موته • ولكن الزواج لم يتم لان القائد لم يوافق عليه • فحقدت تيودورا على الفتاة وعلى ابيها • أما حفيدها ، فقد ساعدته بنفوذها فأصبح فيما بعد من رجال الحاشية ومن أغنى أغنياء بيزنطة !

وعنيت بابنة أختها ، الفتاة « صوفيا » الجميلة • فاختارت لها زوجا من الاسرة المالكة • ولم يكن ذلك الزوج غير « جستين » ابن اخى الامبراطور جستنيان وولى عهده • أى أن تيودورا دبرت الامور بحيث تصبح ابنة اختها فى المستقبل امبراطورة على بيزنطة ، وتحتل مكانها على العرش !

وجاءت بخالها « تيودورس » شقيق أمها وحارس الدببة فى الملعب ، وعينته عضوا فى مجلس الشيوخ ، ثم أنعمت عليه بلقب نبيل ، واختارته رئيسا للمجلس !

وقد عهدت الى هذا الرجل قيادة فريق الجيش ، فى الحرب ضد الفرس ، وظل يعد من أقرب المستشارين الى الامبراطور الى أن زهد فى الدنيا ، ودخل دير « كورا » حيث ترهب وانصرف الى العبادة !

هؤلاء هم أقرب أهل تيودورا اليها • أما بقيتهم فقد جاءوا اليها من تلقاء أنفسهم أو بعثت هى فى طلبهم ، فعينت الشبان منهم فى وظائف مناسبة ، واختارت للفتيات أزواجا أغنياء •

وهكذا لم تهمل الامبراطورة أحدا من أهلها بل سعت لاسعادهم جميعـــا !

وهذا وفاء ـ أو هذه محاباة ٠٠ حسب العين التى ينظر بها المرء الى خدمة الاهل وتوفير الراحة أو الجـــاه أو الثروة لهـــم !

ولكن قلب تيودورا كان يمزقه الحزن والاسى ، كلما فكرت فى المستقبل !

لم يكن لها ولد ، وعبثا حاولت أن تلد للامبراطور وليـا للعهد ٠ وهذه الخيبة كانت تدمى فؤادها وتنغص عيشها

هل حكم عليها أن تموت من غير أن يكون هناك من يرث عنها العرش ، ومن غير أن تضمن أن الامبراطور القـادم هو ابنها ، من لحمها ودمها ؟

هل قدر لها أن ترفع الامبراطورية الى أوج المجد ، لـــكى ينتقل ذلك المجد من بعدها ومن بعد زوجها الى وريث غريب عنها ، وان كان قريبا للامبراطور زوجها ؟



زار القسطنطينية فى سنة ٥٣٠ الناسك المشهور « سابا » الذى أصبح فيما بعد قديسا ، وقابله الشعب بمظاهر الحفاوة والاجلال ٠ فهو راهب صالح معروف بمكرماته وتقواه ٠ وأهل فلسطين ، حيث كان يعيش فى صومعة بين الجبال ، يحترمونه ويعتقدون أن دعاءه مستجاب

وذهب الامبراطور والامبراطورة لزيارته ٠ وركعا أمامـه وقبلا طرف ردائه ، وطلبا منه أن يمنحهما بركته ويصلى من أجلهما ٠ فباركهما القديس ووعدهما بالصلاة !

وقال له الامبراطور :

ـ هل لك يا أبتاه أن تدعو الله عز وجـل أن يمـــن على

الامبراطورة بمولود ، يكون لنا تعزية وسلوى ، ويرث العرش من بعدنا ؟

فصاح القديس في وجهه :

ـ كلا ! ٠٠ لن أطلب للامبراطورة شيئا من هذا ٠ ولو ولدت ابنا ، لجاء ذلك الابن عدوا للكنيسة مثل أمه !

ان القديس سابا لم يكن راضيا عن الامبراطورة بسبب نشاطها في الحقل الديني !

وقد بكت تيودورا عند سماعها جواب الناسك ، وقيل انها ظلت تذكر ذلك حتى ساعة موتها ٠ ولكنها لم تحقد على القديس ولم تجرؤ على مناصبته العداء ، لانها أدركت أنها لو فعلت ذلك لاثارت فتنة في الارض المقدسة بسبب مكانة القديس في نفوس السكان !

وهكذا حرمت تيودورا من البنين ٠ ولم تتألم من شيء في حياتها مثلما تألمت لهذا العقم الذي جرح كبرياءها أمام الناس ٠ وكلما قال لها زوجها انه راض به ولا يطلب لنفسه وريثا ، كانت تجيبه :

ـ في هذه المرة ، أنت تكذب علي ! ٠٠ فلا يوجد في العالم زوج واحد لا يريد أن يكون أبا ، ولا يوجد فيه ملك لا يريد أن يكون له ولي عهد !

غير أن هذا العقم الذي لازم تيودورا بعد زواجها لم يؤثر في علاقاتها بالامبراطور زوجها ٠ فقد رضي به فعلا ، وهي التي لم تكن راضية !

ومهما تكن عيوب تيودورا وأخطاؤها ، فانها طبعت ذلك العهد بطابعها ، ولا يمكن أن يذكر جستنيان من غير أن تذكر زوجته معه ٠ بل العكس هو الممكن ، فقد يذكر عهد « تيودورا من غير أن يذكر معه اسم الزوج الذي رفعها وجعلها شريكته في الملك !

وقد ماتت ثيودورا قبل زوجها • ومنذ اليوم الذى اختفت فيه صورتها من مسرح السياسة البيزنطية ، بدأت مرحلة الفوضى والانحلال • فقد بقى العرش وبقيت الدولة وبقيت الحاشية والحكومة • ولكن المحرك لهؤلاء جميعا توقف عن العمل • أما الامبراطور ، فقد أدركته الشيخوخة ، وأدركه التعب والجهد ، وانهكته المسئولية قبل الاوان !



## امرأة لها تاريخ !

وصف المؤرخ بروكوبس الامبراطورة تيودورا بأنها كانت شديدة العطف ، واسعة التسامح مع النساء الخاطئات

وليس فى هذا ما يدعو الى العجب ، فهى امرأة قبل كل شىء ، ثم هى قد عرفت الخطيئة وسقطت فى هوة الفجور والفساد قبل أن تشب عن الطوق . وكانت ذكية ثاقبة الفكر بعيدة النظر ، تدرك أن المرأة ضعيفة الارادة ، وأن الظروف كثيرا ما تضطرها الى الجنوح عن الطريق المستقيم !

وفى ذلك العهد ، كان المستوى الخلقى فى القسطنطينية منحطا تمام الانحطاط . فالاسر التى يخيم عليها الوئام وتسمو فيها الفضائل ، قليلة نادرة . وحوادث الخيانات بين الازواج كثيرة لا حصر لها . والناس يقدمون على الرذيلة من غير أن يفكروا فيما تنطوى عليه من عيب وعار !

فأى عجب فى أن تجد الخطيئة فى ذلك العصر من يسترها ويحميها فى شخص الامبراطورة التى جرفتها الخطيئة قبل أن تجلس على العرش ؟

ان كثيرات من الزوجات الخاطئات ، كن يلجأن اليها كلما انكشف أمرهن ، وعلم أزواجهن بما اقترفن من خيانات . وكانت هى حريصة على أن تحميهن وتقدم لكل منهن من المساعدات ما يمكنها من الخروج من المأزق الذى زجت بنفسها فيه ! . . فالخيانات الزوجية لم تكن من الامور التى تدهش تيودورا أو تثير استنكارها ! . . ولم تكن تسمح لاى زوج بأن يقدم على تطليق زوجته الا اذا قدم الادلة القاطعة على أنه محق فى

هذا الطلب ، وان زوجته مذنبة خاطئة ! .. فاذا اتضح انه تجنى على زوجته ، أو اذا لم يستطع تقديم تلك الادلة القاطعة على خيانتها ، فاقل جزاء له على ذلك أن يحكم عليه بأن يدفع لزوجته تعويضا يعادل البائنة التى جاءته بها يوم الزواج ، وقد يضاف الى هذه العقوبة عقوبة الضرب او الجلد !

كانت الزوجات فى عصر تيودورا لا خوف عليهن من اى تصرف خاطىء فى حق ازواجهن ، فاذا حدث أن خانت احداهن زوجها ، فالامبراطورة سرعان ماتنقذها بأية وسيلة من الوسائل .. اما الزوج الذى يخون زوجته فلم يكن هناك أى سبيل الى انقاذه من العقاب !

وعلى هذا ، كان أكثر الازواج فى عهد تيودورا لايجدون بدا من السكوت على خيانة زوجاتهـــــم ، اذ يرون أن التغاضى والتسامح اسلم عاقبة من الشكوى والاستنكار !

وقد كان لعطف تيودورا على النساء الخائنات ، ومساعداتها لهن ولعشاقهن ضد الازواج الغيورين ، أكبــــر الاثر فى تفشي الفساد وانتشاره فى جميع أوساط الشعب ، الرفيعة والوضيعة على السواء !

وكان لابد أن يؤدى هذا الى تفكك روابط الاسرة . على اننا حين نلقى نظرة على ماكان يجرى داخل القصر المقدس ، من خلال الوثائق العديدة التى وصلت الينا عن ذلك العصر ، فاننا نقف مشدوهين أمام التناقض الظاهر بين موقف تيودورا من سلوك النساء فى الخارج ، والتظاهر بالتقوى والغـــيرة على الفضيلة فى داخل القصر !

لقد كان الامبراطور جستنيان هو الذى وضع تلك القوانين الخاصة بالزواج والطلاق والخيانة الزوجية ، وفى كل مادة من مواد تلك القوانين ، تتردد عبارات متشابهة : « حسن السيرة ــ حسن السلوك ــ الاخلاق الكريمة ــ الصدق والنبل ــ شرف الاسرة ــ » الى آخر ما هنالك من عبارات تدل على تمســـك

الامبراطور باهداب الفضيلة ، ورغبته فى ان يتمسك بها رعاياه
وقد كتب جستنيان معلقا على تلك القوانين فقال : « اننا بهذه القوانين انما نريد ان تسلك النساء مسلكا مشبعا بالحكمة والرزانة ، والا يقدمن على مايتنافى مع الشرف والتقــوى . ونامل الا يكون ذلك صعبــا عليهن ، وأن ينتصرن على الرذيلة بلا عناء ! »

ولكن ، ما هى الامور التى يراها الامبراطور منافية للآداب ، ويطلب من النساء تجنبها ؟

لقد كان من بين هذه الامور الا تخرج امراة للاستحمام مع رجل غير زوجها ، فاذا هى فعلت ذلك ، واستطاع زوجها أن يقدم الادلة التى تثبته ، كان من حقــه أن يطلب الطلاق من زوجته !

كذلك كان من حق الزوج أن يطلب الطلاق اذا خرجت زوجته بغير علمه لتتناول العشاء مع رجل غريب . واذا ذهبت الى دور التمثيل ، وحفلات السباق ، ومصارعة الحيوانات ، من غير أن تستأذن من زوجها !

ولا غرابة فى أن ينص القانون أيضا على ان للرجل الحق فى الحصول على الطلاق ، اذا قضت زوجتــه ليلة خارج بيت الزوجية ، أو حاولت أن تجد لنفسها زوجا آخر أثناء حيــاة زوجها !

وفى حالة اتخاذ الزوجة عشيقا لها ، كان لزوجها بحــكم تلك القوانين التى وضعها جستنيان أن ينتقم لنفسه بنفسه ، ولكن بعد أن ينذر زوجته ثلاث مرات بأن تهجر عشيقها . ثم يقدمها للمحاكمة ويقدم الادلة التى تثبت قيامه بتلك الانذارات، كما يثبت أنه ضبط زوجته مع عشيقها فى أى بيت ، أو كنيسة، أو فى أحد الملاهى أو المقاهى ، أو فى ضاحية من الضواحى

وقد يحكم على العشيق بالاعدام ، وتعاد الزوجة الى زوجها لتحاكم بدورها على حدة ، ثم تأمر المحكمة بارسالها الى الدير

لكى تبقى فيه سنتين على الاقل ، وبعدئذ تعود الى زوجهـا اذا وافق على ذلك ، أو تصبح راهبة تقضى بقية عمرها بين جدران الدير !

وهذه القوانين كانت تعفى من العقاب كل زوج يقتص بنفسه من زوجته الخائنة وعشيقهـا ، اذا فاجأهما معا فى حالة مريبـة

وكان جستنيان يقول عن الزواج : « انه رباط مقدس يجب المحافظة عليه وصيانته من الدنس ، وأن الزواج يجب أن يدوم ويصبح غير قابل للانفصام ! »

وتدلنا أعمال هذا الامبراطور على أنه كان دائما شـديد الاهتمام بكل ما يتعلق بالزواج ، وأبقاء الوئام قائما بين الازواج من رعاياه !

وكان يحرم الطلاق بلا سبب معقول يبرر الرغبة من الزوجين احدهما أو كليهما فى الحصول عليه ، فلابد من أن يكون أحدهما قد أساء الى الآخر لكى تنظر المحكمة فى القضية . اما اذا تقدم اليها زوجان وطلبا الحكم لهما بالطلاق من غير أن يقدما لذلك سببا غير رغبتهما المشتركة فى الانفصال ، فان طلبهما يرفض ولا يؤخذ به !

ذلك لان جستنيان كان لايرضى بأن يقدم زوجان على الطلاق لانهما على خلاف فى الرأى ، او لان طباعهما غير متشابهة . ولا يرضى بأن يكون لزوجة الجندى الحق فى طلب الطلاق لان زوجها يقضى شطرا من عمره بعيدا عنها . واذا أرادت أرملة جنـدى أن تتزوج ، فعليها أن تثبت بالادلة الملموسة أن زوجها قتـل فى الميدان !

وقوانين جستنيان ــ وهى مشهورة معروفة ــ تنص على عقوبات صارمة ضد الذين يخترعون أسبابا وهمية لفصم عرى الزواج ، رغبة منهم فى الانصراف الى حياة اللهو

ولم يكن ذلك الامبراطور يبدى تساهلا فى هذا الشأن الا فى

حالة واحدة ، رغبة الزوج أو الزوجة فى الترهب ، ودخـــول الدير .. ففى هذه الحالة فقط ، يحق لاحد الطرفين أن يتقدم بطلب الطلاق . على أن خيانة عهد الرهبنة ، فى نظر جستنيان لم تكن تقل جرما عن خيانة عهد الزواج . فاذا ثبت أن احـــد الزوجين غادر الدير بعد حصوله على الطلاق ، فان عقابه يكون هو الاعدام ، أو السجن المؤبد على الاقل !

غير أن القوانين ونصوصها شيء ، وتنفيذ النصوص وتطبيقها شيء آخر . ففى جميع العصور ، كانت الاغراض الشخصية والايدى الخفية تتلاعب فى التطبيق على حساب النصوص . وهذا ما حدث فى عهد جستنيان وتيودورا . فكانت هى تسهل التسامح مع الزوجات الخائنات ، فى حين كان هو يتغاضى أحيانا عن خطايا الرجال المتزوجين !



واذا تصفحنا دقائق التاريخ وخفاياه فى ذلك العصر ، يتضح لنا بلا عناء أن حقوق المرأة كانت مصونة بمقتضى القوانين على الاقل . فان هذه القوانين كانت تحميها من تعسف الرجـــل واضطهاده . وكان لها الحق فى أن تطلب الطـــلاق فى حالات معينة ، منها خيانة الزوج أو اخلاله بواجباته عامة . فاذا دفع رجل زوجته الى الرذيلة يحق لها أن تطلب الانفصال عنه .

وكان القانون يحول دون اتهامها زورا وبهتانا بأنها ارتكبت عملا منافيا للآداب . فالمحكمة تطلب أدلة قاطعة وشـــهود اثبات لا يتطرق الشك فى صدق قولهم ! . واذا ثبت لها أن الزوج غير محق فى طلب الطلاق ، فانها فى هـــذه الحالة تعطى المرأة هذا الحق اذا أرادت ، ويصدر الحكم لصالحها ، ويحـــكم على الزوج بدفع غرامة مالية فادحة !

ولا يحق للزوج أن يضرب زوجته الا لاسباب شرعية ، وقد حددت قوانين جستنيان تلك الحالات التى يحق فيها للزوج

ان يضرب زوجته !

وهذه القوانين حرمت على الزوج أن يطرد زوجته من البيت مهما تكن الاسباب ، اذ عليه قبل ذلك أن يرفع امره الى القضاء وينتظر ما يحكم به لينفذه . . فاذا طرد زوجته وقضت خارج البيت ليلة او أكثر من ليلة ، ثم اتضح انها كانت فى رفقة عشيق ، فان مسئولية هذا يتحملها الزوج . واذا وضعت سفاحا فالزوج هو المسئول ولا حق له فى انكار بنوة المولود !

وهكذا كان جستنيان شديد العناية بالمحافظة على سلامة الاسرة ، ولكن الضعف البشرى حمله ــ كما حمل زوجته ــ على التسامح وغض النظر ، بل على التحيز والمحاباة فى بعض الاحيان



كان الضابط الارمنى « ارطبان » ينتمى الى أسرة نبيلة . فهو من سلالة ملكية ، وقد جاء الى بيزنطة والتحق بجيشها وهناك احرز شهرة واسعة ومكانة مرموقة

ثم حدث بينما كان يحارب مع الجيش البيزنطى فى افريقا أن انقذ زوجة ضابط كبير يدعى « أريوبندوس » من أيدى الثوار الذين قتلوه واسروها ، ثم أحاط أرطبان الارملة بعنايته ورعايته ، مدفوعا بعاطفة انسانية نبيلة ، ومؤملا فى الوقت نفسه ان يجنى فائدة لنفسه ، لان تلك الزوجة المترملة لم تكن غير « بريجكتا » ابنة أخى الامبراطور جستنيان

وصدق ظن الضابط الارمنى ، فان « بريجكتا » النبيلة اعترفت بجميله ، وصرحت بأنها لن ترفض له طلبا أيا كان ! ثم أغدقت عليه المال والهبات .. وتوثقت العلاقات بينهما فوعدته بالزواج . فسكر «ارطبان» بنشوة الآمال ، ورأى نفسه يوشك أن يكون من أولئك الذين يمكن أن يجلسوا على العرش ، لان الامبراطور ليس له أبناء يرثون عرشه من بعده ، ولا يبعد اذن أن يئول الى « بريجكتا » . ويشاركها فيه زوجها المحظوظ !

وحينما عادت بريجكتا الى بيزنطة ، قصت على الامبراطور ما حدث لها بالتفصيل ، وذكرت له أنها مدينة بحياتها وشرفها وحريتها لذلك الضابط الأرمنى الشجاع النبيل ، ثم طلبت منه أن يسمح له بالعودة الى بيزنطة فأجاب الأمبراطور طلبها بلا تردد !

وفى مقابلة أخرى لعمها الامبراطور ، صرحت له برغبتها ان تتخذ من الضابط الذى انقذها زوجا ، بعد أن فقدت زوجها فى ايطاليا ، فوافق الامبراطور كذلك على رغبتها ، وعينه قائدا لكتائب المتطوعين الاجانب ليقرب الشقة ويزيل الفوارق بينهما. ثم عينه مديرا للجيش المرابط ، ورفعه الى مرتبة قنصل !

ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان أرطبان ، فهدد فجـأة بالفشل تلك الخطة التى رسمها لمستقبله ، بعد أن ابتسم له الحظ فأيدتهـا « بريجكتا » بقبولها الزواج منه ، وايدها الامبراطور نفسه من حيث لا يشعر ، بموافقته على هـذا الزواج !

لقد نسى الضابط الارمنى ــ أو تناسى ــ انه متزوج ، وانه ترك زوجته فى أرمينيا . . وفيما هو يعد العدة لزواجه الجديد السعيد بالاميرة « بريجكتا » ابنة أخى الامبراطـور ووارثة عرشه عما قريب ، فوجىء المسكين بوصول زوجته الأرمنية المهجورة الى بيزنطة ، وما لبثت هذه أن وقفت على نبأ الزواج الباطل المنتظر ، فسارعت بشكواها الى الامبراطورة تيودورا حيث وجدت منها كل عطف ومساعدة ، واكدت لها أن قدسية الزواج فوق كل اعتبار ، وأنه لا سبيل الى حصول زوجها على الطلاق منها لكى يتزوج أخرى ، مهمـا كانت هذه الزوجة الجديدة !

والواقع ان تيودورا ، لم تكن راضية فى قرارة نفسها عن زواج أرطبان الأرمنى بابنة أخى الامبراطور ، لانها كانت تكره أن تجلس هذه على العرش من بعدها !

وهكذا أرغمت الامبراطورة « أرطبـــان » على العودة الى زوجته ، كمـــا أرغمت « بريجكتا » على الاقتران برجل آخر ، اختارته هى لها ، لكى تقطع عليها وعلى حبيبها كل سبيل لبلوغ العرش من بعدها !

وهذه الحـادثة تدل دلالة واضحة على أن تيودورا كانت ـ مثل زوجها ـ حريصة على سلامة الأسر أيضا ، وان كانت من وقت لآخر تتحيز للنساء ضد الرجال • بل أن هذه الحادثة قد تعد أيضا تحيزا للمرأة ، اذ أن تيودورا وقفت فى صف الزوجة المهجورة وحالت دون وقوع غبن عليها !



وهناك حوادث أخرى تلقى ضوءا على آراء تيودورا وأعمالها فيما يتعلق بالمرأة وحسن سلوكها . فقد حدث مرة أن فقدت شقيقتان من أسرة كبيرة زوجيهما فى آن واحد . وكانتـــا جميلتين غنيتين ، تحبان اللهو وتميلان الى الحياة الحرة من كل قيد . فانصرفت كل منهما الى الانغماس فى الملذات

ولكن تماديهما فى هذا المسلك الشائن ، أطلق الألسنة بالنقد اللاذع . وكانت تيودورا تحبهما وتعطف عليهما وترجو لهما الخير والسعادة . فساءها أن تصبح سيرتهما مضغة فى الأفواه ، فنصحت لهما أولا بالعدول عن سيرتهما ، ولما لم تجد منهما استجابة للنصح ، قررت أن تربطهما بزواج جديد ، واختارت لهما بنفسها رجلين من معارفها ، ولكنهما من بيئة أقل من بيئتهما النبيلة • وقد رفضت الارملتان النبيلتان تحقيق رغبة الامبراطورة ، وهربتا ليلا ملتجئتين الى كنيسة آيا صوفيا للاحتماء فيها • ولكن تيودورا لم تتراجع ، وظلت تلاحقهمـــا حتى أكرهتهما على التسليم . ثم بالغت فى النكاية بهمـــا بعد خروجهمـــا من الكنيسة ، اذ رفضـــت بشـــدة زواجهما من اثنين من النبلاء تقدما بهذا الطلب انقاذا لهما من الزواج الآخر

غير المتكافىء فيما يعتقدان . ولم تمض أيام حتى تم زواج النبيلتين من الرجلين الخاملين اللذين اختارتهما هي بنفسها !

على أن تيودورا ندمت على ذلك فيما بعد ، وهالها أن تكون قد أساءت الى صديقتين أحبتهما وشملتهما بعطفها ، فسعت لدى الامبراطور حتى عين زوجيهما فى منصبين كبيرين وأغدق عليهما هباته وعطاياه !

عندئذ رضى الجميع بهذا الحل الموفق السعيد

لقد كانت الامبراطورة تيودورا عنيدة متشبثة بآرائها ، لا ترجع عن أمر تقرره . ولكنها فى ذلك كانت تخدم سياستها ، وتعنى دائما بأن تحيط نفسها بالأصدقاء الاوفياء والانصار المخلصين . وقد حملها ذلك على التدخل أحيانا فى شئون عائلية خاصة ، لم يكن لها حق التدخل فيها . وانتقدها معاصروها لانها كانت تعقد زواج الناس أو تفضه بمثل العناد الذى تصرف به شأنا من شئون الدولة . وكانت تربط وتحل الروابط الزوجية ، حسب هواها ، وأحيانا من غير أن تستشير أصحاب الشأن انفسهم اى الازواج والزوجات ، الذين تتصرف فى مصيرهم من حيث لا يشعرون !

لكن تيودورا لم تفعل ذلك مدفوعة بأهوائها وحدها ، بل ان كل عمل أقدمت عليه من هذا القبيل ، كان مدروسا بدقة ، وكانت الامبراطورة الداهية ترمى من ورائه الى هدف سياسى معين ! فاختيارها ذلك الزوج الذى أرغمت « بريجكتا » على قبوله ، كان يرمى الى هدف بعيد .. هو أن ذلك الزوج الذى اختارته لابنة أخى الامبراطور لم يكن غير ابن اخى «هيباتوس» الذى نادى به الثوار امبراطورا لبضعة أيام فى ثورة نيكاس .. فهذا الزواج اذن من شأنه أن يضمن فى المستقبل ولاء تلك الاسرة للعرش ، فلا تحدث أحدا من أفرادها نفسه بأن يقدم على ثورة جديدة فى البلاد !

ولاسباب سياسية أيضا ، شملت تيودورا بحمايتها الحسناء

انطونينا ، وتحزبت لها ضد زوجها بليزيروس ، ثم أرغمتهاعلى العودة اليه !

ولم تكن الامبراطورة تحسب حسابا للعوامل الادبية والخلقية ، ما دامت مصلحتها السياسية فى احدى كفتى الميزان ! .. فهى شريفة نبيلة صادقة طيبة القلب ، ما دامت تلك المصالح مصونة . أما اذا تهدد الخطر تلك المصالح ، فان هذه الصفات كلها توضع على الرف !

وكذلك كان الشأن ، اذا كانت مصالح أسرة الأمبراطورة ، او مصالح أصدقائها فى خطر . وقد رأينا كيف زوجت أختها « كوميتو » وابنة أختها « صوفيا » . وكيف زوجت ابنة أختها كريزومالو من شاب انتزعته انتزاعا من خطيبته . واسم هذا الشاب « ساتورنيوس » وهو ابن « هرموجينوس » رئيس التشريفات فى القصر !

كان ساتورنيوس يحب فتاة من بنات أسرته ، توافرت فيها جميع الصفات والمزايا التى يرغب الشاب أن تكون متوافرة فى زوجته المقبلة . وقد خطبها له أبوه ، وحدد يوم الزواج .. ولكن تيودورا تدخلت فى آخر لحظة ، فأرغمت الشاب ارغاما على أن ينفصل عن خطيبته ، ويتزوج ابنة أختها . وكان أن تم لها ما أرادت فعقد الزواج فورا

وفى اليوم التالى لزواجه ، أسر ساتورنيوس الى أصدقائه بأن الفتاة التى أرغموه على زواجها لم تكن تلك الفتاة الطاهرة النقية التى وصفوها له ، ثم أضاف الى ذلك انه سيسعى فى طلب الطلاق

وكانت كلماته هذه وبالاعليه ، فقد أمرت تيودورا بالقبض عليه ، وقالت له بعد جلده بالسياط

ـ تعلم يابنى كيف تحفظ لسانك فى المستقبل ، فلا تتفوه بكلمات تسىء الى سمعة الفتيات الشريفات وبنات الاسر النبيلة !

وقالت للذين تشفعوا لديها لكي تعفو عنه :

ــ انه ثرثار .. والثرثرة تستوجب العقاب !

ولزم ساتورنيوس الصمت بعد ذلك الدرس المؤلم ، بل انه انطلق يقسم مؤكدا أن امرأته مثال النبل والطهر والعفاف !

والواقع أن تيودورا فيما يختص بالأزواج والزوجات الذين تدخلت فى حياتهم الخاصة كانت تبدو عادلة حينا وغير عادلة حينا آخر ، ولكنها فى كل هذه الحوادث كانت تتصرف طبقا لما تقتضيه مصلحتها الخاصة ، وقد نجحت فى بلوغ هذه الغاية كل النجاح



وهناك فى هذه الحوادث ظاهرة تلفت النظر ، هى أن تيودورا حرصت فيها جميعا على أن تثبت أنها امرأة قبل كل شىء ، فهى تؤثر مصلحة الزوجة على مصلحة الرجل ، وترغم الزوج على قبول رغبة زوجته وتنفيذ ارادتها ، وتحاول دائما أن تجعل الزوجة « ترضى » بما تريد فرضه عليها ، لا أن تجعلها « ترضخ » مرغمة !

وهذه الظاهرة تبدو بوضوح وجلاء فى القوانين التى حملت تيودورا زوجها الأمبراطور على سنها لمصلحة الممثلين والممثلات والراقصات والنساء الساقطات !

لقد كانت تعرف حق المعرفة مايجرى فى البيئات المنحطة ، والأوساط الموبوءة ، وما فى محيط الملعب ، من أعمال وحوادث وفواجع يندى لها جبين الفضيلة خجلا .. فهى قبل أن تجلس على العرش ، انغمست فى لجة ذلك المحيط ، وعاشرت جميع تلك الأوساط والبيئات التى خرجت منهـا ونشأت فيها !

ان تيودورا ، الراقصة المتوجة ، لم تنس ما عانته ولمسته من عار وفقر ، وتبعا لذلك لم تنس ما يعانيه غيرها من هذا

القبيل ، فكانت شديدة الرغبة فى أن توجه الجانب الأكبر من عطفها الى ضحايا الفقر والعار !

انها تعرف الداء ، وتريد أن تصف له الدواء ، وتطبق العلاج بنفسها !

وقد سجل الامبراطور جستنيان فى مذكراته الخاصة أنه مدين لتيودورا زوجتـــه بالوقوف على حقيقة ما يجــرى فى بيزنطة ، ومعرفة خبايا الأوساط التى انتشر فيها الفساد ، وقد ساعده ذلك على سن قوانين جديدة ، تشمل نصوصها جميع أفراد الشعب ، ولا تهمل بيئة من البيئات

وقوانين جستنيان الخاصة بالآداب كانت ولاتزال حتى أيامنا هذه ، مصدرا من المصادر التى يستوحيها المشترعون فى أعمالهم الاصلاحية . وقد كانت تيودورا هى التى أوحت بتلك القوانين !

كانت الممثلة أسيرة للفرقة التى تعمل فيها ، بل كان صاحب العمل يستعبدها ، فهى لايحق لها أن تتركه ، بينما يحق له هو أن يطردها . فنصت القوانين الجديدة على أن للممثلة الحق فى أن تستقيل من عملها متى شاءت ، وأن تطالب بتعويض اذا طردها صاحب العمل !

ونصت القوانين أيضا على أن مهنة التمثيل لا تحرم على الممثلة أن تحترف مهنة أخرى اذا هجرت المسرح .. وكانت من قبل مرغمة على أن تبقى طول حياتها ممثلة ! كما كانت هناك عقبات تحول دون زواج الممثـلات ، فازالتها القوانين الجديدة !

وكان أصحاب المسارح والفرق يتعاقدون مع الممثلة على أن تعمل عندهم « مدى الحياة » فألغى هذا النوع من التعاقد بنص صريح فى القانون الجديد . وأصدر الامبراطور أمرا دوريا الى حكام المقاطعات يلفت فيه أنظارهم الى وجوب الاشراف على تنفيذ القانون ، بحيث لا يقع غبن على ممثلة فى أنحـاء

المملكة ، وبحيث لا ترغم ممثلة على القيام بأى عمل لا ترغب فيه ! .. والى جانب عقوبة الجلد والنفى التى فرضت على صاحب العمل الذى يخل بنصوص القانون ، أو يسىء تطبيقه .. فرض عليه أن يدفع للممثلة المجنى عليهـا غرامة مالية كبيرة لكى تستطيع أن تنفق على نفسها ريثما تجد عملا جديدا !

وهكذا ازالت تيودورا من طريق الممثلة جميع العقبات التى كانت تحول دون تمتعها بحرية العمل ، من ناحية ، وبحقوقها كامرأة من ناحية أخرى . وصارت الممثلة تجد زوجا يقترن بها ، اذا هجرت التمثيل ، من غير أن تضطر الى استجداء اذن بذلك من الامبراطور ، كما حدث لجستنيان نفسه ، لما اراد أن يعقد زواجه على تيودورا ، فاستصدر أمرا من عمه الامبراطور جستين ، يسمح له بأن يحقق رغبته !

وأزيلت أيضا جميع العقبات من طريق بنات الممثـلات ، فأصبحن يتمتعن بجميع الحقوق التى تتمتع بها نساء الدولة الأخريات !

ولكن شيئا واحدا اشترطته تيودورا على الممثلة : هو ان تهجر التمثيل اذا أرادت أن تتزوج ، وتتعهد بألا تعود الى ممارسته على الاطلاق ، أيا كانت الظروف والأحوال !

وصرفت الامبراطورة همها الى معالجة مشكلة البغـاء وما كانت تعانيه العاصمة الموبوءة من انتشار المواخير فيها

وقد كان أصحاب تلك المواخير يجيئون بالفتيات ، والنساء من أطراف الامبراطورية ، بعد أن يغروهن بمعسـول الآمال والوعود . وكانت هناك سوق للرقيق الابيض ، تباع فيهـا النساء بيع الأنعام . نعملت تيودورا على اصلاح تلك الحال ، ومعالجة ذلك الداء الذى عانته هى نفسها قبل أن تجلس على العرش !

وبفضل الممثلة المتوجة ، صـدر قانون جديد بمرسوم امبراطورى ، يفرض عقوبة الاعدام على كل من تثبت عليه تهمة

جر الفتيات الى ممارسة الدعارة ! .. ثم صدر قانون آخر مكمل لذلك القانون بتحريم البغاء وغلق المواخير فى المدينة ونفى أصحابها وصاحباتها الى جهات نائية ، لأن بقاءهم فى العاصمة « مضر بالاداب العامة ، ومخالف للقوانين ! »

وجاء فى القانون أيضا هذا النص الصريح :

« اننا نرغب فى أن يعيش جميع رعايانا عيشة صالحة نظيفة شريفة ، فى حدود القوانين السماوية والتشريعات المدنية. فان الفضيلة وحدها تضمن للانسان حياة كريمة فى هذه الدنيا ، والتمتع بالراحة فى العالم الآخر ! »

ويعجب المرء لوجود مثل هذا النص فى قانون صدر فى عهد عرف بأنه عهد فساد وتفكك وانحلال ، ويزداد عجبه عندما يتأكد أن تيودورا ، الممثلة السابقة ، والمرأة الطائشة ، هى التى أوحت بهذا النص أو كتبته بيدها !

وقد عنيت تيودورا بالاشراف على تطبيق هذا القانون . ولم تتردد فى الطواف فى أنحاء عاصمتها ، لكى تتأكد من أن المكلفين بذلك يقومون بواجبهم على أحسن وجه . فهى تريد أن تحطم بيدها القيود التى عرفتها من قبل وهى ممثلة ، وأن تنتشل من بؤرة الفساد جميع النساء اللواتى كانت هى واحدة منهن !

وكانت تقول : « هناك نوعان من العبيد الأرقاء : العبيد الذين نشتريهم من الاسواق لخدمتنا ، والنساء اللواتى يشتريهن الفاجرون للالقاء بهن فى غمرة الرذيلة !

وجمعت تيودورا النساء اللواتى كن يدرن بيوت الدعارة فى العاصمة ، وناقشتهن بنفسها . فطلبت منهن أن يعترفن صراحة بما دفعنه من مال للنسوة الساقطات العاملات فى بيوتهن ، وبما دفعنه لأهل أولئك النسوة الذين باعوهن طمعا فى كسب المال ، أو مدفوعين بدافع الفقر والفاقة !

ثم أعطت تيودورا من مالها الخاص لصاحبات تلك البيوت

خمس قطع ذهبية عن كل امراة كانت عندهن ، وهو الثمن الذى اشترينها به ، وهكذا افتدت بمالها أولئك البائسات وحررتهن من ذل الاسر والعار . ثم اعطت كل واحدة منهن ثيابا جديدة وقطعة من الذهب ، وأعادتها الى أهلها أو أرسلتها الى احدى الأسر الكبيرة للعناية بها !

وبقيت فى العاصمة طائفة من النساء اللواتى لم يجدن مأوى . فأنشأت لهن تيودورا ، من مالها الخاص ملجأ ارسلتهن اليه ! . ثم خصصت لهذا الفرض قصرا قديما يقع على شاطىء البوسفور ، من الناحية الآسيوية ، وحولته الى دير سمته « دير التوبة » وأوقفت عليه الأملاك والاموال ، ودعت الراغبات فى الترهب من أولئك النسوة الى الالتحاق بذلك الدير ، حيث وفرت لهن أسباب الراحة والطمأنينة !

ويقال ان بعض أولئك النسوة لم يطقن البقاء فى دير التوبة ، فحاولن الفرار بالقاء انفسهن من فوق الاسوار . وقد يكون هذا صحيحا . ولكن هذا لا يقلل من اهمية المشروع الذى نفذته تيودورا ، ولا يشوه نبل العمل الذى قامت به لانقاذ الساقطات . فان هذا العمل الجليل يشرف الامبراطورة العظيمة ويحمل أشد الناقمين على أن يغفروا لها بعض ذنوبها من أجله !

لقد أذنبت تيودورا وأجرمت ... ولكنها من ناحية اخرى صنعت كثيرا لمكافحة الذنوب والآثام . ولا شك فى أنها ، حين أوحت الى زوجها بنصوص القوانين الخاصة بالنساء الساقطات والممثلات والراقصات ، كانت تذكر ماضيها ، وما ارتكبته هى من آثام . ولا شك أيضا فى انها كانت مدفوعة بدافع التوبة والندامة ، ورغبت فى أن تكفر عن ماضيها الأثيم !

ان تيودورا أحبت بنات جنسها . وارادت أن تحول الساقطات منهن الى نساء سعيدات شريفات . ولا يهمنا أن تكون هى ، فى وقت من الاوقات ، قد لطخت نفسها بالعار فان هذا لا يعد دليلا ضدها ، بل هو دليل على أن تلك الراقصة

التى جلست على عرش بيزنطة ، جديرة بالمنصب الذى شغلته والمكانة التى ارتفعت اليها !

لم تقف تيودورا عند حد مكافحة الفساد ورفع القيود عن زميلاتها السابقات ، الممثلات والراقصات وغيرهن ، بل سعت أيضا الى اعطاء المرأة عامة ، فى جميع أنحاء الدولة ، وفى جميع ميادين النشاط ونواحى الحياة الاجتماعية ، جميع الحقوق التى للرجل ، على أن تقوم بمثل تلك الواجبات التى يقوم بها .. فتيودورا بذلك تعد أول ملكة تولت انشاء « حركة نسائية » كما تتصورها النساء فى عصرنا هذا . واذا كانت لم تذهب فى محاولتها الى النهاية ، فذلك لأنها ماتت قبل الاوان !

وما أروع عمل تلك المرأة ، التى عرفت الفساد ومارسته ثم كافحته وانتصرت عليه . وان اغلاق المواخير وتحريم البغاء لمن المفاخر التى يجمل بالمؤرخين أن يتوجوا بها اسم الامبراطورة التى قالت :

ـ عرفت البؤس فبسطت يدى الى البائسين !

٦٢

# الفصل الثالث

# القديسة

# تيودورا التقية !

كان الدين يشغل مكانا كبيرا فى حياة الامبراطورة تيودورا . ففى كل عيد من الأعياد الدينية الكثيرة عند طائفة المسيحيين الأورثوذكس ، كانت الامبراطورة ترتدى أفخر ثيابها ، وتضع الطيلسان على كتفيها ، وتخرج فى موكب فخم لحضور الصلاة فى احدى كنائس العاصمة الكبرى ، مثل كنيسة آيا صوفيا ، أو كنيسة الرسل ، أو كنيسة القديس سرجيوس

وفى داخل الكنيسة كانت تجلس الامبراطورة على عرشها ، ومن حولها نساء الحاشية ، فتحضر الصلاة الى آخرها فى خشوع وصمت ، وتنهض احيانا ، ثم تتقدم وبيدها شمعة مضاءة، الى الهيكل حيث تركع على ركبتيها وتصلى أمام الصور المقدسة ومخلفات القديسين !

وكان موكب الامبراطورة يجتاز الشوارع بين القصر والكنيسة ، يتقدمه حاملو الشموع والصلبان

وهناك احتفالات دينية اخرى كانت الامبراطورة تخرج من قصرها للاشتراك فيها ، كالاحتفال بتدشين كنيسة جديدة ، أو افتتاح دير جديد ، أو زيارة مكان مقدس طلبا للبركة والغفران ، أو شكرا لله على انتصار احرزته الجيوش الامبراطورية !

وكذلك كانت الامبراطورة تخرج من قصرها فى ثياب الحداد ، لتزور كنيسة أو ديرا ، مبتهلة الى الله أن يقى البلاد شر وباء داهم ، أو يرسل سحائب رحمته على البلاد لانقاذها من المجاعة التى يهددها بها موسم مجدب !

وكان الناس فى ذلك العصر يعتقدون أن سلطة الملك مستمدة من سلطة الله ، وعلى هذا كان الاباطرة فى بيزنطة يجمعون بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية على السواء

وكان الامبراطور جستنيان يجد سرورا وبهجة فى الحياة على هذه الصورة ، فهو شديد التدين الى حد التعصب والاعتقاد بالخرافات . يؤمن بأنه موضع رعاية خاصة من الله . ويؤكد لخلصائه من رجال الحاشية أن السماء تصنع العجائب من اجله !

ومن الأقاصيص التى كان يرويها ، انه مرض مرة واشتد عليه الداء ، وعجز الأطباء عن شفائه ، فصلى وتضرع الى الله ، واذا بالقديسين « دميانوس وكويجوس » ، اللذين مارسا الطب فى حياتهما ، ينزلان من السماء ليعالجاه فى حجرته !

والواقع أن جستنيان مرض حقا ، واصبح على عتبة الموت ، ولكنه شفى فجأة وفى آخر لحظة . وهذا ما زاد فى اعتقاد الناس بأنه شفى بمعجزة من السماء !

وقص جستنيان أيضا على الناس القصة التالية :

كان مصابا بتصلب فى الشرايين . ولم يجد فى علاجه أى دواء وكان هـــذا الداء عضـــالا ، ولمـــا لم يجـــد من يعطيه الدواء الشـــافى ، زار ديرا فيـــه مخلفـــات بعض القديسين ، ولمســـها ، وصلى ، وتضرع ، ودهن مواضع الداء من جسمه بالزيت المقـــدس ، وعاد الى القصر فاذا به يشفى تماما !

وكان الامبراطور يتوجه بآيات الشكر الى الله ليلا ونهارا على ما حباه به من عطف وشمله به من رعاية . ولذلك كان شديد الحرص على حماية الدين ، وعلى صيانة الايمان من أن يتطرق اليه الوهن والضعف ، وكان كثير العنـــاية بالـكنائس وترميمها وتجميلها ، عدا ما كان يشيده من الكنائس والاديرة الجديدة ، حتى امتلأت بها انحاء الامبراطورية الشاسعة ، وقد

ظل طول حيــاته يغدق عليها الأموال بغير حساب ، من بيت المال ، أو من ثروته الخاصة وثروة زوجته !

وكان جستنيان من أولئك الرجال المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم لا يتزحزحون عنها . ولكنه كثيرا ما كان يقحم نفسه فى مناقشات ومجادلات دينية حول عقيدته . وقد تعددت المؤتمرات والمجامع الدينية التى اشترك فيها ، وقضى الساعات والايام يجادل الاساقفة وعلماء اللاهوت . وكان يلذ له بصورة خاصة أن يناقش « الهراطقة » المعارضين فى الامور اللاهوتية والروحية ، ويبدى فى ذلك اطلاعا واسعا ، يشوبه الغرور فى كثير من الأحيان ، لاعتقاده أنه لا يوجد فى الامبراطورية خطيب اقوى بلاغة منه ، ولا أوفر حجة ، ولا افصح بيانا !



وصفوة القول ، ان الامبراطور كان واحدا من أولئك العشرات الذين ملئوا الدنيا ضجيجا فى ذلك العصر ، بما أثاروه من مشاحنات دينية ومذهبية ، شغلت بال البيزنطيين مئات السنين ، وكانت فى النهاية سببا من الأسباب التى أدت الى انهيار امبراطوريتهم . وقد عرفت تلك المشاحنات فى التاريخ باسم « المناقشات البيزنطية »

أما تيودورا .. فلم تكن أقل اهتماما من زوجها بالشئون الدينية وما يرتبط بها من بعيد أو من قريب . ولم تكن تهمل شيئا من واجباتها الدينية كامبراطورة . ولم يغرب عن بالها فى وقت من الأوقات انهــا امبراطورة دولة مسيحية شديدة التمسك بالدين ، وان كل تقصير من ناحيتها فى أداء واجباتها الدينية سيفسر تفسيرا قد يكون مضرا بمصلحتها ، ماسا بمقامها . فضلا عن أنها كانت فى الواقع تقية ورعة بالمعنى الذى كان الناس فى ذلك العصر يفهمون به التقى والورع !

كانت كجميع البيزنطيات تحترم رجال الدين وتجلهم

. تصغى الى نصائحهم . على أنها كانت تختص بالجانب الأكبر من احترامها واجلالها أولئــــك الرهبان المتعبدين ، ذوى الأردية الطــــويلة واللحى المسترسلة ، وأولئــــك النسوة الصالحات ، اللاتى هجرن مباهج العالم ، وحبسن انفسهن داخل الأديرة للعبادة والصلاة

وكانت تعتقد أن الرهبــــان يكفرون بفضائلهم عن سيئات الناس ، ويملئون بصلواتهم الفراغ الذى يتركه الذين لا يصلون .. كما كانت تعجب بالحياة التى يحيونهـــا داخل أديرتهم وتصفها بأنها « تقرب بين الله والبشر ، وهى مرحلة من مراحل الطريق بين الارض والجنة ..! »

ومرض زوجها مرة ، فلم تكتف بالأطباء لعـــلاجه ، بل استنجدت برجال الدين ، وأرسلت فى طلب الراهب السورى « زوراس » لانقاذ زوجها بصلواته !

وقد رأينـــا كيف طلبت من الراهب الفلسطينى سابا أن يساعدها بصلواته وتضرعاته لكى تلد للأمبراطور ولدا يكون ولى عهده ، وكيف رفض ذلك القديس طلبها

ولها مع الناسك السورى « ماراس » حادث طريف . فان ماراس هذا كان معروفا بتطرفه فى آرائه وتدينه العميق ، وكان يهاجم خصومه بعنف لا يوجد عادة عند الرهبان والنساك . وكان قد بلغ الثلاثين من عمره ، لما قرر أن يهجر العلم ويترهب . فقد عدل عن الزواج فى اللحظة الأخيرة ، وقال انه يفضل أن يضع نفسه تحت حكم الله على أن يضع نفسه تحت حكم امرأة ، وأن نير الرب خير ألف مرة من نير الزواج !

واسترعى الأنظار منذ دخل الدير ومارس الرهبنة بما كان يفرضه على نفسه من ضروب الحرمان والتقشف . ولكن هذا الناسك القاسي على نفسه ، كان أيضا قاسيا على غيره . وقد وقف مرة فى القصر المقدس منتقدا بعبارات جارحة سلوك الامبراطور والامبراطورة . ومنذ ذلك الوقت أعجبت تيودورا

بذلك الراهب الشاب الجرىء الفصيح الملتهب غيرة على الدين والفضيلة . وعولت على ان تتقرب اليه !

كان ماراس فى نظرها قديسا حائزا على رضاء الله ونعمته فدعواته لابد ان تجاب !

وعلى هذا عرضت عليه أن يبقى ضيفا عليها ، ووعدته بأن تضع تحت تصرفه بيتا يقيم به فى ركن من اركان الحدائق الواسعة ، وفى المكان الذى يريده . ولكن ماراس رفض . ولما أرسلت اليه مبلغا من المال ، سارع الى مقابلتها حيث ألقى بالنقود فى وجهها أمام رجال الحاشية !

ولم تيأس تيودورا ، فقد لحقت بماراس الى المكان المنعزل الذى أقام فيه على شاطىء البحر ، وطلبت منه أن يصفح عنها ، فعاتبها على ارسال مال اليه لكى تغريه أو تشترى رضاه وصلواته . وأخذت هى تلح عليه أن يقبل ما يكفى لنفقات معيشته ، ولكنه رفض أيضا .. ثم فر هاربا الى مكان بعيد لينجو من ملاحقاتها !

واشتهر أمر هذا الناسك العنيد وذاع صيته فى البلاد ، فصار الناس يقصدونه لطلب بركته .وحدث مرة أن هاجمه جماعة من اللصوص ودخلوا الخيمة التى كان يقيم فيها وهددوه بعصيهم قائلين :

ــ أعطنا المال الذى ترسله اليك الامبراطورة !

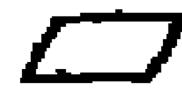
فأجابهم الناسك : « ليس عندى مال . والامبراطورة لا ترسل الى شيئا لأننى لا أريد منها شيئا ! »

ولكنهم لم يصدقوه ، وضربه احدهم بعصاه . فوثب الناسك القوى العضلات عليهم ، وانتزع من أحدهم عصاه ، وتمكن من التغلب عليهم وشد وثاقهم ، ثم تركهم على تلك الحالة حتى اليوم التالى ، فأطلق سراحهم قائلا لهم :

ــ تعلموا ألا تعتدوا على رجل صالح لا يملك غير ايمانه بالله !

وانتشر خبر هذا الحادث فى بيزنطة ، فازدادت شهرة ماراس ، وزارته الامبراطورة مرة أخرى ، واقنعته بأن يخرج من عزلته ، فرضي بأن تشيد له تيودورا ديرا يبيت فيه مع الرهبان الذين يختارهم ثم أعطته مزرعة يعيش فيها هو وأولئك الرهبان . وبقي متمتعا بحب الناس واحترامهم ، حتى مات بالطاعون فى سنة ٥٤٢ ، فاحتفل البيزنطيون بدفنه احتفالا قوميا كبيرا

واهدت تيودورا الى بطريرك الاسكندرية تيودوسيوس قصرا فى مقاطعة ترافيا ، كما شيدت ديرا فى داخل القصر المقدس لاقامة الرهبان . وبنت ملاجىء ، وفنادق لينزل فيها الفقراء الذين يمرون بالعاصمة أو يجيئون اليها للبحث عن عمل !



ومن اشهر الكنائس التي شيدتها تيودورا ، كنيسة الرسل وكانت تقوم على المرتفع الذى بنى عليه فيما بعد جامع السلطان محمد بالقسطنطينية . وفيها مدافن قياصرة الروم

على ان الامبراطورة تيودورا ـ برغم تقواها والاعمال الكثيرة التى تمت على يدها كانت هدفا لانتقادات جارحة من رجال الدين ، وخاصة من أولئك الذين كانوا يعملون للابقاء على الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية « الرومية والرومانية ! » فقد كانت تيودورا تناصر الكنيسة الشرقية ، ولهذا فان معظم الذين أيدوها وبيضوا صفحتها فى التاريخ ، كانوا من أصدقائها اساقفة آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وأفريقا . أما أساقفة بيزنطة والبلقان وايطاليا ، فانهم حاولوا تسويد صفحتها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا !

والواقع أن تيودورا قامت بدور كبير فى تاريخ اقامة الكنيسة الشرقية وتدعيمها فى القرن السادس عشر الميلادى . ولولاها ، لقضى على الاساقفة الانفصاليين ، لأن زوجها الامبراطور كان يناهضهم !

ولابد لنا لكى نستوعب فهم تلك الشخصية العجيبة ، شخصية الامبراطورة تيودورا ، الممثلة المتوجة ، من أن نشير الى ذلك الصراع الهائل الذى قام فى وقت من الاوقات بين الكنيستين الشرقية والغربية ، أو على الأصح الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الذى أدى فى النهاية الى انفصال الكنيسة الشرقية انفصالا تاما عن الكنيسة الأم الاولى فى روما ، التى أصبحت مركز الكثلكة ومقر البابا رئيسها الاعلى

ولا يتسع المقام هنا للدخول فى تفاصيل المشاحنات اللاهوتية التى نشبت بين الأساقفة المسيحيين حول شخصية السيد المسيح ومسألة الأقانيم وغير ذلك مما يتصل بالعقيدة المسيحية ذاتها . ولكننا نكتفى بتلخيص الحوادث لاظهار الدور الذى قامت به تيودورا فى تلك الحوادث الجسام

فقد بدأ الصراع بين الفريقين فى أواسط القرن الخامس للميلاد . وعقدت مؤتمرات ومجامع أسقفية لفض النزاع لكنها كلها منيت بالفشل التام ! ثم تطور الخلاف فى النهاية فأصبح خلافا بين الشرق والغرب ، وصراعا بين عقليتين : العقلية الشرقية والعقلية الغربية . وكان أباطرة بيزنطة راغبين فى الابقاء على الوحدة بين الكنائس كلها ، على أمل أن تظل سلطتهم شاملة انحاء الامبراطورية الجديدة والقديمة ، بما فى ذلك روما مقر المسيحية !

وجاء عهد جستنيان فسار الامبراطور على خطة اسلافه وقاوم طلاب الانفصال والاساقفة الشرقيين القائلين بغير ما يقول به أساقفة اوربا وبعض زملاء لهم فى افريقا . ولكن تيودورا لم تساير زوجها فى هذا المضمار . بل انضمت صراحة وجهارا للأساقفة المعارضين الشرقيين ، وأثبتت بذلك أنها تفكر تفكيرا شرقيا ، وتحتفظ بميولها الشرقية ، وتعطف على قوم شبت وكبرت بينهم ! ويغلب على الظن أن تيودورا لم تتحزب للمعارضين عن عقيدة وايمان ، لا لأنها كانت من

الناحية اللاهوتية الدينية ترى رأيهم ، بل لأنها كانت تعطف عليهم لأنهم شرقيون ، وترى انه خير لامبراطور بيزنطة أن يضحي بالوحدة مع روما ، فى سبيل الاحتفاظ بتأييد الاساقفة والرهبان فى الشرق ، وتثبيت ملكه فى بيزنطة على أساس وحدة شرقية كاملة ، لا على أساس وحدة واهيـــة بين الشرق والغرب !

وكان لتيودورا أصدقاء كثيرون من بين رجال الدين فى مصر وسورية ، وهم الذين شـجعوها وطلبوا حمايتها وتأييـدها ودفعوها على التحيز والتحزب لطلاب الانفصال . واليها يعود الفضل فى منع الامبراطور جستنيان من أن يستعمل سياسة الاضطهاد والارهاب فى سورية ومصر وأفريقا . فقد منعته من ذلك . بل حملته على أن يسن قوانين خاصة تطبق فى هــذه البلدان ، وتحول دون وقوع تصادم بين انصار العقيدتين : عقيدة يعتنقهــا الامبراطور ويؤيدها ، وعقيدة تعتنقهــا الامبراطورة وتؤيدها !

ولكن خصومها كانوا كثيرين ، وقد تمكنوا ـ برغم ما بذلته من جهود كبيرة ـ من الحاق الاذى بأصدقائها وأنصـارها الذين أيدتهم

وبقي ذلك الصراع محتدما بين الفريقين حتى بعد موت تيودورا .. ولكن الفريق الشرقى بدأ يتعثر بعد ذلك ، لان موت تيودورا كان ضربة قاصمة له . غير أن أثر الجهود التى بذلتها الامبراطورة فى سبيلهم ظلت باقية حية ملموسة .

وموقف تيودورا فى هذا الصدد هو الذى جعل الاساقفة الذين أيدتهم يواصلون نشاطهم ونضالهم خلال الاجيـــال التالية فى سبيل عقيدتهم

وأثناء ذلك الصراع العنيف الذى خاضت تيودورا غماره فى الميدان الدينى ، أقدمت الامبراطورة على أعمال على جانب عظيم من الجرأة والعنف ، فى سبيل القضية التى اعتنقتهـــا

وتريد تثبيتها . ومن ذلك ان البابا « اجابيت » مات في بيزنطة فاغتنمت تيودورا الفرصة السانحة وأرادت أن تعين في المنصب الذى خلا بوفاته أسقفا من صنائعها . فاختارت لهذا الغرض الأسقف « فيجيل » واتفقت معه على أن يخدم مصالحها وآراءها ، ونادت به « بابا » وأرسلته الى أيطاليا حيث كان بليزيروس مرابطا بجيشه !

ولكن الخطة فشلت فى بادىء الامر . لانه قبل أن يصل فيجيل الى روما ، كان الاساقفة هناك قد انتخبوا للمنصب البابوى أسقفا آخر يدعى « سلفيروس » . واحتدم النضال بين الفريقين ، وتدخل الجيش البيزنطى فى الامر ، وأرغم سلفيروس على الفرار وأجلس فيجيل على الكرسى البابوى ، وهكذا انتصرت تيودورا بقوة السلاح .. ومات سلفيروس فى المنفى سجينا معذبا !

على أن تيودورا اختلفت مع البابا « فيجيل » الذى رفعته الى منصبه بقوة السلاح والمكيدة . فاعتقلته كما اعتقلت سلفه من قبل ، وأرغمته على اتباع السياسة التى رسمتها له وقبل أن يوافيها الاجل ، كانت قد أعادت الى أصدقائها الاساقفة المنشقين بعض ما خسروا فى نضالهم ضد خصومهم فى بيزنطة والمغرب !

# الوداع الاخير !

فى التاسع والعشرين من شهر يونيو ســــنة ٥٤٨ ميلادية ماتت الامبراطورة تيودورا بمرض السرطان ، بعد أن عانت الامرين من هذا الداء العضال !

واجتمع سكان القصر المقدس رجالا ونساء ، حول جثمان الامبراطورة الراحلة ، لتوديعها الوداع الاخير ، فغصت بهم قاعات الاستقبال الكبرى على رحبتها . . ثم حنطت الجثة ، ووضعت على سرير من الذهب الخالص ، المجلل بالارجوان والدمقس والحرير . واضيئت من حولها الشموع

أن الامبراطورة ترتدي ثوب العيــد الاحمر ، وتضع على راسها التاج ، وتنتعل حذاء ارجوانيا . ولم يكن الموت قد طبع وجهها بطابعه بعد . فلون بشرتها مائل قليلا الى الشحوب. ويخيل الى الناظرين اليها انها تنام نوما هادئا كالمعتاد !

ويعلو السرير رواق نصب خصيصا لهذا الغرض ، يغطيه الارجوان ويجلله ، وتحليه الجواهر الزاهية الثمينة . وحول الرواق ، شموع تشتعل فى شمعدانات ضخمة من الفضــة والذهب . وفى فضاء القاعة الواسعة الارجاء ، يتصاعد دخان الشموع فيمتزج بدخان البخور ، ويختلط برائحة الازهار والعطور النادرة التى نثرت هنا وهناك !

وعند قدميها، ركعت الجوارى والخادمات والوصيفات باكيات نادبات . وخلفهن الخدم ورجال الحاشية يشاركونهن الندب والبكاء !

وفتحت الابواب ، فهرع سكان القصر والعاصمة لمشاهدة

امبراطورتهم للمرة الاخيرة ، فمرت صفوفهم متراصة متتالية خاشعة امام الجثة المسجاة على السرير الذهبى . وجاء البابا فيجيل ، ضيف بيزنطة وضيف الامبراطورة ، والمدين لهـا بمنصبه ، وحوله رهط من الاساقفة والراهبات . كما جاء البطريرك ميناس الاسكندرانى ومعه رجال الدين التـابعـون له ، وأعضاء مجلس الشيوخ جميعا ، بأزيائهم الزاهية الرسمية، والنبلاء ، والقضاة ، وقواد الجيش ، ورجال الحـاشيتين ، وموظفو القصر المقدس ، ورؤساء المصالح الحكومية وتابعوهم !

وكذلك جاء لتوديع الامبراطورة الراحلة كل زوجات القضاة والحكام والقناصل والقواد ، ووقفن بجانب الوصيفـات والخادمات والجوارى ، ثم مررن فى صمت وخشوع أمام جثمان المرأة التى ملأت القصر حياة ونشاطا ومرحا حقبة من الزمن

ثم جاء دور الامراء والاميرات من الاسرة المالكة ، فمشوا وراء جستنيان الامبراطور الحزين الذى كان ينهنه كالاطفال ؛ وقد شعر بأن الخطب جسيم ، وبأن خسارته فى زوجته لن تعوض ، وحمل الى المرأة التى أعجب بها فتزوجها وقدسها ، هداياه الاخيرة : حليا فاخرة نادرة ، وحجارة كريمة ، وأقمشة مزركشة بالحرير والفضة وموشاة باللآلىء ، وعددا كبيرا من التحف والقطع الفنية وأدوات الزينة والعطور والمساحيق ، وكل ماكانت تيودورا تحبه فى حياتها

ووضعت الهدايا مع جثمان الموتى فى قبورهم ، وهى عادة موروثة عن الاقدمين ، وكانت فى ذلك الوقت لا تزال متبعة عند الاسر الكبيرة فى بيزنطة

وانحنى الامبراطور وطبع قبلة على جبين الامبراطورة . ثم ضم بين ذراعيه الجثة الهامدة ، وبللها بدموعه السخينـة ، وتمتم وداعه الاخير لعزيزته تيودورا

وسمح لفريق كبير من السكان ، يمثلون الاحياء والبيئات ومختلف الصناعات ، بدخول القصر والمرور أمام الجثة ، لتحيتها

التحية الاخيرة باسم العاصمة الحزينة الواجمة

وباشارة من الامبراطور ، تقـــدم حملة النعش ورفعوا السرير الذهبى بين أيديهم . وخطا رئيس التشريفات خطوتين وقال بصوت جهورى ، مرددا ثلاث مرات :

« آخرجى من هنـــا أيتهـــا الامبراطورة ؟ فان ملك الملوك يدعوك اليه ! »

ومشى حملة النعش فى الردهات والممرات ، وتبعهم الموكب الرهيب .. وكان الشعب قد احتشد فى الخارج وملأ الميدان والشوارع المؤدية اليه ، وقد اتشح الناس جميعا بالسواد . وعلى الشرفات وفى نوافذ البيوت وفوق أسطحها ، وقف الناس واجمين يذرفون الدموع ، وقد حلت النساء شعورهن ، وراح الاطفال ينشدون الاناشيد الحزينة

وفى الشوارع ،غطيت الجدران بالستائروالسجف ، وفرشت الارض بالرمل ، ووضع الناس المباخر على الابواب واحرقـوا فيها البخور بلا انقطاع . واصطفت الجمـــوع على الجانبين ، وركع كثيرون على الارض وبأيديهم المسابح او المباخر !

وفى وسط ذلك الحشد الخـــاشع ، مر الموكب فى خطى وئيدة ، يتقدمه الرهبان وحملة الشموع والصلبان ، والمرتلون والمرتلات . وتتبعه فصائل من الجند ، ينشدون أناشيدبعضها مفهوم وبعضها بلغات غير مفهومة !

وقد اشترك الخضر والزرق معا فى موكب تشييعالامبراطورة الى مرقدها الاخير ، ونسوا فى ذلك اليوم خلافاتهم واحقادهم !. ومشى الموكب من القصر الى كنيسة الرسل ، للصـــلاة على الجثمان ودفنه فى الضريح الذى خصص له فى أقبية الكنيسة ، بين أضرحة الاباطرة السابقين !

وبعد الصلاة ، تقدم رئيس التشريفات مرة أخرى من الجثة وقال بصوته الجهورى :

« أيتها الامبراطورة ! ادخلى دار الراحة والخلد ، فان ملك

الملوك ، وسيد الاسياد ، يدعوك اليه ! »

ثم تقدم الرجل ونزع التاج الذهبى عن رأس الامبـراطورة الميتة ، ووضع مكانه عصابة من الارجوان . وحمل الجنـود النعش الذهبى ، ووضعوه فى التابوت المرمرى الذى اوصت بصنعه تيودورا فى حياتها ، وانزلوا عليه غطاءه الثقيل . وهكذا رقدت تيودورا بسلام رقدتها الاخيرة . وعاد الامبراطـور مطأطىء الرأس محنى الظهـر الى قصره ، ومن خلفه رجال الحاشية والاتباع والأصدقاء !



وظلت العاصمة تبكى وتنتحب أربعين يوما . ولكن الحزن لم يشمل جميع البيزنطيين ! فلما انتشر فى أرجاء المملكة خبر موت الامبراطورة العتيدة الداهية ، تنفس خصومها الصعداء، واستعادوا فى الحال آمالهم وثقتهم فى نفوسهم والمطامع التى وقفت تيودورا سدا منيعا فى سبيلها !

عاد جان كابادوكى الى بيزنطة ، وما مضت أيام على عودته ، حتى جعل يتبجح أمام الناس بأنه استعاد عطف الامبراطور وثقته !

وكذلك أسرع أرطبان الارمنى الى طلاق الزوجة التى فرضتها عليه الامبراطورة الراحلة ، ورأى ان الجو قد خلا له ، فراح يدبر فى الخفاء مؤامرة ضد جستنيـان ، على أمل أن ينتقم لنفسه من الزوج بعد موت الزوجة !

وخرج جرمانوس وأبناؤه من عزلتهم ، هائجين متحمسين ، على أمل أن يسترجعوا بعض مافقدوه بسبب معاملة الامبراطورة لهم !

وانطونينا ــ أنطونينا نفسها ــ الوصيفـة المحبوبة التى آثرتها تيودورا على كل من عداها من النساء . . انطونينا هذه نسيت الماضى ، واسدلت عليه ستارا كثيفا ، وجعلت تبحث عن علاقات جديدة ، ومحالفات جديدة ، لتحتفظ بنفوذها فى

القصر المقدس !

وخيل للناس جميعا ان موت الامبراطورة لابد أن تعقبه حركة رجعية تشمل الميدانين السياسى والدينى معا . وبدأ انصار الكنيسة المركزية يحرضون الامبراطور على خصومهم اصدقاء تيودورا ، لكى يقضى عليهم قضاء تاما ، قبل أن يجمعوا صفوفهم من جديد !

وتهامس رجال القصر المقدس فيما بينهم قائلين : ان الوقت قد حان لطرد الرهبان والنساك الذين جاءت بهم تيودورا واسكنتهم فى دار فسيحة داخل اسوار القصر بعد أن حولتها الى دير

وتشجع خصوم الامبراطورة ، فنصحوا جستنيان بأن يرغم الاساقفة والرهبان المعارضين على العودة الى حظيرة الكنيسة ارغاما !

على ان هؤلاء جميعا قد فاتهم أن الامبراطور ، كان يكن لتيودورا كل احترام ووفاء واخلاص حتى بعد وفاتها ، فلم يكن مستعدا لان يهدم شيئا بنته فى حياتها ، أو يخرج على ما رسمته من الخطط والنظم والقوانين !

وكانت تيودورا قبيل موتها ، قد دعت اليها الزوج الذى يعبدها ، وقالت له :

« جستنيان !. لقد احببتك واحببتنى .. وهأنذا الآن استعد للرحيل عن العالم .. فأقسم أمامى الان بأنك لن تضطهد احدا ممن حميتهم انا ، ولن تسىء الى احد ممن أحسنت اليهم أنا ، ولن تلحق ضررا بأحد ممن كنت أنا سبب سعادتهم ونجاحهم ! »

وقد أقسم الامبراطور . واعتزم احترام القسم !

لم تمت تيودورا فجأة بل بعد مرض طويل . وكانت تشعر بأن داءها عضال لايرحم . ولهذا ، فقد ادركت أن ساعتها الاخيرة تقترب فاحتاطت للأمر وافضت الى زوجها بما كان يجول

فى خاطرها من أفكار وآراء ، وفى صدرها من مخاوف وآمال

وصمم جستنيان على ان يظل وفيا لها بعد موتها ، كما كان دائما وفيا لها فى حياتها . وهذا ماحدث فعلا . فقد واصل الامبراطور تنفيذ السياسة التى وضعها بالاتفاق مع تيودورا . وفشل خصومها فىمحاولاتهم لحمله على تغيير خطته ومسلكه، اذ أغلق بابه فى وجه جان كابادوكي ولم يعد اليه شىء من نفوذه السابق ، ولم يغير رأيه فى بليزيروس برغم مساعى زوجته أنطونينا

واحتفظ جستنيان بالرجلين اللذين كانت تثق بهما ثقة عمياء وهما : برسيماس ونرسيس

وقد بقيت انطونينا وصيفة فى القصر ، لانها كانت تذكر الامبراطور بالعطف الذى شملتها به تيودورا

أما جرمانوس وأبناؤه فقد عفاعنهم الامبراطور ، ولكنه لم يسمح لهم باستعادة نفوذهم وقوتهم !

واصطفى الامبراطور من بين أفراد أسرته الشاب الذى كانت تيودورا نفسها تفضله على سواه وهو جستين ابن أخيه وزوج صوفيا ابنة أخت تيودورا ، فجعله وارثا للعرش من بعده !

ونفذ جستنيان أيضا ، فى الميدان الدينى ، تعليمات تيودورا قبل موتها . فبدل أن يطارد الاساقفة الذين حمتهم ، قربهم اليه ودعاهم الى القصر المقدس ، وحاول أن يتفاهم معهم لايجاد حل للخلافات المذهبية بالطرق السلمية ، وهذا ما طلبته منه تيودورا قبل موتها ، فقد قالت له :

ــ فى الشئون الدينية ، يجب عليك أن تسلك طريق التوفيق والتفاهم لا طريق الضغط والارهاب . فحاول أن تقنع خصومك أو حاول أن تقتنع بآراء خصومك . فهذا خير من العراك الذى لايؤدى الا الى توسيع شقة الخلاف !

وواصل الامبراطور اتصالاته ومباحثاته مع الاساقفة الراضين والناقمين على السواء ، على أمل أن يحقق رغبة

زوجته بعد موتها . ولكنه فشل . وظل الخصام مستحكما بين الطرفين . بل زاد اتساعا بعد موت جستنيان نفسه !

وهكذا لم ينس جستنيان تلك المراة الساحرة الجذابة ، والشريكة الذكية النشطة ، والامبراطورة الجريئة الحكيمة ، التى شاءت الاقدار أن تشاطره الاحزان والافراح ، وتخلد اسمه بجانب اسمها فى سجل التاريخ !

وقد احتفظ فى قصره بجميع الذين كانوا يعملون فى جناحها من الوصيفات والخدم والحراس ، وظل يلفظ اسمها ويردده فى كل مناسبة ، وكان هذا الاسم آخر كلمة نطق بها لسانه وهو على فراش الموت !

واذا أراد ان يقطع على نفسه وعدا ، أو عهداً ، أو قسما ، فباسم تيودورا كان يفعل ذلك ! وكان دائما يقول : « أن الامبراطورة الجميلة الحكيمة الطيبة ، التى حملت معى أعباء الحكم ، تصلى الآن من أجلى فى السماء ! »

وقد تكون الامبراطورة تيودورا قد اقترفت فى حياتها من الاعمال المحرمة أو السيئة مالا يتفق مع أخلاق الابرار القديسين . غير أن جستنيان كان واثقا من أن زوجته عاشت قديسة ، وماتت قديسة ، وانها احتلت مكانها ــ بعد موتها ــ بين القديسين فى جنة الخلد . وكان هذا أكبر عزاء له !

اما نحن ، فاننا نكتفى بأن نقول :

« كانت تيودورا وحيدة عصرها . عصامية صنعت مصيرها بيدها . نبتت فى بيئة مرذولة ، وارتفعت منها الى أوج المجد والسلطان ، فتربعت على أعظم عرش فى العالم . وكانت امرأة بارعة الجمال . وكانت امبراطورة عظيمة . وكانت مصلحة واسعة الافق . ولولاها لما احتل عهد جستنيان فى التاريخ ذلك المكان الذى يشغله حتى الآن ! »

ثم نقول أخيرا : « أن تيودورا ــ الممثلة المتوجة ــ جديرة حقا بأن يدون اسمها فى سجل الخالدين !

# الفهرس

# كتاب الهلال

## سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى سلسلة ثقافية كبيرة قامت بنشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ــ عبقرية محمد ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٢ ــ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج
٣ ــ هرون الرشيد ( نفد )
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين
٤ ــ أبو الشهداء ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٥ ــ جنكيز خان
سفاح الشعوب ( نفد )
تأليف ف . بان
٦ ــ قلب النسر
تأليف اوكتاف أوبرى
٧ ــ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد
٨ ــ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر
٩ ــ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد
١٠ ــ الزعيم احمد عرابى ( نفد )
تأليف عبد الرحمن الرافعى
١١ ــ بطلة كربلاء ( نفد )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
١٢ ــ أشعب أمير الطفيليين ( نفد )
تأليف توفيق الحكيم
١٣ ــ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله
١٤ ــ حديث رمضان ( نفد )
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى
١٥ ــ عبقرية خالد ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
١٦ ــ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج
١٧ ــ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور
١٨ ــ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف ( نفد )
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية ( نفد )
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد
٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل ( نفد )
٢٣ ـ مذكرات عرابى
( الجزء الاول ) ( نفد )
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٤ ـ مذكرات عرابى ( جزء ثان )
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٥ ـ عبقرية عمر ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٢٦ ـ آمنة بنت وهب ( نفد )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والاخرة
تأليف توفيق الحكيم
٢٩ ـ ابو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى
٣٠ ـ البؤساء ( نفد )
تأليف فيكتور هيجو
٣١ ـ علمتني الحياة ( نفد )
لنخبة من علماء الشرق والغرب
٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى
٣٣ ـ مدرسة المغفلين ( نفد )
تأليف توفيق الحكيم
٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
( نفد )
٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران
٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان
٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر
٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جمالى
٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم
٤٢ ـ الله ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز
٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان
٤٥ ـ نساء النبى ( نفد )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور
٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم
٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب
٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج
٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد
٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
٥٣ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الاول ) ( نفد )
٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٥٥ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الثانى )
٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم
٥٧ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الثالث )
٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
٥٩ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الرابع )
٦٠ ـ اعرف نفسك ( نفد )
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٦١ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء الخامس )
٦٢ ـ مع الله .. فى السماء ( نفد )
تأليف الدكتور احمد زكى
٦٣ ـ الف ليلة وليلة
( الجزء السادس )
٦٤ ـ قصة الثورة كاملة ( نفد )
تأليف أنور السادات
٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٦٧ ـ عبقرية الامام على ( نفد )
تأليف عباس محمود العقاد
٦٨ ـ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد
( نفد )
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ـ محمد الرسول البشر ( نفد )
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم
٧٥ ـ قصة الثورة كاملة ( نفد )
تأليف أنور السادات
٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ ـ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ـ البؤساء ( طبعة جديدة )
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم
٧٩ ـ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ـ قصة الوحدة العربية ( نفد )
تأليف أنور السادات
٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ـ عش سعيدا بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ـ سارة
بقلم عباس محمود العقاد

٨٧ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد أبو حديد
٨٨ ـ يا ولدى .. هذا عمك جمال
بقلم انور السادات
٨٩ ـ ابليس
بقلم عباس محمود العقاد
٩٠ ـ جبران خليل جبران
بقلم ميخائيل نعيمة
٩١ ـ روائع شكسبير ( الجزء الاول )
تلخيص شارل ومارى لام
٩٢ ـ سكينة بنت الحسين
بقلم الدكتورة بنت الشاطىء
٩٣ ـ روائع شكسبير ( الجزء الثانى )
تلخيص شارل ومارى لام
٩٤ ـ روائع شكسبير ( الجزء الثالث )
تلخيص شارل ومارى لام
٩٥ ـ آخر الطريق
بقلم أمينة السعيد
٩٦ ـ دروس من القرآن الكريم
للاستاذ الامام محمد عبده
٩٧ ـ حديث عيسى بن هشام
( الجزء الاول )
بقلم محمد المويلحى
٩٨ ـ حديث عيسى بن هشام
( الجزء الثانى )
بقلم محمد المويلحى
٩٩ ـ مذكرات نجيب الريحانى
بقلم نجيب الريحانى
١٠٠ ـ ليالى سطيح
تأليف حافظ ابراهيم
١٠١ ـ اعترافات شبابى
بقلم ليوتولستوى
١٠٢ ـ عجائب وأساطير
تأليف الدكتور شوقى ضيف
١٠٣ ـ المرأة فى القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
١٠٤ ـ الملك والثوار فى عربة
تأليف فتحى رضوان
١٠٥ ـ الدكتور زيفاجو ( الجزء الاول )
تأليف بوريس باسترناك
١٠٦ ـ الدكتور زيفاجو (الجزء الثانى)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٧ ـ مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هيجو
ترجمة لطفى سلطان
١٠٨ ـ الاسلام فى القرن العشرين
تأليف عباس محمود العقاد

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة ، واكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذه السلسلة

# وكلاء مجلات دار الهلال

لبنان : وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا
و
الاقليم الشمالي : صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت

العراق : السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١

البرازيل :
Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا :
Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

نيجيريا :
Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

سيراليون :
Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغافورة
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Alı ıaktab Attijari Assahargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

# هذا الكتاب

- لم تكن تيودورا من سلالة النبلاء والاشراف، ولكنها كانت من عامة الشعب . كانت ممثلة ، ثم اتيحت لها الفرصة ، واستطاعت بذكائها ودهائها ان تقتنصها ، وان تعتلى أريكة الملك ، وتصبح امبراطورة لدولة يمتد سلطانها الى آسيا وافريقا

كانت تيودورا شخصية من أعجب الشخصيات التاريخية ، وكانت امرأة موهوبة ، ذات ذكاء خارق ، ودهاء عجيب ، وارادة حديدية . فكانت تفرض سلطانها على القريب والبعيد ، وعلى خارج بلادها

وليست هى قصة امرأة بارعة فى جمالها وفى قدرتها الفذة ، بل هى تاريخ أمة ، وتاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية بتقاليدها وعاداتها فى حقبة دقيقة من تاريخها الطويل ، فليس هذا الكتاب قصة خيالية ، بل هو قصة تاريخية واقعية رائعة استطاع مؤلفها ان يجمع دقائقها التاريخية من مختلف المراجع ، وقام بترجمتها ترجمة شائقة الاستاذ الكبير حبيب جاماتى

# كتاب الهلال

١١٠



# وثبة الإسلام

## ابراهيم المصرى

# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١١٠ ـ ذو القعدة ١٣٧٩ ـ مايو ١٩٦٠

No. 110 — May 1960

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ـ فى الامريكتين ٥½ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

# وثبة الاسلام

## وقصص مختارة فى الجهاد والوطنية

---

بقلم

ابراهيم المصرى

---

# الإهداء

الى الشباب العربى

المتطلع الى العظائم ، الطامح الى مثل عليا فى الوطنية والجهاد ، وفى شتى ظواهر التفوق الفكرى والعاطفى والخلقى الجديرة بأن يعيش من اجلها الانسان •

أهدى كتابى هذا

ابراهيم المصرى

# العرب

# وثبة الإسلام

« كانت نفوس المسلمين بريئة ، وقلوبهم طاهرة ، وعزائمهم ماضية ، وايمانهم خالصا لوجه الله ، عندما اعتزموا فى عهد الوليد بن عبد الملك فتح بلاد الهند . وهذه القصة تمثل بطولتهم فى الجهاد ، وشرفهم فى القتال ، وترفقهم بالنساء والشيوخ والاطفال ، وحرصهم الشديد على العدل ، ودعائهم فى النخوة والشهامة والحب الى أبعد حدود البذل والتضحية . »

كانت الريح تزأر ، والامطار تهطل ، والسماء ملبدة بالسحب ، والمدينة كلها سابحة فى جوف العاصفة ، كأنما هى توشك ان تستحيل الى كرة هائلة مقضى عليها بأن تتقاذفها الزوابع وتهددها الاعاصير ..

وكانت المعابد وحدها مفتوحة ، تتلألأ انوارها فى الظلمة الحالكة ، وتتصاعد من اعماقها فى الآونة بعد الاخرى صرخات الشيوخ ، وابتهالات الكهنة ، وتراتيل العذارى اللاتى وهبن انفسهن لخدمة الآلهة وانقطعن للعبادة فى الهياكل مدى الحياة

وكان « بانيان » المهراجا الاعظم ، حاكم ولايات السند الهندية ، قد أصدر امره بأن تظل المعابد مفتوحة ليل نهار ، وان تقام فيها الصلوات على نغمات الموسيقى ، وان تنحر فى ابهائها الذبائح وتقدم القرابين ، عسى ان ترحم الآلهة شعب الهند ، وتقيه ويلات الغزو ، وتصب فى عروق ابنائه دما جديدا ، يثير هممهم ، ويستنهض عزائمهم ، ويدفعهم الى المقاومة والمجالدة والكفاح

ففى تلك الليلة التى اضطرم فيها غضب الطبيعة ، وأطبقت السماء على الارض مسلطة عناصرها الجارفة على كل شيء حى ،

كان المعبد الاكبر غاصا بالجماهير ، يختلج حركة وضجـــة وصخبا وحياة

فالطبول كانت تدق دقات عميقة رهيبة ، وآلات الموسيقى كانت ترسل الحانا مبتهلة مستغيثة ، وارهاط العذارى كانت تنثر الورود امام الهيكل ، وتنشد فى حرارة وحماسة نشـيد الانقاذ !

وكانت قد أقيمت فى رحبة الهيكل ثلاثة تماثيل : الاول تمثال الاله « براهما » وهو فى زعمهم سيد الكون ، والثاني تمثال الاله « فيشنو » الذى انحدر منه ، والذى يمثل قوة المحافظة على الحياة ، والثالث تمثال الاله « سيفا » الذى انحدر من براهما ايضا ، والذى يرمز الى قوة الشر المهلكة

وفوق التماثيل الثلاثة ، وعلى بعد كبير منها ، كان ينهض تمثال « هندرا » ملك الآلهة ، الذى طالما اعتقد الهنود اذ ذاك ان له الف عين متفرقة فى أعضائه يبصر بها كل شىء ، وهو راكب على فيله الكبير ، وممســـك باثنتين من ايديه الاربع سلاحه ، وواضع على كتفيه قوسه ، ومتقدم لمقاتلة اعدائه ..

فتجاه هذه الآلهة الاربعة ، كانت الطبول تدق ، والموسيقى تعزف ، والعذارى يبتهلن وينشدن ، و « مالينى » بنت المهراجا الاعظم جاثية امام الهيكل مبسوطة الذراعين ، مشرئبة الى ملك الآلهة ( هندرا ) تصلى وتتضرع فى صوت جهير ، وفى عبارات مشبوبة متوسلة

ونهضت مالينى بعد لحظة ورفعت ذراعها الى السماء وقالت وصوتها يتهدج ، وصمت الجماهير يرفرف عليها كاجنحة طائر غير منظور :

ـ ايتها الآلهة الرحيمة . ياهندرا المتيقظ الفطن الذى يلمح كل شىء ، ويا براهمـــا المجيد العظيم الذى نفخ الحركة فى الجماد ، ويا فيشنو الرائع الخالد الذى اوحى الى البشر قيمة

الحياة ، وياسيفا المتجبر المتسلط الذى يقف بالمرصاد لكل دنس وشر • ايتها الآلهة الرحيمة اغيثينا واهبطى علينا من سماء مجدك وانقذينا ! ••

فرددت الجماهير فى شبه اعوال :

ـ انقذينا ! •• انقذينا ! •

وصرخت مالينى :

ـ انقذينا من انفسنا ! •• انقذينا من خوفنا ومن جبننا ومن تواكلنا ! •• القوة ايتها الآلهة • امنحينا القوة والبأس والشجاعة والاقدام، والصبر والاحتمال ،والثبات والتحدى !••

واستدارت مالينى فى لفتة خاطفة كومضة البرق ، وواجهت الجماهير وصاحت :

ـ لقد ضاقت الآلهة ذرعا بنا • فلنكف عن السجود امامها وان كنا نعبدها • يجب ان نقف • يجب ان ننهض • فانهضوا جميعا ! •• احملوا سلاحكم ، وضموا صفوفكم وتأهبوا !

واردفت فى صرخة كأنها ضربة سيف :

ـ الخطر يتربص ، والعدو يتحفز ، والغزو يتقدم والمسلمون بالباب ! ••

فتعالت صيحات الجماهير :

ـ المسلمون ! •• المسلمون ! •

فاستطردت مالينى وهى تزفر :

ـ عادوا مرة اخرى ! •• انهم يدمرون الاصنام ، ويحطمون الاوثان ، ويستهزئون بالآلهة ، ويزعمون ان فردية عاتية هى التى صنعت هذا العالم ! ••

فضجت الجماهير مستنكرة وهددت :

ـ ويل للمجدفين ! ••

فاهابت بهم مالينى :

ـ بل الويل لكم انتم لوتراجعتم ، واستخذيتم ، وقبعتم

فى دوركم أو فى معابدكم ، متوسلين متضرعين خائرين ! ..
ان اجـــل راحتـــكم قد انتهى ! .. ان اجـــل راحتـــكم لن يتجاوز اياما معدودة ! .. بعد اســـبوع . بعد أســـبوع واحد يصل جيش المسلمين الى هنا ! ...

فاجفلت الجماهير ووجمت . فلم تمهلها مالينى ، وصاحت :

ــ حسبكم صلاة وانشدوا نشيد الانقاذ فقط ! ..

فعادت الجمــاهير تنشد وقد التهب عزمهـــا ، واتقـــدت حماستها ، وخالط صرخاتها زئير الريح وانصباب المطر وهدير العاصفة

وعندئذ ، وفى غمرة الاضطراب النفسانى الشامل الذى كان يكمن فى اعماق النفوس ، ويبرز فى تشـــوش انغـــام النشيد ، حانت من مالينى التفاتة ، فأبصرت من فرجة أحد ابواب المعبد فارسا ينهب الارض بجواده ، ويسرع الى المدينة وكأنه مطارد ملهوف . فوثب قلبها فى صـــدرها ، واندفعت صوب الباب ، وجعلت تلوح بذراعها ، وتصرخ :

ــ قف ! .. قف ياميترا ! .

فترجل الفارس ، وربط جواده الى جذع شـــجرة ،ودخل المعبد منهوكا وهو يلهث ..

ولم يستطع أن يتكلم ، فأسعفوه بكوب ماء فاجترعه دفعـــة واحدة ثم القى بنفسه على مقعد ، وطفق يجيل البصر حـــوله كمذهول ..

ودنت منه مالينى ، وحدقت فيه وهتفت :

ــ ماوراءك ياميترا ، وعما أسفرت رحلتك ؟

فاختلج الرجل وصمت . ثم استجمع قواه وقال فى صوت غائر وهو يرتعد :

ــ اصبح جيش المسلمين على مسافة يومين من هنا ! .. لقد ابادوا الفرق الثلاث التى ارسلها الحاكم . وهم يتقدمون

كالسيل الجارف ويهددون العاصمة !

فصاحت ملينى :

ـ وماذا فعلوا بالقائد نارسا ؟

فاجاب الفرس :

ـ أخذوه اسيرا ، وطافوا به فى الشوارع وهو مكبل بالاغلال !

وطفر الدمع من عينى الرجل بالرغم منه ، واجهش بالبكاء. فثارت ثائرة ملينى ، وارتمت بين الجماهير فى وسط المعبد ، وقالت بأعلى صوتها وهى تتقدم جمعهم الزاخر المأخوذ :

ـ اتبعونى ! سأوقظ والدى ! سأحمل اليه النبأ ! وسيفتح لكم منذ الساعة ابواب الترسانة الكبيرة ويوزع عليكم السلاح !

واندفعت كمعتوهة ، وتبعتها الجماهير المائجة ، وانطلق الموكب تحت انصباب المطر ، يجأر ويتوعد ، ويهتف للحاكم ويطلب السلاح

ولما بلغ الموكب رحبة القصر ، وثبت مالينى ، واقتادت الفارس ، وصعدت به الى الطابق الاعلى حيث يقيم والدها

وفى مثل لمح الطرف ، برزت كتيبة من حرس الحاكم ، واتجهت الى الترسانة الكبيرة المجاورة للقصر ، وفتحت ابوابها، وشرعت توزع السلاح على الجماهير

وتملكت الجماهير نشوة مخبولة . فمضت تصرخ وتهتف وتتوعد ، مشرئبة الاعناق صوب مالينى ، التى سرعان ما ظهرت فى شرفة القصر ، وصاحت تخاطب الجماهير :

ـ ان واجب الجيش النظامى هو الدفاع عن مواقعه . أما واجبكم انتم فهو الدفاع عن كل شبر من ارضكم فيما لو انهزم الجيش ووطئت قدم العدو ارض المدينة !

فكروا فى مصيركم وتأهبوا ! وليثق كل فرد منكم ان الاسرة

الحاكمة بجواركم وانها لن تتخلى عنكم ابدا ! عودوا الآن الى بيوتكم • وسيشهد الشعب كله جهادنا ابتداء من صباح الغد!

فهللت الجماهير ،وشرعت تنشد نشيد الحرب ، وهى تتفرق وتتبدد تحت هبوب الريح ، وقصف الرعد ، وانصباب المطر



وكانت مالينى قد طلبت الى والدها ان يظهر فى صحبتها أمام الشعب ، ولكنه كان منهمكا فى التحدث مع الفارس ميترا، يستفسره عن حقيقة ما حدث ، ويحاول ان ينتزع منه سر هزيمة الفرق الثلاث التى كان قد ارسلها لمقاتلة المسلمين

فلما أوصدت مالينى باب الشرفة ، ودخلت مخدع والدها ، ابصرته جالسا بجوار الفارس ميترا ، محنى الظهر ، متساقط الرأس ، متداعى البدن • وابصرت الفارس مطرقا أيضا ، يمسح دموعه بكم ردائه ، ويحاول ما استطاع أن يشيح بوجهه كى لاتقع عيناه على عينى الحاكم ••

واسترابت مالينى من هذا المظهر ، وساورتها الشكوك فأهابت بوالدها :

ـ ما معنى هذا الصمت ، ولماذا أنت واجم ؟

فرفع اليها الحاكم عينيه ، وثبت نظره فيها ولم يجب • فقطبت حاجبيها مستنكرة وقالت :

ـ ولكني اجاهد أنا أيضا كما تجاهدون • ولقد قضيت فى المعبد أربعة أيام بلياليها أحث الشعب على المقاومة والكفاح فمن حقى اذن أن أشارككم فى العمل ، ومن حقى أن أعرف كل شيء ••• فتكلموا ! أجيبونى ! ما سر هذا الصمت ؟ أينقصنا السلاح ؟ الم يقاتل جيشنا ببسالة أم ان احدا من رجالنا قد خان العهد وغدر بنا ؟ تكلموا ..

فهب الحاكم واقفا وقال لابنته وهو يحدق فيها ويرتجف :

ـ لم يستطع المسلمون سحق الجيش الثالث الا لان رجـلا، رجلا عظيما ، رجلا منا ، من خالص دمنا ومن صميم أسرتنا ، باعنا لهم ، وأرشدهم الى خطة قائدنا !

فصرخت مالينى :

ـ ومن هذا الرجل ؟ واين هو ؟

فقال الحاكم فى هدوء مروع :

ـ انه هنا ! إنه معنا ! انه ابن أخى ! خطيبـــك وحبيبك « يوما » !!

فجحظت عينا الفتاة وغمغمت :

ـ هو ؟ أممكن هذا ؟ محال !

فصاح الحاكم بالفارس المطرق :

ـ تكلم ياميترا ولا تخف

فقـــال الرجل وهو لا يعرف كيف ينطق كما لو كان هو المجرم :

ـ لما انطلقت لاســـتكشف مواقع العـــدو ، انبطحت على الارض ،وطفقت أزحف حتى بلغت الخطـــوط الاماميـــة . وقبل ان أصل اليها سمعت انينا طويلا ينبعث من خلف شجرة باسقة ، فاتجهت نحوها ، فاصطدمت ذراعاى بجسم رجل جريح . فتبينته فاذا به الضابط « كوبو » !قرب المقربين الى قائدنا الذى أسره المسلمون . ولما عرفنى بكى بكـــاء يفتت الاكباد . بكى من فرط النـــدم واعترف . اعترف لى بأن خطيبك الامير « يوما » هو الذى أوعز اليه بأن يفشى خطـــة القائد للعدو ، ابتغاء عقد صلح مع المسلمين ، يســـفر عن تنصيب الامير يوما حاكما على البلاد بدلا من حاكمها الشرعى وقد فطن القائد الى المكيدة بعد فوات الوقت . فثأر من الضابط بأن طعنه بخنجره متعمدا قتله ، ولكن قوات العـــدو هجمت فى تلك اللحظة ، فاندحر جيشنا ، وأسر القائد ، وظل

الضابط ملقى على الارض تعـــذبه جراحـــه ويفترسه وخز الضمير ! ولقد روعنى ما سمعت ، فعدت الى جوادى الذى كنت قد عهدت بحراسته الى احد القـرويين ، وامتطيتـــه ، وأسرعت الى هنا !

وصمت الفارس وهو يرتجف . فقالت مالينى وهى تعض على شفتيها :

ـ ألهذا بكيت فى المعبد ولهذا تبكى هنا ؟

وتحولت صوب والدها واردفت وعيناها تلمعان :

ـ كيف يمكنك أن تقاوم فى غد عدوك ، بينما الخائن يعيش فى دارك ؟

فصاح الحاكم :

ـ الخائن هو خطيبك !

فقالت مالينى :

ـ وهو ابن أخيك ايضا ! فاذا كنت متأهبا للتضحية بأعز أفراد أسرتك ، فأنا كذلك متأهبة للتضحية بالرجل الذى خان عهدى ما دام قد خان أهلى وبلادى !

فاضطرب الامير وقال :

ـ ليحاكم اذن صباح الغد

فصرخت مالينى :

ـ الخائن لا يحاكم بل يقتل ! ولا بد أن يقتل الساعة والا فاتت بقية الوقت !

وصعدت بصرها فى والدها • فألفته ساهما شـــاردا • فثارت ثورتها وقالت :

ـ كيف يمكن ان تعد العدة للدفاع عن المدينة وهذا الرجل هنا ؟ سيتقدم المسلمون ويصبحون تجاه اســوارنا • وعنــدئذ تبرز صنائع الخائن فتطعننـــا فى ظهـــورنا ! يجب •• يجب القضاء عليه ، والا قضينا على أنفسنا !

وأهابت بالفارس وهى ترعد :
ــ اتبعنى يا ميترا ...
فصاح الحاكم :
ــ الى اين ؟
فقالت فى سكون العزم والاصرار :
ــ الى حيث يرقد الامير يوما !
فحملق فيها والدها مستهولا ، ولكنها مشت ، وتبعها الفارس ، وظل الحاكم فى مكانه يشخص اليها ويرتعش ..
ولما اجتازت فناء القصر ، واقتحمت الجناح البعيد الذى يسكنه الامير يوما ، عرجت على غرفة قصية أقيم فيها شبه هيكل صغير للاله هندرا ، وجثت أمام تمثاله وصلت ، ثم مست بأصابعها يده الرابعة التى تحمل اناء التطهر ، ثم نهضت ، واتجهت بخطى ثابتة نحو مخدع الامير يوما
وكان الامير مستغرقا فى سباته ، يغط فى نومه تارة ويبتسم لأحلامه أخرى ، فدنت منه مالينى ، وانحنت عليه وتفرست .
لم تتفرس فى عينيه اللتين كانتا تعبدانها ، ولا فى ابتسامته التى كانت تشرق كلما رآها ، بل تفرست فى الفرجة البيضاء الماثلة فى صدره ، ثم اختطفت خنجر الفارس واغمدته فى الصدر وهى تضم أسنانها كى لا ترتجف ..
وانتزعت الخنجر بنفس القوة التى اغمدته بها ، ثم هرعت الى والدها وقالت فى هدوء وهى تلقى أمامه بالسكين الدامية :
ــ لم تجسر على قتل ابن أخيك ، ولكننى قتلت ابن عمى وخطيبى ! فى وسعك الآن ان تطمئن وتنصرف الى العمل !
وكرت راجعة الى الهيكل الصغير ، ومست بأناملها اناء التطهر ، ثم جثت امام تمثال الاله ، وشرعت تصلى .. !



وكانت جيوش المسلمين قد حاولت غزو الهند مرة فلم

توفق . فعادت الى غزوها فى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك

ففي ذلك العهد جهز الوليد جيشا من ستة آلاف مقاتل ، وبعث به الى الهند تحت امرة قائد شاب يدعى محمد قاسم

وكان هذا القائد على صغر سنه ، مشهورا برجاحة العقل واصالة الراى ، وسعة الحيلة ، وحسن التدبير والجمـــال الخارق . فأساليبه الماهرة فى استدراج العدو ، واضـعاف شوكته ، والقاء الذعر فى صفوفه منذ الهجمات الاولى ، كانت موضع اعجاب رجاله ، ومثار الحديث فى دمشق كلها

ولقـد تمكن بفضـل بسالته ومهارته وشـجاعة رجاله واستماتتهم فى القتال ، من أن يحرز النصر تلو النصر ، وأن يستولى على معظم ولايات السند ، ويهدد مدينة حيدر أباد حيث يقيم الحاكم

والحق أن المسلمين كانوا اذ ذاك فى مطالع الجهاد وفى نضرة الحيوية . فنفوسهم كانت بريئة ، وقلوبهم طاهرة ، وعزائمهم ماضية ، وايمانهم الرائع الجديد يضفى على أبسط وأبأس فرد منهم حلة فاتنة من العظمة الاصيلة ، وضوءا ســاحرا من البطولة الفـذة التى تهزأ بالموت لانهـا تعرف كيف تهزأ بالحياة

لم تكن قد اثرت فيهم أخلاق الامم الغريبة الدخيلة ، ولم تكن قد بهرتهم بعد مفاتن الترف ، وباعدت بينهم وبين روح الفطرة الخالصة ، وحافز العقيدة الاولى . فلما اعتزموا غزو الهنـد ، نفروا الى الجهاد فى حماسة المؤمن الصادق الذى يريد أن يقيم على هذه الارض مملـكة الله . فدوخوا جيش العدو ، واحتلوا بلاده ، وأسروا قائده ، واتجهوا صوب مدينة حيدر اباد المحصنة العظيمة ، يهددونها بالحيلة تارة وبالسيف أخـرى ، عسى أن تسـقط فى أيديهم فتتوج نصرهم بمجد لا يمحى

وكان قائدهم الشاب محمد قاسم ، يلهب عزائمهم بصدق ايمانه ، ويستفز حميتهم بحسن تدبيره ، ويثير اعجابهم بحياته البسيطة ، ونزاهته العميقة ، وجماله الفتان

والواقع انه كان جميلا بقدر ما كان شجاعا . فوجهه الاسمر البيضاوى كان منسجم التقاطيع فى عزة ، دقيق القسمات فى هيبة ، مشرق المطلع فى براءة دونها براءة العذارى . وكان صارما فى تعقل ، قاسيا فى حكمة ، عادلا فى رحمة ، محبا الفقراء ، عزوفا عن الفحشاء ، مسلما بالفكر والعمل لا بالقول والمظهر

وكان ابغض الاشياء الى نفسه عصيان امر الخليفة فيما يتعلق بالنساء . وهذا الامر كان صريحا وقاطعا . فكل جندى مسلم كان ملزما بالترفق مع المرأة التى تقع فى قبضته . فاذا نكل بها حوكم وعوقب ، واذا استباحها عنوة وكانت ملكة او أميرة او من بيت رفيع قضى عليه بالموت . اما اذا تزوجها فشرط العلاقة أن يعولها هى وأبناءها بعد أن تكون قد اعتنقت الاسلام

وهكذا كان الجيش يترفق بالنساء ما استطاع ، ويرأف بالاولاد ، ويبقى على الشيوخ ، ويتخذ من امر خليفته الحازم ، ومن مسلك قائده الصارم ، واجبا وقدوة

فلما سقطت معظم ولايات الهند ، واقترب الجيش من مدينة حيدر اباد ، وأسر القائد الهندى ، وتم التفاهم بين محمد قاسم وبين الضابط « كوبو » على أن يشق الامير « يوما » عصا الطاعة على الحاكم ، وأن يستعين بانصاره على خلعه وتسليم المدينة الى جيش المسلمين ، لما حدث كل هذا اطمأن محمد قاسم بعض الشىء . ولكنه حشد مع ذلك قواته ونظمها ، متأهبا كل التأهب لما يمكن ان يقع من طوارىء ، واتجه بالجيش نحو أسوار المدينة

وكان الحاكم بعد أن تخلص من الامير يوما على يد مالينى ، اسرع وقضى على أنصار خصمه ثم جهز جيشه هو الآخر وبعث امام الاسوار بخمسين الف مقاتل تولى قيادتهم بنفسه

واستفاق المسلمون ذات صباح ، واذا بهم حيال جيش جرار يربى عدده على عددهم ، فبهت محمد قاسم وادرك أن الحيلة لم تعد تجدى ، فتهيأ لدخول المعركة

ولكى تلهب مالينى روح الحماسة فى صدور الهنود وتلقى الذعر فى أفئدة القوات المهاجمة ، أشارت على والدها بأن يقطع رأس الامير يوما وأن يلقى به من فوق الاسوار على جيش المسلمين

فلما ابصر محمد قاسم رأس الامير استشاط غضبا ، وجمع رجاله على الفور ملهبا عزائمهم ، ثم وقف فيهم خطيبا ، وقال :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم ، أدعوكم الى قهر الشرك ، ونصرة الحق ، واعلاء كلمة الدين ! فهبوا الى الجهاد جذلين مستبسلين ، وقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون واذا كتب النصر لكم ، فاياكم والاستبداد بالضعيف . أنتم مؤمنون ، والكفرة هم المستبدون

كونوا أقوياء ورحماء . فالقوى الذى تجاوز ضرباته الهدف يشبه الضعيف الذى لن يصيب قط أى هدف

كونوا متآزرين متساندين ، بنيانا شاهقا مرصوصا يشد بعضه بعضا . واعلموا أن كل هزيمة مصدرها التردد ، وأن شر ما يمكن أن يصيب الانسان هو أن ينقسم على نفسه

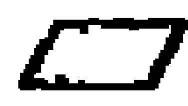
كونوا مطمئنين متفائلين ، فالمستقبل أبدى الخصب ، عامر البطن بالنزوات ، قد يلد فى أية لحظة كل عجيبة . فلا تيأسوا من المستقبل حتى ولو فقدتم فى ليلة حالكة آخر نجمة كانت تتعلق بها عيونكم

كونوا أعزاء متعففين ، فاللذات تنهك الانســان أكثر من الفقر

اصبروا على أعدائكم ، فنور اسلامكم لابد أن يشرق عليهم . ولسوف يقهرهم الزمن ويوقظهم . فالزمن يشبه الصدأ كما يشبه النار . وهو كالصدأ يهرأ الباطل وهو كالنار يصهر الحق

لا ترهبوا الموت فالموت يلد الحياة ، وكل خطر ينذر بموت انما هو بشير بفرج فى الدنيا أو بعث فى الآخرة مكفول الثواب

فباسم الله جاهدوا وتقدموا . و« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » !



وانقض المسلمون وبدأت المعركة

وكان القتال بالسيف والرمح والنبال . فتفوق الهنــود اول الامر وزحزحوا المسلمين عن مواقعهم . ولـكن محمد قاسم الذى كان يقاتل وسط رجاله كالاسد ، أصــدر أمره الى الجنود بالتقهقر ، فتراجعوا . فجمع شملهم ، وضــم صفوفهم ، وقسمهم الى خمس فرق ، ركز اثنتين منها تجاه أضعف أجنحة جيش الحاكم ثم حمل بهما فى هجوم مفاجىء ، فانهار جناح العدو الايسر . فأصــــدر محمــد قاسم أمره بالهجوم العــام قبل أن يسرع الحاكم بارسال النجــدة الى جيشه المنهزم

ودب الاضطراب فى صــفوف الهنــود ، وانتشرت بينهم الفوضى . فتراجعوا مذعورين وجيش المسلمين يطاردهم ، حتى بلغوا أسوار المدينــة ، ففتحــوا أبوابها ودخـلوا ، ثم أوصدوها خلفهم ، ثم تسلقوا أســوارها ، وشرعوا يقاتلون الجيش الظافر برشق النبال

وبدأ حصار مروع هائل . فالقوات المهاجمة كانت تحاول تسلق الاسوار ، فتقابل بوابل من النبال والحجارة والرمل

والزيت المغلي ، والقوات المدافعة كانت تستبسل فى القتال ولكن الذخيرة كانت تنفد منها شيئا فشيئا ، وتلقى بها فى ظلمة اليأس أمام القدر المحتوم

وشاء الحاكم أن يضرم نار الامل والبأس فى صفوف رجاله ، فتسلق الاسوار بنفسه ذات صباح ، وقاتل فى المقدمة ساعة كاملة ، ولكن نبلا أصابه فسقط صريعا مضرجا بدمه وسط هتاف المسلمين

بيد ان هذا الحادث لم يفت فى عضد الهنود ، فأسرعت مالينى ، وتولت هى قيادة الجيش ، ونظمت توزيع الاغذية على الجنود والشعب ، واستأنفت المعركة فى صلابة المرأة التى تزين لها كبرياؤها أن الاقدام الجنونى هو الحكمة ، وأن فى وسع العناد الاعمى أن يتفوق على كل شىء

وكان من أثر ذلك أن انتشر الجوع فى المدينة ، وفشت الامراض ، وتفاقم الذعر ، ويئس بعض أفراد الشعب من سلامتهم ، فودعوا نساءهم وأولادهم ثم أحرقوهم بالنار خوفا من وقوعهم فرائس للمرض والجوع

عندئذ جن جنون مالينى . استشعرت الهزيمة الماحقة ، والنهاية الفاجعة ، والاسر ، والذل والتشرد ، والعذاب . فأشفقت على قومها ، واشفقت على نفسها ، وغلى فى صدرها مرجل الكبر والحقد والكراهية . فقدحت زناد فكرها ، وأهابت بدهاء جنسها ، وفكرت فى الاقدام على عمل خارق فذ رهيب ...

واقشعر بدنها لمجرد تصورها ما سوف يكون . ثار اشمئزازها ، وتأبت أنوثتها ، وتمردت أعضاؤها وأحشاؤها وكل ما فيها من شباب وفتنة لم تعبث بهما يد انسان . ولكنها كبحت جماح كبريائها ، وخنقت فى أطواء جسمها صرخة نفورها ، وعزمت ... عزمت آخر الامر أن تعتمد

على شخصها ، وعلى دهائهـا ومكرها وروعة حسنها ، وأن تذهب فى جراة وبسالة ومغامرة وتضحية ، فتواجه البطل محمد قاسم بنفسها ! . .

وملكتها الفكرة واحتواها العزم . فلم تتردد ، وأسندت القيادة الى أحد الضباط ، ثم بعثت من فورها الى محمد قاسم جنديا يحمل راية بيضاء ، أبلغه ان القائد العام يطلب هدنة ، وأن رسول القائد فى طريقه الى معسكر المسلمين . . .



وكان الوقت ليلا عندما طرح الهنود السلم الخشبى من فوق الاسوار ، وهبطت مالينى درجاته ونزلت الى معسكر العدو

وكانت ترتدى ثوبا أسود يجللها من قمة الرأس الى أخمص القدم ، كما كانت تستر وجههـا بنقاب أسود مستطيل ، وتحمل فى يدها زهرة سوداء أيضا قيل لها انها تجلب الحظ وتصرف الروح الشريرة . . .

وكانت الخيام منصوبة ههنا وهناك ، والجيش العربى راقد ، والسكينة سائدة ، والريح تصفر الآونة بعد الاخرى ، فتهز الاطناب ، وتبعث فى أعماق النفس شعورا غامرا بالخوف والرهبة

وكان القائد المسلم قد أوصى تابعه باستقبال الرسول . فلما هبطت مالينى الى الارض ، دنا منها الرجل ، وأشار اليها فتبعته بخطى وئيدة ، وقلبها يخفق ، وأنفاسها من فرط جهد التمالك والكبح تتعاقب وتكاد تخنقها

وكانت قد جرت العادة فى تلك الحرب ، بأن تحترم الرسل وتقدس اشخاصها ، وتمنح الأمن الكامل والثقة المتبادلة ، فلا تمتهن ، ولا تفتش ، ولا تلقى على تصرفاتهـا اية مظنـة من الريب

وهكذا لم يستغرب التابع مظهر مالينى ولم يطل التحديق اليها ، بل قادها الى خيمة القائد ، ثم تنحى وانصرف

ورفعت مالينى ستار الخيمة فى رفق ودخلت . وما كادت تدخل حتى تراجعت وصمدت وفغرت فاها كبلهاء . .

ابصرت شبه حجرة عارية ، عارية من كل زخرف . فى زاوية منها مقعد صغير ينهض تجاه منضدة ، وفى زاوية اخرى اناء واسع وكوز ماء ، وعلى الارض حصيرة مستطيلة فرشت عليها حشية تعلوها وسادة واحدة ، طرحت فوق قطعة كبيرة من الخشب

وكان محمد قاسم متربعا على الحشية ، موليا وجهه شطر الباب ، يعبث بمسبحته الكهرمانية وينتظر

فلما دخلت مالينى ، لم يتحرك ، بل نظر اليها ، ثم انعم النظر فيها ، ثم هب واقفا ، وقد تخطفه ضوء المصباح الخافت المعلق فى وسط الخيمة ، فأبرز جماله الخارق ، وأحاله الى شبه ملك يسبح فى أمواج متراقصة من نور . . .

وقال مقطبا حاجبيه :

ــ امرأة ؟

فانتفضت مالينى ، وأجابت فى صوت ناعم رقيق ، وفى عبارة عربية سليمة :

ــ انا رسول قومى اليك .. وأهل بلادى عندما يقدرون بطلا من الابطال يخرجون لاستقباله وعلى رأسهم امرأة !

فبهت محمد قاسم وقال :

ــ تتكلمين العربية ؟ ولكن من . . . من علمك لساننا ؟

فأجابت وصوتها الناعم الحار يفعم الجو حولها بالعبير كأنه ينبعث من قلب وردة :

ــ تعلمته على يد فارس من فرسانكم اسره جدى أبان غزوتكم الاولى ــ ولقد توقعت بلادى عودتكم فنشط البعض

من أهلها الى تعلم لسانكم رغبة فى اقتباس أحدث فنون السياسة والحرب منكم . فلا تدهش ايها القائد ، واعلم ان الهندى يعرف كيف يعجب ويقدر ، كما يعرف كيف يقاتل ويموت !

فصاح محمد قاسم وقد راعته فصاحة الرسول وارابته :

ـ اسفرى عن وجهك أيتها المراة !

فتقدمت مالينى الى وسط الخيمة ، ووقفت تحت المصباح ثم رفعت يدها ، ونزعت نقابها الاسود المستطيل

واندفق النور الى وجهها ، فتطلع اليها القائد وجمد ... كانت جبهتها ناصعة كصفحة المرمر ، وعيناها متألقتين كحجرين كريمين، واهدابها رفافة كالاجنحة ، وانفها معتزا كحد السيف، وفمها ناتئا قرمزيا كثمرة ناضجة ، يثير الرغبة فيها طابع حسن جاثم فى عمق الذقن كما يجثم الحب فى شغاف القلب وفى لب الحياة ...

ونظر اليها القائد وأخذ ، فنظرت اليه بدورها ، وتأملته فى ضوء المصباح ، ودبت رعدة فى أوصالها ..

لم تستطع وهى تخالسه النظر أن تنطق . فطلعته المشرقة البريئة فتنتها ، وهيبته الواثقة المعتزة سحرتها ، وصفاء تقاطيعه الدقيقة المنسجمة راعها وروعها . فمضت تحدق اليه ، وتقارن على الرغم منها بين جماله وجمال الاله براهما .

وسادت فترة صمت . وظل كلاهما تائها فى الآخر شبه مأخوذ ...

وفجأة لوح محمد قاسم بذراعه كأنه يطرد طيفا يلاحقه ، وصرخ :

ـ من أنت يا امرأة ، وما رسالتك ؟ تكلمى ..

فصوبت اليه من خلال أهدابها الرفافة نظرة فاحصة وقالت وهى تتباعد عنه :

ـ أنا بنت الحاكم الذى قتلتموه . وقد جئت اليك التمس

منك الرحمة لبلادى !

فزوى القائد ما بين حاجبيه ، وقال فى لهجة باترة :

ــ اما التسليم واما مواصلة الحصار . هذا كل ما عندى !

فدنت منه ، ورنت اليه ، ثم أمالت راسهـا على كتفها ، وقالت وهى تموج صوتها الرخيم كما يموج الهواء اللحن البعيد الشجى :

ــ وما قيمة فتح المدن والامصار ، والتهالك على مجـد دنيوى باطل ؟ اليس التمتع بنعيم الحياة فى بحبوحة السلم خيرا من الظفر بالمجد تحت ظلال السيوف ؟

فهتف محمد قاسم :

ــ الجنة تحت ظلال السيوف . ونحن لم نغز بلادكم الا رحمة بكم وهداية لكم ، وبعثا سرمديا خالدا فى رحاب الجنة لكل من يؤمن منكم ؟ فأفيقوا من غشيتكم وتأملوا . . ان عبادة الاصنام اهاكتكم ، والخرافات ختمت على ابصاركم ، واستبداد الجشعين المتسلطين من زعمائكم أحال شعبكم الى قطيع من السائمة ، يفتك به الجهل والمرض والجوع ! بأى حق يستعبد امراؤكم سواد الشعب ؟ باى حق يستحل مهراجاتكم عـرق الفقير ؟ باى حق يجيز المجتمع عندكم زواج الطفـلة التى لم تشب عن الطوق ، وحرق الارملة المسكينة التى لا جريرة لها ولا ذنب ؟ انها الهمجية يفرضها عليكم المغرضون من سادتكم ليجعلوا منكم أمة من العميان ! ولقد جئناكم بالهدى فاهتدوا ، نقر السيف فى غمده ، ونصبح اخوة نستطرد الجهاد سـويا فى سبيل الله !

فرمقته مالينى بنظرة متطلعة متفرسة ، وقالت :

ــ ومن هو الله هذا ؟ ألا يكون هو الرب هندرا الذى يؤكد البعض أنه انحدر من صاب رجل وتجسد ثم حلق فى السماء ونفخ روحه فى الارباب جميعا ؟ . .

فهتف محمد قاسم :

ـ الله نور السموات والارض ! . . الله أحد . . الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

فقالت مالينى متعجبة :

ـ وبراهما ، وفيشنو ، وسيفا ، من تكون اذن ؟

فصاح القائد :

ـ أنصاب من حديد أو تماثيل من رمل وطين ! رجس من عمل شيطان يوسوس لكم ، ان الخليقة هى الخالق ، وان الظلام هو النور ! ذلك هو الكفر بعينه . ولقد كفرتم بآيات الله ، فأنتم انتم أصحاب الجحيم !

فدنت منــه مالينى مشرئبة اليه بعنقهــا ، متثنية بجمع اعضائها ، تحاول أن تلفح وجهه بحرارة انفاسها ، وان تذيب ارادته تحت وقدة انوثتها :

ـ دع أصحاب الجحيم وشأنهم .. مالنا ولهم .. انهم كما تقول ســـائمة يهش عليها الراعى بالعصـــا .. ولكن انت ، ماجدواك أنت من مقاتلة أمثالهم ، ومن نصر تقيمه على كومة من الاشلاء والانقاض ؟ لن تصل اليهم ابدا دعوتك ! لن يفهموك! أنا .. انا وحدى التي يمكن أن أفهمك وأقدرك ! أنا وحدى التى يمكن أن اهتدى بهديك واتبعك ! النور المنبعث منك بهر عينى . السحر المتدفق من كلامك أسر عقلى . الصفاء المشع من روحك غمر كيانى وخلب دمى !.. فافرض على أى ايمان شئت ولو كان عبادة الجن وخذنى .. خذنى يا محمد قاسم ولكن اعف عن شعبى ووطنى !

وتراجعت خطوة ، وفى مثل ومض الطرف ، نضت عنهــا ثوبها الاسود . فسقط الثوب على الارض ، وبرزت مالينى فى ضوء المصباح عارية لا يستر بدنها شيء !

وشخص اليها القائد بعينين جاحظتين وذهل .. اراد أن

يزجرها . ان يصرخ فيها . أن يأمر بطردها . ولكنه جمد في مكانه ، ولم يستطع أن يشيح بوجهه عنها . فتأملها بالرغم منه وهو ثابت . خلب لبه ذلك الجسد الناضر كالزهرة ؛ اللامع كالفضة ، المتماوج كلجة الشهوة ، الصقيل كمرمر التماثيل . فخطا خطوة واحدة ثم توقف ، ثم عض على شفتيه وضم قبضتيه وصرخ :

ــ الى الوراء أيتها الوثنية الفاجرة .. الى الوراء ! انصرفي .

فجثت عند قدميه ، وعانقتهما بذراعيها ، وقالت وصوتها يتهدج ، والدمع يوشك أن يطفر من عينيها :

ــ خذني يا محمد وارحل !... كف عن محاصرة بلادي . كف عن غزو شعبي ، اخلص لك مدى الحياة ، واتبعك الى أقصى العالم ، واصبح أسيرة و « عبدة » لك !

فاضطرب محمد قاسم لحظة . ولكنه اسرع وصاح :

ــ استري .. استري بدنك يا امرأة ... خذي ..

والتقط الثوب الاسود ، ثم غض عن بصره ؛ والقاه عليها صائحا بها وهو يدفعها الى الباب :

ــ اذن فقد جئت للتغرير بي . جئت لتقديم شبابك وجمالك ثمنا لخيانتي ؟ لقد نقضت عهد رسل الحرب وعبثت بنزاهتهم . ففي وسعي الآن ان آمر بقتلك عقابا لك . ولكني أعفو عنك لطيشك وسذاجتك ، فاذهبي !

فهبت واقفة ، ونظرت اليه ، وقالت والخيبة تمزقها ، واللوعة تنهشها وعينها الحاقدة الفاتكة تقدح الشرر :

ــ كان في وسعي أنا أيضا ان أغدر بك واقتلك . ولكني لو كنت قد قتلتك لأسلمت بلادي كلها فريسة لانتقام جيشك المتفوق .. لهذا جئت اخاطب فيك الغريزة والقلب عسى أن أثير فيك عامل الحب وعامل الرحمة . فأما وانت كما أرى ميت الغريزة متحجر القلب فاسمع اذن .. لقد أحببتك ! أجل

انا أحبك ! أحبك يامحمد الظافر القاسي الجميل ! احبك على الرغم مني وعلى الرغم من شعبي وعلى الرغم من آلهتي . ولكني احب أيضا وطني ، وأكرهك لانك عدوه .. ولابد ، لابد أن أثار منك وان كنت قد أصبحت منذ اليوم يامحمد قاسم سيدي وملكي ومعبودي !

وحدقت اليه وأردفت :

ـ انا ... انا التي قتلت الامير يوما . فاسهر على حياتك انت أيضا ايها القائد واحذر !

وارتدت ثوبها الاسود وأسدلت النقاب على وجهها ، وخرجت مرفوعة الرأس ثابتة الخطى ، دون أن تلقي على القائد المشدوه نظرة .. وما أن اختفت وساد الصمت في الخيمة وتراقصت ظلال الضوء في أرجائها ، حتى انفجرت عواطف محمد قاسم ، وعصفت به ، واجتاحته كالسيل العرم . فارتمى على الارض ورفع رأسه الى السماء ، وصاح وهو يضرب صدره بقبضتيه :

ـ لماذا ؟ لماذا ألقيت في قلبي حب هذه الوثنية الكافرة يا الله ؟

وركع محمد قاسم ، وغمغم :

ـ ربي لاتزغ قلبي بعد اذ هديتني ، وهبني من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب

وظل يصلي ، مغالبا نفسه ، كابحا اهواءه ، كاظما غيظه ، موطنا عزمه على الثأر من عواطفه ، والثأر من مالينى بتأدية راجبه العسكري والديني على اكمل وجه مستطاع

أما مالينى فقد كانت اعنف منه في الشعور بالحب ، كما كانت أعنف منه في التلهف على شهوة الانتقام . كانت تحب بقدر ما تبغض ، وتعشق بقدر ما تستنكر ، وتود من أعماق قلبها أن تثأر لكرامتها وكبريائها ووطنها بأن تطعن محمد قاسم في مقتل على الرغم من حبها العظيم له !

فلما خرجت من خيمته واستقبلها ظلام الليل ، لمحت عن بعد شبح التابع العربى الذى اقتادها ، يتقدم نحوها ليعود بها من حيث أتت . فتريثت لحظة وفكرت . ثم اسرعت فمزقت أطراف ثوبها ، ونزعت النقاب عن وجهها ، وحلت جدائل شعرها ، وكشفت عن صدرها ، وانطلقت صوب التابع محاولة جهدها ان تشيع فى أعضائها رعدة الذعر ، وفى قسمات وجهها سمات الالم واللوعة والحسرة والانسحاق ... ودنا منها التابع ، ولم يكد يتبين انها امرأة ، وانها ملهوفة مذعورة ممزقة الثياب وشبه عارية ، حتى قطب حاجبيه ، ونظر الى الخيمة ، وساوره الشك . فابتدر مالينى قائلا وهو يحدق فيها :

ـ ماذا أيها الرسول ؟ ... ما بك ... تكلم ... علام ترتجف هكذا ؟

فلم تدعه يتم عبارته حتى أجهشت بالبكاء . بكت واعولت والطمت وجهها ، وقالت وهى تنشج وتتلوى :

ـ لقد اغتصبنى ! .. لوثنى ... انتهكنى وأنا عذراء !.. انها جريمة ... جريمة ... وأنا أعلم أن امر خليفتكم يقضى بالموت على كل من يغتصب ملكة أو اميرة . فكيف بأميرة هى رسول سلام وهى عذراء ، وهى بنت الحاكم ؟ ولكن لا تصرخ .. لا تفش السر ! ان أنت أفشيته تحديت القائد واستهدفت لانتقامه . سيقتلك ويقتلنى انا لا محالة . وأنا اريد ان افى بعارى ... أريد ان أرحل ... أريد أن أنقذ حياتى ... فخير لى ولك أن نصمت !

وارسلت انة طويلة ، وترنحت على نفسها . فاشفق عليها التابع وهو يدمدم ويرتعش ، وسترها بعباءته ريثما تصل الى الاسوار . فاستندت الى ذراعه ، وقالت وهى ترنو اليه بعينيها المتقرحتين :

ـ ولكن ما اسمك ؟ ما اسمك ايها الشهم النبيل ؟
فأجاب الرجل :
ـ أنا الصالح بن نويرة ، تابع القائد وملازمه
فهتفت مالينى وهى توشك أن تتداعى وتسقط :
ـ أنا جائعة ! الحصار أهلكنى ! لم اتناول طعاما منذ يومين! فهل لك أن تجيئني بكسرة خبز ؟ الى أين ... الى اين انت ذاهب ؟ لا تدعنى وحدى ! أنا خائفة منه ! الظلمة تروعنى !
فقال وهو ممسك بيدها :
ـ اتبعينى ...
فرددت وهى ترمق من طرف خفى :
ـ أنا جائعة ... جائعة ... الى اين تذهب بى ؟
فأجاب :
ـ الى صوامع الذخيرة حيث اسعفك بشىء من الخبز والتمر والعسل ...
فلمعت عيناها ، وتبعت الرجل وهى تلهث . ولما اكلت وشربت ولاحظت عن كثب موضع الصوامع وعرفت موقعها من الاسوار ، شكرت التابع ، بل غافلته وقبلت يده ، ثم استدارت ، وعادت فى صحبته ، وصعدت درجات السلم الخشبى وهبطت من السور الى المدينة
وما كادت تبشر قومها وتحس انها بين أهلها وعشيرتها ، حتى استردت أنفاسها ، واستجمعت قواها ، ويممت وجهها من فورها شطر معسكر القائد الهندى ، مشرقة الطلعة ، ظافرة النظرة ، تهز راسها هزا وئيدا ، وتنذر عدوها وحبيبها محمد قاسم بشر داهم وويل مستطير
ولم تتردد ، وامرت القائد بأن يعد على عجل فرقة كبيرة من الفدائيين ، وأن يزود كل رجل من رجالها بمشعل ، وأن يباغت العدو بهذه الفرقة ، فيلقى بها من فوق الاسوار

فى اتجاه صوامع الذخيرة ...

ونشط القائد لتنفيذ الامر فجمع نخبة من الرجال الاشداء المغامرين ، وارشدهم الى موقع الصوامع ثم اعلن العدو بانتهاء الهدنة واستئناف القتال

وفجأة تجمع الفدائيون فى أعلى الاسوار ، ثم انقضوا منها على معسكر المسلمين ، ثم اتجهوا كتلة واحدة نحو صوامع الذخيرة والمؤن بعد أن أوقدوا مشاعلهم وجعلوا يلوحون بها فى الفضاء

وذعر محمد قاسم ولكنه لم يسترب ابدا بمالينى لا هو ولا الصالح بن نويرة . لم يشك فيها لحظة واحدة . اعتقد انها مكيدة دبرها القائد الهندى . فأسرع واحاط الصوامع بجزء كبير من جيشه ، ودافع عنها دفاع المستبسل المستميت بيد ان الفدائيين وقد ذهبت بألبابهم نشوة المغامرة والمباغتة ، سبقوه الى الصوامع وطفقوا يرشقونها بمشاعلهم

واضطرمت فيها النار . فدب الحنق فى قلوب المدافعين . فضموا صفوفهم ، وجمعوا شتاتهم ، وارتدوا على الفرقة المهاجمة واعملوا السيف فى رقاب افرادها حتى أبادوهم جميعا ، وانقذوا البقية الباقية من الصوامع الشامخة المتنقلة التى تداعى أكثرها واستحال الى كومة سوداء غمرتها الجثث والدماء

وأحس محمد قاسم ان الدائرة قد تدور عليه ، وانه بعد أن فرض الحصار على عدوه قد يصبح هو المحاصر ، وقد يقاسى فى غد ويلات الجوع والمرض . فلم يتمهل ، ولم يضيع الوقت ، وانتهز فرصة الفرحة التى زعزعت يقظة الهنود ، وأسرع فانتهج خطة الاقدام والمبادرة ، وأصدر أمره الى الجيش كله بالتأهب لهجوم عام اما أن يسفر عن هزيمة ماحقة واما أن يكلل بفوز ساحق مجيد

وامتطى صهوة جواده ، وتجول بين رجاله وطفق يصيح :
ـ يريدون كيدا الا ان الذين كفروا هم المكيدون . لن يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون !

ودق الطبل ايذانا بالهجوم . فاندفع الجيش كله ، وتسلق الاسوار . فقابله المدافعون بوابل من السهام والرمل . فنشبت معركة طاحنة التحم فيها الفريقان بالسيوف والخناجر والمدى ، كل يستبسل فى القتال ، وكل ينشد معركة حاسمة فاصلة

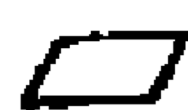
وفقد المسلمون عددا كبيرا من رجالهم ، وكادت تخور قواهم وتفتر عزائمهم ، لولا أن تداركهم محمد قاسم ، وحمل فى المقدمة بنفسه . فالتهبت الحمية فى صدورهم . فاقتحموا الاسوار غير هيابين ، وهبط البعض منهم الى المدينة وهم يرددون : الله أكبر !

وكانت مالينى تقاتل هى الاخرى فى مقدمة جيشها ، محلولة الشعر ، مكشوفة الصدر ، مخضبة الوجه بالعرق والغبار ، وحولها رهط من أتباعها يذودون عنها ، ويتلقون الطعنات المسددة اليها ، ويسقطون الواحد بعد الآخر وهم يهتفون لها

ولمحها محمد قاسم . فخفق قلبه ، وثار حقده . فاتجه صوبها وضيق الخناق على أتباعها ، ثم حمل عليها هى حملة مفاجئة فكسر سيفها . فلم تضطرب مالينى ، واختطفت سيفا آخر من أقرب جندى اليها ، وكرت على محمد قاسم . فنازلها ونازلته ، وغالبها وغالبته . وما زال بها حتى أجهدها وتمكن منها ، ثم غافلها وأصابها بجرح بليغ فى ذراعها . فتقهقرت فجأة . فأطبق رجاله عليها ، ودفعوها الى المؤخرة دفعا ، فظلت تقاتل وهى تصرخ وتتوعد وتهذى

وتلفتت مالينى واذا بها تبصر أفواج المسلمين ، وقد

سحقوا القوات المدافعة وبددوها ، ينتشرون على الاسوار كالغمام ، ويملئون الجو كالعاصفة ، ويسدون فسحة الافق كالجوارح ، ويندفعون صوبها وهم يهللون . فانخلع قلبها ، وارتعدت فرائصها ، وخيل اليها وهى تنظر اليهم أنهم قد انقلبوا من بشر الى نسور ، وأنها هي الفتاة الباسلة المتكبرة العنيدة قد استحالت الى قبرة ، قبرة ضعيفة مسكينة خائرة تضرب فى أجواز الفضاء رعبا ، وتوشك أن تتمزق وتموت تحت أجنحة ومخالب النسور . فحاولت أن تقاوم ايضا . ولكن زمامها أفلت منها . فأرسلت من أعماق قلبها صيحة يأس مدوية ثم تصدعت وترنحت ، ووقعت على الارض فاقدة الصواب . .



وتم النصر للمسلمين فى ذلك اليوم المشهود . ودخل محمد قاسم قصر الحاكم ، وأقام فى حجرة متواضعة منه . ولم يشأ أن يذل مالينى ، فأفرد لها فى القصر جناحا خاصا ، وأمر بأن تعامل معاملة خليقة بمكانتها السامية

وكان محمد قاسم وقد أطربه النصر ، يريد أن يحرز نصرا آخر ينقع به غلة حبه وهواه ... كانت بسالة الفتاة قد سحرته ، وبطولتها الخارقة قد ضاعفت حبه وملكته . فوطن العزم على أن يثأر من مالينى بالحب لا بالموت ، وأن يجاهر بهذه الرغبة المشروعة فى أقرب فرصة وأمام الجميع

وفى ذات ليلة ، والقصر حافل بالناس ، أرسل محمد قاسم فى طلب مالينى . فمثلت أمامه شامخة الرأس ، مقطبة الجبهة ، متحدية النظرة ، موفورة العزة والترفع والكبرياء . فرحب بها وأكرم وفادتها ، ثم دعاها الى الجلوس ، وقال بغتة على مسمع من الحاضرين وقلبه يكاد يثب من صدره نشوة وظفرا

ـ هذه الفتاة الباسلة التى كان لى شرف مقاتلتها والتغلب عليها ، أصبحت بحق النصر ملكي . فأنا أريدها ، ولـكنى اكبرها عن أن تكون سرية لى . لقد احببتها . أحببتهـا من صميم قلبى . فاذا رضيت الاسـلام دينـا ، تزوجت بها واتخذتها حليلة أمام الله وامامكم !

وصمت لحظة وأردف :

ـ انا رجل لم يذق الخمر أبداً ، ولم يزاول الميسر قط ، ولم يقرب فى حياته امرأة . فأما وقد حالفنى النصر فمن حقي أن افوز بقسطى من الدنيا فى ظل المتعة الحلال التى أباحها الله . وانى لاقسم ... أقسم لكم ولها ... أقسم بالله العظيم ، أنى لو اقترنت بهذه الفتاة فلن أشرك فى حبهـا أية امرأة ، ولن أتخذ عليها أبداً زوجة ثانية ، وأن أظل وفيا لها ، أمينا على عهدها ، حتى النفس الاخير !

فضج الحاضرون بالهتاف . ولكن محمد قاسم قاطعهم والتفت الى مالينى وقال :

ـ اهتدى ... اهتدى يا بنية يشرح الاسـلام صدرك ، ويصبح القائد المظفر زوجا لك !

وحدق اليها ملهوفا وانتظر . فاتجهت اليهـا الاعين ، واشرأبت الاعناق ، وساد الصمت

وفجأة تقدمت مالينى وأجالت فى الحاضرين بصرها الصارم المتقد ، وقالت فى صوت ثابت قوى ، وفى لهجة عربية فصيحة بهت لها الجميع :

ـ لن أعتنق دينكم على يد محمد قاسم ، وان أتزوجه ! أنا بنت أمير وحفيدة ملك . واذا كان يجب أن أتزوج فالزوج الخليق بى هو الخليفة ، الخليفة نفسه لا محمـد قاسم ! فاحملونى الى خليفتكم ، فهو أحق بى من قائده . فاذا رقت فى عينه وطلبنى أسلمت على يده وتزوجته ! هذه رغبتى وهذا

واجبكم ! اما ان يحاول القائد أن يتخطى سيده ومولاه فتلك كبرياء اشبه ما تكون بالعصيان والتمرد !

فأجفل الحاضرون ووجموا . وشحب محمد قاسم وذهل ... وقبل أن يثوب الى رشده ويتكلم ، نهض الصالح بن نويرة وقال فى لهجة قاطعة .. وهو يصوب الى القائد نظرة حادة معنوية غريبة :

ـ اكبر ظنى أن الاميرة على حق !

فصاح محمد قاسم :

ـ ماذا تقول ؟

فأجاب ابن نويرة فى هدوء :

ـ ليس لك ان تجبرها على ما تكره !

فصرخ القائد :

ـ ولكنها وقعت أسيرة فى قبضتى !

فقال الصالح :

ـ انها أعظم شخصية فى المدينة ، وأمير المؤمنين هو الذى فى مقدوره أن يهبك اياها !

فسرت همهمة طويلة بين الحاضرين ، وهتف احدهم :

ـ هو ذاك . للخليفة وحده أن يفصل فى أمرها !

فتشجع آخر وقال :

ـ كان أجدر بمحمد قاسم أن يبعث بها من تلقاء نفسه الى أمير المؤمنين !

وصاح ثالث :

ـ يجب ، يجب أن ترسل الى دمشق حالا !

فاسودت الدنيا فى عين محمد قاسم ، واحس كأن قلبه يوشك أن ينتزع منه . فنظر الى الحاضرين وخيل اليه أنه أشبه بمتهم امام قضاته . ثم نظر الى مالينى ، فألفاها صامتة جامدة كأنها الجلاد . فتاه فكره ، واختبل عقله ، وهم بأن

يفرض ارادته على الجميع فرضا . ولكن اقحام شخص الخليفة فى الامر أشاع فى نفسه الحرج والاضطراب . فتمالك اعصابه جهده ، وقال وهو يحاول ما استطاع ان يخنق لوعته :

ـ سأنزل على حكم أمير المؤمنين مختارا ! سأكتب اليه ! انا مطمئن لعدله ، واثق فى نزاهته . فلترحل الفتاة منذ الغد اذن ! لتذهب الى دمشق وليكن قضاء أمير المؤمنين هو الفاصل!

فتقدمت مالينى مرة ثانية وقالت وهى تومىء بأصبعها الى الصالح بن نويرة :

ـ آذنكم ياسادة ان يرافقنى فى رحلتى هذا الرجل الشهم النبيل !

فصاح محمد قاسم :

ـ لا أخيب لك سؤلا أيتها الاميرة ! رافقها يا ابن نويرة واحرص عليها فهى أمانة فى عنقك !

ونهض القائد متجلدا ، واستأذن الحاضرين وهو يرتجف . ثم دخل حجرته وشرع يكتب لأمير المؤمنين

ولما أتم رسالته ، والفى نفسه وحيدا ، تجاه قلقه ، وحيدا تجاه عجزه ، وحيدا تجاه قسوة المراة التى يحبها ، والتى يعلم علم اليقين انها تحبه ، ويعلم فى الوقت ذاته علم اليقين ايضا ان الثأر لبلادها أشهى لديها وأثمن ألف مرة من حبها ، لما أحس بكل هذه العواطف تجيش فى صدره ، صغر فى عينه المجد وصغرت فى عينه الدنيا . فاستغفر ربه ملهوفا وتمتم :

ـ لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شىء قدير

وتصلبت عضلات وجهه واردف :

ـ قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين

ولكن حسرته عادت فحطت عليه واستبدت به . ولاول

مرة ، لاول مرة فى حياته الزاهدة الموهوبة المستعلية ، طاطا راسه الشامخ المهيب الجميل ، وطفرت من عينه دمعة . .



وخرجت دمشق بأسرها لتشهد الاميرة الهندية المهزومة فغصت الشوارع بالجماهير ، وامتلأت الاسطح بالناس ، وعلا الهتاف بحياة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وحياة قائده المظفر محمد قاسم

وكانت مالينى جاثمة على ظهر حصان أبيض ، يحيط بها الصالح بن نويرة وبعض جنوده . وكنت لا تأبه الجماهير ولا تنظر اليها ، بل تتأرجح على ظهر الجواد ثابتة وممتزة ، طاوية نفسها على فكرها ، مسددة بصرها الى قلبها ، والى ذلك الطيف البغيض الحبيب الذى كان لا يلبث ان يلوح لها حتى تحنق فتقصيه ، ثم تنتفض فتدنيه ، ثم تستهول جرأته وسلطانه فتطرده عنها ، متوعدة اياه بأقسى وأفتك ما فى طبيعة المراة من غرائز الحقد ، ومن ضروب الختل والكيد والانتقام والتشفى .

وتنبهت بغتة فأثارها صياح الناس ، وضاعف تحقيرهم من حقدها ، وشدد تعييرهم من عزيمتها . فعولت أن تبذل قصارى الجهد فى حبك فكرتها ، وتنسيق انتقامها ، وتنفيذ الخطة المروعة التى نبتت فى راسها منذ اللحظة التى احتقرها فيها محمد قاسم ، وطردها من خيمته وهى عارية !

ولما بلغوا قصر الخليفة ترجلوا ، وظل الجنود بالباب ، ودخل الصالح بن نويرة تتبعه مالينى

وكان الوليد متربعا على اريكة عالية وحوله فريق من وزرائه وبعض رجال حاشيته

وكان رجلا واسع الحدقتين ، عريض المنكبين ، وثيق التركيب ، حاد البصر فى ذكاء ، جهير الصوت فى عذوبة ، متزن الحركة والاشارة فى عزة أصيلة وفى جلال متواضع بسيط

فما أن دخلت مالينى ، حتى أعتدل فى جلسته ، ونظر اليها واجفل ...

أعجب بجمالها الفتان ، وادرك على الفور انها قوية وذكية . فرحب بها ودعاها الى الجلوس . فأسرعت مالينى ، وقبلت الأرض بين يديه ، وظلت واقفة

وتقدم الصالح وحيـــا مولاه ثم ناوله كتاب محمد قاسم ففضه وقرأه ، ثم طواه ، وجعل يتأمل الفتاة ويفكر ..

وبعد لحظة رفع بصره الحاد ، وصوبه اليها ، وقال بصوته العذب الجهير وهو يلوح بيده فى أتزان ملؤه الهيبة :

ــ يدهشنى منك ايتها الاميرة جحودك الصـــارخ وتمردك العجيب !... لقد وقعت اسيرة فى قبضة القائد المنتصر ، فبدل أن يذلك ويتسراك ، عرض عليك الزواج . فماذا تطلبين؟ الا رحم الله امرءا عرف قدر نفسه وقاتل الله الكبر والمتكبرين!

فحاولت مالينى أن تتكلم ولكنه قاطعها فى سخرية وقال :

ــ الاميرة المهزومة تريد ان تحرز النصر المبين بأن تصبح زوجة لخليفة المسلمين ! اليس هذا هو مرادك ؟ لشد ما انت مغرورة يا فتاة ! ولكننا يا بنيتى لا نأخذ ماليس لنا ، ولا نعتدى على حق غيرنا ، ولا نظلم من جاهد فى سبيل الله معنا ! حكمى العقل ايتها الاميرة وتزوجى القائد !

فتقــدمت مالينى ، وثبتت بصرها فى الخليفة ، وقالت فى هدوء وعزم :

ــ لن أتزوج محمد قاسم ولو قتلتنى ؟ ...

واردفت صارخة :

ــ لن أتزوج برجل احل لنفسه أن يغتصبنى ويلوثنى ! ..

فأبرقت عينا الوليد وقال :

ــ ماذا أسمع ؟ تتهم قاسما وبجسارة مستكبــرة ولســان عربى قويم ؟! انها فى الحق لفتاة فذة . ولكن أمثله يفعل هذا؟!

اني الطاقة تصور هذا ؟

فاستطردت مالينى وهى تهدر :

ـ انما جئت اليك يا مولاى لاطرح عند قدميك شكايتى . وحاشاى ان افكر لحظة فى التطلع الى الزواج من أمير المؤمنين وهذا الرجس فى دمى ! ولكنى لوحت بهذه الغاية لافلت من قاسم وانطلق اليك . اقرار العدل هو كل ما كنت ابغى . لقد اوفدنى قومى رسولا الى محمد قاسم . فاعتدى محمد قاسم على ، وانتهك حرمتى ، واغتصبنى اغتصابا شائنا منكرا ، وانا لا حول ولا قوة لى ! واذا كنت فى شك من كلامى ، فسل ... سل هذا الرجل الطيب الشهم النبيل !

فالتفت الوليد الى الصالح بن نويرة وهتف :

فقطب الصالح جبينه وقال :

ـ قل الحق ! ... قل الحق والا أهلكتك !

ـ لن تهلكنى غير ساعتى . وما أنا بمفتر كى أخاف . لقد رايت الاميرة بعينى راسى ! رايتها تبكى ! رايتها تخرج من خيمة القائد نصف عارية وشعرها محلول وثوبها ممزق ! ولقد خفت ان انا تكلمت ان يوعز محمد قاسم بقتلى ، فآثرت ان أدفع بالفتاة اليك كى تفصل فى أمرها بنفسك !

فاستشاط الخليفة غضبا وصاح :

ـ الم افرض على القواد احترام شخصيات الرسل ، الم اوص الجيش كله بالترفق بالنســاء ، الم انذر بأن كل من يغتصب ملكة او اميرة جزاؤه الموت ؟ ذلك كان وما يزال أمرى ان واجبنا الاول هو صيانة كرامة الملوك والامراء والاميرات الذين يقعون فى أيدينا ، وارشــادهم الى الطريق الســوى بالحسنى ، حتى اذا ما اهتدوا وآمنوا ، آخيناهم هم وشعوبهم ، واستطردنا الجهاد فى سبيل الله سويا . فالقانون يجب أن يحترم ، والعدل يجب أن يأخذ مجراه . أيظن محمد قاسم ان

انتصاره يشفع له فى استباحة أميرة كانت فوق ذلك رسول قومها اليه ؟

كان يجب أن يكون هو المثل والقدوة . على انى لن احكم عليه قبل ان أسمع دفاعه . وجل ما اتمنى ان يكون دفاعه من القوة والصدق بحيث ينقذه ! فاعلنوه بالتهمة الموجهة اليه . وارسلوا فى طلبه حالا . وما دام هو قد أدى مهمته ، فسيحل محله الحسين بن عبيدة منذ الغد فى قيادة الجيش !

وتحول الى الفتاة وقال :

ـ واما انت ايتها الاميرة فاطمئنى ... سنقتص لك من المعتدى اذا كان حقا مذنبا ... اذهبى ... اذهبى الآن الى دار النساء ، والزمى خباءك ، وانتظرى أوامرى ...

فلمعت عينا مالينى ، واحتواها فرح غامر شرير . بيد أنها أحست فى اللحظة نفسها ان شيئا اقوى منها ، واقوى من حقدها ، وأقوى من تعصبها لقومها ، واقوى من انتقامها المنشود ، يزجرها ، ويبكتها ، ويستفظع فعلتها ، ويهم بان يوقظ فى قلبها شعور الندم وعاطفة الرحمة . فمشت متثاقلة وفكرت . فكرت فى النكوص . ولكنها ابت ان تضعف ، وابت ان تنسى ، وأبت ان ترحم . ولكى تثبت امام عزمها ، وتمعن فى طلب انتقامها ، وتخنق ذلك الصوت المضطرم المذيب المنبعث عن صميم أنوثتها واحشائها ، تمثلت على الفور هزيمة اهلها ، وتمثلت النسور الجارحة وهى تحوم حولها وتطاردها . فتقبض محياها ، وتشنجت عضلاتها ، وخرجت منصوبة القامة ، ساكنة ، غير حافلة ! ...



ووقع النبأ على محمد قاسم وقع الصاعقة . لم يستطع أن يتصور أن الحقد يمكن أن يبلغ بمالينى هذا المبلغ . هاله تدبيرها وافتراؤها . هاله اقدامها وعدم اكتراثها . هالته قسوتها ووحشيتها وجبروتها ، وتلك الارادة المخبولة المتحكمة

فيها والتى توشك أن تقضى بها على رجل تحبه ويحبها !

والهبه ومزقه ان مالينى لم تفكر فى قتل جسده ، بل فكرت فى تدنيس روحه ، وتلويث شرفه ، وطعنه فى خلقه وعفته ونزاهة جهاده امام الخليفة نفسه ! وكان يحبها فى جنون ويرجو ان يهبه الخليفة اياها ، فتتغلب فى قلبها عاطفة الحب على شهوة الانتقام ، ثم يقترن بها ويغدق عليها ما استطاع ويسعدها . فلما تلقى هذه الطعنة ، أيقن من تحطيم حبه وخيبة هواه . فباتت نفسه نهبا مقسما بين اليأس والثورة ، واللوعة والسخط ، والكمد والكبرياء . ففكر هو الآخر فى الثأر لنفسه . فكر فى الذود عن مكانته ، والدفاع عن شرفه ، والمطالبة باستخدام شتى الوسائل التى تظهر براءته وتفضح الفتاة المفترية الحاقدة ، ولكنه فكر فى اللحظة نفسها أن الحقيقة لن ترحمها ، وان كذبها سيرديها ، وان الخليفة لابد أن يأمر بقتلها . فاقشعر بدنه ، وهاله أن يحبها ثم يكون هو قاتلها . فاستعر عشقه ، واتقدت شفقته . فأظلم الكون فى عينه ، وغشت الحيرة عقله ، وانقده التخبط والعجز واليأس كل امل

وحاول أعوانه وأصدقاؤه رده الى ما عرف عنه من جلد وصبر وقوة شكيمة وصدق كفاح . ولكنه كان قد فقد مع الامل حب الحياة ، وفقد مع حب الحياة كل رغبة فى انقاذ نفسه بتضحية مالينى . فبرم بالمجتمع وسئم الناس ، وتفرد واعتزل واستوحش ، ثم عف عن الطعام ، وعف عن الشراب ، وعف عن الكلام ، واتخذ من الصمت رفيقا ، ومن الصوم منقذا ، ومن الصلاة مجيرا ، ومن التهالك على الزهد فى متع الدنيا لذة محمومة مفتونة يستعجل بها ارادة الله وحكم القدر

واضواه الصوم ، وبراه الضعف ، ونكره الهزال . فما ان قطع رحلته وبلغ أبواب دمشق حتى كان قد استحال الى شبه هيكل عظمى تتردد فيه الآونة بعد الاخرى انفاس طيف لا أنفاس انسان !

وما أن علم الوليد بوصوله حتى استدعاه اليه ، وبعث فى طلب مالينى . فأقبلت الاميرة الهندية راسخة العزم ، ثبتة الجنان ، واتخذت مجلسها عن يمين الصالح بن نويرة ، وتهيأ الخليفة ووزراؤه للبدء فى المحاكمة

ودخل محمد قاسم شاحب اللون ، منطفىء العينين ، غائر الوجنتين ، محدودب الظهر . وتقدم صوب الخليفة وهو يجر نفسه جرا ، ثم انحنى امامه وقبل يده ، وتساقط من فرط الاعياء على مقعد ولم يتكلم

ورماه الخليفة بنظرة ووجم . وحدق فيه الصالح بن نويرة ودهش . وشخص اليه الوزراء فبهتوا ولم يجرءوا حتى على التلامح والهمس

وقال الخليفة وهو يحاول ان يوازن فى نفسه بين مبدأ العدل وشعور الرحمة :

ـ والله ما تمنينا يامحمد قاسم أكثرمن ان نحتفل بمقدمك، ونقدر لك حسن بلائك ، ونبرىء ذمتنا نحوك ، ونخرج على راس البلاد بأسرها لاستقبالك وتحيتك ولكن يبدو أيها القائد انك اطعت غيك ، وركبت سجيحة راسك ، وعبثت فى صلف بحرمة الامر الصادر اليك من مولاك ! ماذا ؟ .. اغرك النصر فحسبت انه من عندك ؟ الا ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ! فانهض ! انهض ودافع عن نفسك ، فلا أحب الينا من أن نسمعك ، ونترفق بك ، ونلتمس لك الرحمة فى حدود العدل ! ... تكلم ...

فتحرك محمد قاسم ، وحاول ان يقف ، ولكنه أرسل زفرة مخنوقة وتهالك على نفسه مرة ثانية ولم يتكلم

وكانت مالينى تتطلع اليه وهى ذاهلة ... لم تعرفه . لم تصدق انه هو . لم تستطع ان تتصور أن هذا الطيف هو البطل الذى اذلها ، ودوخ أهلها ، واخضع بلادها . فتفرست

فيه ، واستمرات متعة الانتقام وهى نشوى ، ومع ذلك فقد اضطربت ، اضطربت وبهتت ، واحست انهـا تستمرىء لذة عاتية أخرى ، هى لذة الحنان والرحمة ...

وتفطر قلبها وهى تقاوم ... وهفت نفسها الى عدوها وهى تكافح ... وتمنت من صميم كيانها لو أن قاسم يلتفت اليها او يتجه نحوها ولو بنظرة واحدة ، كى تنقذه من عاره ، وتنقذ قلبها من شهوة الثأر ولو هلكت . ولكن محمد قاسم كان مطرقا كان متداعيا ومنسحقا كان غائبا عن وجوده وغائبا عن الدنيا

وعيل صبر الخليفة ، فأهاب بمالينى ان تتكلم . فعـادت تقص قصتها الملفقـة وهى تختلج . وعاد الصالح بن نويرة يشهد شهادته الساذجة وهو مضطرب . وحمل الوليد على القائد فواجهه بالتهمة ، ثم صمت وانتظر دفاعه

ورفرف الصمت على القائد أشبه بجناح طـائر مذبوح . فاتجهت الابصار نحو محمد قاسم ، وحبس الجميع انفاسهم وتلهفوا ...

وفجأة ، تململ القائد ، ورفع رأسه فى اتجاه مالينى ، ونظر اليها .. القى عليها نظرة لم تر قط مثلها فى عين انسان .نظرة حزينة وعميقة ، معـاتبة وآسـفة ، مفتونة وعابدة ، فريرة وممزقة . ثم أشاح بوجهه وارسل نفسا عميقا ، وترك رأسه المترنح الكليل يسقط فى سكون على صدره المقوس العارى . وعندئذ ، عندئذ فقط فقدت مالينى حكمها الجبار على نفسها. فانفجر حبها ، وانفجر ندمها ، وانفجرت رحمتها ، واندفعت نحو محمد قاسم ، وطفقت تهزه هزا عنيفا وهى تصيح بأعلى صوتها :

ــ لا تصدقوا ! ... لا تصدقوا ! ...

وهمت بأن تستطرد وتعترف وتستفيض، ولكنها تحسست حبيبها وهى مبهوتة ، وتأملته وهى مذعورة ، وجذبته اليهـا

وهى تائهة . فألفته يرتد برودة مروعة تشبه الصقيع . فهزته أيضا . فارتمى عليها ، وسقط بجمعه على صدرها ، ثم تملص من بين ذراعيها فجأة وانهار على الارض جثة هامدة

فجن جنون مالينى وصرخت :

ـ مات محمد قاسم ! ... مات حبيبى ! ...

فأجفل الوليد ونهض ، واسرع الجميع فتفحصوا الجثة ، ثم رفعوا أكفهم الى السماء وغمغموا :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ! ...

وقبل ان يثوب أحد منهم الى رشده ، وقبل ان ينطق الخليفة بكلمة ، وقبل أن تحمل الجثة الى الخارج ، تقدمت مالينى وأخذت الجثة بين ذراعيها ، وصاحت فى خبال ،والدمع يمزق صدرها ويكاد يخنقها :

ـ لقد خدعتكم ! ... خدعتكم جميعا ! ... هذا الرجل لم يغتصبنى ! ... لم يمسسنى ! ... عف عنى فى حين اننى ذهبت الى خيمته عارية ! لقد أحببته ! عبدته ... ولكنه كان خصمى ! كان هو الرجل الذى هزم بلادى . فكبر على ان احبه ، وكبر على أن يصبح سيدا على نفسى وجسمى بعد ان اصبح سيدا على وطنى فقاومت عاطفتى جهدى ، واردت بهذه الفرية أن أثأر منه وأثأر من حبى ! أجل . أردت أن أثأر منه أما هو فلم يشأ ان يصيبنى ... لم يشأ أن يجهربالحقيقة خشية ان يكون هو السبب فى قتلى ! وهكذا قتلته أنا ... قتلته بيدى !... قتلته بكيدى وحقدى !... فاقتلونى !... اقتلونى ، فحياتى كلها اصبحت بعد قاسم هباء !

فحدق اليها الوليد بن عبد الملك تحديقا هائلا ، تحديقا مستنكرا مستهولا عازما ، ثم اشار الى السياف وصرخ :

ـ اضرب عنق هذه الفتاة !

فأشرق محيا مالينى وهتفت :

ـ الموت ؟ ... مرحبا بالموت ! ... ولكن رويدكم ! ... رويدكم حتى أقول كلمة واحدة قبل ان أموت !

وجمعت انفاسها واستطردت :

ـ لقد فرقت الاقدار فى الجهاد والدين بيني وبين محمد قاسم ... ولكنى الآن والموت تجاهى ، لا اريد ان يفرق بيننا فى غد شيء ! انه زوجي وأنا امرأته ومن واجبى أن اتبعه ! سأعتنق دينه ! دينه الذى علمه الحب والنبل والشهامة والتضحية . دينه الذى تفوق به وسما ؟ ... سأعتنقه عن ايمان مطلق وعقيدة راسخة ، عسى ان يغفر لى ربى ، ويجمع بيني وبين من أحب فى جنته الخالدة !

ورفعت عينيها وغمغمت !

ـ أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله !

ثم مدت راسها الى السياف وصاحت :

ـ اضرب يا رجل !

فهوى السيف على عنقها ، والصالح بن نويرة ينظر اليها نظرة ملؤها الغبطة والشماتة والكراهية .

واذ ذاك ، وقبل أن يتقدم الغلمان لنقل الجثتين ، وقف الوليد بن عبد الملك وقال فى صوت هادىء جهير :

ـ يا قوم ، هذا يوم مجموع له الناس ، وهذا يوم مشهود . من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون . لقد خسرنا بوفاة محمد قاسم قائدا من خيرة قوادنا . كان بطلا فى جهاده ، وبطلا فى حبه ، وبطلا فى تضحيته ، وبطلا فى رياضة نفسه على التعفف المطلق عن المرأة التى يهواها ، انقاذا لها من الموت ولو على حساب حياته . ففيه يصدق قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعف فمات ، مات شهيدا ! » ان موته لم يذهب سدى . لقد كسب الاسلام روحا ، وهذه الروح قد

يشفع لها عند ربها . انها ندمت وتابت وعرفت فى لحظتهـا الاخيرة اين هو الهدى . اما صورة هـذه الروح ، اما الاميرة الهندية مالينى ،فقد كانت برغم دهائها ومكرها بطلةفى وطنيتها، وبطلة فى اقدامها على الموت توكيدا لحبها وتكفيرا عن ذنبها . فليحملا اذن جنبا الى جنب ، وليدفنا فى قبرين متجاورين ، وليجزل الله لهما الرحمة والمغفرة !

ولوح بيده ، فتقدم الغلمـان والقوا على كل من الجثتين غطاء أبيض ثم حملوهما الى الخارج فى صمت وسكون

وفى صباح اليوم التالى ، دقت الطبول ، وتدفقت الجماهير على قصر الخليفة ، وخرج الوليد فى موكبه يودع الحسين بن عبيدة قبل أن يسافر ليحل محل البطل الشهيد محمد قاسم ويستطرد جهادا مقدسا طوى الهند والعـالم تحت اجنحة نسور المسلمين



# مصر القديمة

# عبقرية امرأة

« وقعت حوادث هذه القصة في عهد احمس . وكان الهكسوس، وهم قبائل أسيوية همجية ، قد اغتصبوا أرض مصر ، وظلوا يعيشون فيها ويسومون أهلها الاستبداد والظلم . فلما ظهر في أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد فرعون أحمس ، قاتلهم وانتصر عليهم وردفلولهم الى آسيا ، ثم اقام امبراطورية مصرية صميمة هي امبراطورية طيبة الثانية »

كان الظلام حالكا ، واسوار مدينة ممفيس تبدو كأنها طوق شاهق مروع ، ينبثق من جوف الظلمة الساكنة ، ويختلط بها ، ويلتف بالمدينة ويفصلها عن عالم الاحياء

واستأنست « امنريس » بالصمت والظلمة واطمأنت . فتسللت الى سطح القصر المجاور للاسوار ، وانبطحت على الارض وغمغمت :

ــ رحيو ...

فتظاهر الرجل بأنه لم يسمع ، واتأدفترة ثم دنا منها . فهمست :

ــ هل من جديد ؟ ...

فأجاب :

ــ الليلة ... سيهجم فرعون الليلة بجيش جرار . وأنت هل وفقت في مسعاك ؟

فقالت :

ــ سأحاول ... وما دمت انت الليلة في نوبة الحراسة ، فسأبذل جهدى كي أوفق . واذا وفقت فسأبعث اليك بجاريتى ... ابتعد ... كن على حذر ... عم مساء يارحيو

وزحفت امنريس في هدوء ، وهبطت سلم القصر ، ودخلت البهو الكبير ، وجلست . جلست القرفصاء على الارض ،

وطفقت تحدق فى قدر كبيرة تشتعل من تحتهـا النار . ثم لوحت بذراعيها فوق القدر ، وتمتمت عبارات غريبة غامضة ، وعيناها السوداوان الواسعتان تلمعان ...

وكانت جاريتها المخلصة « تامينا » ترقب حركاتها ،وقلبها يخفق ، وصدرها يلهث ، وبدنها يرتعش . فلمـا صمتت امنريس ، وكفت ذراعاها عن الحـــركة ، ونهضت ، تطلعت اليها الجارية مستفسرة . فقطبت المرأة حاجبيها ، ثم اطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها الشامخ المكلل بشعر أســود مجعد جميل ، ثم هتفت :

ـ انى أرى فى النار كل شىء يا تامينـا ... أرى فرعون نفسه ... أرى « احمس » العظيم مقبلا من بلاد الصعيد ، من مدينة طيبة ، يتقـدم صـفوف جيشـنا ، وينقض على الهكسوس ، على ملوك الرعاة الذين اغتصبوا نصف بلادنا ، ويقهـرهم ... نعم يقهرهم ، ويهدد هذه المدينة ، مدينـة ممفيس المصرية ، التى اتخذوها عاصمة لهم ! ... ثم أرى نفسى ... أنا ... أنا ... المرأة الضعيفة الخاملة ، أتسلل من فراشى ، وأغافل قائد جيش ملوك الرعاة « سالتيس » ، وانطلق فى الظـلام الدامس ، حاملة الى فرعون احمس مفتاح أسوار المدينة !

وصمتت امنريس لحظة ثم صرخت :

ـ سيدخل فرعون المدينة وسينتصر .. سيطرد الغاصب وينقذنى ... سيوحد مصر كلها بفضل شجاعته وحيلتى ! لابد أن أسرق مفتاح اسوار المدينة ، ولابد أن اثأر من قائد الرعاة سالتيس الذى أذل بلادى ، وقتل أمى وابى ، واقتادنى الى هنا أسيرة ، واستباح عرضى ، والقى بى فى غيابة هذا القصر سجينة ، لا تبصر عينى ضوء النور ، ولا تلفح بدنى اشـعة الشمس ! انه يحبنى وأنا اكرهه ! اكرهه بعدد ما يحمل قلبى

فى حياتى كلها من خفقات ! سأثأر منه ، وانقـذ ايضا رفاقى الاسرى ... رفاقى الاسرى المصريين الذين امر السفاح بقتلهم غدا بعد عرضهم أمام الشعب فى الساحة الكبرى ! سأنقذهم، ثم اتصل بفرعون أحمس ... اتصل به عن طريق جاسوسنا رحيو الذى استطاع ان يكسب ثقة الهكسوس ، ويصبح من حراس اسوار المدينة ... ثم أضلل الجميع واخدعهم ،وابعث الى فرعون بمفتاح الاسوار ! الليلة ! سيكون جيش فرعون هنا الليلة ، وسيتم الليلة كل شىء ياتامينا !... هذا ما أراه الآن فى النار !

فقالت الفتاة وهى تنتفض :

ـ اعرف يا مولاتى انك نشأت فى طيبة بين جدران المعابد، وانك أمراة عبقرية الذكاء ، تلقيت من الكهنة جميع ضروب السحر ، وانك الى جانب حسنك الرائع الفتان ؛ إمهر واحذق ساحرة فى مصر كلها . ولكن الا يمكن ان يخدعك المجهول ؟ الا يمكن ان يغدر بك القدر ؟ الا يمكن ان تضللك النار ؟

فغمغمت امنريس :

ـ النار لا تكذب ! ومتى قرأت عليها تعاويذى ، واستعنت فى تلاوتى بوحى آمون سيدى ونصيرى ، رأيت فيها المستقبل رأى العين يا تامينا ! ومع ذلك فالنار وحدها لا تكفى . لابد من عقل وارادة وعبقرية يا تامينا . وأنا واثقة من نفسى ، ومن القوة الذهنية والروحية الخارقة التى أودعها آمون فى كيانى ، والتى أحس بها تجيش وتصطخب فى كل نقطة من دمى !

وتقبضت تقاطيع وجهها فجأة وصرخت :

ـ لماذا ؟ لماذا أحبنى القائد السفاح سالتيس ؟ ولماذا اقتادنى إلى هنا ؟ انه لم يحببنى لجمالى فقط ، بل أحبنى لفنى أيضا ... أحبنى لانى قرأت فى النار حظه ، وقلت له انه سيقهر فرعون ، وان كنت قد أخفيت عنه أنه سيهزم فى النهاية ويتحطم!

فاياك ان ترتابى فى قدرتى يا تامينا ، فهى من عند الآلهة ، والآلهة لا يمكن ان تخطىء أو تنسى أو تخون !!

فصاحت الفتاة بالرغم منها :

ــ اذن فافتحى لى مغاليق صدرك يا مولاتى وتكلمى .. ماهى خطتك .. ماهو تدبيرك وكيف .. كيف سيمكنك التغلب على العقائد ، وانقاذ الاسرى ، ومعاونة فرعون ، وحمل مفتاح أسوار المدينة اليه ؟

فندت عن امنريس ضحكة مخنوقة وقالت :

ــ هذا سرى ... وكل ما أستطيع ان أفضى به الآن اليك هوانى أسيرة مصرية فى بلد مصرى مستباح ، وان مصريتى تشدد عزمى ، وتلهب فنى ، وتفتق حيلتى ، وتضاعف شعور الكراهية والبغض الذى أحسه نحو أعداء بلادى ! فأنت مصرية مثلى ، وانت أيضا أسيرة ، فاقتدى بى ، واكتفى الآن بما سمعت ، وتجلدى واصبرى ...

وعادت امنريس الى القدر الكبيرة ، وانحنت عليها ،ومضت تتأمل النار ، صامتة جامدة ، وعيناها السوداوان المكحلتان ترقبان فى أبتسامة عريضة ضوء اللهب المتصاعد الذى كان قد أخذ يفتر شيئا فشيئا ، ويوشك ان يستحيل الى جذوة ملتمعة . وفجاة ، وبينا هى منهمكة فى التأمل والتفكير ، طرقت مسمعها جلبة مشفوعة بصوت تعرفه . فاستدارت لفورها ، ونصبت قامتها، وأهابت بجاريتها وهى تزفر :

ــ اسرعى بالخروج ! الى مخدعك حالا ! البثى هناك وانتظرى أوامرى !

فاتجهت الفتاة صوب أحد الابواب الجانبية ، وفتحته ، ثم مرقت منه مروق السهم ، وأوصدته خلفها . ولم تكد تختفى حتى فتح باب الصدر ودخل منه قائد جيش ملوك الرعاة سالتيس

وكان القائد رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، ضيق العينين ، غليظ الشفتين ، أقنى الانف ، ناتىء الذقن ، دميما دمامة يضاعف تأثيرها المنفر طول قامته ، وتكتل عضلاته ، وترنح رأسه الضخم ،وتهدل شعره الاسود المشوش الغزير

وارتمى القائد من فوره على القدر الكبيرة ، وقال وهو يجذب أمنريس من ذراعها ويلهث :

ــ الم تسألى ... الم تسألى الناربعد عن مصيرنا ؟ اقرئى اقرئى عليها كل ماوسعه علمك الجامع وسحرك الناجع من رقى وتعاويذ ، واكشفى لنا النقاب عن مستقبلنا ! ان جيوش فرعون تتقدم صوبنا ، وأكبر ظنىأن المعركة الفاصلة ستنشب غدا .. فخاطبى النار وطمئنينى .. ومهما قال لك اللهب الاحمر المقدس ، فيجب أن تصارحينى بهالساعة والا أهلكتك دون رحمة !

فصاحت أمنريس وهى تعانقه وتطبع على فمه المختلج قبلة مشغوفة ظمأى :

ــ ستنتصر ياسالتيس ! هذا مارأيته فى النار منذ ساعة وأنا أرقبها ! انظر ... الا ترى فى هذه الجذوة الخامدة صورة فرعون وهو منسحق تحت حوافر جوادك ، يتطلع اليك مبتهلا ويستصرخك الرحمة ؟ الاترى ابنك الوحيد « جالى » وهو يضمك الى صدره ويبكى بكاء الفرح والذهول والاعجاب

ولكنك لا ترى شيئا ... لا يمكنك أن ترى شيئا ... أنا وحدى التى أرى ! ومادمت قد رأيت ، فمن المحتم أن أكون مبصرة وصادقة ، لانى انما انظر بعين سيدى ، بعين آمون العظيم لا بعينى !

فقبلها الرجل فى لهفة مخبولة وقال وهو يجلس :

ــ الآنفقط هدأت نفسى واسترحت . تعالى ... تعالى واجلسى بجوارى ... ماشككت أبدا فى نبوءة تفيض بها

شفتاك ،ايتها الساحرة المصرية العبقرية القادرة على مغالبة دورة الافلاك ! انت ، أنت ياآمنريس حظى الباسم ، ونجمى اللامع ، وحبى الزاهر ، وملاذى بعد ولدى الوحيد وملجئى . كنت على وشك أن أتزوج بعدان فقدت امرأتى . ولكنى منذ عرفتك آليت على نفسى أن انقطع لعبادتك ، ولا اشرك فى هذه العبادة انسانا غير ولدى ! ولو ان شرائعنا كانت تبيح لنا نحن القواد الزواج بالاجنبيات ، ما ترددت لحظة واحدة فى اتخادك حليلة لى ! فانا احبك ، احبك يآمنريس الى حد الجنون ، فقولى لى انك انت ايضا تحبيننى والا قتلتك !

وزايلته رقته ، وانقلب فى مثل لمح الطرف من انسان الى وحش . فلم تضطرب امنريس ،بل ضمته الى صدرها ، وهدهدته كطفل ، وقالت له وهى تلاطفه وتداعبه :

ـ انا أحبك يا سالتيس اكثر من عينى وقلبى ، وجسمى الباقى وروحى الخالدة . ولكن اشفق على . ارحمنى . لا تقتل الاسرى المصريين رفاقى واخوتى . نحن لا نقتل اسراكم فلماذا لا تعاملوننا بالمثل ، وتحترمون شخصية الاسير الاعزل بوصفه انسانا ؟

فاومضت عينا القائد ، وعاودته وحشيته ، وقال :

ـ انت اليوم منا يا امنريس ، ولا حق لك فى التحـــدث باسم المصريين والا كنت خارجة علينا ! كل اسير من جنــد فرعون هو فريسة لنا . وما دام قد رفع السلاح فى وجهنا ، فموته اصبح حقا مشروعا لنا . لن ارحم الاسرى . سالــغ صباح الغد فى دمهم كما تلغ الضوارى ، وسآمر بقتلهم جميعا قبل بدء المعركة . فاياك ، اياك ان تشفعى لهم والا تنــكرت لحبى وغامرت بحياتك !

فصاحت وهى تصطنع التحول والقسوة :

ـ اذن ليقتلوا ولتعش أنت ! لتعش أنت لى ، فحبك هو وطنى وعشيرتى !

وانكمشت في عمق حضنه ، واردفت مبتهلة وهي تتشبث به:

ـ احرص ... احرص على حياتك جهدك .. ثم .. ثم احرص على الوديعة التى ائتمنك عليها قومك .. احرص على مفتاح أسوار المدينة ، والا فقد يفطن احد جواسيس العدو الى المكان الذى أخفيته فيه ، فيغافلك وانت فى حومة القتال ويسرق مفتاح الاسوار ، ويحمله الى فرعون احمس !

ومالت الى القائد فى دل ناعس فتان ، وقبلته قبلة هائمة طويلة ، ثم غمغمت وهى تتطلع اليه :

ـ اين ... اين أخفيت المفتاح ؟ أليس من الافضل ان تخفيه عندى انا .. انا التى لا يرانى ولا يعرفنى ولا يمكن ان يصل الى أى جاسوس !

فرمقها القائد بنظرة جانبية فاحصة ، وقال فى صوت كاسر وهو يشيح بوجهه :

ـ المفتاح فى حرز منيع . ومن المحال ، من المحال ان تعثر عليه يد انسان !

على انى لن استخدمه ابدا .. ابدا ... وحتى لو قـــدر لفرعون ان ينتصر ويهزم جيشى ، فلن أفتح له أسوار المدينة وهكذا اضطر الى محاصرتها حتى أهلك أمام عينيه أهلهـــا المصريين جميعا !

فهتفت امنريس :

ـ يالك من بطل . بطل راض نفسه على المجالدة والكفاح فلم تعد تعرف الرحمة الى قلبه سبيـــلا . انى معجبة بك وتواقة اليك ...

ومشت أليه وهى تتثنى فدفعها عنه فى رفق ملؤه الزهو وقال :

ـ سأكون هنا بعد ساعة أو أقل . ميقات ما أصدر أوامر عسكرية جديدة يقتضيها هجوم فرعون المرتقب ثم اعود ...

أريد أن أحظى بك فترة مليئة قبل أن اخوض غمار هذه الحرب الفاصلة . فالى الملتقى ياحبيبتى ، وصبرا

فتمتمت امنريس :

ـ صبرا ... صبرا .. والى الملتقى يا حبيبى ...

وقبلها فى شغف وانصرف فلوحت له بذراعهـــا ، وظلت تتبعه النظر وهى تبتسم . ثم مضت واغلقت باب الصـــدر ثم اسرعت الى القدر الكبيرة ، واشعلت فيها النار . ثم ألقت فى القدر سائلا اخضر كثيـــفا ، اتبعته برشاش اصفر ناعم صنعته من نباتات مجففة ومسحوقة ، ثم اكبت على القدر ، وتمتمت بعض التعاويذ وطفقت تحدق فى النار

وخاطبت نفسها قائلة واللهب يلفح وجهها :

ـ هناك أشخاص لاتفتأ تعذبهم ثلاث كوارث : الكارثة التى حلت بهم بالامس ، والكارثة التى نزلت بهم اليوم ، والكارثة التى يتوقع خيالهم المريض أن تعصف بهم غدا ... وهؤلاء الاشخاص هم الضعفاء ، هم فرائس الحيـــاة لانهم فى الواقع فرائس انفسهم ... أما أنا فلن أكون ضـــعيفة . لن أكون فريسة لنفسى وخيالى أبدا ! ... يجب ... يجب أن أقدم ! الانسان الذى يغامر قد يصيب الهدف أو يخطئه . ولكن الانسان الذى يجبن ولا يغامر لابد أن يخطىء جميع الاهداف ... ومع ذلك فهل فى مقدورى أن أفعل هذا ؟ لم أقدم ابدا على عمل كهذا لا أنا ولا اى مخلوق فى بلاد مصر بأسرها ! الكهنة المختارون ، هم وحدهم الذين اقدموا ونجحوا ... فهل أنجح أنا ؟ هل تسعفنى عبقريتى ؟ انها لاول مرة فى حياتى ... ولكنى لابد أن أجرب ... لابد أن أجرب اذا اقتضى الامر ... لابد أن أعرف مدى قوتى وسلطانى . لابد أن أستوثق من فيض روحى ، وسيال بصرى ، وتأثير عصبى وارادتى وعقلى ... ان الذى علمنى فنون السحر هو كاهن

آمون الاعظم . ولقد قال لى أن فى وسعى ... فى وسعى اذا شئت ان اتسلط على غيرى ... فلماذا لا اجرب لو احرجت ؟ لماذا لا احاول ؟ اننى فى الواقع اخشى لو تسلطت على انسان أن أفقد فجأة سلطانى عليه فيموت بين يدى !

ولكن لا ... لن يموت ... سأقرأ عليه ابلغ التعاويذ واوقعها وامضاها ... وسأرده الى الحياة باذن آمون العظيم ! ومتى اقترن فعل الروح بسلطان الآلهة ، فلابد أن يخضع الانسان فى النهاية ثم ينهض بعد المكاشفة والاعتراف ... وسيخضع «جالى» سيخضع لروحى ان لم يخضع لجسدى . سيذعن لمشيئتى وهو صاغر ... فلأمض اذن فى خطتى ولاتقدم ... ما الانسان ؟ انه لمنجم حى ، ولا قيمة لوجوده الا اذا حاولت ارادته أن تستخرج كنزه من الاعماق ! يجب أن اتقدم . هذا واجبى الوطنى ، وعلى أن أؤديه مغامرة بكل شىء ومستخدمة كل سلاح !

واستجمعت قواها ، واندفعت ... اندفعت نحو باب جانبى صغير ، وهمت بأن تفتحه . وفى تلك اللحظة ترامى الى سمعها من الساحة الكبرى صراخ جيش العدو وهو يهتف هتافا مدويا ، ويطالب رجال الشرطة باستعجال أمر القائد ، واعدام المصريين الاسرى . فارتعشت أمنريس وثار ثائرها . ولكنها خشيت أن يذهب بلبها الحقد ، ويفقدها سلطانها على نفسها . فتجلدت وتماسكت وابتسمت ، وقالت فى صوت رقيق لطيف وهى تفتح الباب الجانبى :

ـ تعال ... تعال ياجالى ... لاتخف ... لقد انصرف والدك ... أنا أعلم انه الآن مشغول عنى بما هو أهم بكثير منى فلا تخف ...

فبرز الشاب من مكمنه . فاحتوته المرأة بين ذراعيها ، وغمرته عامدة بقبلاتها ، وهمست فى أذنه وهى ترجف صوتها واعضاءها :

ـ كلما اقترب والدك منى ، غلي الدم فى عروقى ، وشعرت انى لا احب فى هذه الدنيا سواك ! لقد أحببتك منذ أول يوم رأيتك فيه ياجالى ... منذ أول يوم دخلت فيه هذا القصر وأصبحت أسيرة والدك ... ماذا فعلت بى ؟ لقد سلبت عقلى ، وامتلكت حواسى ، واستقر حبك منى فى الصميم . فلا تغضب على ... سأمنحك كل ماتطلب ... كل شيء !

فصرخ الشاب وهو يكاد يبكى :

ـ ثلاثة أسابيع بطولها وأنا أتعذب ... أراك تحبيننى ثم تعرضين عنى . تتلهفين على ثم تتملصين منى . وأنا بين اقبالك واعراضك ، بين اقدامك واحجامك بين رغبتك وترددك ، أكاد أفقد عقلى ! الم يكفك انى خنت والدى فى سبيلك ؟ الم تفهمى انى استهدف للموت فى كل لحظة من أجلك ؟ الم تدركى انى اغار من ابى غيرة تمـــزقنى ، وان صدك يلهب نار غيرتى ، ويوشك ان يبتلينىبالهوس والجنون ؟ إنك ان تماديت فى صدك واعراضك ، فلن ارحمك يا امنريس وقد أقتلك وأقتل نفسى !

فضمته فى عنف الى صدرها . وشخصت اليه باسمة وقالت :

ـ أفى وسعك حقا أن تقتلنى ؟

فتراجع الشـــاب مختلجا ، ونظر اليهـــا نظرة مأخوذة ، وهتف :

ـ أنا ؟ . . أنا أعبدك يا امنريس . ولا أستطيع ، لا استطيع أن اتصور لحظة واحدة أن هذه اليد التى تلمسك فى خشوع يمكن ان تمتد يوما اليك ، وتلحق بجمالك الفتان أى أذى ! ولكنى أتألم . فارحمينى . اما أن تكونى الآن لى ، واما ان اعصى أمر والدى فأذهب من فورى والتحق بصفوف الجيش الاولى ، واظل أقاتل حتى أموت !

فابتسمت نصف ابتسامة ساحرة وقالت :

ـ لن تموت . حياتك غالية عند والدك وهى أثمن عندى واغلى !

وتملصت منه ، ومطت اعضاءها فى ليونة وئيدة مغرية . ثم هزت رأسها مستنفرة جدائل شعرها . فانسدلت الجدائل السوداء على وجهها الجميل وطوقته كما تطوق السحب صفحة القمر . فشخص اليها الشاب مفتونا . فعادت والتصقت به . وقالت له فى صوت ثابت غائر خفيض :

ـ سأكون لك الآن على شرط ان تطيعنى !

فحملق فيها مستفسرا ، وهم بأن يتكلم . ولكنها لم تمهله وأردفت :

ـ اذا شئت أن تظفر بى ، فيجب أن تكون قبل كل شيء انسانا ! اقهر فى نفسك الانانية والاستهتار والقسوة . تجرد من حكم غرائزك الدنيا . تحلل من تأثير فطرتك الغاشمة . تنزه عن التقاليد الاثيمة التى درج عليها قومك . ثم انظر ... الا ترى ؟ ألا ترى الظلم الذى يحيق بأبناء وطنى ؟ الم تسمع صراخ الجيش وانين الاسرى ؟ أيرضيك أن يقتل أولئك التعساء وهم عزل من السلاح ؟ أيرضيك أن يغتصب قومك نصف أرض بلادى ، ويمعنوا فى اضطهادها وأذلالها وهى لم ترتكب فى حقهم اى ذنب ؟ تفوق على نفسك ياجالى ... دافع عن الحق والعدل والحرية ... انصر المظلوم على الظالم ... وارشدنى ، ارشدنى الى المكان الذى تعرفه حق المعرفة ، الى المكان الذى أخفى فيه والدك مفتاح أسوار المدينة ، مفتاح باب السور الرئيسى الذى يفضى الى قلب المدينة ، أمنحك روحى وجسدى مدى الحياة !

فتأملها الشاب مذهولا . وظل يتأملها فترة ثم صرخ :

ـ تريدين النصر لفرعون ؟ تسعين لمجد بلادك وانقاذ

مواطنيك من ويلات الحصار ؟ أمازلت مصرية القلب والروح وانت هنا ؟ ولكنى لن أرضى . لا أرضى أنا السيد بأن أصبح عبدا . الحق للأقوى . والحق يقره الاقوى . والحرية نعمة لايمكن أن يتمتع بها الا من كانأشجع واقدر وأقوى . فاخنقى هذا الحديث فى صدرك يا امنريس ، واعلمى انى لولا حبى العظيم لك ، ماترددت لحظة واحدة فى اغماد خنجرى فى عنقك !

فقالت امنريس وهى تتلوى :

ـ اذن فأنت ترفض ؟

فأجاب وهو ينطرح على مقعد :

ـ أرفض رحمة بك وابقاء عليك .

فدنت منه فى بطء ، وتفرست فيه ، وقالت :

ـ واذا كنت انا الاقوى ؟

فرفع اليها بصره ساخرا وضحك . فقطبت حاجبيها ثم دنت منه أيضا ، ثم غافلته وانحنت عليه وأمسكت بكتفه ... وفجأة صوبت اليه عينيها الواسعتين المتقدتين ، ورددت فى صوت غائر أجش وهى تحدق فيه تحديقا ثابتا ممعنا دافقا عميقا :

ـ انا ... انا الأقوى ياجالى ...

وسلطت عليه نظرات مندلعة كالنار ، حادة كالسهام ، مرقدة ومذيبة كخمر ساحقة . ثم مدت يدها ، ومست جبينه بأصابعها ، وقالت وهى ما تفتأ تحدق فيه :

ـ نم ... أقول لك نم ... آمرك ... آمرك باسم آمون القاهر أن تنام ... آمرك أن تنفصل بروحك عن جسدك وتنام ! .. باسم آمون الذى يقهر الشر ، وتبدد شمسه سحب الظلام ، ويكتسح فيضه كالنيل رمال الصحراء ، آمرك أن تنام !.. يجب أن تنام ... انت نائم ... أنت الآن نائم ...

انت الآن ملكي . . أنت الان رهن اشارتي !

فجعل الشاب يغالبها وهو يتطوح . ولكنه لم يقو عليها . لم يستطع أن يواجهها . لم يجد فى عقله ولا فى ارادته مايعينه على اتقاء لهب عينيها . فاختلج بالرغم منه اختلاجا عنيفا ، وسقط رأسه على حافة المقعد ، وراح فى سبات عميق . فانحنت عليه هادرة وقالت :

تكلم الآن . . . قل . . . أين . . . أين مفتاح الاسوار ؟ . انه امامك . وانت تراه . فتكلم . اين هو ؟

فلبث يكافح بضع لحظات ثم غمغم فى صوت كأنه خارج من اعماق كهف :

ــ هنا . . . فى مخدع والدى . . . فى مخدعه الخاص . . فى جوف القاعدة الخشبية التى ينهض عليها التمثال الصغير . تمثال ملوك الرعاة !

فأبرقت عينا أمنريس ، وأرسلت صيحة فرح قاصفة ، واتجهت صوب أحد الابواب ونادت :

ــ تامينا . . . تامينا !

فلاحت الجارية مذعورة مهرولة . فما أن أبصرتها أمنريس حتى ارتمت عليها وأهابت بها :

ــ الى القاعدة . . . قاعدة تمثال ملوك الرعاة . . . فى مخدع القائد . . . المفتاح هناك . فارفعى التمثال فى رفق ثم انزعى المفتاح من جوف القاعدة . . . ثم ردى التمثال الى موضعه ، واصعدى حالا الى سطح القصر ، واحملى المفتاح الى رحيو الذى عليه أن يتسلق الاسوار مسرعا ، ويسلم المفتاح الى أمين سر فرعون ! . . . هيا . . .

فبهتت الفتاة ، وألقت على الشاب النائم نظرة مستغربة . ثم لمعت عيناها وانطلقت من فورها الى الخارج وهى تعدو .

وكرت أمنريس راجعة ، وحدقت الى الشاب وارتجفت . .

لا ... انه لن يموت ... لا ينبغى أن يموت ... ولكن أفى وسعها أن توقظه ؟ أفى مقدورها أن ترد اليه الحياة ؟ يجب ، يجب أن يستيقظ ... يجب أن يعلم ... يجب أن يدرك أنها كانت هى الاقوى !

واستنهضت كل قوى روحها ونفخت فيه ... استعانت بأقدر آلهتها وأفعل تعاويذها وأبلغ مايمكن من علم وحزم فى لباب عبقريتها ، ثم مست جبين الفتى بأصابعها ، وسلطت عليه صفوة فكرها وايمانها وارادتها . فتحرك بغتة وتململ . ثم فتح عينيه الحالمتين الزائغتين ، ورفع رأسه ، وتطلع اليها ..

واشرق وجهها . اما هو فلم يكد يبصرها حتى تنفس وابتسم ... ابتسم كالطفل المطيع . ابتسم كالحمل الوديع . فابتهجت امنريس وابتسمت هى أيضا . فبسط الشاب ذراعيه وقال وهو تائه :

أين أنا ؟ بى صداع ... ماذا وقع لى ؟ أنا فى شبه نشوة .. هل شربنا خمرا ؟ اين كنت ؟

فقالت امنريس ضاحكة :

ــ كنت هنا ... معى ... لم تبرح مكانك ولم تشرب كأسا واحدة . مابك ؟

أتشعر بدوار ؟ ربما كنت قد فكرت فى شىء أحزنك ؟

فقال :

ــ لا أذكر ... لا أذكر شيئا ... لا أظن ...

فملك الزهو امنريس ، وأيقنت من سلطانها .

فأرادت أن تضاعف شعورها بهذا السلطان ، فصاحت بالشاب آمرة :

ــ اسرع الى بمرآتى .. هاتها واجث أمامى . وابق جاثيا ريثما أضفر شعرى ! ...

فهب واقفا ، وجاءها بالمرآة . ثم زحف اليها كالكلب وجثا عند قدميها ، وظل جاثيا وهى ترمقه بنظرة جانبية وتعقد لاهية جدائل شعرها ...

ولما رأته فى وضعه الزرى صابرا جامدا خاضعا ذليلا ، واستوثقت من قوتها وضعفه ، اشتد احتقارها له وحقدها عليه واشمئزازها منه . فنهضت واثبة وهمت بأن تطرده . وعندئذ ، وقبل أن تنبعث من شفتيها المتاويتين كلمة ، ترامت الى الحجرة صيحات بعيدة ، صيحات متقطعة ، صيحات مروعة مصحوبة بدوى أبواق وصفير سهام ودق طبول وصهيل خيول . فأصاخت أمنريس السمع وهى ترتعش ، ثم قالت وقلبها يخفق :

ــ اتسمع ؟ أتسمع ياجالى ؟ ..

ثم ومضت عيناها ، وانفجرت كوامن حقدها وصرخت :

ــ لقد هجم فرعون ! ان والدك لن يعود الآن وقد لا يعود أبدا ! انها المعركة ! .. المعركة الفاصلة !

فقال الشاب وهو ينصت :

ــ لاشك أنها قد بدأت منذ حين !

واقتربت الصيحات ، وتعالت كأنها هدير الموج ، فارتج صرح القصر المجاور للاسوار ، وتجاوبت حوله الصرخات ، مختلطة مشوشة عاتية ، اشبه باندفاق سيل ، أو زمجرة رعد ، أو زئير غابة تتناحر فيها وحوش . فتلفت الشاب مضطربا حائرا وقال :

ــ ينبغى أن أذهب .. يجب أن الحق بالجيش ..

فعاجلته المرأة بقولها :

ــ ماذا تنتظر ؟ اذا كنت صادق الرغبة فى القتال ، فأسرع ..

فتقدم خطوة وغمغم مستجديا :

ـ أمضي ؟ هكذا ؟ وأنا بعد لم أظفر منك بأي شيء ؟
فقهقهت أمنريس قهقهة طويلة ، وقالت :

ـ أتفكر الآن في نفسك ؟ أتريد أن تظفر بالمرأة أولا ؟ اتغلب نداء حبك على دعوة واجبك ؟ أهذه هي القوة التي كنت تفخر بها منذ لحظات ؟

فلم يحفل بكلامها ، واندفع نحوها ، وقال وهو ينتفض :

ـ قد أموت في المعركة ! فلابد . . لابد أن أظفر بك ياأمنريس قبل أن أموت !

فصوبت اليه عينيها المتقدتين وقالت :

ـ وأنا . . أنا أريدك أن تبقى ! . . وأنت ، أنت نفسك تعتمد على شجاعة والدك القائد ، وتريد أن تفر من القتـــال وتبقى ! فابق اذن . ولكن لا لتستمتع بل لتسمع ! أفاهم أنت ؟ سأمزق الغشاوة عن عينيك ، وأسر اليك نبأ يسـجل ضـعفك ، ويفضح رجولتك ، ويلمسك قوتي التي سـخرت منها واستهنت بها ! فاسمع النبأ وانقله الى والدك وليـكن ما يكون !

ومالت اليه بجمعها ، وهمت بأن تتكلم ، ولجب المعـركة يتدفق عليها ويصم أذنيها ويدوى حولها كبحر مصطخب

وفي تلك اللحظة فتح باب الصدر في عنف ، وبرز منه القائد سالتيس . فما أن أبصر الشاب والده حتى ارتعـد وملـكه الذعر . فاندفع نحوه وقال :

ـ جئت أبحث عنك ! . . كنت أخشى أن يهجم فرعون الليلة فجئت لانبهك . . .

فلم يكترث له سالتيس ودخل . . دخل البهو محدودب الظهر ، مشعث الشعر ، مخضب الوجه بالدم وملوث الصدر بالوحل والتراب ، وصاح بأسيرته وابنه وهو يرجف :

ـ أعدوا أمتعتكم . . وارحلوا . ارحلوا حالا . . الى قصرى

فى الصحراء ! لقد انهارت مقاومة جنودنا ، وزحف العدو ، وأصبحت جيوشه أمام الاسوار !

فخفق قلب امنريس فرحا وزهوا ، وصرخ الشاب :

ـ انتصر فرعون ؟

فصاح القائد وهو يهدر :

ـ انتصر . ولكنه لن يدخل ! .. لن يدخل اليوم المدينة مهما حاول ! لن يدخلها الا وهى كومة من رماد ! سيحاصرها ولا ريب اياما ، بيد أننا سنهدمها . سنحرقها . سنأتى على كل شيء فيها من انسان ونبات وحيوان ! لن يدخل اليوم فرعون المدينة مهما حاول !

فوثبت امنريس كوحش مفترس ، وواجهت القائد شامخة متحدية ، وصاحت بأعلى صوتها :

ـ بل سيدخلها ! وسينفذ فيها كما ينفذ الخنجر فى قطعة من عجين !

فتحول اليها القائد مروعا مستنكرا ، ولكنها لم تمهله واردفت :

ـ ان فى يد فرعون الآن مفتاح الاسوار ! ... وانا .. انا التى اقتنصته .. انا التى سرقته .. انا التى انتزعته من ولدك هذا ... من ولدك ... أتفهم ؟

فوجم الرجل وجحظت عيناه . فاستطردت أمنريس كمعتوهة :

ـ لقد خدنك ولدك وأحبنى ! خدنك وأحبنى . فاستدرجته وأردت أن اعرف منه اين أخفيت أنت المفتاح ولكنه كان جبانا يحب حياته أكثر منى ، فخشى أن تقتله وأبى أن يهدينى .. ومع ذلك فقد انتزعت سره بالرغم منه ! أتدرى ماذا فعلت ؟ لم انتصر عليه بمحاسنى ... لم أنتصر عليه انتصارا رخيصا بوصفى أنثى ... كان ذلك فى وسعى ولكن الوقت كان يسرع

فرعون بالابواب . فقهرت والدك بسحرى ، بفنى ، بالعلم ... بعلم المصريين الذى لايبارى .. نومته .. أتفهم ؟ اخضعته لارادتى ... فصلت النفس منه عن الجسد ، وهبطت الى أعماق روحه وانتزعت السر ! .. فهو .. هو الذى خانك مرتين وأرشدنى ! والمفتاح فى هذه اللحظة هنك ... فى يد فرعون ... انتقل من قاعدة التمثال الى يد فرعون ! وسيدخل فرعون المدينة ... الآن ... سيدخل ممفيس الان ، وينقذ اسرانا ثم يطبق عليكم ، ويفتن فى التنكيل بكم ، قبل أن تثأروا ايها المتوحشون من بلاده ورعاياه ! أما انا فلن أفر معكم ! لن أتبعكم ! لن أبيح نفسى بعد اليوم لطاغية ! لم أعد أسيرة ! .. لقد تحررت !.. فاقتلونى .. اقتلونى اذا شئتم ، فقد أديت واجبى !

فالقى عليها الوالد والولد نظرات متربصة متحفزة ملؤها الحقد والكمد والبغض . ولكنهما قبل أن يثبا بها ، وقبل أن تصمت هى وتلتقط أنفاسها ، تصاعدت من النافذة بغتة صرخات جنود فرعون وهم يدخلون المدينة من باب السور الرئيسى ، ويتدفقون على أحيائها هاتفين مهللين . فطاش صواب الرجلين ، وجن جنونهما ، فانتزعا خنجريهما ، وانهالا بهما طعنا على أمنريس

وسقطت الشهيدة المصرية على الأرض ، وجاهدت مااستطاعت لتدنو من النافذة . ولكن بدنها تصدع فجأة وهوى . فلفظت أنفاسها الاخيرة وهى ترهف السمع الى تهليل الجنود وتبتسم ... !

## بلاد فارس

# معركة الشرف

« كان « البارتيون » وهم قبائل انحدرت من شمال غرب آسيا ، يحكمون بلاد فارس حتى عام ٢٢٦ للميلاد . ولكن البطل الفارسي الصميم « ارتكزرسيس » أعلن الثورة عليهم وحاربهم وحقق استقلال بلاده . ففي ذلك العام نفسه ، في قصر من القصور المجاورة لسهول مدينة « كرمان » حيث كانت رحى القتال ما تزال دائرة بين البارتيين وجيوش الفرس الاحرار ، وقعت حوادث هذه القصة التي يفخر بها التاريخ الفارسي »

كان الشريف الفارسي « سيروس » كهلا في نحو الستين من عمره ، أشيب الشعر ، غليظ الانف ، محدودب الظهر ، تبدو عليه مظاهر شيخوخة مبكرة ، يحاول ما استطاع أن يلطفها بروحه المرحة وحديثه العذب

وكان هذا الكهل الدميم يحب صبية في الثانية والعشرين من عمرها هي النبيلة الشائقة الحسن « جولستان » زوجة السيد الفطريف الرائع الجمال « رستم »

كانت هذه المرأة آخر حب في حياة الكهل سيروس . وكان قد التقى بها لاول مرة في احدى الحفلات بعد أن توفيت زوجته . فهام بها ، وأسرع فتعرف الى زوجها ، واتصل به ، وأصبح صديقا حميما له ، وظل ثلاثة أعوام كاملة يزور قصر رستم دون أن ينطق لسانه بكلمة واحدة تنم عن حبه الخارق وعذابه العميق .

ولم يكن سيروس ينشد في هذه الدنيا غير التطلع الى وجه جولستان ، وتأمل عينيها السوداوين الساحرتين ، والاستماع لصوتها الساكن الرخيم ، ومراقبة ابتسامتها الرقيقة الحلوة وهي تنبثق من شفتيها الحمراوين اشبه

بزهرة عجيبة لاتلبث أن تتفتح حتى تملأ الجو كله عبيرا وبهجة وطربا

والحق أن كتمان الحب ، وتقديس الحبيب ، والصبر على العذاب ، كانت فضائل تصدر عن عقيدة الشرف الراسخة التى كان يمجدها سيروس ويأخذ بها سواء فى عواطفه الخاصة، او فى سلوكه مع الناس ، أو فى وطنيته الصادقة التى طالما برهن عليها بسعيه المطرد لاستقلال بلاده ، وبذل امواله لنصرة المجاهدين فى سخاء لايبارى

فعقيدة الشرف فى المعاملة ، وفى الوطنية ، وفى الحب كانت شعاره . وكان هذا الشعار هو فخره وملاذه ، يحرص عليه فى دقة وصرامة وكبر ، ويستمد منه القوة يخنق بها غرامه فى اطواء نفسه وهو يبتسم فى المجتمع ويضحك ، ويتلوى فى الوحدة ويجأر ويبكى ...

وكان يعلم علم اليقين أنه كهل ودميم ، وأن حبه عاطفة مستنكرة ومخبولة ومستحيلة التحقيق . ومع ذلك فقد كان يتحمل ويرضى ، مكتفيا بنعمة النظر الى جولستان ، منتشيا بسماع صوتها الرخيم ، صامتا ثابتا متجلداً ، لايشكو ولاَ يتململ ...

بيد أن مأساته لم تكن فى شعوره بلوعة ضعفه ، وحسرة عجزه ، ومرارة يأسه ، بل كانت فى شعوره بأن جولستان نفسها تتألم ، وأنها تاعسة ومنكودة ، وأنها تحب زوجها الى حد الهوس ، وان زوجها الرائع الجمال رستم ، يغرر بها ، ويضللها ، ويخدعها ، ويتبع كل حسناء عابرة حتى ولو كانت متبذلة وفاجرة ومن شر الغوانى

فحب جولستان لزوجها كان لايعذب الكهل العاشق المسكين بقدر ماكانت تعذبه خيانات الزوج الفاضحة ، وصورة الالم العميق المرتسم على محيا جولستان ...

وكان الكهل يعبدها ويتمنى ان يراها سعيدة . وكان زوجها ينبذها ويابى الا أن يجعل منها اشقى النساء . فهذا الشقاء هو الذى كان يحز فى صدر سيروس ، ويضاعف حبه ، ويملأ حياته كآبة وغما

ولم يكن فى وسعه ان يبصر جولستان وهى تتألم . لم يكن فى مقدوره أن يلمحها وهى تبكى ، وتسبل أهدابها الطويلة على عينين ذابلتين متقرحتين بائستين

وامضه عذابها ، وضاق صدره ذرعا بمسلك زوجها . فوطن النفس على بذل المستحيل كى يرد رستم الى جولستان ويسعدها ...

ولم يتردد وشرع يكافح . شرع ينصح الزوج ويرشده ، ويهديه ويوجهه ، ويبرز له محاسن امرأته ، ويشيد باخلاصها وولائها ، ويقارن ويفاضل بين مفاتنها البريئة الطاهرة وبين مابكمن فى طباع الغوانى من غرائز منحرفة وفاتكة ، سداها العشق المبرح ، ولحمتها الخبث والدهاء والطمع والغدر

وكان العاشق الكهل ينصح وهو يتجلد ، ويوفق وهو يتفطر ، ويحاول ان يقرب ويصلح والحسرة توشك أن تعتصر فؤاده ، وتفجر من عينيه الدموع . ولكن الزوج لم يتأثر ولم يحفل ، سخر من صديقه ، وصد عن امرأته ، وعاد يعب ظامئا فى ملذاته دون ما وازع من رحمة او رادع من خلق أو ضمير

وكان رستم موزعا حياته بين النساء والحرب . ينخرط فى سلك النبلاء المتطوعين ويقاتل اعداء بلاده فترة ، ثم تستبد به شهواته ، فيهرع الى الغوانى ، ويظل أياما بطولها يعبث ويلهو حتى تعاوده نزوة الحرب فيكر راجعا الى ميدان القتال

فهذا التوزع المنكر فى شخصيته ، هذا التوزع المقرون بالتجرد المطلق من فكرة الواجب وعقيدة الشرف ، كان هو الرذيلة التى حاول الكهل سيروس ان يخنقها فيه ويحرره

منها . غير ان رستم كان طائشا بالفطرة ، عربيدا بالسليقة ، لا يتذوق الحياة الا اذا عاش فى الفوضى ، وأطلق العنان لشتى غرائزه . فلما لم يكترث رستم لنصح سيروس واشتد اقباله على معاشرة الغوانى ، احتـــدم سخط جولستان ، وثارت كبرياؤها ونهشت قلبها الغيرة ، فشاع فى أخلاقها الوديعة الرقيقة تجهم طارىء سرعان ما اقترن بسهوم واجم مرهوب

تحولت جولستان وتبدلت هى الاخرى ... بدأت تنظر الى الحياة ، وتصبو الى الدنيا ، وترمق الشباب المعجبين بها ، وتفكر هى أيضا فى أن تعيش وتكيد وتنتقم ...

زايلتها براءتها الناضرة ، وعزتها الراسخة ، وكرامتها الشامخة ، وراودتها الخلاعة ، وخالسها التبذل ، وأوشكت جاذبية الاغراء أن تجرفها وتجعل منها وهى السيدة النبيلة شبه غانية

وأحس العاشق الكهل بتحولها وارتجف . هاله أن تتدهور . هاله أن تتلوث . هاله أن يتحطم المثل الاعلى الذى صاغه منها وأحبه فيها . فجثا على الارض ذات يوم أمامها ، وتوسل اليها أن تصون شرفها ، وتصون عرضها ، وتظل أفضل وانبل من زوجها ، عساها أن تخجله يوما بصنيعها ، وتسترده فى النهاية وتنقذه وتنقذ نفسها

بيد أن المرأة كانت قد استحـــالت الى مخلوقة موتورة حاقدة متربصة ، اظمأ ما تكون الى الثأر والتشفى

واستشعر الفرسان الشباب تغيرها ، فتراموا عند قدميها متسابقين . فتأملتهم والكمد يدفعها ، والخوف يلجمها ، وبقية باقية من عفة وحياء تحول بينها وبين القيام بالخطوة الفاصلة ، التى يتلهف قلبها الحاقد عليها . ولكن حقدها كان أقوى منها فضعفت ، وميزت من بين الفرسان شابا ، اقبلت عليه مختارة وهمت بأن تتصل به

وعندئذ لم يتردد الكهل سيروس ، وحزم أمره ، واقسم أن ينقذها . آلى على نفسه أن يصرف الفارس الشاب عنها ، ولو تنكرت له المرأة وأبغضته وطردته

واتصل بالفارس الشاب فعلا وحذره ... توعده بمكاشفة الزوج عن حقيقة نواياه . ففزع الشاب وتراجع واختفى . فتنبهت جولستان وادركت أن سيروس هو الذى فعل هذا . فاستهولت جرأته ، ونقمت عليه ، وقام بنفسها أن تتنكر له وتطرده . ولكن الرجل كان رقيقا ، وكان طيبا ، وكان فى حبه المخلص وغايته النبيلة شريفا حقا وعظيما . فأشفقت عليه جولستان ، واكبرت عاطفته ، وضنت بصداقته ، ولم يغضبها فى قرارة نفسها أنها حرصت بفضله على شرفها ، لانها كانت فى الحقيقة ما تزال تحب زوجها وتأمل وهى تفكر فى الثأر منه ان يثوب يوما الى رشده ، فيرتد اليها قبل أن تزل بها القدم . غير ان رستم الخليع كان فى خلال هذه المحاولات جميعا لايرى ولايسمع ولا يعى . كان ممعنا فى اعراضه ، سادرا فى غيه ، مطلقا العنان لشهواته ، مستغرقا لا فى اللهو فقط بل فى الحب ... كان قد وقع فى حب غانية مشهورة تدعى « امسترس »، خلابة سلابة رواغة ، عرفت كيف تحتال عليه وتبتز ماله وتتفوق على أترابها جميعا وتتصيده

وكان رستم قد تورط ورهن خفية بعض املاكه وباع البعض الآخر لينفق عليها . فعلمت بذلك جولستان . فاشتد سخطها وهياجها ، وطالعها شبح الخراب .. فعزمت أن تغامر بحبها وحياتها ، فاما ان يقهر زوجها غرائزه ويهجر عشيقته ويصبح لها وحدها ، واما أن تضحى به غير آسفة وتنفصل عنه !

واحس سيروس أن الكاس توشك أن تفيض ، وأن ثورة جولستان قد تجرف فى طريقها كل شيء . فالتمس اليها أن

تتعقل ، والتمس اليها أن تتريث ، وأن تدعه هو يتصل بزوجها ويحاول مرة أخرى أن ينبهه ويرشـــده ويوقظ فيه روح الشرف وحاسة الضمير

ولكن المرأة كان قد نفد صبرها ، فانتهرت الكهل المسكين ، وصبت عليه جام غضبها ، وطردته ذات ليلة ، ثم استجمعت قواها وانتظرت مقدم زوجها ، وتهيأت لمكاشفته بما علمت وبما استقر عليه عزمها

وكان سيروس ينظر اليها مسلوب الحـــول طائر اللب ولا يستطيع حيال عزمها القاطع أن يعترض حتى بكلمة . فلمـــا صرفته زاجرة آمرة ، خرج وهو مطرق الرأس عاجزا وذليلا ، وتنفست هى الصعداء ، ومضت فاستلقت على احدى الارائك وراحت تفكر فى ماضيها وحاضرها وما يمكن أن ينتهى اليه فى غد مصير حياتها ، تبدل كل شىء فى لحظة مروعة خاطفة ووقع مالم يكن فى الحسبان ...

تصاعد من الخارج فجأة صوت زوجها ... وكان الصوت أبح مزعجا متحشرجا ملهوفا . فأجفلت جولستان ونهضت ، وظلت واقفة شبه مأخوذة تتطلع وتلهث وتنتظر ...

ودخل رستم ..

دخل جاحظ العينين ، غائر الوجنتين ، مشعث الشعـــر متهالكا ومنسحقا . فاندفعت اليه جولســـتان بالرغم منها ، وتلقته مذهولة بين ذراعيها ، واختلجت وانخلع قلبها . نسيت فى لحظة كل شىء .. نسيت ذلها وغيرتها وعذابها . نسيت حقدها وثورتها وعزمها ، وضمت زوجها فى عنف الى صدرها ، وهتفت به وقد استفاق حبهـــا وغمرها بالشفقة واللهفة والحنان :

ــ مابك ؟ تكلم ... مابك ؟

فأجال رستم فى امرأته بصرا زائغا ثم دس فى جيبـــه يدا

مرتعشة واخرج منه كيسا مملوءا بالنقود ، القى به على المنضدة وصرخ :

ــ من اجل هذا المال .. من اجل هذه الثروة .. بعت انا يا جولستان كرامتى وضميرى وشرفى !

فحدقت اليه كمخبولة وحاولت أن تتكلم ، ولكنه لم يمهلها ورفع رأسه جاهدا ، والتعط أنفاسه ، ومضى يقول وكلماته تتقطع وتتعاقب فى سرعة محمومة كأنها سيل منهمر :

ــ الوطنيون يطاردوننى ! انهم الآن فى اثرى .. أتفهمين ؟ كنت فى حاجة الى مال ... الى مزيد من المال أنفقـــه على امسترس .. على عشيقتى .. فلم أتورع ، وتجـردت من سلاحى ، وتركته فى مخدع أمسترس ، ثم انسللت الى خطوط أعدائنا ، أعدائنا البارتيين ، واتصلت بهـــم ، وساومتهم على أسرار جيشنا ، وبصرتهـــــم بكمين كان قد أعده لهم بعض جنودنا . فأطبق البارتيون فجأة عليهم وجردوهم من سلاحهم وذبحوهم .. ذبحوهم .. ولكن قائدهم الفارسى نجا بأعجوبة فابصرنى .. لمح طيفى فى الظلام الدامس وأنا اكر راجعا الى خطوطنا والوذ بالفرار . فأيقن من جريمتى ، وتعقبنى ليعرفنى فانطلقت اركض كمعتوه عساى أن اصل الى هنا قبل أن يتبين الرجل موقع بيتى . ولكنه رآنى .. رآنى وأنا أدخل البيت . رآنى وان كان لم يعرفنى فطفق يصرخ ويتوعدنى . ولما كان اعزل من السلاح فقد انكفأ راجعا وتغلغل فى بطن الظـــلام واختفى . فهلع قلبى ، وصعدت الدرج وثبـــــا ، فالتقيت بسيروس وهو خارج من عندك . فتشبثت به ، وقصصت عليه فى بضع كلمات ما حدث ، والتمست منه أن ينقذنى فذهل الرجل وظل يرتجف ، ثم سبح فترة وشرد ، ثم أطرق برأسه والقى على نظرة رثاء مزقتنى . ثم وعـــدنى بأن يذهب الى عمدة القرية ويستخدم نفوذه لديه لانقاذى .. انقاذى ؟ أممكن

هذا ؟ ان سيروس لن يلوث شرفه ويشفع لى ! أما العمدة فلن يستطيع ان يتنكر لواجبه وينقذنى . وما أنا فلو فررت فستثبت التهمة على ! لابد اذن من الخضوع والتسليم ! سيكون القائد ورفاقه هنا بعد لحظات .. وسأحاكم . . سأحاكم وأعدم شنقا ياجولستان .. فاشفقى على ، واصفحى عنى . فأنا سأموت ولكنى أعلم بأنى أستحق أن أموت ! لقد عذبتك وشقيتك وجلبت عليك العار ! لقد ختم الحب الاثيم على بصرى . لم تكن لى فى الحياة غاية غير شهواتى . أجل . كنت وضيعا . كنت حقيرا . كنت دنيئا . ومع ذلك فأنا أشعر الآن أن ندمى الصادق يمحو جرائمى ، وان حبل المشنقة لا يخيفنى لانى قد كرهت نفسى وكرهت الحمأة الملعونة التى كنت أتمرغ فيها راتعا فى رذائلى ! فاشفقى على ياجولستان ولا تحزنى ! لا تحزنى بل ابتهجى . ابتهجى ليقظتى ، وقدرى توبتى وندمى واصفحى عنى !

وانتفض انتفاضا عنيفا وبكى . فأرسلت جولستان صيحة ملتاعة ، واتجهت ببصرها نحو خنجر صغير كان مثبتا فى الحائط ، فانتزعته وقالت :

ـ بهذا سأقضى على نفسى لو قتلوك يا رستم !

فصاح وهو يجردها من السلاح ويلقى به على المنضدة :

ـ بل يجب أن تعيشى لامضى أنا مثلج الصدر قريرا ، شاعرا على الاقل بأننى قد انقذتك منى وأسعدتك !

فتمزق قلب المرأة ولم تجب . وتحسست بدن زوجها فى خبال ، وروعها أن يعود اليها نادما مستغفرا متساميا ثم تفقده . فطفقت تقبله وتضمه الى صدرها . وانهمرت دموع الحسرة من عينيها ، واحتواها اليأس والرعب

ولبث الزوجان فترة طويلة تائهين شاردين متعانقين ، يلوذ الواحد منهما بالآخر ، وينصت كلاهما الى وقع أنفاسهما

المتعاقبة المتهافتة ، وهما يختلسان النظر الى الباب وينتظران حكم القدر ...

وفجأة ، ومن خلال الصمت الزافر كأنه ضباب عاصفة ؛ ترامت الى سمعهما حركة بعيدة ، ضجة غريبة مشوشة وغامضة . فاقشعر بدن رستم ، واستبد الرعب بجولستان ، وفتحت النافذة الكبيرة وحدقت الى السهل الفسيح ..

وانجذب زوجها الى منطلق الصوت فتبعها ، وتفرس فى الظلام الحالك مثلها ، وحاول هو أيضا أن يسمع ويتبين ويرى ...

وفى تلك اللحظة ، وبينما الزوجان يطلان على السهل الفسيح ، اشتدت الجلبة واحتدمت الاصوات ثم خفتت بغتة وتصاعد من بينها صوت بعيد . صوت عميق . صوت فيه أمر وفيه قضاء . فارتعشت جولستان ونظرت الى زوجها مستفسرة ثم اتقد وجهها على الفور ، واندلعت عيناها ، وملكتها فكرة لم تستطع أن تقاومها . فاندفعت نحو الباب وفتحته ، وهمت بأن تهبط الدرج . ولكنها لم تكد تفعل حتى تراجعت وهبط قلبها فى صدرها .

أبصرت فلاحة من خدمها مقبلة عليها . تلطم وجهها بكفها ، وتلهث وتجهش بالبكاء . فثار ثائر جولستان وصاحت بها :

ـ كيف تركت بيتك وزوجك فى مثل هذه الساعة ؟ ما الذى أيقظك وماذا حدث ؟

فتطلعت الفلاحة فى ذعر الى سيدتها وقالت وهى تبكى :

ـ لقد قتلوا سيدى الشريف سيروس !

فصرخت جولستان

ـ ماذا تقولين ؟

فغمغمت المرأة :

ـ لقد اعترف .. أمامنا .. اعترف بأنه هو .. هو الذى

بصر العدو بالكمين الذى كان قد أعده له جنودنا . فحاكمه القائد ورفاقه وأعدموه الآن شنقا فى الساحة الكبرى !

فغام الجو فى عينى جولستان ، وأحست كأن الارض تميد تحت قدميها .. فصرفت الفلاحة ولبثت لحظة شاردة .. ثم التهب فكرها واضطرم خيالها وازدحمت فى ذهنها الاطياف والرؤى ، وتمثل لها سيروس ... تمثل لها الكهل المسكين ، بشعره الاشيب ، وفمه الغليظ ، ووجهه الدميم . فتأملته وهى ترتعش . وخيل اليها أنه يدنو منها ، ويطيب خاطرها ، ويسرى عنها ، وان فيضا ساحرا من النور يندفق منه وينسكب عليها . فاختلجت وأدركت الى أى حد بلغ حبه العظيم لها ، ولاية غاية سامية ضحى الرجل بنفسه وقضى . فأغمضت عينيها خاضعة ومعجبة ، مشفقة ومكبرة ، ثم تحركت واستدارت ومشت كمن يحلم ، واتجهت نحو قرينها . اتجهت نحو رستم ولكنها ما أن قاربته وواجهته وحدقت فيه ، حتى بهتت .. بهتت وارتعدت .. ارتعدت وفغرت فاها كبلهاء .. أبصرت زوجها ، زوجها نفسه ، زوجها الذى كان يتخبط الآن ويجأر ويبكى ، مشرق العينين ، ملتمع الوجنتين ، متألق التقاطيع ، ينظر اليها فى سكون هانىء واثق مطمئن ، ويحرك شفتيه فى لهفة محتجزة كأنما هو يهم بأن يهتف أو يبتسم . فطاش صوابها ، وأمسكت به ، وهزته من ذراعه هزا عنيفا ، وقالت :

— ألم تسمع ؟ الرجل قد مات ! مات من أجلنا ! ضحى بنفسه من أجلنا ! فما الذى اعتزمته ؟ وماذا .. ماذا فى نيتك الآن أن تفعل ؟

فلم يستطع رستم كبح عواطفه ، وغلبته فرحته فابتسم فعلا ، ثم لوح بيديه تلويح اليأس وقال :

— وهل فى وسعى أنا أن أرد اليه الحياة ؟

فتفرست فيه جولستان لتفهم فلم يعبأ بها واستطرد يقول :

ـ انى لأقدر عظمة الرجل وقيمة نبله وتضحيته وفهمه لمعنى الصداقة . بل أشعر ان خسارة انسان مثله لايمكن أن تعوض . ولكن ماحيلتى . ؟ ماذنبى . ؟ ان مايعزينى هو انه كان رجلا طاعنا فى السن ، ولم يكن فى مقدوره ان يعيش اكثر مما عاش ... على انه قد مات بمحض ارادته ولست أنا المسئول عن تضحيته . أن واجبى الآن هو ان اذكره بالخير واهتم بحياتك وحياتى فقط .. فاياك ان تنسى ياجولستان ان الشبهة ما تزال حائمة حولنا .. حول بيتنا .. وان القائد قد يحقق معنا فى اية لحظة . فاضبطى اعصابك ، وانظرى الى الواقع .. انظرى الى زوجك ومستقبلك .. صحيح انى قد أسات اليك فى الماضى وعبثت بك وخدعتك ، وبددت معظم ما أملك على الغوانى . ولكن هذه الحادثة بدلتنى .. ايقظتنى .. فأنا اقسم لك ياجولستان انى ساظل وفيا لك طوال حياتى ، وانى لن أخون عهدك بعد اليوم ابدا .. سأكون لك وحدك ! وسأتخذ من هذه الثروة .. من هذه النجدة .. هذه النجدة غير المنتظرة ، وسيلة لانقاذ نفسى من الخراب واسعادك

فلم تصدق المرأة سمعها وذهلت . خيل اليها انها قد فقدت رشدها . فأشارت الى المنضدة الجاثم فوقها كيس النقود وصرخت :

ـ أفى نيتك أن تستولى على هذا المال ؟

فأجاب ضاحكا :

ـ وهل تريدين أن أسلمه الى القائد واموت ؟

فقالت وهى ترتجف :

ـ ولكن هذا المال هو ثمن خيانتك ، هو ثمن ارواح اخوانك، وثمن جثة الرجل العظيم الذى مات شهيدا من أجلك !

فقال ساخرا :

ـ واذن فيجب أن أبعث الاموات ، واقتل الاحياء : والقى

بهذه الثروة من النافذة ؟

فماجلته بنظرة صاعقة وقالت :

ـ لا .. بل يجب ، يجب أن تهبها لاسر ضحاياك ! لزوجات وابناء جنودنا الذين قتلوا بسببك !

فعيل صبر رستم وقال :

ـ لست من الغباء بحيث تسعى الى النعمة فأركلها بقدمى ! انت امرأة عاطفية حمقاء . أما أنا فلن أتغفل نفسى ولن أتنكر لحظى ولن أفرط فى هذا المال أبدا !

فدنت منه جولستان ، وتأملته . تأملت عينيه المتقدتين ، وشفتيه المتلهفتين ، ووجهه المتصلب المتورم المحموم ، وهالها تبدله . هالها تبدله الطارىء المنكر المخزى . هالها اسفافه واصراره وطمعه وغلظته . فارتدت عنه متأبية مستنكرة ثم قالت وقد تحولت عواطفها ، وأخذ الاشمئزاز بمخنقها ، ودوت فى صوتها عوامل الحنق والسخط والاحتقار :

ـ لو كنت شهما لما ترددت فى أن تفرط فى كل شىء ... فى المال وفى حياتك أيضا !.. كان الواجب يقتضيك بعد ان مات سيروس حافظا عليك شرفك وحاملا عنك عبء جريمتك ، أن تكفر أنت عن هذه الجريمة النكراء بنبذك المال الذى جنيته منها وانخراطك فورا فى صفوف المجاهدين ! هذا ماكنت أتوقعه منك بعد أن سمعت اعترافك ! هذا ماكنت أعتقد أنه لابد أن يصدر عنك بعد توبتك ! ولكنك لم تتغير ! اتسمع ؟ لم تتغير .. لقد خدعتنى .. خدعتنى مرة أخرى ! ولقد صدقتك .. صدقتك أنا .. صدقت توبتك وندمك لانك أنت كنت تصدق نفسك .. كنت تمثل على نفسك .. كنت وأنت تخدعنى تخدع فى الوقت ذاته نفسك وأنت لا تدرى ! أجل . انت مجبول على التلون كحرباء .. انت مطبوع على سرعة التقلب كفانية .. كفانية لا تفتأ ترقب الريح لتتبعها متى هبت الريح

فى مصلحتها ! فأنت مازلت أنت ! الحياة عندك أغلى من الشرف، والمال أثمن من الضمير ! وغاية ما تنشده فى صميم نفسك هو أن تعود الى عشيقتك وتنبذنى ، وتنعم بالمال والعشيقة ومظهر الشرف على حسابى وحساب ضحيتك وضحاياك ! . فأين ؛ أين انت من عظمة سيروس ؟ أين انت من عظمة الشهيد المسكين ؟ انك لغير خليق بأن تعقد له رباط حذائه ! أتظن انه قد ضحى بنفسه لتعيش انت ، أنت أيها الخائن المجرم ؟ لا .. لقد ضحى بنفسه لتدرك انت واجبك : فتكفر عن جرمك بأن تنبذ المال وتقاتل فى صفوف جنودنا مختارا وتموت ، فيسلم شرفك وشرفى ولا يقال عنك انك كنت خائنا وانى انا كنت زوجة لخائن ! هذا ما أراده الشهيد ! هذا ما اراده لانه كان يحبنى !. أتسمع ؟ كان يحبنى فى شرف ، ويأبى الا أن تموت أنت فى شرف وأعيش انا فى شرف ولو فقدتك ! ولو انه رآك الآن وانت تضن بحياتك على وطنك وتريد فوق هذا أن تقبض ثمن ضحاياك ، لبصق فى وجهك الحقير الدميم ثم قتلك ! لا .. لن أدعك تمد يدك الى هذا المال وفى صدرى نفس يتردد !

فذهبت الاهانة بلب رستم ، ومشى الى المراة متحفزا وصاح :

ــ هذا المال فى حوزتى ، وسأحرص عليه جهدى ، فحذار ..

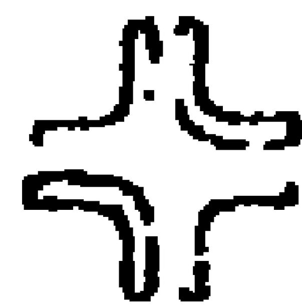
واندفع وهم بأن يمد يده الى الكيس . ولكن المراة غافلته وهو مذهول ، واستلت الخنجر الجاثم فوق المنضدة ، ثم أنشبت فى الكيس أصابعها واختطفته ، ثم عدت صوب الباب وقالت فى صوت غائر وحشى وهى تلوح بالخنجر فى وجه رستم وتهدر :

ــ هذا الكيس يحمل شعار أعدائنا ويتهمك ! وما دمت تؤثر الحياة وتأبى الا أن تظفر بهذا المال الملوث على حساب شرفك ، فأنا .. أنا أيضا لن احفل بسمعتى وشرفى ولا بأن يقال عنى

انى كنت زوجة لخائن ! سأضع العدل فوق الشرف . بل سأجعل الشرف فى خدمة العدل ! انا .. انا التى سأبلغ عنك يا رستم !

وقبل أن يلحق بها وينقض عليها ، مرقت من الباب كالسهم ، واسرعت فأوصدته خلفها بالمفتاح . فجن جنون الرجل وطفق يضرب الباب ويدفعه فى عنف حتى حطمه ، ثم انطلق فى الظلام الدامس يصرخ وينادى امرأته . وما أن لمحها وهى تركض ، حتى حث الخطى فى اثرها ، وظل يصرخ متوسلا ويناديها . ولكنها كانت قد قطعت الطريق كله ، واجتازت السهل الفسيح ، وأشرفت على خيمة القائد ، وبلغت خطوط المجاهدين فغشى الظلام عينى رستم ، وطوح به اليأس والرعب . فتوقف متهالكا وجمد . ثم خارت قواه بغتة ، وتداعى ، وسقط على الارض مغشيا عليه

وفى الليلة نفسها ، حوكم رستم السيد الغطريف النبيل ، واعدم شنقا فى الساحة الكبرى عند مطلع الفجر



# بلاد اليونان

## القصاص

« دافع اليونانيون عن استقلالهم دفاعا مجيدا فى الحرب التى نشبت بينهم وبين الفرس فى سهل ماراتون عام ٤٩٠ قبل الميلاد . وقد وقعت فى ذلك العهد حوادث هذه القصة والقصة التى تليها . وكان لتلك الحوادث اكبر الاثر فى النصر العظيم الذى احرزه اليونانيون على الفرس بزعامة ملتيادس قائدهم الشجاع

كان الظلام حالكا فى ذلك الجزء القصى من قرية ماراتون اليونانية . وكان الشاب « تيمون » ، اشهر صناع الاسلحة فى بلاد اليونان ، يضرب فى ازقة القرية متطوحا كالشارب الثمل ومستغرقا فى التأمل والتفكير

وكانت الخواطر تتدافع فى ذهنه كموج مصطخب . فلم يقو على الصمود فى وجه تيارها . فاستسلم لها مكرها ، وشرع يخاطب نفسه ، وهو مذهول :

ــ كيف ... كيف حدث هذا ؟ كيف خرجت روديس على اجماع قومها ، وأحبت القائد الفارسى الامير مردونيوس عدو بلادها ، واتصلت بأعوانه فى هذه القرية ، وعاهدته على الزواج ، وغدرت بالقائد اليونانى البطل ملتيادس وهو يتهيأ لانقاذ أمتها وتحريرها ؟ لقد خانت روديس وطنها ، ولكنها خانت ولاريب مدفوعة بتأثير الطمع لا بعامل الحب ! انها تريد ان تكون أميرة . تريد ان تشاطر الاجنبى الحكم والسلطان ! تريد العز والسطوة والجاه العريض على حساب بلادها ! ولقد أيقن الزعيم القائد ملتيادس من خيانتها وكشف الستار عن دسائسها ، ثم اختارنى أنا ، أنا تابعه وملازمه ، وعهد الى بأن اتعقبها ، ثم ألقى القبض عليها ، واستجوبها لأعرف من هم الخونة انصارها وأعوان القائد الفارسى فى بلادنا ، ثم اقتلها ! نعم ... أنا الذى اعبدها يجب

أن اقتلها ! أجل ... هو ذاك ... ينبغى أن أؤدى واجبى ، وأخنق حبى ، وأعشق فقط وطنى ، وأطعن بهذه اليد ذاك الصدر الحبيب الذى طالما حلمت بأن أجعل منه راحتى ومستقرى ! ان ملتيادس يجهل أنى أحبها . ومع ذلك فيجب أن اطيعه واقتل ! يجب أن أقتل ! ولكن أين ، اين هى روديس الآن ؟ لقد اختفت ... فرت ... وعبثا حاولت أنا العثور عليها . عبثا طرقت كل بيت اشتبه فيه وكل دار يمكن أن تلجأ الخائنة اليها ! ولكنى سأجدها ! ومتى تمكنت منها ، فلابد أن انتزع سرها ، ثم أقتل قلبى واقتلها ! فلأهدأ الليلة اذن ، ولأصبر حتى مطلع الفجر القريب ... يجب أن أدخل بيتى وأنام ... يجب أن أهدأ الليلة واصبر وانام !

ولمح داره جاثمة فى منعطف زقاق ضيق ، وابصر النهر الصغير الذى ينساب بالقرب منها . فأشرق وجهه ، ودنا من حافة النهر ، وتأمل فترة مياهه الساكنة ، وتاقت نفسه بالرغم منه الى الغوص فى هذه المياه ، والاندماج فى سكونها المنقذ العميق . ولكنه ارتعد ... فاستجمع قواه فجأة ودخل

دخل الدار وهو يلهث . فألفى حجرة والده المزارع « ديميتريوس » مظلمة موصدة . فأدرك ان والده قد نام . فاقترب من حجرة الخادم العجوز ، فسمعه يغط فى نومه أيضا . فتحول صوب حجرته هو ، فاستقبله نور خافت متراقص ينبعث منها . فاستغرب وتقدم . ثم فتح الباب ونفذ الى الحجرة ... ولكنه لم يكد يدخل حتى تراجع ... تراجع وهو مبهوت ... تراجع وهو مذعور ، اذ أبصر نفسه امامها ... امام المراة الخائنة التى يبحث عنها ... أمام حبيبته وطريدته الفاتنة روديس وجها لوجه !

وكانت روديس امراة مديدة القامة ، مليئة البدن . ذات بشرة غضة ناصعة ، وجبهة عالية ساطعة ، وعينين سوداوين

لوزيتين ناعستين ، وشفتين دقيقتين متأبيتين ، وخداسيل ، وانف مستقيم ، وفم كالثمرة الشهية ، ينفرج الوقت بعد الآخر عن قوس أبيض من الثنايا اللامعة المستخفية كأنها اللؤلؤ المكنون

وكانت مستلقية على شبه مقعد مستطيل ، تعبث بخصلات شعرها المرسل المموج ، وبصرها الزائغ يسبح فى الفضاء . فلما وقعت عينها على تيمون ، استوت على المقعد متحفزة وابتسمت . أما هو فاندفع نحوها ثم توقف وصرخ :

ــ انت هنا ؟ وفى بيتى ؟

فأرخت اهدابها الطويلة ، وتثنت لحظة فى كلال ، ثم قالت فى صوت عذب رخيم :

ــ كنت أعلم انك تبحث عنى، فسعيت من تلقاء نفسى اليك !

واردفت وهى ترشقه بعينيها الناصعتين :

ــ لقد استغرب خادمك العجوز مقدمى فى مثل هذه الساعة ولكنه رحب بى ، ولم يدخلنى الى البهو الكبير ، بل قادنى الى هنا ... الى مخدعك ... فابتهجت وطربت ...

ونهضت . فتماوجت اعضاؤها تماوجا ساحرا مغريا . فأشاح تيمون بوجهه ، وجاهد ما استطاع ليحول بصره عنها، ثم قال فى صوت جاف غليظ وهو ينظر الى الارض :

ــ روديس . انت متهمة بالخيانة العظمى . وتعلمين انى مكلف بعقابك وتأدية واجبى ! ولقد لجأت الى اعتقادا منك أن حبى قد يحرجنى ويضعفنى . ولكنى ساقتلك ياروديس وان كنت اعلم علم اليقين انى أقتل روحى فى صدرى !

فوثبت المرأة بالشاب . وكشفت عن صدرها الابيض الغض، وصرخت :

ــ اقتلنى ... اقتلنى يا تيمون ! انا اعلم انى هالكة لا محالة ولكنى اقسم بالآلهة انى ما جئت اليك لاسترحمك . انما

جئت لاموت بيدك انت ! هذه اليد التى أحبها هى وحـدها اليد التى يجب ان تطعننى !

فرفع اليها الشاب بصره فجأة ، وحدق فيها مستشيطا وهتف :

ــ ما أفظع غدرك يا روديس ! أتنشدين الموت منى بعد ان ابيت الحياة على يدى ؟ لماذا . . . لماذا ازدرتينى بالامس واعرضت عنى ؟ نعم . اعرضت عنى لانى لست جميلا . . . لانى اقرب الى الدمامة منى الى الجمال . . . لانى فتى قصير القـامة ، جاحظ العينين ، غائر الخدين ، شاحب اللون ، مهزول البدن . اجل . أعرضت عنى لانى صانع سلاح متواضع ، وانت بنت سيد غطربف كان حاكما لاربعة أقاليم يونانية ! ومع ذلك فقد قربتنى اليك لشهرتى . . . لنبوغى . . . لاتصـــالى الحميم بالقائد ملتيادس سيدى وزعيمى . . . قربتنى اليـك عامدة والهبت حبى ، ثم خدعتنى ! . . . خدعتنى وتنكرت أيضـا لواجبك ولم تتورعى ! . . . وفى سبيل المال والسلطان خنت الحب وخنت الوطن ! . . .

والتقط أنفاسه واستطرد :

ــ كيف ، كيف تسعين للاقتران بالقائد الفارسى عدو بلادك وهو على وشك ان يقاتلنا فى معركة هى معركة حياة أو موت بالنسبة لنا ؟ . . . لقد اتصلت بالاجنبى الغاصب وتواطأت معه علينا فحق عليك العقاب ياروديس . . ومع ذلك فأنا . . أنا أحبك . وأريد لك الحياة . فاذا شئت ان أرحمك الساعة، واشفع لك لدى الزعيم ، فارشـدينى . . . ارشـدينى الى أعوانك ، أنصار القائد الفارسى . . . أن بعضهم ما يزال هنا . . . فى هذه القرية . . . يعقد المؤامرات علينا ، ويتحين الفـرص البطش بنا ! . فمن . . من هم أولئك الخونة ، وأين يختفون ؟ تكلمى . . . تكلمى ياروديس !

فقالت المراة وهى توشك ان تبكى :

ــ لا علم لى بشيء ! كل ما اعلم هو انى افتضحت ، وان الموت مصيرى ، وان جل ماأتمنى هو ان أموت اليوم بيدك يا تيمون! فقم بواجبك واقتلنى ! اقتلنى والا قتلوك انت !

فصاح من اعماق قلبه :

ــ ارشدينى الى اعوانك وانقذى نفسك وانقذينى ! انى احبك ! . . .

فقالت :

ــ اذا كنت حقا تحبنى فاقض على حالا وانج انت بحياتك !

وصمتت لحظة وهى ترقبه ثم اردفت :

ــ الا تريد ؟ اذن فالوداع ! الوداع يا تيمون !

ودست يدها فى صدرها ، وانتزعت منه قارورة صغيرة فارتمى الشاب عليها مسرعا ، واستخلص القارورة منها وصرخ :

ــ أكنت تحملين سما ؟ لماذا جئت اذن الى هنا ، ولماذا لم تنتحرى وتكفينى مئونة هذا العذاب ؟

فقالت :

ــ كان فى وسعى ان أتجرع السم وانتهى ، ولكنى اردت أن أموت بيدك لاوليك بقتلى شرفا عظيما يمكن ان يرفع قدرك فى عين زعيمك ، ويضاعف ثقته فيك ، ويؤهلك فى حالة انتصاره الى تسنم أرقى المناصب . لقد قلت فى نفسى ما دمت ساموت، فيجب أن يثمر موتى على الاقل مجدا وعزة لحبيبى . . . لهذا لم أنتحر ! ولهذا جئت أطلب اليك أن تقتلنى !

فصاح تيمون وهو يدس بين طيات حزامه قارورة السم :

ــ أالى هذا الحد تحبيننى ؟

فأجابت :

ــ وانت تحب واجبك أكثر منى . فانزل اذن على حكم

هذا الواجب الوحشى ، واقبل التضحية بى واقتلنى ! لاتتردد يا تيمون ... لا تتردد !

وتصدت لهعارية الصدر ،محاولة الشعر . فلفحته انفاسها الحارة ، وغمره عبير بدنها العاطر فأمسك بها متلهفا ، وضمها الى صدره ثم تهاوى فجأة على نفسه ، وتمتم :

ـ لا استطيع ... لا استطيع ان اطعن قلبى بيدى ! ماذا ... ماذا افعل لاحجب عاري ؟وماذا يمكن ان يحل فى غد بوالدى لو عرف انى كنت مكلفا بعقابك ثم احجمت ؟ آه ... انى لاشعر الساعة بضعفى كما لم أشعر به أبدا ! انى لاخاف اغراءك يا امرأة ، واخشى أن تعصف بى الآن حبى فأستمتع مكرها بك ، فاضيف الى خيانة الفكرة والمبدأ خيانة القلب والجسد !

فصرخت المراة :

ـ خذنى ... تمتع بى ثم اقتلنى ! على انك لو ثبت الى رشدك وانقذتنى ، فسأجعل منك أسعد مخلوق فى هذه الدنيا! انى لاحبك الآن يا تيمون كما لم أحب فى حياتى اى رجل ! ففكر فى سعادتنا . . فكر فى نعيمنا . . فكر فى شبابنا ومستقبلنا . . وتعال ... تعال معى ... اتبعنى . . اتبعنى وتخلص من الزعيم ملتيادس ،وصارحنى . . صارحنى بنواياه . . واكشف لى عن خططه . ثم دعنى أفض بها الى القائد الفارسى مردونيوس . انه هنا ، مرابط بجيشه على بعد عدة فراسخ من القرية . وفى وسعى بفضل اعوانى من اليونانيين ان اتصل به ، ومتى انتصر القائد الفارسى فسيتزوجنى . وعندئذ احقق مطامعى ، فاتخذك انت . . أنت . . حبيبا لى وعشيقا . فتصبح السيد المطلق على قلبى ، وصاحب السلطان الفعلى على بلاد اليونان كلها ! تخلص . . تخلص من أوهامك واتبعنى !!

فامتقع وجه الشاب وتراجع . تراجع مستنكرا مستهولا ثم تقدم ، واستل خنجره وعزم . فتحدته المراة وصاحت :

ـ اضرب ... اضرب ياتيمون لو استطعت !

فتأملها لحظة وهو يرتجف . فأخذت عينه الزائفة منبت صدرها العارى المنفتح فى نصوع واشراق كأنه زنبقة حية . فخارت قواه مرة ثانية وارتمى على الصدر متهالكا وهتف :

ـ سأتبعك ! سأتبعك ياروديس الى أقصى العالم !

فابرقت عينا المرأة ، واوشكت ان تضحك . ولكنها تمالكت نفسها : وهمت بأن تنحنى على الشاب وتمنحه قبلة . وفجاة، وقبل أن تتحرك دار مصراع الباب فى هدوء ، ثم فتح على مهل، ثم دخل المزارع ديميتريوس والد تيمون ، فأجفل الشاب وتقهقر . واضطربت روديس ، وحجبت صدرها بطرف ردائها ، ثم تطلعت الى الرجل . وما ان القت على ديميتريوس نظرة حتى انكمشت وبهتت وفغرت فاها كبلهاء

راعها مظهر الرجل على الرغم منها . فشخصت اليه وهى صاغرة ، ولبثت تنعم النظر فيه وترتعش

وقال الوالد لولده بلهجة الآمر :

ـ الا تقدم للسيدة الشريفة كوبا من الخمر ؟ لقد نزلت ضيفة علينا ومن واجبنا أن نرحب بها ونكرمها . اذهب الى القبو حالا ، وتخير من الشراب أجوده واصفاه ، ثم هيىء الاقداح ، واسرع الينا

وامتثل الشاب مكرها وخرج . خرج وهو حانق ثائر . ولكنه لم يكد يبلغ القبو الكائن فى مؤخرة البيت والبعيد عن مجرى النهر ، ولم يكد يهبط اليه ، ويهم بفتح بابه ، حتى برز اليه من جوف الظلام خمسة رجال مساحين ، أطبقوا عليه . ثم شدوا وثاقه ، ثم دفعوه الى جوف القبو دفعا ، وطرحوه على الارض ، واوصدوا عليه باب القبو بالمزلاج ، بعد أن هددوه بالموت ان هو حاول أن يصرخ ويستغيث

وانقضت لحظات طويلة ولم يعد تيمون ... وظلت روديس

ساهمة شاردة ، تنتظر مقدم الشاب ، وهى تحدق فى ذهول الى والده

وكان الوالد نقيض الولد تماما . كان كهلا فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه كان آية فى الحسن . كان جميلا وساحرا وقويا بقدر ما كان ابنه دميما وهزيلا وضعيفا

كان ديميتريوس رجلا ، وكان تيمون فتى غريرا . بل كان ديميتريوس شبه عملاق عريض الكتفين ، مفتول الساعدين ، وثيق العضل ، فى راسه الشامخ عزة ، وفى عينيه الزرقاوين الحادتين هيبة ، وفى اهدابه الطويلة المتراقصة فتنة ، وفى لونه القمحى المشرب بالحمرة صحة وفتوة ، وعلى شفتيه العابثتين المليئتين ابتسامة دائمة رقيقة ، تلطف من هيبته ، وتضاعف من سحره ، وتغرى الناظر اليه بأن يقبل عليه ، وهو يشعر مع ذلك شعورا عميقا بالخوف منه

ملأ هذا الشعور بالخوف نفس روديس . فمضت تنظر الى ديميتريوس وهى ترتجف

لم تدر ماذا أصابها ! لم تدر اين هى ! أحست كأن سلطانها على نفسها يفلت بغتة منها ويهزأ بها . أحست كأنها مأخوذة ومساوبة ، وكأن هذا الرجل قد غزاها . بل احست كأنه قد خالسها وهى خالة ، وانقض عليها ، واحتواها ، ونفذ فى غفلة عنها الى صميم احشائها !

وأرادت أن تصرخ وتنادى تيمون ولكن ديميتريوس ابتسم لها ؛ ثم دنا منها ، ثم قال فى صوت ساكن عذب وهو يشير الى المقعد ويأمرها بالجلوس :

— أن تيمون لن يعود ! ولن يحمل الينا والاسفاه خمرا !

فصاحت وهى ما تفتأ تحدق فيه :

— والى اين ذهب ؟

فأجاب ضاحكا :

ــ أتؤثرين أن يعود هو وانصرف انا ؟... اتريدين ؟

وهم بأن يتحول صوب الباب . ولكنها عادت نحوه ، وامسكت به ، وقالت وهى تتأمله :

ــ انا لم اعرفك . لم ارك ابدا . كل ما اعرف عنك انك مزارع ، وأنك أرمل ، وان اسمك ديميتريوس . فماذا تريد منى ؟ ولماذا صرفت ولدك ؟ واين هو ؟

فدنا منها أيضا ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وموج عضلاته المرنة فى كرب وضيق . ثم سدد الى المراة نظرة ، فاتقدت عيناه الزرقاوان ، ورفت أهدابه رفيفا مختلجا ساحرا . فالتصقت به روديس على الرغم منها . فنحاها عنه فى رفق وقال فى صوت بائس خفيض :

ــ لمحتك من نافذة حجرتى وانت مقبلة ، وكنت اعلم ان ولدى يحبك . فأمرت الخادم بأن يرحب بك ويدخلك على الفور حجرة تيمون . ثم اطفأت مصباحى ، ولكنى لم انم .. لم أنم .. كنت أنا أيضا ، أنا أيضا أحبك ياروديس ! كنت احبك من زمن طويل وانت لاتعلمين . كنت اكتم حبى ولا اتصور لحظة واحدة ان فى مقدورى ان أتقرب اليك وأشقى ولدى ! فلما رايتك فى بيتى ، واحسستك هنا .. هنا بجوارى ، لم استطع أن انام . فنهضت والحسرة تنهشنى ، وتسللت فى الظلام الدامس ، وكمنت خلف هذا الباب ، وسمعت كل شيء !

فذعرت المراة وغمغمت :

ــ سمعت كل شيء ؟

فقال فى بطء وهو يتفحصها :

ــ انت لاتحبين تيمون ، أنت تريدين انقاذ نفسك وتحقيق مطامعك ! انت فى الحق خليقة بأن تصبحى زوجة امير ، فأنا ، انا الرجل الوحيد الذى يحبك ويخلص لك ، اشعر انى متأهب لانكار ذاتى ، وبذل كل تضحية من اجلك . فلا تعتمدى على

حب تيمون يا روديس . انه فتى متردد متلون ، قد يستيقظ ضميره فيستهول الخيانة ، وقد يعصف به الحب غدا فتأكله الغيرة ، فينكر لك فجأة وينقلب عليك ، ويؤدى واجبه ويسلمك الى الزعيم أو يقتلك ! نعم . لقد انتصرت الآن عليه ولكنك فى الحقيقة خائفة منه وغير واثقة فيه ! لذلك اسرعت انا ، اسرعت أنا وأنقذتك . أنقذتك من تيمون .. من ولدى !... انه الآن اسيرى . ولقد سجنه رجالى فى قبو البيت ، وسيظل هناك سجينا حتى تنطلقى أنت من هنا وتأمنى كل الامن على حياتك ! فاذهبى .. اخرجى حالا ، فرى من هذه القرية . الحقى بجيش العدو ، وعسانك أن تتزوجى القائد الفارسى وتحققى حلمك ياروديس وتسعدى !

والتصق بها هو الآخر وردد :

ـ اذهبى . اذهبى .. حياتك عندى أغلى من حياتى ! وأنا ، أنا سأتحمل العقاب والتضحية وحدى ! اذهبى !

فاضطربت المرأة ، ونظرت اليه ، ثم نظرت الى الباب ، ثم استقرت ببصرها على الكهل الساحر . فراعها منه تهدج صوته ، وبهاء حسنه ، واتقاد رجولته . فمدت يدها . مدت يدها مستجدية ، وتمتمت :

ـ الا أستطيع ان ابقى قليلا ؟

فلمعت عينا ديميتريوس وقال :

ـ أولى بك ان تذهبى

فتطلعت اليه مأخوذة وهمست :

ـ بعد لحظة ، سأذهب بعد لحظة . لم أعد أشعر بالخوف على نفسى . ولكن انت .. لماذا تستعجلنى ؟ لماذا تريد التخلص منى ؟ أهذا هو مبلغ حبك لى ؟

فصرخ عامدا :

ـ آمرك بأن تخرجى !

فتشبثت به ، وطوقته بذراعها ، وواجهت بعينيها الظامئتين المتوسلتين سحر فتوته الخلاب . فأيقن من ضعفها ، وايقن انه فى مثل خطف البرق قد تمكن منها وصرعها . فلم يمهلها ، وانحنى فى لهفة عليها وقبلها . فانتشت المراة ، وغابت عن صوابها . فضمها فى عنف الى صدره ، وصاح بها :

ـ كيف . . . كيف يمكن ان احبك ؟ كيف يمكن ان أتزوجك والقائد الفارسي على قيد الحياة ؟ قد ينتصر فى غد فيقتلك ويقتلنى ! لا مفر . . لا مفر لنا من القضاء عليه قبل ان يقضي هو علينا ! ولا قضاء عليه الا بالقضاء على أعوانه وتوطيد سلطان ملتيادس قائدنا وزعيمنا ! فاذا كنت حقا تحبيننى ، اذا كنت قد تجردت حقا من مطامعك واحببتنى ، فتكلمى . . أجيبى . من . . . من هم أنصار القائد الفارسي، وأين يختفون ؟ ولو صدقت فى اقوالك ، فاقسم ، اقسم لك بالآلهة أن اقترن بك اليوم . اليوم ياروديس . . اليوم ، ولو مزقت قلب ولدى بيدى !

فاتأدت المراة لحظة ثم ذهب الحب بلبها فهتفت :

ـ اذن فاقرن القول بالفعل منذ الآن ، واتبع حكم تقاليدنا وطمئنى . انت تعلم ان الرجل عندنا متى عاهد امراة على الزواج ، انتزع قلادته المقدسة التى باركها الكهنة يوم مولده، وطوق بها عنق تلك المراة . وهكذا يظل مقيدا بها حتى يعقد له شرعا عليها . فان حنث هو بيمينه أو حنثت هى ، حقت على الغادر لعنة الآلهة ! فأنا لن أحنث يا ديميتريوس بيمينى . لن استهدف للعنة الآلهة . سأخون حلمي ، واحطم مجدى ، واتجرد من مطامعى ، واقول لك من هم أنصار القائد الفارسى فى بلادنا . فعليك انت . . انت ، اذا كنت حقا راغبا فى قربى أن تنتزع قلادتك المقدسة ، وتطوق بها عنقى ، فتصبح منذ الآن حبيبى وزوجى ! افعل يا ديميتريوس ، اهبك كل شيء ،

واصارحك الساعة بكل شيء !

فرفع الرجل رأسه، وحدق الى الفضاء كأنه يستغفر آلهته، وقال :

ــ اليك قلادتي !

ونزع القلادة من صدره وطوق بهاعنق روديس . فاختلجت المرأة عزة وفرحا ، وانحنت عليه لفورها ، واسرت اليه وهي تضمه وتزفر :

ــ الخونة الذين تبحثون عنهم ، أنصار القائد الفارسي مردونيوس ، هم رؤساء فرقة الحرس ! الفرقة التي تحيط على الدوام بموكب الزعيم ملتيادس ! انهم يجتمعون كل ليلة في منزل كبيرهم « سولون » وهم الآن هناك . أتفهم ؟ انهم يتآمرون الآن من هناك !

فومضت عينا ديميتريوس وجمد . وظل جامداً فترة كأنما قد ضربته صاعقة . ثم دفع المرأة عنه في حركة عنيفة ، ونصب قامته بغتة ، واتجه صوب خزانة اخرج منها لفافة ورق وقلما، وشرع يكتب على جزء من اللفافة بضعة أسطر . ولما فرغ من الكتابة ، اندفع نحو الباب وصفق يدعو رجاله الذين كانوا قد غافلوا تيمون وكبلوه

ودخل الرجال الخمسة المسلحون فدنا ديميتريوس من احدهم وقال في صوت باتر :

ــ عليك ان توقظ الزعيم ملتيادس في الحال ، وتسلمه هذه الرقعة يدا بيد حذار ان تفقدها والا اهلكتك !

فانحنى الرجل صامتا وتناول الرقعة وخرج . فالتفت ديميتريوس الى الرجال الاربعة وقال :

ــ اما انتم فاذهبوا الى البهو الكبير ، ومدوا المائدة ، واعدوا الصحاف والاكواب ، وأجلبوا كل ما في القبو من لحم مقدد ثم امكثوا في البهو الكبير حتى أصدر اليكم أوامرى

فانصرفوا جميعا فى أثر صاحبهم ، وانثنى ديميتريوس على روديس وصرخ :

ـ سيكون الكل هنا بعد لحظات ! الزعيم ملتيادس ،وفرقة الحرس ، ورئيس الكهنة ايضا ! وسأقيم لهم فى البهو الكبير مأدبة حافلة . وستكونين انت ، انت يا روديس زينة هذه المأدبة وبهجتها ! لماذا ترتعدين هكذا ؟ اتخافين على حياتك ؟ انسيت انى قد أصبحت زوجك ، وانى ما تزوجتك الا لانقذك ؟ البثى هنا ساكنة مطمئنة .. لحظة فقط . سأعود اليك بعد لحظة

وابتسم ابتسامة خفيفة ظافرة . ثم أوقد شمعة صغيرة ، ومرق من الباب ،وجاس فى حجرات البيت المظلمة ، ثم تسلل فى سرداب طويل تصطفق خلفه مياه النهر المجاور للبيت . ثم توقف فجأة تجاه حجر ضخم ينهض حائلا بين مياه النهر والسرداب المتصل بالبهو الكبير الذى ستقام فيه المأدبة للخونة ثم نفذ من السرداب الى البهو ونادى احد رجاله وهمس فى اذنه بضع كلمات ، وهو يومىء باصبعه الى الحجر الضخم ويهز راسه مبتسما

وكر راجعا الى روديس . وما ان أبصرته المراة حتى تشبثت به وصاحت وهى ترتجف :

ـ أين كنت ؟ ومتى سيصل الزعيم ؟

فأجاب ديميتريوس فى هدوء :

ـ لكل شىء ميقات !

وطوقها بذراعه ، وفتح بابا جانبيا فى حجرته،ودخل فى صحبة المرأة الى البهو الكبير حيث كان رجاله يعدون معدات المأدبة

وانقضت فترة طويلة ، ثم ماج الجو بغتة ، وتصاعدت أصوات مشوشة مصحوبة بوقع حوافر جياد . فأسرع الرجال الخمسة وفتحوا باب الصدر على مصراعيه . وتقدم ديميتريوس متمهلا ، وتهيأ لاستقبال ضيوفه وهو يبتسم

ودخل القائد الزعيم ملتيادس متبوعا برئيس الكهنة وفرقة الحرس . وما كاد افراد الفرقة يبصرون روديس حتى اجفلوا وانعقدت السنتهم . أما الزعيم فلم يتلفت واتجه من فوره نحو ديميتريوس . وكان القائد الزعيم رجلا مديد القامة عريض الصدر ، واسع الحدقتين ، غائر الخدين ، يتقد وجهه الشاحب المتوتر القسمات عزما وقوة ، وتنبعث من عينيه السوداوين الحادتين ومضات خاطفة وثاقبة ، تشيع في النفس مزيجا غريبا من الرهبة والاعجاب والحب

وعانق مضيفه عناقا حارا ، وهم بأن يسأله عن السبب الخطير الذى استوجب هذه الدعوة العاجلة في مثل هذه الساعة من الليل . وعندئذ لمح روديس . لمحها واقفة في احدى زوايا البهو ساهمة جامدة كأنها تمثال . فتراجع مذهولا ، ونظر الى ديميتريوس متعجبا مستفسرا ، ثم جمح به الغضب لاول مرة ، فانقض على روديس ، وامسك بها من كتفها ، وطفق يهزها هزا عنيفا ، ويردد في صوت ملؤه الحنق والبغض :

ــ انت .. انت هنا ؟

فقال ديميتريوس :

ــ انها زوجتى ! كف يدك عنها لحظة يا مولاى ودعنى اتكلم !

فبهت الزعيم ورئيس الكهنة . ولكن ديميتريوس تقدم فى ثبات ، واشار الى منصة عالية واردف :

ــ تفضلا بالجلوس هنا

ثم قال لفرقة الحرس :

ــ وأنتم مكانكم هنا ! اجلسوا جميعا . وسأبدأ أنا الحديث ريثما يجيئكم رجالى بالطعام والشراب . فاسمعوا ..

ووثب بروديس ، ودفعها الى وسط البهو دفعا ، وصرخ وهو يحدق اليها ، ويرمق من طرف جانبى أفراد فرقة الحرس :

ــ أليس هؤلاء هم انصار القائد الفارسى مردونيوس ؟

اليسوا هم الذين يتآمرون على جيشنـــا ، ويسعون لتمكين الاجنبى من سحقنا ، والاستئثار بحكم البلاد ؟ اجيبى ..

فقالت روديس فى سكون :

ـ انهم يعــرفوننى ! وانا .. انا التى كنت أتلقى المال من القائد الفارسى ، وابعث به اليهم ! ليس فى وسعهم أن ينكروا !

فجحظت عينا الزعيم ، وارتجف رئيس الكهنة ، واضطرب أفراد فرقة الحرس ، وتلفتوا نحو الابواب مذعورين . فصاح بهم ديميتريوس :

ـ الابواب مغلقة ، ورجالى مسلحون ، وهم يحرسونها ! . لقد وقعتم فى الفخ ، ولا أمل لكم فى النجاة ! اعتقدتم انكم ذاهبون الى وليمة ، فجئتم عزلا من السلاح . فأنتـــم الآن فى بيتى اسرى ، وحذار أن تمتد يد وغد منكم الى شخص الزعيم او رئيس الكهنة باذى !

وتحول نحو روديس واستطرد :

ـ هذه الخائنة قد اتهمت نفسها وفضحتهم ! كان يجب أن تموت بيد ولدى تيمون كما أمرت أنت ياسيدى الزعيم . ولكن ولدى كان يحبها ، ويا للعار ، فخان واجبه ولم يقتلها . فعلمت بذلك أنا . فجن جنونى ولم اتردد . القيت القبض على ولدى وسجنته ! سجنته فى قبو البيت ، ثم تصديت للمراة ومكرت بها . أجل ، مكرت بها واحتلت عليها واغويتهــا ، فأحبتنى اتسمعــــــون ؟ أحبتنى أنا ! تخلت عن الولد وتعلقت بالوالد وعشقته ! فلكى أنتزع سرها ، واعرف شركاءها ، لم اجد بدأ من أن أمالئها ، وأتزوجها ، وامنحها قلادتى المقدسة ، واقسمت بالآلهة أن أجنبها عقوبة الخيانة وأنقذ حياتها ! فالمجـــــرمة وشركاؤها أمامكم . فأما الشركاء فقد أعددت عدتى للاقتصاص منهم . واما ولدى فهو فى القبو رهن اشــارة الزعيم . واما هذه المراة ، هذه المراة التى تقيدت بها ، هــــذه المراة التى

اصبحت أمام الآلهة زوجتى ، فمصيرها فى يدك أنت .. أنت يا رئيس الكهنة ! لهذا دعوتك . فاحكم الآن بما تراه . فاذا شئت ان تعفو عن خيانتها تقديرا لما أفشت من الاسرار ، واذا استحال عليك اعتراض التقاليد والشرع وفصلى عنها ، فأنا راض بحكمك ومتأهب للاقتران بها وان كنت أبغضها . اما اذا كان فى وسعك ان تحلنى من العهد الذى يربطنى بها ، وكان لا مفر لك من أن تعاقبها ، فسأنزل ايضا على حكمك لانه حكم الآلهة !

فنهض رئيس الكهنة وقال :

ــ هذا العهد باطل ، وخيانة الوطن هى خيانة للآلهة . وانه لكفر صارخ أن نعتقد أن الالهة قد تعفو عمن خانها ! الخائنة لابد أن تعاقب ! هذه المرأة لم تعد زوجتك !

فأرسلت روديس صيحة مدوية ، وتشبثت بديميتريوس كمعتوهة وصاحت :

ــ انقذنى . انا أحبك فانقذنى . كيف يمكنك أن تتخلى عنى وقد اقسمت ؟

فقال ديميتريوس :

ــ كما تخليت انت عن وطنك وعن ولدى !

فثارت ثائرة روديس وصرخت :

ــ اذن فاقتلونى . لا تعفوا عنى واقتلونى . ماذا تهمنى الحياة ، بل ماذا يهمنى عفوكم عنى وقد فقدت حبيبى ؟ لو ابقيتم على فسأغدر بكم . سأكيد لكم . سأنتقم منكم لأملى الضائع وحبى المطعون ! اقتلونى ..

فرمقها الزعيم بنظرة حقد وازدراء وقال :

ــ هذه المرأة انثى .. انها انثى وليست مواطنة ! انها لم ترتدع ! ومجرد تفكيرها فى أن تثأر من وطنها لخيبة حبها يحتم علينا القضاء عليها !

فقال رئيس الكهنة :

ـ فلتبق اذن هنا هى وأصحابها . وسيبعث الزعيم من فوره برجاله ينفذون فى الجميع حكم الاعدام قبل مطلع الفجر !

فجثا ديميتريوس عند قدمى رئيس الكهنة وقال :

ـ اذنك ، اذنك ياسيدى بكلمة واحدة . لماذا نعدم هذا النفر الوضيع فنلقى فى روع الشعب ، ونحن على أبواب معركة فاصلة ، ان بين صفوفنا خونة ما رقين ؟ اليس من الافضل لنا أن يتم العقاب خفية وفى سكون بحيث يكون فى نظر الناس قضاء من الآلهة وقدرا ؟

فتمتم الزعيم :

ـ وماذا فى نيتك أن تفعل ؟

فصاح ديميتريوس :

ـ أنا الذى دبرت المكيدة وأنا الذى سأتولى القصاص ! فأرهفوا أسماعكم واصغوا الى . كل ما أملك من حطام الدنيا هو هذا البيت ، والبيت قريب من النهر كما تعلمون . ولقد عزمت .. عزمت بعد أن ننصرف نحن من هنا ان أطلق على البيت مياه النهر واغرقه ! اجل . سأغرق البيت بمن سيبقى فيه ! وهكذا أنقذ وحدة شعبنا ، واقضى على هذه العصابة الغادرة ، فلا يقال أن انسانا واحدا من أمة اليونان كان خائنا !

فاقشعر بدن روديس ، وارتعد رجال الحرس هولا وفزعا، ودنا الزعيم من ديميتريوس وجذبه من ذراعه فجأة وقال :

ـ ولكنك سجنت ولدك فى القبو ، والقبو كما أعلم بعيد عن مياه النهر . فهل تريد ان تقتل هؤلاء وتنقذ ولدك ؟

فصاح ديميتريوس مستنكرا :

ـ لا رحمة لخائن ، سأرسل فى طلب ولدى ، وسيلقى الساعة نفس المصير !

وتلفت كمن يثب ، ونادى أحد أتباعه وهم بأن يأمره

باستدعاء تيمون . ولكن الزعيم رده باشارة وقال :

ـ دع ولدك الآن حيث هو .. يجب أن أسمع دفاعه قبل ان أحكم عليه !

والتفت الزعيم الى روديس ورجال الحرس ، ورمق الجميع بنظرة شزراء ، وأردف صارخا :

ـ نفذ ... نفذ خطتك ياديميتريوس !

ونهض متجها نحو باب الصدر يتبعه رئيس الكهنة فانخلع قلب روديس ، وطاش صوابها ، واندفعت مع أفراد فرقة الحرس خلف الزعيم ، وترامى الكل عند قدميه باكين متضرعين متوسلين . ولكن ديميتريوس أهاب برجاله :

ـ ردوا الخونة على أعقابهم وأوصدوا الابواب . واوقدوا المشاعل ، ثم اذهب انت ياكريون ، وارفع الحجر الضخم ، واطلق من السرداب مياه النهر على البيت !

وصدع الرجل بالامر واختفى ، بينما استل زملاؤه خناجرهم ، وانقضوا على الخونة ، ودفعوهم الى وسط البهو دفعا ، وأغلقوا عليهم الابواب

وما أن خرج الزعيم ورئيس الكهنة وديميتريوس الى حديقة البيت ، حتى ارتفعت صرخات من البهو الكبير حانقة وحشية يائسة . ثم انسابت المياه فى بطء الى الحجرات ، ثم تدفقت ، على البهو الكبير وهدرت هديرا مروعا مختلطا بالصياح والانين. ثم غمرت البهو كله ، ونفذت من مساربه ، وسالت على أرض الحديقة

وانقطع الصراخ بعد لحظات ، وتراقصت فى الظلمة أضواء المشاعل . فنظر الزعيم الى الحجرة الغارقة ، مثلج القلب مرتاحا وهتف :

ـ المجد لك ياديميتريوس ! سننتصر ! ومادمت قد قضيت على الخونة ، فالنصر فى هذه المعركة أصبح مكفولا لبلادك !

وابتسم القائد الزعيم ابتسامة مشرقة واثقة . ولكنه سرعان ما قطب حاجبيه وقال !

ـ والآن فلنذهب ، ولنطلق سراح ولدك . سيتبعني الى قصري ، وسأحاكمه صباح الغد !

وانطلق الجميع ، واتجهوا الى مؤخرة البيت ، ثم هبطوا الدرج الى القبو ، وفتحوا بابه ودخلوا

ولكن أضواء المشاعل لم تكد تصوب الى جوف القبو المظلم الرطب السحيق ، حتى تراجع الكل مستهولين وملكهم الذعر

شاهدوا تيمون منطرحا على الارض ، موثقا بالحبال ، مندلع العينين ، متقبض التقاطيع ، تتلوى شفتاه فى حركة متشنجة غريبة ، ويتصبب العرق من جبينه ، ويطفر الزبد من شدقيه ، وترف يده اليمنى رفيفا متعاقبا متهافتا كأنها تجاهد لتطلب النجدة والغياث . فاستغرب ديميتريوس منظر ولده ، وانحنى عليه ممزق القلب لوعة وشفقة ، وصاح به وهو يحل وثاقه :

ـ ما بك ؟ لم يصبك رجالى بأى أذى . فكيف انهارت قواك بمثل هذه السرعة ؟ ! انهض

فتحامل تيمون على نفسه . وأجال الطرف حوله فى شرود . وعندئذ فقط تنبه . تنبه وابصر الزعيم . فتحول نحوه ، وزحف اليه ، ثم أكب فى لهفة على يديه يلثمهما ، وقال فى صوت متهدج متحشرج والدموع تنهمر من عينيه :

ـ سامحنى . سامحنى يامولاى ! لقد خنت واجبى ، ولكن ضميرى استيقظ ومزقنى . فلم أطق حمل عارى ، وعاقبت نفسى بيدى ! وكانت الغادرة روديس تحمل قارورة سم ، وكنت قد انتزعتها منها لأنقذها . فلجأت الى هذا السم مختارا وكفرت به عن ذنبى ! فسامحنى !

وسقط الشاب على الارض متهالكا ، وانتفض انتفاضا

عنيفا كأنما قد غشيته نوبة صرع . ثم هدأ فجأة ، وتطلع الى والده ، وأغمض عينيه وهو يتأوه ، ولفظ النفس الاخير .

فشق ديميتريوس جلبابه وصرخ :

ـ ولدى ! ولدى !

وارتمى على الجثة كمخبول وأجهش بالبكاء . فمال عليه الزعيم ملتيادس ، وسكن من روعه جاهدا وانهضه ، ثم نزع مئزره وغطى به الجثة ، ثم حنى راسه وتمتم بضع صلوات . ولما فرغ من صلاته اتجه نحو رئيس الكهنة وقال :

ـ كان تيمون خليقا بوالده ، لقد ضعف وخان ولكنه ندم وكفر عن ذنبه بتضحية حياته ، فلنكرم فيه يقظة الضمير والقوة ، وليدفن غدا باحتفال دينى وعسكرى مهيب !

والتفت الى الكهل المحطم وأردف :

ـ انت تابعى وملازمى منذ الساعة ياديميتريوس !

وفتح الزعيم ذراعيه ، وضم الوالد البطل الى صدره . ولكنه لم يستطع أن يغالب عواطفه ، فأشاح بوجهه الصارم ، وانفجرت من عينيه الدموع !



# نحو المجد

فى مساء ذلك اليوم الساكن الهادىء . وقبل نشوب معركة « ماراتون » بثلاثة أيام . كان الشريف اليونانى « هرمس » عمدة قرية ماراتون ،وأولاده الشبان الثـــلاثة ، مجتمعين فى احدى حجرات بيتهم يتشاورون فى أفضـــل خطـــة يمكن أن يأخذوا بها للنزول على أمر قائدهم ملتيادس ، والتسلل الى صفوف العدو ، واشعال النار فى احدى سفنه الكبرى المرابطة فى ميناء ماراتون

ولم يكن فى وسع العمدة الكهل هرمس أن يغامر بمسئوليات منصبه ، وينهض الليلة بمثل هذا العمل الخطير ، مستهـدفا لموت محقق ، فعهد بالمهمة الى ابنه الاكبر « شالكاس » ، رغم اعتراض ولديه الآخرين ، اللذين تمنى كل منهما لو وقع اختيار والده عليه

فبعد أن أفضى هرمس بتفاصيل الخطة الى ابنـــه الاكبر ، جذبه من كتفه ، وقاده الى تمثال صغير للاله أبولون ، وطلب إليه أن يؤكد تضحيته بقسم . فحنى الشاب رأسه ، ورفع ذراعه ، وأقسم بالاله العظيم أن يذعن للامر ، ويكتم السر ، وانه يقبل التضحية

وكان يجب على الشاب أن يتنكر فى زى جندى فارسى هرب من الاسر ، وان ينطلق هذه الليلة فى الظلام الدامس ، مزودا ببعض المواد المحرقة . فيزحف على بطنه ســاعات طويلةحتى يبلغ السفينة ، فيلوذ بحراسها ، ويصعد اليها ، ويضرم فيها النار ، ويموت مع جنودها وملاحيها وربانها أمير البحر الفارسى الشهير باسم هزاد

وكان الشاب يؤدى القسم ، واخواه ينظران اليه فى خشوع واعجاب ، وامه السيدة الشريفة الرائعة الجمال « هيلينا » تنظر اليه من خلال أهدابها الوطفاء ، وتهز رأسها هزا خفيفا ، وتبتسم ابتسامة آسفة مشفقة ، وهى تعض بأسنانها البراقة على شفتيها الحمراوين الناتئتين

ولما فرغ الشاب من تأدية القسم ، تحول نحو أمه وقبلها . فقبلته بدورها ولم تتكلم . فاستغرب الكل جمودها . ولكنها غالبت نفسها ، وكبحت عواطفها ، وأعربت لابنها الاكبر عن اعجابها بوطنيته الصادقة . ثم ضمته الى صدرها ، وقبلته قبلة ثانية حاولت جهدها أن تجعلها حارة مشبوبة

وتفرق الجميع ، وذهب العمدة هرمس الى مقر منصبه . واستدعى الاخوة الثلاثة زوج عمتهم المهندس المعمارى « أوريون » وانطلقوا فى صحبته الى المعبد المجاور لبيتهم ، حيث تحتم التقاليد على الاخ الاكبر أن يؤدى صلاة قصيرة تهبه العزم والقوة ، قبل اقدامه على التضحية والفداء

أما الام فقد لبثت فى مكانها ساهمة شاردة . ثم تحاملت على نفسها فجأة ونهضت . نهضت وغلقت أبواب الحجرة ثم عادت وارتمت على مقعد ، ونظرت فى مرآتها ، ثم انتزعت من صدرها قلادة يتدلى منها شبه قلب من ذهب ، سرعان ما فتحته وتأملت فيه رسما لرجل ، وطفقت تقبل الرسم ويدها ترتعش ، وأعضاؤها تختلج ، وعيناها تلمعان !



وفى تلك اللحظة نفسها كانت « ديميترا » اخت زوجها ، قابعة فى غرفة بعيدة من غرف البيت ، تتأمل هى أيضا رسما آخر ، عثرت عليه فى أحد أدراج خزانة صغيرة ، اعتاد قرينها المهندس المعمارى « اوريون » أن يضع فيها رسومه وأوراقه ورسائله

وكانت الشكوك قد ساورت ذهن ديميترا منذ أسابيع . كانت تحس احساسا قويا عنيفا ان هناك علاقة أثيمة منكرة تجمع بين قرينها أوريون ، وزوجة شقيقها الحسناء الفاتنة هيلينا . فاصطنعت لخزانة اوريون مفتاحا ، وتمكنت فى مثل لمح الطرف من معرفة كل شيء

وهاهى ذى ديميترا تحدق الى الرسم وترتجف . بل هاهى ذى تنعم النظر فى أوراق زوجها ورسائله ، وتقرؤها ، وقلبها المطعون يكاد ينزف دما

الرسم فظيع ، وقد أبدعه ولا شك فنان ماهر ، الرسم يمثل قرينها أوريون ، وزوجة شقيقها هيلينا متعانقين عناق الشهوة الفاضحة ، والحب المحرم ، والهوى الاثيم

أما الرسائل فأمرها كان أعجب واخطر وافظع ! لم تكن رسائل حب بين العاشقين فحسب . بل كانت فوق ذلك رسائل نقمة وتمرد على القائد ملتيادس ، وخيانة للأمة والوطن !

كانت هيلينا تقول فى رسائلها لعشيقها انها معجبة بحضارة الفرس أعداء بلادها ، وأن الفرس يجب أن يقهروا اليونان ليمدنوها ، وان الحرب ضد الفرس لا جدوى منها ، وأن على عشيقها اذا كان حقا يحبها ان يسرع فيتصل بالوجيه اليونانى « هيباس » الذى يتزعم ، فى الجبال ، حركة التفاهم مع الاعداء ، وأن يسانده فى كفاحه ، بغية عقد صلح يجنب اليونانيين ويلات الحرب ، ولو قضى القضاء المبرم على كل أمل لهم فى الحرية والاستقلال

وادركت ديميترا من فحوى الرسائل ان زوجها أوريون قد عمل بنصيحة عشيقته ، وانه اتصل فعلا بالخائن هيباس . فضمت يدها على الرسائل كأنها تقبض بها على عنق عدو لتخنقه

وامتقع وجهها ، وغلى الدم فى عروقها ، واصابها من فرط الحنق والغيرة والاستنكار والذعر شبه خبال . كيف ؟ ايخونها زوجها مع امرأة شقيقها ، ثم يختم الهوى على بصره فيخون أيضا بلاده ، وهى بين الموت والحياة ؟ وهيلينا ؟ هيلينا ؟كيف استحلت لنفسها ان تسلب رجلا هو قرين شقيقة زوجها؟كيف أقدمت على هذا العمل المروع وهى أم لثلاثة ابناء ؟ نعم . كل كلمة من كلماتها تدل ابلغ الدلالة على أنها هى التى أغرت أوريون وهى التى فتنته ، وهى التى افسدت خلقه ، ولوثت ضميره ، وقتلت فيه روح الزوج المخلص الوفى ، وروح الوطنى الصادق النزيه !

وتدفقت الخواطر فى ذهن ديميترا ، ولم تعد تدرى ماذا يجب عليها ان تفعل . انها تستهول العواطف التى تشعر الآن بها . انها تكره نفسها . انها تحس بالرغم منها أن قلبها مايزال يصبو الى زوجها . ولكن كيف يمكنها أن تصمت ؟ كيف يمكنها ان تتحمل ؟ كيف يمكنها ان تخون هى أيضا ؟ أفى مقدورها ان تغلب فى قلبها نداء الحب على نداء الواجب ؟ أفى مقدورها أن تصفح عن خيانة زوجها لأمتها وبلادها ؟ وهل فى وسعها فوق ذلك أن تغض الطرف عن خيانة ثابتة مزدوجة ومروعة ارتكبتها زوجة شقيقها ؟ كلا . هذا فوق طاقتها . هذا خزى يعافه ضميرها ! الواجب يقتضيها أن تتكلم ، أن تصارح ، أن تجهر بالحقيقة كلها . والا غامرت بحياة شقيقها ، وحياة ابنائه الثلاثة ، وحياتها هى أيضا

وملكتها الفكرة ، واستبدت بها . وطغت عليها . فنهضت من فورها ، ودست الرسم والرسائل فى صدارها ، واستجمعت قواها وتقدمت بخطى ثابتة نحو الجناح الايمن من البيت حيث يقيم شقيقها

وكان الرجل قد عاد من مقر عمله . وانكب على دراسة خريطة صغيرة تعين موقع المعركة المنتظرة . فأوصدت ديميترا الباب ، وأحكمت رتاجه . ثم دنت من شقيقها ، وأخرجت الرسم والاوراق من صدارها ، ودفعت بها اليه وقالت :

ــ انظر .. انظر واقرا !

فتطلع اليها وتناول منها الرسم والرسائل وهو مبهوت . فرددت :

ــ انظر واقرا !

فلم يكد يلقى على الرسم نظرة حتى جحظت عيناه وجمد . ثم تنبهت حواسه واستضاء فكره . فأكب على الرسائل ، وشرع يقرأ ، وبصره الحاد يلتمع ، ووجهه المحتقن يتغضن وينقبض، وأعضاؤه كلها تختلج اختلاجا عنيفا ، ثم تتراخى فى انهيار طارىء ، كأنما قد أصابها شلل

وحاول ان يتكلم . ولكنه أحس انه يختنق . فندت عنه صرخة ، وانهمرت من عينيه دمعة

لم يستطع أن يصدق . لم يستطع ان يتصور . فظل تائها شاردا مذهولا يحدق فى الرسم والورق ويرتجف !

وارتمت ديميترا على مقعد ، وقالت فى صوت غائر أجش :

ــ لم يسعنى أن أصمت ! المسألة لا تتعلق بنا وحدنا بل تجاوزتنا الى ما هو اخطر واعظم ! لقد خان كل من زوجك وزوجى عهد الزواج وعهد الوطن ! فأنا أضع مصيرهما بين يديك ، فاحكم .. احكم الآن بما يمليه عليك ضميرك !

وصمتت وهى تلهث . فأطرق الرجل منسحقا . ولبث مطرقا وهو يزفر . ثم أرسل نفسا طويلا . ورفع رأسه فى بطء وقال بعد فترة وعيناه المتقرحتان مصوبتان الى شقيقته :

أما زلت تحبين زوجك ياديميترا ؟

فهتفت :

ـ لقد ملأ الحقد قلبى فلم يعد فيه للحب أى مجال ! انا أشعر أن عقلى أصبح أقوى من عواطفى ، وواجبى اقوى من حبى . ولو ان هذا الحب كان قد خنق وطنيتى لما سعيت اليك وصارحتك بكل شىء ! يجب .. يجب أن نقتص من المجرمين بأنفسنا ، والا فقد يعلم بأمرهما القائد فتحوم الشبهات حولنا نحن أيضا ، فنلوث ونتهم ونستهدف جميعا للموت والعار !

فقال هرمس ، وهو يتلوى :

ـ انت على حق ! لن أشفق ابدا ! لن أتسامح ! ولن أمرغ جهاد حياتى كله فى التراب ، ولن أموت مجللا بالعار حرصا على زوجة زانية ومواطنة خائنة ! وما دمت أنت قد وضعت واجبك فوق حبك ، ورأيت أن ضميرك الوطنى يقتضيك الاقتصاص من زوجك ، فسأقتدى بك انا ايضا . ولكن .. ولكن امرأتى والدة . انها أم ، أم لثلاثة أبناء . فكيف يمكننى أن أعاقبها بدون علم منهم ؟ ماذا يمكننى ان اقول لهم لو غافلتهم وقضيت عليها؟ أية حياة ستكون حياتهم لو حرمتهم فجأة ، وباجراء تعسفى شخصى ، من عطف امهم وحنانها ! يجب ان يعرفوا كل شىء ! أتسمعين ؟ يجب أن أصارحهم بكل شىء ! يجب أن أكاشفهم بعارى وعارهم ، واشركهم معى فى الحكم على أم تنكرت لاقدس واجباتها ، وأصبحت زوجة زانية ومواطنة خائنة !

وارتعد الرجل ، وردد فى عنف :

ـ يجب أن أصارحهم . يجب أن يكونوا هم القضاة ماداموا هم الضحايا ! يجب أن تحاكم امراتى على مشهد منهم ، وكذلك زوجك يا ديميتر ا !

فحنت المرأة راسها مشيرة بالايجاب . وعندئذ سمعت فى الخارج جلبة واصوات . فهب الرجل واقفا وصرخ :

ـ ها هم • لقد عادوا من المعبد وفى صحبتهم أوريون • سأناديهم وسأفصل الساعة فى الأمر دون تردد !

واندفع كالمخبول ، ونادى أبناءه وزوج شقيقته ، وارسل الى امرأته يأمرها بأن تلزم حجرتها حتى يدعوها اليه • ثم غلق الابواب ، وطلب الى الجميع أن يجلسوا، والتقط أنفاسه ، وشرع يتكلم !

وكان ابناؤه الثلاثة يستمعون اليه ، وينظرون فى الرسم والرسائل ، وقد امتدت أعناقهم واندلعت عيونهم ، وتعاقبت أنفاسهم ، وملكتهم دهشة مستهولة مشمئزة ، يشوبها غضب مستنكر ، وحقد هائل كظيم . أما اوريون فقد تصبب العرق من جبينه ، وشحب وجهه شحوب الموتى ، وظل واقفا عن بعد ينقل الطرف فى امرأته واهلها ، ويرتعد كريشة فى مهب الريح !

وبعد أن اتم هرمس قراءة بعض الرسائل ، التفت الى أولاده الثلاثة وقال وهو يهدر :

ـ البينة أمامكم ، والجريمة المزدوجة اقترفتها امكم : واشترك فيها هذا الرجل الذى هو زوج عمتكم . ان امرأته قد فضحته ، وتهيأت لتأدية واجبها . فهل تترددون انتم فى تأدية واجبكم ؟

فلم يتمهل الابن الاكبر شالكاس ، واندفع نحو باب الصدر وفتحه وصرخ مناديا أمه وهو يرتعش

ودخلت هيلينا شامخة الرأس محلولة الشعر ، متقدة البصر • ولكنها لم تكد تتقدم الى وسط الحجرة وتلقى على الرسم والرسائل نظرة ، حتى اندفق الدم الى محياها ، وانكمشت ولم تتكلم . فصاح بها ابنها الاكبر وهو يومىء الى الرسم والورق ويوشك ان ينقض عليها :

ـ أتنكرين ؟

فغمغمت وهي تتراجع :

ــ لا أنكر شيئا ! انا أحب هذا الرجل وهو يحبني • وكلانا فوق ذلك يؤمن بأن بلادنا ضعيفة ، وان استقلالها محال ، وان لا خلاص لها الا اذا وضعت السلاح ، وتحالفت مع الفرس ، وأذعنت للواقع ، وسلمت للأقوى !

فجن جنون شالكاس وصرخ :

ــ افجور وخيانة ؟! أفي اللحظة التي تقدم فيها بلادك على معركة رهيبة وتوشك أن تطاول النصر ، في اللحظة التي اعتزمت فيها أنا ولدك أن أغامر بشبابي وحياتي وأذهب فأضرم النار في احدى سفن الاعداء ، وأموت شهيدا من أجل وطني ، في هذه اللحظة العصيبة اراك أنت ، أمي ، تشمخين وتستكبرين ، وتجاهرين بخيانتك المزدوجة دون ما وازع من خلق او ضمير ؟

فقالت الام في سكون :

ــ وما جدوى الكذب والنفاق ؟ اقتلوني اذا شئتم • وحسبي من الحياة اني قد أحببت وسعدت وعشت !

فنهض ليزياس الابن الثاني وصاح وهو يرجف :

ــ هذه الانانية الغليظة القاسية ، هذه الانانية الوقحة المتحدية ، هذه الانانية الجنائية المنكرة ، تستحق منه ولا ريب اقسى عقاب • وانا ، انا ولدك ايتها السيدة سأقتص بنفسي لشرف اسرتي وشرف بلادي من خليلك وشريكك في الجريمتين : الزنا ، وخيانة الوطن !

فصرخت هيلينا :

ــ ماذا تقول يا ولدي ؟

فقالت ديميترا على الفور :

ــ وانه لحكم عادل وأنا أرحب به !

فتقهقرت هيلينا ملتاعة ، وقالت :

ــ لا • لن يموت الرجل الذي أحبه بيد ولدي !

فصاح زوجها :

ــ اذن فناولها السلاح ياليزياس ولتعطه هى لعشيقها الخائن

فجثت هيلينا على الارض ، وقالت ودموعها تنهمر :

ــ انى اذا قبضت على هذا السلاح فلن أغمده الا فى صدرى !

فقال الابن الثانى :

ــ اذن فسأعرف أنا كيف أقوم بواجبى

فاندفعت المرأة نحوه ، وطوقته بذراعيها ، وصاحت وهى تلثم يديه وتقصيه جهدها عن عشيقها :

ــ لا .. لا تقتله يا ليزياس ..

ولكن أوريون الذى كان قد فقد الامل فى كل شىء وآثر أن يقضى على نفسه بنفسه مختارا من أن يجبن أمام عشيقته ويقتل قتلا ، اسرع ولحق بها . وفى مثل لمح الطرف ، وقبل ان يتنبه ابنها او أخواه أو والده او ديميترا ، اختطف الخنجر من ليزياس ، والقى نظرة وداع على هيلينا ، ثم أغمد النصل فى عنقه ، وهوى على الارض صريعا يتخبط فى دمه

وارسلت هيلينا صيحة مدوية ، وظلت ديميترا جامدة كتمثال . ورمى الابناء الثلاثة ووالدهم جثة المجرم بنظرة ملؤها الزراية والحقد ولم يحفلوا بها

وانثنى هرمس الى زوجته ، وقال فى صوت حاد المقاطع باتر النبرات :

ــ اليك خنجرى وتشجعى .. عاقبى نفسك بدورك وكفرى انقذى من صورتك فى نفوس ابنائك ولو بقية من عزة وكرامة وكبرياء

فترنحت هيلينا وصرخت كمعتوهة :

ــ لا ... لا أريد أن أموت !

فغشى الدم وجه زوجها ، وقدح الشرر من عينيه ، وارتمى عليها ، وهم بأن يقتلها بيده . وعندئذ ، وقع شيء غريب ، شيء مباغت، شيء لم يكن أبدا فى الحسبان

تقدم الابن الاصغر « سولون » الذى لم يكن قد تفوه حتى تلك اللحظة بكلمة ، وأمسك بذراع والده ، وأنهض المرأة المتداعية المحطمة ، وقال فى صوت هادىء ثابت عميق :

ـ هذه المرأة هى أمى . وأنا ابنها الاصغر ، وهى أحب الناس وأعزهم وأغلاهم إلى نفسى ! ومع ذلك فأنا لا أريد منكم أن تصفحوا عنها ! لا أطلب منكم أن ترحموها ! بل التمس فقط ان تدعونى أخاطبها لحظة واحدة قبل ان تموت !

فصاح الوالد :

ـ اتضعف يا سولون وتحرجنى ؟

فقال الشاب :

ـ أريد أن ابرىء ذمتى ! أنا أنشد القوة لا الضعف يا والدى فصبرا . تقدمى يا أماه ... انعمى النظر فى كلامى وارهفى السمع وتأملى . لقد خنت زوجك فأنكرت وفاءه ، وجحدت تضحياته ، ومزقت كرامته ، وسممت البقية الباقية من حياته ثم أذللت أولادك ، وخلفت فى نفوسهم وصمة عار لا تمحى ... ولم يكفك هذا ، فأمعنت ايضا فى غيك وخنت بلادك واتصلت بأعدائها ! وانا مؤمن بانك لو كنت عامرة القلب بحب وطنك ، ما سولت لك نفسك ابدا خيانة زوجك . لأن من يخلص حقا لوطنه لابد أن يخلص ايضا لشرفه وعرضه فهذه الوطنية المقدسة ، وطنية الوفاء الكامل ، الوفاء الكامل للارض التى أوجدتنا ، ولعرضنا الذى هو رمز كرامتنا ، هذه الوطنية هى التى أريد أن أضرمها الآن فى صدرك يا أماه . هى التى أريد أن أعلمك اياها ، عساى أن أرد اليك إعتبارك فى نظر نفسك ، وأهبك شجاعة العزم ، وشجاعة التفكير ! ولقد حدثتك عن

خيانة العرض وما يعقبها من شقاء ، وساحدثك عن خيانة الوطن وما تجره من كوارث .. كيف تنادين بالتحالف مع العدو ؟ كيف تزعمين ان تحالفنا مع العدو ينقذنا ؟ اننا لو أعرضنا عن قتاله وسلمنا ، أصبح هو الاقوى ، فتنكر لنا ، واستباح حقوقنا ، وفرض سلطانه علينا ، وسامنا فى غدر وخبث شر ضروب الخسف والهوان ! اليونان أمة متحضرة يا أماه ، وليست في حاجة الى وصى يمدنها ! نحن ورثة المصريين العظماء ، عنهمقبسنا النور ، ومنهمتناولنا المشعل ، وفيضوئهم منحنا العالم فلاسفة وعلماء وشعراء ، فأبدعنا حضارة وخلقنا مدنية ! فكيف نستحل لانفسنا اليوم أن نتراجع ونجبن ونغمد السلاح ، وندع تراثنا الانسانى المجيد ينسحق ويموت تحت سنابك خيل الفرس ؟ الواجب هو ان نقاتل يا اماه ، نقاتل من أجل ازدهار حياتنا ، نقاتل من أجل نمو تراثنا ، نقاتل من أجل اسلافنا واحفادنا . نقاتل عدونا حتى النصر . ومتى تحقق النصر ، فقد يمكن التفاهم بعد ذلك فى ظل المساواة ! هذه هى الكرامة ، وهذه هى الوطنية ! الوطنية من أجل الخلود يا اماه ! خلود روحنا ، خلود جنسنا ، خلود عبقريتنا فى العالم وفى أصلابنا من بعدنا ، ولكن الخلود محال يا أماه بدون موت ! بدون موت اختيارى خصب ، تغذيه الشجاعة ، ويذكيه الايمان ، ويلهبه البذل والتضحية ! فانبذى معتقداتك الشائنة القديمة يا أماه ، وآمنى بالوطن والعرض ، واثبتى الساعة وتقدمى ! كونى خليقة بأمتك وشعبك ، بل كونى جديرة بابنك الاكبر الذى اختار أن يموت هذه الليلة مستشهدا فى سبيل شيء أعظم من نفسه ، وأبقى من شخصه ، وأغلى من حياته وحياتنا نحن جميعا ! اطعنى صدرك بالخنجر راضية يا أماه لنستطيع برغم عارنا ، ان نكرم ذكراك ونرفع فى الملأ رءوسنا !

وتراجع الشاب وجلس . فلم تتكلم هيلينا ، ولم تتحرك ،

وظلت فى مكانها ذاهلة . لم تتقدم خطوة ، ولم تتجه نحو زوجها لم تتناول منه خنجره . بل أجالت فيمن حولها بصرا زائغا حائرا تائها ثم استقرت ببصرها لحظة على ابنها الاصغر ، ثم تحولت به صوب ابنها الاكبر ثم حدقت الى الشاب طويلا وأشرق وجهها اشراقا طارئا عجيبا ، وتألقت عيناها ، وانفرجت شـــفتاها ، وانسكب فجأة على كيانها كله ضوء غامر صاف قرير ..

ولوحت بذراعها بعد فترة وتمتمت :

ــ لا .. لن أموت هكذا !

فحملق فيها الكل مستغربين مستفسرين

فرددت فى عزم :

ــ لن أموت هكذا !

فلم يفهموا واشتد عجبهم ، وخيل الى زوجها انها تريد أن تحتال عليهم وتخدعهم فدنا منها حانقا ودفع اليها بالخنجـر مستصرخا متوسلا . ولكنها أقصته عنها فى رفق ، ونصبت قامتها ، وقالت فى صوت واضح قاطع جهير وهى ما تزال تسبح فى حلمها وغيبوبتها :

ــ لن أقتل نفسى ! ليس هذا بعقاب ولا بتكفير !

واتسعت حدقتاها . وصرخت بغتة :

ــ لقد استيقظت ! حديث ولدى الاصغر ايقظنى وهدانى ! كنت صماء فسمعت . كنت عميـــاء فأبصرت . كنت ميتة فبعثت ! لن أقتل نفسى ! لن تذهب حياتى هبـــاء ! لن اموت رخيصة والا ارتكبت خيانة ثالثة ! سأموت كما علمنى ولدى ! سأتبعه نحو الخـــلود الذى أراه الآن نصب عينى ! سأموت لأخلد . لاخلد فى امتى ووطنى ! هذا هو العقاب الذى يمكن أن يشفع لى ويرفعنى . وهذا هو التكفير الذى يمكن ان يخـــدم بلادى ويطهرنى !

وتلفتت صوب ولدها الاكبر وصاحت :

ـ لن تذهب الليلة الى هناك !

فأحاط الجميع بها ، وتألبوا عليها ، واشرأبوا اليها بأعناقهم مبهوتين • فصرخت فيهم وصوتها يدوى :

ـ انا . . انا التى سانهض بالمهمة التى وكلت الى ابنى الاكبر! انا التى سأذهب الى الميناء من فورى ! انا التى سأقتحم سفينة العدو ، وانا التى سأضرم فيها النار ! هذه الميتة وحدها هى التى ترضينى ! فصونوا أنتم أنفسكم لواجبات أجل وأخطر ، ودعوا هذه المهمة العاجلة لى !

ورفعت رأسها فى عزة وأردفت :

ـ اعطونى المواد الحارقة ! لن أجد أية صعوبة فى اقتحام السفينة ! ان ربانها الفارسى لن يشك فى أمرى . وهو يعرفنى، ويعرف انى كنت بالامس من صنائع الفرس ، ومن اتباع المارق هيباس . اعطونى المواد الحارقة وثقوا بى !

فوجم الزوج واضطرب . وهجس فى روعه ان هذا التدبير قد يكون حيلة من امرأته ، ووسيلة للتخلص والفرار . فهم بأن يتكلم ويعترض . ولكن الابن الاصغر ارتمى على أمه ، وطوقها بذراعيه ، وصاح بأخويه وهو يهدر :

ـ الا تثقون فى أمكم ؟

فقال الابن الاكبر فى هدوء :

ـ دعوها ترحل ! انا واثق فيها ، مؤمن بأنها قد أصبحت الآن أما وزوجة ومواطنة !

فاندفعت اليه هيلينا وعانقته ، ثم قبلته وقبلت اخويه ، ثم انحنت ولثمت يد زوجها ويد شقيقته . فاستوقفتها ديميترا وقبلتها . فاختلجت هيلينا ، وأوشكت ان تبكى . ولكنها تمالكت نفسها ، واتشحت بمئزرها . ودست المواد الحارقة فى صدارها • ثم تحفزت ، واستنهضت قواها ، وخرجت الى الظلام الدامس ، منصوبة القامة ، مرفوعة الراس ، متصلبة

الوجه ، دون أن تتلفت او تحاول النظر مرة أخيرة الى اولادهـا

ولم تكد تختفى حتى اسرع الجميع وصعدوا الى سطـــح البيت ، وظلوا هناك صامتين ، قلقين ، متلهفين . يتطلعون الى السماء الحالكة ، ويرقبون الميناء حيث تجثم سفينة العدو

وبعد ساعات طويلة ، وقبل أن يطلع الفجـر ، ترامت الى سمعهم صرخات مدوية متقطعة ، ثم انشق فجأة حجاب الليل، ثم شوهد فى الافق البعيد لهب متصاعد ينهب فسحةالفضاء ، ثم لاحت السفينة فى ضوء اللهب المتأجج هيكلامتصدعامتداعيا، سرعان ما ترنح وتطوح والتهمته النيران . فهتف الشبـــان الثلاثة هتافا مدويا متواصلا ، وانثنوا الى والدهم يشهدونه على توبة أمهم ، وصدق وطنيتها ، وعظمة تكفيرها . فالفـوا الرجل يبكى .. يبكى بكاء الفرح والكبر والغفران . فتهافتوا عليه ، وهدءوا من روعه ، وقبلوه . فانحنى عليهم وتفرس فيهم باعجاب . ثم ضمهم جميعا الى صدره ، وقال لهم فى سـكون وهو يشرق بالدمع ويبتسم :

ـ عودوا .. عودوا الى المعبد يا اولادى . وصلوا .. صلوا من أجل أمكم !

الرومان

الامبراطورية الخاطئة

« تقع حوادث هذه القصة أيام انحطاط الرومان ، وتمثل ماكان يجرى اذ ذاك فى قصور حكام روماوما كانت عليه الامبراطورة ميسالين نفسها من بغى وفجور . كما تمثل القصة آلام شعب ويقظة أمة . »

فى عام ٤٨ الميلادى ، وفى حى شعبى من أحياء روما ، وفى زقاق مظلم قذر مستطيل ، كان يرى الناظر حانة صغيرة كئيبة المظهر ، متصدعة البنيان ، يرقى اليها روادها من سلم خشبى علق على سوره مصباح خافت ، تتراقص أضواؤه منعكسة على جدران البيوت الحدودبة المتلاصقة ، فتبدو كأنها أشباح

وكانت الحانة غاصة فى تلك الليلة بجمهرة كبيرة من العمال والصناع وقطاع الطرق وبنات الهوى . وكانت صيحاتهم تقصف فى الجو كالرعد ، وضحكاتهم تهدر فى الظلمة كالسيل ، وشهواتهم تنطلق انطلاقا مروعا ، كأنما هى وحوش ضارية اطلقت من عقالها ، ومضت تمرح فى أجمة كثيفة بعيدة عن العالم

فالعمال كانوا يعاقرون الخمر ويرقصون ، وقطاع الطرق يلعبون الميسر ويتشاتمون ، وبنات الهوى يتسللن بين الرجال محلولات الشعر إنصاف عرايا ، يقدح من أعينهن النهمة المكحلة شرر الطمع والاغراء

وفجأة ، فتح الباب الكبير ، ودخلت منه امرأة . امرأة فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، مديدة القامة فى شموخ ، ناهدة الصدر فى عزة ، وطيدة البدن فى ثبات وقوة ، يستر وجهها وشاح أسود ، ويمسك بذراعها شاب مفتول العضل رائع الجمال

واتجهت المرأة صوب احدى الموائد ، وطلبت خمرا . فجاءها

صاحب الحانة بكوبين من النبيذ ، فمالت الى رفيقهـا وهى تضحك ، ثم ناولته كوبه ،ثم تجرعت مافى كوبها دفعة واحدة، بعد ان نزعت وشاحها الاسود ، وحدقت فى جرأة الى الحاضرين

والتفت الجميع اليها ، فراعهم حسنها الباهر ، وعطـرها الغامر ، وكبرها الساخر المستهتر . فانعقدت ألسنتهم ،وسكن ضجيجهم ، وراحوا يتلامحون ويتهامسون

وكانت المرأة سوداء الشعر ، عالية الجبهة ، واسعـة الحدقتين ، مستقيمة الانف ، ترف أهدابها الطويلة على خديها الناضرين فيومض وجهها الساحر ، وينسكب عليه فيض من الرواء والعظمة يخطف البصر ويأخذ بمجامع الالباب

ونهضت بغتة وقد احتوتها نزوة طارئة ، ولعبت برأسهـا نشوة الخمر . فارتمت على أحد العمال، وجذبته ، وخاصرته، ثم دفعته الى وسـط الحلبـة ، وأهـابت به أن يرقص ، وهى تتفرس فيه ، وتتأمل تقاطيع وجهه الزاخرة بالرجولة ،وتضمه وتوشك أن تقبله

وراق الحاضرين هذا المشهد ، فافسحوا لهما المجـال . فانطلقا يرقصان فى عنف مخبول ، موقع على هتاف الحناجر ، وتصفيق الايدى ، ورنين الكئوس

ولما أحست المرأة بالتعب ، وانتابها من فرط الرقص شبه دوار ، ارسلت صرخة منتشية ثم قبلت الرجل فى فمه قبلة طويلة ، ونفضته عنها وارتمت على مقعد . فضج لها الجمـع بالهتاف والتهليل

وكان صاحبها الشاب الجميل المفتول العضل ينظر اليها فى كمد وسكون . فلما أقبلت بعد لحظة عليه ، غمغم فى أذنها وهو يرتعش :

ـ الا نرحل ؟

فاستضحكت وقالت وهى تلاطف خده بأناملها :

ـ عندما يطلع الفجر !

وانفلتت كالضوء المارق ، وجلست على ركبة احد قطاع الطرق ، ثم اختطفت كوبه الملىء واجترعت مافيه عن آخره !

وعندئذ ثارت ثائرة غانية كهلة كانت بقربه . فدنت منها ، وربتت على كتفها ، وقالت وهى تصعد فيها بصرها وتتحداها :

ـ هذا الرجل هو لى . فدعيه وشأنه أيتها الدخيلة والا . .

فقهقهت المراة قهقهة مدوية ، ثم عادت فاختطفت الكوب وقذفت به وجه غريمتها . فجن جنون الغانيـــة وانقضت عليها ، فركلتها المرأة فى بطنها . فأسرع قاطع الطريق لنجدة صديقته ، وأسرع الحاضرون لطرد الدخيلين

وفى تلك اللحظة فتح الباب فى عنف ، ودخل منه رهط من الجنود . فتراجعت الغانية ، وجمد كل من فى الحـانة ، ثم خرجت المراة مرفوعة الرأس ، عارية الوجه ، باسمة الثغر ، يتبعها الشاب الجميل ، وهو يعض على شفتيه حنقا ويختلج ويوشك أن يبكى

وما أن اختفت حتى صاح كل من الحاضرين بالآخر :

ـ من . . . من تكون هذه المراة ؟

فوثب من احدى زوايا الحانة رجل طاعن فى السن ، أبيض اللحية ، جاحظ العينين ، محدودب الظهر ، وقال وهو يقطب حاجبيه وينتفض :

ـ الا تعرفونها ؟

فأجاب الكل متهافتين :

ـ كلا . . . لم نبصرها قط قبل الآن

فابتسم الشيخ ابتسامة مكمدة وصاح :

ـ انها ميسالين !

فأجفل الجميع ثم هتفوا :

ـ الامبراطورة ؟

فهز الشيخ رأسه ، وغمغم :

ـ هي بعينها . لم تظهر في الملعب الشعبي الكبير غير مرة واحدة . ولكنني رأيتها فيه . رأيتها تشهد حفلة مصارعة . كنت مع ولدي . ولدي الوحيد اوكتافيوس . ولدي الذي يعجب بها ، ويقدسها ، ويبذل قصاراه في التدرب على الحركات الرياضية الخارقة ، كي يصبح في يوم من الايام مصارعا ممتازا ، خليقا بأن يظفر منها بلقب البطولة في سباق العربات ومصارعة الوحوش ومنازلة الجبابرة من أبطال روما . اما أنا فلا احبها بل أكرهها من صميم قلبي . انها هي التي دست السم لفينيسيوس عضو مجلس الشيوخ ، لانه تمنع عليها وأبى أن يكون عشيقها ، وهي التي قتلت كاتونيوس رئيس البوليس لانه اجترأ على انتقاد سلوكها ، وهي التي نفت الفيلسوف سنيكا الى جزيرة كورسكا ، لانه ثار في وجهها ولم يستطع أن يغض الطرف عن آثامها وفجورها ! انها عار روما . وما المحرمات التي ترتكبها الا لعنات تصبها الآلهة على هذا الوطن العزيز الذي لا يحفل بمصيره ، لا الحكام المترفون ، ولا الموظفون النفعيون ، ولا انتم أيها الشعب العابث المستسلم المتواكل !

وتوقف الشيخ لحظة وهو يلهث ثم استطرد صارخا :

ـ أرأيتم ؟ أرأيتم ذلك الشاب الذي كان في صحبتها ؟ انه سيليوس الشريف عشيقها المفضل ، عشيقها الذي تريد أن تجعل منه زوجها الثاني بعد الامبراطور . لماذا ، لماذا تنظرون الى هكذا ؟ تلك هي الحقيقة . ان ميسالين على وشك أن تستصدر من مجلس الشيوخ اذنا شرعيا يخول لها حق الزواج من سيليوس ، وهي في عصمة الامبراطور ! انها تريد أن تبيح للنساء حق التزوج بأكثر من رجل . انها لأفجر الفاجرات!

وشخص الى الجمع الذاهل المبهوت ، وتمتم وهو يرفع

ذراعيه الى السماء :

ـ متى ، متى تنكشف الغمة عن هـذا الوطـن · ومن ، من يمكن أن يكون ذلك الباسل الشجاع الذى فى مقدوره أن ينقذ روما بضربة سيف او طعنة خنجر ؟

فصاح احد العمال :

ـ لقد أسرفت أيها الشيخ · انها قيصرتنا على كل حـال · واكبر ظنى انك تلعنها لانك مسيحى !

فرفع الشيخ رأسه وقال :

ـ لست مسيحيا ولا وثنيا · أنا من أصل اغريقى ، وحياتى الطويلة انقضت فى دراسة الحكمة والفلسفة . ولقـد علمتنى الفلسفة ان هذا العالم وحدة ، وانه لابد أن يكون محـكوما بسلطان اله واحد . فأنا أعبد هذا الاله الاحد ، وأنا فى سبيل وطنى أستنزل لعنته الابدية على ميسالين !

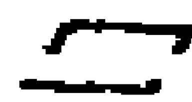
فقال له العامل ملوحا بقبضته :

ـ احذر انتقامها ولا تتهور !

فضحك الشيخ وقال :

ـ أنا فيلسوف وعراف ، وهى تقرب العرافين لانهـا تخشى الآلهة ! وداعا . لقد كشفت لكم عن الحقائق لابذر فى نفوسكم بذور الكرامة والتمرد ! هذا واجبى ! طابت ليلتكم . أنا ذاهب لملاقاة ولدى

وتوكأ الشيخ على عصاه ، وانصرف وهم يتبعونه النظر ، وقد تناسوا اقداحهم . وتناسوا الغانيات ، وشرعوا يفكرون ويتهامسون



وكانت ميسالين التى خرجت فى صحبة سيليوس ورهط الجند من حرسها ، تريد أن تروح عن نفسها وتسهر فى المدينة

حتى الصباح . فاقتادت عشيقها الى احدى الحدائق العامة ، وجلست بجواره تحت خميلة كبيرة ، ومضت تداعبه وتلاطفه وتمنيه بتاج روما ، بعد أن تستصدر اذن الزواج الثانى من مجلس الشيوخ

وكان الشاب ساهما شاردا ، يخنق فى صدره لوعتـــــه ، ويحاول أن يكبح شعوره بالحنق والاستنكار ما استطاع . بيد أن مرجل غضبه انفجر بالرغم منه . فصاح بميسالين :

ـ لست كلبا يجر بمقود ويلقى اليه فتات المائدة . إمـا أن أكون السيد وأما أن أرحل !

وهم بالنهوض ، فتركته ينهض . ولكنـــــه عاد فجلس . فنظرت اليه من خلال أهدابها الطويلة ، وقالت فى هدوء ملكى وهى تبتسم :

ـ على هذا الشرط قبلت أنت أن تكون اليوم عشيقى وغدا زوجى . نعم . انا أقدرك قدرك . ولقد اصطفيتـــك من دون الرجال جميعا حبيبا لقلبى . ولكن ما حيلتى فى طباعى ، فى ميولى وأهوائى ؟ انا امرأة يعز عليها ألا تستمتع بكل شىء وألا تفوز بكل شىء ! ان حب النزوات فى دمى ، واغراء الملذات هو مادة حياتى ! أنا امبراطورة روما ولكنى سأموت يوما . فهل يرضيك ان تموت أعظم امرأة فى العالم ، وفى قلبها حسرة واحدة على لذة كانت تطلبها فحرمت نفسها منها عن طواعية ورضاء ؟ تلك حماقة يا صاحبى ، ومن العار على أن ارتكبها ! فثب الى رشدك ولا تنقض عهدنا . دعنى ملك أهوائى ، واعلم أن هذه الاهواء جميعا ستنصب آخر الامر فى محيط حبك كما تنصب مياه النهر فى البحر العريض !

ومالت اليه وطوقته بذراعها ، ثم قبلته وهو حائر . فتملص منها وأطرق برأسه وطفرت من عينيـــــه الدموع . وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى كان يتعذب فيها سيليـــوس ،

ويشعر مع ذلك ان ميسالين بقربه وانها له وحده ، فى تلك اللحظة برز شاب أشقر الشعر ، باهر الحسن ، واجتاز الحديقة ثم وقف عن بعد تحت شجرة باسقة ، ثم انبطح على الارض ، ثم نهض ، وطفق يثب ويتثنى ويتلوى ، ويقوم بحركات رياضية رائعة تحت ضوء القمر

وكانت اعضاؤه المرنة المفتولة تلمع كالبرق ، وصدره الابيض الناصع ينافس فى تألقه أشعة القمر . فارتعشت ميسالين ونهضت هى أيضا . نهضت من تلقاء نفسها . نهضت على دهش منها . وقبل أن يتنبه سيليوس أو يتحرك ، عدت الى أقصى الحديقة ، وأصدرت أمرا الى رجال الحرس فاندفعوا صوب الشاب الاشقر الشعر ، وطبقوا عليه ، ثم جروه جرا وهو يتملص ويتوعد وينذر ويقاوم

وأدرك سيليوس ان الفتى الرياضى قد راق فى عين ميسالين . فاقشعر بدنه ، وغشى الدم وجهه . ولكنه لم يستطع أن يتحرك

وفجأة سمع صراخ طويل ، صراخ متقطع يفتت الاكباد ، وشوهد الاحدب ، الاحدب الفيلسوف ، الاحدب الثائر المتمرد الذى كان يلعن الساعة ميسالين ، ويستنزل عليها لعنة الله والشعب ، شوهد وهو يركض فى ضوء القمر خلف الجنود ، ويصيح فى شبه خبال :

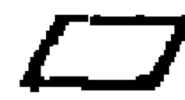
ـ ولدى ! ولدى !

وطفق يركض حتى خانته قواه ، فتهاوى على نفسه وسقط على العشب مغشيا عليه

وقهقهت ميسالين ، واقتادت سيليوس وهو يترنح . ولما دنت من الشيخ الصريع ، ألقت عليه نظرة ، ثم ركلته بقدمها ، ومضت تختال تيها وعجبا دون ان تتنبه لا هى ولا سيليوس الى شيء ابيض مطوى سقط منها وهى تعدو ، وعلق بغصن شجيرة ، وظل يتراقص تحت اشعة القمر

وعندما غادرت الحديقة فى صحبة عشيقهـــا ، هبت من الشمال ريح باردة سرعان ما اشتـــدت وطوحت بالاشجار . فاستفاق الاحدب الشيخ على صفيرها ، وتحامل على نفســه ونهض . نهض يتفقد عصاه ، ويجيل الطرف حوله وهو شارد. واذا به يلمح ذلك الشيء الابيض المطوى يتراقص فوق غصن الشجيرة . فاسترعاه منظره ، وانحنى عليه والتقطه . وما كاد يبسطه و تأمله حتى بهت . بهت واعتراه من فرط فـرح شبه جنون . فألقى بعصاه وجلس على الارض وشرع يقرأ

وكان ذلك الشيء الابيض الذى سقط من ميسالين هـــو عريضة الالتماس التى كانت قد اعتزمت أن ترفعها الى مجلس الشيوخ لتستصدر منه ، ان طوعا وان كرهـا ، اذن الاقتران بعشيقها ، فتصبح فى وقت واحد زوجة الامبراطور وزوجـة سيليوس ! ..



فى مساء اليوم التالى افتقدت ميسالين العريضة فلم تجدها. فاستاءت ولكنها لم تحفل وعولت أن تكتب غيرها بعد اذ تكون قد امضت ليلة شائقة ممتعة بين أحضان الشـــاب الرياضى القوى الذى حمله الجند الى قصرها

وتبرجت وتطيبت وارتدت أبدع غلائلها ، ثم أرخت شعرها الاثيث على كتفيها الناصعتين ، وتمددت على الاريكة ، وامرت بأن يدخل عليها الشاب الاشقر الجميل

ودخـــل أوكتافيوس ابن الاحـــدب الفيلسوف . وما كاد يبصرها حتى عرفها وادرك ما يراد منه

وكان أوكتافيوس معجبا بميسالين ، مقدرا عطفها وسخاءها على أبطال المصارعة ، متطلعا الى الظفر منهـــا بلقب البطولة الذى أرصد عليه جهد حياته . فلما الفى نفسه فى مخدعها ، وادرك أنها قد اشتهته لجماله وشبابه ، ذكر لفوره الفتـــاة

الطاهرة التى يحبها ، واستهول أن يتلوث وينقض العهد المقدس الذى قطعه لها . فانقلب اعجابه بالمراة الى غضب مستنكر كظيم ملؤه العزم على التمنع والتعفف والمجالدة والثبات

وطوقته ميسالين بنظرة ظمأى ، وقالت وهى تبسط له ذراعيها الناضرتين :

ـ تقدم ايها الشاب ، وقل لى ما اسمك وصناعتك ؟

فأجاب وهو يرتعش :

ـ أنا أوكتافيوس ابن الشيخ جاليا الفيلسوف ، وصناعتى مصارع . ولكنى ما زلت مجهولا لم احرز بعد لقب البطولة ولم أتشرف بالمثول بين يدى مولاتى قبل اليوم

فألقت عليه نظرة دل ناعسة ، وغمغمت :

ـ ادن منى .. اجلس .. هنا بجوارى .. لا تخف . انت منذ الساعة بطل يا أوكتافيوس !

وتماوجت أعضاؤها تماوج الافاعى، وامتدت يدها الرخصة وتصلبت كأنها مخلب ، وامسكت بالشاب ، وجذبته اليها . فانحنى أوكتافيوس امامها ، وجثا على الارض ، وقال وهو يرفع الى المراة الموهوبة بصره الزائغ ويتمتم :

ـ أنا شاب فقير لا املك غير ساعدى . فاليك يا مولاتى هذا الساعد فهو فى خدمتك . أما قلبى ، قلبى وروحى وجسدى ، فقد وهبتها كلها يا مولاتى ، وليس فى مقدورى ان استرد ما وهبت !

فوثبت ميسالين من اريكتها وثبة فهد كاسر ، وواجهت اوكتافيوس بعينيها الذاهلتين المتقدتين ، وصاحت :

ـ ما معنى ما تقول يا فتى ؟

فتمالك الشاب نفسه وأجاب :

ـ لى خطيبة أحبها بل اعبدها ،وقد تعاهدنا على الزواج ،

وليس من تقاليدنا يا مولاتى ان ننقض العهد !

فأرسلت المراة ضحكة مدوية وقالت :

ـ العهد شيء وفرصة العمر شيء آخر ..

وصمتت لحظة وهى تتلوى ثم اردفت فى عنف :

ـ ولقد احببتك وميزتك يا اوكتافيوس ، فانتهز فرصة عمرك وتقدم

ومالت اليه بجمع بدنها واحتضنته . فاندفق الدم الى وجه الشاب ، وتراجع ثم ارتمى ثانيـة على الارض وطفق يقبل يدى ميسالين وهو يصيح :

ـ الرحمة يا مولاتى ! لا تلوثينى فى نظر نفسى . لا تحاولى القضاء على مستقبل حبى . كيف يمكننى ان أتزوج غـدا خطيبتى واعيش معها وهـذه الجريمة نصب عينى ؟ انا لا استطيع ان اغدر . لا أستطيع ان أخـدع . لا استطيع ان اقرب الفتاة الطاهرة التى اعبـدها وانا منتهك وملوث ! ان حبى يامولاتى لا يكمن فى قلبى فقط بل فى ضميرى أيضا . ولو انى خنقت الآن ضميرى فلابد ان اجهز فى الوقت نفسه على حبى ، والا اصبحت شرا من أخبث وأفتك المنافقين والخائنين ! لا .. لا يا مولاتى . انت عظيمة ، انت رحيمة ، انت عادلة . وأنا واثق بل مؤمن بأن كرامة نفسك لابد ان تصون كرامتى ، وشرف خلالك لابد ان ينقذ ضميرى ووفائى وشرفى!

وجاشت عواطفـه وبكى . بكى كما كان يبكى سيليوس فعضت ميسالين على شفتيها ، وشعت من عينيهـا نظـرة احتقار تخللها وميض خاطف غريب ، ثم ضمت على صدرها أطراف غلالتها ، وارتدت الى الاريكة وتمددت عليها ، وقالت فى صوت عذب رخيم كأن كلمات الشـاب لم تستفزهـا ولم تصب مقتلا من كرامتها وكبريائها :

ـ مرحى لك يااوكتافيوس ! انك فى الحق لعـاشق وفى !

هذه التجربة الخارقة التى خرجت منها ظافرا تمنحك لقب البطولة الفذة عن جدارة واستحقاق ! ستصلك البراءة غدا ، وستكون أول المصارعين فى أول حفلة شعبية اقيمها !

وجاهدت نفسها لتضفى على وجهها شتى الوان الرضا . ثم ابتسمت فجاة ابتسامة مطمئنة وصريحة ، ثم قالت فى بساطة ساذجة رائعة :

ـ وما اسم خطيبتك ؟

فارتاح أوكتافيوس لابتسامتها وأجاب على الفور :

ـ هى أوجستا بنت الشيخ كاتون صانع السلاح المشهور

فأسبلت ميسالين أهدابها وغمغمت :

ـ بورك لك فيها يا بنى . فلأنت جدير بماكة ! اذهب . اذهب الآن الى حجرتك وسأصدر امرى حالا باطلاق سراحك

فانحنى أوكتافيوس وقبل طرف ثوبها خاشعا وخرج . وما كاد يختفى حتى عصف الذل والحقد والاستنكار بالمرأة فانفجر غضبها المحتجز ، وأسرعت الى اسطوانة نحاسية مثبتة فى الحائط ، فضربتها بمطرقة . فمثل أمامها عملاق افريقى اسود كانت قد عهدت أليه بحراسة مخدعها . فصاحت به وهى تكاد تفقد رشدها :

ـ حذار أن يمس هذا الشاب بسوء ! لا تفرجوا عنه . عاملوه أحسن معاملة وأكرموه !

واتأدت لحظة وهى تلهث ، ثم أردفت فى صوت غائر أجش :

ـ القوا القبض منذ الساعة على الفتاة المدعوة أوجستا بنت الشيخ كاتون صانع السلاح !

وكان الاحدب الفيلسوف جاليا الذى روعه وذهب بلبه اعتقال ولده أوكتافيوس ، يطوف بقصر الامبراطورة كالروح الحائر ، لا يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . كان يخشى على ابنه الوحيد من غدر ميسالين . كان يوجس خيفة من أن توقع

المرأة الفاجرة بولده بعد اذ تكون قد قضت لبانتها منه فظل يحوم حول القصر ، ويتسقط الانباء من الخدم ، ويستفسر فى لباقة وحذر عن موعد عودة الامبراطور

وكان الامبراطور كلوديوس زوج ميسالين متغيبا فى مدينة « أوستيا » يتفقد حاميتها . فقيل لجالبا انه قد يعود بعد اسبوع او شهر . فجن جنون الشيخ ، وسدت فى وجهه السبل ، وخيل اليه أن ابنه قد استلب الى الابد منه ، وأن القدر الغاشم قد سلط هذه المرأة على وحيده لتفقده الشرف والشباب والحياة

واستبدت به الهواجس ، وبرحت به الريب والشكوك . فألقى على القصر نظرة يأس ممزقة ، ثم كر راجعا الى بيته

وكان الوقت ظهرا ، والحر خانقا والشمس تتوهج فى كبد السماء . فتمهل الشيخ لحظة ، ومسح عرقه بكم ردائه واستطرد المسير

وبغتة طرق سمعه صهيل خيل ، وصفير ابواق ، ودوى مركبات . فتوقف مذعورا ونظر . نظر الى الافق القريب . واذا به يستشف عن بعد موكبا عظيما يتقدم صوبه كالعاصفة. فأسرع وتنحى ، ولاذ بقاعدة أحد التماثيل ، واحتجب خلفها. وكان موكب عودة الامبراطور . فترجل كلوديوس فى هدوء ، وتبعه الاشراف والاعيان . فصدحت الموسيقى ، وهتف الحرس ، واطلت ميسالين من احدى شرفات القصر وجعلت تلوح بمنديل أحمر مرحبة بزوجها الذى لم تكن تتوقع ان يعود من رحلته بمثل هذه السرعة

وامتلأت فسحة القصر بالجماهير ، وطفت أمواجها على الشوارع المجاورة . فألفى الشيخ نفسه محاطا بها ، مندفعا معها ، مسوقا بقبوتها الى حديقة القصر . فاستسلم وتقدم ، وقلبه يخفق ، وأنفاسه تلهث ، وعينه الواعية المتنبهة تبحث

بين الاشراف والاعيان عن رفيق صباه الضابط العظيم فرنسيس ملازم الامبراطور

وانه ليحدق بكل ماقى بصره الاحسر من قوة واذا به يلمح صديقه الكبير وهو يجتاز السلم الداخلى متأبطا ذراع القنصل مارسلوس . فما ان رآه حتى نسى نفسه ، ونسى أين هو ؛ وصاح بأعلى صوته غير حافل :

ـ نرسيس ! نرسيس !

فتلفت الضابط مذهولا وعرفه . فابتسم له . ولكنه لم يستطع أن يلبى نداءه ، لان الجماهير كانت قد دفعته هو الآخر ، وغيبته فى أعماق القصر ، وهى تهتف

وظلت تهتف لحظة طويلة بعد أن غلقت الابواب ، بل ظلت تنادى وتطالب رؤية الامبراطور . فبرز اليها كلوديوس فى صحبة ميسالين . فارتفعت صيحاتها ، وتعالى تهليلها . فتقدمت ميسالين الى حافة الشرفة ، ورفعت ذراعها ، وقالت فى صوت جهير ، واشعة الشمس تغمرها ، واضواؤها اللامعة تخطف أبصار الجماهير :

ـ موعدنا غدا ! فى الملعب الاكبر ! ستشهدون أروع ضروب المصارعة ساقدم لكم أوكتافيوس ! أوكتافيوس ابن الشيخ جالبا الاغريقى . بطل روما الجديد ، ونابغة الناصرين !

فدوت الحناجر بالصراخ ، والاكف بالتصفيق . وجمد الشيخ جالبا ، وفغرفاه كأبله ، وسحقته الريب والظنون . ولكنه تمالك نفسه ، وبدل أن يكر راجعا الى بيته ، تحول عن طريقه ، وشق صفوف الجماهير كما يشق السابح الجبار كتل الموج ، ثم تأبط عصاه ، وعض على طرف ردائه وانطلق يعدو فى لهفة مخبولة نحو قصر صديقه الضابط العظيم نرسيس

ولم يكن الامبراطور كلوديوس ذلك القيصر المثالى المهيب

الجليل الذى اشتهر بين العامة بالحكمة والرصانة ورجاحة العقل . الواقع انه كان رجلا واهن العزم ، مسلوب الارادة ، متقلبا متلونا مترددا ، لا يستقر على رأى ، ولا يذعن لنصيحة ، ولا يتبع غير وحى النزوة العابرة ، والعاطفة الطائشة ، والهوى الجامح الوقتى . وكان يحب الملق ، ويستمرىء الزلفى ، ولا تطيب له الحياة الا فى رفقة من لايعكر عليه صفوه ، ومن يحاول بكل ما أوتى من ذكاء ان يدخل السرور على نفسه ، ويخفف عنه اعباء المنصب وتبعات الحكم

وكان كمعظم قياصرة الرومان فى عهد انحطاطهم ، مولعا باللذات ، كلفا بالملاهى ، مستعبدا للبطنة ، متكبرا فى غرور ، مستبدا فى خبث ، طاغية فى مرح جنونى وفى قسوة ووحشية

ولقد بذل المخلصون قصاراهم فى تلطيف طبعه ، وتنوير ذهنه ، واثارة اهتمامه بسلوك ميسالين . ولكنه كان لا يريد ان يسمع أو يفهم أو يرى . كان فى الحقيقة يحذر امراته ويتهيبها ويخشاها . كان يرتعد خوفا منها ، وينخلع رهبة امامها ، ويضطرب ويرتبك ويتلعثم كلما اصطدم بها ، أو حاول اصدار امر اليها أو أراد ان يشعرها بأنه هو الزوج وهو الامبراطور

وهكذا كان يفزع من ضعفه الى الملاهى ، ويفر من جبنه الى الملذات ، ولا سيما لذة الطعام والشراب

ففى اليوم ذاته الذى عاد فيه من « أوستيسا » على غير انتظار ، اراد أن يفرج عن نفسه ، وان يتخلص من التفكير فى امرأته ، وان يدفن همه فى حفلة شائقة . فاستبقى ملازمه نرسيس فى قصره ، وعهد اليه بتنظيم الحفلة ، ثم التمس منه ان يقضى الليل بقربه ليستعين بخدماته عند الاقتضاء

والحق أن كلوديوس كان يعلم بالعلاقة الوثيقة التى تربط

ميسالين بالشريف سيليوس ، ولكنه كان لايصدق ما ترامى اليه من أنها تريدان تتخذ من سيليوس زوجا ثانيا . ومع ذلك فقد كان مستريبا بها ، موجسا خيفة منها ، يتوقع أن تدبر له المكائد ، وتحاول أن تقتله بين لحظة واخرى .

ولقد طالما أسعفه نرسيس بشجاعته ، وحفزه للتخلص من ميسالين بطلاقها أو نفيها أو قتلها . ولكنه كان لا يفتأ يتردد ويتلكأ ، ويلتمس لها الاعذار ، شعورا منه بأن انصارها فى البلاط ، وفى مجلس الشيوخ ، وبين بعض طبقات الشعب يؤلفون قوة عظيمة مرهوبة واسعة النفوذ والسلطان

فلكى ينسى كلوديوس كل هذا انطوى على نفسه ، وابى أن يشهد حفلة المصارعة التى وعدت بها ميسالين جماهير الشعب، ورأى أن يقيم حفلته الخاصة فى الوقت نفسه وفى جناح قصى من القصر

وعلى هذه الفكرة التى زينها له حقده على امراته ، وغيرته منها، ورغبته الخفية فى مكايدتها ، ونفوره من الظهور معها فى ملعب المصارعة ، وهى مصحوبة بسيليوس عشيقها ، نام كلوديوس ملء جفنيه مطمئنا الى حراسة نرسيس ، تداعب احلامه شتى الوان الطعام والشراب ، تحملها اليه وتصبها له اجمل وافتن غادات روما

وما كادت تشرق شمس اليوم التالى ، حتى توافدت الجماهير على الملعب الكبير ، واقبلت على القصر جموع الاشراف والاعيان وأعضاء مجلس الشيوخ ، للاشتراك فى حفلة الامبراطور

وعز على ميسالين أن يقيم زوجها فى نفس اليوم مادبة . وان يرفض الظهور معها فى حفلة المصارعة . فاوعزت الى عشيقها سيليوس أن يجرب حظه مرة أخرى ، وأن يدس لكلوديوس السم فى طعامه بالاتفاق مع رئيس الطهاة . ولم تكن هذه أول مرة يقدم فيها سيليوس على مثل هذا العمل .

ولكن عين نرسيس الساهرة كانت ترقبـــه وكانت تلحق به الفشل فى كل محاولة

ففى الساعة العاشرة تماما اكتمل عدد المدعوين فى حفـلة الامبراطور ، وبدأت الراقصات يرقصن ، والمطربات يغنين ، وكلوديوس يجيل الطرف فيهن تارة ، وفى الوان الطعام تارة أخرى ، وهو جالس على منصة عالية ومن حوله اللازم نرسيس والقنصل مارسلوس

وكان قد ارتدى حلة حريرية ناصعة البياض ، وعقد حول رأسه اكليلا من الغار ، وأسدل على كتفيه وشاحا من المخمل الازرق ، واجلس بالقرب منه أجمل عازفة على القيثار ، وشرع يداعبها ويلاطفها وهى تسكب له الخمر فى كأس كبيرة صيغت من الذهب الخالص

وامر كلوديوس بأن تغلق عليهم الابواب كى لا تترامى اليهم من الملعب الكبير صيحات الجماهير

وهكذا انطلقوا يأكلون ويشربون ويشهدون الرقص ويستمعون الى الموسيقى ، وهم ممددون على الارائك يحتضن كل واحد منهم غانية من غوانى روما ، أو جارية من سبايا الشرق ، أو كأسا يظنها غانية فيوسعها ضما وتقبيلا

أما الملعب الكبير فكان فى تلك اللحظة غاصا بالناس . وكانت الجماهير وقد الهبت خيالها دعوة الامبراطورة ، تتسابق الى المقاعد وتتشاتم وتتضارب لتحتل أولى درجات الملعب

وكانت كل أم قد جاءت فى صحبة أطفالها ، وكل شاب قد وفد فى رفقة حبيبته ، وكل عامل أو صانع قد اقبل ومعـه والدته العجـوز ، أو والده الشيـــخ ، أو رهط من الفقراء والصعاليك والمرضى من سكان حيه والاحياء المجاورة

وكان الملعب يبدو كقوس قزح . فأزياء الجمـاهير كـانت متعددة ، واجناسها متباينة ، تضـــاعف من غرابتها غرابة

الوجوه ، واختلاف السمات ، وتنوع السحن

وفجأة سمعت فى القاعد الامامية صرخة امرأة ، وشوهد الاحدب الشيخ جالبا يدفع هذه المرأة فى عنف ويحتل بالقوة مقعدا ممتازا فى مقدمة المدرج

واستنكرت المرأة وقاحته ، فهوت على حدبتـــه بكفها ، فاحتمل اللطمة ولكنه جلس . فقهقه الجمهور اعجابا ، وراح يرشق المرأة المهزومة بالنكات وهو يهتف للشيخ !

وطال أمد الانتظار ، فعيـــل صبر الجمهور ، وبدأ يصرخ ويصفق

وفى الساعة الحادية عشرة تماما أقبـــــل حملة الابواق ، واصطفوا داخل حلبة الملعب فى شكل هالة ، ونفخوا فى ابواقهم . فهللت الجماهير ثم سكنت

سكنت وتطلعت . تطلعت الى العمـــلاق الافريقى حارس مخدع ميسالين الذى توسط الحلبة ، وحيا الجماهير بسيفه ، ثم تراجع بعد أن صدر أمره بفتح الباب

وفتح باب الحلبة وبرز منه عشرة مصارعين ، فنفـــــخ الجنود مرة ثانية فى الابواق ثم اختفوا ، وبدا الصراع

وكان الصراع بالسيوف . فتلاحمت النصال ، واصطدمت بالخوذ والدروع ، ثم سقط أول مصارع ، فالثانى ، فالثالث ، حتى لم يعد باقيا فى الملعب غير رجلين ، تقاتلا نصف ســـاعة تقريبا . فتمكن أحدهما من الآخر ، والقى به عـلى الأرض ووضع قدمه على عنقه ، ثم عاجله بطعنة قضت عليه لساعته

وتقدم المصارع الظافر ملوحا بسيفه . فهتف له الجمهور طويلا ثم صمت . صمت فترة وصاح :

ـ أوكتافيــوس . نريد أوكتافيــوس ! المجـد والحياة لميسالين !

وكانت الامبراطورة لم تزل فى مخدعها تتجمل وتتبرج .

فأسرع اليها حارس مخدعها . فأمرته بأن يبدأ بعرض المشهد الثانى ريثما تفرغ من زينتها وتدخل الملعب

وعاد الجند فنفخوا فى الابواق ، ففتح الباب الرهيب مرة ثانية ، وبرز منه فوج من الناس .. فوج من النساء والفتيات والشيوخ والشبان فى أسمال بالية واطمار مهلهلة ، فصرخت الجماهير :

ـ المسيحيون ! المسيحيون !

فتقدم الشهداء الى وسط الحلبة وطفقوا يصلون ويرتلون ، وعندئذ فتح باب جانبى صغير ، واندفعت منه خمسة نمور ضارية جائعة ، سرعان ما انقضت على الشهداء وشرعت تفترسهم وهم يصرخون وينتحبون ويصلون ويرتلون

وراق للجماهير هذا المشهد فعلا ضجيجها ، واختلط هتافها بزئير النمور وعويل الشهداء . وفى تلك اللحظة أقبلت الامبراطورة ، وعن يمينها الشريف سيليوس وعن يسارها البطل المرتقب أوكتافيوس . فحيتها الجماهير بعاصفة من الهتاف وأمطرت منصتها بالورود

وحدق الاحدب الشيخ فى ابنه عن بعد ولم يفهم . لم يفهم لماذا هو فى المنصة لا الملعب . ولماذا هو ينقلب من مصارع الى متفرج

وحاول أن يشعره بوجوده . ولكن الشاب لم يبصر ولم يسمع ، وظل ساهما شاردا يخالس ميسالين النظر ولا يدرى من نواياها الخفية شيئا

وبعد أن أتت النمور على جثث الشهداء ورفعت أشلاؤها الدامية من الحلبة ، صدحت الموسيقى ، ومنحت الجماهير فترة انتظار تستريح فيها أعصابها

وانحنت ميسالين على عشيقها سيليوس ، وهمست فى اذنه وقد دبت فى عودها هزة عنيفة ، وتألق فى عينيها ضرام جذل

ـ لاتحقد على غريمك . سوف ترى !

وانثنت الى أوكتافيوس ، وغرست نظراتهـا فى عينيه ، وجاهدت نفسها لتخفى سورة حقدها وبغضهـا ، وقالت بصوتها العذب ذى الجرس الصافى :

ـ ماعدلت عن الافراج عنك الا لانتهز فرصة هذه الحفلة ، فأمنحك لقب البطولة على مشهد من اهل روما جميعا !

وابتسمت وأردفت :

ـ سيجىء دورك وستهبط الى الحلبة فاطمئن !

وما أن كفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، وعاد المتفرجون الى أماكنهم ، وتهيئوا لاستقبال المشهد الجديد ، حتى القت ميسالين الى عشيقها سيليوس بزهرة كانت تعبث بهـا ثم نهضت . نهضت منصوبة القامة ، شامخـة الراس ، متلعة الجيد ، ثم نظرت الى الجماهير ورفعت ذراعها ..

وساد صمت عميـق كصمت السـماء قبيـل العـاصفة . فتقدمت ميسالين خطوة . وصاحت بصوت واضح المخـارج باتر النبرات :

ـ أليكم الآن يا أهل روما أروع مشاهد هذا اليوم ! ارهفوا آذانكم واسمعوا ! لقد تطاولت على وعرضت بى فى احـد المجتمعات فتاة صلفة مغرورة من بائعات الهوى ، نقضيت عليها بالموت ! ستبرز الآن أمامكم ، وامام هذا البطل .. البطل المرتقب أوكتافيوس !

وأشارت اليه واردفت :

ـ فاذا استطاع ان ينقذها ، فانى أمنحها الحياة عن طيب خاطر واعفو عنها !

وأهابت بحارسها الافريقى :

ـ افتح باب الحلبة واطلق الفتاة !

فاندلعت العيون واشرأبت الاعناق ، وطفق الشعب يصيح

وابصاره موزعة بين المنصة والحلبة : المجد ! المجـد لميسالين !
وفتح الباب للمرة الثالثة وانطلقت منه فتاة مشعثةالشعر ، ممزقة الثوب ، جاحظة العينين ، واندفعت الى أقصى الحلبـة وجعلت تستغيث وتصرخ :

ــ أوكتافيوس ! اوكتافيوس !

وماكادت تظهر حتى برز فى أثرها اسد ضخم فظيع اقعى على الارض كالطود الشامخ ، وطفق يزمجر زمجرة هزتالملعب من اعماقه ، وردت الجماهير واجفة القلب حاسرة الطـرف منخلعة الاعصاب

وحدق أوكتافيوس الى الفتاة وصاح :

ــ اوجستا !

فقهقهت ميسالين وأجابت :

ــ هى بعينها ! فاهبط اليها ! انقذها ! انقذ الآن خطيبتك ان استطعت

فتاه عقل الشاب وذهل . ذهل ولم يتحرك . وعنـدئذ سمـع صوت الاحدب الشيخ يهدر عن بعد ويقول :

ــ قم بواجبك يابنى وتشجع !

ثم سمع من مؤخرة الملعب صوتا آخر يجأر وهو ينتحب

ــ ابنتى !

وكان هو صوت صانع السلاح والد أوجستا . فلم يكد يسمعه أوكتافيوس حتى تمزق وصحا . صحا كمحبول ولم يتردد . وفى مثل خطف البرق وثب من المنصة الى الحلبة ، ثم غافل الاسد وعدا صوب أوجستا . وقبل أن يتنبه الوحش ، أطبق أوكتافيوس على الفتاة ، وحملها بين ذراعيه ، وقذف بها الى المدرج . فتلقفتها أيدى الجماهير التى انطلقت تهلل وتصرخ :

ــ المجد لاوكتافيوس والحياة للغانية ! .

وفى تلك اللحظة ، زمجر الاسد وقفز . قفز نحو الشاب فى سورة طارئة داهمة . فامتشق أوكتافيوس سيفه وارتمى عليه . ارتمى عليه فى حذر وطعنه فى جبهته . فثارت ثائرة الوحش وتراجع . فعاجله الشاب بطعنة أخرى . فانقض عليه الاسد بجمع مخلبه وهو يزأر . فراغ منه اوكتافيوس ، وعدا الى أقصى الحلبة . ولما أبصر الوحش مكرا عليه ،ثبت فى مكانه، وسدد اليه بصره ، ثم أغمد فى صدره السيف . فترنح الاسد وأوشك أن يميد . ففرح أوكتافيوس وهم بأن يطرح سيفه . ولكن الاسد أفاق بغتة من غشيته . وقبل أن يطوح به ألم جراحه ، استجمع قواه وانقض على الشاب وضربه بمخلبه فى صدره . فهوى أكتافيوس على الارض صريعا ، وهوى الوحش بالقرب منه يتخبط فى دمه

واندفع العملاق الافريقى الى وسط الحلبة وصاح :

ــ مات البطل أوكتافيوس ولكنه قتل الاسد ! المجد والحياة لميسالين !

فهبت الجماهير واقفة ، وانشدت على نغمات الموسيقى نشيد وداع الابطال ، ومضت تلقى بطاقات الورد على جثة أوكتافيوس وهى تغنى

واذ ذاك ، وفى صميم تلك الجلبة التى اختلط فيها الغناء بصياح النساء وولولة الاطفال وعزف الموسيقى ، كان الشيخ الاحدب جالبا والد أوكتافيوس يمزق وجهه بأظفاره ، ويضرب صدره بكلتا يديه ، ويشق صفوف الجماهير وهو يسمع نحيب أوجستا خطيبة ولده ، ويتجه فى جنون نحو منصة ميسالين !

وفقد عقله ، فأراد ان يثأر منها وان يقتلها . ان يغافلها ويرديها بطعنة خنجر قبل أن تغادر الملعب . وانه ليتقدم صوبها، راسخ العزم ثابت الخطى ، واذا به يقف على الرغم منه ويتراجع

ابصر صديقه ، صديقه الذى لم يستطع ان يتصل به أمس ، صديقه الضابط نرسيس ، يعتلى المنصة فى عنف وقد اتسعت حدقتاه وانبعث منهما بوارق ملتمعة أشبه بشرارات نار ، ويندفع نحو ميسالين ، ويصرخ فى وجهها غير حافل !

ـ اتبعينى حالا . . هذا أمر الامبراطور ! كان طعامه مسموما وقد أكل منه أحد العبيد فمات ! انه يتهمك ويطلبك الساعة للدفاع عن نفسك !

فوجمت ميسالين ، ولكنها تماسكت وابتسمت . ونظرت الى سيليوس ولم تتحرك . اما الاحدب الشيخ فقد افقده الفرح صوابه . فاخترق زحمة الجماهير وصاح بكل ماق قلبه من حقد ولوعة وأسى :

ـ نرسيس . . نرسيس . . خذنى معك ! اريد ان أرى الامبراطور !

فنهضت ميسالين وتطلعت اليه مستغربة . فلم يتهيبها،بل دنا منها ، وتحداها ، وفى صوت غائر متحشرج تدوى فى أعماقه البعيدة نذر القدر ، ألقى فى وجهها هذه الكلمات :

ـ قتلت أوكتافيوس ولدى ، ولكن ثأرى لابد ان يطاردك حتى تلفظى النفس الاخير !

وأردف فى وحشية وهو يكاد يقهقه :

ـ العريضة معى ! الالتماس الذى كتبته انت بخطك لترفعيه الى مجلس الشيوخ منتهزة فرصة غياب الامبراطور فى أوستيا! انه معى . وانا أريد أن أرى الامبراطور !

فأبرقت عينا نرسيس ، واختبلت ميسالين وصاحت :

ـ القوا القبض على هذا الشيخ !

فصرخ نرسيس باسطا ذراعيه :

ـ ويل لمن يمس هذا الرجل بأذى !

والتفت الى من اقبلوا فى صحبته من الاشراف والاعيان .

والجند انصار الامبراطور ، وقال :

ـ فرقوا الجماهير ، وسوقوا الى القصر ميسالين وسيليوس !

واقتاد الاحدب من ذراعه واردف :

ـ اتبعنا الى حيث يقيم الامبراطور

وطوق الجمع ميسالين وعشيقها ، ودفعهما الى الامام دفعا فاستشاط غضب الامبراطورة وصاحت :

ـ الى يا اجريبا !

فامتشق العملاق الافريقى حسامه . ولكن نرسيس كان أسرع منه ، فعاجله بضربة سيف فى صدره قضت عليه

وحاول سيليوس ان يذود عن عشيقته . غير ان احد الضباط تمكن منه وانتزع سيفه . فامتقع وجه ميسالين وارتعدت فرائصها ، ولم تجد بدا من الاذعان فتقدمت ، ولكنها تمالكت نفسها ، وطوقت بذراعها خصر عشيقها ،وقالت له فى صوت خفيض وهى تبتسم :

ـ تشجع واعتمد على ! مازلت امراة ، وما زال فى وسع المراة أن تهزم أمبراطورا !

ومشت مشيتها الملكية وكأنها فى موكب مجد وحياة ، لا فى موكب هزيمة وموت

وكان الامبراطور ممددا على أريكته ، يفكر فى الامر الذى أصدره ويرتجف . كان يود أن يقضى على ميسالين ، ويود فى الوقت نفسه ان يجد مبررا للعفو عنها كان خوفه منها يشوش فكره ، ويزعزع ارادته ، ويبتليه بشبه نوباتمتقطعة من الحماسة والفتور والاقدام والاحجام ، والبسالة والجبن

فلما دخل عليه نرسيس مصحوبا بالشيخ جالبا ، تلفت اليهما وهو ساهم . ثم حدق الى الشيخ الغريب فى ذعر ، واهاب بالضابط :

ـ من هذا الرجل ؟

وقبل ان ينطق نرسيس أو الاحدب بكلمة : دخلت ميسالين ، وارتمت على زوجها ، وعانقته عناقا حارا ، وبكت . . . اجهشت بالبكاء وهى تعانقه وتقبله . ثم اختلجت وتأوهت وتثنت . وفى وقاحة منكرة كوقاحة البغايا . حلت شعرها ، ونضت عنها ثوبها ، وضمت اليها كلوديوس وهى شبه عارية ، وطفقت تهمس فى أذنه بكل حرارة انوثتها ونهب جثمانها :

ـ لا تنصت لهم . انهم مفترون ومغرضون . الحقد يملأ قلوبهم . هم الذين دسوا السم فى طعامك . هو نرسيس الذى يطمع فى الملك بعدك . اما انا فاعبدك وانت وحدك مولاى وسيدى . فاقتلنى ، اقتلنى اذا شئت . ولكن اعلم انى طاهرة وبريئة ، انى احبك ، وانى وان كنت مسكينة ومظلومة الا أن اسعد لحظة فى حياتى هى اللحظة التى اموت فيها بيدك!

فضطرب كلوديوس وانتشى . ولكن نرسيس اندفع نحوه ، وجذب الاحدب من ذراعه ، وقال فى صوت جهير :

ـ ابرز العريضة ياجالبا ! تقدم ! تقدم ولا تخف !

ففتح كلوديوس عينيه المنتفختين وقال :

ـ اية عريضة ؟

فصاح الشيخ جالبا وقد احتوته شجاعة دونها شجاعة ولده :

ـ انه التماس . . بل انذار مشوب بتهديد واضح ومصوغ فى قالب التماس كتبته الامبراطورة لترفعه الى مجلس الشيوخ اثناء غيبتك كى يخول لها وهى زوجتك الشرعية حق التزوج برجل ثان واليك المستند يا مولاى

ودفع بالورقة الى الامبراطور . فما كاد كلوديوس يلقى عليها نظرة حتى صرخ :

ـ انه خطك يا ميسالين !

فهنفت المرأة على الفور :

ـ انه سيليوس لا انا ! هو الذى حرضنى ! هو الذى أوعز الى ! ولكنى استفقت وثبت الى رشدى . فألقيت بالعريضة فى احدى الحدائق ، وأقسمت بالآلهة ان اطرد سيليوس اليوم من روما ، وان أظل طوال حياتى كما انا الان ، وفية لك وحدك لا أعرف غيرك سيدا وعاشقا وحليلا !

فجحظت عينا سيليوس ، واستهول غدر المرأة ونفاقها ، فتقدم رافعا رأسه وقال :

ـ انها كاذبة ! الخط خطها ! وهى التى اتخذتنى عشيقا بمحض ارادتها ، وأرادت أن تقترن بى ، ثم تسعى لقتلك ثم تتوجنى امبراطورا ! لقد ضحت بى الآن لتفلت من عقابك . ولكنك لو عفوت عنها • فستكون أنت ، أنت ياكلوديوس أول ضحاياها ! اما انا فمن المحال ان أدعك تطردنى من وطنى أو تعاملنى كمجرم فتسلم عنقى الى سيف الجلاد ! وداعا !

واستل سيفه وبقربه بطنه . فانهار وهو يجاهد كى يخنق ألمه ولا يرسل فى لحظاته الاخيرة أية زفرة • فصاح نرسيس متوسلا وهو يمد ذراعيه ويشير الى ميسالين :

ـ لا ترحمها يا مولاى. اتبعها بعشيقها ! انقذ نفسك وانقذنا!

فجثت ميسالين وصرخت وهى تقبل قدمى زوجها :

ـ الرحمة ياكلوديوس . انى احبك !

فقال نرسيس منذرا :

ـ لو عفوت عنها يامولاى ، فثق انك لابد أن تفقدنى وتفقد منذ هذه اللحظة أنصارك جميعا !

فارتعش كلوديوس وتمتم :

ـ اعطوها . . اعطوها خنجرا ! لقد كانت امبراطورة ويجب أن تعرف كيف تموت !

فاسرع نرسيس وناولها خنجره . فاصفر وجهها ، واندلعت

عيناها ، وأمسكت بمقبض الخنجر وهي ترتعد من فرعها الى قدمها . عز عليها شبابها وجمالها ، ومجدها ونعيمها ،وجبروتها وسلطانها . فجمد الدم فى عروقها ، ولم تستطع أن تدنى طرف النصل من صدرها . فدنا منها نرسيس ، وانحنى عليها ، ثم أمسك بيدها المشلولة ودفع بالخنجر فى صدرها حتى مقبضه!

وتهاوت ميسالين والدم ينزف منها ، وعيناها الزجاجيتان تحدقان فى الشيخ الاحدب المأخوذ

وعندئذ ، وفي مثل مسرى النار ، ترامى النبأ من القصر الى الخارج . فاندفعت الجماهير الواعية ، الجماهير الموالية لنرسيس ، الجماهير الحاقدة على الامبراطورة ، والثائرة على نظام الحكم كله ، واقتحمت البهو الواسع . فتقدم احد الاشراف ، وحنى سيفه أمام كلوديوس وقال :

ـ ماتت ميسالين الفاجرة . المجد للامبراطور !

ولكن الجمهور هتف هتافا قاصفا مجلجلا :

ـ المجد للشعب ! المجد لروما !

فانكمش كلوديوس ، وارتعدت فرائصه ، وأحس قوة الشعب الغاضب لاول مرة فى حياته . فتحامل على نفسه ونهض . ولم يسعه الا أن يلوح للجماهير ويردد صاغرا :

ـ المجد للشعب ! المجد لروما !

اما الاحدب الشيخ جالبا الذى كان فى تلك اللحظة أسعد الناس وأشقاهم ، فقد انسل من القصر ولما استقبل الشارع العريض ، انطلق من فوره الى بيت كاتون صانع السلاح ، وجل أمله فى هذه الدنيا أن يرى خطيبة ابنه أوجستا ، وأن يعيش أيامه الباقية بقربها ، وأن يبكى معها الوقت بعد الآخر ولده الوحيد أوكتافيوس ، بطل العفة والشهامة والوفاء ، وآخر ضحية من ضحايا الامبراطورة الفاجرة ميسالين !

فرنسا

# شوق الوطن

« كانت قد اندلعت نار الثـــورة الفرنسية الكبرى . وكانت ملكة فرنسا ماري انطوانيت قد استعدت الاجنبي على بلادها ، واستعانت بجيـــوش النمسا وبروسيا لقمع ثورة الشعب. وكان القـائد البروسي « برنسويك » قد توغل في الاراضي الفرنســــية ، وهدد ثوار باريس . اما القـائدان الثوريان « ديمور يينر » و« كيلرمان » فكانا قد عاهدا الشعب على الدفاع عن الثورة ومقاومة الاجنبي حتى الموت . واما الزعيم « دانتون » فكان قـــد نظم حركة تجنيد شعبي واســـعة النطاق لتعزيز جيش الثورة والوقوف في وجه البروسيين والنمسويين ومنعهم من شق طريقهم الى باريس . »

في وسط ذلك الاعصار الذي اجتاح فرنسا وأوربا بأسرها ، كان السـكون العميق يخيم على ضاحية فرنسـية بعيـــدة ، ولا سيما على قصر عظيم ينهض في تلك الضاحية ، وتقيم فيه هيئة القيادة العليا المشرفة على الجيوش الاجنبية ، التي شرعت في التدفق لانقاذ الملكية في فرنسا ، وحماية النبلاء والاقطاعيين، ومقاتلة جيش التحرير الوطني

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريبا ، والضباط نيام ، والجو ينذر بعاصفة . وفجـــأة ، هبت الريح ، ودوى الرعد ، وانهمر المطر متعاقبا غزيرا ، وطفق يلطم جدران حجرة « فرانسواز » في أحد أجنحة القصر النائية

واضطربت فرانسواز وترددت . ولكنها أحست كأن الجو يحفزها ويدفعها . فتحاملت على نفسها ، ونهضت من فراشها، وفتحت باب حجرتها ، وقلبها يخفق ، وأوصالها ترتعـــد ، ووقفت بعتبة باب الحجرة ، تجيل الطرف حولها في قلق وخوف وتهم بالخروج

كانت قد عزمت أن تخرج برغم كل شيء . كانت قد عاهدت نفسها على الجراة والشجاعة والثبات واقتحام الخطر الهائل

الذى كان ماثلاً أمامها ، ويحتل ذهنها ، ويلهب خيالها ، ويسوم قلبها المتفطر ، وبدنها المتصدع ، وأعصـــابها المتوترة ، مر العذاب

ولكنها بدل ان تتحرك وتتقدم وتخـــرج ، لبثت فى مكانها ، تائهة عن نفسها ، غائبة عن وعيها ، تجمع شتات خواطرها ، وتحس على دهش منها أنها مندفعة لا الى العمل بل الى التريث والتأمل والتفكير

ومضت تفكر وهى مذهولة ، وتهجس فى نفسها ، واعضاؤها تنتفض والحمى تساورها :

ــ كيف ؟ أفى الامكان أن أتصور هذا ؟ أيمكن لفتاة مثلى أن تحنث بيمينها ، وتغدر بزميـــلاتها ، وتخون الثورة التى من اجلها عاشت وجاهدت ، وبوساطتها أدركت أن للحياة قيمة معنوية وغرضا ساميا ومثلا اعلى ؟ ماذا حل بى ؟وكيف تحولت من مواطنة ثائرة مجاهدة ، الى أنثى وضيعة ذليلة مستخذية، يغرر بى القلب ، وتعصف بى العاطفة ؟ أجـل لقد احببت ! أحببت بكل قوى عقلى ، وكل قوى احساسى ، وكل قوى شبابى وجمالى ! ولكن من هو ذلك الذى أحببت ؟ يا لهـول حظى التاعس المنكود ! هو ضابط بروسى ! هو رجل من ألد أعداء بلادى ، رجل على أن احذره ، وعلى أن أراقبه ، وعلى أن استطعت أن أقتلع أنيابه بعد أن أكون قد أنشبت فيـه مخالبى ! نعم . لقد احببته ! والمروع الآن فى امرى انه يجب أن انقذه ، ان ارتكب جريمة من اجله ، ان انتهك فى سبيله حرمة الواجب ، وحرمة القسم ، وحرمة الوطن ! ولو ترددت ، لو أحجمت ، فسيقتل « اوجو » ! سيقتل ! سيعدم رميا بالرصاص وفى مقدورى انا ان انقذه ! أيموت ؟ هو ؟ الرجل الذى ايقظ قلبى ، وأترع بدنى ، وسلبنى لبى ، وهدانى الى متعة الحب . ونعيم الهوى ؟ ليس فى وسعى أن اتصور هذا . هذا جنون ! بل

هو اجرام ، بل هو وحشية لا تصدر الا عن امراة تنسكرت لطبيعتها ، وخانت أنوثتها ، وفقدت كل احساس بالشفقة والرحمة ومعنى الانسانية ! كلا . ليس فى وسعى ! انا أنثى قبل أن أكون مواطنة ! أنا عاشقة قبل أن أكون مجاهدة ! ويجب .. يجب أن أنقذ أوجو . يجب أن أتشجع واقدم وانقذه

وكانت فرانسواز تفكر ، وعين خيالها المتقدة تتبعها ، ولا تنفك ترسم أمامها فى وضوح صارخ شخصية « بولين » رئيستها وزعيمة الهيئة الثورية التى تنتمى اليها ، وصديقة ممثل الشعب دانتون وموضع ثقته ، والفتاة التى لا تعرف فى الدفاع عن حق الثورة ضعفا أو تهاونا أو صفحا أو رحمة

وذكرت فرانسواز جهادها هى . ذكرت كيف تسللت الى تلك الضاحية البعيدة ، وكيف اخترقت جموع الجيوش الاجنبية ، وكيف دخلت هذا القصر للتجسس على جيش العدو فى صحبة رئيستها « بولين » وزميلتها « مرجريت » و « هورتانس » !

ذكرت كيف احتال دانتون على نبيل مفلس من كبار رجال البلاط الملكى ، وسخا عليه بالمال ، وساقه الى تزوير توقيع الملكة على خطاب يثبت أن الفتيات الاربع هن من صنائعها ومن أخلص واصدق أعوانها ، ويأمر كل ضابط نمسوى أو بروسى أن يرحب بهن ، ويكرم وفادتهن ، ويستخدمهن فى التجسس على رجال الثورة

ذكرت فرانسواز كل هذا ، وذكرت أيضا كيف جاهدت الزعيمة بولين ، وكيف مكرت واحتالت هى الاخرى حتى كسبت ثقة الضابط الكبير أوجو . فمنحها جوازا يخول لشخصين حق اجتياز الحدود التى يرابط فيها الجيش البروسى النمسوى ، ثم أفرد لها ولزميلاتها جناحا نائيا فى القصر نفسه ، كى يسهل على الفتيات الاربع أن يتصلن

اتصالا دائما بهيئة الجيش العليا . والعجيب أن بولين ، بولين الضئيلة المهزولة الساكنة فى انطوائها وصمتهـا وجمودها ، كانت فتاة عبقرية ! اصابت فى مهمتها الشاقة نجاحا سريعا لم يكن قط فى الحسبان ! استطاعت فى أقـل من أسـبوع ، اسبوع واحد ، أن تضلل الضابط أوجو ، وتخدعه ، وتغافله وهو منهمك فى تأدية مهمـة عسـكرية مستعجلة ، وتدخل مخدعه ، وتصطنع مفتاحا لخزانته الخاصة ، ثم تسرق من الخزانة مستندا حربيا خطيرا ، يمكن أن يعتمد عليه جيش الثورة ، فى معرفة خطط العدو والعمل على احباطها ! هو ذاك . لقد سرقت بولين المستند ! المستند الخطير ! المستند الذى كان فى عهدة أوجو ! سرقته ، وأخفته فى مخدعها ، بين حشايا وسادتها . اخفته هناك ريثما تواتيها الفرصة المنشودة فتتسلل من القصر ، وتستخدم الجواز الذى تحمله ، وتعبر الحدود ، وتتصل بأحد أعوان دانتون ، وتسلمه المسـتند ، كى يسلمه بدوره الى قيادة جيش الثورة

فالمستند الآن هنا ! فى جوف الوسادة التى تنـام عليهـا بولين ! ولقد صارحت بذلك زميلاتها الثلاث ليـلة أمس ! اذن فحياة أوجو فى خطر ! والسرقة لابد أن تكتشف ، ولابد أن يتهم أوجو بالتقصير والاهمال أو الاتصال بجيش الثورة ، ولابد أن يحاكم امام مجلس عسكرى ، ولابد أن يحكم عليـه اما بالاعدام واما بالانتحار !

وتصورت فرنسواز حبيبها جثة هامدة مضرجة بالدماء . فخلع الرعب قلبها ، وظلت ترتجف وانفاسها المتعاقبة تكاد تخنقها . ولكن شدة الرعب ايقظت حواسها ، ونبهت عقلها ، واستنهضت ارادتهـا . فزايلتها فى لحظـة عوامل الضعف والتردد ، وابت الا أن تجازف وتغامر وتنقذ حبيبها

ومشت كما يمشى النائم وهى تغمغم :

ـ سيفد أوجو الى هنا بعد قليل ، وسيكون فى حجرتى .. فى مخدعى . سيلبى ملهوفا دعوة الحب بعد أن يتفقد كعدته حرس القصر . سأراه وسأنقذه ! وسأرد اليه المستند المسروق وأهبه فوق متعة الحب نعمة الحياة !

وانطلقت بخطى وئيدة ، وصدرها يعلو ويهبط ، حابسة أنفاسهـا ، مسترقة خطاها ، هائمـة فى الدهليز المستطيل الساكن المظلم ، المؤدى الى حجرة الزعيمة بولين

وما كاد يلوح امامها باب الحجرة الخشبى ، حتى اختلجت اختلاجا عنيفا ، واوشكت أن تترنح وتسقط . ولكنها تمالكت نفسها ، وعضت على شفتيها ، وهتفت :

ـ الآن أو أبدا ! الحجـرة خاوية ، والفرصـة سانحة ، ومع كل واحدة منا مفتاح مشترك تستطيع أن تنفذ به عنـد الحاجة الى غرفة زميلتها ، وبولين ما تزال فى هيئة القيـادة تعاون ضابط الاتصـال فى كتابة تقرير الى القائد البروسي برنسويك . لن تدخل الآن مخدعها ! وستذهب كعادتها قبل النوم الى غرفة الاستحمام ، وستمكث فيها ربع ساعة على الاقل . فلأتقدم ، ولانتهز فى شجاعة وعزم هـذه الفرصـة الفريدة التى لن تتيحها لى أعصابى الخائرة مرة اخرى !

وأعملت المفتـاح فى الباب فانفتح . فدخلت الحجرة . فألفتها مضاءة بمصباح خافت صغير . فارتعدت وخيل اليها أن قواها على وشك أن تخونها . ولكنهـا سرعان ما لاذت بطيف حبيبها ، وتقدمت متجهـة البصر نحـو السرير ، ثم أنشبت أظافرها فى الوسـادة ، ومضت تمزق حواشيها ، وتدس فى جوفها أصابعها المرتعشة

وكانت غرفة الاستحمام مواجهـة لمخدع بولين . وكانت موصدة الباب لا تنبعث منها اية حركة . وفجأة ماجت الغرفة واصطخبت ، وسمع منها صوت اصطفاق الماء على الحوض

الرخامى . فأدركت فرانسواز أن بولين قد دخلتها . فخفق قلبها ، وتخاذلت ركبتاها ، واصطدمت على الرغم منها بمنضدة صغيرة عليها آنية من نحاس ، فسقطت الآنية على الارض وأحدثت صوتا صارخا فاضحا مزعجا

وملأ الصوت كيان فرانسواز . فجحظت عيناها ، وكف قلبها عن الخفقان ، وتوقفت . أما بولين ، بولين الذكية الماكرة الداهية ، فكانت قد كست زجاج باب غرفة الحمام بقطعة من قماش أزرق تستطيع لو نحت أطرافها أن ترى من فى حجرتها دون أن يراها . فلما ترامى اليها صوت الآنية النحاسية وهى تسقط على الارض ، أجفلت ودهشت ثم وثبت من فورها الى مقعد صغير كانت تضعه على الدوام بجوار الحوض ، واعتلته ، ونحت طرف القماش الازرق ، وأبصرت زميلتها .. زميلتها فرانسواز .. زميلتها فى الفكرة والمبدأ والجهاد ، تضم المستند تحت معطفها ، وتستدير وهى مذعورة ، وتتجه فى قلق ولهفة نحو الباب . واستمهلتها بولين حتى خرجت ، ثم قفزت بخفة الى الارض ، وتأنت لحظة ، ثم فتحت باب الحمام ، وألقت غلالتها الليلية البيضاء على بدنها العارى ، وأسرعت فانتزعت غدارتها من تحت الوسادة المزقة ، وانطلقت فى أثر فرانسواز

وكانت فرانسواز لفرط شعورها بالفرح غائبة عن صوابها . فلم تسمع وقع الخطى السريعة التى تتبعها . فظلت بولين تلاحقها فى الدهليز المظلم الطويل حتى اقتربت الفتاة من حجرة « هورتانس » أصغر الفتيات الاربع سنا ، وأشدهن تفانيا فى خدمة الثورة . وعندئذ مدت بولين ذراعها ، ولمست كتف فرانسواز وهمست : « قفى ! »

فانخلع قلب فرانسواز ، ومادت بها الارض ، وحاولت أن تستجمع قواها لتتملص وتفر . ولكن بولين انقضت عليها

واختطفت المستند منها ، ثم أمسكت بها ، وفتحت حجرة هورتانس وأيقظتها ، وقالت فى هدوء ثابت عازم :

ـ أيقظي مرجريت أيضا . واتبعانى . اتبعانى الى غرفة فرانسواز !

وجذبت فرانسواز من ذراعها ، ومشت بها فى الدهليز الطويل ، والفتاة منقادة اليهــا ، مسلوبة مأخوذة مذهولة ؛ لا تدرى أفى يقظة هى أم فى حلم طارىء مشوش يموج فيــه رهط مروع من الاشباح . ولما دخلتا الغرفة ، اسرعت بولين فأسدلت الستار على النافذة ، ثم اندفعت نحو الفتاة وقالت فى صوت غائر أجش وهى تحدق اليها :

ـ لماذا سرقت المستند يا خائنة !

وارتمت عليها ، وتشبثت بها ، وطفقت تهزها هزا عنيفا وتردد :

ـ لماذا سرقت المستند ؟ تريدين ولاشك رده الى القيادة طمعا فى المال ؟ تطمعين فى المال ولو أهلكتنا ؟ أجيبى !

فاستهولت فرانســـواز أن تتهم بالخيانة من اجل المــال فثارت كبرياؤها ، وهتفت :

ـ كلا . ليس هو المال الذى دفعنى !

فذهلت بولين وصاحت :

ـ اذن لاى غرض ؟ تكلمى !

فصمتت الفتاة وحنت رأسها . فاتقد بصر بولين، وأشرقت فجأة بصيرتهــا ، وانجابت السحب عن ذهنها . فامسكت بالفتاة ، واجبرتها على أن تنظر اليها مواجهة ، وقالت :

ـ أهو الحب ؟ اهو اوجو ؟

فخارت قوى فرانسواز ، وتداعت أعصابها ، وغمغمت وهى تتهاوى وتسقط على ركبتيها :

ـ ارحميه ! انى أحبه ! أردت ان انقذه ! انه يجهل حتى الآن

كل شيء . كنت على موعد منه الساعة . هنا ... في غرفتي. وسيأتي بعد قليل . فاشفقي عليه وعاقبيني انا وحدي . انه بريء . أشفقي عليه وعاقبيني انا وحدي !

واذ ذاك دخلت هورتانس ومرجريت ، فبسطت فرانسواز ذراعيها ، وارتمت عند أقدام زميلتيها ، وظلت تردد كمخبولة:

ـ ارحما أوجو ! انى أحبه ! لقد سرقت المستند من غرفة بولين لأنقذه . فاقتلنني ولكن اشفقن عليه !

فركلتها بولين بقدمها وصاحت :

ـ أين غدارتك ؟

فاقشعر بدن الفتاة وتراجعت . فرددت بولين صيحتها. فأومأت فرانسواز الى درج مكتبها الصغير . فعدت بولين اليه ، وأخرجت الغدارة وناولتها لمرجريت ، ثم ضمت أطراف غلالتها البيضاء على جسمها العارى ، وانطرحت على مقعد وقالت في هدوء عجيب :

ـ سننتظر هنا مقدم الحبيب الظافر !

فغشى الدم وجه فرانسواز ، وتاهت عيناها في العيون الثابتة ، في العيون القاسية ، في العيون الصلبة الجامدة المحيطة بها . وفجأة سمع صرير مفتاح يدور في القفل . ثم فتح الباب ودخل منه الضابط أوجو

وما كاد يدخل حتى أسرعت بولين وأوصدت الباب خلفه ، وشهرت في وجهه سلاحها ، وقالت :

ـ مكانك !

فبهت أوجو ، وقدح الشرر من عينيه ، وأدرك انه وقع في كمين . فتحول نحو فرانسواز وقال وهو ينظر شزرا اليها، وصوته يمج حقدا وكراهية :

ـ اذن فقد كنت انت وزميلاتك جواسيس لرجال الثورة علينا ؟ انت .. انت يا فرانسواز .. انت التي احببتك الى حد

العبادة كنت جاسوسة لا امرأة !

والتفت الى بولين وقد فطن الى مركزها فى الجمــــاعة ، واستطرد :

ــ ماذا تريدين منى . انا الآن رجل اعزل . ولكنك مهمـا هددتني فلن ابوح لك بسر يتعلـق بعملى ، ويمكن ان يمس مصلحة الجيش الذى انتمي اليه !

فقالت بولين فى هدوء :

ــ السر معى ! المستند .. المستند الخطر ، المستند الاوحد الذى اودعته انت خزانتك ، كان قد وقع فى قبضتى !

فجمد الضابط وغاض دمه . ومضت بولين تقول وعلى شفتيها ابتسامة متهكمة ملؤها الوعيد :

ــ ولكن عشيقتك .. عشيقتك فرانسواز ، حاولت أن تسرقه منى لترده اليك وتنقذك . أجـل ، أرادت أن تنقذك لانك فى نظرها أثمن من الواجب ، وأغلى من الثورة ، وابقى من الوطن !

ومالت الى فرانسواز ، وتفرست فيها لحظة ثم صـبت فى اذنها هذه العبارات :

ــ ان عشيقك لامحالة هالك . وسيعدم غدا رميا بالرصاص فيجب أن تلحقى به انت أيضا مادمت قد أحببتـه أكثر من بلادك ! ستموتين ! ولكن يجب أن تكفرى أولا ! يجب ان تكفرى عن خيانتك وحبك الاثيم بأن تقتلى .. تقتلى انت .. أنت بنفسك .. هذا الرجل الذى فى سبيله خنت وطنك وانكرت واجبك !

فصرخت فرانسواز :

ــ الرحمة ! اقتلونى .. اقتلونى بدلا منه !

فقطبت بولين حاجبيها وقالت فى سكون !

ــ لا جدوى من الصراخ . وسـواء أصرخت انت ام هو ، فهذا الجناح بعيد جدا ، ولن يسمعكما فى القصر اى انسان !

كونى شجاعة وفكرى .. لو خرج هذا الرجل حيا من هنـــا فسيقضى ولا ريب علينا جميعا ! فاقتايه انت بيدك تنقذى البقية الباقية من كرامتك وشرفك ، وتعربى ، بالفعل ، عن ندمك وتوبتك ويقظة ضميرك ! خذى !

وأشارت الى مرجريت . فدفعت هذه بالســـــلاح الى فرانسواز . وساد الصمت فترة . وطوى أوجو ذراعيه على صدره ، ونصب قامته ، وظل ينظر الى بولين نظرة ثابتة متحدية ملؤها الكبر والزراية وعدم الاكتراث

وأجالت فرانسواز بصرها الزائغ فى مرجريت وهورتانس. فالفت زميلتيها صامتتين جامدتين ، تحدقان فيها تحديقـا متوســـلا متلهفا ، كأنهما تبتهلان اليها أن تسمع وتقتنـــع وتطيع ، وتتفوق على نفسها وعلى حبها وعلى الحياة

فتحولت فرانســـــواز فى بطء نحو أوجو وارتجفت . ولبثت ترتجف وتلتقط أنفاسها وتلهث .. وعلى حين فجأة قالت بصوت متهدج متحشرج وهى تزفر وتتلوى كأنها تنتزع كلماتها انتزاعا من صميم احشائها :

ــ أوجو . انت تعلم انى احبك . ولكنك انت ايضـــــا تقدس مهنتك وواجبك . ومن المحال ، من المحال ان تكرهنى يا أوجو اذا كنت اقتدى الآن بك ، وأؤدى لبـــلادى ونفسى بعض واجبى !

وتناولت السلاح من يد مرجريت وأطلقت النار . ثم حولته من فورها الى صدرها . فسقطت هى الاخرى صريعة فوق جثة حبيبها

وعندئذ تقدمت بولين من الفتاتين الجامدتين الشاخصتين المأخوذتين ،وقالت لهما فىسكون زافر كالسكون الذى لايتخلل العاصفة الا ليعود فيلهبها :

ــ تعلمان ان معى جــوازا ممهورا بتوقيـــع القــائد يخول

لشخصين فقط حق اجتياز الحدود التى يرابط فيها جيش النمساوبروسيا فاليكما الجوز ، هذا هو ! اذهبا ! اذهبا الآن! اذهبا قبل أن تستيقظ هيئة القيادة ،واحملا المستند الي دانتون . أما أنا فسأبقى هنا ! سأبقى ! وعندما تنكشف الجريمة ، سأسلم نفسى ، وأقول أنى كنت عشيقة الضابط أوجو ، وانه خاننى مع فرانسواز فقتلته وقتلتها ! اذهبا !

فتراجعت الفتاتان وانتابهما من فرط الحيرة شبه ذهول وكانت الطاعة واجبة عليهما . وكانت الاوامر التى تصدرها بولين مقدسة فى نظرهما ، ولكن حياة بولين كانت أعز لديهما من حياتهما ، وأثمن ، وأنفع ، وأجدر بالبقاء . فكيف يمكن أن تغامرا الآن بها ، وكيف يمكن أن تسلما بالامر الجائر يقضى على الزعيمة النابغة ويحرم الثورة من ذكائها وعبقريتها وخدماتها ؟

ولبثت الفتاتان مضطربتين ، تفكر كل منهما فى المجاهرة بعصيان الامر ولا تستطيع . فصرخت بولين :

ـ اذهبا !

ولكن هورتانس ، هورتانس الوديعة الرقيقة ، هورتانس الجميلة الساحرة ، أصغر الفتيات الاربع سنا ، وأوفرهن حماسة ، وأشدهن تفانيا فى الولاء والطاعة ، وثبت بغتة من مكانها ، ودنت من بولين ، وبسطت ذراعيها النحيلتين وقالت ونبرة التوسل والعزم تدوى فى صوتها :

ـ انا التى سأبقى هنا ! امنحينى هذا الشرف يا بولين ، ودعينى أمت فى سبيل الشعب والثورة ! ما قيمتى بالنسبة لك يابولين ؟ أنا مهما حاولت فان يكون فى وسعى أن اخدم بلادى كما يمكن أن تخدمها فتاة مثلك ! لن نضحى بك والوطن أحوج ما يكون اليك ! لا . . انا التى سأسلم نفسى لاأنت !

وأمسكت بيديها ، وجثت أمامها على الارض ورددت :

ـ امنحينى هذا الشرف يا بولين !

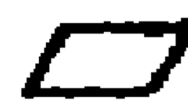
فقالت مرجريت فى صوت حاسم :

ــ لتمنحه منا من تشاء . أما هى فيجب أن تعيش !

فنظرت بولين الى هورتانس الصغيرة نظرة عطف وحنو واعجب . وكانت تحبها ولا تكاشفها بهذا الحب أبدا . كنت تحبها كأم رءوم ولا تعرب لها عن حبها ، كرها منها فى العواطف وما تولده فى النفس من تخاذل وضعف ، فلما سبقت الفتاة زميلتها ، وجاهرت بعزمها على التضحية ، واستمسكت بهذا العزم ، أكبرتها بولين وازدادت اعجابا بها ، وخافت لو خيبت سؤلها أن تلقى فى روعها انها تزدريها وتستخف بها . فدفعها حبها الشديد لها ورغبتها فى تقديرها وتمجيدها ، أن تجعل منها بطلة وشهيدة . فانحنت عليها ، وأنهضتها فى رفق ، ثم ضمتها الى صدرها ، وقبلتها فى جبينها ، وغمغمت :

ــ لك ذلك يا هورتانس !

فتألقت عينا الفتاة ، ولبثت تحدق الى الفضاء ساهمة وتائهة ومنتشية . فخيل الى زميلتيها انها قد ابتعدت عنهما، واتصلت بشيء ابل واسمى منهما ، وان وجهها الجميل الرقيق قد اتخذ فى لحظة طابع القديسات ، وطوقته وغمرته فجأة هالة ساطعة من نور !



وفى صباح اليوم نفسه ، اعدمت هورتانس رميا بالرصاص . أما بولين فقد أسرعت بالمستند المسروق وسلمته الى دانتون . فاستعان به القائدان الثوريان « ديموريز » و « كيلرمان » ، وتمكنا بعد بضعة أسابيع من احراز نصر ساحق على الجيوش البروسية النمسوية فى معركة « فالمى » المشهورة التى أفضت الى تقويض صرح الملكية والاقطاع ، وانتصار الشعب والحرية

# ايطاليا

## من أجل الزعيم

« تقع حوادث هذه القصـــــة والقصتين التاليتين أثناء حـــرب الاستقلال الايطالية التى دارت رحاها فى سهول مقاطعة لومبارديا عام ١٨٢٠ بين الفدائيين المنتمين الى هيئـات المقاومة السرية فى ايطاليا ، وبين رجال الجيش النمسوى . وقد اشار المؤرخ هنرى لافورج فى كتابه عن « الوحدة الايطالية » الى حادث خارق وقع فى لومبارديا اثناء مقاومة عنيفة نظمهـا زعيم فذ جرىء من زعماء حـرب العصابات يدعى اتيليو . وقد خلد هذا الحادث فى رسالة رائعة كتبتهـا الفتاة جوليانا الى الزعيم اتيليو . فرأيت ان انقـل الرسـالة كما هى متخذا منها مادة هذه القصة الاولى »

من جوليانا الى الزعيم اتيليو :

« انى لارتعد خوفا من مجرد تصورى أنه يجب أن أبعث اليك بهذا الخطاب . ولكنى لاأرتعد أبدا مما فعلت ، ولاآسف على ما فعلت ، ولا ينتابنى من جرائه أيسر احساس بالنـدم او الحسرة أو تبكيت الضمير

أنا فتاة ، وأنا عاشقة . ولـكنى فى تلك اللحظات المروعة نسيت انوثتى ، بل خنقتها عامدة فى اطواء صدرى ، ونسيت غرامى ، بل اخمدت شعلته عامدة فى حنايا ضلوعى . وهكذا لم أشعر الا بأنى مواطنة صادقة ، على واجب مقدس ينبغى ان أؤديه !

ولقد اديت واجبى على خير وجـه واكمله . اديتـه على إنقاض حبى ، وعلى اشلاء نفسى ، وعلى مذبح الوطن العظيم ، الذى اعتقد اعتقادا راسخا انك انت نفسـك تحبه الف مرة اكثر مما تحبنى ، وتجود فى سبيله عند الاقتضـاء بأعز الناس عليك واوثقهم صلة بك ، واقربهم الى روحك وقلبك ودمك !

ولو أنى أحسست لحظة واحدة أنك أقل منى وفاء لوطنك وايمانا بواجبك ، وتعـلقا بشرفك ما أقدمت أنا على ذلك

العمل الفظيع الذى سأكاشفك به ، والذى لا يحمل فظاعته من مسلكى ، بل من مسلك صاحبه المجرم النذل الغـــادر الشرير !

انت يا اتيليو زعيمنا ، وانت الــذى حملت راية الجهـاد فى وجه المستعمر النمسوى الذى اذل بلادنا ، وحرمها وحدتها واغتصبمنها اجمل مقاطعاتها ، وراح يمرح فى سهول لومبارديا الجميلة ، ويعيث فيها فسادا ، ويضرب على الوطن كله رواقا كثيفا من العبودية والطغيان والظلام !

انت الذى انشأت هيئات المقــاومة . وانت الذى نظمت حرب العصابات . وانت الــذى نفثت فى الصدور الخائرة ، والعزائم الواهنة ، روح الشجاعة والبطولة والتضحية والفداء !

لهذا احببتك . لهذا عشقتك . لهذا اصبحت خطيبتــك واقسمت أمام الله والناس ان اكون لك وحدك . ولكنى لا استطيع ان أضع حبك فوق حبى لبلادى ، ولا استطيع أن أوثر حبك على حبى لمبادئى ، ولا أستطيع أن أغلب عاطفــة حبك على عاطفة القيام بواجبى المقدس نحو وطنى ، هــذا الواجب الذى تدعو اليه انت بوصفك الزعيم ، والذى أعرف عنك انك لم تتسامح ولن تتسامح فى تأديته ولو هلــكت ! فباسم هذا الواجب ، الذى تعلمت قداسته منك ، اقدمت على ارتكاب ذلك العمل المروع بقلب هادىء ، ونفس ساكنة ، وعزم ثابت مطمئن

فاسمع الآن ما حدث اثناء غيابك . ارهف السمع جــيدا وسامحنى . سامحنى لانى لم افعل الا ما كان لابد أن تفعله انت لو كنت مكانى . ولقد فعلته وانا متأهبة لانكار نفسى ، والتضحية بحبى ، وتقبل الموت من اجلك ومن اجل وطنى !

هذا ما وقع فانقشه فى صفحة خيالك . وعسى ان يشفع لى فيه عندك حرصى على واجبى ، فيظل حبك لى عنيفا قويا

ثابتا حتى بعد أن أكون قد فارقت هذه الدنيا وحرمت نعمة النظر اليك والاعجاب بك يا حبيبى ! !

منذ ان تعقبك البوليس النمسوي واراد أن يلقى القبض عليك ، ومنذ ان رحلت عنا الى ميلانو ، وفررت الى كوخ ذلك الفلاح المجاهد الذي اخفاك عنده ، منذ ذلك الوقت اى منذ شهرين ، والبوليس يبحث عنك ، ولا يكف عن تفتيش جميع البيوت فى لومبارديا ولكن من غير جدوى

ولقد اقتحم بيتى مرة ، واقتحم بيتك انت ثلاث مرات . ولما يئس من العثور عليك ألقى القبض على شقيقـــك ، على الكسندرو ، وشرع يعذبه ليعترف

والحق ان الكسندرو كان فى مبدأ الامر عظيما . احتمـل التعذيب دون ان ينطق بكلمة . كان مثال الشجاعة والصبر والتضحية . كان جديرا بك وخليقا بالانتساب اليك . بيد انه لم يكد يخرج من السجن حتى تبدل . اثرت فيه قســوة التعذيب ، واشاعت فى خلقه الثابت المتين ضربا من الرخاوة والبلادة ، تطورتا شيئا فشيئا واستحالتا على مر الزمن الى انانية عميقة ، شــابتها عوامل الخــوف والجبن والتواكل والاستهتار

اجل انقلب ذلك الشاب المجاهد المغامر ، من بطـــل الى انسان مسلوب الارادة والكرامة ، لا يفـكر الا فى نفســه ، ولا يحرص الا على سلامته ، ولا ينشد فى هذه الحياة سوى المتعة البدنية الوضيعة والعرض الدنيوى الزائل !

وكان الكسندرو يحب « الفيرا » كما تعلم . وكان قـــد انفصل عنها تحت تأثيرك انت وكان فى صميم نفســه يحقـــد عليك ، لانك تكرهها وتتهمها بضعف الخلق ، ونقص الوطنية ، وفساد السيرة ، وتأبى أن تزوجه اياها . فلما خرج من سجنه ضعيفا مستخذيا ، تواقا الى متع الحياة ، وشبه نادم على

تضحيته ، ثم تلفت حواليه فلم يبصرك امامه ، التهب حبه القديم ، فعاد الى الفيرا ، اشوق ما يكون اليها ، واطوع ما يكون لغرائزها ، تلك الغرائز الشائنة الجامحة العنيفة ، التى كنت تكرهها انت فى تلك الفتاة ، والتى طالما حذرت شقيقك من عواقبها

وانقاد الكسندرو لتأثير الفيرا انقيادا أعمى . لم يعد يحفل الا بها ، ولم يعد يهتم الا بارضاء غرائزها ونزواتها

ولقد ختم حبه على بصره الى حد انه كان يستخف بالاوامر التى كان يصدرها اليه « الشيخ ريناتو » الذى عينته انت نائبا عنك ورئيسا علينا اثناء غيبتك . بل لقد كان يروغ من تلك الاوامر ، ويعصاها ، ويحاول بكل ما أوتى من دهاء ومكران يسفهها ، ليتجنب الاخطار التى يمكن ان تصيبه فيما لو اقدم على تنفيذها

وكان الحب قد افقده صوابه ، فعلمته الفيرا كيف يخاتل ، وكيف ينافق ، وكيف يتهرب ، وكيف يعاقر الخمر ، ويلعب الميسر ، وينشد المتعة ، ويستهزىء بكل مبدأ رفيع ، وكل جهد نبيل فى هذه الدنيا

تجاه هذا التدهور المنكر ، حاولت انا ان اصلح ، ان انبه ان احذر . ولكن الكسندرو كان يزجرنى ، ويسخر منى ، ويحتقرنى ، ويصارحنى فى وقاحة وفى غير ما استحياء انى اذا كنت اريد ان اربح الاوهام واخسر الحقائق ، فهو لن يقتدى ابدا بحمقاء مثلى ، ولن يبيع الواقع الحى ابدا فى سبيل خيالات واحلام

وتحطم كفاحى على صخرة عناده ، بل تحطم قلبى على صخرة غلظته ووقاحته . ذلك لانى كنت اعلم انك تحبه ، وانك تثق فيه ، وانك ربيته كولدك ، وانك تؤمن ايمانا راسخا متأصلا عميقا بانه صورة حية منك . بيد ان الكسندرو لم

يفهم ولم يقدر ، وأمعن فى غيه حتى وقع مالم يكن فى الحسبان

اشتد يأس البوليس النمسوى من امكان العثور عليك ، فاعلن فى الصحف عن مكافاة مالية كبيرة لمن يرشده عنك

ولم يكد يظهر هذا الاعلان المشئوم الذى لابد ان تكون قد قراته ، أو سمعت به ، حتى احسست انا ان روحا جديدا قد بدأ يحتل شخصية الكسندرو ، وان شيئا خفيا ، شيئا فظيعا قد بدأ يتحرك على مقربة منى ، ويدب دبيبا مروعا فى كل نظرة أو اشارة تصدر من أخيك أو من حبيبته الفيرا

وانطوى الكسندرو على نفسه ، وشاعت الجهامة فى خلقه ، وافترسته عوامل الحيرة والقلق والتخبط والهم . اما الفيرا فقد كنت الاحظ انها تحثه ، وتشجعه ، وتستنهض همته ، وتدفعه الى شيء يجذبه ويستهويه ، وان كان فى الوقت نفسه يخيفه ويذعره

وساورتنى الريب والشكوك ، ولم اشأ ان أصدق ، بل لم أشأ أن أتصور . فراقبت العاشقين جهدى ، وتجسست عليهما ما وسعتنى حيلتى

وفى ذات ليلة ، فى ذات ليلة ساكنة كالغدر ، مظلمة كالخيانة غاشمة كالقدر ، غافلت العاشقين وهما فى بيتك ، ورأيتهما يدخلان مخدعك . فأسرعت وصعدت الى صومعة الغلال ، ثم هبطت الى الحديقة بعد لحظات ، ثم انبطحت على الارض فى الظلام الدامس ، وطفقت ازحف حتى اقتربت من نافذة المخدع . فأرهفت اذنى ، وسمعت كل شيء !

سمعت الفيرا تحرض شقيقك على الوشاية بك ، وتمنيه بالمكافاة المالية العظيمة التى جعلها البوليس ثمنا لراسك ، وتزين له الحياة الآمنة الرغدة فى صحبتها خارج ايطاليا . ثم رايته هو . . الكسندرو . . يضمها الى صدره فى عنف ، ويقبلها قبلة طويلة محمومة ، ثم يشيعها الى الباب وهو يطيب خاطرها

ويقسم لها انه سيذهب الى ادارة البوليس الليلة ، فيرشدها عنك ، ويقبض المكافأة ، ويعد العدة لتنفيذ الخطة المرسومة والرحيل عن ايطاليا

وانصرفت الفتاة ، وظل الكسندرو واقفا بعتبة الباب يتبعها النظر ويفكر . وكنت أنا قد اسرعت بالصعود الى الصومعة فلما اختفت الفيرا ، وعاد الكسندرو فدخل البيت ، هبطت ثانية وانا ارتجف ثم خارت قواى بالرغم منى ، فتباطأت لحظة وانتظرت . لا أدرى لماذا انتظرت ! كنت مبهوتة . كنت مذهولة كنت كمن فوجىء بضربة هائلة على رأسه أعمته وصرعته . لم استطع ان اتحرك . جمدت فى مكانى وزايلتنى من فرط ذعرى كل قدرة على العمل أو التفكير

وفجأة ابصرت الكسندرو يرتدى معطفه ، ويلبس قبعته ، ثم يدس خنجره فى ثنايا حزامه الجلدى ويغلق أبواب البيت الداخلية ويتهيأ للخروج . وكانت حركاته حاسمة ، وخطواته ثابتة ، وروح العزم تنبعث من كيانه ، وتجال طيفه ، وتتدفق على كرائحة متعفنة كريهة تأخذ بمخنقى . فلما رأيته يدنو من الباب الخارجى ويهم بأن يوصده خلفه ، دبت الحياة فى أعضائى كوقد النار . فهبطت السلم مسرعة واعترضت طريقه ، وصحت به وانا اختلج :

— إلى اين انت ذاهب ؟

فحملق فى مذهولا وتمتم :

— انت هنا ؟

فصرخت فيه وانا ممسكة بذراعية ، ادفعه الى داخل البيت :

— لقد رأيت وسمعت كل شىء يا الكسندرو ! لن تذهب ! لن ترتكب هذه الجريمة الفظيعة ! لن ادعك تخون وطنك وتغدر باخيك من أجل امرأة! انه اكثر من أخ لك . انه والدك .

انه زعيمك . بل هو زعيم كل مواطن حر تظلله سماء لومبارديا . ولو تركتك تشى به ، وترشد عنه ، فانا ، انا التى اعتبر نفسى مواطنة مجاهدة قبل أن اكون امراة ، وقبل أن أكون عاشقة ، أنا اصبح شريكتك فى الجريمة ، شريكتك فى قتـل زعيم بطل أحوج ما تكون اليه بلادى فى صراعها المرير ضـد المستعمر الغاصب . فثب الى رشدك ياالكسندرو واذكر ماضيك ! لقد كنت انت أيضا مجاهدا فذاً يشق طريق العذاب متجهـا صوب البطولة ! فانبذ تلك المرأة واستفق ! لا تلوث شرفك ومجد اخيك ! لا تقض على زعيمنا ، والا هدمت صرحا شاهقا من صروح جهادنا ، واخرت تحرير بـلادك ، وكنت حليف المستعمر الغاصب على وطنك التاعس المسكين !

وانحنيت على يديه ، وشرعت اقبلهما وانا أتوسل اليـه وابكى . ولكنه كان جاحدا ، كان تائها ، كان كأنه يفكر فى كلامى ويفكر فى الفيرا . وبغتة قطب حاجبيه وضم شفتيه ، فخيل الى أنه يجاهد ليتغلب على نزعة الشر المتمكنة من نفسه . غير انه أرسل غمغمة طويلة ، ثم مد ذراعيه المتشنجتين ، وقبـل أن اتنبه ، انقض على ، وانشب اصابعه فى عنقى ، فارتعـدت فرائصى ، ولمحت نية القتـل فى عينيه . فاستجمعت قواى ودفعته عنى فثارت ثائرته ، وتشبث بى ، فعضضت على يده بأسنانى ، فطاش صوابه ولطمنى ، ثم عاد فقبض على عنقى . فغافلته وانا اكافح ، وانتزعت خنجره من بين ثنايا حـزامه الجلدى ثم اغمدته فى صدره وانا لاأعى !

وانهار مضرجا بدمه امام عينى . فلم اكترث ، ولم ارتجف ، والقيت الخنجر بجوار الجثة ، وانطلقت اعدو فى اتجاه بيتى

وكانت القرية راقدة سـاكنة . وكان الشارع الضيق ميتا هامدا لا يسمع فيه غير حفيف الشجر الجاثم فى غير مبالاة على حافة الجدول ، فتلفت حولى ، فلم أبصر أحدا ، فأبرقت

أساريرى على الرغم منى ، ودخلت بيتى ، وأنا ازفر والهث !

ولم يفكر أحد فى اتهامى . لم تحم حولى أية شبهة . مثلت دورى على أكمل وجه ، فبكيت القتيل ، ولعنت المجـرم ، وظهرت بمظهر الفتاة التى سحقها الالم والحزن ، فخدعت الجميع حتى الفيرا

خدعتهم ولكنى لم أستطع ، واأسفاه ان أخدع نفسى ، كما لم أستطع أن أفكر أن فى وسعى أن أخدعك أنت أيضا ياحبيبى لقد قتلت اخاك ! قتلت أقرب الناس اليك ، وأحبهم الى قلبك واعزهم على نفسك ، أجل . قتلته من اجل غرض عظيم . قتلته انقاذا لمبدئك ، وحرصا على جهادك ، وابقاء على عملك وذوداعن عبقريتك ، ودفاعا عن حركة التحرير المقدسة التى لا غنى لها عن زعامتك ! قتلت اخاك لا من اجلك بوصفك خطيبى وحبيبى ، بل من أجلك بوصفك زعيم لومبارديا . قتلته من أجل الزعيم ومع ذلك فالحقيقة لا تحجب الواقع المروع . فالواقع المروع هو أنى قتلت أخاك . طعنتك فى شغاف قلبك مزقت لحمك ودمك فكيف ، كيف أستطيع بعد الان أن أحبك وانشد حبك ، وأصبح فى يوم من الايام زوجتك ، وجثة شقيقك بيننا ، وطيفه يحلق علينا ودمه يصبغ ماضينا ، ويسمم فى المستقبل حبنا وحياتنا ؟ قد تقول فى نفسك : « انها كاذبة ومنافقة . لقد قتلت الخائن لا عن وطنية بل عن حب . قتلته لا لتنقذ حياة الزعيم بل لتنقذ حياة حبيبها ومعشوقها » وهكذا تطعننى فى صـميم وطنيتى فيزداد حقدك على وكرهك لى .

هـذه الافـكار جميعا طـافت بذهنى ، واستبدت بخيالى فشعرت أن عقلى يوشك ان يفلت منى ، وان الجنون يتربص بى ويقف لى بالمرصاد .

فمـاذا فعلت لانقـذ نفسى ، وانقذك منى ، واثبت وطنيتى ، وأؤكد أنى لم أقتل المجرم من أجل غرض شخصى ، بل من أجل

غرض عظيم ؟ فكرت فى التضحية بنفسى ، فكرت فى الانتحار ولكنى عدت فثبت الى رشدى ، وقلت ان الانتحار هزيمة فاضحة ، وانه لن يبرئنى ، ولن يكشف عن حقيقة نيتى ،ولن يعزز شعور الوطنية الذى كان يملأ ساعة القتل صدرى . واذن فلا بد لى من عمل خارق يودى بحياتى ، وينقذنى ، ويؤكد فى الوقت نفسه صدق وطنيتى

اجل . أردت ان أموت لاجنبك فظاعة قربى ، وأجبرك على الايمان بخالص وطنيتى . فحزمت أمرى وقررت !!

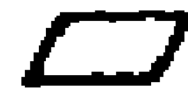
وكنت أعلم ان نائبك الشيخ ريناتو قد أصدر أمره الى أحد الفدائيين من اخواننا بأن ينطلق تحت جنح الظلام الى معسكر الفرقة النمسوية ، وان يلقى قنبلة يدوية على خيمة قائد الفرقة ومساعديه . وكنت أعلم ان من اليسير على ذلك الفدائى البطل ان يتزيا بزى اعدائنا ويؤدى مهمته . ولكن كنت أعلم أيضا أنه لابد أن يقتل أثناء العودة برصاص « ديدبانات » الليل . فأسرعت من فورى ، وذهبت الى النائب الشيخ ، وقصصت عليه قصتى ، وطلبت اليه ، وأنا التمس واتوسل ، ان يمنحنى شرف القيام بتلك المهمة ، وان احل محل الفدائى البطل

واضطرب الشيخ وبهت . ولكنه بعد أن فكر مليا ، أبى أن يجيبنى الى سؤلى ، وقال لى : « هذه المسألة من شأن الزعيم أتيليو انه خطيبك وهو وحده الذى فى وسعه ان يقرر مصيرك فاكتبى اليه واستأذنيه ، فان اذن لك أطعته أنا وعاونتك على تنفيذ امره ! »

وتركت الشيخ ثائرة مهتاجة وعدت الى دارى ، ثم شرعت أكتب اليك هذا الخطاب ، هذا الخطاب الذى لا مفر من أن يكون خطاب وداعى . فاسمع الآن يا حبيبى . لابد .. لابد أن تجيبنى انت الى سؤلى ، ولابد أن تعهد الى بتلك المهمة العظيمة التى فيها خلاصك ومجدى ! واعلم أنك اذا رفضت رحمة بى وابقاء على حياتى ، فسأقضى انا بنفسى على نفسى ،

وتكون انت قد دفعتني الى موت حقير وضيع لا يبرئك امام ضميرك ولا يشرفني ! فلا تدعني انتحر وامت رخيصة وانقذني! هب لي هذه السعادة اذا كنت ما تزال تحبني ! وثق اني سأموت مطمئنة القلب ، ناعمة البال ، متى ايقنت ان حكمك قد انقذك وانقذني ، وان حبك قد حفظ على كرامتي ، وآمن ايمانا مطلقا بصدق وطنيتي وجهادي

اقبلك من صميم فؤادي . اقبلك وانا لا اريد ان اضعف واتمزق وابكى . فاياك ان تضعف انت وترحمني ، الرحمة الحقيقية هي أن تصدر على حكما بالبطولة لا حكما بالتراجع والجبن والشقاء . انا في انتظار كلمتك المنقذة . والوداع ! »



وحمل احد المجاهدين رسالة جوليانا الى الزعيم اتيليو . وبعد ثلاثة أيام عاد الى الفتاة بهذا الرد الموجز :

« احبك يا جوليانا ولن أعرف بعدك امرأة . انت بالعقل والقلب والروح زوجتي الى الابد يا جوليانا . انك لم تقتلي اخي بل قتلت مجرما . ومع ذلك فأنا أقول لك اذهبي وأدي مهمتك . واذا كنت احطم اليوم قلبي واضحي بك ، فأنا انما اضحي بكمن فرط حبيلك، واشفاقي عليكمن حياة تقضينها في صحبتي ، بينما ضميرك يمزقك ويأبى عليك الا ان تعتبري ذلك المجرم النذل أخي ! أنا نفسي وضعت رأسي على كفي ،وقد اموت اليوم أو غدا ، والحق بك ! فلا مفر لي من ان انزلعلى حكم ارادتك يا جوليانا وانا أقبلك عن بعد واتقطع . فالوداع ياحبيبتي . . اما الفيرا فقد أصدرت أمري بشأنها »

وبعد بضعة أيام وجد القرويون الفيرا مقتولة وملقاة في أحد الحقول . اما جوليانا فقد تسللت تحت جنح الظلام ، وقامت بمهمتها على خير وجه . فألقت القنبلة وأصابت قائد الفرقة ومساعديه ولكنها بعد ذلك لم تعد !

# روسيا

## عندما يثور العبيد

« تقع هذه القصة فى روسيا وفى عهد الاقطاع ، وتمثل جشع الاقطاعيين واستبدادهم بفلاحيهم وتشبثهم بنظام الرق ، كما تمثل انتفاض فلاح بائس مسكين ، وثورته على الجور والظلم »

كانت الريح تصفر صفيرا يصم الآذان ، وكانت المركبة الواسعة تنساب على الجليد أنسيابا ، والريح تدفعها ، والجواد الشكس الحرون يجرها فى حنق وهو يصهل

وكانت الظلمة الحالكة منتشرة على القرية الروسية ، كرداء اسود كثيف يغطى الارض اللينة المتموجة البيضاء ، ويوشك ان يتمزق كلما دوى الرعد ، ولمع البرق ، وانهمر المطر

وصاح الكونت لاديسلاس وهو يلهب ظهر الحوذى بسوطه:

ــ اسرع .. اسرع أيضا يا فيدين والا افترستنا الذئاب !

واستدار متلفتا فأبصر الذئاب تعدو خلف المركبة ، وتعوى عواء مزعجا . فاستشاط غضبه ونهض ثائرا متوعدا ، وجعل يضرب الحوذى بقبضته تارة ، وبالسوط أخرى ، ويصخب ويلعن ويهدد

وكانت سونيا زوجته قابعة فى ركن من المركبة ، شاحبة اللون . شاخصة البصر ، ترتعد قلقا وخوفا ، وبالقرب منها الفلاح بوريس ينظر اليها نظرة ساهمة تائهة عابدة ، ويعض على شفتيه من فرط الحسرة ويكاد يبكى

واشتد عواء الذئاب ، فأرسلت سونيا صيحة مستغيثة ، فأخرج الكونت مسدسه وشرع يطلق الرصاص على الذئاب

وكان قد نصح له الحوذى بألا يفعل ذلك خشية ان تثور تلك الحيوانات المفترسة فيشتد عدوها وتنقض على المركبة ، ولكن الكونت لم يحفل ومضى يطلق الرصاص ، فاهتاجت

الذئاب ، واندفعت نحوهم ، واوشكت أن تلمس المركبة . وعندئذ خارت قواها فسقطت على الجليد صريعة ما خلا ذئبا واحدا لم يصبه الرصاص . فظل يعدو فى ثبات وغيظ واصرار كأنه يأبى الا ان يثأر لرفاقه ولو استهدف هو للخطر وقتل

واهابت سونيا بزوجها ان يعجل بالقضاء على الذئب . ولكن الكونت لاديسلاس كان قد استنفد كل ما معه من رصاص . فارتاعت سونيا ، واصطكت اسنانها فرقا ، وصرخت :

ـ الق فى الطريق بكل ما تحمل المركبة ، وهكذا يخف حملها فيستطيع الجواد ان ينهب بها الارض ، ويسبق الوحش المفترس !

فصاح الكونت :

ـ وسبائك الذهب ؟ انها تمثل كل ما املك ! كل ثروتى ! كل ما سأخلفه لولدى الوحيد !

فقالت سونيا والذعر يخنقها :

ـ الق الان بأكوام الملابس والهدايا وكل ما اشتريناه من بطرسبرج !

فأذعن الزوج وهو يصخب . وطفق يقذف بالعلب الكبيرة الى الارض . فخف حمل المركبة قليلا وتنفس الجواد . ولكن الذئب لم يبتعد ، وظل يركض حتى مس راسه طرف المركبة فصرخت أولجا :

ـ الق ببعض صناديق الذهب . انقذنا . انقذنى يالاديسلاس !

فهم الكونت بالاذعان مرة اخرى ، ولكنه اضطرب واحجم وتوقف . عز عليه ماله ! عزت عليه ثروته ! وكبر عليه ان يتحداه القدر على هذه الصورة وان يسلبه فى غمضة عين كل

مأ يملك . فانزوى فى جوف المركبة ، وقطب حاجبيه تقطيبا شديدا مروعا ، ثم حدق الى الفلاح بوريس ... حدق اليه فى سخط وكراهية وبغض ، حدق اليه فى لذة وشماتة وحقد ، ثم صاح به وهو يركله بقدمه :

ـ اقفز ! اقفز من المركبة يا بوريس !

فصرخت سونيا :

ـ لا . ليس من حقك ان تقتله !

فرمقها الكونت بنظرة صاعقة وهتف :

ـ اقفز يا بوريس !

فجحظت عينا الفلاح المسكين ، وانتفض رعبا . ولكن الكونت لاديسلاس انقض عليه ، وامسك به ، ثم دفعه بكل قوة . فسقط الرجل على الجليد وهو يجأر ، بينما كانت المركبة وقد تخففت من حملها ، تنطلق فى عنف مخبول اشبه بطائر أفلت من عاصفة

وافاق بوريس من غشيته ، فألفى الذئب امامه ، مكشرا عن انيابه ، متجها نحوه ، يعوى عواء التعب والحنق والجوع فتقهقر ، وتحفز ، ثم استل خنجره ، وهجم على الذئب . فأنشب الوحش انيابه فى صدره . فطعنه بوريس . فاهتاج وكر عليه . فسدد اليه الطعنات وهو يراوغه ، حتى غافله وتمكن منه واغمد الخنجر فى عنقه

وانهار الذئب على الجليد مضرجا بدمه . وانهار بوريس بالقرب منه وهو يلهث . وظل فترة طويلة يتقلب على الارض ويئن من فرط الالم ، ولكنه ما ان ابصر الفجر يطلع ، حتى استرد قواه ، فتحامل على نفسه ، وطفق يزحف والدم ينزف منه ، حتى اجتاز القرية ، ووصل الى مزرعة سيده الاقطاعى النبيل الكونت لاديسلاس



كان ذلك فى روسيا ، عام ١٨٦٠ ، فى عهد القيصر اسكندر

الثانى ، وكانت روسيا اذ ذاك خاضعة لنظام اقطاعى غاشم ، وكان الاشراف هم السادة ، والفلاحون عبيد أرقاء لهم

ولقد حاول نفر من المثقفين الاحرار تبديل ذلك النظام ولكنهم اصطدموا بالاشراف أصحاب الجاه والسلطان الذين كانوا يتملقون القيصر ، ويتظاهرون بالدفاع عن حقوقه ، وهم يدافعون فى الواقع عن مصالحهم وامتيازاتهم ، وعن الضيعات الواسعة التى كانوا يستثمرونها على حساب الفلاح

فالفلاح لم يكن انسانا ، ولم يكن مواطنا ، بل كان جزءا من الارض يباع ويشترى معها ، فاذا اسعده الحظ وخدم سيدا طيب القلب ، فقد ظفر بقوت يومه وأمن على مستقبله ، واذا أوقعه نحس الطالع بين مخالب سيد طاغية مستبد ، فالظلم المروع يصبح مادة حياته

وهكذا كان بوريس مثال الفلاح المظلوم ، وكان الكونت لاديسلاس مثال السيد الاقطاعى المستبد الطاغية

ولقد اخلص بوريس فى خدمة مولاه كما كان يخلص رفاقه الفلاحون . ولكن لاديسلاس كان غليظ النفس ، متحجر القلب ، صلفا متغطرسا قاسيا طماعا ، يأبى الا أن تدر عليه أرضه أعظم انتاج ممكن ، ويأبى الا أن يستخلص هذا الانتاج من عصارة دم فلاحيه

على أنه لم يكن فى مقدور بوريس الا ان يصبر على هذا الشقاء ويحتمل . ولقد صبر بالفعل طويلا ، واحتمل طويلا ، وذاق مرارة الذل والاضطهاد والاستغلال أكثر من عشرين سنة . وهو صامت

نشأ عبدا للاديسلاس ، ثم شب وترعرع وأصبح رجلا وهو ما يزال عبداً للاديسلاس

ولقد ضاق آخر الامر ذرعا بهذه العبودية ، فأراد أن يعيش فلم يجد متنفسا لصدره الا فى تعلم القراءة والكتابة خلسة

على يد كاهن القرية ، ثم فى عاطفة الحب ...

احب فلاحة من طبقته . احب عبدة مثله . أحب سونيا الشائقة الفاتنة ، التى كانت تعمل هى وجدها ووالدها واخوتها واخواتها فى مزرعة مجاورة ، يملكها ويملك الفلاحين معها ، سيد ملحوظ المكانة من اشراف روسيا ومن أقرب المقربين الى بلاط القيصر

وكان هذا الحب أعظم حدث فى حياة بوريس . كان عزاءه وملجأه ، ونعيمه وملاذه ، ورجولته ووهم حريته . فصارح به مولاه ، والتمس منه وهو يقبل موطىء قدميه أن يزوجه بسونيا

وما زال بلاديسلاس يستعطفه تارة ، ويتفانى فى خدمته اخرى ، حتى تحركت عواطف السيد ، فاتصل بجاره الشريف، وطلب اليه يد سونيا لبوريس

ولم يكن لاديسلاس قد رأى الفتاة . فلما تمت خطبتها ، وقدمت الى مزرعته ، راعه جمالها الباهر ، وحسنها الغض ، وبراءتها الساحرة الضعيفة الطيعة

وكان لاديسلاس اعزب فى نحو الخمسين ، لم يفكر قط فى الزواج ولا فى الابوة لفرط انصرافه الى جمع المال ، والتمتع بمختلف اللذائذ المحرمة فى ظل الحرية . فما ان أبصر سونيا حتى انفجرت عواطفه المكبوتة فأحبها هو الآخر كما أحبها بوريس !

أحبها فى جنون المستبد ، وفى صولة الطاغية ، وفى هوس الكهل المتحرق على الشباب . ففكر فى ان يتخذها خليلة . ولكنه كان غيورا الى أبعد حد ، مولعا بالحيازة والاستئثار والتسلط . فآثر ان يقهر كبرياءه ، وينزل عن مكانته ،ويدوس جميع مقدساته ، ويسلب الفلاحة الوضيعة من بوريس ، ويتحدى الناس جميعا ويقترن بها

وفى ذات يوم حزم أمره ، واستدعى اليه بوريس ، ثم أعلنه بعزمه . فذهل الشاب واختبل ، ولم يستطع الا أن يطأطىء الرأس ذليلا صاغرا

واقترن لاديسلاس بسونيا ،واعقب منها طفلين ذكرا وانثى، احبهما الى حد العبادة ولا سيما الطفل « بافيل » الذى كان يمثل فى نظر والده ثمرة الحب ، وهدف الثروة ، وغاية الدنيا

وبدل ان تولد الابوة فى نفس لاديسلاس عواطف الانسانية والرحمة ، الهبت فيه شعور الكبر والخيلاء فأمعن فى الظلم ، واوغل فى الاستبداد ، وزينت له غيرته المرضية ان يتخذ من بوريس التاعس الحظ فريسة له

وكان يستشعر حبه الصامت العميق لسونيا ، فكان يضطهده ليثأر منه ، وينكل به ليتشفى فيه ، ويتعمد ملاطفة سونيا وتقبيلها أمامه ، كى يحقره ويذله ، ويضاعف احساسه بأنه عبد رقيق لاحق له فى الحب ولا فى الحياة . وكان يفرض عليه اشق الاعمال ، ويجد لذة وحشية فى اهانته ، والسخرية منه ، والانتقاص من قيمة عمله ، واهدار كرامته أمام الفلاحين

وكان يتخذ منه مسخاله ومهرجا . فيصطحبه فى رحلاته ، ويأمره بتسليته ، ويسومه جهد اضحاكه وادخال السرور على قلبه

ودامت هذه الحياة سبع سنوات ، فكبر الصبى بافيـــل ، وكبرت معه رغبة لاديسلاس فى جمع المال من أجل ولديه

واذذاك استفاضت الانباء بأن القيصر على وشك أن يعلن الحرب على تركيا ، فلم يتردد لاديسلاس ، واسرع فانتهـز الفرصة ، وباع معظم أراضيه ، ثم ســافر الى بطرسبرج فى صحبة امرأته وبوريس واشترى سبائك ذهبية ، وعزم أن يبيعها قبيل اعلان الحرب وارتفاع أسعار الذهب

ولقد كللت رحلته بالنجاح ، فأنقذ نفسه ، وانقذ امراتـه

وسبائكه ، وأن كان قد ضحي بمهرجه وعبده المخاص بوريس ، والقى به طعاما للذئاب !

هذا ما كان يفكر فيه لاديسلاس ألان ، وهو يتجـول فى مزرعته على ظهر جواده ، وخادمه يدعوه ليتناول طعام الافطار، وابنه بافيل يصفق له عن بعـد ، ويستعجله كى يدخل البيت

وكان يتأمل مزرعته فى كـبر ، ويفكر فى المسـتقبل فى ثقة ، وينظر الى الوادى السحيق الماثل خلف الربوة المتاخمـة للمزرعة ، نظرته الى الماضى الأجوف الذى عاش فيه قبل أن يعرف الحب ، وقبل ان يعرف سونيا ، وقبل أن تكتحل عيناه بمرأى ولده الحبيب الجميل بافيل

والقى على الوادى السحيق نظرة أخيرة ،وهز كتفيه مستكبرا متحديا ، ثم أعمل المهماز فى خاصرة جواده ، وانطلـق يعـدو صوب البيت ، ولكنه ما كاد يشرف عليه حتى بهت وتراجع . ثم توقف وترجل وجمد

أبصر بوريس يجر نفســـه جـرا ، ويزحف على الارض كالسلحفاة ، ويدخل المزرعة ممزق الصـدر ، صائحا والدم ينزف منه :

ــ اماه ! اماه ! أريد ان أرى أمى قبل أن اموت !

وأقبل الفلاحون واحاطوا به . وبرزت أمه العجوز من بين صفوفهم ، محلولة الشعر ، زائغة العينين ، وارتمت عليـه صارخة :

ــ ولدى ! ولدى ! مابك ؟ انت جريح ! استفسرت عنـك فقال لى السـيد انك تخلفت فى بطرسبرج لقضاء بعض شئونه! قالى أين ذهبت ؟ وكيف جرحت ؟ وهل اعتدى عليك احد ؟

فطوق بوريس أمه بعينيه ، ولفها بذراعيه ، وجعل يقبـل خدها وشعرها وأناملها وهو يردد :

ــ سأموت ! سأموت يا أماه !

ثم أجال الطرف حوله ، فأبصر لاديسلاس يحـدق عن بعد أليه . فوثب قلب بوريس فى صـدره ، وغشى دم الحقـد وجهه ، واشفق على جذوه حياته ان تخمد الى الابد فى رماد الذل والخنوع والتسليم . فأراد أن يكافح ولو مرة ، ان ينتقض ولو فترة ، ان يثور ولو لحظة . فاحتضن أمه ، واومأ بأصبعه الى السيد ، وصاح لاول مرة فى حياته صيحة الرجل الحر والانسان المعتز الطليق :

ـ هو ! هو الذى قتلني ! كنت بجواره ! فلما غافلتنا الذئاب القى بى من المركبة لينقذ نفسه وامرأته وسبائكه ! ولقـد انقذها بالفعل ومضى . اما انا فقد صارعت الوحش حتى قتلته قتلته ولكنه مزقنى . وهأنذا اوشك أن أموت فـاذا مت فاعلموا .. اعلموا جميعا أن لا ديسلاس هو الذى قتلنى !

فارتجف الفلاحون وتطلعوا الى سيدهم

وكان القانون يعاقب صاحب الارض اذا قتـل احـدا من فلاحيه . ولكن لاديسلاس لم يضطرب ولم يحفـل ، يقينـا منه بأن التهمة لا يمكن أن تثبت عليه بـدون شـهود ، وان من المحال ان يجسر الحوذى البائس المسكين على اقرارهـا ، او تفكر سونيا لحظة واحدة فى توكيدها على حساب زوجها وولديها ونفسها

بيدان هذه الجرأة الوقحة من بوريس ، احنقت لاديسلاس واثارته . فكبر عليه ان يتهم أمام عبيده . فدنا من الحـوذى وصـاح :

ـ أنت .. انت يا من كنت تقود المركبة ! لقد رأيت بعينيك ما وقع ! أحق ما يقوله هذا المعتوه ؟

فارتعش الحوذى ، واحس ان سيده يحرجه متعمدا ، ويطلب اليه أن ينقذه من هذه الورطة . فانتهز الفرصة ليكسب عطفـه ورضاه ، واجاب على الفور فى صوت اجش :

ـ هو بوريس الذى حاول أن يلقى بالسيد لاديسلاس من المركبة لتفترسه الذئاب ! حاول أن يثـأر منـــه لانه تزوج بسونيا • ولكن السيد تغلب عليه بعد صراع عنيف ولم يجـد بدا من التخلص منه فقذف به الى الارض !

فلمعت عينا لاديسلاس اعجابا وظفرا ، وهتف :

ـ ارأيتم الى هـذا المجرم المفترى ؟ كيف كان يمـكن أن ارحمه وقد كنت فى موقف الدفاع المشروع عن نفسى ؟ أمـا الآن وقد ثبتت عليه نية القتل فالقانون يخولنى حق عقابه ، ولو أسفر هذا العقاب عن موته ! انه من الثائرين علينا نحن الاقطاعيين • انه فوضوى !! •

فاختلج بوريس مســـتنكرا ، وصرخ وهو يئن من ألـــم جراحه :

ـ لست فوضويا ، ولا من دعاة أى نظام هادم !

انا وجميع الفلاحين أمثالى ، لا نريد انظمة هادمة ، تتنكر لديننا ، وتفسد ضمائرنا ، وتسلبنا حريتنا ، وتحرمنـا حق التمتع بثمرة كدنا . نحن نطلب الغاء الرق . نطلب حقوقنا السياسية والمدنية . نطلب العدل الاجتماعى فقط . نطلب الكرامة والحرية !

فقال لا ديسلاس :

ـ انه منافق • وكلامه هذا يدل ابلغ الدلالة على مدى الثورة التى تضطرم فى صدره

والتفت الى نفر من فلاحيه واردف :

ـ اطرحوا هذا المجرم ارضا واجلدوه ! اجـــلدوه عشرين جلدة !

فصرخت الام العجوز وهى تجثو عند قدمى السيد :

ـ الرحمة • الرحمة يا مولاى !

واقبلت سونيا مستهولة ، وطفقت ترجو وتتوسل • وبكى

الصبى بافيل واستعطف هو الآخر والده • ولكن لا ديسلاس ركل العجوز بقدمه ، وانتهر امرأته والصبى ، واهاب بالفلاحين:

ـ ماذا تنتظرون ؟ هيا !

فأسرع واحد منهم ، والسوط في يده ، واخذ يجلد الشاب المحطم الممزق الجريح

وكان لاديسلاس يشهد المنظر وجواده يصهل بالقرب منه وابنه بافيل يبكى ، وصيحات بوريس والعجوز وسوبيا تصم اذنيه • فلما اتى الفلاح على آخر سوط ، ارسل بوريس أنة طويلة مخنوقة ثم تداعت قواه ، وانهار على الارض • انهار على الارض كالكتلة الصماء ، فارتمت أمه عليه ، وجعلت تتحسسه في جنون وتقبله وهى تردد :

ـ لم يمت ! لم يمت ! اسعفوه بكوب ماء !

فتقدم لاديسلاس ليرى . تقدم ليستمتع . تقدم ليتشفى . وعندئذ تململ بوريس وتحرك ، وفتح عينيه ، ونظر الى سيده نظر اليه نظرة لم يرها المولى فى عين اى عبد • نظرة مروعة • نظرة هائلة • نظرة فيها كل عذاب العمر ، وكل الحنق على الظلم ، وكل الثورة الجارفة الطاغية على الجور والاستبداد • فارتجف لاديسلاس وتقهقر • ولكن بوريس امسك بذراعه وتشبث به ونهض ! نهض بالرغم منه • نهض مدفوعا بقوة طارئة خارقة لم يعلم من أين واتته . نهض كالجبار ، واستقام كالطود ، وتلفت .. تلفت وهو مخبول . تلفت وهو دهش من يقظته ، مأخوذ بنشوته ، غير شاعر بجراحه ، مذهول من عزيمته وقوته وفكرته •• ولم يتردد ، وفى مثل ومض البرق ، دفع لادسلاس فى عنف ثم انقض على الصبى بافيل واختطفه ، ثم غافل الكل وأسرع الى جواد السيد فامتطاه ، وانطلق بالجواد والصبى الى قمة الربوة الواقعة فى مؤخرة المزرعة والمشرفة على الوادى السحيق ، وصاح بلاديسلاس :

ـ باقيل معي ! ابنك في قبضة يدى اذعن الآن بدورك لامرى والا القيت بولدك فى اعماق الوادى !

فاندفعت سونيا صارخة :

ـ بوريس ! لا • لا تقتل ولدى !

وهتف لاديسلاس :

ـ ارحم الطفل فهو برىء !

فقال بوريس وهو يهدر :

ـ اذن يجب • يجب أن يكون عقابك من جنس عقابي !

واهاب بالفلاحين :

ـ اجلدوه ! اجلدوه مثلى ! اجلدوه عشرين جلدة والا فابنه لا محالة هالك ! أطيعونى قبل ان يفوت الوقت ! !

فذعر الفلاحون ووجموا • ولكن لاديسلاس حنى رأسه صاغرا واسرع •• اسرع الى الفلاح الذى جلد بوريس ثم أولاه ظهره ، وصاح :

ـ اضرب ! اضرب سيدك ولا تخف !

فانهال السوط على ظهر لاديسلاس وهو ثابت • لم يصرخ لم يجأر . لم يئن . كان يحدق فقط فى ولده ويحتمل . كان يعض شفته من فرط الالم وينتظر • فلما اتى الفلاح على السوط الاخير ، وثب لا ديسلاس إلى سفح الربوة كحيوان مطارد مطعون ، واهاب ببوريس :

ـ اعطنى الآن ولدى ! لقد رويت غليلك منى فكن شريفا طيب القلب وارحمني ! لن امسك بسوء ! اقسم بالله العظيم انى لن امسك بسوء !

فنظر اليه بوريس لحظة ، ثم قهقه ، قهقه فى وحشية وصاح :

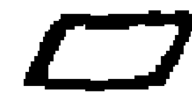
ـ انت كاذب ! ستنتقم منى غدا ! لابد أن تقتلنى غدا ! انا اعلم ان الموت مقدر على فى غد لا محالة • ولكنى لن اموت ابدا

بيدك . لن ادعك تفرح بانتقامك . هوذا الصبى .. هـــوذا بافيل . وانا ارده اليك لا لانه ولدك بل لانه ابنها هى .. ابن سونيا ، ابن حبيبتى ، المرأة المغلوبة على امرها التى اغتصبتها انت بعد أن سرقتها منى ! اليك الطفل

والقى بالصبى على الارض وهتف :

ـ الوداع يا سونيا !

ثم تحفز وقفز ، فسقط هو والجواد فى اعماق الوادى



وظل لاديسلاس اشهرا طويلة مسلوب الحول ، طائر اللب يفكر فى عذاب بوريس وتضحيته . فلما برح به وخز الضمير وتاقت نفسه الى شىء يكفر به عن جريمته ، اتصل بالمثقفـــين الاحرار ، وانقلب من طاغية الى مصلح . ومـــا زال بالقيصر اسكندر الثانى ، يقنعه ويرشده ويهديه ، حتى استصدر منــه عام ١٨٦٢ مرسوما باعتاق الفلاحين ، ومنحهم حقوق المواطنين واعتبارهم بشرا كسائر الناس

وهكذا تحقق حلم بوريس ، ولكن بعد أن اصبح هو جثـــة هـــامدة

عصر النهضة

شهداء النور

« هذه القصة تمثل صورة من جهاد اخر ، هو جهـــاد العلم . جهاد الفكر البشرى الحر المستكشف الجرىء فى بحثه المطرد عـن الحقيقة والنور »

بعد ان اشرق عصر النهضة فى اوربا ووضع العالم العظيم « جاليليو » اسس العلم التجريبى فى ايطاليا ، وبعـد أن قال بأن الارض تدور حول الشمس ، واصدر فى فلورنسا عـــام ١٦٣٢ كتابهالمشهور الذى ايد فيه نظريته ، استهدف لنقمـــة « محكمة التفتيش » التى اضطهدته ، واقصته عن العالم ، وفرضت عليه السجن فى بيته ، وظلت تراقب نشاطه الفكرى حتى بلغ السبعين من عمره ، وفقد البصر ، ولم يعد فى وسعه أن يقرأ او يكتب

وكان رجال الدين منقسمين حيال افكاره الى فريقـــين : فريق من المستنيرين يود ان ينهضبالكنيسة ، ويلتمس الظروف المخففة لجاليليو ، ويتسامح فى اطلاق حرية البحث العلمى ، مسايرة لحركة التطور ، وفريق من المتعصبين المتزمتين ، وعلى رأسهم رجال محكمة التفتيش ، يتهم جاليليو بالسحر والزندقة والـــكفر

ولقد تمكن الفريق الاول من انقاذ حياة العالم العظيم . أما الفريق الثانى فقد اكتفى بأن يحد من نشاطه ، ويمنع تسرب افكاره ومبادئه الى الشعب

ومع ذلك فبحوث جاليليو كانت قد صادفت هوى من نفوس الكثيرين . فاستفاضت شهرتها ، وترامت من المدن الى القرى ولم تؤثر فى الخاصة فحسب بل جاوزتهـم الى بعض افـــراد ممتازين من ابناء العمال والفلاحين

في احدى القرى الفلورنسية النائية كان يعيش فلاح اجير يدعى « ارماندو فنشنتي » • وكان هذا الفلاح النابغ قد تلقى اصول القراءة والكتابة في مدرسة القرية • ثم تجلت مواهبه فجأة ، فأقبل على المطالعة والتفكير ، واولع بالبحث العلمي والفلسفة المتحررة من قيود اللاهوت ، وقرأ بعض رسائل جاليليو ، وتتلمذ عليه ، وشرع يعد هو الآخر بحوثا جديدة في الفلسفة واصول العلم التجريبي

وكان البعض من اهل قريته يبغضونه اشد البغض ، ويتهمونه بالزندقة والالحاد ، وينهرون نساءهم واولادهم اذا اتصلوا به ، ويخافون منه على انفسهم ، وعلى مواشيهم ، وعلى زراعتهم ، وعلى كل ما يمكن أن تمسه يده ، او تقع عليه عينه ، او تطأه قدماه

وطالما نصح هذا النفر بوجوب رفع امر الزنديق ارماندو الى محكمة التفتيش ، ولكن « الام ماريانا » عمة الشاب ورئيسة دير القرية ، والراهبة الجليلة التي اشتهرت بالايمان والصلاح والتقى ، شفعت له عند العمدة وكبار الزراع ، وتعهدت بأن تزوره في كل اسبوع مرة ، وتبذل قصاراها في تبديل معتقده وهدايته الى السبيل السوي

وهكذا ظل ارماندو يعيش بمعزل عن اهل قريته ، منطويا على نفسه ، مستغرقا في وحدته وصمته ، لا يكاد يفرغ من عمله في حقل عمدة القرية ، حتى يعود الى كوخه ، ويعكف على المطالعة والتأمل ، وهو يفكر في شيئين فقط : محاولة وضع بحث فلسفي وعلمي يؤكد فيه شخصيته ، ويساهم به في حركة التحرير التي بدأها جاليليو ، ورؤية الفتاة الرائعة الجمال « فرانشيسكا » بنت العمدة التي كان يحبها ، والتي اقبلت عليه كدنيا من الجمال والسحر ، فكانت هي المخلوقة الوحيدة التي ميزته ، وعطفت عليه ، واعتنقت آراءه ومبادئه ، واشعرته

انه بطل مكافح خليق بالاعجاب والتشجيع والحب !

وهاهو ذا ارماندو فى كوخه يفكر الساعة فى الفتاة ، كما لم يفكر فيها ابدا من قبل ! اليوم يوم أحد وهو على موعد منها! انه ينتظرها على أحر من الجمر ! ويجب .. يجب أن تسرع اليه فى غفلة من والدها ومن اهل القرية جميعا ،ويجب أن تتشجع هى ايضا وتجازف وتغامر ، والا ضاعت الفرصة السانحة وانهار فى لحظة كل شيء !

وفتح ارماندو باب الكوخ ، وأطل منه برأسه وهو يرتعد . كان يعلم انه قد اخطأ مساء امس خطأ مروعا ، خطا فظيعا ، عندما تحمس لفكرته ودعوته ، وتهور فى مناقشة شيخ من وجهاء القرية يدعى « جايتانو » ، وصارحه مستكبرا متحديا ، بانه قد تمكن من تحقيق حلمه ووضع بالفعل رسالة جامعة يؤيد فيها افكار جاليليو ، ويدعو الى نشر التعليم التجريبى الصحيح الحر ، القائم على فضائل الاستقراء والاستنتاج والتحليل ، التى يكرهها المتعصبون المتزمتون ويقفون لصاحبها بالمرصاد

هذه الرسالة التى وضعها ارماندو ، والتى كشف لذلك الشيخ المحافظ المتعصب الرجعى عن سرها ، اصبحت بين عشية وضحاها حديث القرية ، وذعر الفلاحون الذين باتوا ولا هم لهم الا ان يحصلوا عليها ، ويحرقوها ، ثم ينكلوا بصاحبها وينتقموا منه شر انتقام

اجل . الرسالة الآن فى حوزة ارماندو . ولكنه لابد أن يسرع بانقاذها . لابد أن يسرع بالتخلص منها . لابد أن يسرع باذاعتها ونشرها والا قد يهبط به الفلاحون فى اية لحظة ،وقد ينتزعونها منه ، ويسومونه من أجل حريته وجرأته وعناده شر الوان العذاب !

وتلفت يمنة ويسرة فلم يبصر احدا . كان الجو غائما ،

والسحب الكثيفة تنعقد فى صفحة السماء ، وتتخذ اشــكالا غريبة تلقى الرعب فى القلوب • وفجأة عصفت الريح ، ودوى الرعد ، وانهمر المطر ، وهزت الطبيعة جوانب الكوخ • فانخلع قلب إرماندو ، واوشك أن يطوح به اليأس • ولكن السماء وقد مسها سحر ساحر ، عادت الى صفائها بغتة . فسكن الرعد ، وانقطع المطر ، واشرقت الشمس ،وانصبت سيولا من فضـة على القرية الصغيرة الكئيبة النائية

وتنفس ارماندو الصعداء ، وهم بالخروج من كوخه عساه أن يلمح الفتاة وهى مقبلة عليه من اقصى الطريق • وعندئذابصرها أبصرها فى ثوبها الاسود السابغ جميلة جمالا يخلب الالبــاب ترتعش ، وتنتفض ، وتحث خطاها ، وهى تتطلع الى حبيبها عن بعد ، وقد ارتسمت على وجهها البيضاوى الشـــاحب المعتز ، ابتسامة حزينة تشبه دمعة مريرة ، شاع فيها الالم والخـوف والشوق والحنان

ودخلت الفتاة الكوخ • دخلت ولم تتكلم •• لم تتكلم كعادتها وارتمت على المقعد الخشبى الصغير ، واشرأبت بعنقها ، وحدقت الى عينى ارماندو وهى تلهث • وكانت مفتونة بسحر عينيــه اللتين يشع الذكاء منهما اشبه ببرق خاطف • فطفقت تتـأمل سوادهما القاتم المهيب ، وبياضــهما الناصع الرجــراج ونظراتهما الجريئة الصريحة ، وأهدابهما الطويلة المتراقصة ، وذلك الحظ العاثر الذى يرفرف عليهما كطائر بغيض مشئوم !

وانحنت على الشاب كعادتها أيضا وقبلت عينيه . فأثارته انفاسها الحارة ، وحاول أن يضمها الى صدره . ولكنه كان يحترمها بل يقدسها . فاكتفى بأن قبل جبينها ، ولثم يديهـا الصغيرتين ثم اقصاها عنه فى رفق وهم بالكلام ولكنها لم تمهله وقبل ان تتحرك شفتاه ، عانقته فى لهفة مخبولة ، ثم عاجلته فى صوت متقطع متهدج ، وهى تحتويه بين ذراعيها وتتفرس

فى عينيه الساحرتين وترتجف :

ـ يجب أن تفر يا ارماندو ! يجب أن تخرج حالا من هنا ، وان تحتجب فى أى مكان ! ان تسرع الى الدير وتلوذ بعمتك الراهبة رئيسته ، او تتسلل الى احد المذاود ، او تختفى فى اية صومعة من صوامع الغلال !

فحملق الشاب فيها وغمغم :

ـ ولماذا ؟ هل عقدوا العزم على الثأر منى ؟ وهل ترامى اليك انهم ابلغوا امرى الى محكمة التفتيش ؟

فهتفت الفتاة :

انج بنفسك ! انت تعلم ان من تقاليدهم أن يطهروا قراهم بأنفسهم ، حتى اذا ما اقبلت هيئة محكمة التفتيش ، فازوا باعجابها ورضاها ، وتلقوا منها البركة الدائمة ، واشتروا من رئيسها « صكوك الغفران » فى الجنة بلا مقابل ! فانج بنفسك انهم قادمون اليك بعد لحظات ! لقد اجتمعوا فجر اليوم فى بيتنا ، وشاوروا والدى ، ثم اتفقوا على اقتحام دارك ، واستجوابك امام اهل القرية جميعا ! فأنا اتوسل اليك أن تختفى ! التمس منك أن تفر ، والا فات الوقت يا ارماندو واستهدفت لنقمة الجماهير المتعصبة الثائرة !

فأطرق الشاب لحظة ثم صاح :

ـ والى اين تريدين ان اذهب ! لابد أن يعثروا على ، حتى لو لجأت الى الدير ! سأبقى هنا ! ماذا تهمنى حياتى ؟ المهم هو رسالتى ! كان فى نيتى بعد أن تهورت ليلة أمس فى حديثى مع المزارع الشنيخ جايتانو ، أن اذهب توا واسلم الرسالة لصديقى « برونو » • ولكنى كنت لم انجزها بعد فسهرت الليل بطوله ، ولم استطع أن اتمها الا منذ ساعة فقط ، ثم خشيت أن انا حملتها الى برونو فى وضح النهار ان افتضح ! فالمهم هو هذه الرسالة يا فرانشيسكا • أتفهمين ؟ المهم هى

لا أنا ! انها معقد إملى وغاية حياتى ! المهم هو ألا تقع الرسالة فى إيديهم ! المهم هو ان تصل الى المدينة ، وان تطبع هناك وتنشر وتذاع ! وانت ، انت يا فرانشيسكا ، انت التى فى مقدورك وحدك أن تنقذيها ، وتنقذى فكر صاحبها من الموت والفناء !

فقالت الفتاة وقلبها يتمزق :

ـ اذا كان فكرك يجب أن يعيش ، فأنت ايضا يجب أن تعيش ! يجب أن تعيش من اجل فكرك ، ومن اجلى انا ايضا اذا كنت حقا تحبنى ! اعطنى الرسالة ! سأخفيها عندى ، ثم قل لهم انك احرقتها . وهكذا تنجو اليوم منهم ، ثم أحاول انا بعد ذلك أن اتصل بصديقك برونو ، وان أحمل اليه الرسالة كى يحملها بدوره الى جماعة « انصار العلم » فى المدينة !

فحدق اليها ارماندو بعينين متقدتين وصرخ :

ـ ولكنك لا تعلمين أن رجال محكمة التفتيش يتعقبون برونو ، لانهم فطنوا الى انه عضو عامل فى جماعة « انصار العلم » القرية كلها كانت تجهل بالامس حقيقة برونو ، كما هى تجهل اليوم انه مراقب ومهدد ! ولقد كاشفنى بذلك مساء أمس ، وقال لى انه سيغادر القرية ظهر اليوم ، ويفر من رجال محكمة التفتيش ، قبل أن يغافلوه ويلقوا القبض عليه ! فالرسالة يجب أن تسلم الى برونو الآن ! الآن ! قبل الموعد الذى اعتادت إن تزورنى فيه عمتى الام ماريانا كل يوم احد لتعظنى وترشدنى ! فعليك انت ان تحملى الرسالة الى صديقى ! لن تتطرق اليك اية شبهة يا فرانشيسكا ! لقدالفت زيارةبيوت الفقراء والاحسان اليهم . فخذى الرسالة ، واقصدى من فورك بيت برونو ، وسلميها اليه قبل ان يرحل ! أما أنا فلو ذهبت بنفسى فقد أصبح موضع ريبة ، او قد يعترضنى الفلاحون الساعة ، ويقطعون على الطريق ! لابد لي من البقاء هنا ! لاتخافى

لن اتحداهم . لن استفزهم . سأقول لهم فقط ان الرسالة فقدت مني ، وستشفع لي ايضا عندهم مكانة عمتي الام ماريانا الراهبة الجليلة رئيسة الدير فاطمئني . اطمئني وخذي !

وهم بأن يفتح درج خزانته ، ويسلمها الرسالة . ولكنها اختلجت اختلاجا عنيفا ، وتقهقرت بالرغم منها ، ودب فيها ذعر طارىء لم تستطع أن تكبحه . فتطلع اليها لحظة وجمد . عز عليه أن يراها تضعف وتتخاذل وتتردد . فعبس في وجهها وقال :

ـ أترفضين ؟

فشخصت اليه فترة ، وتأملت عينيه الساحرتين وهي ترتعش ثم عضت على شفتيها ، واستجمعت قواها ، ورفعت رأسها في عزة وشموخ ، وقالت :

ـ هات الرسالة !

فناولها اياها في سكون . فقالت :

ـ سأعود اليك لاطمئنك ، وسأحاول أن أكون هنا قبل موعد زيارة الام ماريانا !

فجاشت عواطف ارماندو ، وانفجرت كوامن حبه واعجابه وشكره ، فضم الفتاة الى صدره ، وغمر وجهها ويديها بالقبلات



وانطلقت الفتاة بعد ان دست الرسالة في صدارها ، والتفتت الى حبيبها وتزودت منه بنظرة . ولكنها قبل أن تتجه صوب منزل برونو الكائن في اقصى القرية ، ابت الا أن تزور بعض الفقراء ، وتحسن اليهم كعادتها ، عسى أن يستجيب الله الى سؤلها ، فيكلأ ارماندو بعين عنايته ، ويحفظه من كل أذى ويجنبه شر هذا اليوم العصيب

ودخلت بعض الاكواخ وارماندو يرقبها ثم خرجت مسرعة . والتفتت اليه مرة ثانية وابتسمت ، ثم حثت خطاها فى نشاط وعزم ، وغابت عن بصره بغتة ، واختفت فى ازقة القرية

وانقضت لحظات ·· لحظات طويلة ·. لحظات خيـــل الى الشاب ان سكونها عامر بالطمأنينة وانه لن ينقطع · وفجـــأة ترامت الى سمعه جلبة بعيدة ، جلبة مشوشة عنيفة كأنهـــا زفيف ريح ، او هدير موج ، او زئير عاصفة · فتنبه وادرك· ادرك أن الساعة قد دنت ، فلم يضطرب ولم يجزع ، بل فتح باب الكوخ عن آخره ، وجلس على عتبة الباب ، وطوى ذراعيـه على صدره وانتظر

وفى مثل لمح الطرف أبصر جمـوع الفلاحـــين تنطلق من الزقاق المجاور ، وتقبل عليه ، مائجة مصطخبة هادرة ، وفى طليعتها المزارع الشيخ جايتانو مصحوبا بعمدة القـــرية والد فرانشيسكا

وتقدم المزارع الشيخ واهاب به :

ـ انهض !

فنهض ارماندو متثاقلا ولم يتكلم · فدنا منه العمدة وقال فى صوت جهير : ـ انت تعلم اننا لا نقر الهرطقة او الزندقة ، وان قريتنا كانت حتى اليوم طاهرة ومنزهة عن كل مروق · فادخل كوخك على عجل ، وعد الينا بالرسالة الخبيثـــة التى كتبتها · والا فلن يكون فى وسعى ان احميك من غضب هؤلاء المؤمنين الصارمين الاتقياء !

فقال ارماندو فى هدوء :

ـ الرسالة فقدت منى !

فاستشاط غضب المزارع الشيخ وصاح :

ـ ألم تحدثنى بالامس عنها ؟ ألم تذكر انك كنت مـا تزال تكتبها ؟ أنت كاذب ! انت عضو فى تلك الجمعيـــة الملعونة !

لقد اخفيت الرسالة ويجب أن تظهرها ، والا فلن نرعى لعمتك الراهبة اية حرمة ، ولن نطمئن حتى نعاقبك بأنفسنا ، قبل أن نسلمك الى رجال محكمة التفتيش !

وقطب العمدة حاجبيه وقال :

ـ اولى بك أن تطيع !

فردد ارماندو :

ـ الرسالة فقدت منى !

فقال العمدة فى صوت باتر :

ـ اذن فسنفتشك ونفتش الكوخ !

فغمغم ارماندو وهو يرفع ذراعيه :

ـ تفضلوا

فارتمى عليه المزارع الشيخ وفتشه ، ولكنه لم يعثر فى جيوبه على شيء • وعندئذ وثب الفلاحون الى الكوخ ، واقتحموه وشرعوا يبعثرون امتعته ، ويقلبون اثاثه ، وينبشون كل ركن فيه • ولما اعياهم البحث ، اشتد بهم السخط والحنق ، فتدفقوا الى الخارج ، واحاطوا بالشاب ، واقترح بعضهم أن يسوقوه عنوة الى بيت العمدة ، وان يطرحوه فى احدى الزرائب شهرا كاملا بلا طعام او شراب ، ثم يسلموه جثة هامدة الى رجال محكمة التفتيش • ولكن العمدة الذى كان يريد انقاذه اكراما للراهبة عمته ، وحرصا على مكانتها ، واعتزازا ببركة وجودها في القرية ، أسرع اليه ، ونحى الجمهور عنه ، وقال له فى لهجة مترفقة وحازمة :

ـ اذا كنت قد فقدت الرسالة حقا ، فيمكنك على الاقل أن تنكر ما جاء فيها • نعم ، يجب أن تنكر كل ما كتبت ، وتعلن على رءوس الاشهاد انك كنت بالامس مارقا ، ولكنك ثبت اليوم الى رشدك ، وآليت على نفسك أن تعود الى حظيرة الايمان نادما مستغفرا ! اعترف • قل أمام الجميع انك تؤمن بالله ،

وتعاليم الدين ، ثم عاهد نفسك على التوبة واستغفر !

فنصب ارماندو قامته ، وتوسط جمهور الفلاحين وصاح :

ـ اني أومن بالله ورسله وانبيائه واليوم الآخر ! أؤمن بالدين ، ولكنى اؤمن بالعلم ايضا ، لان نور العلم من نور الدين أي من نور الله ! العلم هو العقل ، والدين هو القلب والضمير والروح • فهل يمكن أن يستغنى الانسان عن عقله ، وهل يمكن أن يستغنى الانسان عن قلبه وضميره وروحه ؟ واذن فلا بد من علم ولا بد من دين • وانا اؤمن بالدين ولكنى لا أستطيع أن اكفر بالعلم !

فسرت بين الفلاحين غمغمة طويلة ، وهتف احدهم :

ـ العلم هو علم الدين ، أما علمك انت فهرطقة وزندقة • انت تريد استخدام فلسفتك وعلمك لهدم الدين !

فصاح ارماندو :

ـ الدين متأصل فى طبيعتنا وهو اقوى وارسخ من ان يزعزعه اى بحث علمى او فلسفى ! لا بد من دين للام التى فقدت وحيدها • لابد من دين للمريض المعذب اليائس • لابد من دين للفقير التاعس المحروم • لابد من دين لروح الانسان التى تصبو الى اللا نهاية ! ولكن الحرية ، حرية البحث العلمى المجرد ، هى التى تدفعنا الى التقدم • هى التى تجعلنا اقوياء ، وتعاوننا على فهم الطبيعة ، وتكشف لنا عن اسرارها وتسخرها لخدمتنا ، وتمكننا من مكافحة بؤسنا وامراضنا وتلطيف وطأة الالم البشرى الذى نعانيه !

فصاح المزارع الشيخ :

ـ انه يكابر بدل أن يسلم ! انه يبشر بدل أن يستغفر !

وامسك بتلابيب الشاب وواجهه بالجمهور المتربص المتحفز واستطرد :

ـ قل أن العلم كله مرصود فى كتاب واحد هو الكتاب

المقدس ! قل انك لن تقرأ غير هذا الكتاب ، وان مافيه يغنيك ويغنينا عن أى كتاب آخر لانبغ واعظم انسان . قل .. قل ان الارض لا تدور !

فحدق اليه الشاب ، وقال :

ــ بل تدور !

فارتفعت صرخات الفلاحين مستنكرة متوعدة • وشق المزارع الشيخ جلبابه ، وهتف :

ــ أرأيتم ؟ انه كافر ! انه ساحر ! انه يلوث قريتنا ،ويجلب علينا لعنة الله ! اثأروا من المارق ! عاقبوا الملحد الاثيم الشرير!

فانقض الفلاحون على ارماندو ، وجذبوه من شعره وذراعيه واطراف ثوبه ، وجروه على الارض جرا ، واوسعوه ضربا وركلا وبصقا ، وهم يصيحون :

ــ لن يكتب بعد الآن ! لن يكتب ولن يقرأ !

واحتواهم شبه مس من جنون • فأنشبوا اظافرهم فى وجهه وامعنوا فى ضربه وسبه ، ثم دفعوه دفعا الى شجرة كبيرة قائمة فى احدى زوايا الحقل الفسيح ، وهو فى وسطهم ، حائر تائه شارد ، يتطوح كالخرقة البالية ، ويئن ويزفر ، وقد انهارت قواه ، واحتقن وجهه ، وتنكر وتشوه ، وسالت منه الدماء

ولما اقتربوا من الشجرة الكبيرة ، اسرع احدهم وجاء بحبل ومطرقة وسيخ من حديد ، وصاح :

ــ يجب ان نكسر عظام يديه كى لا يكتب ، ويجب أن نفقأ عينيه كى لا يقرأ ولا يرى ! يجب أن يصبح منذ الآن عاجزا وضريرا كأستاذه الملعون جاليليو !

فقصفت صيحات الفلاحين كالرعد ، وارتموا على ارماندو ، وهموا بأن يشدوا وثاقه • ولكنه وقد تصور نفسه مشلولا واعمى ، جن جنونه ، واستشعر بغتة بقوة خارقة لم يكن ليحلم بها • فمد ذراعه التى استحالت الى شبه قطعة من فولاذ ،

واقصى الفلاحين عنه وصرخ :

ــ اقتلوني ! اولى بى أن إموت ، من أن اعيش مشــلول اليدين واعمى !

وحاول أن يختطف المطرقةويضرب بها رأسه ٠ولكنهم اطبقوا عليه ،وانتزعوها منه ، والصقوه بالشجرة ، وشرعوا يشدون وثاقه .

واذ ذاك ، وبيناهم يهتفون ويهللون ، ترامت الى ســمعهم صرخات بعيدة ممزقة ، ثم لاحت لهم فرانشيسكا ، ثم اقبلت عليهم مندلعة العينين ، مفغورة الفم ، محلولة الشعر ، وشقت جموعهم ، واندفعت نحو ارماندو ، وصاحت وهى تطــوقه بذراعيها :

ــ لن تمسوه بسوء ! اطلقوه أو عذبونى معــه ! لن اتخلى عنه ! اننى إحبه ! اننى أحبه وهو خطيبى !

فتراجع العمدة والدها مبهوتا ، وجحظت عيناه ، وارتعدت فرائصه ، واصابه من فرط الدهشة والذعر والسخط شــبه ذهول • فاتجه الفلاحون من فورهــم نحــوه ، واحــاطوا به وصرخوا :

ــ أحقا هى خطيبة هذا الشقى ونحن لا نعــلم ؟ وانت ؟ انت ؟ أرضيت بهذا انت والدها ؟ تكلم !

فصاح العمدة فى نبرة مرتعشــــة ، وهو يرتجف ويبرز ايقونة صغيرة للعذراء ويلوح بها امامهم :

ــ اقسم لكم ، اقسم بالله العظيم ، وبالعذراء الطاهرة انى لا إعلم شيئا ! لقد خدعتني الفتاة ! ضللتنى وخدعتنى ! لابد انها كانت تتصل بهذا الشقى وانا لا أعلم !

وانقض على ابنته كوحش كاسر ، وامسك بخناقها ، واهاب ببعض الفلاحين وهو يدفعها اليهم :

ــ احملوها الى خبائها ! لن ترى الشمس قبل أن تتطهر

من ذنبها ! سأعذبها ! سأسومها اقسى ضروب الصلاة والصوم والجوع كى تكفر عن خطيئتها ! احملوها الى الخباء ! اما شريكها الزنديق فيجب ان يلقى جزاءه دون رحمة !

فرددت فرانشيسكا وهى تتشبث بأرماندو :

ــ لن أتخلى عنه أبدا ! اما أن تطلقوا سراحــــه ، واما أن تعذبونى معه !

فزجرها المزارع الشيخ وقال :

ــ والدك هو الكفيل بتأديبك ! فلتحمل الى الخباء ! اما انتم فامضوا فى معاقبة هذا الشقى !

فطاش صواب الفتاة ، وغالبت الفلاحين جهدها ثم تملصت منهم ، وارتدت الى حبيبها وصاحت :

ــ اذا كان لابد ان يتعذب ، فيجب ان اشاركه العذاب ! فاسمعوا اذن . الرسالة لم تفقد ! الرســـــالة كانت معى ! تسلمتها اليوم من ارماندو ! وانا .. أنا التى حملتها بنفسى الآن الى برونو ! وبرونو من جماعة أنصار العلم مثلنا ، ولقد فر ! فر من القرية قبل أن يقع بين أيدى رجال محكمةالتفتيش الذين يتعقبونه ! حمل الرسالة وفر بها الى المدينة ! ولسوف تطبع الرسالة هناك ! سوف تطبــــع وتنشر ! اتســـمعون ؟ وهذا .. هو البرهان !

وكشفت عن صدارها واردفت :

ــ قلادة فيها صورة للعالم العظيم جاليليو ، صنعها برونو بنفسه ، ونقش اسمه عليها ، واهدانى اياها الساعة قبــل أن يرحل ! هاهى ذى !!

وانتزعت القلادة من عنقها ، ودفعتها الى المزارع الشيخ . فتراجع الفلاحون ووجموا ، واشرأبوا بأعناقهم الى العمدة وهم يلهثون . فشخص الرجل الى ابنته ، وظل يحدق اليها رازحا جامدا مأخوذا

وفجأة ، أجال الطرف حوله كمعتوه فأبصر العيون مصوبة اليه تدمغه بالجريمة ، وتطوقه بالخزى والعار . فغلى الدم فى عروقه ، ولم يتردد وارتمى بجمعه فى غمرة الفلاحين وصرخ :

ـ ارجموا الشقيين !

فتعالى الهتاف مدويا ، واسرع الفلاحون فشدوا الفتاة الى الشجرة واوثقوها خلف حبيبها ثم انطلقوا فى جنبات الحقل الفسيح يجمعون الاحجار

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الغاشمة الفاصـــلة ، اخترق هدير الجو صوت متهدج ممزق . وشـــوهدت امرأة تعدو ، مهرولة فى ثوبها الابيض الفضفاض ، رافعة ذراعيها كجناحى طائر قدسى ، مقبلة على الجمع اقبال سيل متدفق حى . فاضطرب الفلاحون وذهلوا ، ثم عادوا فالتأموا بعد ان جمعوا قطع الاحجار ، ثم احاطوا بالمرأة ، وتطلعوا اليها وهم يرتجفون ويتمتمون :

ـ الام ماريانا ! الام ماريانا !

وتقدمت الراهبة الجليلة رئيسة الدير ، وامسكت بذراع المزارع الشيخ جايتانو ، وطفقت تهزها هزا عنيفا ، وتصيح :

ـ الرحمة ! الرحمة ! لم يقل الدين بهذا ! حاشا للدين ان يأمر بهذا ! الدين تسامح ومحبة ورحمة ! لا يمكن ان تكون شريعة الغابة هى شريعة الله !

واردفت ملتمسة متوسلة وهى تنحنى على يد الشيخ وتوشك ان تقبلها :

حلوا وثاق الشاب والفتاة ! هبونى حياتهمـــــا وخلاص نفسيهما ! دعونى احملهما الى الدير ! وانا .. انا الـــكفيلة بردهما الى محجة الصواب والهدى !

فأهاب الشيخ بالفلاحين :

ــ لا تصغوا اليها ! انها تخون رسالتها لغرض فى نفسها ! انها تريد انقاذ ابن اخيها !

فأبرقت عينا المرأة وصاحت :

ــ ليس لى اهل ولا ولد ! الله هو اسرتى ! وانا انما اذود عن الدين الذى تريد انت بتعصبك ان تقتله !

وتحولت نحو العمدة واردفت :

ــ الا ترتعد ؟ الا تخجل من نفسك ؟ شعورك بالعار والخوف هو الذى يدفعك الى التضحية بابنتك ، لا اخلاصك للدين ! لن يتم هذا ! لن تقتلوا الابرياء . لن تقتلوا العقل البشرى باسم الله !

فألقى العمدة عليها نظرة من نار ، ودفعها عنه ، وصرخ :

ــ ارجموا الشقيين !

فانهالت الاحجار كالمطر على الشاب والفتاة ، ودوت صرخاتهما فى الجو متفطرة متحشرجة ، ثم خفتت الاصوات ، وتبددت وتلاشت ، وتدلت جثتا الشهيدين على جذع الشجرة، اشبه بفريستين مذبوحتين . فمزقت الراهبة ثوبها ، وعفرت رأسها بالتراب ، وزحفت نحو الجثتين ، والدمع يتفجر من عينيها ، ثم نظرت الى العمدة الجبار ، والمزارع القاسى ، والفلاحين المتعصبين المخبولين ، ولم تستطع الا ان تضرب صدرها بيديها ، وترفع الى السماء بصرها المتضرع المستصرخ، وتردد كلمة السيد المسيح :

ــ اغفر لهم يا ابت .. اغفر لهم فأنهم لايعلمون ماذا يفعلون !

وغابت عن صوابها ، وسقطت على الارض مغشيا عليها !

« تم »

# الفهرس

# وكلاء مجلات دار الهلال

لبنان و الاقليم الشمالى : وكالة دار الهلال – شارع فرنسا
صندوق البريد ٣١٥٧ – بيروت

العراق : السيد محمود حلمى – المكتبة العصرية
ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس – ص . ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد – ص . ب – ٢١

البرازيل : Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

نيجيريا : Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

سيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغافورة Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

# هـذا الكتاب

التاريخ حافل بقصص البطولة والشهامة ، وفى ثناياه نعثر على أحداث المغامرات الوطنيـة والقومية ، الرائعة التى تأخذ بالالبـاب . وفى هذا العدد من كتاب الهلال طائفة مختارة من هذه القصص ، ونخبة ممتـازة من المغامرات الوطنية والقومية جمعها الاستـاذ ابراهيـم المصرى من مختلف المصادر ومتباين الاسفار ، فكان كالصياد الذى يغوص فى غمار اليـم ليأتى من أعماقه بالدر ثم كان كالصـائغ الذى ينكب على دره ، ويصوغ منه مختلف البدائع وهكذا فعل الاستاذ المؤلف فى اختياره لهـذه الاقاصيص ،فانتقاها واختارهاوأحسن الاختيار ثم صاغها فى أسلوبه الشائق الجميل

ولم يقع الاختيار على أمـة دون امة ، ولا شعب دون شعب بل شمل الاختيار الكثير من الامم . ولم يقتصر على عصر دون عصر ، بل تناول متباين العصور . وقد استهل العـدد بقصة رائعة مشوقة عن وثبـة الاسـلام ، وسيحس القارىء وهو يطالع هـذه القصـة المتعة ، بل وما تلاها من القصص ، انه مسوق بقوة دافقة غلابة تدفعه دفعا لمتابعة القـراءة حتى ينتهى من الكتاب